أنا مدينة العلم وعلي بابها

في ظلال نهج البلاغة

محاولة لفهم جديد

شرح

العلامة الشيخ محمد جواد مغنية

الجزء الأول

وثق أصوله وحققه وعلق عليه

سامي الغريري

مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي

www.haydarya.com

في ظلال نهج البلاغة

بحث

محاولة لفهم جديد

شرح

العلامة الشيخ محمد جواد مغنية

الجزء الأول

وثق أصوله وحققه وعلق عليه

سامي الغريري

مؤسسة

دار الكتاب الإسلامي

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم: ٧٦٥٧
التاريخ: ٥/١٠/١٤٢٦

BP
٣٨/٠٢
١٣٦
٣٠٩ف
٠ ق/٤٢٥
١٠ج

النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع حقوق الطبع مسجله و محفوظه للناشر

الكتاب .... فى ظلال نهج البلاغة (ج ١)

المؤلف .... العلامه محمدجواد مغنية رحمه الله

الناشر............................ دارالكتاب الاسلامي

الطبعه .... الاولى ١٤٢٥ هـ. ق / ٢٠٠٥ م

المطبعه............................ مطبعة ستار

عدد النسخ .... (٢٠٠٠) نسخه

الترقيم الدولي للمجموعة: ٦ – ١٠٠ – ٤٦٥ – ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 100 - 6

الترقيم الدولي (ج ١): ٤ – ١٠١ – ٤٦٥ – ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 101 - 4

فِهْرِس الْمَوضُوعَات

مُقَدِّمَة النَّاشِر : ١٥

مُقَدِّمَة عَبْدَه حَسَن الزَّيَات ١٧

الْأَغْرَاض الْإِجْتِمَاعِية فِي نَهْجِ ٱلْبَلاَغَة ١٧

تَمْهِيدٌ ١٧

أَقْسَام الْبَحْث: ١٧

عِلاَقَة الْفَرْد بِرَبِّهِ: ١٩

عِلاَقَة الْإِنْسَان مَعَ نَفْسِه: ٢١

عِلاَقَة الْمَرْء مَع غَيْرِه: ٢٤

سِيَاسَة الدَّوْلَة: ٣٦

خِتَامٌ ٤٨

مُقَدِّمَةُ السَّيِّد الشَّرِيف الرَّضِيّ ٤٩

مُقَدِّمَةُ الشَّارِح ٥٥

التَّأْلِيف ٥٥

هَـذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ٥٦

الدِّين، وٱلْحَيَاة ٥٨
نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٥٩
مَوَاضِيع النَّهْج: ٦١
الْعِلْم، وَالْعَمَل: ٦٣
التَّرْتِيب: ٦٦
خُطَّة الشَّرح: ٦٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١ ـ: ٧١
الْحَمْدُ للهِ...فِقْرَة ١ ـ ٣: ٧١
أَوَّلُ الدِّينِ... فِقْرَة ٤ ـ ٦: ٧٧
نَفْيُ الصِّفات: ٧٨
أَنْشَأَ الْخَلْق... فِقْرَة ٧ ـ ٨: ٨٨
خَلْق ٱلسَّماوَات... فِقْرَة ٩ ـ ١٣: ٩١
حَوْلَ الكَوْن: ٩٣
ٱلْمَلاَئِكَة فِقْرَة ١٤ ـ ١٦: ١٠٤
مُشْكِل وَشَائِك: ١٠٤
خَلق آدَمَ فِقْرَة ١٧ ـ ١٩: ١٠٦
حَوْلَ آدَمَ: ١٠٧
الرُّوح: ١١٤
حَوْلَ ٱلإِنْسَان: ١١٥
آدَمَ، إِبْلِيس فِقْرَة ٢٠ ـ ٢١: ١١٨

الْعِبَر فِي قِصَّة آدَمَ، إِبْلِيسَ: ١٢٢
ألإِنْسَان، وَالْخَطِيئَة: ١٢٥
ٱلْأَنْبِيَاء فِقْرَة ٢٢ ـ ٢٥: ١٢٨
مَاهِي الْفِطْرَة؟ ١٣٢
مُحَمَّدﷺ فِقْرَة ٢٥ ـ ٢٧: ١٣٧
ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم فِقْرَة ٢٨ ـ ٢٩: ١٤١
ٱلْحَجّ فِقْرَة ٣٠ ـ ٣١: ١٤٨
سِرّ ٱلْحَجّ: ١٤٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢ ـ ١٥٣
بَعْدَ ٱنْصِرَافه مِن صِفِّين ١٥٣
لاَ يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ... فقره ١ ـ ٣: ١٥٣
كَلِمَة التَّوْحِيد: ١٥٦
النَّاسُ فِي فِتَنٍ...فِقْرَة ٤ ـ ٥: ١٥٨
أَهْل ٱلْبَيْت:... فِقْرَة ٦: ١٦٠
عِلْمُ ٱلْمَعْصُومعليه السلام: ١٦٢
زَرَعُوا الْفُجُورَ...فِقْرَة ٧ ـ ٨: ١٨٤
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٣ ـ ١٩١
يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ (وَتُعْرَفُ بالشِّقشِقِيَّة)... فِقْرَة ١ .... ١٩١
الصَّبْرَ أَحْجَىٰ...فِقْرَة ٢ ـ ٣: ١٩٦
أُقْرَنُ إِلَىٰ هَذِهِ النَّظَائِرِ!..فِقْرَة ٤: ٢٢١

عَفْطَةُ عَنْزٍ..فِقْرَة ٥ ـ ٦: ٢٣٦
الْغَايَة تُبَرِّر الوَاسِطة: ٢٤٦
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٤ ـ ٢٥١
بِنَا ٱهْتَدَيْتُمْ..فِقْرَة ١: ٢٥١
مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ..فِقْرَة ٢: ٢٥٤
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٥ ـ ٢٥٩
عَلِيٌّ وٱلْمَوْتِ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٢٥٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٦ ـ ٢٦٥
أَضْرِبُ الْعَاصِيَ بالْمُطِيعِ: ٢٦٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٧ ـ ٢٦٩
ٱتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ: ٢٦٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٨ ـ ٢٧١
بَايَعَ بِيَدِهِ: ٢٧١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٩ ـ ٢٧٣
أَرْعَدُوا وَ أَبْرَقُوا: ٢٧٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٠ ـ ٢٧٥
الشَّيْطَانُ جَمَعَ حِزْبَهُ: ٢٧٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١١ ـ ٢٧٩
أَعِرِ اللهَ جُمْجُمَتَكَ: ٢٧٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٢ ـ ٢٨٣

أَهَوَىٰ أَخِيكَ مَعَنَا: ٢٨٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٣ ـ ٢٨٥
أَتْبَاعُ الْبَهِيمَة: ٢٨٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٤ ـ ٢٨٩
خَفَّتْ عُقُولُكُمْ: ٢٨٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٥ ـ ٢٩١
مِنْ أَينَّ لَكَ هَذَا؟ ٢٩١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٦ ـ ٢٩٧
حَجَزَتْهُ التَّقْوَىٰ...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٢٩٧
خَابَ مَنِ ٱفْتَرىٰ...فِقْرَة ٣ ـ ٥: ٣٠٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٧ ـ ٣١١
ضَالٌّ مُضِلٌّ...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣١١
يَعِيشُونَ جُهَّالاً، وَيَمُوتُونَ ضُلَّالاً...فِقْرَة ٣ ـ ٥: ٣١٨
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٨ ـ ٣٢٣
ٱلْخُطْبَةُ ـ ١٩ ـ ٣٢٧
عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ، وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ: ٣٢٧
الأَشْعَث بن قَيْس: ٣٢٨
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٠ ـ ٣٣٥
قَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ الْحِجَابُ: ٣٣٥
لِلمِنْبَرِ ـ الدُّنْيَا جَنَازَة: ٣٣٦

ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢١ ـ ٣٣٩
تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا: ٣٣٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٢ ـ ٣٤١
وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللهِ... فِقْرَة ١ ـ ٣: ٣٤١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٣ ـ ٣٤٩
اَعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاءٍ، وَلاَ سُمْعَةٍ،..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣٤٩
لِلمِنْبَرِ ـ فِي ٱلْرِّزْقِ: ٣٥١
الْقَرَابَة..فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٣٥٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٤ ـ ٣٥٩
فِرُّوا إِلَى اللهِ: ٣٥٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٥ ـ ٣٦١
مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي...فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣٦١
لِلمِنْبَرِ ـ عَلِيٌّ وٱلْخِلاَفَة: ٣٦٢
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٦ ـ ٣٧١
فَلاَ ظَفِرَتْ يَدُ الْبَائِعِ...فِقْرَة ١ ـ ٣: ٣٧١
لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ الدِّين: ٣٧٢
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٧ ـ ٣٧٩
الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْجَنَّة... فِقْرَة ١ ـ ٣: ٣٧٩
يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ...فِقْرَة ٤ ـ ٦: ٣٨٦
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٢٨ ـ ٣٩٣

مَنْ لاَ يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٣٩٣
لِلمِنْبَرِ ـ بَيْنَ الدُّنْيَا والْآخِرَة: ٣٩٨
اَلْخُطْبَةُ ـ ٢٩ ـ ٤٠١
لاَ يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلاَّ بِالْجِدِّ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٤٠١
اَلْخُطْبَةُ ـ ٣٠ ـ ٤٠٥
اَسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ: ٤٠٥
اَلْخُطْبَةُ ـ ٣١ ـ ٤٠٩
طَلْحَة والزُّبَيْر: ٤٠٩
اَلْخُطْبَةُ ـ ٣٢ ـ ٤١٧
النَّاسُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ..فِقْرَة ١ ـ ٤: ٤١٧
لِلمِنْبَرِ ـ المُرَائِي وَالمُومِس: ٤٢١
بَقِيَ رِجَالٌ..فِقْرَة ٤ ـ ٥: ٤٢٣
اَلْخُطْبَةُ ـ ٣٣ ـ ٤٢٧
مَا عَجَزْتُ، وَلاَ جَبُنْتُ..فِقْرَة ١ ـ ٢: ٤٢٧
اَلْخُطْبَةُ ـ ٣٤ ـ ٤٣٥
غُلِبَ وَاللهِ الْمُتَخَاذِلُونَ... ١ ـ ٢: ٤٣٥
فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ..فِقْرَة ٣ ـ ٤: ٤٣٩
اَلْخُطْبَةُ ـ ٣٥ ـ ٤٤٣
لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ! ٤٤٣
اَلْخُطْبَةُ ـ ٣٦ ـ ٤٤٩

أَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ: ٤٤٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٣٧ ـ ٤٥٧
ٱلْقُوَّة لِلْحَقِّ: فِقْرَة ١ ـ ٢: ٤٥٧
لِلمِنْبَرِ ـ شَرِيعَة الله، وَشَرِيعَة الغَاب: ٤٦٢
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٣٨ ـ ٤٦٧
ٱلشُّبْهَةُ: ٤٦٧
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٣٩ ـ ٤٧١
لاَ دِينٌ وَلاَ حَمِيَّةَ: ٤٧١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٤٠ ـ ٤٧٧
كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ: ٤٧٧
مَوْقِف الإِمَام مِن الْخَوَارِج: ٤٧٨
الفَوْضَوِيّة، وَالسُّلطَة: ٤٨٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٤١ ـ ٤٨٩
الْوَفَاءُ: ٤٨٩
لِلمِنْبَرِ ـ عَلِيٌّ وَالسِّيَاسَة: ٤٩١
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٤٢ ـ ٤٩٥
الْهَوَىٰ وَطُولُ الأَمَلِ: ٤٩٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٤٣ ـ ٤٩٩
وَأَوْجَدَ النَّاسَ فَقَالُوا: ٤٩٩
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٤٤ ـ ٥٠٣

قَبَّحَ اللهُ مَصْقَلَةَ: ٥٠٣
اَلْخُطْبَةُ ـ ٤٥ ـ ٥٠٧
الدُّنْيا حُلْوَةٌ خَضْرَاءُ: ٥٠٧
لِلمِنْبَرِ ـ الدُّنْيَا، واَلْكَفَاف: ٥٠٩
اَلْخُطْبَةُ ـ ٤٦ ـ ٥١١
أَللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ: ٥١١
اَلْخُطْبَةُ ـ ٤٧ ـ ٥١٥
اَلْكُوفَةُ: ٥١٥
لْخُطْبَةُ ـ ٤٨ ـ ٥١٧
بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي: ٥١٧
اَلْخُطْبَةُ ـ ٤٩ ـ ٥٢١
تَشْهَدُ لله أَعْلَامُ الْوُجُودِ: ٥٢١
لِلمِنْبَرِ ـ فِي عَظَمَتِهِ تَعَالَىٰ: ٥٢٢
اَلْخُطْبَةُ ـ ٥٠ ـ ٥٢٧
اَلْحَقّ، واَلْبَاطِل: ٥٢٧
اَلْخُطْبَةُ ـ ٥١ ـ ٥٣٥
اَلْحَيَاة مَع الذُّلِّ مَوْت: ٥٣٥
اَلْخُطْبَةُ ـ ٥٢ ـ ٥٣٩
أَزْمِعُوا الرَّحِيلَ... فِقْرَة ١ ـ ٣: ٥٣٩
لِلمِنْبَرِ ـ فِي البَذْلِ، والشُّعُور بالمُطْلَق: ٥٤٢

ٱلْخُطْبَةُ ـ ٥٣ ـ ٥٤٥
الأُضْحِيَّة: ٥٤٥
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٥٤ ـ ٥٤٩
لاَ يَسَعُنِي إلاَّ قِتَالُهُمْ: ٥٤٩
لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ ٱلْبَيعة لِلْإِمَامِ: ٥٥٠
ٱلْخُطْبَةُ ـ ٥٥ ـ ٥٥٥
دَخَلَ إِلَى ٱلْمَوْتِ أَو خَرَجَ إِلَيْهِ: ٥٥٥
فَهْرَس الْمُوضُوعَات ٥

مقدّمة النّاشر:

بِٱسْمِكَ أَللَّهُمَّ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَىٰ خَاتِمِ أَنْبِيَائِكَ، وَسَيِّدِ أَحِبَّائِكَ وَأَصْفِيَائِكَ، مُحَمَّدٍ وَآلِهِ عِتْرَةِ الْهُدَىٰ، وَالتُّقَىٰ، أَلْمُتَوَاصِينَ بِالْحَقِّ، بَلْ هُمْ أَلْحَقّ، لاَ يَحِيدُونَ عَنْ نَهْجِهِ ٱللَّحْبِ، أَنْ تَجْعَلَ عَقِيدَتِي خَالِصَةً لَكَ وَمِنْ أَجْلِكَ.

وَبَعْدُ، فَنَهْج ٱلْبَلاَغَة مِمَّا لاَ يَكَاد يَخْتَلف فِيهِ ٱثنَان، أَو يَحْتَاج فِي إِثبَاته إِلىٰ بُرهَان، مِمَّا لهُ مِن جَلاَل الشَّأن وَعُلو القَدر مَا يَدعُو إِلىٰ العنَايَة الكَامِلَة بِهِ، وَالبَحث وَالتَّدقِيق عَنْهُ، وَهُو كَالشَّمس الطَّالِعَة فِي رَابِعَة النَّهَار، فِي الظّهُور وَعُلو الشَّأن وَالقَدَر، وَٱرْتفَاع المَحل، فَيَقبُح مِن العَاقِل البَصِير سُؤال مَا هِي الشَّمس الطَّالِعَة، وَهِي مِمَّا يُقْتَبس مِن ٱشرَاق نُورها كَافَة الكَائِنَات فِي البَر وَالبَحر، كَذٰلِكَ نَهْج ٱلْبَلاَغَة قَد طُبِّقَت مَعرُوفِيَته الشَّرق وَالغَرب، وَنَشر خَبَره فِي ٱسماع الخَافقِين، فَهُو أَخ الْقُرْآن الكَرِيم فِي التَّبلِيغ، وَالتَّعلِيم، وَفِيهِ دَوَاء كُلّ عَلِيلٍ وَسَقِيم، غَير أَنَّ الْقُرْآن أَنْزَله حَامل الوَحي الإِلٰهي عَلىٰ قَلْب النَّبيّ الأَمِين ﷺ، وَالدَّاعي إِلىٰ أقوَم طَرِيق، وَالنَّهج أَنْشَأه بَاب مَدِينَة عِلْم النَّبيّ ﷺ، وَحَامِل وَصِّيته، وَسيِّد المُوحدِين، وَإِمَام المُتقِين عَليّ أَمِير الْمُؤْمِنِين ﷺ. وَقَد قِيل فِي النَّهج مَا قِيل:

نَهْج ٱلْبَلاَغَة نَهْج العِلم وَالعَمَل   فَٱسْلِكهُ يَا صَاح تَبْلُغ غَايَة الأَمَل

وَقِيل فِيهِ أيضاً:

كَـلاَمُ عَـلِيٍّ كَـلاَم عَـلِيٌّ وَمَا قَالَه المُرْتَضىٰ مُـرْتَضىٰ

إِذن كَما قَالُوا فِي كلاَم عَليّ: «هُو دُون كَلاَم الخَالق وَفَوق كَلاَم المَخْلُوق».

لذَا تَشْكُر دَار الكِتَاب الْإِسْلاَمي الأُستَاذ سَامي الغُريري (الغرَّاوي) عَـلىٰ مَـا بَذَلهُ مِن جُهدٍ فِي تَوْثِيقٍ، وَتَحْقِيقٍ، وَتَعْلِّيقٍ عَلىٰ كتَاب «فِي ظِـلاَلِ نَهْـجِ ٱلْـبَلاَغَة، شَـرْح العَلاّمَة الشّيخ مُحَمَّد جَوَاد مُغْنِيّة»، لِكَي يُقَدِّمهُ بِحُلَّتِهِ القَشِيبَة لِلقُرَاء.

المقدمة

بقلم عبده حسن الزيات

الأغراض الإجتماعية في نهج البلاغة

تَمْهِيدٌ

إنَّ شَخصِية الإمَام عَليّ مِنْ أَقوىٰ الشَّخصِيات الَّتي عَرفَها التَّأريخ، وَلستُ بِسَبِيل أنْ أُفصل مَا فِيْهَا مِن نُبلٍ، وقُوَّةٍ، وخصَائِص تَستَهوي الأَفْئِدَة، وَإنَّمَا سَبِيلي أنْ أَبْحَث جَانِباً مِن جوَانِب هَذِه الشَّخْصِيَة الرَّائِعَة المُسْتَفِيضَة. هُو جَانب النَّظرَة الإجْتِمَاعِية فِيْهَا. تِلكَ النَّظرَة الَّتي أَوْدَعها نَهج ٱلْبَلاَغَة، وَالَّتي بَلغَت مِن العُمق، وَالْبَيَان دَرجَة أَغرىٰ سمُوهَا بَعْض أشيَاع الأُمُويين، وَفَرِيقاً مِن البَاحثِين، إلىٰ نَفيهَا عَنْهُ، وَالذِّهَاب إِلىٰ أَنَّهَا هَدِية الخُلُود، صَاغهَا لِلجدِّ حَفِيدَه الشَّرِيف الرَّضِيّ، الشَّاعِر المَوْهُوب.

أَقْسَام الْبَحْث:

غَيْر أنَّ هَذِه الآرَاء كَثِيرَة مَايَتَكَرَّر الرَّأي الوَاحد أَكْثَر مِن مَرّة، وَلَيْسَ «نَهج

ٱلْبَلاَغَة» بِقِسْمِ تَقْسِيمها يَفْصل كُلّ مَجْمُوعة مُتشَابِهة مِن الآرَاء عمّا عَدَاها، وَهَذَا هُو مَوْطِن الصُّعُوبَة، وَلَكِنَّهُ أَيضاً مُهمَة البَاحِث، وَعَلَىٰ هَذَا فَسَنُقَسم الآرَاء إلىٰ:

١ ـ عِلاَقَة ٱلإِنْسَان بِرَبِّه.

٢ ـ عِلاَقَة ٱلإِنْسَان بنَفْسِهِ.

٣ ـ عِلاَقَة ٱلإِنْسَان بِغَيرِهِ.

٤ ـ ثُمَّ سِيَاسَة الْدَّوْلَة وَهُو بَاب مُتشَعب كَما سَنَرَىٰ.

وَقَد يَعْتَرِض مُعتَرِض بِأَنَّ القِسمِين الأَوَّلِين البَاحِثِين فِي عِلاَقَة ٱلإِنْسَان بِـرَبِّه وعَلاَقته بنَفْسِهِ يَجب أَنْ يُستَبعدا مِن بَحثٍ مَقْصُور عَلَىٰ الأَغْرَاض الإجْتماعية أي عَلَىٰ مَا يقوْم بَيْنَ النَّاس مِن مُعَاملاَت لَيْسَ مِنْهَا، مُـعَاملاَت الْـفَرْد لِـلخَالِق، وَلاَ لِنَفْسِه الَّتي بَيْنَ جَنْبَيْه، وَلَكنَّ هَذَا الإعْـتِرَاض غَـيْر وَجِـيه، إلا بِـالنِّسبَة لِـلآرَاء الميتَافِيزِيقِية ٱلبَحْتَة، وَالَّتي بَحَث فِيهَا الإِمَام بَحثاً مُطولاً عَن مَنْشَأ الكَوْن، وَعِلاَقَة الأَجْرَام بَعْضهَا بِبَعْض، وكَيْفِيَّة خَلق ٱلْمَلاَئِكَة، وَالبَشَر، تِلك الْآرَاء الَّتي وَجَدْنَاها خَارِجَة عَن مَوْضُوعنا فَٱستَبْعَدْنَاها. أَمَّا عِلاَقَة ٱلإِنْسَان بِرَبِّه، فَالمَقصُود بِهَا هُنا، الوَصَايا الَّتي وَجهها الإِمَام إلىٰ مُجْتَمعِهِ لِيَعمل بِهَا فِيما يَخْتَص بِالْخَالِق الجَلِيل، وَبِذَلِكَ تَكُون أَعْمالاً بَشرِية، إنْ لَمْ تَكُن إجْتمَاعِية بِالْمَعْنَىٰ العِلمي الحَرفِي، فَهِيَ ٱجْتمَاعيَة لِأَنَّها مَطلُوب القِيَام بِهَا مِن الْجَماعَة وَلِأَنَّهَا مَظْهَر ٱجْتمَاعِي، وَمُـؤثِر قَـوّي فِي السُّـلُوك الاجْتمَاعي الْبَحْث أي فِي سلُوك الأَفرَاد أزَاء بَعْضهم بَعْضاً. أَمَّا فِيما يَخْتَص بِـعِلاَقَة الإِنْسَان مَع نَفْسه فَالمَسأَلة أَوْضَح، لأنَّا بِتَدرِيب أَنفُسَنا عَلَىٰ مَنْهَج خَاص نَخلقها خَلقاً جَدِيداً، وَهَذَا الخَلق مُؤثر أَبْعَد التَّأثِير فِي نَوْع تَعَاملنا مَـع الآخَـرِين، وَلأَنَّ العَدوىٰ مَوجُودة فِي الْخَيْر، وَفِي الشَّرّ، فَكُوننا عَلَىٰ هَذِه الحَال، أو تِلكَ إغْرَاء لِمَن

هُم دُونَنا ، وَلِمَن هُم بِمَعرَض التَّأثُر بِمثَالنا عَلَىٰ أنْ يَحْتَذوا ذَلِكَ المِثَال ، وَلأنَـنا نَحْـنُ مُكونُو المُجْتَمع ، وَكَمَا نكُون يَكُون .

هَذَا إِلَىٰ أنَّ هَذِين القِسْمَين شَيء قَلِيل بِالنِّسبَة لِلقِسمين الآخِرين .

عِلاَقَة الْفَرْد بِرَبِّه

ـ ١ ـ

ضَمَّ نَهْج ٱلْبَلاَغَة بَيْنَ دَفَّتيه صَفْحَات نَادِرة فِي تَمْجِيد الله ، وَتَحلِيل صِفَاته ، وَكَثُر فِيهِ النُّصح بِإلقَاء النَّفس إلىٰ الله كَمَا جَاء فِي وَصِيَّةِ الإمَام لابْنِهِ ، وَبِشُكره عَلَىٰ نِعْمَائه وَعَدمِ الاغْتِرَار بِمَا يُوفق إِلَيْهِ مِن النَّجَاح «... وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ»[١] . وَأَوصىٰ ٱبن أَبِي بَكْر بِقَوْله : «... وَلاَ تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، فَإنَّ فِي اللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ...»[٢] . وَبِمثل هَذَا كَانَ يفتتح خطَابَاته إِلىٰ وُلاَتِه ، وقُضَاتِه : ولنَسْتَمع إِلىٰ قَوْله حِين بَعث بَعْض عُمَّالِه عَلَىٰ الصَّدَقَة : «أَمَرَهُ بِتَقْوَىٰ اللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ ، وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ ، حَـيْثُ لاَ شَهِـيدَ غَيْرُهُ ، وَ لاَ وَكِيلَ دُونَهُ ، وَأَمَرَهُ أَلاَّ يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ فِيمَا ظَهَرَ ، فَيُخَالِفَ إِلَىٰ غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ»[٣] ، وَلَيس غَرِيباً أَنْ يُوصِي بِمَا أَوصىٰ بِه الْقُرْآن مِن الرُّجُـوع إِلَـيْهِ وإِلىٰ الحَدِيث عِند إلتبَاس الأُمُور فَيَقول : «وَٱرْدُدْ إِلَىٰ اللهِ ، وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ

(١) أُنظر ، نَهج ٱلْبَلاَغَة : مِن كتَابٍ لهُ عليه السلام تَحت رَقم (٣١).

(٢) أُنظر ، نَهج ٱلْبَلاَغَة : مِن كتَابٍ له عليه السلام تَحت رَقم (٢٧).

(٣) أُنظر ، نَهج ٱلْبَلاَغَة : مِن كتَابٍ له عليه السلام تَحت رَقم (٢٦).

الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الأُمُور»[1]. وَلَيس غَرِيبَاً أَيضَاً أَنْ يَعْتَبر الشّكْوىٰ مِن نوَائِب الزّمَان شَكوىٰ مِن الله فَيقول: «.... وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ، فَقَدْ أَصْبَحَ يَشْكُو رَبَّهُ»[2].

وَقَد ظَهرَت عَقيدته الرّاسِخة فِي الله، وَدَعْوَته إِلىٰ نُصرَة دِينه فِي قَوْله: «لاَ تَجْعَلَنَّ أَكْثَرَ شُغُلِكَ بِأَهْلِكَ، وَوَلَدِكَ، فَإِنْ يَكُنْ أَهْلُكَ، وَوَلَدُكَ أَوْلِيَاءَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَوْلِيَاءَهُ، وَإِنْ يَكُونُوا أَعْدَاءَ اللهِ، فَمَا هَمُّكَ، وَشُغُلُكَ بِأَعْدَاءِ اللهِ»[3].

عَلىٰ أَنَّ نَغْمته الزّاهِدة لاَ تفتأ تَتكَرّر فَهُو يَقول لنَا هُنا: «وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ اللهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلىٰ مَا فَاتَهُ»[4]. وَيَقول لنَا هُنَاك: «أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ»[5]، وَهَذَا قَول حَكِيم لأَنّه لاَ يَدعو إِلىٰ الكَسَل، وَٱنتظَار الرِّزْق مِن الله، بَل يَقول: إِنَّ السَّعي يُزِيد الرِّزْق وَلَكن يَجب عَلىٰ الْمَرْء أَلاَّ يَشْغَل بِجَمِيع جَوَارِحه بِالسَّعي وَرَاء الدُّنْيا فَيَغفل عَن الْعَمَل الصَّالح.

سَبَق إِيرَاد قَوْله عليه السلام: «... وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ، فَقَدْ أَصْبَحَ يَشْكُو رَبَّهُ»[6].

وَالآن نَضُمّ إِلىٰ ذَلِكَ قَوْله: «وَلاَ يَحْمَدْ حَامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلاَ يَلُمْ لاَئِمٌ إِلَّا نَفْسَهُ»[7].

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كتَابٍ لهُ عليه السلام تحت رَقم (٥٣).

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٢٢٨).

(٣) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣٥٢).

(٤) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٣٤٩).

(٥) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كتَابٍ لهُ عليه السلام تحت رَقم (٣١)، وَٱلحِكْمَة (٣٧٩).

(٦) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٢٢٨).

(٧) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كتَابٍ لهُ عليه السلام تحت رَقم (١٦).

إنَّ النَّص الْأَوَّل يَدعُونا إِلىٰ عَدَم شَكوىٰ الزَّمَان، لأَنَّ الزَّمَان يَجرِي كَمَا قَضىٰ الله، وَقدَّر فَثُورتنا عَلَيْهِ لَيْسَت إلا ثَورَة عَلَىٰ قَضَاء الله، وَقَدره، أَمَّا النَّص الثَّانِي فَإِنَّه يَدعُونا إِلىٰ أنْ نَعْتَقد أنَّ الْخَيْرَ مِن الله، وَأنَّ الشَّرّ مِن أَنفُسِنَا أَي أنَّ الله أَعْطَانا عَقلاً نُمَيز بِه بَيْنَ الطَّرِيقِين كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[1] فَإِنْ سَلكنا طَرِيق الشَّرّ فَلاَ نَلُم إِلاَّ أَنفُسَنَا. وَإِنْ سَلَكنا طَرِيق الْخَيْرِ فَلا نَحمد إِلا الله، لأَنَّه هُو الَّذي أَرْشَدنا.

عِلاَقَة الإِنْسَان مَعَ نَفْسِه

ـ ٢ ـ

آ ـ قَالَ فِي وَصِيَّتِهِ إِلىٰ ٱبن أَبِي بَكْر: «... فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَىٰ نَفْسِكَ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ»[2]. أي أنْ تُخَالِف هَواك، وَتُحكِم عَقْلك. ثُمّ قَالَ فِي مَوضع آخر: «مَن كَان لَهُ مِن نَفْسِهِ وَاعِظٌ، كَان عَلَيْهِ مِن اللهِ حَافِظٌ»[3]، وَأَوضَح ذَلِكَ بِموضع ثَالِث بِقَوْله: «مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَىٰ نَفْسِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ، وَزَاجِرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لاَ زَاجِرٌ، وَ لاَ وَاعِظٌ»[4].

لَقَد عَرَف الإِمَام عَلِيّ أَنَّ بِالنَّفس شَرّ، وَنوَازِع خَير فَدعَا إِلىٰ التَّشدِيد عَلَيْهَا حِين تَأمر بِالسُّوء، وَٱستعَان عَلَيْهَا بِاللهِ فِي قَوْله: «وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ نَفْسِي،

(١) ٱلْبَلَدِ: ١٠.
(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتَابٍ لَهُ عليه السلام تَحت رَقم (٢٧).
(٣) أُنظر، عُيُون الحِكَم وَالموَاعظ: ٱلحِكْمَة (٤٣٣)، بِحَار الأَنْوَار: ٧٥/٤٥٤.
(٤) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتَابٍ لَهُ عليه السلام تَحت رَقم (٩٠).

وَأَنْفُسِكُمْ »[١]. ثُمَّ ٱعْتَمد عَلَىٰ الضَّمِير ٱلْيَقظ، وَأَهاب بِنا أَنْ نُقوِّيه فإنَّه عَاصمنا، ومِنْهُ المُزْدَجر. وَقَد زَاد مِن عنَايته بِالتّدرِيب النَّفسي أنَّه ٱعْتَقد أَنَّ الطِّبَاع كَسبية فقَالَ: «إِنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيماً فَتحَلَّمْ، فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ »[٢]. وَأَنَّه ٱعْتَقد أَنَّ الإِنْسَان مَفْطُور عَلَىٰ الْخَيْر، وَأَنَّ الْخَيْرَ فِي دَعوَته لِفِطْرَته فقَالَ: «فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ »[٣] فَمهمَة ٱلْأَنْبِيَاء عِندَه ٱعَادتنا إِلىٰ الْفِطْرَة الَّتِي فَطَرنا الله عَلَيْهَا.

ب ـ وَنُلاَحظ أَنَّه أَكْثَر مِن النَّهي عَنْ «الْأَمَل» لاَ الْأَمَل الَّذي نَعرِفه، وَالَّذي حَثَّ الله عَلَيْهِ، بَل أَوْجَبه فِي ذِكر أَقْوَاله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[٤]، وَإِنَّما الْأَمَل بِمَعْنَىٰ الاِعْتِمَاد عَلَىٰ طُول الْأَجَل، وَٱرتكَاب الْمُحَرَّمَات، وَإِرجَاء الْفَرَائِض ٱعتِمَاداً عَلَىٰ ذَلِكَ، وَهَذَا رَأي نُشارِكه كُلّنا فِيهِ فَإِنّ كُلّ مَا بِالعَالَم يَمر فِي سُرْعَةٍ وَثَّابة، وَما أَنْصَف، وَلاَ أَصْحَاب مَن يُبذِّر فِي صِحتهِ، أَو مَاله ٱعتِمَاداً عَلَىٰ وَفرَة صَحْته، أَو مَاله، وَلاَ مَن يُؤجل الْعَمَل ٱنتظَاراً لِلغَد. فَإِنَّ الغَد يَمّر، وَنَمّر مَعْه، وَإِذَنْ فَمَا أَحرَانا أَنْ نَعْمل بِنَصِيحة الإِمَام القَائِلة: «وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ »[٥]، وَأَنْ نَتدَبر قَوْله: «وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ ٱثْنَتَانِ: ٱتِّبَاعُ الْهَوَىٰ، وَطُولُ الْأَمَلِ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ أَنْفُسَكُمْ بِهِ غَداً»[٦].

---

(١) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٣٣).
(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٢٠٧).
(٣) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١).
(٤) يُوسُف: ٨٧.
(٥) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٦٤).
(٦) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٢٨).

ج - لَمْ أكد أبداً الكتابة فِي عِلاَقَة الإنْسَان بِرَبِّه حَتَّىٰ شَعرتُ بِنحُولة الفَاصل بَيْنَ هَذَا القسِمِ وَالقسمِين الأخيرِين ، وَهَا أَنْذَا الآنْ أشعر بِهَذِه النّحُولة أيضاً : فَهَا هِي حِكَم وَوَصَايا تَدخل فِي سلُوك المَرْء مَع نَفسه ، وَتَدخُل فِي سلُوكِهِ مَع غَيْره كقَوْله : «قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ ، وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ ، وَالْفُرْصَةُ تَمُرّ مَرَّ السَّحَابِ ، فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الخَيْرِ»[1] . وَمِثل قَوْله : «أمْشِ بِدَائِكَ مَا مَشَىٰ بِكَ»[2] وَقَوْله : «الصَّبْرُ صَبْرَانِ : صَبْرٌ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُ ، وَصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ»[3] . وَقَوْله البَلِيغ : «أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ»[4] . ونَهيه : «وَإِيَّاكَ ، وَالإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا ، وَحُبَّ الإِطْرَاءِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ»[5] ، فإنَّ دَعوته إلىٰ الشَّجَاعَة ، وَالجُرأة وَانتهَاز فُرص الخَيْر وَتحمُل الدَّاء ، وَعَدم الاستنَامة إلَيْه ، وَالصَبْر بنوعيه ، وَإخفَاء الزُّهْد أي الزُّهْد فِي سَبِيل التَّظاهر ، وَالزُّهْد بِالْقَلْب مَع مواصلة الْعَمَل ، وَالجِهَاد ، ونَهيه عَن الاعْجَاب بِالنَّفس ، وَحُبّ الثَّنَاء ، كُلّ هَذِه العهُود يَتنَاولها المَرْء بَيْنَه ، وبَيْنَ نَفْسه ، وبَيْنَ غَيْره . أَمَّا أَمْره : «وَلاَ تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلاَّ بِشَرْطٍ وَثِيقٍ»[6] ، أي لا تُعرّض نَفْسَك لِلهَلاَك إلاّ أنْ تَقضي غَايَة سَامِية ، وَضَرورة لاَزِمَة ، فإنَّه أَدْخل فِي نطَاق المُعَامَلَة النَّفسية .

---

(١) أنظر ، نَهج البَلاَغَة : الحِكْمَة (٢١).

(٢) أنظر ، نَهج البَلاَغَة : الحِكْمَة (٢٧).

(٣) أنظر ، نَهج البَلاَغَة : الحِكْمَة (٥٥).

(٤) أنظر ، نَهج البَلاَغَة : الحِكْمَة (٢٨).

(٥) أنظر ، نَهج البَلاَغَة : مِن كتابٍ لهُ عليه السلام تَحت رَقم (٥٠).

(٦) أنظر ، نَهج البَلاَغَة : مِن كتابٍ لهُ عليه السلام تَحت رَقم (٦٩).

عِلاَقَة الْمَرْء مَع غَيْره

ـ ٣ ـ

آ ـ إِذَا كَان عَليّ عليه السلام، قَد وضَع لنَا هَذِه القَاعِدة النَّبِيلَة فِي قِيَاس الفَضِيلة، وَالْخَيْر وَهِي أَلاَّ نَعْمَل فِي السِّرّ مَا نَخْجَل مِن عَمله فِي العَلن حَيْث قَالَ: «وَٱحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ، وَيُسْتَحَىٰ مِنْهُ فِي الْعَلاَنِيَةِ»[1]، فإِنَّه قَد حَبَانا أيضاً بِمِقْيَاس نَبِيل لأَعْمَالنا تجَاه الآخرين فِي قَوْله الخَالد: «يَا بُنَيَّ ٱجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ، وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَ ٱكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ»[2]، وَلَو ٱتبَع البَشر هَاتِين النَّصِيحتِين لاِمْتَنَع الظُّلم، وَالشَّرّ جَمِيعاً، غَيْر أنَّه يُمكن أنْ نُلاحظ مُلاَحظَة متوَاضِعة عَلىٰ النَّصِيحة الأُولَىٰ: تِلك أَنَّ نَظرَة المُجْتَمع قَد تَتَغير نَحو بَعْض الفَضَائِل، أَو الرَّذَائِل، فإِذَا كَان مَا يَسْتَحي مِن عَمله يُعمل عَلَىٰ رُؤُوس الأَشهَاد فَهل الفَضَائِل خَالِدة، أَم هِي يَجري عَلَيْهَا نَامُوس التَّطور، وَهَل يَطِيع نَصِيحَة الإِمَام أَم لاَ يُطِيعهَا رَجُل يَحْتَسِي الْخَمْرَ عَلَىٰ قَارِعَة الطَّرِيق غَيْر خَجِلٍ لكَثرَة مَن يَحْتسُونَها؟ أَمَّا أَنا فأَمِيل إِلَىٰ القَوْل بِأَنَّ الفَضَائِل خَالدَة، وَأَنَّ الْكَذِب لَنْ يَكُون فَضِيلة لأَنَّ النَّاس يَكْذِبُون، بَل الفَضِيلة فَضِيلة، وَالرَّذِيلة رَذِيلة، وَلَنْ يَزَال رَاكِبهَا يَشعر فِي نَفْسِهِ بِالتَّضاؤل، وَبنَوْع مِن الْحَيَاءِ، لاَ حِين يُلقىٰ أَمثَاله وَلكنْ حِين يَلقىٰ الأَخْيَار.

وَمَا لِي أَذْهب بَعِيداً؟ إِنَّ الإِمَام يُفسر لنَا ذَلِكَ فِي مَوضع آخر حَيْث يَقول فِي بيَانٍ شَافٍ: «أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا ٱسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلَ، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً

(١) أُنظر. نَهْج ٱلبَلاَغَة: مِن كتابٍ لَهُ عليه السلام تحت رَقم (٦٩).
(٢) أُنظر. نَهْج ٱلبَلاَغَة: مِن وَصِيَّة لَهُ عليه السلام تحت رَقم (٣١).

أَوَّل، وَأَنَّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ لاَ يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ الحَلاَلَ مَا أَحَلَّ اللهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللهُ»[1].

ب ـ وَإِذا ذكرنا تَطور الفَضَائِل، وَخُلودهَا فَلنستَعرض رَأي الإِمَام القَائِل: «وَاقْدَمُوا عَلَىٰ اللهِ مَظْلُومِينَ، وَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ»[2]. إِنَّ مِن النَّاس مَن لاَ يُرِيد أَنْ يُسَلِّم بِأَنَّ الإِنْظلاَم فَضِيلَة.

وَمَن لَم يَذُد عَن حَوضِهِ بِسَلاحِهِ يُهَدِم وَمَن لاَ يَظلم النَّاس يُظْلَمِ[3]

وَرُبَّمَا مَالَ أَيضاً إِلىٰ أَنْ يَقول مَع هِيجل: «إِنْ ظَفر شَعب هُو البُرهَان الْقَوِيّ عَلَىٰ حقُوقه»[4]. غَيْر أَنَّ عِبَارَة الإِمَام إِنَّمَا يُراد بِهَا مُبالغَة فِي التَّنفِير مِن الظُّلمِ.

ج ـ وَلَقَد دَعَا الإِمَام إِلىٰ التَّعَاون دَعْوَة صَرِيحَة فِي عِبارَةٍ نَبِيلَة حَيْث قَالَ يُودع جُنوداً ذَاهِبِين لِلقتَال: «وَأَيُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رَبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَرَأَىٰ مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ»[5]. وَمَا أَوصَىٰ بِهِ الإِمَام جُنُود جَيْشَه يَصح أَنْ يَسْتَوصي بِه جنُود الْحَيَاة. إِنَّ الْغَنِيّ لَو ذَبَّ عَن الْفَقِير بِفَضل مَاله الَّذي فُضل بِهِ عَليهِ، وَالعَالِم لَو ذَبَّ عَن الْجَاهِل بِفَضل عِلمه، وَالحَكِيم لَو أَرشد السَّفِيه بِفَضل حِكْمَته، لَو كَان هَذَا سَبِيل النَّاس فِي الْحَيَاة، لاَنْتَصر جَيْشَهُم

(١) أُنظر، نَهج الْبَلاَغَة: الْخُطْبَة (١٧٦).

(٢) أُنظر، نَهج الْبَلاَغَة: الْخُطْبَة (١٥١).

(٣) يُنسَب هَذَا الْبَيت إِلىٰ الشَّاعر الْمَعْرُوف وَصَاحب المُعلقَة زُهير بن أَبي سُلمىٰ، كَمَا جَاء فِي دِيوَانه: ٣٠، وَشَرح نَهْج الْبَلاَغَة لاِبْن أَبي الْحَدِيد: ٢٠/١٥٨، الغَرِيب لِلخطَابِي: ٢/١٤٧.

(٤) أُنظر، مَوسُوعة الفَلْسَفَة لِعبدالرَّحْمَان بَدَوِيّ: ٢/١٧٤.

(٥) أُنظر، نَهج الْبَلاَغَة: مِن كتابٍ لهُ عليه السلام تَحت رَقم (١٢٣).

عَلَىٰ آلاَمِ ٱلْحَيَاة القَابِلة للانْهِزَام. إنَّ الإِمَام لاَ يزَال يَلح فِي دَعوَته إِلىٰ التَّعَاون، وَإِنَّه ليسُوقها هُنا فِي مَنطقٍ وَاضحٍ، وَحُجّة لاَزمَة: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لاَ يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ عَنْ عِتْرَتِهِ، وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ، وَأَلْسِنَتِهِمْ»(١)، «أَلاَ لاَ يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَىٰ بِهَا الْخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لاَ يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ وَ لاَ يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ، وَ مَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ، فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ، وَ تُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ»(٢). إنَّ الإِنْسَان مَدنِي بِالطَّبع، أَو هُو كَمَا وَصَفه فَيلسُوف اليُونَان «حَيوان إجْتِمَاعي»(٣)، وَلِهَذا دَعَا الإِمَام دَعوَته.

د ـ وَقَد تَكَرَّرت دَعْوَة الإِمَام هَذِه فِي صورَة أُخرىٰ فِي حَثِه عَلَىٰ الصَّدَقَة بقَوْله البَليغ: «وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَاغْتَنِمْهُ، وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ»(٤). وَبوصِيَته: «أَلاَ وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ ـ أي الذِّكرَىٰ الطَّيِّبَة ـ يَجْعَلُهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لاَ يَحْمَدُهُ»(٥). وفِي تَذكِيره بِفَريضَة الزَّكَاة فِي قَوْله: «إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ، فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ، وَاللهُ تَعَالَىٰ سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ»(٦). وَقَد بَلغ مِن تَقريره لِلتَّعاون، وَلأَثر الزَّكَاة، وَالإِحْسَان فِي إسعَاد أفرَاد المُجتَمع جَميعاً أَنّه ٱسْتَنَّ تَشريعاً طَرِيفاً بِقَوْله: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ لَهُ الدَّيْنُ

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (٢٣).
(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (٢٣).
(٣) أنظر، تَأريخ آبن خلدُون: ٤١/١، المَثل السَّاير: ١٨١/٢.
(٤) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كتاب لهُ عليه السلام تَحت رَقم (٣١).
(٥) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كتاب لهُ عليه السلام تَحت رَقم (١٢٠).
(٦) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكمَة (٣٢٨).

الظُّنُونُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُزَكِّيَهُ لِمَا مَضَىٰ إِذَا قَبَضَهُ»[١] أَي أَنَّ مَن كَان لهُ دَين، وَلَم يَكُن وَاثِقاً أَنَّ مَدِينه سَيرده إِلَيْهِ سَالماً، ثُم رَده إِلَيْهِ عَامِين مَثلاً، وَجَب عَلَيْهِ أَنَّ عَلَىٰ صَاحب المَال الدَّائن أَنْ يَدفع لِلْفُقَرَاءِ زَكَاة هَذَا المَال لِلسَّنتين المَاضِيتين. وَلَستُ أَعرف حُكم الشَّريعة الإِسْلاَميّة فِي هَذَا. وَلكنّي أُلاَحظ أَنَّ رَأي الإِمَام وَجيه إِذَا اعْتَبرنا أَنَّ المَال صَار بِالنِّسبة لِلدَّائن مَفْقُوداً بوجُوده عِند مَن لا يَثق بِهِ. فإِذَا عَاد إِلَيْهِ فَكأَنَّما عَثر عَلَىٰ كَنز غَيْر مُنْتَظر. وَإِذَنْ فَليس كَثِيراً أَنْ يَدفع مِنْهُ شَيْئاً لِلْفُقَرَاءِ إِنْ لَم يكُن زَكَاة عَنْه فَشُكراً لله عَلَيْهِ. «مَنْ كَثُرَتْ نِعَمُ اللهِ عَلَيْهِ كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَامَ للهِ فِيهَا بِمَا يَجِبُ فِيهَا عَرَّضَهَا لِلدَّوَامِ، وَالْبَقَاءِ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَرَّضَهَا لِلزَّوَالِ، وَالْفَنَاءِ»[٢]، كَمَا قَالَ الإِمَام، وَكَمَا قَالَ شكسْبِير: «إِنَّ التَّشَارِيف العَظِيمَة أَحمَال عَظِيمة»[٣].

هـ ـ لَقَد زَهد الإِمَام بِهَذه الدُّنْيا، وَأَهَاب بِهَا أَنْ تَغر غَيْره. بَل لَقَد زَجَر مِنْهَا فِي صَرْخَته: «وَاللهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيّاً، وَقَالِباً حِسِّيّاً، لأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالأَمَانِيِّ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي الْمَهَاوِي»[٤]، هَكَذا كَانَتْ نَظرَته الصَّادِقة إِلَىٰ الحَيَاة فَلاَ عَجبَ أَنْ يَمْتَلِيءَ قَلْبه بِالعَطف عَلَىٰ النَّاس، وَأَنْ يَدعُو إِلَىٰ إِنْقَاذ الضُّعفَاء، وَعَدم خَزن المَال بِكَلِمَتِه الرَّهِيبة: «يَا ابْنَ آدَمَ مَا كَسَبْتَ فَوْقَ قُوتِكَ،

---

(١) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الحِكْمَة (٦).

(٢) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: الحِكْمَة (٣٧٢).

(٣) أُنظر، هيَاكل شكسبِير لتوفِيق بن فَضل الله ضعُون: ٢١٥.

(٤) أُنظر، نَهج البَلاَغَة: مِن كتابٍ لهُ عليه السلام تَحت رَقم (٤٥).

فَأَنْتَ فِيهِ خَازِنٌ لِغَيْرِكَ »[١].

إنَّ الشّعور السَّائِد عَلَىٰ نَهْج ٱلْبَلاَغَة كُلّه هُو شعُور التَّنديد بِالتَّهالك عَلَىٰ الدُّنْيَا، « وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ... فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ فِي ٱلْمُكْتَسَبِ، فإِنَّه رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَىٰ حَرْبٍ. وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلاَ كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ »[٢]. هَذِه وصَايَاه، وَلَكِنَّهُ لاَ يَدعُو إِلىٰ الزُّهْد الَّذي يُنافِي الدِّين، وَٱلْحَيَاة. فَهُو يَعْمل، وَيُحَارِب. وَلكنْ عَلَىٰ أَرْض الشَّرف، وَلغَايَة نَبيلَة.

و ـ إنَّ مَا مَرَّ بنَا مِن دَعوَته إِلىٰ التَّعَاون، وَالْإِحْسَان، وَوفَاء الزَّكَاة لَيس إلاَّ بَعْض دَعوَته إِلىٰ « الحُبّ العَام » فإنَّ قَلْبه النَّبِيل قَد غَمر بِهَذه العَاطفَة الشَّرِيفَه، وَثبتها إِيمَانه الْقَوِيّ المُنْقطع النَّظِير، وَلَيس غَرِيباً مِمَّنْ صَادق النَّبِيّ ـ وَالأَصدقاء قَلِيل ـ وَشَاطره آلاَمه، وَجِهَاده، فَشعَر بِحَلاَوة الصَّدَاقَة. وَمَن عَانَىٰ مِن الْحَسَد، وَالحِقد اللَّذِين دَفعَا مُعَاوِيَة، وَغَيْره لِمُنَاوأته. وَمَن خَبَرَ تَأْثِير التَّخاذُل، وَالتَّباغُض حِين خَرج الْخَوَارِج، وَتَخَاذل قَوْمه، لَيْس غَرِيباً عَلَىٰ مَن هَذَا شأنَّه أنْ يُهِيب بِنا « وَلاَ تَحَاسَدُوا، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الإِيمَانَ ﴿كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ﴾[٣].

---

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (١٩٢).

(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ لهُ عليه السلام تَحت رَقم (٣١).

(٣) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٨٦). الفِرْدَوْس بِمَأثُور الخِطَاب: ٢/١٥٩ ح ٢٨١٢، مُسْنَد أَبِي يَعْلىٰ: ٦/٣٣٠ ح ٣٦٥٦، المُصَنَّف لِابْن أَبِي شَيبة: ٥/٣٣٠ ح ٢٦٥٩٤، سُنَن ابن مَاجه: ٢/١٤٠٨ ح ٤٢١٠، سُنَن أَبِي دَاود: ٤/٢٧٦ ح ٤٩٠٣، مصبَاح الزُّجَاجة: ٤/٢٣٨، تَفسِير القُرطُبي: ٥/٢٥١.

« وَلاَ تَبَاغَضُوا فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ »(١) . وَأَنْ يَقول « صِحَّةُ الْجَسَدِ مِنْ قِلَّةِ الْحَسَدِ »(٢) . ذَلِكَ القَوْل الَّذي تُؤيده مُلاَحَظتنا إِصفرَار الوَجه ، وَنحُوله فِيمن عُرِفُوا بالحِقد . وَأَنْ يُقسِم لنَا : « فَوَالَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ ، مَا مِنْ أَحَدٍ أَوْدَعَ قَلْباً سُرُوراً إِلاَّ وَخَلَقَ اللهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ السُّرُورِ لُطْفاً ، فَإِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَائِبَةٌ جَرَىٰ إِلَيْهَا كَالْمَاءِ فِي انْحِدَارِهِ حَتَّىٰ يَطْرُدَهَا عَنْهُ ، كَمَا تُطْرَدُ غَرِيبَةُ الإِبِلِ »(٣) ، وَأَنْ يُوصِينا خَيراً بِجِيرَتنا قَائِلاً : « وَاللهَ اللهَ فِي جِيرَانِكُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ ! مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّىٰ ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ »(٤) .

ز ـ قُلتُ إِنَّه قَد عَرف الصَّدَاقَة فِي نَفْسه ، وَخَبرَها فَلْنَستمع إِلىٰ وَصَايَاه بِصَددها : لقَد بَالغ فِي طَلب الْحِرص عَلَىٰ الصَّدِيق الوَفِي حَتَّىٰ قَالَ : « وَلاَ تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ ، وَ لاَ يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَىٰ عَلَىٰ قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَىٰ صِلَتِهِ ، وَ لاَ تَكُونَنَّ عَلَىٰ الإِسَاءَةِ أَقْوَىٰ مِنْكَ عَلَىٰ الإِحْسَانِ ... وأَوْصَى بِالْبَحْث عَن : سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ ... »(٥) . وَحَمد الَّذِين « يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلاَيَة ، وَيَتَلاَقَوْنَ بِالْمَحَبَّةِ »(٦) . وَدَعَا إِلىٰ عَدم الكُلْفَة بَيْنَ الأَصْدِقَاء بِقَوْله : «شَرُّ الإِخْوَانِ مَنْ تُكُلِّفَ لَهُ »(٧) ، وَلَكِنَّهُ نَصح أيضاً بِعَدم الانْدفَاع فِي حُبّ الصَّدِيق ، أو بُغض الْعَدُوّ

(١) أُنظر ، شَرح نَهْج ٱلْبلاَغَة : ٱلْخُطْبَة (٨٦) ، سُنن التِّرمذي : ٤/٦٦٤ ح ٢٥١٠ ، مُسْنَد الطَّيَالِسِي : ١/٢٧ ح ١٩٣ ، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب : ٢/٢٢٠ ح ٣٠٧١ ، مُسْنَد أبي يعلىٰ : ٢/٣٢ ح ٦٦٩ ، مُسْنَد أحمد : ١/١٦٤ ، موطأ مالك : ٢/٩٠٤ ح ١٦٠٨ ، سُنَن البَيْهَقِيّ الْكُبْرَىٰ : ١٠/٢٣٢ ، مَجْمَع الزوائد : ٨/٣٠ .

(٢) أُنظر ، شَرح نَهْج ٱلْبلاَغَة : ٱلْحِكْمَة (٢٥٦) .

(٣) أُنظر ، شَرح نَهْج ٱلْبلاَغَة : ٱلْحِكْمَة (٢٥٧) .

(٤) أُنظر ، نَهْج ٱلْبلاَغَة : مِن وَصِيَّة له عليه السلام إِلىٰ ٱبْنيهِ الإِمَام الْحَسَن ، والإِمَام الْحُسَيْن عليهما السلام رَقم (٤٧) .

(٥) أُنظر ، نَهْج ٱلْبلاَغَة : مِن كتابٍ لهُ عليه السلام تَحت رَقم (٣١) .

(٦) أُنظر ، شَرح نَهْج ٱلْبلاَغَة : ٱلْخُطْبَة (٢١٤) .

(٧) أُنظر ، شَرح نَهْج ٱلْبلاَغَة : ٱلْحِكْمَة (٤٧٩) .

بِقَوْله: «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا»(١). وَلَقد نَتسَاءل كَيْفَ يَشك الْإِنْسَان فِي صَدِيق، وَفِي خَيرِه فَيَحتَاط فِي صَدَاقته؟ وَكَيْفَ تَستَقِيم صَدَاقَة مَع تَحوط. وَلكنّا لا يَصعب عَلينا أَنْ نَعرف مَا حَمَل الإِمَام عَلَىٰ قَول ذَلِكَ فَقَد عَانَىٰ مِن تَقَلُّب الْأَصْحَاب، وَآنشقَاق الإِخْوَان مَا عَانَىٰ. وَلعَل هَذَا العَنَاء هُو مَا دَفعَه ـ وَلنقُل ذَلِك، وَنَحْنُ بِمَعرض آرَائه فِي الصَّدَاقَة ـ إِلىٰ أَنْ يَقول: «الْوَفَاءُ لِأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللهِ، وَالْغَدْرُ بِأَهْلِ الْغَدْرِ وَفَاءٌ عِنْدَ اللهِ»(٢). إِنَّ هَذِه الكَلِمَة الْقَوِيَّة مَا كَانَتْ لِتَصدر مِن ذَلِكَ الْقَلْب الوَادع المُسالِمِ لَوْلاَ أَنْ أَصَابَته شظَايَا الْغَدْر فَثَار.

ح ـ دَعَا الْإِمَام إِلىٰ القَصد فِي الحُبِّ، وَالبُغض، وَهَذِه الدَّعْوَة تُذكرنا بِدعوَاتٍ لَهُ أُخَر تَحث كُلّها عَلَىٰ الْإِعْتِدَال، وَعَدم الاِنْدِفَاع، وَلَيس أَبلَغ مِن قَوْله فِي الحِدّة إِنَّهَا «الْحِدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَنْدَمُ، فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ فَجُنُونُهُ مُسْتَحْكِمٌ»(٣). وَقَوْله الَّذي يُذكرنا بِنَظرِية الْأَوسَاط، وَبِالمَثل الفَرَنْسِي:

[Les deux extrêmes se touch ent] وَهُو: «الْيَمِينُ، وَالشِّمَالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَىٰ هِيَ الْجَادَّةُ»(٤)، وَقَد أَنْذَر بِأَنَّه سَيَهْلَك فِيهِ صِنْفَان: «وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَىٰ غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَىٰ غَيْرِ الْحَقِّ»(٥)، وَهَذِه الْكَلِمَات هِي، بِجَانب دَعوَتها إِلىٰ القَصد، دَعْوَة إِلىٰ

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٢٦٨).
(٢) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٢٥٩).
(٣) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٢٥٥).
(٤) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٦).
(٥) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ له عليه السلام يُبين فِيهِ أَحْكَام الدِّين، رَقم (١٢٧).

الْخُصُومَة الشَّرِيفة، وَنَزع الْهَوَىٰ الشَّخصي عِند مُناقَشة أَعمَال الْحُكَّام، وَالسَّواس.

ط- مَا كَان نَهْج ٱلْبَلاَغَة وَقَد ضَمَّ بَيْنَ دَفَّتَيه هَذِه الآرَاء الاجْتِماعِية الكَثِيرَة لِيغفَل «الْمَرْأَة» وَشأنْهَا فِي الْمُجْتَمع. وَلقَد عَبرَّ الإِمَام عَن رَأيهِ فِيْهَا بوضُوح، فإِذَا بِهِ رَأي قَاسٍ لاَ يَقل قَسوَةً، وَعُنفاً عَن رَأي «شُوبنهُور» فِيْهَا[1]، وَذَلِكَ الرَّأي يَتلَخص فِي قَوْله: «الْمَرْأَةُ شَرٌّ كُلُّهَا، وَشَرٌّ مَا فِيْهَا أَنَّهُ لاَبُدَّ مِنْهَا»[2]، وَهَكَذَا ذَهب فِي مَوْضُوع آخر إِلَىٰ أَنْ قَالَ: «خِيَارُ خِصَالِ ٱلنِّسَاء شِرَارُ خِصَالِ الرِّجَالِ»[3]، وَهَذَا القَوْل قَد يُحمل عَلَىٰ أنّ مَا يُسْتَحَبّ فِي ٱلنِّسَاء لاَ يُسْتَحَبّ فِي الرِّجَال، وَلكنَّ هَذَا الاحْتِمَال لاَ يُؤَثر فِي الْمَوْضُوع فرَأي الإِمَام فِي الْمَرْأَة وَاضح، وَقَد نَعْتَها فِي مَوضع ثَالث بِأَنَّهَا «الْمَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوَةُ اللَّسْبَةِ»[4]. ثُمَّ دَعَا النَّاس إِلَىٰ أَنْ يَحذرُوا مِنْهُنَّ: «فَاتَّقُوا شِرَارَ ٱلنِّسَاءِ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَىٰ حَذَرٍ، وَلاَ تُطِيعُوهُنَّ فِي الْمَعْرُوفِ حَتَّىٰ لاَ يَطْمَعْنَ فِي الْمُنْكَرِ»[5]، وَبِمثل هَذَا نَهىٰ فِي مَوضع آخر عَن التَّمكِين لَهُنَّ، وَالسَّماح لَهُنَّ بِالتَّشفُع وَالرَّجَاء فِي أُمور النَّاس. وَالَّذي نُلاَحظه أَنَّه ﷺ قَد سَلَّم بِأَنّ بَيْنَ ٱلنِّسَاء خَياراً بِدَلِيل قَوْله: «وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَىٰ حَذَرٍ» فَهوِيَتهُم الطَّبِيعَة النِّسوِية عَلَىٰ

(١) أنظر، كَلِمَة عَن ٱلنِّسَاء تَأْلِيف شُوبنهُور مُعَرب، نَشرهَا حَسن أفندِي رِيَاض، مَطْبعَة التَّرقي: ٣، سَنَة ١٣١٩ هـ. وأُنظر، مُلَقىٰ ٱلسَّبِيل، وَهِي رِسَالَة فَلسفِية نَشرتها مَجلة المُقتَبس بِدِمَشْق سَنَة ١٩١٢م، وَقَد عَلق عَلَيْهَا حَسن حُسني عَبدالوهَاب التُّونسي، قَابل فِيْهَا بَيْنَ آرَاء المَعَرِّي، وَآرَاء شُوبنهُور الفَيْلَسُوف الأَلمَاني مِن حَيْث ٱلْحَيَاة، وَمَصيرهَا، وَقَد طُبعَت ضِمن رَسَائِل البُلغَاء.

(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٢٣٨).

(٣) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٢٣٤).

(٤) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٦١).

(٥) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٨٠).

العُمُوم، وَيَخْشَىٰ أَنْ تَتغلب عَلَىٰ خَيار ٱلْنِّسَاء فيُصبحنَّ شِريرات.

ي ـ لَمْ يَكُن رَأي الإِمَام فِي ٱلْنِّسَاء صَادِراً عَن تَعَصُّب جِنْسِي، فإنَّ المَعرَكة لَم تَكُن نَشبت بعد بَيْنَ ٱلْنِّسَاء، وَالرِّجَال، وَمَا كَان عَلِيّ لِيَتَعَصَّب وَهُو الَّذي ذَمّ العَصَبِيَّة فِي الْخُطْبَةِ «القَاصِعَة»، وَردّ أَصلها إِلىٰ تَعَصُّب إِبْلِيسَ لِلنَّار ضِدّ الطِّين: (أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَىٰ آدَمَ لأَصْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ فَقَالَ: «أَنَا نَارِيٌّ، وَأَنْتَ طِينِيٌّ»، وَأَمَّا الأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الأُمَمِ فَتَعَصَّبُوا لآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ، فَقَالُوا: «نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً، وَأَوْلاداً، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ، فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الأَفْعَالِ)[1]. وَلَيْسَت الدَّعْوَة ضِدّ العَصَبِيَّة دَعْوَة هَيِّنَة فَالعَصَبِيَّة سَبب لِمَصَائِب كَثِيرة كَان مِنْهَا حرُوب كَثِيرَة أَثَارها التَعَصُّب لِلجِنْس، أَو الدِّين، أَو اللّون، أَو المَذْهَب، أَو الوَطن. وَلَعَل مِمَّا يُبين كَرَاهته عليه السلام لِلتَّعَصُّب، وَهُو حَقِيق أَنْ يَكْرَه التَّعَصُّب لِمَا ذَاق مِن تَعَصُّب أَهْل الشَّام لِمُعَاوِيَة، قَوْله: «لَيْسَ بَلَدٌ بِأَحَقَّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ، خَيْرُ الْبِلاَدِ مَا حَمَلَكَ»[2].

ك ـ وَقَد نَهىٰ عليه السلام عَن الغُش فِي المكَايِيل، وَعْن إِحتكَار التِّجَارَة، وَقُبح الْغِيْبَة بِتَحليل بَدِيع قَائِلاً: «وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لأَهْلِ الْعِصْمَةِ، وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلاَمَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ، وَالْمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ، وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ. أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ، وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَىٰ اللهَ فِيمَا سِوَاهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ،

---

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: الْخُطْبَة (١٩٢).

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٤٤٢).

وَآيْمُ اللهِ ، لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ لَجَرَاءَتُهُ عَلَىٰ عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ يَا عَبْدَ اللهِ لاَ تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ ، وَ لاَ تَأْمَنْ عَلَىٰ نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ ، فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَىٰ مُعَافَاتِهِ مِمَّا ٱبْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ »[١].

وكَذَلِكَ دَعا إِلَىٰ الإتِّحاد قَائلاً : «وَإِيَّاكُمْ ، وَالْفُرْقَةَ ، فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ »[٢] ، وَنَهَىٰ عَن البِدْعَةِ فِي قَوْله : « وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ ، إِلاَّ تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ ، فَٱتَّقُوا الْبِدَعَ ، وَٱلْزَمُوا الْمَهْيَعَ ، إِنَّ عَوَازِمَ الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا ، وَإِنَّ مُحْدَثَاتِهَا شِرَارُهَا »[٣] . وحَذَر مِن تَعَلّم النُّجُوم : «إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ ، إِلاَّ مَا يُهْتَدَىٰ بِهِ فِي بَرٍّ ، أَوْ بَحْرٍ ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَىٰ الْكَهَانَةِ ، وَ الْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ ، وَ الْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ ، وَ السَّاحِرُ كَالْكَافِرِ ، وَ الْكَافِرُ فِي النَّارِ سِيرُوا عَلَىٰ ٱسْمِ اللهِ »[٤] .

ل – إنَّ مِن تَحصِيل الحَاصل أنْ نَقول إنَّ الإمَام دَعَا إِلَىٰ ٱتباع الحَقّ ، وَإِنَّمَا الَّذي نُرِيد هُو أَنْ نَرَىٰ فَهْمَه لِلحَقّ كَيْفَ كَان ، وَأَنْ نَرَىٰ نِسْبَة هَذَا الفَهم إِلَىٰ نَظريَات أُخرىٰ فِي الحَقّ .

يَقول «أَهرَنج» ، وَغَيْره مِن مُتشَرعي الأَلمَان الَّذِين تَأثرُوا بِمَبدَأ فَنَاء الْفَرْد فِي الدَّوْلَة أنَّ الحَقّ هُو مَا جَعَلته الدَّوْلَة حَقّاً ، وَيَقول الوَاقعِيُون أنّ الحَقّ لَيْس إِلاَّ مَن وَضعْ الإِنْسَان ، وَلَم يَخرج تَكييفه عَن إِرَادته ، وَهَوَاه . وَيَقول «أَهْرَنج » أيضاً :«إِنَّ

(١) أُنظر ، نَهج ٱلْبَلاَغَة : مِن كلامٍ لهُ عليه السلام تَحت رَقم (١٤٠).

(٢) أُنظر ، نَهج ٱلْبَلاَغَة : مِن كَلام لهُ عليه السلام تَحت رَقم (١٢٧).

(٣) أُنظر ، نَهج ٱلْبَلاَغَة : الخُطْبَة (١٤٥).

(٤) أُنظر ، نَهج ٱلْبَلاَغَة : الخُطْبَة (٧٩).

أَسَاس الحَقّ لَيْس فِكرَة مَنطقِية ، وَإِنّما هُو القُوَّة» وَيَقول هِيجل : «إنْ ظَفَر شَعب هُو البُرهَان الْقَوِيّ عَلَىٰ حقُوقه»[١].

هَذَا هُو رَأي فَرِيق مِن الْعُلَمَاء فِي الحَقّ ، وَمقْيَاسَه ، وَهُو رَأي خَطر ، وَقَد ٱتهَمَه الفَرنسيُون بِأَنَّه سَبب الحَرْب العَالمِية ، وَٱتهمُوا الأَلمَان لأَنَّهم أَنصَاره ، وَمرُوجُوه . وَهُو رَأي يُعارِضه فَرِيق كَبِير مِن العُلَمَاء ، وَالنَّاس ، وَقَد كَان «قوبية» لِسَان هَـذِه المُعارَضة فِي قَوْله : « ٱلْحَقّ فِكرَة تَتوجَه نَحو المُسْتَقْبَل ، وَأَسَاسها الضَّمِير الإِنْسَانِي وَالشّعُور بِالمُسَاوَاة ، وَالحُرِّيَّة لِلجَمِيع ، وَرَأي «بَاسْكَال» أَنَّ القُوَّة يَجب أَلاَّ تُستَعمل إلاَّ لخِدْمَة ٱلْحَقّ : «عَلينَا أَنْ نَحمل العَدَالة ، وَالقُوَّة مَعاً وَإِنّما لاَ نَقصد إِلاَّ مَا كَان حَقّاً ، وَلاَ نَستَعمل القُوَّة إِلاَّ لتَوطِيد ٱلْحَقّ» .

هَذَان هُما الرَّأيَان المُتعَارِضَان فَإِلىٰ أَيهُما يَنْتَمي رَأي الإِمَام عليّ ؟ لَسْنَا مُحْتَاجِين إِلىٰ أَقَل تَفكِير لِلقَول أَنّ رَأيه هُو الثَّانِي . قَالَ الإِمَام عَليّ : «حَقٌّ وَبَـاطِلٌ ، وَلِكُـلٍّ أَهْلٌ ، فَلَئِنْ أَمِرَ الْبَاطِلُ لَقَدِيماً فَعَلَ ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّمَا وَلَعَلَّ ، وَلَقَلَّمَا أَدْبَـرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ »[٢] . وَهَذَا النَّص وَاضح صَرِيح فِي أَنَّ الإِمَام لاَ يَرىٰ كَثرَة الْبَاطِل تَجْعَله حَقّاً ، بَل يَنْتَظر أَنْ تَزول دَولَته ، قَائِلاً : إِنَّ الشَّيء قَد يُدْبِر فيُقْبِل ، أي أَنّه مُـؤْمِن بِخُـلُود الحَقّ وَهُو القَائِل فِي غَيْر نَهْج ٱلْبَلاَغَة . «دَوْلَة الظُّلْم سَاعَة ، ودَوْلَة الْعَدْل إِلىٰ قِيَام السَّاعَة »[٣] ، وَقَد تُروىٰ «دَوْلَة الْبَاطِل دَوْلَة ٱلْحَقّ» لأَنَّهم لَم يُفرقوا كَثِيراً بَيْنَ الْعَدْل وَالحَقّ .

---

(١) أنظر ، المُوسُوعة الفَلْسفَة لِعبد ٱلرَّحْمَان بَدوِيّ : ١٧٤/٢ .

(٢) أُنظر ، نَهْج ٱلبَلاَغَة : ٱلْخُطْبَة (١٦) .

(٣) أنظر ، الإِمَام جَعفر الصَّادق لِلمُسْتشَار عَبدالحَليم الجُنْدي : ٦٠ .

أَمَّا نَظَرِيَة ٱلْحَقّ ، وَالْدَّوْلَة فَهِيَ مُنافِية لِرَأْي الإِمَام بِالطَّبع مَا دَام يَـعْتَبِر ٱلْحَـقّ خَالِداً ، وَهُو لاَ يَفتأ يَنهَىٰ الْوُلاَة عَن ظُلِم الرَّعِيَّة ، وَيَدعو إِلىٰ المُسَاوَاة ، وٱلشُّورَىٰ ، وَالتَّمسك بكِتَاب الله ، وَسُنَّة رَسُوله . أي أَنَّه لا يَرىٰ لِلْحَاكِم حَقّ ٱختِرَاع الحقُوق ، وَلاَ يَرىٰ الحَقّ كَمَا رَآه الوَاقعِيُون مِن وَضع الإِنْسَان . وَلاَ يَرَىٰ ٱنْتصَار شَعب بُرهَاناً عَلَىٰ حقُوقه بَل يَقول : «فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَقْصِمْ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلاَّ بَعْدَ تَمْهِيلٍ ، وَرَخَاءٍ ، وَلَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ إِلاَّ بَعْدَ أَزْلٍ ، وَبَلاَءٍ»(١) .

وَإِذَا كَان ٱتَفَق مَع القَائِلِين بِأَنّ الحَقّ أَزَلِي ، وَبِأَنّه تُرَاعىٰ فِيهِ مَصلحَة الـفَرْد ، وَمَصْلَحة الْجَمَاعَة . فإِنَّه ٱتفقَ مَع رَأي بَاسكَال القَائِل بِٱستعمَال القُوَّة لِتوطِيد الحَقّ فَالإِمَام يَقول : «وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللهِ عَلَيْهِمْ ، وَعِلْمِهِ فِيهِمْ . فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ ، وَكَفَىٰ بِهِ شَافِياً مِنَ الْبَاطِلِ ، وَنَاصِراً لِلْحَقِّ»(٢) . وَخَاطبه قَـوْم فِي عِـقَاب قَاتِلِي عُثْمَان . فَقَال : «فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَهْدَأَ النَّاسُ ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِـعَهَا ، وَتُـؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً ، فَٱهْدَءُوا عَنِّي ، وَٱنْظُرُوا مَا ذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي ، وَ لاَ تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً وَتُسْقِطُ مُنَّةً ، وَتُورِثُ وَهْناً وَذِلَّةً . وَسَأُمْسِكُ الأَمْرَ مَا ٱسْتَمْسَكَ . وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ»(٣) أَي الْقَتْل ، وَالْحَرْب يَسْتَعملهُما حِين تَفْشَل وَسَائِل السِّلم ، وَحِين يَرفض خصُومه الإِحْتِكَام إِلىٰ الله ، وَهَذَا دُستُور هَيئة الأُمَم حِيَال الدُّول الَّتي تَأبىٰ التَّحْكِيم .

يَقول فَرِيق مِن النَّاس إِنَّ ٱلْحَقّ قَد يَتَعدد ، فَأَنَا أَظنّ الأَمْر ، وَأنْتَ تَظنّ نَقِيضه ،

---

(١) أنظر ، نَهج ٱلبَلاَغَة : ٱلخُطْبَة (٨٨) .

(٢) أنظر ، نَهج ٱلبَلاَغَة : ٱلخُطْبَة (٢٢) .

(٣) أنظر ، نَهج ٱلبَلاَغَة : ٱلخُطْبَة (١٦٨) .

وَلَكِنِّي مُحق، وَأَنْتَ مِثْلي مُحق، وَيَقول آخرُون: إنَّ الحَقّ وَاحد لاَيَتعَدد، وَقَد أَخذ الْإِمَام بِهَذا الرَّأي الْأخِير فقَالَ: «مَا ٱخْتَلَفَتْ دَعْوَتَانِ إِلَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلاَلَةً»[1].

سِيَاسَة الدَّوْلَة

ـ ٤ ـ

إِنَّ لِلْإِمَام آرَاء قَيمَة مُحْكَمَة فِي طَبِيعَة الحُكم، وَسِيَاسَته، وَمُهمَة الحَاكِم، وكَيْفِيَّة ٱنْتقَاء الْقُضَاة، وتَقْسِيم الْعَمَل، وَمُهمَة الْعُلَمَاء إِلىٰ غَيْر ذَلِكَ، وَقَد جَمَعَت رِسَالَته إِلىٰ الْأَشْتَر النَّخَعِيّ كَثِيراً مِن هَذِه الْأُمُور، وَلَكِنَّها لِيْسَت الْوِعَاء الوَحِيد الَّذي نُنشد فيهِ تِلكَ الحِكَم فَنَقْصُر بَحثنَا عَلَيْهَا.

آ ـ قَالَ: «لاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ، أَوْ فَاجِرٍ يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الْأَجَلَ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّىٰ يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ»[2].

وَهَذَا كَمَا نَرَىٰ رَأي يُعَاكسه الفَوضَويُون اليَوْم، وَقَد عَاكَسه الْخَوَارِج بِالْأَمس، وَلَكنْ مَا كَان لِعليٍّ الحَكِيم الَّذي ٱعْتَنق دِين النّظَام صَبِياً أَنْ يَدعو بِدَعوتهم لقَد عَرف أنَّ النِّظَام هُو كَفِيل النَّجَاح، وَتَألم، وَشكَا قَومه لأنّ: «الْمَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا، وَالْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا، مَفْزَعُهُمْ فِي الْمُعْضِلاَتِ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَتَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُهِمَّاتِ عَلَىٰ آرَائِهِمْ، كَأَنَّ كُلَّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَىٰ بِعُرَىً

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١٨٣).

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (٤٠).

ثِقَاتٍ ، وَأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ »[١].

ب ـ وَإِذَا كَان قَد مَقَت الْخَوَارِج عَمّا يُمكِن أَنْ نُسمِيه «الشَّرْعِيَّة» فإِنَّه كَذَلِكَ قَد مَقَت أيضاً الإِخْتِلاَف بَيْنَ الْفُقَهاء ، وَالمُفسرِين فِي الفُتيا قَائِلاً : «تَرِدُ عَلَىٰ أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَىٰ غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلاَفِ قَوْلِهِ ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقُضَاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ ، فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ ـ جَمِيعاً ـ وَإِلَهُهُمْ وَاحِدٌ ! وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ ! وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ ! أَ فَأَمَرَهُمُ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ بِالإِخْتِلاَف فَأَطَاعُوهُ ! أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ »[٢].

وَلَيس يَصعب عَلينَا أَنْ نُلمح أَنَّ الَّذي اسْتَفزَّه إِلىٰ هَذَا الانتقاد هُو رَغبَته فِي النِّظام وَفِي توحِيد الْقَضاء .

ج ـ وَإِذَا كَانَ قَد دَعَا إِلىٰ «الشَّرْعِيَّة» وَعَدم تَشعب الآرَاء ، واسْتقلاَل كُلّ برَأيه ، فلَيسَ مَعنىٰ هَذَا أنّه دَعا إِلىٰ الإِسْتِبْدَاد ، وَالحُكم المُطلق ، بَل عَلىٰ العَكس لاَ نَزَال نَسمَعه يَلح بِالدَّعْوَة إِلىٰ الشُّورَىٰ فَيَقول لنَا : «مَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ ، وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا »[٣] ، وَيُكرر ذَلِكَ فِي أَمَاكن أُخرىٰ ، وَبألفَاظ كَثِيرة .

وَقَالَ فِي كِتَاب لأحدِ وُلاَتِه : «وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ ، وَاعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ ، وَرِفْقاً

(١) أُنظر ، نَهج الْبَلاَغَة : الْخُطْبَة (٨٨).
(٢) أُنظر ، نَهج الْبَلاَغَة : الْخُطْبَة (١٨).
(٣) أُنظر ، نَهج الْبَلاَغَة : الْحِكْمَة (١٦١).

بِرَعِيَّتِكَ، وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَىٰ الْحَقِّ»[1]. وَهَذِه كَلِمَات كَبِيرَة حَكِيمَة، فِيهَا نَوْع مِن الْمَسْئُولِية الوزَارِية كَمَا نَعرِفها، وَنُسمِيها، وفِيْهَا أيضاً بَيَان لِحِكْمَتِها فَهِيَ تُزِيل شكُوك الرَّعِيَّة، ثُمّ هِي رِيَاضَة لِلنَّفس عَلَىٰ تَقبُل النَّقد، وَعَدم الأزْوِرَار مِنهُ، وَعَلَىٰ التَّدقِيق فِي الأَعْمَال عِلماً بأنّ هُناك مَن سَيُحَاسب عَنْهَا.

إِنَّ النَّزعَة الدِّيمقرَاطِية فِي نَهْجِ ٱلْبَلاَغَة أَبْيَنَ مِن أنْ تَحْتَاج إِلىٰ بَيَان:

فَهَا هُو يَأمر الْوَالِي بِأنْ يَجْلِس لِذَوِي الْحَاجَات دُونَ جُند، أَو حَرَس لكِيلاَ يُتَعْتِعُوا فِي تَوضِيح مسَائِلهم.

بَل قَد فَضَل الْعَامَّة عَلَىٰ الْخَاصَّة وَإنْ سَخط الْخَاصَّة فَقَال: «فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَىٰ الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ، يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَىٰ الْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَىٰ الْوَالِي مَئُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلاَءِ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الإعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ. وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ؛ فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ»[2]. وَهَذَا كَلاَم صَرِيح فِي تَفْضِيلهم، وَالاِعْتِمَاد عَلَيْهِمْ. وَأَنَا شَخصِياً أَميلُ إِلىٰ الظَّنّ بِأنّ هَذَا الكَلاَم كَانَ لهُ تَأثِير فِي سلُوك بَعْض زُعمَائنا الَّذِين عُرفوا بِميلهم إِلىٰ الإِمَام عَليّ، وَالتَّشبه بِكَلامه فِي أَكْثَر مِن مَوضع. وَلنْ أُطِيل فِي تَفصِيل هَذِه الدِّيمُقرَاطِية، وَلنَردد فِي سُرُور قَول الإِمَام الجَامِع: «وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ،

---

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ لهُ عليه السلام إلىٰ مَالِك الأَشْتَر رَقم (٥٣).

(٢) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتَابٍ لهُ عليه السلام إلىٰ مَالِك الأَشْتَر رَقم (٥٣).

وَأَقْطَعَ الْغِشِّ غِشُّ الأَئِمَّةِ »[١] . وَقَوْله الَّذي يُذكرنا بالقَوْل السَّائِر : صَوْت الشَّعب مِن صَوْت الله «وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَىٰ أَلْسُنِ عِبَادِهِ »[٢] .

هـ - وَإِذَا كَان الإِمَام قَد أَخذ بالدِّيمُقْرَاطِية كَمَا وَضح فَمِن الطَّبِيعي أَنْ نَرَاه نَصِير الْحُرِّيَّة يُهِيب بِابْنِهِ «وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ ، وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً »[٣] . وَأَنْ نَرَاه رَافع لِوَاء المُسَاوَاة لاَ يَزال يَذكرها ، وَيُوصي بِهَا ، وَيَقول لِمَن يُوليه :«وَآسِ ـ وَسَاوِ ـ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ ، وَالنَّظْرَةِ حَتَّىٰ لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ »[٤] . وَيَقول فِي مَوضعٍ آخر : «لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ !»[٥] .

و - وَلَكنْ لِلجمهُور سَيِّئَاته كَمَا أَنَّ لهُ حَسَنَاته فَلْنَسمع كَلِمة الإِمَام فِي الْغَوْغَاء . قَالَ : «النَّاسُ ثَلَاثَةٌ : فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَىٰ سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَىٰ رُكْنٍ وَثِيقٍ »[٦] . وَوَصف الْغَوْغَاء فِي مَوضع آخر : «هُمُ الَّذِينَ إِذَا ٱجْتَمَعُوا غَلَبُوا ، وَإِذَا تَفَرَّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا . وَقِيلَ : بَلْ قَالَ عليه السلام : هُمُ الَّذِينَ إِذَا ٱجْتَمَعُوا ضَرُّوا ، وَإِذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا ، فَقِيلَ : قَدْ عَرَفْنَا مَضَرَّةَ ٱجْتِمَاعِهِمْ ، فَمَا مَنْفَعَةُ ٱفْتِرَاقِهِمْ ؟ فَقَالَ : يَرْجِعُ أَصْحَابُ الْمِهَنِ إِلَىٰ مِهْنَتِهِمْ ، فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِمْ ، كَرُجُوعِ الْبَنَّاءِ إِلَىٰ بِنَائِهِ ، وَالنَّسَّاجِ إِلَىٰ مَنْسَجِهِ ، وَالْخَبَّازِ

(١) أنظر ، نَهج ٱلْبَلاَغَة : مِن كتابٍ لهُ عليه السلام رَقم (٢٦).
(٢) أنظر ، نَهج ٱلْبَلاَغَة : مِن كتابٍ لهُ عليه السلام إِلىٰ مَالك الأَشْتَر رَقم (٥٣).
(٣) أنظر ، نَهج ٱلْبَلاَغَة : مِن كتابٍ لهُ عليه السلام إِلىٰ ٱبْنِهِ الْحَسَن عليه السلام رَقم (٣١).
(٤) أنظر ، نَهج ٱلْبَلاَغَة : مِن عَهدٍ لهُ عليه السلام إِلىٰ مُحَمَّد بن أَبِي بَكْر رَقم (٢٧).
(٥) أنظر ، نَهج ٱلْبَلاَغَة : الْخُطْبَة (١٢٦).
(٦) أنظر ، نَهج ٱلْبَلاَغَة : مِن كلامٍ لهُ عليه السلام إِلىٰ كُمَيْل بن زِيَاد رَقم (١٤٧).

إِلَىٰ مَخْبَزِهِ»[١]. لأنَّ كُلّ صَانع يَنْصَرف إِلىٰ عَمْله فَيحصل النَّفع، وَقَد وَضَع الْإِمَام أُصْبعَه عَلَىٰ آفةٍ، وَطَبيعةٍ مِن آفَاتِ، وَطَبَائع الجَمَاهِير هِي سُرْعَة التَّـقَلُّب، تِـلكَ الْخَاصَّة الجَمَاهِيرية الَّتِي وَضحهَا شِكسبير أَبْلَغ إِيضَاح فِي «يُـوليُوس قَـيصَر»[٢]، وَكَذَلِكَ أَصَابَ فِي أنَّ ٱجْتمَاعها غَلَبة، وَتَفرقها ضَيَاع، وَفِي أنّ ٱجتمَاعها قَد يَكُون فِي بَعْض الأحَايِين مَجْلَبة لِلضَّرر، كمَا أَنَّ تَفرقها مَجْلَبة لِلنَّفع لانْصرَاف كُلّ عَـامل إِلىٰ عَمله، وَهَذِه النَّظرة إِلىٰ الجَمَاهِير قَد تَبدو مُتعَارِضة بَعْض التَّعارض مَع مَا سَبق مِن رَأيه فِيهِمْ، وَلكن بَيان نَقص الْغَوْغَاء لاَ يَسْتَلزم ٱستبعَاد رَأيهم.

ز ـ عَرَض ﷺ الصَّفحَات الوَاجب تَوفرها فِي الإِمَام فَقَال: «مَنْ نَصَبَ نَـفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ؛ وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ، وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلاَلِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّـاسِ، وَمُـؤَدِّبِهِمْ»[٣]. وزَذَمّ الْعُلَمَاء الَّذِين لا يَعْملُون بِعِلمِهم فِي أَكْثَر مِن مَوضع. وَحَدد العُلاَقة بَيْنَ الرَّاعِي وَالرَّعيَّة فَقَال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَـالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلاَ تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا، وَأَمَّـا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ، وَالنَّـصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ، وَالْمَغِيبِ، وَالْإِجَـابَةُ حِـينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ»[٤]. وَلنُلاَحظ هُنا أَنَّه يَجْعَل مِن حقّه عَلَىٰ الشَّعب

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١٩٩).
(٢) أنظر، 1_Magestaths gulex
(٣) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٧٣).
(٤) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (٣٤).

أنْ يَنْصَحه الشَّعب، وَهَذَا مُبَالغة فِي السَّعي وَرَاء الكَمَال. وَكَم هُو نَبيل قَوْله لِقَومه رَداً عَلَىٰ مَن أَثنَىٰ عَلَيْهِ: «فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِي ٱسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلَا ٱلْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ ٱسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ، أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. فَلاَ تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ»[١].

وَذَمّ خِلَّة الْغَدْر فَقَالَ: «وَاللهِ مَا مُعَاوِيَة بِأَدْهَىٰ مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ، وَيَفْجُرُ، وَلَوْلاَ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ، لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَىٰ النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلاَ أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ»[٢]. فأَمِير الْمُؤْمِنِينَ إِذَنْ عَلَىٰ خِلاف مَع «أَمِير» مِكَيافِلي.

وَأَدْلَىٰ عَلِيّ بآرَاء قَيمَة فيمَا يَجب فِي الْوُلَاة فَقَال: أَنَّهم مُلزمُون بِأَنْ يَعِيشُوا عِيشَة جمهُور الشَّعب: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَرَضَ عَلَىٰ أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلاَ يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ»[٣]. أي لِكَيْلاَ يَسخط الْفَقِير لِفَقْره، وَلِيَتعزَىٰ بِحَال أَمِيره: «أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ!»[٤].

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (٢١٧).

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَةُ (٢٠٠).

(٣) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كَلاَم لهُ بالبَصْرَةِ، وَقَد دَخل عَلَىٰ العَلَاء بن زِياد الحَارثي، وَهُو مِن أَصْحَابه يَعوده، فَلمَّا رَأَىٰ سِعة دَاره، قَالَ عليه السلام هَذَا الكلاَم. رَقم (٢٠٩).

(٤) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كِتابٍ لهُ عليه السلام، إِلىٰ عُثْمَان بن حُنَيْف الأَنْصَاري. رَقم (٤٥).

وَنصَحَ عليّ الْوُلاَة بقَوْله مُؤكداً لأَحدهم: «أَمَّا بَعْدُ، فَلَا تُطَوِّلَنَّ ٱحْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ»[١]. وتِلكَ نَصِيحة حقّ فإنّ كَثرَة ظهُور الْحَاكِم بَيْنَ الرَّعِيَّة ٱستئلاَف لِقلُوبها، وَإِشْعَار لهَا بِأنَّ الحَاكِم مُهتَم بمصَالحها، ثُمّ هُوَ مُنِير لِلْحَاكِم سَبِيل حُكْمه وَمُعطِيه الصُّورة الوَاضِحة لحَال شَعْبَه فَيَعمَل عَلىٰ نورِها.

وَقَالَ: «وَٱعْلَمْ، أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَىٰ إِلَىٰ حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ»[٢]. أي أنَّ الرَّاعِيَ حِين يُحْسِن لرعِيته يَطْمَئن قَلْبه، وَيَأْمن خِيانَتهم.

وَأمَر بِٱحترَام التَّقاليد الشَّعبية فكَان حَكِيماً بَعِيد النَّظر «وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَٱجْتَمَعَتْ بِهَا الأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ»[٣].

وَوَجَه عليّ نَصِيحة غَالِية كُلّ الغُلوّ صَادِقة كُلّ الصِّدْق فِي قَوْله: «إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الآثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً. فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ، وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ، وَأَوْزَارِهِمْ، وَآثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَىٰ ظُلْمِهِ، وَلَا آثِماً عَلَىٰ إِثْمِهِ: أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَئُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَىٰ عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً، فَٱتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ، وَحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ، وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ. وَٱلْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ، وَالصِّدْقِ؛ ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَىٰ أَلَّا يُطْرُوكَ، وَلَا يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ

(١) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ له عليه السلام إلىٰ مَالك الأَشْتَر، رَقم (٥٣).
(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ له عليه السلام إلىٰ مَالك الأَشْتَر، رَقم (٥٣).
(٣) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ له عليه السلام إلىٰ مَالك الأَشْتَر، رَقم (٥٣).

الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ »(١) . وَنَظرِية عَلِيّ صَحِيحة تَمَامَاً فإنَّ مَن أَثِم فِيمَا مَضىٰ لاَ يُؤْمن إثِمِهِ فِيما حَضر ، وَمَن اتصل بالظَّلَمة بِالأَمس لاَ يُؤْمِن اتصاله بِهِمْ اليَوْم وَإِعَانتهم عَلَىٰ كَيدهم بمَاله مِن سُلطة الوزَارة . وَكَان حِكيماً فِي قَوْله : «فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ ، وَدَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ ، وَالرَّأْفَةِ »(٢) . وَأمر الْوَالِي أنْ لا يَرْغَبَ عَن رَعيتَه «تَفَضُّلًا بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُمُ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، وَالْأَعْوَانُ عَلَىٰ اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ . ثم قَالَ : وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ ، وَإِلَّا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبُؤْسَىٰ لِمَنْ خَصْمُهُ ـ عِنْدَ اللهِ ـ الْفُقَرَاءُ ، وَالْمَسَاكِينُ »(٣) . وَدَعَاه إلىٰ أَنْ يُساوِي نَفْسه بِهِمْ فِيمَا النَّاس فِيهِ سوَاء ، وَهَذَا القَيد يَظْهر بَعد نَظرِهِ ، وَفَهمهِ لحَقِيقَة المُسَاوَاة المُمكِنة .

وَدَعا إلىٰ تَشجيع الُمحْسِن ، وَعِقاب المُسِيء قَائِلاً : «وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ ، وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ »(٤) . وَلَفَت نَظر جُبَاة الضَّرائِب إلىٰ الرِّفْق بِالأَهلِين ، وَعَدم بَيع شَيء ضَرُوري ـ وَهَذَا مَا فَعلته القَوَانِين الْحَدِيثَة إذْ مَنعَت الحَجز عَلَىٰ المَلاَبس وَمُرتبَات المُوظفِين ـ وَبَالغ فِي الرِّفْق الحَكِيم فَقَال : «فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلاً ، أَوْ عِلَّةً ، أَوِ انْقِطَاعَ شِرْبٍ ، أَوْ بَالَّةٍ ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ ؛ وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَئُونَةَ عَنْهُمْ ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ ، وَتَزْيِينِ وِلَايَتِكَ ، مَعَ

(١) أنظر ، نَهْج الْبَلاَغَة : مِن كتاب لهُ ﷺ إلىٰ مالك الأشتَر ، رَقم (٥٣).

(٢) أنظر ، نَهْج الْبَلاَغَة : مِن كتابٍ له ﷺ إلىٰ بَعْض عُمَّالِه ، رَقم (١٩).

(٣) أنظر ، نَهْج الْبَلاَغَة : مِن كتابٍ له ﷺ إلىٰ بَعْض عُمَّال الصَّدَقَة ، رَقم (٢٦).

(٤) أنظر ، نَهْج الْبَلاَغَة : مِن كتابٍ لهُ ﷺ إلىٰ مَالِك الأشتَر ، رَقم (٥٣).

آسْتِجْلَابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ»[١]. وَهَذَا بُعد نَظر حَكِيم، وَسِيَاسَة مَالِية مُحْكَمَة تُزِيد وضُوحاً فِي قَوْله: «وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي آسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ»[٢]، وَإِذَا تذكره مَا جرّ التَّعسف فِي جَبْيِ الضَّرائِب فِي فرنسَا، وَوِلَايَات تُركيا، وغَيْرِها عَرفنَا قِيمَة هَذِه النَّصِيحة الَّتي يُؤيدها المَنْطِق، وَيسندهَا التَّأرِيخ.

ح ـ وَقَد أَدىٰ بُعد نَظر الإِمَام بِهِ إِلىٰ أَنْ يَدعُو إِلىٰ تَقسِيم الْعَمَل، ذَلِكَ المَبدَأ الَّذي لَم نَعرفه إِلَّا حَدِيثاً فَقَد قَالَ نَاصِحاً: «وَآجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَىٰ أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ»[٣]، وَقَالَ مِن رِسَالَة إِلىٰ الأَشْتَرِ النَّخعِيّ أَيضاً: «وَآعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَىٰ بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ: فَمِنْهَا جُنُودُ اللهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ، وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الإِنْصَافِ، وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ، وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ، وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَىٰ مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ، وَالْمَسْكَنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّىٰ اللهُ لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَىٰ حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ، أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ـ صلى الله عليه وآله ـ عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً»[٤]. ثُمّ فَصَّل بَعد ذَلِكَ وَظِيفة كُلّ فِرقَة.

وَتَمشِياً مَع قَاعدته فِي تَقسِيم الْعَمَل، وَآختِصَاص كلّ بِمَا يُحْسنه رَدّ عَلىٰ مَن قَالَ

---

(١) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ لهُ عليه السلام إلىٰ مَالك الأَشْتَر، رَقم (٥٣).

(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ لهُ عليه السلام إلىٰ مَالك الأَشْتَر، رَقم (٥٣).

(٣) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ لهُ عليه السلام إلىٰ الإِمَام الْحَسَن عليه السلام، رَقم (٣١).

(٤) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ لهُ عليه السلام إلىٰ مَالك الأَشْتَر، رَقم (٥٣).

لهُ : إنّك تَأمرنا بِالسَّير إلىٰ الْقِتَال فِلمَ لاَ تَسير معنَا؟ أنّه لاَ يجوز أنْ يَترك مُهماته مِن قَضاءٍ، وَإدَارةٍ، وَجبايَة ضَرائِب، وَكَذَلِكَ نَصَح عُـمَرَ بِألَّا يَخـرج لِـلقَاء الفُـرس بِنَفْسِهِ: « وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ، يَجْمَعُهُ، وَيَضُمُّهُ : فَإِنِ ٱنْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ، وَذَهَبَ »[١]، وَلأنّه إنْ خَرج ٱنْتَقضت عَلَيْهِ الْعَرَب مِن أَطْرَافِهَا.

ط ـ إنَّ هَذَا الإمَام المُجَرب مَا كَان لِيَغفل الدَّعْوَة إلىٰ الاتْعَاظ بِالتَّجَارِب فِي الحُكم فَهَا هُو ذَا يَقول: «إِنَّ الأُمُورَ إِذَا ٱشْتَبَهَتْ ٱعْتُبِرَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا »[٢]، وَيَقول فِي مكَان آخر: «ٱسْتَدِلَّ عَلَىٰ مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَـدْ كَـانَ »[٣]، ثُمّ يَـقول أيـضاً: «الْـعَقْلُ حِـفْظُ التَّجَارِبِ »[٤].

وَلَستُ أَحمل هَذَا القَوْل الأَخِير أَكْثَر مِمَّا يَحْتمل إذَا قُلتُ: إنَّه هُو الرّأي الفَلْسَفِي المُعَارض لِلرّأي القَائِل: بِأنّ الْعَقْلَ يَتفَاوت عِند الأَشخَاص بِطَبِيعَته. وَالذَّاهب عَلَىٰ العَكس إلىٰ أنَّ الْعَقْلَ لَيس إلاَّ عَمل التَّجَارِب، وَالتَّهْذِيب. وَالدَّافـع لِحـجَّة الرَّأي الأَوَّل القَائِلة بأنّا لو رَبينّا أشخاصاً ذَوِي أعْمَار وَاحِدَة تَربية وَاحِدَة فِي بيئة وَاحِدَة لَنشأوا رَغم ذَلِكَ مُختَلفِي الْعَقْليات، بِأَنَّهم إنَّما يَخْتلفُون لِسَببِ تَأثرهُم بِمزَاجٍ ورَائِي مُخْتَلِف.

ي ـ وَتَكلَّم الإمَام فِي رِسَالَتِه إلىٰ الأَشْتَر عَن الْقُضَاة كَلاَماً قَالَ عَـنْه الأُسـتَاذ

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: مِن كلام لهُ عليه السلام، وَقَد ٱستشاره عُمَر بن الخطَّاب فِي الشخُوص لِقتَال الفُرس بِنَفْسه. رَقم (١٤٦).
(٢) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٧٦).
(٣) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ لهُ عليه السلام إلىٰ الإمَام الحَسَن عليه السلام، رَقم (٣١).
(٤) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ لهُ عليه السلام إلىٰ الإمَام الحَسَن عليه السلام، رَقم (٣١).

العَشماوي أُستاذ القانون الدستوري بكُلية حقوق القاهرة إنَّ كلاماً غيره في أي دُستور من دساتير العالم لم يُفصّل مُهمة القُضاة، وطُرق آختيارهم مِثل ما فعل.

قَالَ الإمَام: «ثُمَّ ٱخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ، وَلَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ، وَلَا يَتَمَادَىٰ فِي الزَّلَّةِ، وَلَا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَىٰ طَمَعٍ، وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَىٰ فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ، وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَىٰ تَكَشُّفِ الْأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ ٱتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ. ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وَٱفْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ. وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ. لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ ٱغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ»[1].

وَفِي غَيْر هَذِه ٱلرِّسَالَة ذَمّ مَن يَتصَدىٰ لِلحُكم، وَلَيس أهلاً لهُ قَائِلاً: «جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِياً ضَامِناً لِتَخْلِيصِ مَا ٱلْتَبَسَ عَلَىٰ غَيْرِهِ، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَىٰ الْمُبْهَمَاتِ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثًّا مِنْ رَأْيِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ: لَا يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ، فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ. جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالَاتٍ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ، لَمْ يَعَضَّ عَلَى الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ. يَذْرُو الرِّوَايَاتِ ذَرْوَ الرِّيحِ الْهَشِيمَ لَا مَلِيٌّ - وَاللهِ - بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، وَلَا أَهْلٌ لِمَا قُرِّظَ بِهِ، لَا يَحْسَبُ الْعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، وَلَا يَرَىٰ أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ ٱكْتَتَمَ بِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ لهُ عليه السلام إلىٰ مَالك الأَشْتَر، رَقم (٥٣).

نَفْسِهِ، تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدِّمَاءُ، وَتَعَجُّ مِنْهُ الْمَوَارِيثُ إِلَى اللهِ»[١]، وَفِي مَوضع آخر يَقول: «لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَىٰ كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَلاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ، لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَىٰ غَارِبِهَا»[٢].

وَمَعْنَىٰ هَذَا أَنَّ عَلَىٰ الخَوَاص مُهمةٌ هِي عَدَم الصَّبر عَلَىٰ الظُّلم، بَل مُجَاهدته، وَلَو لَم يَقع عَلَيْهِمْ.

ك ـ وَتَكَلَّم فِي سِياسَة الْجُنْد، وَأَمر جَيْشَه أَلَّا يَتَتَبَّع عِند الفَوز فَارّاً، وَلاَ يُهِين إِمْرَأَة وَإِنْ سَبّته فإِنّ ٱلنِّسَاء ضَعِيفات. وَهَذَا دَلِيل الْخُصُومَة الشَّرِيفَة، وَنُبل الخُلق.

وَقَالَ فِي عَهْدِهِ إِلىٰ الأَشْتَرِ «وَلْيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ، بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّىٰ يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ؛ فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ، وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلاَةِ ٱسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ. وإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ، وَ لَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ عَلَىٰ وُلَاةِ الأُمُورِ، وَقِلَّةِ ٱسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَتَرْكِ ٱسْتِبْطَاءِ ٱنْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ، فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَىٰ ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

ثُمَّ ٱعْرِفْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَىٰ، وَلَا تَضُمَّنَّ بَلَاءَ ٱمْرِئٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَ لَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ ٱمْرِئٍ إِلَىٰ أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: الْخُطْبَة (١٧).

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَةُ (٣)، وتُعْرَفُ بالشِّقشِقِيَّة لِقَول الإِمَام عليه السلام بعدها: تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ، ثُمَّ قَرَّتْ.

صَغِيراً، وَلاَ ضَعَةُ ٱمْرِئٍ إِلَىٰ أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيماً»[١].

خِتَامٌ

وَالآنْ قَد سِرْنا فِي نَهْج ٱلْبَلاَغَة شَوطاً يُغرِينا بِالاِسْتِزَادَة فَلْنَقف، وَإِذَا كَانَ الإِمَام عَليّ قَد نَهىٰ قَومَه عَن أَنْ يَمدحُوه فَلا يُخَافنَّ اليَوْم ٱغْتِرَاراً وَهُو بَعِيد عَن حَيَاة الغُرُور، إِنْ نَحْنُ ٱنْحَنِينَا أَمَام عَبقرِيته. لَقَد حَبَانا نَهْج ٱلْبَلاَغَة فَأَحسَن مَا حَبَانا، فَلنُطَبق عَلَيْهِ قَوْله: «قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ»[٢].

---

(١) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ لهُ عليه السلام إِلىٰ مَالك الأَشْتَر، رَقم (٥٣).

(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٨١).

مقدّمة السيّد الشّريف الرّضيّ

أَمّا بعدَ حَمدِ اللهِ الّذي جَعَلَ الحَمْدَ ثَمَناً لِنعمَائِه، وَمَعاذاً مِنْ بَلائِه، وَسَبِيلاً إِلَىٰ جِنانِه، وَسَبَباً لِزِيَادَة إِحْسانِه، والصَّلاة عَلَىٰ رَسُولِه نَبيّ الرَّحْمَة، وإمامِ الأَئِمَّة، وَسِراج الأُمّة المُنْتَخَب مِنْ طِينَةِ الكَرَم، وَسُلالَة المَجدِ الأَقْدَم، وَمَغرِسِ الفخارِ المُعَرِّق، وَفَرعِ العَلاءِ المُثمِرِ المُورِق، وَعلىٰ أَهْل بَيْتِه مَصابِيح الظُّلَمِ، وَعِصَمِ الأُمَم، وَمَنَار الدِّين الواضِحَة، ومَثَاقِيل الفَضْل الرَّاجِحَة صلّىٰ اللهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِين صَلاةً تَكُونُ إزاءً لِفَضلِهِم، وَمُكافأةً لَعَمَلِهِم، وَكَفَاءً لِطِيب فَرعِهِم، وأصلِهِم مَا أَنَارَ فَجرٌ سَاطِعٌ، وخَوىٰ نَجمٌ طَالِعٌ، فَإِنّي كُنتُ فِي عُنفُوانِ شَبابِي، وَغَضَاضَةُ الغُصنِ ٱبْتَدأْتُ بِتَأْلِيف كتابٍ فِي خَصائِصِ الأَئِمَّة عليهم السلام يَشتَمِلُ عَلَىٰ مَحَاسِنِ أَخْبَارهم، وَجَواهِر كَلامهم حَدَانِي عَلَيْهِ عَرَضٌ ذَكرتُهُ فِي صَدرِ ٱلْكِتَاب، وَجَعلتهُ أمامَ الكَلاَم، وَفرَغتُ مِن الخَصائِص الّتي تَخصّ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِين عَلِيّاً عليه السلام، وَعاقَت عَن إِتْمَامِ بَقِيّة ٱلْكِتَاب مُحاجَزاتُ الأَيّام، وَمُماطَلاتُ الزَّمان.

وَكُنتُ قَدْ بَوَّبْتُ مَا خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ أَبْوَاباً، وَفَصَّلتهُ فُصُولاً فَجاءَ فِي آخرها فَصلٌ يَتَضَمنُ مَحاسِنَ مَا نُقِلَ عنهُ عليه السلام مِن الكَلاَم القَصِير فِي المَواعظ، والحِكَم، والأَمْثَال، وَالآدَاب دوُن الخُطب الطَّويلة، وَالكُتب المَبسُوطة فَٱستَحسَنَ جماعَةٌ مِن

الأَصدقَاء مَا ٱشتملَ عَلَيْهِ الفَصل المُقدَّم ذِكرهُ مُعجَبِّين بِبدَائِـعه، وَمُـتَعجبِّينَ مِـن نواصِعه، وسَأَلُونِّي عِندَ ذَلِكَ أَنْ أَبتَدئَ بِتَأليف كِتَابٍ يحتَوي عَلىٰ مُختَار كَلاَم أَمِـير ٱلمُؤمِنينَ عليه السلام فِي جَمِيع فُنُونه، ومُتشَعبات غُصُونِهِ مِنْ خُطبٍ، وكُتُبٍ، ومـواعـظٍ، وَأدبٍ عِلماً أَنّ ذَلِكَ يَتَضمن مِنْ عَجَائبِ ٱلْبَلاَغَة، وَغَرَائِب الفَصَاحَةِ، وَجَـواهـرِ العَرَبيَّة، وَثوَاقبِ الكَلِم الدِّينِية، وَالدّنيويّة مَا لا يُوجد مُجتمعاً فِي كَلاَمٍ، وَلاَ مَجمُوع الأَطراف فِي كتَابٍ إِذَا كَان أَمِير ٱلمُؤمِنِين عليه السلام مَشرَع الفَصاحَةِ وَمُوردهَا، وَمَـنشَأ ٱلْبَلاَغَة وَمولدهَا، وَمِنهُ عليه السلام ظَهر مكنُونها، وَعَنهُ أُخذتُ قوَانِينها، وَعَـلىٰ أَمـثِلته حَذا كلّ قَائِل خَطِيب، وَبِكَلاَمِهِ ٱستعَانَ كلّ وَاعظ بَـلِيغ، وَمَـع ذَلِكَ فَـقَدْ سَـبَقَ وقَصّروا، وَتَقَدَّم وتَأخَّرُوا؛ لأنّ كَلاَمه عليه السلام الكَلاَم الَّذي عَلَيه مَسْـحَةٌ مِـن ٱلْـعِلم الإِلهي، وَفيهِ عَبقةٌ مِن الكَلاَم النَّبويّ فأجَبتهم إِلىٰ الاِبْتِدَاء بِذلكَ عَالِماً بِمَا فِيهِ مِـنْ عَظِيمِ النَّفْعِ، ومَنْشُور الذِّكرِ، ومَذْخُور الأَجرِ، وَٱعْتَمدْتُ بِه أنْ أُبيِّنَ عَنْ عَظِيمِ قَدْرِ أَمِير ٱلمُؤمِنِين عليه السلام فِي هَذهِ الفَضِيلة مُضافَةً إِلىٰ المحَاسِن الدَّاثِرَةِ، وَالفَصَاحَةِ الجَـمَّةِ، وأنّه عليه السلام ٱنْفَردَ ببلُوغ غَايتهَا عَنْ جَمِيع السَّلَفِ الأَوَّلِين الَّذِينَ إنّمَا يُؤثر عَـنْهُم مِـنْهَا القَلِيلُ النَّادِرُ، وَالشَّاذُ الشَّارِدُ، فأمّا كَلاَمُه عليه السلام فَهُو البَحْرُ الَّذي لا يُسَاجَلُ، والجَمُّ الَّذي لا يُحَافَلُ.

وَأَرَدْتُ أنْ يُسَوغَ لِيَ التَّمثِيلُ فِي الإِفْتخَار بِه عليه السلام بِقَول الْفَرَزْدَق(١):

أُولَـئِكَ آبَـائِي فَـجِئْنِي بِمْثلِهِم إِذَا جَمَـعَتْنَا يَـا جَـرِيرُ المَجَـامِعُ

وَرَأَيْتُ كَلاَمُه عليه السلام يَدُورُ عَلىَ أَقْطابٍ ثَلاَثَةٍ:

---

(١) أنظر، مُختصر المعَاني لِسعَد الدِّين التَفتَازَاني: ٥٣، حقَائق التَّأوِيل: ٣٢١، العِلل لأَحْمَد: ١/ ٢٠، الإِصَابَة: ١/ ٤٦، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لابن أَبي ٱلْحَدِيد: ١/ ٤٦.

أَوَّلهَا : الخُطَبُ ، وَالأَوَامِرُ .

وَثَانِيهَا : الكُتُبُ ، وَالرَّسائلُ .

وَثَالِثهَا : الْحِكَمُ ، وَالموَاعِظُ .

فَأَجْمَعْتُ بتَوفِيق اللهِ جَلَّ جَلالهُ عَلىَ الابْتِدَاء بٱخْتِيارِ محاسِنِ الخُطَبِ ، ثُمّ محَاسِن الكتُبِ ، ثُمّ محَاسِن الحِكَمِ ، وَالأدَب مُفْرداً لِكُلّ صنْفٍ مِنْ ذَلِكَ بَاباً ، وَمُفصِّلاً فِيهِ أوْرَاقاً لتكُونَ مُقدِّمة لإسْتِدراكِ مَا عَسا أنْ يَشِذَّ عَنّي عَاجِلاً ، وَيَقعُ إليَّ آجلاً ، وَإِذَا جَاءَ شَيءٌ مِنْ كَلاَمه عليه السلام الخَارج فِي أثْنَاءِ حِوَارٍ ، أو جَوابِ سؤالٍ ، أو غَرضٍ آخر مِنْ الأَغْرَاض فِي غَيْرِ الأَنْحَاءِ الَّتي ذكرتُها ، وقَرّرْتُ القَاعِدةَ عَلَيْهَا نَسبْتُه إلىٰ أَلْيَقِ الأبْوابِ بِهِ ، وَأشَدِّهَا مَلاحَةً لِغَرضِهِ ، وَرُبَّمَا جَاءَ فِيَّا أَخْتَارهُ ذَلِكَ فصُولٌ غَيْرُ مُتَّسِقَةٍ ، وَمحَاسِنُ كَلِمٍ غَيْرُ مُنْتَظِمَةٍ ؛ لأنّي أوردُ النُّكَتَ ، وَاللُّمَعَ ، وَلاَ أقْصِدُ التَّتالِيَ ، وَالنَّسقَ ، ومِنْ عجائبِهِ عليه السلام الَّتي ٱنْفَردَ بها ، وَأمِنَ المُشَارَكةَ فِيْهَا أنّ كَلاَمه عليه السلام الوارِدَ فِي الزُّهْد ، وَالموَاعِظِ ، وَالتَّذْكيرِ ، وَالزَّوَاجِرِ إِذَا تأمَّلَهُ المُتأمِّلُ ، وَفكَّرَ فِيهِ المُتفكِّرُ ، وَخلَعَ مِنْ قَلْبِه أنّه كَلامُ مثْلِه مِمَّنْ عَظُم قَدْرُهُ ، وَنَفذَ أمْرُهُ ، وأَحَاطَ بالرِّقَاب مُلْكَهُ لَمْ يَعْتَرِضهُ الشَّكُ فِي أنّهُ مِنْ كَلامِ مَنْ لاحَظَّ لهُ فِي غَيْرِ الزَّهادَةِ ، وَلاَ شُغلَ لَهُ بِغَيْرِ الْعِبَادَةَ قَدْ قَبَعَ فِي كَسرِ بَيْتٍ ، أو ٱنْقطَعَ فِي سَفْحِ جبَلٍ لاَ يَسْمَعُ إلاّ حِسَّهُ ، وَلاَ يَرىٰ إلاَّ نَفْسَهُ ، وَلاَ يَكَادُ يُوْقِنُ بأنّهُ كَلامُ مَنْ يَنْغَمِسُ فِي الْحَرْب مُصْلتاً سَيْفَهُ فَيَقُطُّ الرِّقَاب ، ويُجَدّلُ الأَبْطَالَ ، وَيَعودُ بِهِ يُنْطُفُ دَمّاً ، وَيَقطرُ مُهجاً ، وَهُو مَعَ تِلكَ الحَالِ زَاهِدُ الزُّهادِ ، وبَدل الأبْدالِ ، وهَذِه مِنْ فَضَائِلِهِ العَجِيْبةِ ، وَخَصَائِصه اللّطِيفة الَّتي جَمعَ بِها بَيْنَ الأضْدادِ ، وَٱلّفَ بَيْنَ الأشْتَاتِ ، فَكَثِيراً مَا أُذاكِرُ الإِخْوانَ بِها ، وأَستَخْرِجُ عُجْبَهُمْ مِنْهَا ، وَهِي مَوضِعٌ لِلعِبْرَةِ بِها ، والفِكْرَةِ فِيْهَا ، ورُبَّمَا جَاءَ فِي أثْنَاءِ هَذَا

الاخْتِيارِ اللّفْظُ المُردَّدُ، والْمَعْنَىٰ المُكرَّرُ، والعُذْرُ فِي ذَلِكَ أنَّ رِوايات كَلاَمه عليه السلام تَخْتَلفُ ٱخْتِلافاً شَديداً فرُبَّمَا ٱتَّفَقَ الكَلاَمُ المُخْتَارُ فِي رِوَايةٍ فَنُقِلَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ وُجِدَ بَـعْدَ ذَلِكَ فِي رِوايةٍ أُخْرىٰ مَوْضُوعاً غَيْرَ وَضْعِهِ الأَوَّل. إمّا بزيادةٍ مُخْتَارةٍ، أو لَفْظٍ أحْسَنَ عِبَارةً فَتَقْتَضِي الحَالُ أنْ يُعادَ ٱسْتِظْهاراً للإخْتِيارِ، وَغَيْرَةً عَلَىٰ عَقَائِلِ الكَلامِ، ورُبَّمَا بَعُدَ العَهْدُ أيضا بِما ٱخْتِيرَ أوّلاً فأُعِيدَ بَعْضُهُ سَهْواً، أو نُسيَّاناً لا قَصْداً، وٱعْتِمَاداً، وَمَا أدْعي مَعَ ذَلِكَ أنّي أُحيطُ بِأَقْطَارِ جَميع كَلاَمِهِ عليه السلام حَتَّىٰ لا يَشذَّ عَنّي مِنْهُ شَاذٌ، وَلاَ يَنِدَّ نَادٌ، بَلْ لا أُبْعِدُ أنْ يَكونَ القَاصِرُ عَنّي فَوْقَ الوَاقِع إليَّ، والحَـاصِلُ فِي رَبْـقَتي دُونَ الخَارِجِ مِنْ يَدَيَّ، ومَا عَلَيَّ إلاَّ بَذْلُ الجُهْدِ، وَبَلاغُ الوُسْعِ، وَعَلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ نَهـجُ ٱلسَّبيل، ورَشَادُ الدَّليلِ، إنْ شَاء اللهُ تَعَالَىٰ.

وَرَأيْتُ مِنْ بَعْدُ تَسْمِيَةُ هَذَا ٱلْكِتَاب بِنَهْجِ ٱلْبَلاَغَة إذْ كَـانَ يَـفْتَحُ لِـلنَّاظِرِ فِـيهِ أبْوابَهَا، ويُقَرِّبُ عَليهِ طِلابَهَا فِيهِ حَاجَةُ العَالِمِ، والمُتَعَلِّم، وَبَغْيَةُ البَـلِيغ، والزَّاهِـد، وَيَمْضي فِي أثْنَائِه مِنْ عَجِيْبِ الكَلاَمِ فِي التَّوْحِيد، والعَدْلِ، وَتَنْزِيهِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ شَبَهِ الخَلْقِ مَا هُو بِلالُ كُلِّ غُلَّةٍ، وشِفَاءُ كُلِّ عِلَّةٍ، وَجِلاَءُ كُلِّ شُبْهَةٍ، وَمِـنَ اللهِ تَعَالَىٰ ٱسْتَمِدُّ التَّوْفِيقَ، وَالعِصْمَةَ، وأتَنَجَزُ التَّسْدِيدَ، وَالمَعُونَةَ، وٱسْتَعِيذُهُ مِنْ خَطَإِ الجِنَانِ قَبْلَ خَطَإِ اللِّسَانِ، وَمِنْ زَلّةِ الكَلِم قَبْلَ زَلّـةِ القَـدَمِ، وَهُـوَ حَسْـبِي، وَنِـعْمَ الوَكيلُ.

باب ... الخطب

من خطب مولانا امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ومن خطبة

له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والارض وخلق آدم

الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ولا يحصي نعماءه العادون

الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن

الصَّفْحَة الأُولَىٰ مِن النُّسْخَة الخَطِّيَّة

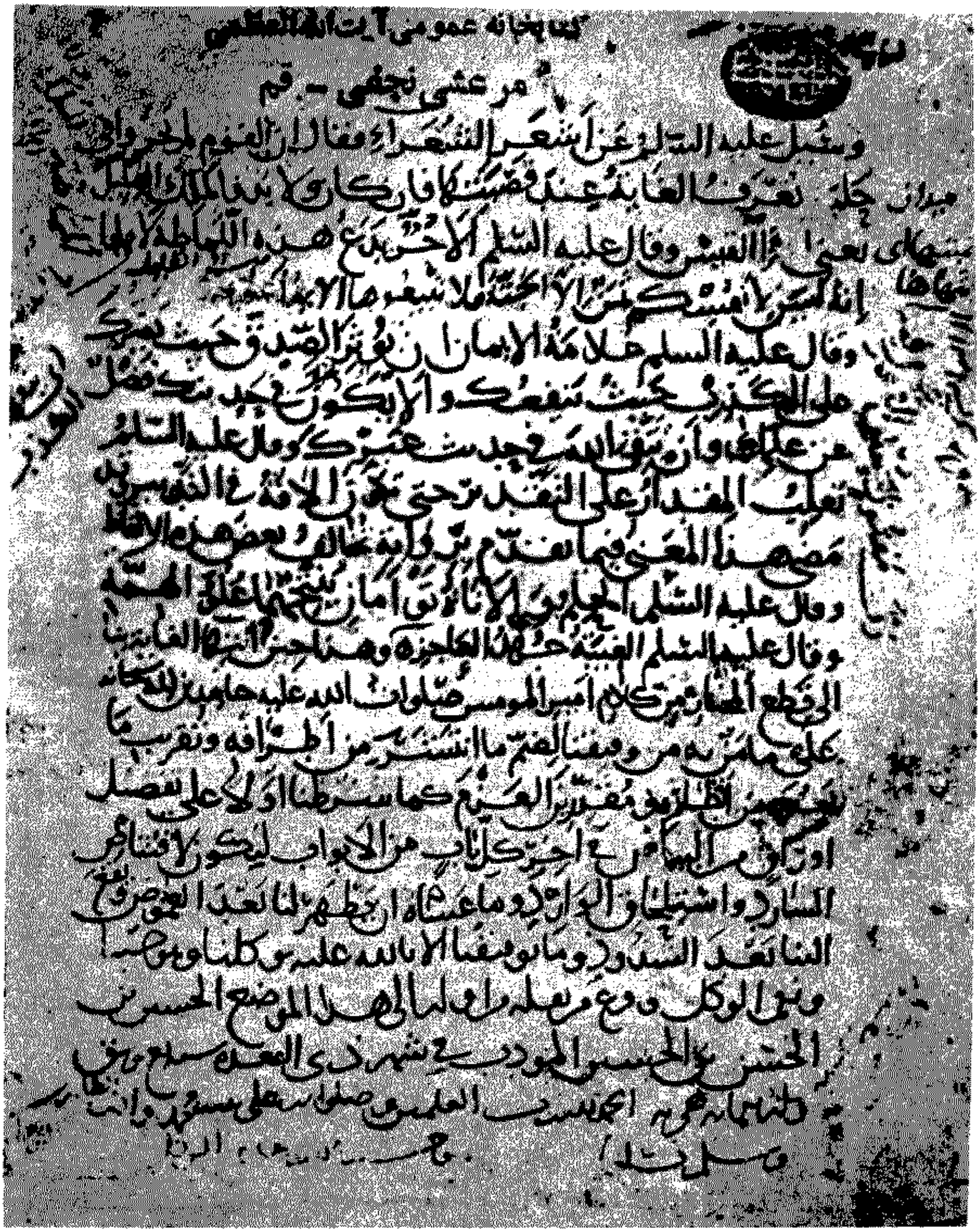

الصَّفْحَة الأَخِيرَة مِن النُّسْخَة الخَطِيَّة

مُقدِّمَةُ الشَّارِح

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَأَحْمَده، وَأَسْتغفِره، وَأُصلي عَلىٰ نَبيِّه ٱلْكَرِيم وَآله الأَطهَار.

وَبَعد:

فَهَذا هُو المُجَلَّد الأَوَّل مِن شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة، ورُبَّمَا بَلغ أَلفي صَفْحَة فِي أَرْبَعَة مُجَلَّدَات... هَذَا، إنْ كَانَ فِي الأَجَل فُسْحَة، وَسَمَحت الظُّرُوف، وَصَدق التَّقدِير، فَقَد عَلمَتنِي الأَيَّام، وَأَحدَاثها أنَّ وَرَاء كُلّ ظَاهر بَاطِناً، وَقَبل كُلّ شَيء قَضَاءً، وَتَدبِيراً.

التَّأْلِيف:

وَالتَّأْلِيف ـ بِالنِّسبَة إليَّ عَادَة، وَمُثَابَرة، وَنِظَام... فَمَا غَيرّت فِي صَيفٍ، أو شِتَاءٍ، وَلنْ أُغيِّر مَوعد أَكْلِي، وَنَوْمِي، وَشُرْبِي الشَّاي، وَقِرَاءَتِي، وَكِتَابَتِي، وَخُرُوجي مِن المَنْزِل إلاَّ لِضَرُورة قَاهِرة. وَكُنْتُ قَد عَزمتُ عَلىٰ تَرك التَّأْلِيف، أو تَصوَرتُ ذَلِكَ بَعد ٱنتهَائِي مِن «التَّفْسِير الكَاشف»، وَلكنْ نَفْسي عَاكَست،

وَتَغلبَت. وَنَفْس ٱلإِنْسَان أَشد المَخلوقَات وأَكْثَرها مُعاكَسة، وَمُشَاكَسة، وأَقوَاها عَلَىٰ عَقْله وَأَفْكَاره... وَكَان مِن ثمَار هَذِه المُعَاكَسة ـ حَتَّىٰ الآنْ ـ كِتَابَا: فَلْسَفَة التَّوْحِيد، وَالْوِلاَيَة، وَهَذَا المُجلَّد مِن الشَّرح.

وَمَا أَبْعَد تَصوري تَرك التَّأْلِيف ـ عَن أُمْنِيَتِي فِي ذَات يَوْم أَنْ يَنْعَم الله عَليَّ، وَأنا فِي القَبْر، بِمكتَبةٍ، وَدَوَاة، وَقُرطَاس... اَقرَأ، وَأُفكر، وأُسجل، وإنْ دَل هَذَا التَّنَاقض عَلَىٰ شَيء فإِنَّما يَدلُ عَلَىٰ أَنَّ تَصورَات ٱلإِنْسَان، وَأفْكَاره تَخْضَع لِلظّروف الَّتِي تُحِيطُ بِه، وَالدُّنْيَا الَّتِي يَعيشهَا، وَلَيْسَ مِن شَكٍّ أَنّي حِين تَمنيت مَكْتَبة القَبْر كُنتُ سَعِيداً فِيمَا كَتبتُ، أَو قَرأتُ، وَكَان البَاب مُغلقَاً عليَّ، لاَ أَحسّ بِشيء مِن حَولِي.

هَـذَا مِن فَضْلِ رَبِّي:

وَأيضَاً كُنتُ مِن قَبل إِذَا أَنجَزت مُؤلَّفاً، قُلتُ فِي نَفْسي: «هَـذَا مِن فَضْلِ رَبِّي»... وَصَادف فِي ذَات يَوْم أَنْ مَرَرت بِبِنَايَة شَاهِقَة بَاسِقَة ـ فِي شَارع مِن شوَارع بَيرُوت ـ وَفُوق مَدخلهَا صَخرَة مِن رُخَام، كُتبَ عَلَيْهَا بِخَطٍ كَبِيرٍ، وَعمِيق: « هَـذَا مِن فَضْلِ رَبِّي »... فَقُلت ـ أيضَاً ـ فِي نَفْسي: وَمَا يُدرِيك أَنْ يَكُون هَذَا مِن إِمهَاله تَعَالَىٰ وَنقْمَته، لاَ مِن فَضْلِه، وَرَحمته؟. أَمَا هَدد سُبْحَانَهُ، وَتَوعَد بَعْض أَربَاب الأَمْوَال، والأَوْلاَد بقَوْله: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[1]. وَقَوْله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[2]؟.

---

(١) ٱلْمُؤْمِنُونَ: ٥٤ ـ ٥٦.

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ١٧٨.

وَمِن هُنا انطَلق بِي التّفكِير فِيماكَتبتُ، وأَذعتُ، وتَساءَلتُ: وَأنَا أيضاً مَا يُدرّيني أنّ مُؤلفَاتي، وَمَا تَدرهُ عَليَّ مِن حَقِّ التَّأْلِيف ـ قَد بَعَثت فِي نَفْسي الزّهُو، والغُرُور مِن حَيْث لاَ أَحسّ، وَأُرِيد؟ وَأَي فَرق بَيْنَ حَانُوت، أَو عِقَار، وَبَيْنَ كِتَاب، أَو مَقَال يُدر كلّ عَلَىٰ صَاحِبه الفُلُوس، وَالنُّقُود؟ ثُمّ هَل غَيّرت كُتبي ـ وَهِي بِالعشَرات ـ شَيْئاً مِن الأَوْضَاع الفَاسِدة، أَو اهتدَىٰ بِها أَحد فِي شَأنٍ مِن شُؤوُن الحَيَاة، وَنَقلَته مِن حَالٍ إِلىٰ حَال، أَو أَوجَدت آلة تَدُور عَجْلَتها لإِنْتَاج مَأكل، أو مَلْبس، أَو أَي شَيء لِخَير الإِنْسَان، أَو أَنّهَا حَركت وجدَان الجَماهِير، وَدَفْعَت بِهِمْ إِلىٰ الثَّورة ضِدّ الظُّلم، وَالطُّغاة؟. وَأيّة جَدوىٰ مِن المُؤلفَات، وَالخُطب، وَالمقَالاَت إِذَا لَمْ يَهتد بِها النَّاس فِي أَزْمَاتِهم، وَقَضَاء حَاجَاتِهم؟.

كُلّ هَذِه التّسَاؤلات، أَو التّصورَات جَاءت مِن وَحي الآيَة، وَصخرَة البِنَايَة... وَعِندهَا وَددتُ لَو كُنتُ شَهيداً، أَو طَرِيداً، أَو سَجِيناً، أَو جَرِيحاً وَلو بِنُقطَة دَمٍ فِي سَبِيل الله بَدل الأَرْبَعِين كتَاباً بِمَا فِيهَا مَوسُوعة (فِقْه الإِمَام) و (التَّفْسِير الكَاشِف) وَ (شَرح النَّهْج)، أنْ قُدّر لهِ التّمَام. أمَا حَدِيث: «يُوزن غَداً مِدَاد الْعُلَمَاء مَع دِمَاء الشُّهدَاء، فَيرجَح مِدَاد الْعُلَمَاء عَلَىٰ دِمَاء الشُّهدَاء»[1]. أَمَا هَذَا المِدَاد فَالمُرَاد بِه مَا يَهدي لِلَّتي هِي أَقوَم، وَيَحل وَلو مُشكِلَة وَاحِدَة مِن مُشكلاَت الحَيَاة. وَالدَّلِيل مُقَارنَته بِدمَاء الشُّهداء الَّذين ضَحوا بِأنْفسهم فِي سَبِيل الْعَدْل، وَالحُرِّيَّة، وَفِي جِهَاد

(١) أُنظر، كَشف الخَفَاء: ٢٦٢/٢ ح ٢٢٧٦ وح ٣٢٨١، الفِرْدَوْس بمَأثور الخِطَاب: ٤٨٦/٥ ح ٤٨٨، لِسَان المِيزَان: ٢٢٥/٥ ح ٧٩٤، العِلَل المُتَناهِية: ٨٠/١ ح ٨٤ و ٨٥، فَيض القَدِير: ٣٦٢/٦، آدَاب الإِملاَء وَالإِستملاَء لعبدالكَرِيم بن مُحَمَّد بن منصُور، طَبعَة دَار الكُتب العِلمِية، بَيروت، تَحقِيق: مَاكس فَايسقَايلر: ١٦٢/١، تَأرِيخ جُرجَان: ٩١/١ ح ٥٢.

الْبَغْي، وَٱلْفَسَاد.

الدِّين، وٱلْحَيَاة

وَعَلَىٰ أيَّة حَال فَإِنِّي أَعتقد جَازِماً بِأنّ الهَدَف مِن الدِّين بِعَقِيدته، وَشَرِيعته هُو إِصلاَح ٱلْحَيَاة، وَتَنظِيمها، وَالسِّير بِها إِلىٰ الأَفْضَل، وَالأَكْمَل، وَإِنّه حَيْث تُوجد المَصْلحَة فَثَّم شَرع الله، سوَاء أَكَانَتْ المَصْلحَة عَامَّة، أَو خَاصَّة فِي حدُود مَا أَحَل الله. وَمِن أَجل هَذَا تَبنيتُ فِي جَمِيع مَا كَتبتُ قضَايا الشّعوب، وَمَطالب النَّاس، كُلّ النَّاس، وَلاَقيت مِن أَثر ذَلِكَ مَا لاَقَيت مِن العُملاَء، وَالأَدعِياء... وَهَـذَا عَـزَائِي وَسلوَاي... وَالْحَمْدُ لله.

وَبِهَذه المُنَاسبة أُشير إِلىٰ أنَّ الجَوَامِع، وَالكنَائِس لَو تَبنت بِصدقٍ، وَإِخْـلاَص مطَالب الْعِبَاد، وَآمَالهم لأقبَلوا عَلَيْهَا إِقبَالهم عَـلَىٰ مَـصَالحهم، وَمَـنَافعهم. وَمِـن البَدَاهة أنَّ دِين الله يَقر، وَيُبارك كُلّ مَا فِيهِ خَير ٱلإِنْسَان بِجهَة مِن الجِـهَات، بَـل حَثّ دِين الله، وَأَمر بِالجِهَاد، وَإِعْلاَن الثَّورة عَلىٰ الطُّغَاة، وَالمُسْتَغلِين مِـن أَجـل ٱلْمُسْتَضْعَفِين، وَالمُعَذَّبِين.

قَالَ عَزَّ مَن قَائِل: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَتُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾[1]. وَبَخَّ سُبْحَانَهُ فِي هَذِه الآيَة مَن لاَ يثُور، وَيُـقَاتِل لخَـلاَص المَظلُومِين، وَٱعتَبر الثَّورة مِن أَجلِهم تَمَاماً كَٱلْقِتَال فِي سَبِيله، بَل هِي هُو.

وَقَالَ الإِمَام عليه السلام: «وَ مَا أَخَذَ اللهُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَىٰ كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَ لاَ سَغَبِ

---

(١) ٱلنِّسَاء: ٧٥.

مَظْلُومٍ، لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَىٰ غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا»[١]. وَالمقَارَّة المُوَافقة، وَالكِظَّة التُّخْمَة، وَالسَّغَب شِدَّة الجُوع. وَمُجمَل مَا أَرَاده الإِمَام أَنَّه: لَوْلاَ عَهد الله، وَمِيثَاقه عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ أَنْ لاَ يَسكتُوا عَن التَّفَاوت الفَاحِش بَيْنَ النَّاس فِي لُقْمَة العَيش بِحَيث يُتْخَم البَعض، وَيَمُوْت البَعض الآخر جُوعَاً ـ لمَا جَاهَد فِي الإِبْقَاء عَلَىٰ حقّه الثَّابت فِي المُخَالفة... وفِي خُطْبَة ثَانِيَة: «اَضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ فَهَلْ تُبْصِرُ إِلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلاً اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللهِ وَفْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً»[٢].

وَإِذَا كَان الله سُبْحَانَهُ قَد أَخذ العَهد وَالمِيثَاق عَلَىٰ رِجَال الدِّين، وَالعِلم بِه أَنْ يُجَاهدُوا لخَلاَص المَظْلُومِين، وَيُعلنُوا الثَّورة عَلَىٰ مَن طَغَىٰ، وَبغَىٰ ـ فَلِمَاذا يَسكتُون وَلاَ يَثُورُون؟. وَهَل سَكتُوا جَهلاً بدِّين الله، وَكِتَابه، أَو جُبنَاً، أَو إِقْرَاراً لِلظَّالم عَلَىٰ كِظَّتِهِ، وبِطْنَتِه، أَو أَنَّ البَعض مِنْهُمْ قَبَض، وَنَقض، أَو خَوْفاً أَنْ تُلصَق بِهِمْ قوىٰ الشَّرّ، الافْتِرَاء، وَالتُّهم؟... ثُمّ مَاذَا؟ فَلقد شَنّ النَّبِيّ ﷺ حَرْباً شَعوَاء عَلَىٰ المُتْنَكِبِين عَن الطَّرِيق، فحَارَبُوه بِالدّعَايَات، وَالافْتِرَاءَات، وَقَالُوا: إِنَّه مَجْنُونٌ، وَكَاهِنٌ، وَكَذَّابٌ، وَطَالب مُلك.

نَهْج اَلْبَلاَغَة:

وَزَعم زَاعِم أَنَّ نَهْج اَلْبَلاَغَة لِلشَّرِيف الرَّضِيّ لاَ لِلإِمَام ؑ، وَأَبطَل أَهْل التَّنقِيب، وَالتّدقِيق هَذَا الزّعم بِأدِلَّة، مِنْهَا أَنَّ خُطب النَّهْج، أَو أَكْثَرها مُدونَة فِي

(١) أنظر، نَهْج اَلْبَلاَغَة: الخُطبَةُ (٣).

(٢) أُنظر، نَهج اَلبَلاَغَة: الخُطبَةُ «١٢٩».

كُتب الشِّيعة وَالسُّنَّة مِن قَبل أنْ يُوْلَد الشَّرِيف الرَّضِيّ بِسنوَات[١]. وَتَكَلَّمتُ عَن ذَلِكَ فِي كِتَاب: فَضَائِل الإِمَام عَليّ، وَكتَاب: عَليّ وَالفَلْسَفَة. وَالقَوْل الفَصل فِي نِسْبَة النَّهج إِلىٰ الإِمَام هُو أنْ نَنظُر، وَنُحَاكم مَا جَاء فِيهِ عَلىٰ أَساس كتَاب الله، فمَا وَافق مِنْهُ الكتَاب فَهُو مِن قَول الإِمَام، لأنَّه مَع ٱلْقُرْآن، وَٱلْقُرْآن مَعهُ، وَمَا خَالفَه فلاَ عِلاَقَة لهُ بالإِمَام مِن قَرِيبٍ، أَو بَعِيدٍ. وَقَد توَاتر عَن أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام قَوْلهم: «لاَ تَقْبَلُوا عَلينَا خِلاف ٱلْقُرْآن، فَإِنَّا إِنْ تَحدثنَا بِموَافقة ٱلْقُرْآن، وَالسُّنَّة، إِنَّما عَن الله، وَعَن رَسُوله نُحدث، وَلاَ نَقُول: قَالَ فُلاَن، وَفُلاَن، فَإِذا أَتَاكُم مَن يُحدِثكم بِخلاَف ذَلِكَ فَردُّوه، إِنَّ لِكَلامنا حَقِيقَة، وَإِنَّ عَلَيْهِ لنُوراً. فمَا لاَ حَقِيقَة لهُ، وَلاَ نُور عَلَيْهِ فَذَاكَ قَول الشَّيْطَان»[٢].

وَمَا مِن كَلِمَة فِي نَهج ٱلْبَلاَغَة إلاَّ وَدل عَلَيْهَا ٱلْقُرْآن بِالتّفصِيل، أَو الاِجْمَال مَع العِلم بِأنَّ كَلاَم الله قَد تَفرد بِخصَائِص كَثِيرَة لاَ يُشاركه فِيهَا كَلاَم البَشر أيّاً كَان قَائِله، وَهَذِه الْحَقِيقَة يُدركها كُلّ مَن قَرأ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٣].

وأَعْتَرِف بِأنِّي أَدركتُ هَذِه الْحَقِيقَة بَعد أنْ فَسرت ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم. وَبَاشرتُ بِشَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة، وَكُنتُ مِن قَبل أَشبَه بِالمُقلد... بَل كَان قَد عَرضت لِي شُبهة فِيهَا شَائِبَة مِن الغُلوّ... ثُمّ زَالت إِلىٰ غَيْر رَجْعَة بِحَمد الله، وَبِفَضل النَّهج، وَشَرحه،

(١) أَثبَت هَذِه الْحَقِيقَة بِالأَرْقَام، وَمَنطق الْحِسّ الأخ العَلاّمة الشّيخ عبدالله نِعْمَه فِي كتَاب: مصَادر نَهْج ٱلْبَلاَغَة، وَقَد طُبع، وَوزع عَلىٰ المكَاتب. (مِنْهُ رحمه الله).

(٢) أُنظر، بِحَار الأَنْوَار: ٢/ ٢٥٠ ح ٦٢، الحَدَائِق النَّاضِرة: ١/ ١٠، رِجَال الكَشي: ٢/ ٤٨٩ ح ٤٠١.

(٣) سُورَةُ ق: ٣٧.

فَلَقد لَمِستُ، وَأَيقنتُ، وَأنا أَشرح النَّهْج، أنّ الفَرق بَيْنَ كتَاب الله، وَنَهْج ٱلْـبَلاَغَة تَمَاماًكَالفَرق بَيْنَ الخَالِق وَالمَخْلُوق، وَالرَّب وَالمَربُوب. وَمرّة ثَانِيَة الحَمْدُ لله.

مَوَاضِع النَّهْج:

وَمواضِيع النَّهج مُتنوعة تَمَاماًكمواضِع ٱلْقُرْآن. فَقَد تَكَلَّم الإْمَامعليه السلام عَن الله وَصِفَاته، وَعَن النُّبُوَّة وَالْيَوْم الآخِر. وَمَنْهَجه فِي إِثبَات وجُود الله تَعَالَىٰ عَين مَنْهَج ٱلْقُرْآن، وَهُو الاِعْتَمَاد عَلَىٰ مَنطق ٱلْحِسّ، وَٱلْعَقْل، وَأَعْنِي بِمَنطق ٱلْحِسّ مُشاهَدة الكَوْن المَادي، وَمَا فِيهِ مِن صَنعةٍ، وَقَصدٍ، وَحِكْمَةٍ، وَتَدبِيرٍ يَشمل، وَيَعم جَمِيع ٱلْكَائِنَات مِن الذَّرَّة إِلىٰ أَعْظَم المَجَرَات، وَمَا هُم مِن أوضَاع مُحْكَمَة، وَأبعَاد مُحددة تُؤَدِّي إِلىٰ غَايَات مَعْقُولة. أَمَّا مَنطق ٱلْعَقْل فَأعني بِهِ التَّفكِير الهَادِيء السَّلِّيم، وَالتّساؤل عَن السَّبب المُوجب لهَذَا النِّظام، وَالتَّدبِير: هَل وُجب بِلا سَبب؟ كَيْفَ؟ وَهُو لاَ يَحمل فِي ذَاته الْعِلَّة الكَافِية لوجُوده... هَذَا، إِلىٰ أنّ الطَّبِيعَة عَمْيَاء صَمَّاء فكَيْفَ تُنظم، وَتُتقن؟ وإذَنْ فَلا مَحيص مِن الاِنْتِهَاء إِلىٰ قَاصِدٍ حَكِيم، وَقَادر عَلِيم يَمنح الْوُجُود، وَهُو قَائِم بذَاته لاَ يَستمد مِن غَيْره، وَإلاَّ غَرق العَالم، وَٱلْعَقْل مَعهُ فِي تَجْرِبَة اللاَشيء... وَقَد أَشَار سُبْحَانَهُ إِلىٰ هَذَا المَنْهَج بقَوْله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1]. وَالمُرَاد بِالحَقِّ هُنا وجُود الله سُبْحَانَهُ.

وَهَذَا هُو مَنْهَج الإِمَام بِالذَّات، وَهُو المَنْهَج السَّوي، وَبِهِ أَخَذ التَّجرِيبيُون،

---

(١) فُصِّلَتْ: ٥٣.

وَعُلَمَاء الطَّبِيعَة حَيْث يُشاهدُون ظوَاهرها ، ثُمّ يَتفرَغ وَاحد ، أَو نَفر مِنْهُمْ لِلبَحث فِي ظَاهِرة مِن الظّوَاهر ، وَيتَتبّع خصَائِصها ، وَآثَارها ، وَيَمضي فِي دَرسهـا ، وَتحـلِيلها حَتَّىٰ إِذَا ٱنتهىٰ ٱنتَقل مِن المُشاهدَة ، وَالإِدرَاك المُباشر إِلىٰ الاِستنتَاج ، وَالحُكم العَام عَلَىٰ أفرَاد تِلك الظَّاهِرة جَمِيعَاً مَا شَاهد مِنْهَا ، وَمَا غَاب عَنْه .

وَبِهَذا يَتبَيَّن مَعنا أنّ مَنْهج التّجرِيبين فِي إثبَات مَا يُثبتُون لِلطَّبِيعة مِن قَـوَانِـين عَامَّة ، وَيُرسلونه عَلَيْهَا مِن أَحْكَام تَشمل كلّ فَرد مِن أفرَاد تِلك الظَّاهِرة مَا كَان مِنْهَا ، وَمَا يَكُون ، يَتَبَيَّن أنّ مَنْهَج التّجرِيبين هَذَا هُو مَنْهَج ٱلْقُرْآن فِي إثبَات وجُود الله تَعَالَىٰ ، وَمنْهَج الْعُلَمَاء بالله ، وَبدِينه .. وإذَنْ فَلِمَاذَا الإِنْكَار ، وَالاِستنْكَار ، وَتَسمِية الإِيمَان بالله إِيمَانَاً بِالْغَيْب دُونَ الأَحْكَام الْعَامَّة عَلَىٰ الطَّبِيعَة ؟ . أَليس كُلّ مِنْهُمَا يَبتَنِي عَلَىٰ ٱلحِسّ ، وَٱلْعَقْل ؟ وَنُقل عَن (مَاكس بُورن) أنّ عَقِيدة (إِينْشتَاين) الدِّينِية تَقوم عَلَىٰ إِيمَانه بِقُدرة ٱلْعَقْل عَلَىٰ تَخمِين القَوَانِين الَّتي بَنىٰ الله العَالم بِمُوجبها .

وَبِقَصد التّوضِيح أَضربُ هَذَا المَثل : يَقرأ المُلحِد كتَاباً فَيُعجبه ، وَيُؤْمِن بوجُود المُؤلف ، وَأنّه مِن أَهْل الفَهم ، وَالعِلم ، وَمَعْنَىٰ هَذَا أنّه ٱنْتقل مِن عَالم الشّهَادة إِلىٰ عَالم الْغَيْب . وَمِثله تَمَامَاً مِن شَاهد الكَوْن العَجِيب ، وآمَن بوجُود المكُّون حَيْث ٱنْـتَقل كلٌّ مِنْهُمَا مِن الشَّهادة إِلىٰ الْغَيْب . وإذَنْ كَيْفَ جَاز لِلمُلحد أنْ يُنكر عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِن مَا أَثبَته هُو لنَفْسِه ، وَأنْ يَنْقُض مَا أَبرَم ، أو يُبرِم مَا نَقض ! فإنْ جَاز لِلعَقل أنْ يَنْتَقل مِمَّا شَاهد إِلىٰ مَا غَاب فِي الطَّبِيعيات ـ جَاز ذَلِكَ أيـضَاً فِي غَـيْرها ، وإنْ وَجَبَ عَـلَيْهِ الوقُوف عُند المُشاهدَة فكَذَلِكَ فِي كُلّ شَيء ، وَالفَرق خَطأ ، وَتَضلِيل .

وَأَيضاً تَكَلّم الإِمَامﷺ عَن الخَلق ، وَالطَّبِيعَة بِأرضهَا ، وَسَمائِها ، وَعَن ٱلإِنْسَان ، وَالشَّرِيعَة ، وَٱلْقُرْآن ، وَالسُّنَّة ، وَالْفُقَرَاء ، وَالأَغْنِيَاء ، وَعَـن الْجِـهَاد ، وَالأَخْـلاَق ،

وَٱلْعَقْل، وَالنَّفس، وَالعِلم، وَعَن الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَٱلْمَوْت وَسكرَاته.... إِلىٰ مَا لاَ يُحصىٰ كَثرَة. وَمَن ٱستَقرَأ، وتَتبَّع نَهج ٱلْبَلاَغَة يَحس أنّ كلّ كَلِمَة مِن كَلِمَاته تَنطَلِق بهِ مِن حَيْث لاَ يَشعر إِلىٰ الإِيمَان بالله، وَالاِلتزَام بدُينه، وَشرِيعته، أَمَّا حَدِيث الإِمَام عَن ٱلْمَوْت وَسَكرَاته، وَالقَبْر وَوَحشَته، وَعَن ٱلْحَشْرِ وَالنَّشر، ثُمّ الوقُوف لِلْحِسَابِ، وَعَن ٱلْجَنَّة وَونَعِيمُهَا، وَٱلنَّار وَجَحِيمها، أَمَّا حَدِيثه عَن ذَلِكَ كلّه فَيصح فِيهِ القَوْل: أنَّ الله هُو المُؤلف، وَالإِمَام هُو المُخرِج.

الْعِلْم، وَالْعَمَل:

يَرىٰ الإِمَام عليه السلام أنَّ ٱلْمَصْدَر الأَوَّل لِكلّ العُلوم، وَالمعَارف حَتَّىٰ الوَحي هُو ٱلْعَقْل وَحدَه، أَو مُنْضَماً إِلىٰ آخر كَالحَوَاس، فإِنَّهَا تُدرِك الأَشْيَاء المَادِية، ولَكِنَّهُ قد تَخدع الرّائي، والقَوْل الفصل فِي خَطئها، وَصوابها لِلعَقْل. فالْعَيْن ـ مَثلاً ـ تَرىٰ ٱلشَّمْس صَغِيرة، وَيَقُول: هِي أَكْبر بِكَثِير مِمَّا رَأت، وَالحَقّ مَعه، وإِلىٰ هَذَا أَشَار الإِمَام بقَوْله: «لَيْسَتِ الرَّوِيَّةُ كَالْمُعَايَنَةِ مَعَ الإِبْصَارِ، فَقَدْ تَكْذِبُ الْعُيُونُ أَهْلَهَا، وَلاَ يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنِ ٱسْتَنْصَحَهُ»[1]. وَكَثِيراً مَا تَكون الْعَيْن بِمَعُونة ٱلْعَقْل مَصدَراً لِمَعرِفة الحَق، فَقَد سُئل الإِمَام عَن الفَرق بَيْنَ الحَقّ، والْبَاطِل؟ فقَال: «الْبَاطِل أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ»[2]، وَأَيضاً يَرسل الْعُلَمَاء أَحْكَاماً مُطلقة عَلَىٰ أَفرَاد النَّوْع مَا وَقع مِنْهَا فِي خِبرَتهم الحِسِّيَّة، وَمَا لَم يَقع قِيَاساً لهَذا عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلاَ مُبرر لِذَلِكَ إِلاَّ ٱلْعَقْل، وبكَلِمَة: «إِنَّ معَارف ٱلإِنْسَان، وَسلُوكه، وَأَقْوَاله، وَأَفعَاله، وَأَحْكَامه

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٢٨١).
(٢) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (١٤١).

بِكَامِلها ـ تَرتَبط بِٱلْعَقْل بِشَكلٍ، أو بِآخر، وَلَو أَسقَطنَاه عَن الِاعْتِبَار لاَ نَسد بَاب ٱلْمَعْرِفَة، وَالحُكم عَلَىٰ الْأَشْيَاء بِشَتىٰ أنوَاعها».

وٱلْعَقْل عِند الْإِمَام فطرِي، وَكَسبي، والْأَوَّل مَا يُدرك بِه ٱلإِنْسَان ـ بِمَا هُو إِنْسَان ـ إدراكاً مُباشراً، وَبِلا مُقدمَات، وٱنتقَال مِن مَعلُوم إِلىٰ مجهُول، كإِدارَك النَّاس كلّ النَّاس ـ العَالم مِنْهُمْ، والجَاهِل ـ إِنَّ الشّيء الوَاحد لا يَكُون مَوجُوداً، وَمَعدُوماً فِي آنٍ وَاحد، وَمِن جِهة وَاحِدَة، أَو يُوجد فِي العَديد مِن الأَمَاكن فِي آنٍ وَاحد. أَمَّا الكَسبي فهُو عبَارة عَن حَركة الاِنْتقَال مِن مَعلومٍ إِلىٰ مجهولٍ، مِن مُشاهَد محسُوس إِلىٰ غَائِب لاَزم لهُ، وَلاَ يَنفك عَنْه، كالاِنتقَال مِن رُؤية الهَرم إِلىٰ مَعْرِفة الفـرَاعـنة وَتَأرِيخهم، وَمِن رؤية النّظام الثّابت فِي الكَوْن إِلىٰ مَعْرِفة المكوّن، وَالمُنظّم. وٱلْعَقْل الكَسبي يَثبت الحَقَائِق التّجرِيبية، وإِلَيهِ أَشار الإِمَام بِقَوْله: «وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ»[١]، وَقَالَ: «أَعْلَم النَّاس مَن جَمَع عِلم النَّاس إِلىٰ عِلْمِهِ»[٢]. العِلم أَكْثَر مِن أَنْ يُحصىٰ، فَخذُوا مِن كلّ شَيء أَحْسَنه»[٣]. وفِي هَذَا رَدّ صَرِيح عَلَىٰ مَن قَالَ: «يَجب عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِين أَنْ يَكْتَفُوا بِمَا عِندهُم مِن علمٍ، وَتُراث قَدِيم، وَلاَ يَجُوز أَنْ

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: مِن كتابٍ لهﷺ تحت رَقم (٣١).

(٢) لم أقف عَلَىٰ هَذَا الْحَدِيث فِي نَهْج ٱلْبَلاَغَة، وَلاَ فِي الكتب المتوفرة لديَّ، لكن روىٰ ذَلِكَ البرقي فِي المَحَاسِن: ١/٢٣٠ ح ١٧٣، من لا يحضره الْفَقِيه: ٤/٣٩٥، الخِصَال: ٥/ ح ١٣، أمالي الصدوق: ٧٣ ح ٤، مَعَانِي الأَخْبَار: ١٩٥ ح ١، روضة الواعظين: ٦، الأربعون حديثاً للشهيد الأَوَّل: ٥٥ ح ٢٤، سُنَن الدَّارِمِي: ١/٨٧، ولكن نسبه إِلىٰ الرَّسُولﷺ.

(٣) لَم أَقف عَلَىٰ هَذَا الْحَدِيث فِي نَهْج ٱلْبَلاَغَة، وَلاَ فِي الكُتب المُتوفِرة لديَّ، لكنْ روىٰ ذَلِكَ صَاحب كَنز الفوَائد: ٢/٣١، وَبحَار الأَنْوَار: ١/٢١٩ ح ٥٠، تَأرِيخ دِمَشْق: ٣٨١، وَلكنْ نَسبه إِلىٰ الشَّعبي، وكَذَلِكَ فِي تَهْذِيب الكَمَال: ١٤/٣٨، البدَاية والنّهاية: ٩/٢٥٨.

يَستُوردوا أي عِلم مِن الخَارج».

وَالعِلم عِند الإمَام وَسِيلة إلىٰ ٱلْعَمَل، حَتَّىٰ العِلم باللهِ فإنّ القَصد مِنْهُ ٱلْعَمَل بأَمْرِه وَنَهيه، وعَلَيْهِ يَرتكز الثَّوَاب، وَالعِقَاب، وبهِ يَستدل عَلَىٰ الإيمَان. بَل العِلم عِند الإمَام بِلا عَمل خَيال زَائِف، وَمِن أَقْوَاله: «الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ، وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ، وَإِلَّا ٱرْتَحَلَ عَنْهُ»[1]. وَنَقل الدّكتور زَكي نَجيب مَحمُود عَن فرِيق مِن الفَلاَسفة المُعاصرِين: «إنَّ العِلْم وٱلْعَمَل مَوْصُول أَحدهُما بِالآخر»[2]. فَإذَا وَجَدت عِلماً مَزعُوماً لاَ يَجيء بِمَثَابة الخطَّة المُؤدية إلىٰ ٱلْعَمَل فَقُل: إنّه لَيْسَ مِن العِلم فِي شَيء». وفِي الْمَعْنَىٰ رِوَايات كَثِيرَة عَن أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام ذكر طَرفاً مِنْهَا الشّيخ الكُلِيني فِي أُصُول الكَافِي.

وَقَول الإمَام فِي العِلم يَلتَقِي ـ مِن وَجه ـ مَع الفَلْسَفَة البراجمَاتِية الأَمرِيكِية الَّتِي تَقول: «إنَّ الْفِكْرة أيّاً كَان نَوْعِها إنّما تُقاس بِنفعها، فَالفِكْرة حقّ وَصوَاب إذَا نَفْعَت، وَهِي بَاطِل وَخطأ إذَا لَم تَنْفَع، فَلا دِين، وَلاَ عِلم، وَلاَ تَربِية، وَأدب، وَلاَ فَن وفَلْسَفَة، وَلاَ أيّة قِيم إلاَّ مَا يُعد الفَرْد، ويُعينه عَلَىٰ كَسب ٱلْمَال مِن أي مَصْدَر كَان، وَلو عَلَىٰ حسَاب الملاَيين.

وَمِن هُنا ٱفْتَرقت الفَلْسَفَة الأَمرِيكِية عَن قَول الإمَام عليه السلام فَإنّ الْمُرَاد بِٱلْعَمَل عِند الإمَام ٱلْعَمَل النّافع الَّذي لاَ ضَرر مَعه، وَلاَ ضِرَار: ٱلْعَمَل فِي حدُود مَا أَحل الله، وَمَا حَرَّم، وَلاَ يُطاع الله مِن حَيْث يُعصىٰ، أَمَّا البرَاجمَاتِية الأَمرِيكِية فإنَّهَا تَقول: كُلّ الوَسَائِل صَحِيحة، وَخَيرة مَا دَامت تُؤَدِّي إلىٰ الهَدف المَطلُوب. وبكَلِمَة: إنَّ

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٣٦٦).

(٢) أنظر، حَيَاة جَابر بن حَيّان التَّوحِيدي: ٢٦٨.

المَنْفَعَة عِند البراجماتِيين هِي الانْتهَازية بِصَرف النّظر عَن المبَاديء، والْقِيَم، وَعِند الْإِمَام هِي سَد ٱلْحَاجَة فِي حدُود الْقِيَم، وَالمبَاديء.

التَّرْتِيب:

وَتَرْتِيبِي فِي هَذَا الشّرح كَتَرتِيب (التَّفْسِير الكَاشف) أَبْتَدىء بِفِقْرَة (اللُّغَة) وَثَانِيَة (لِلإعرَاب) ثُم شَرح الْمَعْنَىٰ، وتَفْسِيره جُملة فَجُملة، عَلَىٰ طرِيقة القُدامىٰ فِي تَفْسِير ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم، وَاقِفاً عِند ظَاهر الكَلاَم بِلا ٱستطرَاد، وَحَشو، وَقفزَات... لأنّ هَذَا هُو الْأَسَاس لِكلّ شَرح، وتَفْسِير، ولأنَّ القَارىء يَتطلع قَبل كُلّ شَيء إِلىٰ الْمَعْنَىٰ الْمُرَاد.

وَقَد تَنَبّهت، وَأَنَا أَشرح بَعْض الخُطب، أنّ الّذين حَبسُوا أَنْفسهم عَلَىٰ المَنابر يَتطلعُون كَثِيراً إِلىٰ نَهْج ٱلْبَلاَغَة وخُطَبَه، لِمَا فِيْهَا مِن ثمرَاتٍ، وَسحرٍ، وَنُكهةٍ، فَحَاولت أنْ أَمدهم وَلو بِاليَسِير، عَسىٰ أنْ تَنمُو بِهِ خُطبهم، وَتُثمر... وَمِن أَجل ذَلِكَ إِذَا أَوحت لِي كَلِمَة، أَو جُملة مِن أَقْوَال الْإِمَام بِمَعْنَىٰ يَترك أَثراً فِي نَفْس السّامع ـ حَسَب تَقدِيري ـ عَنونته بكَلِمَة (لِلمِنْبَرِ) كِي يَهْتَدِي إِلَيْهِ بِسهُولة مَن يَهمه الْأَمْر إِذَا رَاجع الفِهرست، أَو قَلَّب الصّفحَات... وَإِذَا ٱشْتَقل (المِنْبَري) ما ذَكرت لِهَذه الْغَايَة فإنّ الكَلِمَة الحيّة تَنْتَقل بِالمُفكر الْمَوْهُوب إِلىٰ العَدِيد مِن الأجوَاء... عَلَىٰ أَنّي ـ كَمَا أَشرت ـ لَستُ بِصَدد وَضع الخُطب، وَنَقْشها. وَقَد أَتْرك كَلِمَة المِنْبَر مُكتفِياً بِمَا يُشِير إِلىٰ المَوْضُوع.

وَقَسَّمت ٱلْخُطْبَة الطّويلة، وَمَا بَيْنَهَا، وبَيْنَ القَصِيرة، قسّمتها إِلىٰ فِقْرَات. وَوَضعت لكلّ مِنْهُمَا أَرقَاماً (١ ـ ٢) إلخ... بِقَصد تَسهِيل الرُّجُوع إِلىٰ أَلفَاظ

ٱلْخُطْبَة، وَكَلِمَاتها عَن طرِيق الفِهرست، أَمَّا ٱلْخُطْبَة القَصِيرة فَسبِيل الرُّجُوع إِلَيْهَا سَهل، وَلاَ تَحتَاج إِلىٰ أَرْقَام. وَمَا رَاعيت فِي التّقسِيم السّجع، والتّناسب بَيْنَ أجرَاس الْكَلِمَات، كَمَا هُو الشّأن فِي تَقسِيم سُور ٱلْقُرْآن إِلىٰ آيَات، وَلا الاِنْتقَال مِن مَعْنَىٰ إِلىٰ غَيْره، لأنّ غَرضي ـ كَمَا أشرت ـ مُجرد الكَشف، وَالتّيسِير.

وَأَطلقت كَلِمَة ٱلْخُطْبَة عَلَىٰ كَثِير مِن أَقْوَال الإِمَام عليه السلام ـ الَّتي لا تُعد مِن نَوْع الخُطب عِند النَّاس ـ لِأَنَّهَا مُدرَجة فِي بَابها، عَلَىٰ أَنّه وَرد عَن أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام «أَنّ مَن قَالَ: الْحَمْدُ الله فَقَد خَطب»[1].

خُطَّة الشَّرح:

الفَرق بَيْنَ كتَاب، وَآخر فِي عِلم مِن العُلُوم هُو الفَرق بَيْنَ مُؤلف، وآخر، لأَنّ أُسلوب ٱلاِنْسَان هُو شخصِية ٱلإِنْسَان، فَإِذا كَتب ٱثْنَان فِي مَوْضُوع وَاحد، أَو شَرحا مَتْناً وَاحداً ـ تَنَاوله كُلّ مِنْهُمَا مِن رُؤْية شَخصِيته، وَنَظر إِلَيْهِ مِن زَاوية ميُوله وَرَغبته. وَمِن هُنا تَغَلب التَّأرِيخ، وَالأدَب عَلَىٰ شَرح ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد لِنَهْج ٱلْبَلاَغَة وَصَرح هُو بِذَلِكَ حَيْث قَالَ فِي شَرح ٱلْخُطْبَة: «أَنَّ كتَابنا هَذَا كتَاب أَدَب، لاَ كتَاب نَظَر»[2]. وَتَغلب عِلم الكَلاَم فِي شَي مِن الذّوق الصّوفِي عَلَىٰ شَرح مِيْثَم البحرَانِي، وَأَعَاد السَّيِّد الخُوئِي مَا قَاله البحرَانِي، وَكَرره مَع بَعْض الاِضَافَات مِن الآثَار وَالرِّوَايَات.

---

(١) أنظر، الكَافِي: ٥/٣٦٨ ح ٢، جَامع المقَاصد: ١٢/١٥، التّهْذِيب: ٧/٤٠٨ ح ١٦٣٠، الوَسَائِل: ١٤/٦٦ ح ٤١، المُهذب البَارع: ٣/١٧٤، التذكرة: ٢/٥٧١، الجَامع لِلشَّرائِع: ٤٥٢.

(٢) أنظر، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٧/١٩٨.

وَقد أَحسَن كلٌ فِي نَاحِيته، وَأعطىٰ مِنْهَا مَا يُشكر عَلَيْهِ، وَسَدّ فرَاغاً فِي بَابه كِي يَنْبَغِي أنْ يُسد... هَذَا، وَمن الَّذي فِي طَاقته أنْ يَستوعب كلّ الجهَات، أو يَـفطن إلىٰ كلّ الجهَات فِي المَوْضُوع الوَاحد؟ بل مَن الَّذي يُصِيب فِي كلّ ما يَقول، وَيَكتُب ـبِلا سَقطَات ـوإنْ اَقتصر عَلَىٰ نَاحية وَاحِدَة مِن مَوْضُوع وَاحد؟ أَلَسْنَا بشراً غَيْر مَعْصُومِين نُمارس هَذِه اَلْحيَاة بِأدوائِها، وَأوبَائِها! حَتَّىٰ الَّذي أصطفَاه الله لنَفْسِه مِن بَيْنَ خَلقه كَان يَشكو إِلَيْهِ وَيَقول: «أَللَّهُمَّ إِلَيْك، أشكُو ضَعفِي، وقِـلَة حِـيلتِي»[1].

وَقَد أَدَبه سُبْحَانَهُ فِيما أَدَبه بِهَذا الأَمْر: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[2].

وَلأنّي أَدِين، وأَعتَقد بأنّ اَلإسْلاَم مَا شرع إلاَّ لِخَير اَلإنْسَان، وَسَعادته، وإنّه مِن أَجْله يَعتَبر العِلم النّافع فَضِيلة، وَفريضة، واَلْعَمَل لحَيَاة أَفْضل عِبَادَةً، وجِهاداً ـفَقَد فَرض عَليّ هَذَا الاِعتقَاد نَفْسِه فِي شَرح النّهْج، وَدَعانِي أنْ أُفسر كلّ كَلِمَة، أو جُملة مِنْهُ مِن خِلال هَذِه الرّؤية إنْ تحمّلها ظَاهر الكَلاَم، وَأَشَار إِلَيْهَا.

وَلَيْسَ مَعْنَىٰ هَذَا أنّي لَم أَستق شَيْئَاً مِن القَدِيم، وأنّي رَفضت التُّرَاث، وَتَجاوزته بِمَا فِيه، كَيْفَ وَلو فَعلت هَذَا لكَان كتَابي شَرحاً لِغَير النّهج، أو لَيْسَ بِـشَرح عَـلَىٰ اَلإِطلاَق، وَكَانَتْ وِجْهَتِي إِلىٰ غَيْر مَا قَصدت؟ ثُمّ هَل أُفسر اَلْكَلِمات، وَالمُفردَات بِغَير مَا يَتبادر مِنْهَا إِلىٰ الأَفْهَام، وَبِغَير مَا جَاء فِي قوَامِيس اللُّغَة، أَو أُبـدل وَقَـائِع التَّأرِيخ، أَو اَتجَاهل السّياق الَّذي يَشتَرك الجَمِيع فِي فَهمِهِ؟

أجَل، رَفَضت مِن القَدِيم مَا يَجب رَفضه فِي هَذَا العَصر، وَلاَ يَنقُص مِن الدِّيـن

(١) أنظر، تفْسِير القُرطُبي: ٢١١/١٦، تفْسِير آبن كثير: ١٦٤/٤، الأَحَادِيث المُخْتَارة: ١٨١/٩ التّدوين فِي أخبار قزوين: ٨٢/٢، السّيرَة النّبويّة: ٢٦٨/٢، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٥٥٤/١.

(٢) سُورَةُ طَه: ١١٤.

شَيْئَاً، وَقَبلتُ مِنْهُ مَا يَتفق مَع كلّ عَصر، وَأوضَحته، وَأحْكَمَته، ومِنْهُ تَطلعت، وانطلَقت إلىٰ مَا تَقبله كلّ النّفوس، وَتُقره كلّ الْعُقُول فِي هَذَا العَصر، وَكلّ عَصر. وَنصُوص ٱلْإِسْلاَم ـ مَا عَدا الْعَقِيدَة، والْعِبَادَة ـ بحَاجَة إلىٰ هَذِه الرُّؤية المُعَاصرة، وتَلِيق تَمَاماً بِمبَادىء الشَّرِيعَة السّهلة السّمحَة، وَبِها نَجذب الشّباب الّذين زَاغوا عَن عَقِيدة الآبَاء، وَالْأَجْدَاد.

وَالله وَلِي التّوفِيق، وَالصَّلاة عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآله الأَطهَار.

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة

-١-

الْحَمْدُ للهِ...فِقْرَة ١ ـ ٣:

(الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لاٰ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ، وَ لاٰ يُحْصِي نَعْمَاءَهُ الْعَادُّونَ، وَ لاٰ يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ[1]، الَّذِي لاٰ يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، وَ لاٰ يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَ لاٰ نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَ لاٰ وَقْتٌ مَعْدُودٌ، وَ لاٰ أَجَلٌ مَمْدُودٌ[2]. فَطَرَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَ نَشَرَ الرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ، وَ وَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ[3]).

اللُّغَة:

الْحَمْدُ: ثَنَاء وَتَعظِيم. مِدْحَتَهُ مَدحاً: أَحْسَنت الثَّناء عَلَيْهِ بِمَا فِيهِ مِن صِفَات ذَاتِية كَالذَّكاء، والشَّجَاعَة، أو مُستفَادة كَالعِلم، وَحِفظ التَّجْرِبَة، ومِدحة ـ بِكَسر المِيم ـ لِلهيئَة، والكَيْفِيَّة، ومَعْنَىٰ الجُملة بِمجمُوعها إنَّ الثّناء عَلَيْهِ تَعَالَىٰ كَمَا يَلِيق بِحَقِهِ

مُتعذر. والنَّعماء ـ بِٱلْفَتْح ـ قِيل: هِي جَمع نِعْمَة كَنِعم، وَأَنعُم، وَقِيل: اَسم مَصْدَر، وكَلِمَة نِعْمَة جَاءت فِي ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم بِفَتح النّون لِلمرَّة: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيْهَا فَكِهِينَ﴾(١). وَجَاءت فِيهِ بِالكَسر لِلصّنيعة، وَالمِنَّة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَاتُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢). واَجْتَهد بِالْأَمْر: جَدَّ فِيهِ، وَبَذل الوِسع. وَأدرَك الشّيء: نَاله وَوَصل إِلَيْهِ. الْهِمَم: جَمع هِمَّة، وَهِي العَزم الْقَوِيّ، يُقَال: هُو بَعِيد الهِمَّة، وَذُو هِمَّة عَالِيه. والْفِطَن جَمع فِطْنة، وَهِي الحَدس المُصِيب، وغَوْصها: إبعَادها، واَستغرَاقها لنَيل المَطلوب. وَحدُّ الشّيء: مُنْتهَاه، وَالحَاجز بَيْنَه وبَيْنَ غَيْره. فَطَرَ الْخَلاَئِق: اَبتدَعها عَلَىٰ غَيْر مِثال سَبق. وَوَتَّدَ، وَأوتَد الوَتد: ثَبّتَه. وَيُشير الإِمَام عليه السلام بِهَذا إِلَىٰ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾(٣). والمَيَدَانَ ـ بِفَتح اليَاء ـ مِن مادَ يَمِيدُ مَيداً. وَمَيدَاناً: الحَرَكة بِتَمايُل، يُقَال: تَمَايد إِذَا تَمَايَل مُهتزّاً.

الإِعْرَاب:

الْحَمْدُ للهِ: مُبْتَدَأ، وَخَبَر. وَالجُملَة إِنْشَاء فِي صِيغَة الإِخْبَار. والَّذِي فِي مَحل جَر صِفَة لله، وَمِثله المَوْصُول الثَّانِي، وَالثّالث. ومَحْدُودٌ: صِفَة للحَدّ، وَهُو مِن بَاب وَصَف الشّيء بِنَفْسِهِ لِلمُبَالغة، مِثل لِيلٌ أَلِيَل، وَشِعرٌ شَاعر.

الْمَعْنَىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ). حَمْد الله سُبْحَانَهُ مِن أفضَل العِبَادَات، وَلِهَذا اُفتتحَت بِهِ الصَّلاة،

---

(١) الدُّخان: ٢٧.

(٢) ٱلنَّحل: ١٦.

(٣) ٱلنَّبأ: ٧.

وَفَاتِحة ٱلْكِتَاب، وَالخطَابَات، وفِي خُطْبَة ثَانِيَة: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ وَدَلِيلاً عَلَىٰ آلائِهِ وَعَظَمَتِهِ»[1]، وفِي ثَالِثَة: «وَلاَ يَحْمَدْ حَامِدٌ إِلاَّ رَبَّهُ»[2] الْحَمْدُ للهِ وَحدَه عَلَىٰ تُوفِيقه، وَعِظِيم إحسَانه. (الَّذِي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ). يُثنِي الْمَخْلُوق عَلَىٰ خَالقه جُهد مَا يَسْتَطِيع، وَعَلَىٰ قَدر مَا يَعلم.. وَمَهما سَمت ٱلْعُقُول فَلا تَسْتَطِيع، وَيَسْتَحِيل أنْ تَسْتَطِيع الإحَاطَة بِمقَام العَظَمَة، وَالجَلال، بَل لا تُحِيط بِخَلق الله، وآثَاره، وَمَن الَّذي خَرق بِعلمه بَاطن ٱلأَرْض، وَأسرَارها، وَأبرَاج السَّماء، وَأخبَارها، وَمَا تُخفِي ٱلْقُلُوب، والصّدور؟. وَإِذا عَجزت ٱلْعُقُول عَن إدرَاك الْمَخْلُوق فَكَيف تُدرك الْخَالِق؟. وَمَع هَذَا ٱلْعَمَىٰ، والْعَجْز كَيْفَ تُؤَدِّي وَاجب المَدِيح، والثّنَاء؟. قَالَ ﷺ: «إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ»[3].

(وَ لاَ يُحْصِي نَعْمَاءَهُ الْعَادُّونَ). هَذَا تَذكِير لِعبَاد الله بِأنعُمه الَّتي لاَ تُعد، وَلاَ تُحصىٰ. وَلَكن ٱلإِنْسَان الظّلوم بَدَّل نِعْمَة الله كُفراً.. أَنعمَّ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ بِٱلْعَقْل، فَٱختَرع بِهِ أَسلِحة الهَلاك، وَالدّمار، وَأجهِزة التّجَسس، وَالتّضلِيل، والخِدَاع. وأَعْطَاه ٱلْمَال، فَٱتخذ مِنْهُ أدَاة لِلفَسَاد، وَالطُّغيَان، وَمَنحه الصّحة فِي الجِسم، فأبلاَها بِالمعَاصي والْمُحَرَّمَات.. فقَال ﷺ: «ٱضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ فَهَلْ تُبْصِرُ إِلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلاً ٱتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللهِ

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة «١٥٧».
(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة «١٦».
(٣) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة «١٦٣».

وَقْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً»[١].

وَمَا ظَنّك بِأَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام أَنْ يَقُول لَو كَان فِي هَذَا العَصر، ورَأَىٰ مَا يَهتَز لهُ العَرش فِي شَرق ٱلأَرْض، وغَرْبِهَا مِن دَمٍ يُسفك، وَحُرمات تُهتَك، وَمسَاكِن تُهدم، وَأطفَال، ونِسَآءَ تُشرَّد. لاَلِشيء إلّا لأَنّ الجَبَابِرة الأَقْوِيَاء يُرِيدُون مِن عِبَاد الله أَنْ يَسجدُوا لَهُمْ، وَيَركعُوا مِن دُونَ الله، وأَنْ يَتصرفُوا بِهِمْ، وَبأقوَاتهم كَمَا يَشاءُون، وَيهوُون؟.

بِأي قَولٍ، وَخِطَاب يَصف الإِمَام عليه السلام هَذِه الفجَائِع الَّتي تَرتكبهَا الدُّول الإِستعمَارِية مَع كلّ شَعب يُرِيد العُمران فِي أَرْضه بِحُرِّيَّة، وَأمَان، وَالعَيش فِي بَيْئِته بِدْعَة وَٱطمئنَان؟ وَبأي قَولٍ، وَخِطَابٍ يَصف عَلِيّ عليه السلام مَا فَعل الصّهاينة بِالأَمس، وَيَفعلُونه الْيَوْم، وَبَعد الْيَوْم فِي فِلسْطِين مِن الْقَتْلِ، وَالبَطش، وَالتّجوِيع، وَالتّشرِيد، وَمِن الحَرق، وَالهَدم، وَالسّجن، والتّعذِيب؟. كلّ هَذَا، وأَكْثَر مِن هَذَا حدَث فِي فِلسْطِين بالأسْلحَة الأَمرِيكِية الحَدِيثَة، وَبأيدِي الصّهيُونِية حَلِيفة الإِستعمَار، وعَدُوّة الأحرَار.

فَرحمَاك أَللَّهُمَّ رَحمَاك... إنْ كُنت تُؤاخذنا بِمَا أَخْطأنَا فَأرسل عَلينا مِثل صَاعِقة عَاد وَثَمُود، أَو مِثل طُوفَان نُوح... وَلاَ تُسلط عَلينا الصّهيُونِية، والأَسلِحة الأَمرِيكِية.. رَحْمَاك يَا أَرْحم الرّاحِمِين... يَا مَن خَلق الرَّحْمَة لِلمُذنِبِين... وَكَتبها عَلَىٰ نَفْسِه، وَأكدهَا بقَوْله: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢].

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة «١٢٩».
(٢) ٱلزُّمَر: ٥٣.

(وَ لاٰ يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمجْتَهِدُونَ). إِنَّ حَق الله سُبْحَانَهُ يُقاس بِعَظَمَتِه، وَجُهد ٱلإِنْسَان يُقَاس بطَاقته، وَالفَرق بَيْنَ هَذِه الطَّاقَة، وَتِلك العَظمة تَمَاماً كَالفَرق بَيْنَ الْخَالِق والْمَخْلُوق... وَهُنا يَكمن سرّ الْعَجْز عَن اَدَاء حَقه تَعَالَىٰ.. أَجل، مَن أدرَك هَذَا السّر، وٱنقَاد لله فِي جَمِيع مَا يقُول، وَيَفعل فَقد وَفَّىٰ بِعَهد الله الَّذي أمَر بهِ فِي قَوْله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَارْهَبُونِ﴾[1].

(الَّذِي لاٰ يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، وَ لاٰ يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ). نَحْنُ ذَرَّة مِن هَذِه ٱلأَرْض، وَهِي ذَرَّة مِن الكَوْن، وهُو ذَرَّة مِن فِيض الله تَعَالَىٰ، فكَيْفَ نُدركه، وهَذِه هِي الحَال؟. وفِي خطَابٍ آخر: «لَمْ تُحِطْ بِهِ الأَوْهَامُ بَلْ تَجَلَّىٰ لَهَا بِهَا وَ بِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا وَ إِلَيْهَا حَاكَمَهَا»[2]. تَجلىٰ سُبْحَانَهُ لِلعقُول بِخَلقه، وآثَاره، وٱلْعُقُول مِن جُملة الخَلق والآثَار، وٱمتَنع مِن ٱلْعُقُول بذَاته، لأنّ الْمَخْلُوق أعجَز مِن أنْ يَدرك الْخَالِق، وَحَاكم ٱلْعُقُول إِلَىٰ نَفْسها، فَحَكمَت هِي بذَاتها أَنَّهَا عَاجزة عَن إدرَاك الذّات القُدسِية.

(الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ) حَتَّىٰ إِذَا بَلغت هَذَا ٱنتَهت، وٱنْقَطعت.. كلاَّ، لِأَنَّهَا أَزْلِية، أَبدِية (وَ لاٰ نَعْتٌ مَوْجُودٌ). ومَعْنَىٰ النّعت، والْوَصْف وَاحد بِحَسب الْمُتَبادر إِلَىٰ الأَذْهَان، وَلاَ وَجه لِلتَّفرقة بَيْنَهما كَمَا فِي بَعْض الشّروح، وَالتّعليقات فِرَاراً مِن عَطف التَّفْسِير مَع العِلم بأنّه لاَ أثَر هُنا لِهَذا العَطف، وذَلِكَ أَنّ الإِمَام عليه السلام بَعد أنْ نَفىٰ عَن الله سُبْحَانَهُ الْوَصْف الْمَحْدُود بغَايَة، وَنهَاية ـ نَفىٰ عَنْه أيضاً الْوَصْف الَّذي يُعبر عَنْه تَعبِيراً كَافِياً، وَافِياً، وَجَامِعاً، مَانِعاً، نَفىٰ عَنْه هَذَا الْوَصْف، أو هَذَا النّعت لأنّه لاَ طرِيق أَبَداً إِلَىٰ مَعْرفَته تَعَالَىٰ إِلّا بآثَاره. وَمِن البدَاهة بِمَكَان أنّ الآثَار

(١) ٱلْبَقَرَة: ٤٠.
(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة «١٨٥».

لاَ تُعبر عَن كُنه المُؤثر، وَحَقِيقَته، وَلاَ تَعكس كلّ مَا فِيهِ مِن صِفَات. بِالْإِضَافة إِلَىٰ أنّ قُدرة الله تَعَالَىٰ لاَ تُقاس بِمَا صَدر عَنْهَا مِن خَلقٍ، وآثَار، ومَا يَصدر إِلَىٰ الْأَبد.. لِأَنَّهَا هِيَ هِي، لاَ تَنضَب، وَلاَ تَنقص، وَلاَ تَضعف مَهمَا تكَاثرت الآثَار، وَتَرَاكمت.

(وَ لاٰ وَقْتٌ مَعْدُودٌ، وَ لاٰ أَجَلٌ مَمْدُودٌ). الوَقت يَتعدد، وَيَنقسم، يُقَال: الأَمس، واليَوْم، وَغَداً، والأَجَل يَنْتَهِي، وَيَنقَطع، ووَاجب الوُجُود أَزْلِي أَبدِي لاَ تَعد الْأَوْقَات لوجُوده، وَلاَ تُضرب الآجَال لبقَائه.. هَذَا، إِلَىٰ أنّ الزّمَان مِن لوَازم الحَرَكة، وَهِي مِن لوَازم الجِسم، والوَاجب مُنَزَّه عَن الجِسمِية، قَالَ الإِمَامعليه السلام: «هُوَ الْأَوَّلُ وَ لَمْ يَزَلْ، وَ الْبَاقِي بِلاٰ أَجَلٍ»[1].

(فَطَرَ الْخَلاَئِقَ بِقُدْرَتِهِ). أي خَلقها عَلَىٰ غَيْر مِثال بكَلِمَة «كُنْ» لا بِآلة، وأدَاة، قَالَ الْإِمَامعليه السلام «الْمُنْشِئُ أَصْنَافَ الأَشْيَاءِ بِلاٰ رَوِيَّةِ فِكْرٍ آلَ إِلَيْهَا، وَ لاٰ قَرِيحَةِ غَرِيزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا، وَ لاٰ تَجْرِبَةٍ أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ»[2]. (وَ نَشَرَ الرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ، وَ وَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ). قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «يَسْتَعمل الْعَرَب كَلِمَة الرّيح لِلعذَاب، وَالرّيَاح لِلرَّحْمَة، وَالمَيدَان: الحَرَكَة بِتَمَايُل، والإِمَامعليه السلام يُشير إِلَىٰ أنّ ٱلأَرْض كَانَتْ مَائِدة مُضطربة قَبل جمُودها، وَهَذَا نَظم جَيد لِلكلاَم، إذْ نَشر الرّيَاح، وَإِرسَاء ٱلأَرْض لاَزم لحيَاة ٱلخَلاَئِق»[3].

---

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة «١٦٣».

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة «٩١».

(٣) هَذَا الكَلاَم مأخوذ مِن قول ٱبن عَبَّاس حَيث قَالَ: الرّياح: للرَّحْمَة. والرّيح للعذاب. وروىٰ أنّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله، كَانَ إِذَا هبت ريح قَالَ: «ٱللَّهُمَّ ٱجعلها رياحاً، وَلاَ تجعها ريحاً». أُنظر، تَفسِير مَجْمَع الْبَيَان: ٤٥٣/١، أَحْكَام ٱلقُرآن: ١٠٠/١، مَجْمَع الزّوائد: ١٣٥/١٠، مُسْنَد الشّافعي: ٨١/١، المُعْجَم الْكَبِير: ٢١٣/١١ ح ١١٥٣٣.

أَوَّلُ الدِّينِ... فِقْرَة ٤ ـ ٦:

(أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ أَوَّلُ الدِّينِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ(٤): فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ «فِيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ «عَلَامَ؟» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ(٥). كَائِنٌ لَا عَنْ حَدَثٍ مَوْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ. مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْآلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ، وَلَا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ(٦)).

اللُّغَة:

قَرَنَهُ: مِن المُقَارنة، أي جَعل مَعْه شَيْئاً آخر، وَالمُرَاد هُنا أَنّ من جَعَل مَع الله صِفَات غَيْر ذَاته وزَائِدَة عَلَيْهَا فَقَد جَعل غَيْره مَعَه. وجَزَّأَهُ: جَعَله مُركباً مِن أجزَاء. وَحَدَّهُ: جَعَل لهُ حدّاً يَقف عِنده، ولاَ يَتعدّاه إِلَىٰ غَيْره. وعَدَّهُ: أحصَاه وَأحَاط بِهِ. والمُزَايَلَة: المُفَارقة، يُقَال: زَايل فُلاَن فُلاناً أي فَارقه، وفِي الْقُرْآن: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾(١) أي فَرقنا بَيْنَهُمْ. وَتُطلق الآلة عَلَىٰ

---

(١) يُونُس: ٢٨.

الجَارِحة كَاليَد، والْعَيْن. وَالسّكن: الْأَنِيس، وَتُطلق عَلَىٰ الْأَهْل.

الْإِعْرَاب:

لكَلِمَة أَوَّلُ مَعْنِيَان: أَحدهُما أَنْ يُرَاد بِها مُجرد العَدد مِثل أَوَّل، ثَـان، فـتكُون مَصرُوفة، ثَانِيهما أَنْ يُرَاد بِها الْوَصْف أي أَسْبَق، فتكُون مِن أفعَال التّفضِيل، وَتَمنع مِن الصّرف لِلصِّفة، وَوَزن الفِعْل. وَالْمَصْدَر مِن «أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ... إلخ» مجرُور بِعلىٰ مَحْذُوفَة، وَيَتعلق بِشهَادة لِأَنَّهَا بِمَعْنَىٰ شَهِد، وكَذَلِكَ «أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ... إلخ»، وَ«فِيمَ» فِي حَرَف جَر و «مَا» أَستفهَام، وَحُذفت الْأَلْف لِلفرق بَـيْنَهَا وبَـيْنَ «مَـا» المَوْصُولة، وَمِثلها «عَلاَمَ». وكَائِنٌ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هُو كَائِنٌ، وَمَا بَعده صِفة لهُ، وَمِثله مَوْجُودٌ، ومَعَ كُلِّ شَيْءٍ، وفَاعِل، وبَصِيرٌ، ومُتَوَحِّدٌ.

نَفْيُ الصِّفَات:

قَبل أَنْ نُفسر الجُمل فِي هَذَا المَقطع نُمهد بكَلِمَة سَرِيعة عَن صِفَاته تَعَالَىٰ كَمُقَدِّمة لِلتَّفهم، وَالتّدبُر.

لاَ يَخْتَلف إِثْنَان مِن ٱلْمُسْلِمِين فِي أَنّ الله سُبْحَانَهُ يُوصف بكلّ ما وَصف به نَفْسِه فِي كتَابِهِ العَزِيز، وأَنّ عَظمَته فِي الكَمَال، وَالجَلاَل كمَا هِـي لاَ يَحـدها وَصـف، وَلاَ يُدركهَا عَقل، وأَنَّهَا أَزْلِيَة أَبْدِيَة تَمَاماً كذَاته القُدسِية... وإنّما الكَلاَم، وَالخِـلاَف فِي أَنّ الصِّفَات العُلِيَا بِأي مَعنىً تُنسب إِلَيْهِ تَعَالَىٰ، وَتُطلق عَلَيْهِ: هَل تُنسب إِلَيْهِ، جلّت عَظمَته عَلَىٰ أَنَّهَا شَيء غَيْر الذّات، وزَائِدَة عَلَىٰ كُنهها، وحَقِيقَتها تَمَاماً كمَا هِي الحَال فِي وَصف ٱلإِنْسَان بِالعِلم، فإِنّ حَقِيقَة ٱلإِنْسَان حـيوَان نَـاطق، وحَـقِيقَة العِـلم

الكَشف عَن الوَاقع، فإذَا وَصفنا ٱلإِنْسَان بِالعِلم فَقد وَصفنَاه بِمَا هُو زَائد، وَخَارج عَن ذَاته، وَطَبِيعته، وإلّا كَان ٱلإِنْسَان بِمَا هُو عَالماً مِن غَيْر كَسب، وٱستفَادة، وَبَحث، وَدَرس، وَهَذَا خِلاف ٱلْحِسّ، وَالوجدَان ـ هَل وَصف الله بِالعِلم، وغَيْره كَذَلِكَ، وَعَلَىٰ هَذِه الحَال، أو أنّ الله يُوصف بالعِلم، والْقُدْرَة بِمُقتَضَىٰ ذَاته، وَحقُيقَته، لاَ بِشَيء زَائِد عَنْهَا تَمَاماً كَوصف ٱلإِنْسَان بٱلإِنْسَانِية، وَالشّجر بِالشَّجرُية ـ مَثلاً ـ.

قَالَ الْأَشَاعِرَة: كُلّ صِفَاته تَعَالَىٰ غَيْر ذَاته، وَزَائِدَة عَلَيْهَا، ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ ذَاته بِمَا هِي لاَ تَقْتَضِي العِلم، والْقُدْرَة، وَنَحوهما مِن الكَمَال تَمَاماً، كَمَا أنّ ذَات ٱلإِنْسَان لاَ تَقْتَضِي العِلم. وَقَد تَخطّوا بِذَلِكَ حدُود التَّوْحِيد حَيْث يَلزمهم القَوْل بِتَعدد القَدِيم كَمَا تَخطّوا حدُود الْعَدْل فِي قَوْلهم بِالجَبر.. وَمَا لنَا ولَهُمْ؟ فَلنَدعهم وَشَأنهم.

وَذَهب أَهْل الْعَدْل، والتَّوْحِيد إِلَىٰ أنّه لا صِفَات لذَات الله تَزِيد عَلَىٰ ذَاته، وإنَّ وَصفه بِالعِلم، والْقُدْرَة تَمَاماً كوَصف ٱلإِنْسَان بٱلإِنْسَانِية، والشّجر بِالشَّجرِية، لأَنّ ذَاته تَعَالَىٰ بِمَا هِي، وَبِطَبعها، وحَقِيقَتهَا تَقْتَضِي العِلم، والْقُدْرَة، بَل هِي عَين العِلم، والْقُدْرَة كَمَا أنّ ٱلإِنْسَانِية عَين ٱلإِنْسَان، لأنّ كَمَاله تَعَالَىٰ ذَاتِي لاَ كَسبِي، وَمُطلق غَيْر مُقيد بِشَيء دُونَ شَيء، وَجِهَة دُونَ جِهَة، وأنّه بمُوجب هَذَا الكَمَال الذّاتي المُطلق غَني عَن كلّ شَيء مَا يَزِيد عَلَىٰ ذَاته وَكُنهه... وَلِمَاذا الزِّيَادَة؟ ومَا هُو الدَّاعي إِلَيْهَا مَا دَامت الذَّات القُدسِية كَامِلة بِنَفسها مِن كلّ الجِهات؟ وَهَل نَحتَاج إِلَىٰ الزَّائد لِنُكمل بِهِ الكَامِل، وَنُتمم التَّام؟.

وَعَلَىٰ هَذَا إِذَا أُطلقت صِفَات الكَمَال عَلَيْهِ تَعَالَىٰ كَالعالِم، والقَادر ـ فَيجب أنْ يُراد بِهَا نَفْس الذَّات القُدسِية الَّتي تَقْتَضِي الْقُدْرَة، وَالعِلم، بَل هِي عَين العِلم،

والْقُدْرَة، تَمَاماً كَمَا يُراد مِن كَلِمَة «الله». وَكلّ وَصف جَاء فِي ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم، وَعَلَىٰ أَلسِّنة الرّاسخِين فِي العِلم فإنّ الْمُراد هَذَا الْمَعْنَىٰ بِالخصُوص.. أَمَّا الصِّفَات المَنْفِيّة عَن ذَاته تَعَالَىٰ فِي كلاَم الإِمَام عليه السلام فَهِيَ الأَحْوَال الخَارجة عَن الذَّات، والزَّائِدة عَلَيْهَا، وَتعرضُ لهَا بِسَبب مِن الأَسْبَاب، تُنفىٰ هَذِه عَنْه لِأَنَّهَا مِن صِفَات الْمَخْلُوقِينَ دُونَ الْخَالِق.

وَتَسْأَل: كَيْفَ نَتصَور وِحدَة الذَّات مَع تَعدد الصِّفَات؟ وَهل هَذَا إلّا كقَول مَن قَالَ الأَب، وَالابنْ، وَرُوح القُدس، إله وَاحد.

وَأجَاب البَعض بأنّ الصِّفَات بُالنِّسبة إِلَيْهِ تَعَالَىٰ مُتعددة مَفهُوماً، مُتحدة مصدَاقاً. وَهَذَا الجَوَاب ـ كَمَا نَرىٰ ـ لاَ يَحل الإِشكال، لأنّ صِدق المَفَاهِيم العَدِيدة عَلَىٰ شَيء وَاحد، يَستَدعي أنْ تَكُون بِهِ حِيثيَّات عَدِيدة، فَيُقَال: هُو عَالِم لِصدق مَفهُوم العِلم عَلَيْهِ، وَقَادر لِصدق مَفهُوم الْقُدْرَة.. والله وَاحد مِن كلّ وَجه لاَ حِيثيَّات لهُ، وَجِهات.. أَجل، يُقَال: هُو عِلم لأنّ العِلم ذَاتي لهُ، وهُو عَالم لأنّه يَعلم كلّ شَيء، وَلكنَّ الجِهة هُنا وَاحِدَة، وَهِي العِلم. والأَوْلَىٰ فِي الجَوَاب: أنّه لا مصَادِيق، ولاَ مفَاهِيم، وَلاَ حِيثيَّات وَجِهات.. لاَ شيء عَلَىٰ الإِطلاق إلّا وَاجب الْوُجُود الكَامِل المُطلق مِن كلّ وَجه، وإِنَّ التّعدد إنّما هُو فِي أنوَاع الكَمَال، وأَقْسَامه، لاَ فِي ذَات الكَامِل المُطلق الَّذي هُو المَبدأ الأَوَّل لكلّ كمَال.. وَبتَعبِير ثَانٍ كمَا أنّ تَعدد المخلُوقَات لاَ يَتنافىٰ مَع وِحدة الخَالِق، كَذَلِكَ تَعدد الكمَالات لاَ يَتنَافىٰ مَع وِحدة مَبدئها، وَمَصْدَرها[1].

(١) أُنظر، البحُوث الكَلاَمية فِي كُتب عِلم الكَلاَم والعقَائد، كالمِلل والنّحل لِلشّهرستَاني: ٥٨/١، المقَالات ⇔

الْمَعْنَىٰ:

(أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ). لكَلِمَة الدِّين مَعَانٍ، والْمُرَاد بِها هُنا الطَّاعَة، وَالْإِنـقِياد لله تَعَالَىٰ فِي أَمْرِه وَنَهيه. وَمِن البدَاهة أنّ الإِنقِياد يَتوقف عَلَىٰ مَعْرِفة القَائِد، والطَّاعَة عَلَىٰ مَعْرِفة مَن يُطاع، وَمِن أَجل هَـذَا كَـان العِـلم بـالله أشرَف العُـلوم، لِـعَظمة «المَعْلُوم» مِن جِهة، ولأنّ العِلم بوجُوده تَعَالَىٰ، وبأَمْرِه، وَنَهيه هُو فِي جُوهره عِلم بِمبدأ ٱلإِنْسَان وَمَصِيره، وبِمَا لهُ، وعَلَيْهِ، وأَوضَحنا ذَلِكَ فِي كِتَاب «فَلْسَفَة التَّوْحِيد، والْوِلَايَة». قَالَ الْإمَامُ عليه السلام: «رَحِم الله آمرءاً أَعد لنَفْسِه، وَٱستَعد لِرَمسِهِ، وَعَرف مِن أَين؟ وفِي أَين؟ وإِلَىٰ أَين؟»[1].

(وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ). وَالَّذي نَفْهَمه مِن التّصدِيق هُنا هُو الإِقْرَار بالله عَن إِيمَان، وإِيقَان لاَ يَشوبه شَك، وَوَسوسَة بِحَيث لو ٱنكَشف الغِطاء لصَاحبه مَـا ٱزدَاد يَقِيناً. أَمَّا مَن أقرّ بالله، وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ اِلاَّ اللهُ، ثُمَّ يَنقدح الشّك فِي قَلْبه لأَوَّل عَارض مِن مُصَاب يَلمُ بِهِ، أو وَهمٌ زَائف، أَمَّا هَذَا فَهُوَ نَاقص الإِيمَان، وإِنْ قَام ٱللَّيْل، وَصَام النَّهَار. قَالَ الْإِمَامُ عليه السلام وَقَد سَمِع رَجُـلاً مِـن الْخَـوَارِج يَـتهَجد، وَيَقرأ: «نَومٌ عَلَىٰ يَقِين خَيرٌ مِن صَلاَة فِي شَك»[2]. وفِي مَعنَاه الْحَـدِيث ٱلْمَـعْرُوف:

<= للأشعري: ٢١٦ و ٤٨٥. البحُوث فِي التَّأريخ العَبَاسيّ لفَاروق عُمَر: ٧٣. شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْـن أَبِي ٱلحَدِيد المُعْتَزِلي: ٥٩/١. التَّأريخ الكَبِير: ٣٦٦/١. الجرح والتعديل: ١٨١/٢.

(١) الرّمس مَصْدَر عَلَىٰ وَزن الفِلس وهُو بِمَعْنَىٰ تُرَاب القَبر مُستوياً لاَ يَعلو عَن وَجه ٱلأَرض. أُنظر، مُختَار الصّحاح: ١٠٨/١. لِسَان العَرَب: ١٠١/٦.

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة شَرح الأُستاذ مُحَمَّد عَبْده مُفتي الدِّيار المِصْرِية: ٢٢/٤. ٱلخُطْبَة رَقم (٩٧). وَأَورَدهَا ٱبن مِيثَم البحرَاني فِي شَرحه: ٢٨٩/٥.

«نَومُ العَالِمِ أَفْضَل مِن عِبَادَة الْجَاهِل»[1].

(وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ). قَسّم الشّارِحُون، أو أَكْثَرهم التّصدِيق بالله إِلىٰ نَاقص، وَكَامل، وعرّفوا النَّاقص بأنّه التّصدِيق بالله مَع وجُود الشّرِيك، أو إمكَان وُجُودِه، ثُمَّ قَالُوا: وَهَذَا يَسْتَلزم التّركِيب فِي الذَّات، وَالْمُركب مُمكن الْوُجُود، لاَ وَاجب الْوُجُود!.. والْحَقّ أنّ الشِّرك لاَ يَمت إِلىٰ التّصدِيق، والْإِيمَان بِسَبب، بَل هُو أسوَأ وَأَقْبَح مِن الْإِلحَاد، لأنّ الْإِلحَاد نَفي لِلتَّوحِيد وَكَفىٰ، أَمَّا الشّرك فَهُوَ نَفي لِلتَّوحِيد، وَإثبَات لِلشِّرك، وَالتّعدد.

وَمَها يَكُنْ فإنّ قَصد الْإِمَامعليه السلام أنّ التّصدِيق الْحَقّ لا يَكُون ولَن يَكُون إلّا مَع تَنزِيه الْخَالِق عَن كلّ مافِيهِ شَائِبَة الشّرك، والزِّيَادَة عَن ذَات الله، وأنّ من جَعل مَع الله شَيْئَاً آخر فَمَا هُو مِن الْمُصدقِين عَلىٰ الْإِطلاَق، لاَ أنّه مُصدق تَصدِيقاً غَيْر كَامل.

(وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلاَصُ لَهُ). قَالَ بَعْض الشّارِحِين: الْمُرَاد بالْإِخْلاَص هُنا الزُّهْد الْحَقِيقِي، وَقَالَ آخر: الْإِخْلاَص مِنْهُ نَاقص، ومِنْهُ تَام!.. ولاَ نَدري كَيْف يَكُون الْإِخْلاَص نَاقِصاً، ومعنَاه الْخُلُوص مِن كلّ شَائِبَة؟. والَّذي نَفهمَه أنّ الْإِخْلاَص المَقصود فِي قَول الْإِمَامعليه السلام هُو الْإِيمَان، وَالتّصدِيق بأنّ الله سُبْحَانَهُ مُتفَرد بالكَمَال الْمطلق، ومُنَزَّه عَن المَادَّة، ولوَازمها، وعَن الجَوْر، وغَيْره مِن القَبَائح، وَغَني عَن كلّ شَيء، وإِلَيْهِ يَفْتَقِر كلّ شَيء، ولَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.

(وَكَمَالُ الْإِخْلاَصُ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ). أي نَفي الصِّفَات الخَارجة عَن الذّات وَطَبِيعتها، لاَ نَفي الصِّفَات الَّتي هِي عَين الذّات، وحَقِيقتَها، وإلّا فَإنّ «كَلاَم

---

(١) أنظر، السّرَائر لِابن إدريس: ٣/٦٢٠، مَن لاَ يَحضره الْفَقِيه لِلشَّيخ الصّدوق: ٤/٣٦٧، مَكَارِم الْأَخْلاَق لِلطّبرسي: ٤٤١.

الْإِمَامُ؈ مَلِيء بِصفَات الَّتي هِي فِي هَذَا الكَلَام يَصفه أكمَل الْوَصْف» كَمَا قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه. وبيّنّا ذَلِكَ فِي صَدر هَذَا الكَلَام بعنوَان «نَفي الصِّفَات».

(لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ). وكَلِمَة الصِّفَة تَدل بنَفْسِه عَلَىٰ نَفْسها، وإِنَّهَا مِن الْمَعَانِي المُضَافة إِلَىٰ المَوصُوف، والتّابِعة لهُ وجُوداً وَعَدماً.

ومِن البداهة أنّ التّابع غَيْر المتبُوع، وَالمُضاف غَيْر المُضاف إِلَيْهِ (وَ شَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ). لأنّه فِي غِنيً عَنْهَا، وَهِي فِي حَاجَة إِلَيْهِ، وإِذَنْ يَسْتَحِيل نِسبَة الصِّفَة إِلَيْهِ تَعَالَىٰ بِمَعنَاها الْحَقِيقِي وإلّا لَزم تَعدد القَدِيم، وَتَركِيب الذّات القُدِّيسة الوَاجبة الْوُجُود.. وهَذِه هِي الصِّفَة الَّتي يَجب نَفيهَا عَنْه كلّ شَائِبة، أَمَّا إِذَا أُرِيد مِن الصِّفَة مُجَرد الْإِشَارَة إِلَىٰ تَفرده تَعَالَىٰ فِي الجَلال، والكَمَال فجَائِز قَطعاً، وَرَاجح عَقلاً، وَشَرعاً، وإِلّا فَبأي شيء نَتَوَسّل إِلَيْهِ تَعَالَىٰ، وَنَثني عَلَيْهِ؟

(فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ). أي مِن وَصف الله بالعِلم، وَالقَادر، وَنحوهما، وَأَرَاد الصِّفَة الَّتي هِي غَيْر المَوصُوف فَقَد جَعَل لهُ قَريناً، ومَعْنَىٰ القَرِين الصّاحب، وَلَيْسَ لله صَاحب، وَلاَ صَاحِبة قَالَ الإِمَام؈: «وبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لاَ ضِدَّ لَهُ وَ بِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لاَ قَرِينَ لَهُ»[1].

(وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ). أي جَعله اثْنَيْن، ووَاجب الْوُجُود وَاحد (وَ مَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ). يُقَال: جزّأه تجزئة إِذَا قَسّمه... والأَزْلِي الأَبدِي لاَ يَنْقَسم... بالإِضَافة إِلَىٰ أنّ القِسمة تَتنَافىٰ مَع الكَمَال المُطلق.

(وَ مَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ). لأنّه قَالَ عَلَىٰ الله بِغَير عِلم، وَلاَ هُدىً: وَلاَ كتَاب مُنِير

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة «١٨٦».

(وَ مَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ). الْمُرَاد بالإِشَارَة هنا التّشخِيص، وَهَذَا مِن بَاب التّعبِير بِاللازم وإِرَادَة مَا لاَ يَنْفَك عَنْه هَذَا اللاَزم، لأَنّ كلّ مَا يُمكن تَشْخِيصه بِحدُوده، وَقيُوده يُمكن الإِشَارَة إِلَيْهِ حِسّياً كَان أَم عَقلِياً، تَقُول: هَذَا فُلاَن، وَتَقُول: هَذِه نَظرِية صَحِيحة، أَو بَاطِلة، والْمُرَاد بِالحَدّ مُنْتَهىٰ الشّيء وأَطْرَافه، ولَيْسَ الْمُرَاد به التّحدِيد بإصطلاَح أَهْل المَنطق.

والْمَعْنَىٰ أَنّ الْجَاهِل يشخّص الله فِي ذِهنه حَسبما يَتوهم، وَيَتصور، ولاَزم هَذَا أَنّ لله حدوداً وَقُيوداً يَنْتَهي عِندها، ولاَ يَتجاوزها، وَلِذا قَالَ الإِمَام البَاقر عليه السلام: «فَمَا وَقَع وَهْمك عَلَيْهِ مِن شَيء فهُو خِلاَفه»[1]. ذَلِكَ أَنّ الله تَعَالَىٰ لَيْسَ مِن شَأنه أَنْ يُشخصه عَقل، وَيُدركه وَهم، وَقَد تَكَرّر هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي كَلِمَات آل الْبَيْت عليهم السلام مِن ذَلِكَ: «لاَ صُورة لهُ فِي الأَذْهَان: وَلاَ شَبيه لهُ فِي الأَعْيَان... تَفكرُوا فِي الخَلق»[2].

(وَ مَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ). أَي أَحصَاه وَأَحَاط بهِ... والْعَقْل بمَا فِيهِ مِن قُوّة، وَطَاقة لاَ يَكشف لِلإِنْسَان عَن نَفْسِه، وحَقِيقَته، وَلا يُدرك كلّ مَا فِي النّملَة، وَالبَعُوضَة مِن خصَائِص، وَغَرَائِز بإعترَاف الْعُلَمَاء فَضلاً عَن المَجرَات، وغَيْرها مِن الْكَائِنَات، وإِذَنْ كَيْفَ يُحيط الْعَقْل بِمن لاَ بدَايَة لهُ، وَلا نهَايَة: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[3]. وَأَقْصىٰ مَا تَتصوره الْعُقُول عَن ذَاته تَعَالَىٰ أَنّها فوق التّصور.

---

(١) أُنظر، الكَافِي: ١/٨٢ ح ١، شَرح أُصول الكَافِي: ٣/٦٠، توحِيد الشّيخ الصّدوق: ١٠٦ ح ٦.

(٢) قَرِيب مِن هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي كتاب الْهِدَايَة للشيخ الصّدوق: ٦، الجَامِع الصّغِير: ١/٥١٤ ح ٣٣٤٦، كنز الْعُمّال: ٣/١٠٦ ح ٥٧٠٦، تفْسِير الثّعالبي: ٢/١٤٩، تفْسِير الدُّر المنثور: ٢/١١٠ و: ٦/١٣٠.

(٣) ٱلْبَقَرة: ٢٥٥.

وَمَن أَدْرَك هَذِه الحَقِيقَة، ثُمّ مرَّ بخَيالِه صَورة لله تَعَالَىٰ مِن الصّور ـ أيقن بِفَسادها، وَأسرَع إلَىٰ نَفْيها، واستعَاذه بالله مِن الشَّيْطَان الرَّجِيم.

وَمن جَهل هَذِه الحَقِيقَة ثُمَّ رَسَم الشَّيْطَان فِي عَقْله صورة لله سُبْحَانَهُ ـ آمن بها وأيقن... وَبِهذا يَكمُن السّر فِي قَول الإمَامﷺ: «وَمَنْ جَهِلَهُ... إلخ».

(وَ مَنْ قَالَ فِيمَ فَقَدْ ضَمَّنَهُ). «فِي» ظَرف تُسْتَعمل فِي الزّمان، والمَكَان، تَقول: كَان هَذَا فِي وَقت كَذا، أو مكَان كَذا، أي فِيهِ وَحده لا فِي غَيْره، وضَمَّنَهُ: حَصره فِي مكَان مُعين، أو زَمَان مُعين، والله سُبْحَانَهُ لا يَخلو مِنْهُ زَمان، ولاَ مَكان، وَنسبته إلَىٰ كلّ شيءٍ وَاحِدَة بِلا آلة، أو حَركة. قَالَ الإمَامﷺ: «لاَ تَصْحَبُهُ الأَوْقَاتُ وَ لاَ.. تَرْفِدُهُ الأَدَوَاتُ... وَ لاَ يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَ الْحَرَكَةُ... لاَ يَحُولُ، وَ لاَ يَزُولُ»[1].

هَذَا إلَىٰ أنّ الموجُود فِي شيء مُفْتَقر إلَيْهِ لا مَحَالَةَ، والله غَني عَن العَالمِين.

(وَ مَنْ قَالَ عَلاَ مَ فَقَدْ أَخْلَىٰ مِنْهُ). مَن قَالَ: أنّ الله جَالس عَلَىٰ الكُرسي، أو العَرش فَمعنىٰ قَوْله هَذَا أنّ سَائر الأَمْكِنة خَالِية مِنْهُ تَعَالَىٰ، وَمِن قُدرته، وَلِذا وَجَبَ تأوِيل الكُرسي، والعَرش فِي بَعْض الآيَات بِالسّيطرة، والاستِيلاء. وَقَالَ قَائِل لِلإمَام الصّادقﷺ: «عَلَىٰ أي شَيء كَان اعتمَاد الله؟ فأجَاب بأنّ اعتمَاده عَلَىٰ قُدرته، أي لاَ اعتمَاد لهُ عَلَىٰ شَيء إطلاقاً حَيْث لاَ يَعتمد عَلَىٰ سوَاه إلّا الضّعِيف القَاصِر»[2].

(كَائِنٌ لاَ عَنْ حَدَثٍ). تَقول: حَدث هَذَا، أي لَم يَكُنْ موجُوداً فوجِد. وَلاَ بُدَّ

(١) أنظر، نَهج البَلاَغة: الخُطبَة «١٨٦».

(٢) أنظر، الكافِي: ١/٨٨ ح ٢، ولكن ينسبه إلَىٰ أبي الحَسَن الرّضاﷺ، عيون أخبار الرّضا: ٢/١٠٧ ح ٦، توحيد الشّيخ الصّدوق: ١٢٥ ح ٣، مُسْنَد الإمَام الرّضا: ١/٣٠.

لكلّ مِن سَبب فِي حدُوثه بَعد أنْ كَان مَسبُوقاً بِالعَدم، وفِي بقَائِهِ وٱستمرَاره أيضاً، لأنّ طَبيعَة المُمكن بِمَا هِي لاَ تَقْتَضِي حدُوثاً، وَلاَ بَقاءً إلاّ بِسَبب خَارج عَنْهَا. وَالله سُبْحَانَهُ أَزْلي لا أَوّل لهُ، وهُو سُبْحَانَهُ مُسبب الأَسْبَاب، وَلاَ سَبب لهُ، لإِسْتحَالة التّسلسُل فِي الْعِلَل، وَضرُورة الإنْتِهَاء إِلَىٰ عِلَّة أُولَىٰ (مَوْجُودٌ لاٰ عَنْ عَدَمٍ). لأنّ أَزْله سَبق العَدم، ومِنْهُ يَبْتَدِيء كُلّ شيء، وإِلَيْهِ تَنْتَهِي جَمِيع الأَشْيَاء.. إنّه يَبدأ الخَلق ثُمّ يُعِيده.. ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

(مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لاٰ بِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لاٰ بِمُزَايَلَةٍ). المُزَايَلة: المُفَارَقة، والْمَعْنَىٰ أنّه تَعَالَىٰ مَع كلّ شيء بِعلمه، وَقُدرته، وَبَعِيد عَن كلّ شَيء بِكُنهه، وحَقِيقَته... فَلا ٱتّحَاد، وَلاَ ٱنْفصَال، ولكنْ صِلة بَيْنَ الْخَالِق، والْمَخْلُوق، وبَيْنَ الْعِلَّة، والمَعلُول. وَجَاء فِي أُصول الكَافِي عَن الإِمَام أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام أنّه قَالَ فِي تَمجِيد الله سُبْحَانَهُ: «قَرِيب فِي بُعده، بَعِيد فِي قُربه، فَوق كلّ شَيء، وَلاَ يُقَال: شَيء فوقه، أَمَام كلّ شيء، وَلاَ يُقَال لهُ: أَمَام، دَاخل فِي الأَشْيَاء، لاَكَشيء دَاخل فِي شَيء، وخَارج عَن الأَشْيَاء، لاَكَشيء خَارج مِن شَيء، سُبْحَان مَن هُو هَكَذا، وَلاَ هَكَذا غَيْره»[2].

وَقَالَ المُلا صَدرا فِي شَرح هَذَا الكَلاَم ـ مَا تَلخِيصه، وَتوضِيحه: هُو قَرِيب مِن الأَشْيَاء، لأنّه خَالقها، وبِهِ حدُوثها، وَبَقاؤها، وَهُو بَعِيد عَن الأَشْيَاء، لأنّ الْخَالِق أعظَم مِن الْمَخْلُوق، والعِلَّة أكمَل مِن المَعلُول؛ لإِسْتغنَائِها عَنه، وٱفْتقَاره إِلَيْهَا، والله فوق كلّ شيء، لإِحَاطته بِالأَشْيَاء، وَلاَ يُقَال: فوقه شَيء، لأنّه غَيْر مُتنَاهِي

---

(١) مَرْيَم: ٣٧.

(٢) أُنظر، فيض القَدِير: ٦/٢٣٥ ح ٨٨٦٠، الكَافي: ١/٨٦ ح ٢، ٱلهِدَايَة للشيخ الصّدوق: ١٥، المَحَاسِن للبرقي: ١/٢٣٩ ح ٢١٧، توحيد الشّيخ الصّدوق: ٢٨٥ ح ٢.

الْوُجُود، وهُو أمَام كلّ شيء، لأنّه أزْلِي لا أوّل لهُ، وهُو دَاخل فِي الأَشْيَاء، لأنّ وجُودها مُستَمد مِن وُجُودِه تَمَامًا كَمَا يُستمد الكلّ وُجُودِه مِن وجُود أجزَائه، وهُو خَارج عَن الأَشْيَاء، لأنّه مُستقل عَنْهَا مِن كلّ وَجه، وهِي رَشحَة مِن رَشحَات وُجُودِه[١].. وَبِهذا نجد تَفْسِير قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[٢]. وقَوْله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٣]. وقَوْله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٤].

(فَاعِلٌ لا بِمَعْنَىٰ الْحَرَكَاتِ، وَ الْآلَةِ). وَخَير تَفْسِير لِهَذه الجُملة قَول الإِمَام نَفْسِه عليه السلام: «فَاعِلٌ لا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ مُقَدِّرٌ لا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ غَنِيٌّ لا بِاسْتِفَادَةٍ لا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ وَ لا تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ»[٥]. وَأَبلَغ مِن هَذَا وأَجْمَع قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٦].

(بَصِيرٌ إِذْ لا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ). وَالمنظُور إِلَيْهِ مَا يَقع عَلَيْهِ النّظر.

والْمَعْنَىٰ أَنّ الله عَالم بِخَلقه قَبل أنْ يَخلقهم، وَمِثله قَول الإِمَام عليه السلام: «عَالِمٌ إِذْ لا مَعْلُومٌ وَ رَبٌّ إِذْ لا مَرْبُوبٌ وَ قَادِرٌ إِذْ لا مَقْدُورٌ»[٧]. أي أنّ وَاجب الْوُجُود عَالم قَادر بِمَحض وُجُودِه، لأنّ قُدرته، وَعِلمه، وذَاته شيء وَاحد، وَلمَّا أرَاد سُبْحَانَهُ أنْ يَخلق الأَشْيَاء وَقَع العِلم عَلَىٰ المَعلُوم السّابق فِي عِلمه، ووَقَعت الْقُدْرَة عَلَىٰ المَقدُور

---

(١) أنظر، الأسفار: ٣٦٩/٦.

(٢) سُورَةُ قٓ: ١٦.

(٣) الْحَدِيد: ٤.

(٤) الشُّورَىٰ: ١١.

(٥) أنظر، نَهج الْبَلاغَة: الْخُطْبَة «١٨٦».

(٦) سُورَةُ يسٓ: ٨٢.

(٧) أنظر، نَهج الْبَلاغَة: الْخُطْبَة «١٥٢».

السّابق فِي قُدرتهِ.

(مُتَوَحِّدٌ إِذْ لاَ سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ، وَ لاَ يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ). قَد يَدخل الوَاحد فِي عِداد الاثْنَيْن، والثّلاَثة... إلخ، وأيضاً يُطلق عَلَىٰ الضَّعِيف الَّذي لاَ ناصر لهُ، ولاَ مُعين، وَعَلَىٰ المُتوحد المستُوحش لِفَقد الجَلِيس، والأنِيس، والله مُنَزَّه عَن القِلة، والضَّعْف، وَعَن الوَحشة، والإستِيناس. والمُراد بوحدَته تَعَالَىٰ تَفرده بالسُّلْطَان والكَمَال. قَالَ الإِمَام عليه السلام: «أَوَّلاً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً، وَيَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِناً كُلُّ مُسَمّىً بِالْوَحْدَةِ غَيْرُهُ قَلِيلٌ»[1].

أَنْشَأَ الْخَلْق... فِقْرَة ٧ ـ ٨:

(أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً، وَ ابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً، بِلاَ رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا، وَ لاَ تَجْرِبَةٍ ٱسْتَفَادَهَا، وَ لاَ حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا، وَ لاَ هَمَامَةِ نَفْسٍ ٱضْطَرَبَ فِيْهَا[7]. أَحَالَ الأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا، وَ لأَّمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا، وَ غَرَّزَ غَرَائِزَهَا، وَ أَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا عَالِماً بِهَا قَبْلَ ٱبْتِدَائِهَا، مُحِيطاً بِحُدُودِهَا، وَ ٱنْتِهَائِهَا، عَارِفاً بِقَرَائِنِهَا، وَ أَحْنَائِهَا[8]).

اللُّغَة:

الرَّوِيَّة: النَّظر، والتَّفكِير. وأَجَالَهَا: أدارها وردَدها. هَمَامَة: مِن الإِهْتِمَام. ٱضْطَرَبَ: تَحرك. أَحَالَ: مِن التّحوِيل مِن حَالٍ إِلَىٰ حَال. لأَّمَ: وَافق. غَرَائِز: جَمع غَرِيزَة، وَ غَرَّزَهَا جَعَلها غرائز. أَشْبَاح: أشخَاص. قَرَائِنِهَا: ما يَقترن، وَيَصدر

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطبَة «٦٥».

عَنْهَا. أَحْنَائِهَا: جوَانِبها.

الإِعْرَاب:

عَالِماً حَال مِن الضَّمِير المُسْتَتِر فِي أَلْزَمَهَا، وَمِثله مُحِيطاً وعَارِفاً، أَمَّا الضَّمِير البَارِز فِي أَلْزَمَهَا، وهُو الهَاء فَيعُود إِلَىٰ الغَرَائِز.

الْمَعْنَىٰ:

(أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً، وَ ابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً.). الْمُرَاد بـالْخَلْق هُـنا الكَـوْن، وأَنْشَـأَه، وَابْتَدَأَهُ بِمَعْنَىٰ أوْجَدَه عَلَىٰ غَيْرِ مِثَال سَابق، وَأثبت عُلَمَاء الطَّبِيعَة بِالتَّجْرِبَة أنّ العَالم حَادث، ويَأْتِي الْبَيَان عِند المُنَاسبة... والله أوْجَد الكَوْن أَوَّل مَـا أوجَـدَه مِـن لاَ شيء، وإلّا فأي فَرق بَيْنَه، وبَيْنَ من يَصنع شَيْئاً مِن أشيَاء، وأَشيَاء مِن شَيء، وَإِذَا لَم يَكُنْ للعَالم مِن قَبل عَين، وَلاَ أثَر فَمِن أَين يَأْتِي المَثِيل، وَالنَّظِير؟

(بِلاَ رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا، وَ لاَ تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا، وَ لاَ حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا، وَ لاَ هَمَامَةِ نَـفْسٍ اضْطَرَبَ فِيْهَا). هَذِه الأوصَاف الأَرْبَعَة كلّها لِلمَخلُوق... ولذَا نَفَاها الإِمَام عليه السلام عَن الكَمَال الذّاتِي المُطلق... فالرَّوِيَّة عَملِية تَفكِير، وَتَأمُل لإِسْتخرَاج مَجهُول مِـن مَعلُوم، وَمِثلها التَّجْرِبَة بإِضَافة الرّؤيَّة إِلَىٰ الرَّوِيَّة، وبكَلِمَة أوْضَح: الرَّوِيَّة عَـقل، وَالتَّجْرِبَة حِس، وكلّ مِنْهُمَا طَرِيق، وَوسِيلة إِلَىٰ الْمَعْرِفَة. والحَـرَكـة مِـن لوَازم الجِسم، وَلاَ دَافع عَلَىٰ الإِهتِمَام بِالشَّيء إلّا الحِرْص عَلَىٰ المَنْفَعَة، والخَوْف مِن فَقدها وزَوالها... والله قَادر، وَعَالم، وَغَني بِالذَّات، لاَ بالأوصَاف، وبِمَا هُو لاَ بالوَسَائِل، يُحِيط بكلّ شَيء، غَني عَن كُلّ شَيء، ولهُ المَثل الأعلَىٰ لكَمَاله الذّاتِي المُطلق مِن كلّ

وَجه.

(أَحَالَ الْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا). إِذَا ٱختَار الله أَمراً فَإِنَّمَا يَختَاره لحِكمَة بَالِغة، وَلِمَصلحَة تَعُود عَلَىٰ الخَلق، لاَ عَلَيْهِ جَلَّت عَظمَته، فإِذَا ٱقتَضت المَصْلَحَة وجُود شَيء فِي وَقتٍ مُعَيَّن أوجَده سُبْحَانَهُ فِيهِ، لاَ يَتَقَدَّم عَلَيْهِ، ولاَ يَتأخر عَنْه... ولاَ مَانِع فِي حُكم ٱلْعَقْل أنْ تَتعلق الإِرَادَة الْأَزْلِية بإِيجَاد ٱلْحَوَادِث فِي أوقَاتها الْخَاصَّة، مَا دَامت عَلَىٰ مَا هِي قَبل الحَادث، وَبَعده.. وَتَجدر الْإِشَارَة إِلَىٰ أنّ قَول الْإِمَام عليه السلام: «لِأَوْقَاتِهَا» يُومىء إِلَىٰ أنّ العَالم لَم يُخلق دُفعَة وَاحِدَة بل عَلَىٰ التّدرِيج، أو التَّطور، وأنّ كلّ شَيء يَسْتَند فِي وُجُودِه، وٱستمرَاره إِلَىٰ إِرَادته تَعَالَىٰ مُبَاشرة، أو بوَاسطة مَا خَلق وَسبّب مِن الْأَسْبَاب، وأنْ الطَّبِيعَة، أو البِيئة هِي عَامل يُكيف الشّيء المُوجُود، وَلاَ يَخلقه، ويُوجده.. وَبِهذا شَهدت تَجارب عُلَمَاء الطَّبِيعَة[1].

(وَ لأَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا، وَ غَرَّزَ غَرَائِزَهَا، وَ أَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا). فِي الكَوْن عوَالم وَعنَاصر مُتعددة، وَمُختلفة فِي جوهَرها، ووَظَائِفها، فَالرُّوح ـ مَثلاً ـ غَيْر البَدن حَقِيقَة، وأَثراً، ولكنْ كُلاً مِنْهُمَا لاَ يَقوم بوظِيفته إلّا إِذَا ٱقترَن بالآخر، وَهَذَا يَنطَبق عَلَىٰ كلّ عَملِية عُضوِية فِي الجِسم ذِي الْأَعْضَاء، فَمَا مِن عُضْو وَاحد مِنْهَا يُؤدي وَظِيفته إلّا بٱقترَانه مَع غَيْره، وَهَكذا سَائِر ٱلْكَائِنَات، أو الكَثِير مِنْهَا يَرتَبط بَعْضهَا مَع بَعْض بِنَحو أو بآخر، وَبِهذا التّرابط الطّبيعي يَسِير الكَائِن فِي طرِيقه المَرسُوم لهُ، وَيُحقق الْغَايَة الَّتي مِن أجْلِها وِجد.

وَيَعني هَذَا التّلاؤم، وَالتَّرابط أنّه لاَ شَيء وِجد صِدفَةً، أو عَبثاً... وأَين مكَان

---

(١) أنظر، ما ذكره أحمد أمين العرَاقي أقْوَالهم فِي كتَابه «التّكامل فِي ٱلْإِسْلاَم»: ٢/١٠٣، طَبعَة ٣.

الصّدفة، وَالعَبث ؟. هَل هُو فِي هَذَا النّظام اَلْمُحْكَم الدَّقِيق الَّذي يَخضَع لهُ الكَوْن وَلا يَتعدَاه بِحَال ؟ أو هُو فِي التّقدِير الكَمّي، والكَيْفِي، والزَّمني لكلّ كَائن ؟ أو هُو فِي التَّعَاون بَيْنَ اَلْكَائِنَات عَلَىٰ البِنَاء، والتَّعمِير ؟. أَبداً لا تَفْسِير لذَلِكَ إلّا الوُجُود القَدِير الحَكِيم، وأنّه المَصْدَر الأَوّل لكلّ شَيء إيجَاداً، وإمدَاداً، ولَوْلاَه لا شيء عَلَىٰ الإِطلاَق.

(عَالِماً بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا مُحِيطاً بِحُدُودِهَا، وَ انْتِهَائِهَا. عَارِفاً بِقَرَائِنِهَا، وَ أَحْنَائِهَا). نَحنُ نَعرف شَيْئاً، وَتغِيب عنّا أشيَاء، وأيضاً لا نَعرف هَذَا الشّيء إلّا بَعد وُجُودِه، أو عِند وجُود أسبَابه، وَعَلامَاته، وَمَع هَذَا نَعرف مِنْهُ الوَجه الظَّاهِر، كلّه أنّ مَعرفتنا القلَيْلَة النّاقصة لاَ تَحصل إلّا بِالجِد، والاكتِسَاب. والله سُبْحَانَهُ يَعلم كلّ شَيء عَلَىٰ حَقِيقَته، وَمِن جَمِيع جِهَاته: مَتَىٰ يُوجد ؟ وأَين ؟ وكَيْفَ ؟ ومَا يَحدث لهُ ؟ وفِي أي أَمد يَنْتَهِي ؟ لأنّه هُو الَّذي أَبدَعه، وَقَدره تَقدِيراً. وعِلمه بِذَلِكَ هُو هُو قَبل الخَلق، وَبَعده لاَ تَحوِيل، وَلاَ تغيير، وَالسّبب الأَوّل، والأخِير هُو كَمَاله المُطلق بِلا قيُود وحدُود، وَلاَ بدَاية، ونِهَايَة، وإلّا كَان مَعلُولاً لا عِلَّة، ومخلُوقاً لا خَالِقاً. تَعَالَىٰ الله عمّا يَصفُون.

خَلْق اَلْسّماوَات... فِقْرَة ٩ ـ ١٣:

(ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الْأَجْوَاءِ، وَ شَقَّ الْأَرْجَاءِ، وَ سَكَائِكَ الْهَوَاءِ[٩]. فَأَجْرَىٰ فِيْهَا مَاءً مُتَلَاطِماً تَيَّارُهُ، مُتَرَاكِماً زَخَّارُهُ. حَمَلَهُ عَلَىٰ مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ، وَ الزَّعْزَعِ الْقَاصِفَةِ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، وَ سَلَّطَهَا عَلَىٰ شَدِّهِ، وَ قَرَنَهَا إِلَىٰ حَدِّهِ. الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ، وَ الْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ[١٠]. ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً اَعْتَقَمَ مَهَبَّهَا، وَ أَدَامَ مُرَبَّهَا،

وَ أَعْصَفَ مَجْرَاهَا ، وَ أَبْعَدَ مَنْشَأَهَا ، فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ ، وَ إِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ [١١] ، فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقَاءِ ، وَ عَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ . تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَىٰ آخِرِهِ ، وَ سَاجِيَهُ إِلَىٰ مَائِرِهِ حَتَّىٰ عَبَّ عُبَابُهُ ، وَ رَمَىٰ بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ ، فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ ، وَ جَوٍّ مُنْفَهِقٍ [١٢] ، فَسَوَّىٰ مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، جَعَلَ سُفْلاَهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً ، وَ عُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً ، وَ سَمْكاً مَرْفُوعاً ، بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا ، وَ لاَ دِسَارٍ يَنْظِمُهَا . ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ، وَ ضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ ، وَ أَجْرَىٰ فِيْهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً ، وَ قَمَراً مُنِيراً . فِي فَلَكٍ دَائِرٍ ، وَ سَقْفٍ سَائِرٍ ، وَ رَقِيمٍ مَائِرٍ [١٣]) .

اللُّغَة:

الفَتْق بِفَتح الفَاء : الشَّقّ ، وَهُو ضِدّ الرَّتق . والأَجْوَاء : جَمع جَوْ . وَالأَرْجَاء الجوَانب ، وَالأَطرَاف . والمُرَاد بالسَّكَائِك هُنا طَبقَات الجوْ . وٱلْهَوَاء : الجوْ . والتيَّارُ : مَوْج الْبِحَر . والزَّخَّارِ : المُمتلىء . والْـعَاصِفَة : الرِّيح الشَّـدِيدة . وزَّعْزَعة الشَّيء : تُحرِكه . وَعَلَىٰ شَدِّهِ أي جَذْبه ، وإِمْسَاكه . وإِلَىٰ حَدِّهِ : جَعل ٱمتدَاد الرِّيح عَلَىٰ قَدر ٱمتدَاد الْمَاء . والفَتِيق : الخَالي الَّذي لاَ شَيء فِيهِ . والدَّفِيق : مِن الدَّفق ، وهُو الصَّبّ . وٱعْتَقَم : جَعَل الرّيح عَقِيمة لاَ تُلقح شَيْئَاً . وَهَبّت الرِّيح : ثَارت ، وهَاجت . ومَهَبّها موضِع هبُوبها . والمُرَبّ : مَحل الإِقَامة . وأَعْصَفَ : جَعَله شَدِيداً : والمَـنْشَأ مَـوضع النّشأة ، يُقَال : مولِدي وَمَنشأي فِي كَذا ، أي مَـوضع وِلاَدتي ، وَنَشأتي . وَمَخَـضَتْهُ : حرّكَته تَحرِيكاً شَدِيداً . والسَّاجِي السَّاكِن . والمَـائِر : المُـتحرِك . وعَبَّ : ٱرْتَـفع . وَالزَّبَدِ : يَعلو الْمَاء . والرُكَامُ : المُتَرَاكم بَعْضه فَوق بَعْض ، ومُنْفَتِقٍ : مُنْشَق ، وَمفتُوح . ومُنْفَهِق : وَاسِع . والمَوْج المَكْفُوف : الجَامد . والدِّسَار : مِسمَار وَنحـوه . والثَّـوَاقِبِ :

النّجُوم المُنِيرة المُشرِقة. والسِّرَاج المُسْتَطِير: المُنْتَشر الضِّيَاء. وسَائِر: مُتَحرِك.
والرَّقِيم: اللّوح، والمُرَاد هُنا: الرَّقِيم. ومَائِر: مُتحرِك.

الْإِعْرَاب:

(ثُمَّ أَنْشَأَ) لِلشَّارِحِين أَقْوَال طوِيلة فِي «ثُمَّ» هَذِه، وأَظهرهَا أَنَّهَا عَطف عَلَىٰ مَعْنَىٰ الكَلاَم المُتَقدِّم عَن قُدرَة الله سُبْحَانَهُ، وأنّه يَخلق بِلا حَركَة، ولاَ همَامَة نَفْس.... إلخ، ومُتَلاطِماً صِفَة لِلمَاء، وتَيّارُهُ فَاعِل لمُتَلاطِم، وَمِثله مُتَرَاكِماً زَخَّارُهُ، وفِي فَلَكٍ مُتعَلِّق بِمَحْذُوف صِفَة ثَانِيَة لِلسِّرَاج، والْقَمَر.

حَوْلَ الكَوْن:

تَكلَّم النَّاس كَثِيراً عَن طَبِيعَة الكَوْن، وَأصلِهِ، وَعَن هَيئته، وَشكلِهِ فِي أَوَّل وُجُودِهِ وَتَكوِينه: هَل وجد مِن التُّرَاب، والْمَاء، والنَّار، والْهَوَاء، أو مِن النَّار وَحدها، أَو مِن الْمَاء فَقط، أو مِن أشيَاء كَثِيرَة؟ وَهَل كَان وُجُودِه دُفْعَة، أو بالتّدرِيج، إِلَىٰ غَيْر ذَلِكَ... وَقَالَ النَّاس عَن الكَوْن مَا شَاء لَهُمْ الوَهم، والخَيَال... وَهَذَا مَا دَعَا الْإِمَام ﵇ ـ كَمَا نَظن ـ أَنْ يُشِير فِي خُطْبَته هَذِه إِلَىٰ أَصل الكَوْن، وَقَد يَكُون الغَرض أنْ تَعرف الْأَجيَال القادِمة أنّ الْغَيْب الّذي نَطق بِهِ عليّ عَن النَّبيّ ﷺ عَن الله سُبْحَانَهُ هُو حَقّ، وَصِدق.

وَمَهمَا يَكُنْ فَقَبل أنْ نُفسر الْمُرَاد مِن قَوْله ﵇ نُمَهد بِمَا يَلي.

لاَ بِقَصد التَّسهِيل، وَالتّيسِير عَلَىٰ فَهم مَا قَصد، وأَرَاد ﵇ بل غَرضنا الأَوَّل أَنْ يَتَثبت الشّاكّون، ولاَ يَتَسرعُوا إِلَىٰ الْحُكْم بأنّ قَول الإِمَام لاَ يَتفق مَع رَأي عُلَمَاء

الطَّبِيعَة الجُدد ، ولاَ يَعْتَمد عَلَىٰ شَيء ، وأنْ يَعلم الجَمِيع أنّ مَن قَالَ هَذَا فقَوْله هُــو الجَدِير بِهَذا الْوَصْف ...

وَالدَّلِيل:

١ ـ أنّ عُلَمَاء الطَّبِيعَة لَم يَتوصلُوا إِلَىٰ الإتفَاق عَلَىٰ تَفْسِير عِلمي لِمَبدأ الكَوْن ، ولاَ كَيْفَ وِجد ؟ وَكَم مَضىٰ لهُ مِن الْعُمُر .. فِمنْهُمْ مَن قَالَ : بَدَأ الكَوْن بِإنفجَار مِن كُتلة المَادَّة البدَائية ، ولَكِنَّهُ لَم يُبين نَوْع هَذِه الكُتلة البدَائِية ، وَقَالَ آخر : بَدأ الكَوْن مِــن السَّدِيم ، أي الضُّباب الرَّقِيق . وَقَالَ ثَالِث : بَدَأ مِن غَاز الهِيدرُوجِين ... وَلكن مِن أَينَ جَاء هَذَا الغَاز ، أو تِلك المَادَّة البدَائِية ، أو ذَاكَ السَّدِيم ؟ هَل وِجد صِــدفَة ، أَو وِجد لنَفْسِه بنَفْسِهِ ، أو هُو مِن قُوَّة عُليا .. ؟

أَبداً ، لاَ جوَاب ، أو جوَاب بِلا دَلِيل . وَفوق ذَلِكَ أنّ الكَلاَم فِي بِدء الكَوْن حَيْث لاَ شَيء إِلّا العَدم ، لاَ فِي وجُود شَيء نُحاول مَعْرِفَته وَالعِلم بِهِ . وإِذَنْ فَتَنبؤ هَؤُلاَء ، أَو تَخَرصُّهم بَعِيد عَن مَوْضُوع الكَلاَم ، وَالسّؤال كلّ البُعد ، وَكَان عَلَيْهِمْ أنْ يَبْحَثوا أوَّلاً وَقبل كلّ شَيء : هَل العَالَم حَدِيث ، أو قَدِيم ؟ ... وَقد أثبت كَثِير مِن الْـعُلَمَاء الجُدد أنَّه حَادث ، وتُذكر أقوَالهم عِند المُنَاسبة .

وَقَالَ رَابع مِن عُلَمَاء الطَّبِيعَة : «كُلّ مَا لدِينا مِن مَـعلُومَات لاَ تُـصَحح نَـظَرية وَاحِدَة عَن الكَوْن» . وَهَذَا العَالم هُو الدّكتور (مَاري) الأُستَاذ فِي جَامعَة سِـيدنِي ، وَيَهتَم آهتِمَاماً بَالِغاً بِالكَوْن وَأَصله [1] .

---

(١) أنظر : مَجلة عَالم الفِكْر الكويتية : ١/ ٥ عدد ٣) . (مِنْهُ ﷺ) .

وَأيضاً آختَلفُوا فِي الكَوْن: هَل وِجد بِخطُوطه الْكُبْرَىٰ عَلَىٰ الحَال الَّتي هُو عَلَيْهَا الآنْ، أو تغَير عمَّا كَان عَلَيْهِ؟. وآخْتَلفُوا أيضاً فِي عُمْر الكَوْن، فَمن قَائِل: هُو سِتُون أَلف مليُون سَنَة، وَقَائِل: بَل عَشرة آلاَف مليُون، وَقَالَ ثَالِث: لاَ دَلِيل عَلَىٰ الْعُمُر إطلاَقاً. وَقَالَ الدّكتُور فؤَاد مَعرُوف نَائِب رَئِيس الجَامعَة الأَمرِيكِية فِي بَيرُوت: «والنِّقَاش العِلمي ـ أي فِي أَصل الكَوْن وَعُمره ـ قَائِم عَلَىٰ قَدَم وَسَاق»[1].

وَبَعد هَذَا، هَل يَسوغ لقَائِل أنْ يقول: أنّ كَلاَم الْإِمَام عليه السلام عَن خَلق الكَوْن ـ لاَ يَتَفق مَع رَأي عُلَمَاء الطَّبِيعَة؟.. أَجْل، لهُ أنْ يَسأل، وَيَقول: وَلَكنْ مَا هُو الدَّلِيل عَلَىٰ أنّ الْمَاء أَصل الكَوْن كمَا جَاء فِي خطَاب الْإِمَام عليه السلام؟.

وَنَحنُ أيضاً نَسأل بِدُورنا: هَل مِن دَلِيل قَاطع مِن الْحِسّ، أو الْعَقْل عَلَىٰ خِلاَف مَا قَاله الْإِمَام عليه السلام؟. وَهَل مِن المُستَحِيل أنْ يتَقدَّم العِلم، وَيَكشف بَعد أجيَال وَقرُون أنّ مَا قَاله عَليّ عليه السلام فِي خَلق الكَوْن هُو الْحَقّ الَّذي لاَ رَيب فِيهِ، تَمَاماً كَمَا آكتَشف أنّ النّقطة الوَاحِدَة مِن الْمَاء الَّذي نَشربه فِيهَا عَجَائِب، وغَرَائِب مِن المخلُوقَات، والْكَائِنَات الحِيَّة الَّتي أَشَار إِلَيْهَا الْإِمَام بقَوْله ـ قَبل أَلف عَام، أو أَكْثَر ـ: «لاَ تَبُل فِي الْمَاء فإنّ لِلمَاء أَهْلاً»[2]. وَمِثله قَول أُستَاذه الصّادق الأَمِين صلى الله عليه وآله: «أنّ آلْهَوَاء فِيهِ خَلق كَثِير»[3].

وَقَبل المِيلاد بِخَمسة قرُون قَالَ الفَيْلَسُوف اليُونَاني «آنْكسَاجورَاس»: أنّ آلْقَمَر مُجَرد جِسم يَشبَه آلأَرْض.

---

(١) أُنظر، مَجلة عَالم الْفِكر: ٢/١٧/٢ عَدد٢). (مِنهُ رحمه الله).

(٢) أُنظر، المُعتبر: ١/١٣٧، التَّهذِيب: ١/٣٤ ح ٩٠، الإِستِبصَار: ١/١٣ ح ٢٥، مُنْتَهىٰ المَطلب: ١/٤٠.

(٣) أُنظر، الخِصَال: ٦١٣، وَسَائِل الشِّيعة: ١/٢٤٠ ح ٣، تُحف الْعُقُول: ١٠٢.

وفِي القَرن الثَّالِث قَبل المِيلاد أيضاً قَالَ «آرسترَاكوس» اليُوناني: أنّ ٱلأَرْض تَدُور حَوْلَ محورها، وحَوْلَ ٱلشَّمْس.

وفِي القَرن الأَوَّل المُيلادي قَالَ «بلوتَارك»: فِي ٱلْقَمَر أودِية، وَتِلال.. وَسَخر النَّاس آنذَاك فِي هَذِه الأقوَال، وعدّوها سُخفاً، وهرَاء... وَبعد أَلفي سَنَة صَعد الإنْسَان إِلَىٰ ٱلْقَمَر، ووطَأه بِقَدمِيه، ورَآه تَمَاماً كَٱلأَرْض.. هَذَا، وٱنكساجورَاس، وغَيْره مِن الّذين صَدقوا فِي نبُوَاتهم ـ لَم يأخُذُوا العِلم مِن خَالق ٱلأَرْض، والسَّماء، كَٱلأَنْبِيَاء، وَتَلامِيذهم الأَوْلِيَاء.. ومَا يُدرِينا أنّ الأَيَّام سوف تُثبت قَول الإِمَام فِي تَفْسِير الكَوْن، كَمَا أثْبَتت أنّ ٱلْقَمَر مِثل ٱلأَرْض؟. وَمَا أَكْثَر الشّواهد فِي هَذَا البَاب.

٢ ـ هَل مِن دَلِيل قَاطع عَلَىٰ أنّ هَذَا الكَوْن الَّذي نَعِيش فِيهِ الآنْ هُو بِالذَّات الكَوْن الأَوَّل بجَمِيع خُطوطه، وَتَفاصِيله؟. أنّ كَلاَم الإِمَام عليه السلام وَاضحٌ، وَصرِيح فِي مَبدأ الكَوْن الأَوَّل الَّذي سَبق الأكوَان كلّها، وَمَا سَبقه إلّا العَدم، والخَوَاء، وَقد مَضىٰ إِلَىٰ الأَوَّل غَيْر رَجْعَة، وَجَاء بَعده أكوَان، وأَكوَان... هَكذا نَطَقَت الرِّوَايَات عَن أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام. مِنْهَا عَنْ الإِمَام البَاقر حَفِيد الإِمَام أَمِير ٱلمُؤْمِنِين عليهما السلام: «والله لَقَد خَلق الله أَلف عَالَم، وَأَلف آدَمَ قَبل هَذَا العَالَم، وَمَا فِيهِ مِن الآدَمِيين»[1].. وَقَالَ أيضاً: «سَيُفنىٰ هَذَا العَالَم، وَيَخلق الله عَالماً آخر يَعِيش فِيهِ عوَالم آخرُون»[2].

وَعَلَىٰ هَذَا الْيَقِين عِنْدَنَا، والاحتمَال ـ عَلَىٰ الأَقل عِند غَيْرنا ـ لو ٱتفَق أَهْل ٱلأَرْض جَمِيعاً عَلَىٰ أنّ تَفْسِير الإِمَام عليه السلام لِخَلق الكَوْن لاَ يَنطَبق عَلَىٰ هَذَا الَّذي نَعِيش

(١) أُنظر، الخِصَال: ٦٥٢، توحيد الصّدوق: ٢٧٧ ح ٢، تَفْسِير البرهان: ٢١٩/٤.

(٢) أُنظر، المصادر السَّابقة.

فِيهِ، لَو وِجد هَذَا الْإتفَاق يَبْقَ قَول الإِمَام عَلَىٰ حصَانَته، وَقَدَاسته، لأنَّه عَن العَالم الْأَوَّل، وَلَيْسَ عَن عَالمنا هَذَا اللاَحق بِمَا فَات، وَالسَّابق لمَا هُو آت.

وَتَسْأَل: أنّ قَول الإِمَامِ عليه السلام صَرِيح فِي العَالم، مَا فِي ذَلِكَ رَيب، وَلكنْ مِن أَيـن أَخَذ العِلم بِهِ، وَقَد ذَهب هَذَا العَالم بِمَا فِيهِ، وَجَاء بَعده عوَالم، وعوَالم.. وَهل هَذَا إلّا قَول الْغَيْب؟

وَقَد أجَاب الْإِمَامعليه السلام عَن ذَلِكَ بقَوْله: «لَيْسَ هُوَ بِعِلْم غَيْبٍ وَ إِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْم»[1]. يُرِيدعليه السلام أنّ مَصْدَر عِلمه هُو رَسُـول الله صلى الله عليه وآله عَـن جِـبْرِيلَ عَـن الله سُبْحَانَهُ الَّذي لاَ خَالق إلّا هُو.. وَمِن أَجل هَذَا تَكَلَّم الْإِمَامعليه السلام بِـثقَةٍ، وَيَـقِين، لاَ بِحَدسٍ وَتَخمِين.. كَيْفَ؟ وهُو القَائِل: «لاَ تَقل مَا لاَ تَعلم، بَل لاَ تَقل كلّ مَا تَعلم، فإنّ الله فَرض عَلَىٰ جوَارِحك كلّها فرَائِض يَحتجّ بِها عَلَيْكَ يَوْم ٱلْقِيَامَة»[2]. وكلّ النَّاس يَعلمُون أنّ عَلِيّاً تَنْسَجم أَقْوَاله مَع أفعَاله، وَأَفعَاله مَع دِينه، وَضَمِيره.

سُؤال ثَانٍ: أنّ هَذَا الجوَاب لاَ يَستَمع إِلَيْهِ إلّا مَن آمَن بِالْغَيْب، وَبصُورة أَخَص بِنُبُوَّة مُحَمَّدصلى الله عليه وآله أَمَّا مَن جَحد، وأعرَض فإِنَّه يَهزَأ، وَيَسخَر.

الجوَاب:

نَحنُ نُؤمن بِالْغَيْب، وَبِعِصمَة ٱلأَنْبِيَاء، والأَئِمَّـة الأَطهَار، نُؤمن بِـذَلِكَ لِلـدلاَلَة القَاطِعة، بَل والضَّرُورة الوَاضِحة، وَقد أعلنَّا هَذِه ٱلأَدِلَّة عَلَىٰ المَلأ فِيمَا سَبق مِـن

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (١٢٨).

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة، خطب الإِمَام عليّ: ٩١/٤، ٱلحِكْمَة (٣٨٢)، عيون الحكم والمواعظ: ٥٢٦، شَرْح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْن أَبي ٱلحَدِيد المُعْتَزِلي: ٣٢٣/١٩.

الأجيَال، وفِي هَذَا الجِيل لِيَطلع عَلَيْهَا مَن أحبّ.. ولَيْسَ مِن شَرط ٱلْعَمَل بالدَّلِيل أنْ يَثبت عِند كلّ النَّاس، وإلاّ ما ٱختَلف ٱثْنَان، بَل يَكفِي لِصحَة ٱلْعَمَل بِهِ أنْ يَثبت عِند مَن يَركن إِلَيْهِ. وَمِن أَجل هَذَا لاَ نَفرض نَحنُ أدلتنا عَلَىٰ جَاحِدٍ، أو مُشككٍ، وَكلّ مَا نَطلب مِن هَذَا وذَاكَ أنْ يُعاملنا بِالمِثل، ولاَ يَفرض عَلينا رَأيه، وأنْ يُرَاجع التّفكِير قَبل الجزم، وَيَتروىٰ قَبل الْحُكْم بأنّ هَذِه النّظرِية، أو تِلك ـ مَثلاً ـ هِي ضِدّ الْحَقّ، والوَاقع مَع العِلم بأَنَّهَا قَيد الْبَحْث، وَالدَّرس عِند الْعُلَمَاء، وأنّهم فِي حَيرَة مِن أمرِها.. وَهَذَا هُو شَأنهم فِي الكَثِير مِن النَّظرِيات، والأفكَار، ومِنْهَا نَظرِية الخَلق. بَل، أنّ صَاحب أعظَم عَقلِية عِلمية فِي هَذَا العَصر، وهُـو (إِيـنْشتَاين) قَـالَ: «أنّ ٱلْعَقْل البَشري مَهما بَلغ مِن العَظمَة فهُو عَاجز عَن الْإِحَاطَةِ بـالكَوْن»[1]. وَنَحـنُ نُؤمن بِهَذا، وبأنّه لا أَحد يُحِيط بالكَوْن، وأَصله إلّا خَالق الكَوْن، أو مَن ٱرتَضىٰ مِن عِبَادِه: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[2]. وَإِذَا كَان (إِيْنشتَاين) نَفْسه عَاجِزاً عَن مَعْرِفة الكَوْن الَّذي عَاش فِـيهِ بِٱعـتِرَافـه، فكَيْفَ يَسوغ الْحُكْم عَلَىٰ قَول الْإِمَامعليه السلام فِي الكَـوْن الأَوّل بأنّـه يُـصادم الوَاقـع، ويُخالف العِلم الْحَدِيث؟.. هَذَا هُو غَرضنا الْأَوّل، والأخِير مِن هَذِه الفِقْرَة، أو مِن هَذَا التّمهِيد.. والسَّلاَم عَلَىٰ مَن قَالَ: فَرُبَّ مَلُومٍ لاَ ذَنْبَ لَهُ »[3].

وَبَعد أنْ تَبينَ هَذَا مَعْنَىٰ، نُفسر كَلِمَات الْإِمَام بِمدَالِيلها الحَرفِية، وَمَعانِيها الْحَقِيقِية حَيْث لاَ مُبرر لِلتَّأوِيل مِن حِسٍّ، أو عَقلٍ.

(١) وأنظر، تأريخ أبن خلدون: ٥٢٩/١.
(٢) الجِنّ: ٢٧.
(٣) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٢٤/٣، ٱلْكِتَاب (٢٨).

الْمَعْنَىٰ:

(ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الْأَجْوَاءِ، وَشَقَّ الْأَرْجَاءِ، وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ). هَذِه الْكَلِمَات الثَّلاَث كلّها تُشِير إِلَىٰ شَيء وَاحد، وَهُو الْفَضَاء، أو الفُرَاغ اللاَنهَائي، وأيضاً تُشِير إِلَىٰ أنّ هٰذَا الفُرَاغ أبعَاداً ثَلاَثة: عِلُواً، وإِلَيْهِ أَوْمَأَ الإِمَام بالأَجْوَاءِ، وأَطْرَافاً، وَهِي مُراده مِن الأَرْجَاءِ، وَطَبقَات، وعنْهَا عَبر الإِمَام بالسَكَائِك، وَجَمع الأَجْوَاءِ والأَرْجَاءِ، وبالسَكَائِك، وَلَم يُعبر عَنْهَا بالإِفرَاد ـ بِالنَّظر إِلَىٰ تَعدد طَبقَات الْفَضَاء الكَوْنِي، وهَذِه الطَّبقَات ٱكتُشفت بٱلْحِس، والتَّجْرِبَة بَعد غَزو الْفَضَاء، وَصعُود ٱلإِنْسَان إِلَىٰ ٱلْقَمر.

وَيَطلق عُلَمَاء الفَلك عَلَىٰ كُلّ مَجَرَّة يَعرفُونها أي الَمجمُوعة النّجمِية، يُطلقُون عَلَيْهَا كَلِمَة سِكّة بِإِضَافة كَلِمَة أُخرىٰ تُمِيزها عَن غَيْرِها مِن الَمجرَات، وٱسم مَجرتنا الَّتي نَرىٰ بَعْض كوَاكبها سِكْة التَّبَانَة[1].. وَمِمَّا قَرأت أنّ عُلَمَاء الفَلك ٱكتَشفُوا حَتَّىٰ الآن مِئة مليُون مَجَرَّة مِن بَلاَيِين البَلاَيِين مِن الَمجرَات، وكلّ مَجَرَّة تَتَألف مِن بَلاَيِين النّجُوم، وفِي مَجرتنا وَحدَها ـ أي سِكّة التَّبَانَة ـ يُوجد أَكْثَر مِن مِئة مِليَار مِن النّجوم، بَعْضهَا أَكْبَر مِن ٱلأَرْض بأَكْثَر مِن ثَلاثِمئَة أَلف ضَعف.

وَقَالَ الُمتخَصصُون بإثَارة الخِلاَفات الكَلاَمِية: أنّ الْفَضَاء مَخلُوق بدَلِيل قَول الإِمَام: «أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الأَجْوَاءِ... إلخ». فَرد آخر مِنْهُمْ بأنّ الْفَضَاء عَدم مَحض، وَالعَدم لاَ يَتعلق بِهِ الخَلق، وَالإِنْشَاء.. وَنَحنُ لاَ نَرىٰ أَيَّة جَدوىٰ عِملِية مِن

---

(١) أي الَمجَرَّة: وَهِي البَيَاض الُمعترض فِي السَّماَء والسَّواد مِن جَانِبِها، قِوامها نُجُوم كَثِيرَة، لاَتُدرك بِمُجرد البَصَر، وإنّما يَنتَشر ضوؤها فَيرىٰ كأنّه بُقعة بَيْضَاء، والعَامّة تُسمّيها دَرب التَّبانَة. أَنظر، تعريفها فِي لِسَان العَرب: ٤/٥٥٦ و: ١٢/٣٢، القُرآن وإعْجَازه العِلمي لُمحمَّد إِسْمَاعِيل إِبْرَاهِيم: ٦٠.

هَذَا النِّزاع، وَلاَ نَحنُ غَداً عَنْه بِمَسْئُولِين... والَّـذي نَـفْهَمه أنّ الله سُـبْحَانَهُ جَـعل الْفَضَاء حيزاً، وَمقرّاً لِلكَائِن الأَوَّل مِن خَلقه.

(فَأَجْرَىٰ فِيْهَا مَاءً مُتَلاطِماً تَيَّارُهُ: مُتَرَاكِماً زَخَّارُهُ). ضَمِير فِيْهَا يَعُود إِلَىٰ الأَجْوَاءِ، الأَرْجَاءِ، والسَكَائِك، ومُتَلاطِماً، ومُتَرَاكِماً كِنَايَة عَن كَثرَة الْمَاء وعَظمَته، وامتدَاده وارْتفَاعه، وَيَدل هَذَا عَلَىٰ أنّ الْمَخْلُوق الأَوَّل لله تَعَالَىٰ هُو الْمَاء، وأنّه تَعَالَىٰ أوْجَده فِي الجو مَحمُولاً عَلَىٰ رِيح كَثِيفة، وَقوِّية لِلغَايَة، كمَا قَالَ ﷺ: (حَمَلَهُ عَلَىٰ مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ، وَ الزَّعْزَعِ الْقَاصِفَةِ). الضَّمِير فِي حَمَلَهُ يَعُود إِلَىٰ الْمَاء، والْعَاصِفَةِ: الشّدِيدة الهبُوب، وَالزَّعْزَع: التّحريك.

(فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، وَ سَلَّطَهَا عَلَىٰ شَدِّهِ، وَ قَرَنَهَا إِلَىٰ حَدِّهِ). الهَاء فِي أَمَرهَا، وَ سَلَّطَهَا وَ قَرَنَهَا لِلرِّيح، وفِي رَدِّهِ، وشَدِّهِ، وحَدِّهِ للمَاء.. وَقَرَنَهَا إِلَىٰ حَدِّهِ أي أنّ الله سُبْحَانَهُ جَعل الْمَاء، والْهَوَاء مِن حَيْث المسَاحة قَدراً بِقَدر طُولاً، وَعَرضاً، والْمَعْنَىٰ أنّ الله سُبْحَانَهُ بَعد أنْ خَلق الْمَاء فَوق الرِّيح، وَعَلَىٰ قَدرها أعطَاها، جَلَّت حِكْمَته، قُوَّة عَظِيمة، وَجَاذِبية تَستَطِيع مَعَهَا أنْ تَشد الْمَاء إِلَيْهَا عَن ضخَامته بِحَيث لا يَسقط مِنْهُ قَطرَة وَاحِدَة مِن أَطْرَافه، وَلاَ مِن خِلاَله.

(الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ، وَ الْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ). الْهَـوَاءُ الجَـو، والْفَضَاء، وفَتِيقٌ، أي خَال لاَ شَيء فِيه، ودَفِيقٌ أي دَافق بِمَعْنَىٰ مَـدفُوق، والهَـاء فِي تَحْتِهَا وفَوْقِهَا للرِّيح، والْمَعْنَىٰ أنّه كَان آنذَاك فَوق الرِّيح مَاء، وتَحْتهَا فضَاء.

(ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا، وَ أَدَامَ مُرَبَّهَا، وَ أَعْصَفَ مَجْرَاهَا، وَ أَبْعَدَ مَنْشَأَهَا. فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ، وَ إِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ). هَذِه الرِّيح غَيْر الرِّيح الأُولَىٰ الَّتِي تَحمل الْمَاء، والْمَعْنَىٰ أنّ الله سُبْحَانَهُ خَلق رِيحاً ثَانِيَة فَوق الْمَاء، وهَـذِه

الرِّيح عَقِيمة لاَ تُلقح شَيْئاً، وَمُلاَزمة للمَاء، وَقويّة جِدّاً، ومَوْضِعها بَعِيد المَدىٰ (فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقَاءِ، وَ عَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ. تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَىٰ آخِرِهِ، وَ سَاجِيَهُ إِلَىٰ مَائِرِهِ. حَتَّىٰ عَبَّ عُبَابُهُ). أي أنّه تَعَالَىٰ سلّط هَذِه الرِّيح الثَّانِيَة عَلَىٰ المَاء فَحركَته تَحرِيكاً قَوِياً حَتَّىٰ ٱرْتَفع، وَتَرَاكم بَعضه فَوق بَعْض.

(وَ رَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ، وَ جَوٍّ مُنْفَهِقٍ). رُكَامُهُ أي مُتَرَاكِمه، والهَاء فِي رَفَعَه لله سُبْحَانَهُ، أو للمَاء، وَعَطف الجَو المُنْفَهِق عَلَىٰ ٱلْهَوَاء المُنْفَتِق مِن بَاب عَطف التَّفْسِير، والمُرَاد أنّه كَان مِن نَتِيجة تَحرِيك الرِّيح للمَاء بقُوَّةٍ، وشِدَّة أنْ تُبخر المَاء، وصَار بُخاراً كَثِيفاً، وَيُسمّىٰ هَذَا البُخار الكَثِيف المُتَجمد زَبَداً، فَرفَعه الله تَعَالَىٰ فِي الْفَضَاء.

(فَسَوَّىٰ مِنْهُ ـ أي مِن الزَّبَدِ ـ سَبْعَ سَمَوَاتٍ)[1]:

إنَّ ذِكر السَّبع لاَ يُقِيد الحَصر بِها، وإنّما خَصها الوَحي بِالذِّكر لأنّ الّذين خُوطبُوا بِٱلْقُرْآن آنذَاك كَانوا يَسمعُون عَن الأَفلاَك السَّبعة، وكوَاكبها دُونَ غَيْرها.

قَالَ المُؤرخُون: إنَّ الكلدَانِيين ٱشتهرُوا بِعلم الهَيئة، وتوَصلُوا إلَىٰ مَعْرِفة الكَوَاكِب السَّبعة السَّيارة، وتوَارثت الأُمّم هَذِه ٱلمَعْرِفَة عَن الكلدَانِيين جِيلاً بَعد جِيل حَتَّىٰ زَمن الْعَرَب الّذين نَزل ٱلْقُرْآن بِلسَانهم، فخَاطبهم عَن السَّمَاء بِمَا ٱعتادُوا أنْ يُخاطبُوا بِهِ فِيما بَيْنَهُمْ.

---

(١) أنظر، ما قاله الشيخ ﷺ في التّفسِير الكَاشف: ٣٥٨/٧، وَهُو هُنا يُفسر الآيَة ١٢ مِن سُورَة الطَّلاَق. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾.

وَتَسْأَل: كَيْفَ تَجمع بَيْنَ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[1].
وبَيْنَ قَول الإِمَامﷺ: إنَّ الله خَلق ٱلْسَّماوَات مِن زَبَد الْمَاء؟

وأجَابُوا: بأنّ الْمُرَاد بالدُّخَان فِي الآيَة ٱلْكَرِيمَة البُخار المُتصاعد مِن الْمَاء بِسَبب تَموجه، وشِدَّة حَركته، وَالزَّبد عِبَارة عَن بُخار كَثِيف يَتصَاعد عَلَىٰ وَجه الْمَاء مِن حرَارة الحَركة، فَإذَا غَلبت عَلَيْهِ الكثَافة بَقِي عَلَىٰ وَجه الْمَاء وإلاّ ٱنفصَل عَنْه، وَإِذَا كَان الزَّبد بُخَاراً فِي حَقِيقَته، وفِي أصْله، وأيضاً كَان الْمُرَاد بالدُّخَان فِي الآيَة البُخار ـ يَكُون الْمَعْنَىٰ وَاحداً، ولاَ ٱختلاَف إلاّ فِي التّعبِير.. هَذَا، إلَىٰ أنّه رَوىٰ صَاحب ٱلْبِحَار عَن الإِمَام عَليّﷺ أنّ سَائِلاً سَأَلَه: «مِمَّ خَلق الله ٱلْسَّماوَات؟ فَقَال مِن البُخَار»[2]، وعَلَيْهِ يَكُون قَوْله هَذَا تَفْسِيراً، وَبَياناً لِلزَّبد.

(جَعَلَ سُفْلاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً). مَا مِن جُرم فِي السَّمَاء إلاّ وهُو فِي حَركة دَائِمة لاَ يَقف لَحظَة وَاحدة، بَل يَدُور حَوْلَ نَفْسه، أو غَيْره، أو يَنْتَقل كلّ يَوْم، أو كلّ شَهر، أو كلّ عَام مِن مَوضع إلَىٰ مَوضع، وَلِذا شَبَّه الأَجْرَام السّماوِية بِالمُوج الدَّائِم فِي حَركتِه، وَخَصَّ بِالذِّكر الجِهة السُّفْلَىٰ مَع أنّ الجُرم يَتحرَك بِكَامله، لأنّ هَذِه الجِهة يُمكن رُؤيَتها مِن ٱلأَرْض، وَلَو بوَاسطة المَرَاصد، والْمُرَاد بِالمكفُوف الجمُود وَعَدم السِّيلاَن. (وَ عُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً) مِن الخَلل، وَنحوه، وَيُطلق السَّقف عَلَىٰ جِهة العُلو مِن كلّ شَيء. وَتجدر الإِشَارَة إلَىٰ أنّ التّعبِير بأعلَىٰ، وَأسفَل، وَفَوق، وَتَحت ـ إنّما يَصح بِالنِّسبة إلَىٰ ما يراه أَهْل ٱلأَرْض بِأعينهم، أَمَّا الأَجْرَام السّماوِية السّابِحَة فِي الْفَضَاء فَلا أَرْض عِندها كِي تُوصف بِهَذه الْكَلِمَات الإضَافِية، بَل كلّ شَيء

(١) فُصِّلَتْ: ١١.

(٢) أُنظر، بحَار الأَنْوار: ٥٥/٨٨، عيون أخبار الرّضا: ١/٢٤١، علل الشّرائع: ٢/٢٨٠.

بِالنِّسبة إِلَيْهَا فَضَاء، وعَلَيْهِ يَكُون وَصف ٱلْسَّماوَات بِالأعلَىٰ، والأسْفَل تَجوزاً، لاَ حَقِيقَة.

(وَ سَمْكاً مَرْفُوعاً). قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾[1] أَي رَفع أجـرَام الكَوَاكِب فَوق رُؤُوسنا فَعدّها بـوَضع كـلّ جُـرم فِي مَـوْضِعِهِ الَّـذي بِـهِ يَـتماسك وَيَتجَاذب مَع غَيْره مِن الأَجْرَام (بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا، وَ لاَ دِسَارٍ يَنْظِمُهَا). الأَجْرَام السّماوِية قَائِمَة فِي ٱلْهَوَاء، لاَ تَرتَكز عَلَىٰ شَيء، وَلاَ يَشد بَعْضهَا بِـبَعْض مِـسمار، أَو غَيْره سِوىٰ ما أَودع الله فِيْهَا مِن الجَاذبِية الَّتي تَحكم جَمِيع الكَوَاكِب.

(ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ). قيل: أنّ الهَاء فِي زَيَّنَها تَعُود إِلَىٰ السَّماء الدُّنْيا، لأَنّ الله قَالَ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[2]. والظَّاهِر أَنّ الهَـاء فِي زَيَّـنها وَيَدعمها، وَيُنظمها تَعود إِلَىٰ شَيء وَاحد، وَهِي (سَبْعَ سَمَـوَاتٍ) لِأَنَّهَـا فِي سِـيَاق وَاحد، والعَطف بالوَاو يَقْتَضي المُشَاركة. والمَـعْنَىٰ أَنّ الله سُبْحَانَهُ جَعل ٱلـسَّماوَات زِينَةً، وَجَمالاً بِمَا فِيْهَا مِن الكَوَاكِب، ثُمَّ بيّن السَّبب المُوجب لِهَذه الزِّينَة بِـقَوْله: (وَ ضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ، وَ أَجْرَىٰ فِيْهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً، وَ قَمَراً مُنِيراً. فِي فَلَكٍ دَائِرٍ، وَ سَقْفٍ سَائِرٍ، وَ رَقِيم مَائِرٍ). المُرَاد مِن الثَّوَاقِب هُنا النّجُوم، والكَوَاكِب مَا عَدا ٱلشَّمس، وٱلْقَمَر حَيْث أفردَهُما الإِمَام ﷺ بِالذّكر. والسِّراج المُسْـتَطِير ٱلشَّـمْس، وَفَـلك الشّيء مدَاره، والْمَعْنَىٰ أنّ النّجُوم، وٱلشَّـمْس، وٱلْـقَمَر كـلّها تَسـبح فِي الْـفَضَاء الرَّحب، وأنّ ما يرَاه ٱلإِنْسَان فَوقه فِي السَّماء كَان تَحته قَبل سَاعَات، ومَا يـرَاه فِي المَسَاء عَلَىٰ يَمِينه كَان عَلَىٰ يَسَاره فِي الصَّـباح، وهَـذِه الأَجْـرَام الفَـلكِية المُـضِيئة

(١) ٱلنَّازِعَات: ٢٧.
(٢) ٱلصَّافَّات: ٦.

المُتحركة هِي زِينَة للنَّاظِرين .. بِالإضَافة إِلَىٰ سَائِر الْمَنَافِع الَّتي لاَ يَبلغها الإِحْصَاء.

وَتجدر الإِشَارَة إِلَىٰ أنّ ٱلأَرْض تدور حَوْلَ ٱلشَّمْس، وٱلْقمَر حَـوْلَ ٱلأَرْض، فَهُوَ تَابع فِي دورَانه لتَابع، ومَا كَان كَذَٰلِكَ يُسمُونه قمَراً لاَكُوكَباً[1].

ٱلْمَلاَئِكَة فِقْرَة ١٤ ـ ١٦:

(ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ ٱلسَّمَاوَاتِ الْعُلاٰ، فَمَلأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلاَئِكَتِهِ، مِنْهُمْ سُـجُودٌ لاٰ يَرْكَعُونَ، وَ رُكُوعٌ لاٰ يَنْتَصِبُونَ، وَ صَافُّونَ لاٰ يَتَزَايَلُونَ، وَ مُسَبِّحُونَ لاٰ يَسْأَمُونَ، لاٰ يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ، وَ لاٰ سَهْوُ ٱلْعُقُولِ، وَ لاٰ فَتْرَةُ الْأَبْدَانِ، وَ لاٰ غَفْلَةُ النِّسْيَانِ[14]. وَ مِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَىٰ وَحْيِهِ، وَ أَلْسِنَةٌ إِلَىٰ رُسُلِهِ، وَ مُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَ أَمْـرِهِ، وَ مِـنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ، وَ السَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جِنَانِهِ[15]. وَ مِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرَضِينَ السُّـفْلَىٰ أَقْدَامُهُمْ، وَ الْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ، وَ الْخَارِجَةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، وَ الْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ. نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ، وَ أَسْتَارُ الْقُدْرَةِ. لاٰ يَتَوَهَّمُونَ رَبَّـهُمْ بِالتَّصْوِيرِ، وَ لاٰ يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ الْمَصْنُوعِينَ، وَ لاٰ يَحُدُّونَهُ بِـالْأَمَاكِـنِ، وَ لاٰ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ[16]).

مُشْكِل وَشَائِك:

نَحنُ نَجهَل تَمَام ٱلْجَهْل حَقِيقَة ٱلْمَلاَئِكَة، وَصورَهم، وَحَـياتهم، وَأَحَـاسِيسهم،

(١) أنظر. مَع الله فِي السَّماَء. لأَحْمَد زَكي. (مِنْهُ ﷺ).

وَحوَاسهم: أَهُم أَجْسَام، وَأرْوَاح، أو أَرْوَاح مُجرَدة عَن الأَجْسَامِ؟. وَهَل يَفرحُون وَيَحزنُون؟ الله أَعْلم.

وَلَو قُدر لِي أنْ أكُون مَلكاً، أو أي مَخلوق آخر لآثرت أنْ تكُون لِي غرَائِز الأَطْفَال وَكَفىٰ.. وكلّ مَا يَتصوره الإِنْسَان عَن الْجِنِّ، والْمَلاَئِكَة فَهُوَ حَدس، وَتَخمِين لأنّه غَيب، حَيْث لاَ مكَان لهَذا المَوْضُوع الشّائِك فِي الْعَقْل، ولاَ فِي الْحِسّ.. أَجْل، نَحْنُ كَمُؤمنِين بالله، وكتَابه، وبالنَّبِيّ، وَسُنّنه يَجب عَلينا أنْ نَعْتَقد بوجُود الْجِنِّ، والْمَلاَئِكَة، أَمَّا أين مكَانهم؟ ومَا هِي حَقِيقَتهم، وَهِيئَتهُم، وَمِهنتهُم؟ فلاَ يَجب عَلَىٰ الْمُسْلِم أنْ يَعْرِف، أو يَسأل عَن شَيء مِن ذَلِكَ، لأنّه لا يَمُت إِلَىٰ الْحَيَاة، وأُصُول العقَائِد بِسَبب.

وتَكَلَّم رِجَال مِن الشِّيعة، والسُّنَّة عَن عِصمَة الْمَلاَئِكَة بوَجه العمُوم، وَسَردُوا فِي ذَلِكَ العَدِيد مِن الصَّفحَات، بَل تَكَلَّم بَعْضهم عَن حَقِيقَة الْمَلاَئِكَة، وشُؤُونهم وأَطوَارهم، وَمَضوا فِيهِ مَع الخَيال، ومَا بَينُوا المَقصُود مِن بَحثِهم، وَتَحقِيقَاتهم.. وَإِذَا تَكَلَّم الْمَعْصُوم عَن الْمَلاَئِكَة فإنَّما يتَكلَّم بِقَصد التّقدِيس، والتّعظِيم لقُدرة الله تَعَالَىٰ عَن عِلم، وَيَقِين بِالوَاقع، أَمَّا نَحْنُ فَكما أَشرت ـ لاَ نَعلم مِن أمرهم شَيْئاً، ولاَ نَعرف أحداً تَخَصص بِهذا المَوْضُوع لِطلاّبها.. وإذَنْ كَيْفَ نَخوض فِيهِ؟. والْعَاقِل يَدع ما لا يَسْتَطِيع إِلَىٰ ما يَسْتَطِيع، وَقَد توَاتر عَن الرّسُول وآله ﷺ: «أنَّ حقّ الله عَلَىٰ الْعِبَاد أنْ يَقُولوا مَا يَعْلمُون، وَيَقفُوا عِندما لاَ يَعْلمُون»[1].. «وأنّ الأُمُور ثَلاَثة: أَمرٌ بَيْنَ رُشده فَيُتبع، وَأمرٌ بَيْنَ غَيُّه فَيُجتَنب، وَأمرٌ مُشكِل فَيرُد إِلَىٰ الله

(١) أنظر، الكَافِي: ٣/٤٢ ح ٧ و ١٢، أمالي الصّدوق: ٥٠٦، توحيد الصّدوق: ٤٥٩ ح ٢٧، وَسَائِل الشِّيعة: ١٨/١٢ ح ١٠، شَرح أُصول الكَافِي: ٢/٢٠٣ ح ١٢.

وَرَسُوله»(١).

خَلق آدمَ فِقْرَة ١٧ ـ ١٩:

(ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الْأَرْضِ، وَ سَهْلِهَا، وَ عَذْبِهَا، وَ سَبَخِهَا، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّىٰ خَلَصَتْ، وَ لاَطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّىٰ لَزَبَتْ[١٧]، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ، وَ وُصُولٍ، وَ أَعْضَاءٍ، وَ فُصُولٍ. أَجْمَدَهَا حَتَّىٰ ٱسْتَمْسَكَتْ، وَ أَصْلَدَهَا حَتَّىٰ صَلْصَلَتْ، لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَ أَمَدٍ مَعْلُومٍ[١٨]، ثُمَّ نَفَخَ فِيْهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَ فِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَ جَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَ أَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا، وَ مَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ، وَ الْبَاطِلِ، وَ الْأَذْوَاقِ، وَ الْمَشَامِّ، وَ الْأَلْوَانِ، وَ الْأَجْنَاسِ، مَعْجُوناً بِطِينَةِ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَ الْأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ، وَ الْأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَ الْأَخْلاَطِ الْمُتَبَايِنَةِ مِنَ الْحَرِّ، وَ الْبَرْدِ، وَ الْبَلَّةِ، وَ الْجُمُودِ[١٩]).

اللُّغَة:

الحَزْن ـ بِفَتح الحَاء ـ مَا صَعب مِن الْأَرْضِ: ضِدّ السَّهل. وَالسَّبَخ: مَا مَلح ضِدّ العَذْب. وسَنَّ الْمَاء: صَبَّه. وحَتَّىٰ خَلَصَتْ: صَارت طِينَة خَالِصة، وَلاَطَهَا: عَجَنها. والبَلَّة: مِن البَلل، ولَزَبَ الطّين: لزَق وصَلب. والْمُرَاد بالأحْنَاء الأَضْلاَع، وَنحوها. وَبالوُصُول العَصب، والعُروق الّتي تَشد الأَعْضَاء بَعْضهَا إِلَىٰ بَعْض. وبالْفُصُول المَفَاصل. والصّلْدَ: الصّلْب الأمْلَس. والصَلْصَال: الطّين اليَابس غَيْر المَطبُوخ.

(١) أنظر، المُهذب البَارع: ٨/٢، الكَافي: ٦٨/١ ح ١٠، الْفَقِيه: ١٠/٣، فيض القَدِير شَرْح الجَامِع الْصَّغِير: ٣/ ١٣٣ ح ٢٨٥٩، تَهْذِيب الأَحْكَام: ٣٠٢/٦.

وأَذْهَان: جَمع ذِهن أي الفَهم. وَفِكَر ـ بِكَسر الفَاء، وَفَتح الكَاف ـ جَمع فِكْر ـ بِسكُون الكَاف ـ وهُو النّظر فِي الشّيء. وَجَوَارِح: جَمع جَارِحة، وهُو العُضْو الَّذي يَشتَعمله ٱلإِنْسَان فِي شُؤُونه. والأذْوَاق: جَمـع ذَوق، ويَكُون باللِّسَانِ، والفَـرج، وَيُطلق أيضاً عَلَىٰ الطَّبع. والمُرَاد بالأَلْوَانِ الأُولَىٰ الأَعْرَاض كَالسَّواد، وَالصّفَار، وَبالثَّانِيَة الأَحْوَال كالحَرِّ، وَ البَرْدِ، والمَسَاءة، والمَسَرَّة. وَ الأَخْلاط: الأصنَاف المُختَلِطة.

الإعْرَاب:

تُرْبَةً مَفْعُول جَمع. وذَات صُفَة لصُورة. وَقَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه تَبعاً لِابْـن أَبي ٱلحَدِيد[1]: أنّ «الوَقْت» مُتَعَلِّق بِمَحْذُوف حَالاً مِن ضَمِير التُّرْبَة، والتَّقدِير: مَـعِدَة لوَقت مَعْدُود! وَالصّحِيح أنّ المَجرُور مُتَعَلِّق بصَلْصَلَتْ، والمَعْنَىٰ أنّ طِينَة آدمَ بَقِيت جَامِدَة لا حرَاك فِيْهَا إلَىٰ أمد مَعلُوم، وهُو أَمَد النّفخ. وذَا صِفة «إِنْسَاناً». وَفِكَـر عَطف عَلَىٰ الأَذْهَان، وَمِثلها جَوَارح، وهِي مَمنُوعة مِن الصّرف عَلَىٰ وَزن مفَاعِل. وَمَعْجُوناً صِفَة «إِنْسَاناً».

حَوْلَ آدَمَ:

ٱفْتَتح الإمَامُ عليه السلام خُطْبَته هَذِه بِحَمد الله، وَتَمجيده، وَنَفي صِفَات المَصنُوعِين عَنْه، ثُمَّ أَشَار إلَىٰ مَبدأ الخَلق، وَأصل الكَوْن المَسبُوق بِالعَدم، ثُمَّ إلَىٰ خَلق ٱلْمَـلاَئِكَة..

(١) أنظر، شَرْح نَهج ٱلبَلاَغَة للأستاذ مُحَمَّد عَبْدَه: ١/ ٢٠، خطب الإمَام عليّ، وشَرْح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْن أَبي ٱلحَدِيد المُعْتَزلي: ١/ ٩٨.

وَهُو يُشِير الآنْ إِلَىٰ أَصل ٱلإِنْسَان الْأَوَّل، وَمِن أي شَيء خُلق؟ وكَيْفَ تَمَّ خَلقه؟ وكما تَكَلَّم النَّاس عَن الكَوْن، وحَقِيقَته، وأَصله، وَعُمره، وأطوَاره فَقد تَكَلَّموا أيضاً عَن أَصل ٱلإِنْسَان وَكُنهه، وَتطوره، وكَم مَضىٰ عَلَيْهِ مِن السِّنِين فِي هَذِه ٱلأَرْض؟. ووَضَعوا فِي ذَلِكَ الكُتب، والأَسفَار، ومَع هَذَا لَم يَعرفُوا عَنْه إلّا القَلِيل.. وَصَدق مَن قَالَ: «إِنَّ عِلم ٱلإِنْسَان بِنَفْسِهِ مَا يزَال مَحْدُوداً، ورُبَّمَا ٱستطَاع أنْ يَعْرِف عَن غَيْره مِن ٱلْكَائِنَات أَكْثَر مِمَّا يَعْرِفه عَن أسرَار نَفْسِه»[1].

وَلنَفتَرض ـ وأنْ بعُد الفَرض ـ أنّ ٱلإِنْسَان يَسْتَطِيع أنْ يَعْرِف حَقِيقَته عَلَىٰ أَتَمها جِسماً، ورُوحاً فإِنَّه لا يَسْتَطِيع، ولَن يَسْتَطِيع أنْ يَعْرِف كَيْفَ تَمَّ خَلق أَبِيه الْأَوَّل.. وإنْ ٱدْعىٰ ذَلِكَ مُدعي طَالبنَاه بالدَّلِيل، وَسَأَلناه: هَل دَلِيله التَّجرِبَة؟ وَبالبدَاهة أنّ التَّجْرِبَة تَعْتَمد، وتَقُوم عَلَىٰ المِجْهَر، والتّحلِيل الكِيماوي، وأَين هُو ٱلإِنْسَان الْأَوَّل حَتَّىٰ يرَاه البَاحثُون عَلَىٰ شَرِيحَة المِجْهَر، أو يُحللوا فِي مُختبرَاتهم أَعْضَاءه، والعنَاصر الَّتِي تَأَلَّفت مِنْهَا هَذِه الأَعْضَاء. أو أنّ المُدعي يَستدل بِٱلْعَقْل... ولَيْسَ مِن شَكٍّ أنّ مَعْرِفة ٱلْعَقْل بِأَصل ٱلإِنْسَان، وكَيْفَ تَمَّ خَلقه تَمَاماً كمَعْرِفَته بِٱسم وَالِدي، وَحَسبه، وَنَسبه، وَبِقَامته طُولاً، وَعَرضاً.

أو يَستند المُدعي إِلَىٰ الحفريات... وَقَد أَعلَن أَهْل الْإِخْتِصَاص أنّ أَحدَث الحفريات تَقول: ٱلإِنْسَان كَان موجُوداً عَلَىٰ وَجه هَذِه ٱلأَرْض مُنذ مليُون سَنَة عَلَىٰ التّقرِيب... وَبالبَدَاهة أنّ هَذَا شَيء آخر... وحَتَّىٰ الآنْ مَا تَجَرأ أَحد عَلَىٰ الزَّعم بِأنّه عَثر عَلَىٰ رُفَات آدَمَ أَبِي البَشر، وَحُطَامه... أو أنّ المُدعي يَعتَمد النَّقل

(١) أنظر، تَفْسِير المِيزَان للسَّيد الطّبَاطَبَائي: ٣١٢/١٢، قَرِيب مِن هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ.

وَالرّوايةِ... وَالشّرط الأَوَّل فِي النّقل أنْ يَروي مَا رَأت الْعَيْن، وَشَاهدت، وأيّة عَين رَأت خَلق جَدّها، وَأَبِيها، بَل أيّة عَين رَأت خَلق نَفْسها بالذّات؟: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ (١). ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ (٢).

وإذَنْ لاَ سَبِيل عَلَىٰ الْإِطلاَق إِلَىٰ العِلم بِأَصل ٱلإِنْسَان الأَوَّل، وكَيْفَ خُلق إلاّ الوَحي مِن خَالق ٱلإِنْسَان، وَعَلَىٰ هَذَا الوَحي وَحدَه ٱعْتَمد الْإِمَامﷺ عَن خَلق ٱلإِنْسَان، وأَصله.

وٱلإِنْسَان سِلسِلة مُتصِلة الحلقَات، تَبتدىء بآدَمَ أَبِي البَشر، ولاَ نَدري بِأي مَوْلُود تَنْتَهِي... ولاَ يَختَلف مُؤْمِن، وجَاحِد عَلَىٰ أنّ ٱلإِنْسَان بِجَميع أفرَاده، مَن كَان مِنْهُ وَمَن يَكُون، هُو مِن تُربة هَذِه ٱلأَرْض، وَمَائها، وهوَائها، وأنّه يَعِيش عَلَيْهَا كَضِيف مُؤقت، ثُمَّ يَعود إِلَيْهَا لا مَحَالَةَ... أَبداً لاَ خِلاف فِي شَيء مِن ذَلِكَ، وإِنّمَا الخِلاَف: هَل كَان لِلْإِنْسَان وجُود سَابق فِي عَالَم آخر غَير هَذِه ٱلأَرْض؟ وكَيْفَ وجد عَلَيْهَا؟. هَل وِجد عَلَىٰ صورَته الحَالِية، أو عَلَىٰ غَيْرها؟ وَمَتىٰ بَدأ ظهُوره عَلَىٰ ٱلأَرْض؟. ومَا هِي العنَاصر الّتي تَألّف مِنْهَا؟. ومَن الّذي أوجَده؟. ومَا هُو الهَدَف مِن وُجُودِه؟. وَهل لهُ رِسَالَة خَاصّة فِي هَذِه الدُّنْيَا، أو أنّه لاَ رِسَالَة لهُ إلاّ أنْ يَصنع نَفْسه عَلَىٰ إرَادته، وَحُرّيته وهوَاه كَمَا يَقول الوجُوديُون... وأيضاً هَل يَخرج مِن ٱلأَرْض بَعد مَوته، ويعُود ثَانِيَة إِلَىٰ غَير ذَلِكَ مِن المَوْضُوعَات، وَالخِلاَفَات.

---

(١) ٱلزُّخْرُف: ١٩.

(٢) ٱلطُّور: ٣٥.

مَا أَعْجَب ٱلاِنْسَان !... أنّه يَبحث عَن نَفْسِه ، ورُبَّمَا هُو الكَائِن الوحِيد الَّـذي ٱمتاز بِهـَذا الْوَصْف .... وَمَع ذَلِكَ قَالَ بَعْض أفرَاد ٱلإِنْسَان : أَبُوه قِـرداً فَـتَطَور ، وَتَرقى. وَقَالَ آخر : كلاَّ ، أنّ أبَـاه تَـولد مِـن عـفُونة القَـذارَات تَمَـامَاً كَـمَا تَـتولد ٱلحَشَرَات !... ولاَ أدري هَل يَدلنا هَذَا القَوْل ، وذَاكَ عَـلَىٰ أنّ ٱلاِنْسَـان أنـوَاع ، وأَقْسَام : مِنْهَا قرُود ، ومِنْهَا حشرَات فِي صورَة ٱلإِنْسَان ... وأنّه يَبتعد عَن كمَال الله كلّ البُعد كمَا تَبتَعد النَّملَة عَن حَقِيقَة ٱلإِنْسَان ، وكمَاله ؟.

وَمَهمَا يَكُنْ فإنّ مَا قَاله الإمَام عليه السلام هُنا عَن أَصل ٱلاِنْسَان هُو شَرح ، وتَفْسِير لِمَا جَاء فِي ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم .

الْمَعْنَىٰ:

خَلق الله سُبْحَانَهُ آدَمَ مِن جِسمٍ ، وَرُوح ، وَلكن بِالتّدرِيج لا دُفعَة وَاحِدَة ، كَمَثل البَاني يَبني حَجراً عَلَىٰ حَجر ـ المِثال لِلتَّقرِيب ـ فَخَلق أوَّلاً جِسماً بِلا رُوح ، وأيضاً خَلق هَذَا الجِسم عَلَىٰ أطوَار كمَا يَظهر مِن قَول الإِمَام عليه السلام . وهَذِه الأطوَار أَرْبَـعَة ، وَهِي :

١ـ(ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الْأَرْضِ ، وَ سَهْلِهَا ، وَ عَذْبِهَا ، وَ سَبَخِهَا ، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّىٰ خَلَصَتْ) .

حَاكت مُخَيلة ٱلاِنْسَان عَن خَلقه ، ووُجُودِه أسَاطِير ، وخُرَافات تَمَامَاً كمَا حَاكتها حَوْلَ خَلق الكَوْن وَمَا فِيه ، ورُبَّمَا أَكْثَر !... مِن ذَلِكَ أنّ ٱلاِنْسَان كَان موجُوداً فِي عَالم غَيْر مَحسُوس قَبل وُجُودِه عَلَىٰ هَذِه ٱلأَرْض !... ولكنْ نصُوص ٱلْقُرْآن تَأبَىٰ ذَلِكَ ، وَتَقول : خَلق آدَمَ مِن تُربة أرْضنا هَذِه ، وأنّه تَعَالَىٰ نَفَخ فِيه مِن رُوحه بَعد أنْ

خَلق جِسْمه، وَسوَّاه. سُئل الإمَام الصَّادق عَن قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (١) فَقَال: «هِي رُوح الله مَخلُوقة خَلقها الله فِي آدَمَ، وعِيسَىٰ» (٢).

وَقَول الإمَام: «جَمَعَ سُبْحَانَهُ تُرْبَة» صَرِيح فِي أنّ آدَمَ لَم يَكُنْ لهُ عَين، ولاَ أثَر قَبل هَذِه ٱلأَرْض، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (٣) أي لَم يَكُنْ فِي هَذِه ٱلأَرْض فكَان... فأبُونا آدَمَ مِن تُرَاب، ونَحْنُ أيضاً فِي لَحمنَا، وَدَمنا مِن تُرَاب، لأنّ مَا تَأكله مِن اللّحُوم، والحبُوب، وَالفوَاكه، والخُضار، والنَّبات، كلّ ذَلِكَ كَان فِي الأصل مَاءً، وتُرَاباً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٤).

أمَّا قَوْله ﷺ: (مِنْ حَزْنِ الْأَرْضِ، وَ سَهْلِهَا، وَ عَذْبِهَا، وَ سَبَخِهَا)، فهُو إشَارة إلَىٰ أنّ ٱلإنْسَان كأُمّه ٱلأَرْض يَجمع فِي ٱستعدَاده، وغَرائِزه بَيْنَ المُتنَاقضَات، وَالمُفَارقات كَٱلطَّيِّب، والخَبِيث، والأَسود، والأَبيض، قَالَ الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ: «خَلق الله آدَمَ مِن قَبضَة قَبضها مِن جَمِيع ٱلأَرْض، فَجَاء بَنُو آدَمَ عَلَىٰ مِثل ٱلأَرْض مِنْهُمْ الأَسوَد، والأَبيض، والأَحْمَر، ومَا بَيْنَ ذَلِكَ» (٥).

---

(١) ٱلنِّسَاء: ١٧١.

(٢) أنظر، أُصول الكَافِي (مِنْهُ ﷺ): ١٣٣/١ ح ٢، شَرْح أُصول الكَافي: ١١٩/٤، الإحْتِجَاج للطبرسي: ٥٦/٢، بِحَار الأَنْوَار: ١٢/٤ ح ٤.

(٣) آلِ عِمْرَانَ: ٥٩.

(٤) غَافِر: ٦٧.

(٥) أُنظر، صَحِيح آبن حِبّان: ٢٩/١٤ ح ٦١٦٠، مُسْنَد الرّوياني: ٣٥٦/١ ح ٥٤٧، موارد الظَمآن:

٢ ـ (وسَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّىٰ خَلَصَتْ . وَ لاطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّىٰ لَزَبَتْ) . يُشِير بِهَذا إِلَىٰ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[1] . وقَوْله تَعَالَىٰ : ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾[2] . ولاَ نُطِيل فِي شَرح الأَلْفَاظ ، وَقَد ذَكرنا مدَالِيلها فِي فِقْرَة اللُّغَة ، وَالأجدَر أنْ نُمعن النّظر فِي مَدىً آخر ، وَنُشِير إِلَيْهِ بالأُسلُوب التّالي :

وَتسْأَل : لِمَاذا لَم يَخلق الله آدمَ بكَلِمَة «كُنْ» ؟ . ومَا هِي ٱلْحِكْمَة لِخَلقه مِن تُرَاب ؟ أَلَيس الله عَلَىٰ كُلّ شَيء بِقَدِير ؟ .

الجَوَاب:

قَالَ البَعض : أرَاد سُبْحَانَهُ أنْ يعلّم النَّاس الرَّوِيَة ، والأَنَاة ، وَعَدَم الإِستعجَال فِي أُمورهم .. أَمَّا نَحْنُ فَنظَن أنّه تَعَالَىٰ أَرَاد أنْ يعلّم النَّاس أنّهم فِي الخَلق سوَاء ، لاَ فَضل لأَبيَض عَلَىٰ أَسْوَد ، كَمَا قَالَ الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ : «كُلّكم مِن آدَمَ ، وآدَمَ مِن تُرَاب »[3] .. وأنْ يَعْتَبِرُوا بِقُدرة الله الّتي خَلَقت مِن المَادَّة الصَّمَّاء إِنْسَاناً عَاقلاً يَفْعَل الأَعَاجِيب ، وَيُومىء إِلَىٰ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[4] . وأيضَاً أنْ يَستدل ٱلإِنْسَان

⇐ ٥٠٩/١ ح ٢٠٨٣ ، سُنن التِّرمِذي: ٢٠٤/٥ ح ٢٩٥٥ ، سُنن أبي داود: ٢٢٢/٤ ح ٤٦٩٣ ، مُسْنَد أحمد: ٤٠٠/٤ ، تَهْذِيب الكَمَال: ٦٠٣/٢٣ .

(١) سُورَةُ صٓ: ٧١.

(٢) ٱلصَّافَّاتِ: ١١.

(٣) أُنظر، سُنن البَيْهَقِيّ: ١١٨/٩ ، سُبل الهُدَىٰ والرّشاد: ٢٤٢/٥ ، شَرْح نَهْج ٱلبَلاَغَة لِإبن أبي ٱلحَدِيد: ٢٨١/١٧ ، بِحَار الأَنْوَار: ٣٥/٣١ .

(٤) ٱلْكَهْفِ: ٣٧.

عَلَىٰ النّشأة الثَّانِيَة بالأُولَىٰ كَمَا تُشِير الآيَة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِى رَيۡبٍ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[1]. وَقَالَ الإِمَامُ عليه السلام: «عَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ وَهُوَ يَرَىٰ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ»[2].

وَعَلَىٰ أيَّة حَال فإنّ ٱلأَرْض هِي البِيئة الطَّبِيعية لِـلإِنْسَان، وَمَصْدَر حَيَاته، وَحضَارته، وفِيْهَا يَتْعَرف عَلَىٰ خَالقه وَيَعْبدَه، ومِنْهَا يَثب إِلَىٰ السَّمَاء، والكَوَاكِب، وإِلَيْهَا يَعُود، ولاَ غنىً لهُ عَنْهَا بِحَال حدُوثاً، وَبَقاءً، وَهِي فِي غِنىً عَنْه فِي كُلّ الأَحْوَال.

٣ ـ (فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ، وَوُصُولٍ، وَأَعْضَاءٍ، وَفُصُولٍ). ضَمِير مِنْهَا يَعُود إِلَىٰ التُّربة، والمُرَاد بِالصُّورة صُورة آدَمَ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾[3]. وفِي جِسمِ ٱلإِنسَانَ أجزَاء كَالرَّأس، وَاليَدِين، وَالصّدر، وَالرِّجلِين وإِلَيْهَا أَوْمَأَ بكَلِمَة أَعْضَاء، وفِيهِ أضلاَع، وإِلَيْهَا أَشَار بالأحنَاء، وفِيهِ مفَاصل، وَهِي مُلتقىٰ الْعِظَام، وَلولاَها لعَجز ٱلإِنسَان عَن الحَرَكة، وَقَد عَبّر الإِمَام عَنْهَا بِالْفُصُول، وفِيهِ عَصَب يَشد الأَعْضَاء بَعْضهَا إِلَىٰ بَعْض، وَهِي المَقْصُود مِن كَلِمَة وُصُول مِن الوُصُول.

(١) ٱلحَجّ: ٥.
(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١٢٦). ونَهج البَلاَغَة لمُحَمّد عَبْدَه: ٤/ ٣٠. ٱلحِكْمَة (١٢٦)، شَرْح النَّهج لاِبْن مِيثَم البحراني: ٣٠٩/٥، عيون الحكم والمواعظ: ٣٣٠، شَرْح نَهج ٱلبَلاَغَة لاِبْن أَبي ٱلحَدِيد المُعْتَزِلي: ٣١٥/١٨.
(٣) غَافِر: ٦٤.

٤ ـ (أَجْمَدَهَا حَتَّىٰ اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّىٰ صَلْصَلَتْ. لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَمَدٍ مَعْلُومٍ). بَعد أنْ صَار الْمَاء، والتُّرَاب طِيناً جَمُد، وَتَمَاسكت أجزَاؤه، وأَصْبَحَ جِسماً وَاحداً، يَابساً، وَمَتِيناً، إِذَا هبّت عَلَيْهِ الرِّيح سُمع لهُ صَلصَلة، وأُسند جمُود الطِّين وَصَلصَلته إِلَىٰ الله، لأنّه هُو الَّذي خَلق التُّرَاب، والْمَاء، وَمَزجهُما حَتَّىٰ صَارا طِيناً.

وَبِهذه الأطوَار الْأَرْبَعَة تَمَّ الجِسم، وكَمُل، ومَع هَذَا أبقَاه سُبْحَانَهُ بِلا رُوح إِلَىٰ أَمدٍ مُعين، لأنّ حِكْمَته تَعَالَىٰ قَضت أنْ يَكُون لِكلّ أَجْل كتَاب.

الرُّوح:

(ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ). ٱخْتَلفوا فِي مَعْنَىٰ الرُّوح مِن حَيْث هِي، وَبصَرف النّظر عَن الَّتي نَفْخهَا سُبْحَانَهُ فِي آدَمَ، أو مَرْيَمَ، فَمِنْهُمْ من قَالَ: أنّ الله سُبْحَانَهُ حَجَب عِلمها مِن الْعِبَاد، فَلا يَنْبَغِي الْحَدِيث عَنْهَا بحَال لقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[1] ب، وَقَالَ آخر: هِي عَلَىٰ هَيئَة ٱلإِنْسَان، لهَا رَأس، وَيَدان، وَبَطن، وَرِجلان، ولَكِنَّهُ لَيست إِنْسَاناً!. وَقالَ ثَالث: هِي نُور لَطِيف، وهوَاء خَفِيف. ونُقل عَن فَلاَسفة اليُونان يُفرقُون بَيْنَ ٱلْعَقْل والرُّوح، والنَّفس، فَٱلْعَقْل أرْفَع، وأشرَف مِن الرُّوح، وَهِي أشرَف مِن النَّفس.

وَلِلرُّوح فِي لُغة ٱلْقُرْآن معَانٍ، مِنْهَا الرَّحْمَة: ﴿وَلَاتَايْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَايَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[2]. ومِنْهَا جِبْرِيلَ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ

(١) ٱلإِسْرَاء: ٨٥.

(٢) يُوسُفَ: ٨٧.

ٱلْأَمِينُ﴾[١] . ومِنْهَا ٱلْقُرْآن : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢] . والقَاسم المُشتَرك لِمَعنىٰ الرُّوح هُو كلّ مَا يَحيا بِهِ الشّيء مَادِياً ، وَمعنُوِياً .

أَمَّا المُرَاد بِالرُّوح الَّتي نَفَخها سُبْحَانَهُ فِي آدمَ فَهِيَ ٱلْحَيَاة ... حَتَّىٰ وَلو كَان لِلرُّوح أَلف مَعْنَىٰ وَمَعْنَىٰ ، ولأنّ الْحَدِيث فِي كَلاَم الْإِمَام عليه السلام وفِي قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[٣] مُسَاق عَن جَسد آدَمَ الَّذي بَقي جَمَاداً بِلا رُوح لوَقت مَعْدُود ، وأَمَد مَعْلُوم ... وَمِثلها تَمَاماً الرُّوح الَّتي نَفَخها سُبْحَانَهُ فِي مَرْيَمَ : ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٤] أي أنّه تَعَالَىٰ خَلق جَنِيناً فِي رَحم مَرْيَمَ بِلا تَلقِيح .

حَوْلَ ٱلإِنْسَان:

(فَمَثُلَتْ إِنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا ، وَ فِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا ، وَ جَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا ، وَ أَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا ، وَ مَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ ، وَ الْبَاطِلِ ، وَ الْأَذْوَاقِ ، وَ الْمَشَامِّ ، وَ الْأَلْوَانِ ، وَ الْأَجْنَاسِ) . قِيل : أنّ الله سُبْحَانَهُ خَلق ٱلإِنْسَان كِي تَتَجلىٰ فِيهِ قُدرته وعَظَمَته . ومَعْنَىٰ هَذَا أَنّه تَعَالَىٰ أَنْشَأ ٱلإِنْسَان عَلَىٰ أَكمَل وَجه جِسماً ، وَرُوحاً

(١) ٱلشُّعَرَاء : ١٩٣ .
(٢) ٱلشُّورَىٰ : ٥٢ .
(٣) ٱلْحِجْر : ٢٩ .
(٤) ٱلأَنْبِيَاء : ٩١ .

بِحَيث لاَ شَيء فَوق كَمَال ٱلإِنْسَان مِن هَذِه الجِهة إلاّ خَالق ٱلإِنْسَان، وَكَفَىٰ شَاهِداً عَلَىٰ هَذِه الحَقِيقَة عَظمَة مُحَمَّدﷺ سَيِّد الكَوْنين الَّذي قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾(١).

إنَّ ٱلإِنْسَان تَمَاماً كالكَوْن فِي عَظَمَته، وأسرَاره، كلّما ٱكتُشف مِنْهُ سرّ خَفِيت مِنْهُ أسرَار.. ومِن أَجل هَذَا أَطلَق بَعْضهم عَلَىٰ الكَوْن ٱسم ٱلإِنْسَان الْكَبِير، وَعَلَىٰ ٱبن آدَمَ ٱسم ٱلإِنْسَان الْصَّغِير، أَو الكَوْن الْصَّغِير.. ولهَذه التَّسمِية وَجه وَجِيه، فَحَتَّىٰ الآنْ ـ وَعَلَىٰ الرّغم مِن تَقَدَّم العُلُوم الَّتي رَفعت ٱلإِنْسَان إِلَىٰ ٱلْقَمَر ـ لَم يَنجح الْعُلَماء فِي التّعرف عَلَىٰ حَقِيقَة ٱلإِنْسَان، وكلّ ما فِيهِ مِن طَاقات، وأسرَار.. وَإِذَا كَانَتْ حَقِيقَة كلّ شَيء هِي مَا يُحققه ذَلِكَ الشّيء فَقد حَقَّق ٱلإِنْسَان أَعْجَب مِن العَجب، ومَا سَوف يُحَقِّقه فِي المُستقبَل القَرِيب، أَو البَعِيد يَفوق التّصور، ويَسْتَحِيل التّنبؤ بهِ. وبِهَذا نَجد السّر لقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(٢)، وَتَدركُون أنّ لِهَذا ٱلإِنْسَان العَجِيب خَالقاً أكمَل، وأَعَظم؟.

قَالَ الفَيْلَسُوف الإِنْجِلِيزي «جُون لُوك»(٣): صَحِيح أنّ الله سُبْحَانَهُ لَم يَطبع حرُوفاً فِي عقُولنا نَقرأها عَن وُجُودِه، ولَكِنَّهُ أَوْدَع فِينا إحسَاساً، وإدرَاكاً لاَ نَحتَاج مَعه إِلَىٰ بُرهان أَوْضَح عَلَىٰ وُجُودِه مَا دُمنا نَحمل ذَاتنا مَعنا، وإِذَنْ نَحْنُ لاَ نَستَطِيع أَنْ نَشكو مِن جَهلنا بِذَلِكَ، وَبالتّالي فَلا نَحْتَاج لكِي نَعلم، ونُؤمن بِوجُود الله إِلَىٰ شيء أَبعَد مِن أَنفُسِنَا فَإِنَّهَا كَافِية، وَافِية للدلاَلَة عَلَىٰ وُجُودِه تَعَالَىٰ.

---

(١) ٱلْكَهْف: ١١٠.

(٢) الذّاريات: ٢١.

(٣) صاحب التّيار الفلسفي الحسي الّذي نشأ في الفَلْسَفَة الأُوربية، وتوفّي جون لوك (١٧٠٤م).

(مَعْجُوناً بِطِينَةِ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَ الْأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ، وَ الْأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَ الْأَخْلاَطِ الْمُتَبَايِنَةِ مِنَ الْحَرِّ، وَ الْبَرْدِ، وَ الْبَلَّةِ، وَ الْجُمُودِ). يُشِير الإِمَام عليه السلام بِهَذا إِلَىٰ أَنّ فِي طَبِيعَة ٱلإِنْسَان، ومزَاجه قِوىٰ عنَاصر، مِنْهَا مَا يَنسَجم بَعْضه مَع بَعْض كاَنسجَام العِلم مَع الحِلْم، والصِّدْق مَع الْوَفَاء، وكاَنسجَام الْجُبْن مَع البُخل، والْكَذِب مَع الرِّيَاء... ومِنْهَا مَا يَختَلف بَعْضهَا مَع الآخر، كَاإِخْتلاَف الرِّضىٰ والغَضَب، والضّحك والْبُكَاء، والحِفظ والنِّسيَان، وغَيْر ذَلِكَ.. وَكلّها لخَير ٱلإِنْسَان، وصَالحه، وبقَائه، وٱستمرَاره، وَلو نَقَصت مِنْهُ صِفَة وَاحِدَة لإِخْتَل توَازن ٱلإِنْسَان، وَلَم يَنْتَفع بِشيء... وَنَضرب لِذَلكَ مَثلاً وَاحداً:

لَوْلاَ النِّسيَان لترَاكمت الهمُوم عَلَىٰ ٱلإِنْسَان، وَلَم يَسْتَمتع بِشيء، ولاِنْتَهت حيَاته فِي أَمد قَصِير... ولَوْلاَ الحِفظ لاِنْسَد بَاب العِلم بشَتَّىٰ أَنوَاعه، بَل وَلَم يَهتَد ٱلإِنْسَان إِلَىٰ أُمّه، وأَبِيه، وصَاحِبته، وبَنِيه، وَإِذَا خَرج مِن بَيْتِه ٱستحَال أَنْ يَعود إِلَيْهِ.

وَهَكذا سَائِر الصِّفَات الْمُتبَاعِدَة مِنْهَا، والمُتقَارِبَة... وكلّها تَجرِي عَلَىٰ نظَام مُشتَرك، وَقَدر جَامع، وإِنْ دَل هَذَا عَلَىٰ شَيء فإِنّمَا يَدل عَلَىٰ وحدَة الخَالِق، والمُدبر الَّذي لاَ إِله إِلَّا هُو: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (١).

وَمِمَّا قَرَأت عَن ٱلإِنْسَان مَا جَاء فِي ٱلْكِتَاب «مصْبَاح الأُنْس» (٢):

إِنَّ فِي ٱلإِنْسَان خِاصِّيَة المَعَادن، وَهِي الكَوْن، وٱلْفَسَاد. وخِاصِّيَة النَّبَات، وَهِي

---

(١) ٱلطَّلَاق: ٣.

(٢) أُنظر، مصباح الأنس بَيْنَ المعقول والمشهود فِي شَرْح مِفْتَاح غيب الجمع والوُجُود، للمَوْلَىٰ شمس الدِّين مُحَمَّد بن حَمْزَة الفناري المتوفىٰ سَنَة (٨٣٤ هـ)، طبع سَنَة ١٣٢٣ هـ.

النّمو، والغذَاء. وخِاصِّيَة ٱلْحَيَوَان، وَهِي ٱلْحِسّ، وَالحرَكة. وخِاصِّيَة ٱلإِنْسَان، وَهِي الْفِكْر، والإدرَاك. وَخِاصِّيَة ٱلْمَلاَئِكَة، وَهِي الطَّاعَة، وٱلْحَيَاة.

فَالإِنْسَان يَتملق كَالكَلْب، وَالهِر، وَيحتَال كَالْعَنْكَبُوتِ، وَيَتسَلح كَالقُنْفُذ، وَيَهرب كَالطّير، وَيَتحَصن كَالحَشَرِت، وَيَعدُو كَالغزَال، وَيَطأ كَالدُّب، وَيَسْرق كَالفَأر، وَيَفْتَخر كَالطَّاووس، وَيَضُرّ كَالعَقرب، وهُو شُجاع كَالأَسَد، وَجَبان كَالأَرْنَب، وَأَنِيس كَالحَمَام، وَخَبِيث كَالثَّعلب، وَسَلِيم كَالحَمل، وأَبكَم كَالحُوت، وَشَؤوم كَالبُوم.

وَهَكذا، مَا مِن كَائن فِي ٱلأَرْض، وَالسَّمَاء ـ مَا عَدا الله سُبْحَانَهُ ـ إِلّا وَقَد أَخَذ ٱلإِنْسَان شَيْئاً مِنْهُ:

وَتَحْسبُ أنّك جِرمٌ صَغِير وَفِيكَ ٱنطوىٰ العَالَم الأَكْبَر[1]

آدَمَ، إِبْلِيسَ فِقْرَة ٢٠ ـ ٢١:

(وَ ٱسْتَأْدَىٰ اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَلاَئِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَ عَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ، فِي الإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَ الْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ. فَقَالَ سُبْحَانَهُ ﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾[2] ٱعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ، وَ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ، وَ تَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَ ٱسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ ٱسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ، وَ ٱسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ، وَ إِنْجَازاً لِلْعِدَةِ، فَقَالَ: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[3][20]. ثُمَّ أَسْكَنَ

---

(١) يُنسب هَذَا ٱلْبَيت إِلَىٰ أمِير ٱلْمُؤْمِنِين الإمَام عليّ عليه السلام كما فِي الديوان المرتضوي: ١٤٥، فيض القَدِير شَرْح الجَامِع الْصَغِير: ٤٦٦/٥، جواهر المطالب فِي مناقب الإمَام عليّ: ٦٣٦/٢.

(٢) ٱلْبَقَرَة: ٣٤.

(٣) ٱلحِجْر: ٣٧ ـ ٣٨.

سُبْحَانَهُ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيْهَا عَيْشَهُ ، وَ آمَنَ فِيْهَا مَحَلَّتَهُ ، وَ حَذَّرَهُ إِبْلِيسَ ، وَ عَدَاوَتَهُ ، فَٱغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ ، وَ مُرَافَقَةِ الْأَبْرَارِ ، فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ ، وَ الْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ ، وَ ٱسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلًا ، وَ بِالاِغْتِرَارِ نَدَماً . ثُمَّ بَسَطَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ ، وَ لَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ ، وَ وَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَىٰ جَنَّتِهِ ، وَ أَهْبَطَهُ إِلَىٰ دَارِ الْبَلِيَّةِ ، وَ تَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ[٢١]) .

اللُّغَة:

ٱسْتَأْدَىٰ وَدِيعَتَهُ : طَلَب مِنْهُم أَدءهَا . والحَمِيَّة : الْأَنَفَة . وٱعْتَرَتْهُ : أَصَابَتْهُ . والصَّلْصَال : الطِّين اليَابس . والنَّظِرَة ـ بِكَسر الظَّاء ـ التَّأخِير ، والْإِمْهَال . والْعِدَةِ ـ بِكسر الْعَيْن ـ الْوَعْد . وٱغْتَرَّهُ : غرَّر بِهِ . ونَفَاسَةً : حَسَداً . والْمُرَاد بالْأَبْرَار هُنا ٱلْمَلاَئِكَة . والْجَذَلِ : الفَرح . ودَارِ الْبَلِيَّةِ : الدُّنْيَا .

الْإِعْرَاب:

الْمَلاَئِكَةَ عَلَىٰ النّصب بِنَزع الخَافض أي طَلَب مِن الْمَلاَئِكَة . وٱسْتِحْقَاقاً مَفْعُول لأجلَه . وإِبْلِيسَ مَفعُول ثانٍ لحَذَّرَ ، أو مَنْصُوب بِنَزع الخَافض . ونَفَاسَةً مَفْعُول مِن أَجْله .

الْمَعْنَىٰ:

(وَ ٱسْتَأْدَىٰ اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَلاَئِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ ، وَ عَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ) . قبل أَنْ يَخلق الله آدَمَ قَالَ لِمَلاَئِكته : ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن

رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾[1]. فَسَمع ٱلْمَلاَئِكَة الْوَصِيَّة وَحَفظُوها، ولمَّا تَمَّ كلّ شيء مِن خَلق آدَمَ طَلَب سُبْحَانَهُ مِن مَلاَئِكته أنْ يُؤَدُوا الوَدِيعَة، والْوَصِيَّة الَّتي عَهد بِها إلَيْهِمْ مِن قبل، وَهِي السّجود لآدَم عِند تمَام خَلقه، وإلَىٰ هَذَا أشار الإِمَام بقَوْله: (فِي الإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ). فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾[2] لهُ سجُود التّحية، لاَ سجُود الْعِبَادَة، لِأَنَّهَا لاَ تجوز إلّا لله وَحده.

وَقد تكون ٱلْحِكْمَة فِي إخبَار ٱلْمَلاَئِكَة مِن قبلُ، أنْ لاَ يُفاجأوا بوجُوب السّجود لآدَم، فَيشتد وَقعه عَلَيْهِمْ... أو أنّه تَعَالَىٰ أرَاد أنْ يُعلمنا كَيْفَ نفعل إذَا أردنَا أنْ نُخبر، أو نَطلب شَيْئاً مِن شَخص لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي حُسبانه، كَمَا هُو شَأن ٱلْمَلاَئِكَة آنذَاك بالنِّسبة لآدَم، والسّجود لهُ، ولذَا: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3]. وكأنّهم يَقُولُون لله تَعَالَىٰ: وَلِمَاذَا آدَمَ، وَنَسل آدَمَ البُغاة العُصاة؟. اجعلنَا نَحْنُ خُلَفَاء ٱلأَرْض، وَسترىٰ عبادتنا، وطَاعتنا لكَ... فَقَالَ لَهُمْ عزّ مَن قَائِل: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4]. وَعندَها خشَعوا، و ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[5].

(فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ اعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ). أَبَداً مَا صَدرت أيّة

---

(١) سُورَةُ ص: ٧١ ـ ٧٢.
(٢) ٱلْبَقَرَة: ٣٤.
(٣) ٱلْبَقَرَة: ٣٠.
(٤) ٱلْبَقَرَة: ٣٠.
(٥) ٱلْبَقَرَة: ٣٢.

بَادرة مِن آدَمَ فِي حَقّ إِبْلِيسَ... كَيْفَ وَقَد كَانَ آدَمَ فِي عَالم الْغَيْب حِينَ أَضْمَر لهُ إِبْلِيسَ العدَاوة، وَالبَغضَاء؟. بَيّت لهُ السُّوء، لاَ لِشيء إلّا لأنّه عَلِمَ، وأَيقَن بِأنّ الله سَيُفَضله عَلَيْهِ، وَجَاءه هَذَا العِلم مِن قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾[1].

(وَ تَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَ اسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ). يُشِير إِلَىٰ قَول إِبْلِيسَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ـ أَي مِن آدَمَ ـ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[2]. وَمُنذ القَدِيم ٱكتَشف ٱلإنْسَان أنّ فِي ٱلنَّار أَحيَاء تتَكيف بِطَبعها مَع ٱلنَّار. قَالَ المَجْلسي: «قَالَ بَعضهم: أنّ كُرة ٱلنَّار تكُون مَملُوءة مِن الرّوحَانِيات»[3] تَمَاماً كَقَطرة المَاء، وَقَالَ الجُدد مِن أَهْل الإخْتصَاص: أنّ نَوْعاً مِن الأَحيَاء يَعِيش فِي ٱلهَوَاء السّام، وآبَار البترُول.

(فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ). طَلَب إِبْلِيسَ مِن الله أنْ يُمهله، ويَبْقه حَيّاً مَا دَام عَلَىٰ وَجه ٱلأَرْض إِنْسَان، ليتَوَلَّىٰ غوَايـة البَـشر أبـنَاء آدَمَ، وعَـدُوّه الأَكْبَر. طَلَب الإمدَاد لهُ، وهُو يَعلم أنّ ذَلِكَ يَعود عَلَيْهِ بالشّرّ، والوَبَال، ومَع هَذَا أصرّ، وآثرّ أنْ يَتَحمل كُلّ شَيء مِن أَجل التّنكِيل بِآدم وَذُرِيته، والإِنتقَام مِنْهُم.. فَٱختَار الله تَعَالَىٰ لإِبْلِيس مَا ٱختَار هُو لنَفْسِه، وٱستَحق غَضب الله، وَعَذَابه بِسُوء مَا ٱختَار: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَـٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[4]. وَقَالَ الإِمَام ﷺ: «مَا أُبتلي أَحَدٌ بِمِثْلِ الإِمْلاَء

---

(١) سُورَةُ ص: ٧١ ـ ٧٢.

(٢) ٱلأَعْرَاف: ١٢.

(٣) أُنظر، بحَار الأَنوَار: ٦٠/٣٣٠. (مِنهُ ﷺ).

(٤) ٱلإِسْرَاء: ١٨.

لهُ »[١].

(وَ ٱسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّة) . أي أنّه تَعَالىٰ أمهَل إبْلِيسَ لِيَبتَلي بهِ عِبَادِه، وَتَظهر سرَائِرهُم بِأفعَالهم الَّتي يَسْتَحقُون بِها الثَّوَاب، والعقَاب (وَ إِنْجَازاً لِلْعِدَةِ) . أي الْوَعْد، وٱختَلف الشّارحُون فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْوَعْد، فَمَن قَائِل؛ أنّه الْوَعْد بِالإمْهَال، وَهَذَا ٱشتبَاه، لأنّ الله سُبْحَانَهُ مَا وَعده بِشيء قَبل قَوْله: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾[٢] . وَقَائِل آخر: أنّه جَزَاء، وَمُكَافأة لإبْلِيس عَلَىٰ عِبَادته السّابقة... وَهَذَا حَدس لاَ مُستَند... والَّذي نَفْهَمه مِن سِياق الكَلاَم، وقَوْله: «ٱسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ» . أنّ الْمُرَاد بِالْوَعْد هُنا مَا سَبق فِي تَقدِيره تَعَالىٰ أنْ يَبتلي الْعِبَاد بِالْفِتْنَة، لِيَعلم أيّهم أَحْسَن عَملاً، والشَّيْطَان فِتْنَة مَا فِي ذَلِكَ رَيب، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[٣] .

الْعِبَر فِي قِصَّة آدَمَ، إِبْلِيسَ:

١ ـ إنَّ كلّ مَن حَقد عَلَىٰ ذِي فَضل لِفَضله، أو صَاحب مكَانة لِمَكانته، أو عَادىٰ إنْسَاناً لِمُجَرد المُزَاحمة، أَو المُشَاركة فِي الرّيَاسة، وَالمِهنَة فهُو عَلَىٰ دِين إبْلِيسَ وَمَبدَئه، وَيُحشر يَوْم ٱلْقِيَامَة فِي زُمرَته.

٢ ـ إنَّ الطَّرِيق لِمَعرِفة الدِّين، وَالخُلق ٱلْكَرِيم وَاحد فَقط، وَهُو الثَّبات عَلَىٰ الْحَقِّ

(١) أنظر، شَرْح نَهج ٱلبَلاَغَة لِمُحَمَّد عَبْدَه: ٤/٢٧ ٱلحِكْمَة (١١٦).
(٢) ٱلأعْرَاف: ١٥.
(٣) ٱلحَجّ: ٥٣.

عِند الإِبْتِلاَء، والّتمسك بِهِ مَهما تكُن النّتائج، فَلَقد كَان إِبْـلِيسَ مَـضرب المَـثل فِي الخُشُوع، والْعِبادَة، ثُم ٱنْتَهىٰ أَمْرِه إِلَىٰ مَا ٱنْتَهىٰ حِينَ ٱمْتَحنه الله، وأَمْرِه بِالسّجُود لآدَم.... وَمَن يَعبد الله ويَخْشَع، لأنّه يَسمع كَلمات المَدِيح، والإِطْرَاء عَلَىٰ خشُوعه وتوَاضعه، فإِذَا مُحص بِالبَلاء أعرَض عَن الحَقِّ، وَكَفَرَ ـ فهُو مِـن جـنُود إِبْـلِيسَ وَأَتْبَاعه.

٣ ـ إِنَّ كَثِيراً مِن النَّاس يَصرّون عَلَىٰ ٱلْبَاطِل لاَ لِـشيء إلاّ عِـنَاداً لِخَـصمهم، وَنِكَايَة بِهِ، وَهُم يَعْلمُون عِلم الْيَقِين أنّ هَذَا الإِصْرَار يَعود عَلَيْهِمْ بِأَسوَأ ٱلْعَوَاقِب، وَأَوْخَمها، وَهَذَا هُو شَأن إِبْلِيسَ بالذَّات، أَصَّر عَلَىٰ مَعْصِيَة الله، وهُو يَسمع تَهدِيده وَوَعِيده مُبَاشرة، وَبِلا وَاسطة: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]. وأَقدَم عَلَىٰ عذَاب جَهَنَّمَ، وَلَعنة الله، وَلَعنة اللاّعنِين، وهَـانَ عَـلَيْهِ كُـلّ شيء إلاّ الخضُوع، والسّجود لآدَم، والتّنازل عِن كِبرِيَائه.

إِنَّ الله سُبْحَانَهُ يَقبل ٱلتَّوْبَة مِن إِبْلِيسَ إِذَا تَاب، وأَخْلَص، وأيضاً إِبْلِيسَ عَلَىٰ أَتَم الإِسْتعدَاد لأَنْ يَتُوب، وَيخلص، ولكنْ بِشَرط أنْ لا يأْمرِه الله ثَانِيَة بِالسّجُود لآدَم، أو لِغَيره ـ عَلَىٰ الأَصح ـ والله سُبْحَانَهُ لا يَقبل ٱلتَّوْبَة إلاّ بِهَذَا الشّرط.

وَمَن دُعي إِلَىٰ خَير، وَقَالَ: أَسْتَجِيب لكلّ شيء إلاّ هٰذَا، لأنّ فِيهِ إعزَازاً لزَيد، أَو مَساً بِشَخصِيتي فهُو عَلَىٰ مَبدأ إِبْلِيسَ وَمُقلد لهُ، أرَاد ذَلِكَ أَم لَم يُرد.

هَذِه بَعْض العِبر، والعِظات فِي قِصَّة إِبْلِيسَ مَع آدَمَ، وعَلينا أَنْ نَقرأها، ونُكرر قرَاءتها بِتَدبر، وإِمعَان، والْعَاقِل من ٱتَّعظ بِالغَير، وٱنْتَفع بِالعِبر.

---

(١) سُورَةُ صٓ: ٨٥.

(ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيْهَا عَيْشَهُ). وكُــلّ نَـعِيمٍ دُونَ ٱلْجَـنَّةِ فَـهُوَ مَحْقُورٌ، (وَ حَذَّرَهُ إِبْلِيسَ، وَ عَدَاوَتَهُ). ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1].

(فَٱغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ). أي أنّ إِبْلِيسَ غَرَر بآدَم. وَقَالَ الشّــيخ مُحَـمَّد عَـبْدَه: ٱنْـتَهز إِبْلِيسَ مِن آدَمَ غَرة فَأغوَاه، وكلّ مِن التّفسِيرِين صَحِيح. والغِرة ـ بِكَسر الغِين ـ الغَفْلَة (نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ). أي حَسداً لآدَم عَلَىٰ الخلُود فِي ٱلْجَنَّة (وَ مُرَافَقَةِ الْأَبْرَارِ). وَهُم ٱلْمَلاَئِكَة.

(فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ). أي نَقض الْيَقِين بِالشَّك، والْمُرَاد بــالْيَقِين هُـنا عِـلم آدَمَ بِالنَّهي عَن الشَّجَرَة. والْمُرَاد بِالشَّك أنّ آدمَ بَعد أنْ كَان عَلَىٰ يَقِين مِن أنّ النّهي حَتم والإِلزَام ـ ٱحتَمل أنّ هَذَا النّهي لِغَيرِ الحَتم، والإِلزَام، إِبْلِيسَ هُو الَّذي أوحىٰ إِلَيْهِ بِهَذا الإِحْتِمَال... هَذَا مَا يدل عَلَيْهِ سِياق الكَلاَم، وظَاهره، أو مَا نَفهمه نَحْنُ (وَ الْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ). أي ضَعفه الَّذي أدّىٰ بِهِ إِلَىٰ نَقض الْيَقِين بِالشَّك، وهُو تَفْسِير لقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[2].

(وَ ٱسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ) الفَرح (وَجَلًا) ٱلْخَوْف (وَ بِالاِغْتِرَارِ نَدَماً). وهَكذا عَاقِبَة التَّفْرِيط (ثُمَّ بَسَطَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ). وَفَتح بَاب ٱلتَّوْبَة حَتم، وَسَده ظُلم ما دَام ٱلإِنْسَان بِطَبعه غَيْر مَعْصُوم (وَ لَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ، وَ وَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَىٰ جَـنَّتِهِ). ولكنْ جَعل الطَّرِيق إِلَيْهَا مَحفُوفاً بِالمكَاره: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[3].

---

(١) فَاطِر: ٦.

(٢) سُورَةُ طَه: ١١٥.

(٣) آلِ عِمْرَانْ: ١٤٢.

(وَ أَهْبَطَهُ إِلَىٰ دَارِ الْبَلِيَّةِ ، وَ تَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ) . وَعَملية التّناسل سَهلة جِدّاً ، بَل وَلذِيذَة أيضاً ، ولكنْ عَاقبتها كَارثة بخَاصَّة فِي هَذَا العَصر الَّذي نَعِيش فِيهِ ... وَنُشِير إِلَىٰ هَذِه النُّكتة الَّتي تَخلط الجدّ بِالهَزل ، قَالها فِيلسُوف ظَرِيف : أَكلَ آدَمَ مِن الشَّجَرَة عَن قصدٍ ، وَعمدٍ ، لأنّه ملَّ حَيَاة الفَراغ ، والبَطالة ، وآثَر المتَاعب ، والآلاَم مَع الجدّ وَالْعَمَل عَلَىٰ الدِّعة ، والرّفَاهية مَع البطَالة ، والكَسَل ... ولمَاذا العضلاَت وَالمَقدرة عَلَىٰ الأَعْمَالِ ما دَام الإِنْسَان بلا عَمل ؟ . وَهل هُو فِي حَاجَة إِلَىٰ أَكْثَر مِن مَعِدَة تَمتلىء ، وَتهضم ، وَلِسَان يهذر ، وَيُثرثر .

الإِنْسَان، وَالْخَطِيئَة:

تَتفق الأَدْيَان السّماوِية عَلَىٰ أنّ آدَمَ لَم يَستَمع لله فِي نَهيه عَن الأكل مِن الشَّجَرَة ... وتولَد مِن فِكرهِ هَذِه الْخَطِيئَة ، أو هَذِه المُخَالفة آرَاء مُخْتَلفة عَن طَبيعَة الإِنْسَان ، أَو عَن الجِنْس البَشري بالنَّظر إِلَىٰ أنّ آدَمَ أبا البَشر هُو المُمثل لهَذه الطَّبيعَة ، أو لهَذَا الجِنْس ... فَمن قَائل : أنّ الإِنْسَان خيّر بِطَبعه . وقَائل : هُو شرِير وذِئب ... وَقَالَ المَاركسيُون : لاَ يَتصف الإِنْسَان بخَير ، أو شرّ ، لأنّه صَنِيعة الطَّبيعَة ، وخَاضع لقَانون التّطور كغَيره مِن الْكَائِنَات الحَيَّة ، ولَيْسَ هُناك ما يَمنع مِن أنْ يَتحول فِي المُسْتَقْبَل إِلَىٰ شَيء آخر يَبعد كلّ البُعد عَن مَفهوم الإِنْسَان الحَالي ، وإذَنْ ، لَيْسَ ثَمّة طَبِيعَة بَشرية ثَابتَة كِي نَصفها بخَير ، أو شَرّ [١] .

وَوقَفت المَسِيحِية فِي الجَانب المُقابل حَيْث اعْتَبرت الإِنْسَان مُذنباً ، ومُخطئاً

---

(١) أنظر ، أضواء عَلَىٰ السُّنّة المُحَمّدية للشيخ مُحَمّد أبو رية : ١٨٦ و١٨٧ ، تَفْسِير المِيزان : ١/١٣٥ ، جامع البَيان : ١٥/٣٢٣ ، تَفسِير القُرطُبي : ١/٢٩٥ .

بِطَبعه، وإنّه لا خَلاص لهُ مِن الذّنب، والْخَطِيئَة إلّا بقُوَّة عُظمىٰ خَارجة عَن طَبِيعَته وإرَادته، وَتولد مِن هَذِه الْفِكْرة فِكْرَة الفِدَاء، أو القُربَان، وإنَّ الله قَد تَمثل فِي صُورة إنْسَان، وأنّه صُلب، وعُذّب ليخلّص البَشر، ويُكفّر عَنهم سَيِّئَاتِهم... ومِن أَجل هَذَا يَطلق ٱلْمَسِيحِيُون عَلَىٰ السَّيِّد ٱلْمَسِيح عليه السلام لَقَب «المُخلّص» وَيَعتبرُون الْخَطِيئَة وَالفِداء مِن صَمِيم الدِّين، وَالْعَقِيدَة[1]... وَقد وَصف أحدَهم هَذَا الوَضع بقَوْله: «لقَد أَصْبَحَ الدِّين عِنْدَنَا ـ أي عِند المَسِحِيين ـ مُجَسداً فِي الْخَطِيئَة». وَقَالَ آخر: أنّ الكَنِيسَة ٱختَرعت فِكرَة الْخَطِيئَة، فِكرَة الخَلاَص مِنْهَا بِالفِدَاء كي تَقْنَع مَن تَسعىٰ إلَىٰ تَحوِيلهم عَن دِينهم، تَقْنَعهم بأنّ الخَلاص، والعِلاج موجُود فِي جيبهَا... وهُو ٱعتنَاق ٱلْمَسِيحية فَقط لا غَيْر.

وَوَجد المُستعمرُون، وَالصّهاينة الشّفِيع، والمُبرر لطُغيَانهم، وعُدْوَانهم عَلَىٰ ٱلإنْسَانية، وَقِيمها، وَجدوا هَذَا الشّفِيع عِند الكَنِيسة الَّتي تَقول: أنّ الْخَطِيئَة غَرِيزَة فِي طِينَة ٱلإنْسَان، وَجِبلّته... فإذَا ما ٱعتَرض مُعترض عَلَىٰ بَغيهم، وآثَامهم قَالُوا: هَذَا مِن صِنع الله، لا مِن صُنعنا... وكلّ مَن مَلك ٱستَأثر، وَمَا كفّ أَحد إلّا لعِلَّة الْعَجْز، ومِن أَجل هَذَا سَاندت قِوىٰ الشَّرّ، والْعُدْوَان الكَنِيسَة بكلّ ما تَملك، بَل وَسخّرت لهَذه الْغَايَة بَعْض العمَائِم الَّتي تَقلبت فِي البِلاد، وأَكْثَرت فِيْهَا ٱلْفَسَاد. فمُنذ عَهدٍ قَرِيب خَطَب مُعَمم، وَنَشر فِي الصّحف: أنّ ٱلأَنْبِيَاء كَغيرِهم فِي المُيُول، وَالأَهوَاء مُستنداً إلَىٰ ما ظَهر فِي بَعْض الآيَات، ومَا تَنبه لأَهدَافه المَأجورة إلّا قَلِيل. ورُوي ـ ولاَ أستَبعد هَذِه الرّواية ـ إنَّ إرسَاليات التّبشِير ٱلْمَسِيحي أغرَت دَاراً

(١) أُنظر، تَفْسِير الميزان: ٣/٣١٩.

لِلنَّشر بإعَادة طَبع، وَنَشر كتَاب تَنْزِيه ٱلْأَنْبِيَاء لِلشَّريف المُرتضىٰ، وأشتَرت مِن صَاحب الدَّار العَدِيد مِن النُّسخ، وَوَزعتها بِطَريقٍ، أو بآخر... والقَصد أنْ يَتَنَبه النَّاس لقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[1]. وقَوْله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[2] وما إِلَىٰ ذَلِكَ.. أَمَّا تَأوِيل الشَّرِيف بِخِلَاف الأُولَىٰ، وبأنّ الأَمْر والنّهي مِنْهُ تَعَالَىٰ فِي هَذَا البَاب هُما للإرشَاد فَقط، أَمَّا هَذَا التَّأويل وَنحوه فَيتعقَله، وَيَقتنع بِهِ الْخَاصَّة ٱلْمُؤْمِنُون دُونَ الْعَامَّة الّذين لاَ يَفْهمُون مِن كَلِمَة ٱلْمَعْصِيَة إلاّ الْمَعْنَىٰ الْحَقِيقي الأصِيل[3].

وَالخُلاَصة أنّ المَاركسِية وَقَفت فِي أَقصىٰ اليَسار حِينَ نَفت الطَّبِيعَة البَشرِية الثّابتة مِن الأَسَاس، ووَقفت ٱلْمَسِيحية فِي أَقصىٰ اليَمِين حِينَ اعتبَرت الخَطِيئَة طَبيعَة وعقِيدة، أَمَّا ٱلْإِسْلاِم فَقَد وَقف مُوقِفاً وَسَطاً بَيْنَ المَاركسِية، والْمَسِيحية: وَلَم يَربط الْعَقِيدَة بِهَذه المَسألة مِن قَرِيب، أو بَعِيد بل أشَار إِلَىٰ طَبِيعَة ٱلإنْسَان مِن بَاب التّعرِيف، وَالْإِرْشَاد إِلَىٰ الوَاقع، وأنّ كلّ مَوْلُود يُولَد عَلَىٰ الْفِطْرَة الصّافِية[4]، وَالتّربِية هِي الَّتي تُكدره، وتُلوثه... أَمَّا قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ

(١) سُورَةُ طَه: ١٢١.

(٢) ٱلْفَتْح: ٢.

(٣) أنظر، كتاب عصمة ٱلأَنْبِيَاء للسيد المرتضىٰ، وعصمة ٱلأنبِيَاء للرازي، وبحثاً مفصلاً فِي كتاب حجية السُّنَّة للشيخ عبد الغَنِيّ عبد الخَالِق بعنون (المُقدمة الثّانِيَة) فِي عصمة ٱلأنبِيَاء: ٨٥ ـ ٢٣٩.

(٤) أقتباساً مِن الحَدِيث المروي (كلّ مَوْلُود يُوْلَد عَلَىٰ الْفِطْرَة...). أنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٤/ ٢٠٤٧ ح ٢٦٥٧، صَحِيح أبن حبّان: ٣٣٦/٧ ح ١٢٨، سُنن التّرمِذي: ٤٤٧/٤ ح ٢١٣٨، سُنن أبي داود: ٢٣٠/٤ ح ٤٧١٦، المُصَنّف لعبدالرّزاق: ٥٣٣/٣ ح ٦٦١١، المُعْجَم الأوسط: ٢٢٧/٤ ح ٤٠٥٠.

كَفَّارٌ﴾[١]. وَنحوه مِن الآيَاتِ فَقد أجابُوا عَنْه بأنّ هَذَا الحُكْم عَلَىٰ ٱلإِنْسَان إنّما هُو بِالنَّظر إلَىٰ بَعْض أفـرَاده، لا بِـالنَّظر إلَىٰ طَـبيعَته، وَجِـنْسه، وَقُـلنا فِي «التَّـفْسِير الكَاشف»[٢]: «إنَّ ٱلإِسْلَـم يَنظر إِلَىٰ ٱلإِنْسَان مِن خِلال عَقِيدَته، وَسلُوكه بِصَرف النّظر عَن طَبِيعَته، وَعَلَىٰ هَذَا الأَسَاس وَحده يَحكم عَلَيْهِ بأنّـه صَـالح، أو طَـالح، طيّب، أو خَبِيث».

وَتَسْأَل: إِذَا كَان إبْلِيسَ قَد تَوَلَّىٰ غوَاية آدمَ، فَمَن الَّذي تَوَلَّىٰ غوَاية إِبْلِيسَ؟.

الْجَوَاب:

ٱلحَسَد تَوَلَّىٰ غوَاية إِبْلِيسَ، وإلَىٰ ذَلِكَ أشَار الإِمَامعليه السلام بقَوْله: «نَفَاسَةً عَـلَيْهِ». وٱلحَسَد لا يَحْتَاج إلَىٰ من يتولّاهُ... حَتَّىٰ الأَطْفَال يَتحاسدُون، وَيَتغَايرُون... ومِن هُنا قَالَ الرَّسُول الأَعْظَمصلى الله عليه وآله: «وَإِذَا حَسَدت فَلا تَبغ»[٣] نَهىٰ عَن آثَـار ٱلحَسَـد، وإِظْهَارها فِي قَولٍ، أو فِعلٍ، وَلَم يَنهِ عَن ٱلحَسَد بِالذَّات، لأنّه تَكلِيف بِغَير المَقدُور.

ٱلأَنْبِيَاء فِقْرَة ٢٢ ـ ٢٥:

(وَ ٱصْطَفَىٰ سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَىٰ الْوَحْيِ مِـيثَاقَهُمْ، وَ عَـلَىٰ تَـبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ فَجَهِلُوا حَقَّهُ، وَ ٱتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ

(١) إبْرَاهِيم: ٣٤.

(٢) أُنظر، التّفسِير الكاشف: ٤/٢١٣.

(٣) أُنظر، تَفْسِير القُرطُبي: ١٦/٣٣٢، فتح البَاري: ١٠/٢١٣، التّمهيد لِابْن عبدالبر: ٦/١٢٥، شَرْح الزّرقاني: ٤/٣٢٨، تُحْفَة الأَحْوذي: ٦/٥٥، سُبل السَّلاَم: ٤/١٨٢.

مَعَهُ، وَ ٱجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَ ٱقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ[٢٢]، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَ وَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَ يُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَ يَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَ يُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَ يُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ: مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَ مِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، وَ مَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَ آجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وَ أَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وَ أَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ[٢٣]، وَ لَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ، أَوْ حُجَّةٍ لاٰزِمَةٍ، أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ: رُسُلٌ لاٰ تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ، وَ لاٰ كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ: مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ: عَلَىٰ ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ، وَ مَضَتِ الدُّهُورُ، وَ سَلَفَتِ الآبَاءُ، وَ خَلَفَتِ الْأَبْنَاءُ[٢٤]).

اللُّغَة:

المِيثَاق: العَهد. والأَنْدَادَ: جَمع نِدٌّ، وهُو المَثِيل[١]. والمُرَاد بالاجْتِلَاءِ هُنا الصّرف. وَوَاتَر: تَابع مَع التَّراخي، والفَصل بَيْنَ نَبيٍّ، وَنَبيّ. لِيَسْتَأْدُوهُمْ: لِيَطلبُوا مِنْهُم الأدَاء والْوَفَاء. والسَقْف المَرْفُوع: السَّمَاء، والمِهَاد المَوْضُوع: الأَرْض. وَالأَوْصَاب: المتَاعب. وتُهْرِمُهُمْ: تجعلهم هَرِمِين. والغَابِر: البَاقي. ونَسَلَتِ: وَلَدت.

الإِعْرَاب:

لمَا بَدل «لمَّا» هُنا بِمَعْنَىٰ حِينَ أو إذْ، لِأَنَّهَا دَخلَت عَلَىٰ المَاضي. لِيَسْتَأْدُوهُمْ:

(١) أنظر، لِسَان العَرَب: ٣/٤٢٠.

مُضَارِع مَنْصُوب بأَنْ مُضْمَرة، وَ يُذَكِّرُوهُمْ ومَا بَعده عَطف عَلَىٰ لِيَسْتَأْدُوهُمْ. وَ مَعَايِشَ مَمْنُوع مِن الصّرف. وَعَلَىٰ ذَلِكَ مُتَعَلِّق بنسَلَت.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ اَصْطَفَىٰ سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَىٰ الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ وَ عَلَىٰ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ). بِعثة ٱلْأَنْبِيَاء فِي جُوهَرها وسَاطة بَيْنَ الْخَالِق، والْمَخْلُوق، وَهَدفها هدَاية الخَلق إِلَىٰ الْحَقِّ، وَتَعاونهم عَلَىٰ ما يَكفل الأَمْن، وَالعِيش للجَمِيع، وَهَذَا هُو أَمل الطَّيِّبِين الأحرَار مُنذ وُجد ٱلإِنْسَان عَلَىٰ سَطح ٱلأَرْض، ومِن هَذَا ٱلأَمَل ٱنطَلقت النّظريات، وَوضعت المُؤلفَات لِتَحققه، وبُلُوغه، ومِنْهَا جمهُورية أَفْلاَطُون[1]، والْمَدِينَة الفَاضلة للفَارَابِي[2].

وَلكنَّ أَفْلاَطُون مَزج الوَاقع بِالخَيال عَملاً بِنَظرِيته فِي المُثُل، وَقَالَ «دِي بُور» فِي كتَاب «تَأرِيخ الفَلْسَفَة فِي ٱلْإِسْلَام»[3]: أنّ آرَاء الفَارَابِي فِي الْمَدِينَة الفَاضِلة تَقترِب فِي فسَادها مِن فَلْسَفَة «نِيتْشَه» القَائِمة عَلَىٰ بقَاء الأقوَىٰ... وَإِذَا كَانَتْ هَذِه هِي فَلْسَفَة أَفْلاَطُون أُستاذ المُعلم الأَوّل، وآرَاء الفَارَابِي[4] المُعلم الثَّانِي فَمَا هِي حَال

---

(١) هُو فيلسوف يُوناني يُعَدّ مِن مشاهير فلاسفة العَالم، ولِد في آثينا مِن أُسرة عَريقة، كَانَتْ هُوايته في بِدأ حياته بالرّسم، ثُمّ نَظم الشِّعر، تَتلمذ عَلَىٰ يَد سُقراط، والَّذي كَانَ له الدّور الأَكْبَر في نشأته الفَلسفِية. أُنظر، ترجمة أفْلاَطُون للسيدة نضلة الحكيم، والأُستاذ مُحَمَّد مظهر سعيد.

(٢) أنظر، آراء أَهْل المَدِينَة الفاضلة لأَبِي نَصر الفَارَابِي، طَبْعَة ليدن سَنَة ١٨٩٥م.

(٣) أنظر، ٱلْكِتَاب المذكور أعلاه: ٥٦.

(٤) الفَارَابِي: (أَبو نَصر مُحَمّد) توفّي ٩٥٠م، فيلسوف لامع. ولد في فَاراب «تركستان» ودرس في بغداد،

غَيْرِهَا مِن النّظريات الهَادِفة إِلَىٰ خَير ٱلإِنْسَان ؟.. أنّ كلّ نَظرِية، أو نِظَام وِضع لِخَيرِ ٱلإِنْسَان يَسْتَحِيل أنْ يَتم، ويَكمل مِن كل وَجه إلّا إِذَا قَام عَلَىٰ أَسَاس المَبَادىء الّتِي أقرّها الوَحي مِن الله سُبْحَانَهُ... ومِن هُنا كَثر النّسخ، والتّقلِيم، والتّطعِيم فِي الأنْظِمة الوَضعِية... وَإِذَا ٱتفق الْعُلَمَاء عَلَىٰ كَثِير مِن النّظرِيات الطَّبِيعِية المَحسُوسة فإِنَّهُم حَتَّىٰ الآنْ لَم يَتفقُوا عَلَىٰ نَظرِية سِيَاسِية، أو إجْتِمَاعية عَلَىٰ الرّغم مِن مواصلة الدِّراسات، وَعَقد المُؤتَمرَات... أَبَداً لا أَحد أَعلم بِخَير ٱلإِنْسَان وهدَايته إِلَىٰ سعَادته الخَالدة إلّا خَالق ٱلإِنْسَان، أي عَاقل يَشك فِي أنّ مُختَرِع الآله هُو أعلَم بِها مِن غَيْره ؟.

(لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ). الْمُرَاد بِعَهد الله هُنا مِيثَاق الْفِطْرَة الَّذي أشَار إِلَيهِ الإِمَام عليه السلام بقَوْله: «لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ». وَبَعد أسطُر نتَكَلّم عَن هَذَا المِيثَاق بِفقْرَة خَاصَّة، وقَوْله: «لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ» يُومىء إِلَىٰ أنّ البَعض مِن عِباد الله ثَبتوا عَلَىٰ مِيثَاق الْفِطْرَة، وٱستطَاعوا بِثَباتهم هَذَا أنْ يَعرفوا حَقّ الله، وَيَعمَلوا بِهِ، وَيُسمىٰ هَؤُلَاء بِالحُنفَاء، وكَان مِنْهُم قَبل بِعثَة رَسُول الله صلى الله عليه وآله، أفرَاد وهُم وَرَقة ٱبن نُوفل، وعَبدالله بن جَحش، وعُثْمَان بن الحوِيرث، وزَيد بن نُوفل[1]... وَقَالَ بَعْض الفَلاَسفة: لَو كَانَتْ كلّ ٱلْعُقُول مِن النَّوْع النَّبِيل لكَان جَمِيع النَّاس عقلاَنِيين، لاَ يُخطِئُون، ولاَ يَتمِيز أحدَهم عَن الآخر فِي حُسن التّصرف، أو سُوئه.

⇐ وحران، وأقام في حَلب، في بلاط سَيْف الدَّوْلَة الهَمَذانيّ، وتوفّي في دِمَشْق، لُقب بالمعلم الثّاني، ومِن مؤلفاته: وَالسّيَاسَة المَدنِية، رِسَالة فصوص الحِكم، المُوسِيقىٰ الْكَبِير.

(١) أنظر، حَيَاة هَؤُلاَء فِي التَّفْسِير الكاشف للشارح: ٩٦/٥، (مِنْهُ ﷺ)، وتَأْرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤٢/٥، الطَّبقَات الْكُبْرَىٰ لِابْن سعد: ٣/ق٢٥٨/١، فتوح البلدان للبلاذري: ٤٦٠.

(فَجَهِلُوا حَقَّهُ وَ اتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ وَ اجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَ اقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ). الشّرك بالله، والإنصرَاف عَنْه نَتيجة حَتمية لِلجَهل بِحقّه تَعَالَىٰ، والجَاهِل أُلعوبَة الشَّيْطَان... وفِي بَعْض الرِّوَايَات: أدنَىٰ العِلم بالله الإقْرَار بأنّه لا إله غَيْره، وإنّه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ) ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ﴾[1] (وَ وَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ). أي جَعل بَيْنَ نَبِيٍّ وَنَبِيّ فَتْرَة قَصِيرة، أو طوِيلة، يُقَال: واتَرَ ما عَلَيْهِ مِن الصَوْم أي أَتىٰ بالصَوْم وِتراً، فصَام يَوماً، وأفْطَر يَوْماً أو يَوْمِين.

مَاهِي الْفِطْرَة؟

(لِيَسْتَأْدُوهُمْ). أي لِيَطلب ٱلْأَنْبِيَاء مِن النَّاس الأدَاء، وٱلْعَمَل بِمُوجب (مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ). وفِي الآيَة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايَعْلَمُونَ﴾[2].

وَتَسْأَل: ما هُو الْمُرَاد بالفِطْرَة فِي هَذِه الآيَة ٱلْكَرِيمَة، وفِي قَول الإمَام؟ . هَل الْمُرَاد ٱلْعَقْلية البدَائية مَع العِلم بأنّ هَذِه ٱلعَقْلية تَقبل التّناقُضات، والإيمَان بالأسَاطِير وَالخُرَافَات ـ كَمَا ثَبت فِي عِلم الإجتمَاع ـ أَم الْمُرَاد بالفِطْرَة أنّ هُناك قُوَّة غَامِضة تَفرض الْحَقّ عَلَىٰ قَلب ٱلإنْسَان، وَشعُوره... وَهَذَا خِلاف ٱلْحِسّ، والوجدَان... وَلَو صَحَّ ما ٱختَلَف فِي الْحَقّ ٱثْنَان... أَو الْمُرَاد بالفِطْرَة الشُّعُور الذّاتي الّذي يحسه ٱلإنْسَان مِن نَفْسِه، وَلاَ يَعْرِف لهُ مَصْدَراً، ولاَ تَفْسِيراً كالوَخز

(١) ٱلنِّسَاء: ١٦٥.

(٢) ٱلرُّوم: ٣٠.

الَّذي يَشعر بِهِ حِينَ يَفعل، أو يُحاول أنْ يَفعل قَبِيحاً مَع عِلمه، وَيَقِينه بأنّ مَا مِن أحد يَطلع عَلَيْهِ، أَو يُمكن أنْ يَطلع... ونَحْنُ نَعلم أنّ وَخز الضَّمِير يَكُون ـ فِي الغَالب ـ إنعكَاساً عَن تقَاليد المُجْتَمع، ومقَاييسه، أو عَن الإِيمَان بالله وَاليَوْم الآخر... أو المَقصُود بالْفِطْرَة مُجرد اَستعدَاد اَلإِنْسَان لأَنْ يَقبل الْخَيْر حِينَ يَعلم بأنّه خَير، وَيَرفض الشَّرّ حِينَ يَعلم بأنّه شرّ ؟.

الْجَوَاب:

كُلّ هَذِه الْمَعَانِي غَيْر مَقصُودة مِن الآيَة، ولاَ مِن قَول الإِمَام، ولاَ مِن حَدِيث: «كُلّ مُولد يُوْلَد عَلىٰ الْفِطْرَة» ؟[1].. وَكُنت قَد اَختَرت الْمَعْنَىٰ الأَخِير للفِطْرَة أي الإِستعدَاد، وقرّبتَه بِنَحو مِن الوضُوع، والتّفصِيل فِي (التَّفْسِير الكَاشف)[2]... والآنْ، وأَنا أَشرح (النَّهْج) عدتُ إِلىٰ دِرَاسة المَوْضُوع مِن جَدِيد، أو أَكْثَر بِدَليل أنّ أَهْل الشَّرّ، والضَّلالة أَكْثَر بِكَثِير مِن أَهْل الْخَيْر، والهِدَاية.

وَالَّذي أرَاه الآن، وفِي هَذِه اللّحظة بالذّات أنّ المَقصُود بالْفِطْرَة فِي هَذِه الآيَة الكَرِيمَة، وفِي قَول الإِمَامِ ﷺ وفِي حَدِيث (كُلّ مَوْلُود) هُو أنّ نَفس اَلإِنْسَان خُلقت صَحِيفة بَيْضَاء لا شَيء فِيْهَا، ولاَ تُوحي بشيء عَلىٰ الإِطلاَق، ولَكِنَّهُ تَقبل كلّ ما يَكتب فِيْهَا، وَيَرسم سوَاء أكَان وَحيّاً مِن اَلرَّحْمَان، أَم كَان تَضلِيلاً مِن الشَّيْطَان... وَبالدَاهة أنّ الوَحي مِن خَالق الْفِطْرَة وهُو وَحدَه الَّذي يَجب أنْ يَرسم فِيْهَا ما يَرسم، وأنْ تُؤمن بِهِ، وَتَعمل.

---

(١) تَقدَّم إستخراجه.

(٢) أُنظر، الجزء السّادس: ١٤١، مِن اَلكِتَاب المذكور أعلاه.

وَيَدُلنا عَلَىٰ صِحة هَذَا التَّفْسِير أنّ ٱلإنْسَان يُوْلَد، وَلاَ يُوْلَد، وَلاَ يُوْلَد مَعه شيء إلّا حوَاسه الخَمس، ومَعِدَة تَطلب الطّعام، والشّراب ـ كمَا هَوت المُشاهد ـ بٱلحِسّ والوجدَان، ثُم يَكتسب معَارفه ممَّا يُحيط بهِ شَيْئاً فشَيْئاً عَن طريق هَذِه الحَوَاس... وفِي أَقْوَال أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام مَا يُعزز ذَلِكَ، وَيدل عَلَيْهِ. قَالَ صَاحب مجْمَع الْبَيَان: روىٰ أصحَابنا عَن الإمَام البَاقر، أنّه قَالَ: «إنّه كَانُوا قبل نُوح أُمّة وَاحِدَة عَلَىٰ فِطْرَة الله، لاَ مُهتَدِين ولاَ ضَالِين، فَبَعث الله النَّبِيِّين»[1].

وَسِياق الآيَة يَدل عَلَىٰ صِحة التَّفْسِير الَّذي ٱخترنَاه للفِطْرَة، بَل وَيفرضَه، لأنّ الآيَة الكَرِيمَة، وَرَدت بَعد قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]... بعد هَذَا الْبَيَان الطّويل عَن إنشَاء الخَلق، وإعَادته، وَبَعد ذِكر الْفِطْرَة ـ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ

(١) أُنظر، مجْمَع الْبَيَان: ٢/٣٠٦ ـ ٣٠٧، و: ٢/٦٥ طَبْعَة أُخرىٰ. التّبيان للطوسي: ٢/١٩٥.

(٢) ٱلرُّوم: ٢١ ـ ٢٧.

ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايَعْلَمُونَ﴾[1]، أي أنّ الدِّين الحَنِيف الْقَيِّم الَّـذي يَجب أنْ تَأخذ بِهِ فِطْرَة ٱلإِنْسَان هُو الإِيمَان بالله الَّذي يَبدأ الخَلق ثُم يُـعِيده، لاَ الشّرك، أو اليَهودِية، أو النّصرانِية، وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ مِمَّا لا مَصْدَر لهُ إلّا تَضلِيل الأبوِين، وَفَساد الْمُجْتَمع، ولكنْ أَكْثَر النَّاس يَجْهلُون الدِّين الحَنِيف، وَيُـدِينُون بِـغَير الْحَـقّ، دِيـن الْآبَاء، وَالْأَجْدَاد.

وَهَذَا الْمَعْنَىٰ هُو الْمُرَاد أيضاً مِن حَدِيث (كُلّ مَوْلُود). وعَلَيْهِ يحمل قول الْإِمَام. «لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ» أي أنّ ٱلْأَنْبِيَاء طَلبوا مِن النَّاس أنْ يُؤْمِنُوا، وَيَعملوا بِمَا أوحَاه سُبْحَانَهُ إِلَىٰ الْفِطْرَة عَلَىٰ لِسَان أَنْبِيَائه، ولَيْسَ مَعنَاه ـ كما يَظن ـ أنّ ٱلْأَنْبِيَاء طَلبوا مِن النَّاس أنْ يُؤمنوا بِمَا توحِيه الْفِطْرَة نَفْسها... كلاَّ، لِأَنَّهَا صَحِيفة بَيْضَاء لا توحِي بشيء عَلَىٰ الْإِطلاَق.

(وَ يُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ وَ يَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَ يُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَ يُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ وَ مِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَـوْضُوعٍ). هَـذَا تَحدِيد لمُهمة ٱلْأَنْبِيَاء، ووَظِيفتهم، وَهِي التّذكير بأنعُم الله عَلَىٰ عِبَادِه والْإِحْـتِجَاج عَلَيْهِمْ بإِرشَاده إِلَىٰ أنْ يُفكروا، وَيَتأملُوا فِي خَلق الله، وآثَاره الدَّالة عَلَىٰ قُـدرته، وَعَظَمَته (وَ مَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَ آجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وَ أَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وَ أَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ). وأيضاً مِـن وَظِـيفة ٱلْأَنْـبِيَاء أنْ يـرشدُوا النَّـاس إِلَىٰ مـذَاهب ٱلْحَـيَاة المَشرُوعة، وَيُحذرُوهم مِن ٱلْحَرَام، لأنّ الدُّنْيَا ـ عَلَىٰ آلاَمها، وأحزَانها ـ مَـاضِية بِهِمْ إِلَىٰ الزّوال.

---

(١) يُوسُف: ٤٠.

وَبِهذا يَتَبَيَّنَ مَعْنَىٰ، أنّ وَظِيفة ٱلأَنْبِيَاء هِي الإِنذَار، والتّبشِير، وأنّهم لاَ يَملكُون لأحدٍ نَفعاً، ولاَ ضُرّاً، ومَا زَاد عَلَىٰ ذَلِكَ مِن غرَائب الأوصَاف، وعَجَائب الصّور فَلَيْسَ مِن الدِّين فِي شَيء.

(وَ لَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ أَوْ حُجَّةٍ لاٰزِمَةٍ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ). لا تَقوم الحُجّة لله عَلَىٰ خَلقه إلّا بَعد الْبَيَان مِنْهُ تَعَالَىٰ، والْمَعْصِيَة مِن العَبد، ولَيْسَ مِن الضّروري أنْ يَكُون الْبَيَان مِن رَسُول الله مُشافهةً، وَوَجهاً لوَجه، بل يَكُون أيضاً بكتَاب الله كاَلْقُرْآن، وبالسُّنه الثّابتة عَن رَسُول الله، وَهِي الْمُرَاد مِن الْمَحَجَّة القَائِمَة، أَمَّا المَقصُود مِن قَوْله ﷺ: الحُجّة اللاَزمَة فَهُوَ ٱلعَقْل، أو ٱلْمَعْصُوم الَّذي أشَار إِلَيْهِ فيما يَأْتِي مِن كَلاَمه: «لاَ تَخلُو ٱلأَرْض مِن قَائِمٍ بِحُجّة، إمّا ظَاهِراً مَشهُوراً، وإمّا خَائِفاً مَغمُوراً»[1].

(رُسُلٌ لاٰ تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ). أي أنّ عَدد الرُّسل، وإنْ كَان قَلِيلاً فإنّهم قَاموا بمُهمة التّبليغ عَلَىٰ وَجْهها، والْعِبْرَة بالكَيْفِيّة، لاَ بِالكَمِية. وهُناك بَعْض الرِّوَايَات فِي عَدد ٱلأَنْبِيَاء، ولكنْ لاَ نَعرف مكَانها مِن الصّحة، بَل لا تَهمنا مَعْرِفَتها مَا دَام ٱلْقُرْآن أَهمل الإِشَارَة إِلَىٰ العَدد: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ﴾[2]. وإذَنْ فعَلاَمَ الفُضُول؟ (وَ لاٰ كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ). لاَقىٰ ٱلأَنْبِيَاء الكَثِير مِن المُترفِين الطُّغاة، وما أَكْثَرهم فِي كُل عَصر!.. ولكنَّ ٱلأَنْبِيَاء صَبرُوا صَبر الأحرَار فِي سَبِيل

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٣٧/٤، خطب أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين، ٱلْحِكْمَة (١٤٧)، شَرْح نَهْج ٱلبَلاَغَة لِمُحَمّد عَبْدَه: ١٨٦/٣، شَرْح نَهْج ٱلبَلاَغَة لابن أَبي ٱلْحَدِيد: ٣٤٦/١٨، عيون الحكم والمواعظ: ٥٤١، شَرْح نَهْج ٱلبَلاَغَة لابْن مِيثَم البحراني: ٣٢١/٥.

(٢) ٱلنِّسَاء: ١٦٤.

التّبليغ، والقيام بوَاجبه، وَمِن أَقْوَال الإِمَام: «لاَ يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَلاَ تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً»[١].

(مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ). أي أنّ الله سُبْحَانَهُ أخبَر، وسمّىٰ لِلنَّبي السّابق الّذي ذَهب بِذهَاب زمَانه، سمّىٰ لهُ النّبِيّ الّذي يَأْتِي بَعده (أَوْ غَابِرٍ). البَاقي المُوجُود بالفِعْل، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[٢] أي مِن الّذين بقوا فِي دِيارهم فَهلكُوا (عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ). بشّرَ السّابق بِهِ، كمَا بشّرَ عِيسَىٰ عليه السلام بمُحَمَّد صلى الله عليه وآله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[٣].

(عَلَىٰ ذَٰلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ، وَ مَضَتِ الدُّهُورُ، وَ سَلَفَتِ الآبَاءُ، وَ خَلَفَتِ الأَبْنَاءُ).

ذَلِكَ إشَارة إِلَىٰ ما تَقَدَّم مِن قَوْله: ((وَ لَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ أَوْ حُجَّةٍ لاَزِمَةٍ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ إلخ). وفِي هَذَا الْمَعْنَىٰ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[٤].

مُحَمَّد صلى الله عليه وآله فِقْرَة ٢٥ ـ ٢٧:

(إِلَىٰ أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله لإِنْجَازِ عِدَتِهِ، وَ إِتْمَامِ نُبُوَّتِهِ. مَأْخُوذاً عَلَىٰ النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ، كَرِيماً مِيلاَدُهُ[٢٥]. وَ أَهْلُ الأَرْضِ

(١) أُنظر، خطب الإمَام عليّ: ٣/٦٢، كتاب (٣٦)، مِن كتاب له إِلَىٰ أخيه عَقِيل.

(٢) ٱلأَعْرَاف: ٨٣.

(٣) الصّف: ٦.

(٤) ٱلإِسْرَاء: ٧٧.

يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَ أَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَ طَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ للهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلاَلَةِ، وَ أَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ(٢٦). ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ لِقَاءَهُ، وَ رَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، وَ أَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا، وَ رَغِبَ بِهِ عَنْ مَقَامِ الْبَلْوَىٰ، فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً ﷺ، وَ خَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ الأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا، إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً، بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ، وَ لاَ عَلَمٍ قَائِمٍ(٢٧)).

اللُّغَة:

عِدَتِهِ: وَعده. مِيثَاقُهُ: عَهْده. سِمَاتُهُ: علاَمَاته، وَصِفَاته. والمِلَل: الأَدْيَان. وَ طَوَارِقُ وَطَارِقات: جَمع طَارِقة، وتُطلق عَلَىٰ العَشيرة. ومُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ: حَاد بِهِ عَن مَعْنَاه الحَقِيقِي. وَهَمَلاً: سُدىً.

الإِعْرَاب:

الْمَصْدَر مِن أَنْ بَعَثَ مُتَعَلِّق بِنَسَلَتِ أو بِمَضَت، ولِإِنْجَازِ مُتَعَلِّق ببَعَثَ. ومَأْخُوذاً ومَشْهُورَةً، وكَرِيماً حَال مِن مُحَمَّدٍ ﷺ. ومِيثَاقُهُ نَائب عَن الفَاعل لـ «مَأْخُوذاً». ومِلَلٌ عَلَىٰ حَذف المُضَاف إِلَيْهِ أي ذو مِلَل، وَمِثله أَهْوَاءٌ، وَطَرَائِقُ. وبَيْنَ ظَرف مُتَعَلِّق بمُتَشَتِّتَةٌ. وكَرِيماً حَال مِن الهَاء فِي «قَبَضَه». وَهَمَلاً مَفْعُول مُطلق أي تَركا هَمَلاً.

الْمَعْنَىٰ:

(إِلَىٰ أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً رَسُولَ اللهِ ﷺ لِإِنْجَازِ عِدَتِهِ، وَ إِتْمَامِ نُبُوَّتِهِ).

الضَّمير فِي عِدَتِهِ، ونُبُوَّتِهِ يَعود إِلَىٰ اللهُ سُبْحَانَهُ، والْمَعْنَىٰ إِنّه تَعالَىٰ كانَ قَد وَعد، وأَنبأ ـعَلَىٰ لِسَان أَنْبِيَائه السّابقين ـ أنْ يَبعث مُحَمَّداً ﷺ، وَقَد بَعَثه إنجازاً لَوعده، وإتمَاماً لما أنْبأ بِهِ. قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «إِنَّ الله أَنْبأ مُحَمَّد، فهَذا الخَبَر الْغَيْبي قَبل حصُوله يُسمىٰ نبُوءة، ولمَّا كَانَ الله هُو المُخبر أُضِيفت النّبوءَة إِلَيْهِ»[1].

(مَأْخُوذاً عَلَىٰ النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ). ضَمِير مِيثَاقُهُ يَعُود أيضاً إِلَىٰ الله، لأَنّه هُو الَّذي أخَذ العَهد عَلَىٰ أَنْبِيَائه أنْ يُؤمنوا بمُحَمَّد، وَيأمرُوا النَّاس بِالتّبشِير بِهِ، واَتبَاعه عِند إدرَاكه، ولَيْسَ مِن شَكٍّ أَنّ ذِكر مُحَمَّد كَانَ يَملأ جو ٱلأَنْبِيَاء السّابقِين كمَا يُومىء إِلَيْهِ قَولهم «أَقْرَرْنا» الَّذي جَاء فِي الآيَة: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[2].

(مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ) وصِفَاتُهُ فِي الدُّنْيا كلّها وإِلَىٰ الأَبد، لا فِي الكُتب السّماوية فَقط كمَا قَالَ الشّارحُون (كَرِيماً مِيلادُهُ) لأنّه كَانَ خَيراً عَلَىٰ ٱلإِنْسَانية جمْعَاء، وإيذَاناً بتَحولها الخَطِير مِن الظُّلمات إِلَىٰ ٱلنُّورِ، وَليست الْكَرَامَة فِي نَسبه فَقط كمَا شَرح الشّارحُون.

(وَ أَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَ أَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَ طَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ. بَيْنَ مُشَبِّهٍ للهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ. فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلاَلَةِ، وَ أَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ). كَانَ النَّاس عُند بِعثَة مُحَمَّد ﷺ عَلَىٰ أديَان شَتَّىٰ،

(١) أنظر، شَرْح نَهْج ٱلبَلاغَة للأُستاذ مُحَمَّد عَبْدَه: ١/ ٢٤.

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ٨١.

وَمذَاهب مُتعددة، وَتَقاليد مُختلفة، فجَاءهم النَّبيّ ﷺ برسَالة إلهية إنْسَانية عَامَّة لا تختَص بأُمّة دُونَ أُمّة، ولاَ بِشَعب دُونَ شَعب... وَيَلمح المُتأمل هَـذَا الشّـمول فِي جَمِيع أعاليم ٱلإسْلاَم، ومَبادئه. فٱلْقُرآن ٱلْكَرِيم، والسُّنَّة النَّـبَوِيَّة يَـتضمنَان مِـن القوَاعد الكُلية، والأحكَام الجُزئية ما يُرشد النَّاس إلىٰ جَمِيع المصَالح الَّتي يَجْهلُون، وَيَضع دَائِماً وفِي كلّ وَقت الحلُول الأَسَاسِّية لمشَاكل ٱلانْسَان، وضرُورَاته: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[1]. أي أنّ الله سُبْحَانَهُ أودَع فِي ٱلْـقُرآن كـلّ شيء يُلائم طَبِعَتَه فِي إرشَاد الخَلق لمصَالحهم الْفَرْدية، والاجْتمَاعِية.

وَقَرأت: قَالَ برنَاردشو الفَيْلَفُوس العَالمي: «أنّ دِين مُحَمَّد هُو الدِّيـن الوَحِـيد الَّذي يلُوح لِي أنّه حَائز عَلىٰ أهلِية الهَضم لأطوَار ٱلْحيَاة المُختلفة بحَيث يَسْتَطِيع أنْ يَكُون جَاذباً لكلّ جِيل... أنّ مُحَمَّداً يَجب أنْ يُدْعىٰ مُنقذ ٱلانْسَانية، وأعتَقد أنّه لو تَوَلَّىٰ رَجل مِثله زعَامة العَالم الْحَدِيث لنَجح فِي حَل مشَاكله بطرِيقة تَجلب إلىٰ العَالم السَّعَادَة، والسَّلاَم، أنّ مُحَمَّداً أكمَل البَشر مِن السّابقِين، والْحَاضِرين، وَلاَ يَتصور وجُود مِثله فِي الآتِين»[2].

(ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّد ﷺ لِقَاءَهُ، وَ رَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ). أَبَداً لا مَهرب مِـن ٱلْمَوْت لكبِير، أو صَغِير، ولاَ لِنَبيٍّ، أو شَقي، فَهُوَ الطّالب الحَثِيث الّـذي لاَ يَـفوته المُقيم، وَلاَ يُعجزه الهَارب، والسّعيد من سَارع إلىٰ الْخَيْرات.

(وَ خَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ الْأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا). بل خَلَّف مُحَـمَّد ﷺ مـا لَم يَخـلِفه ٱلأَنْبِيَاء مُجْتَمِعين، وكَفَىٰ شَاهداً عَلىٰ ذَلِكَ ٱلْقُرآن، وشريـعته مُـعْجِزَة المـعَاجز فِي التّشرِيع، وَمِن أَجل هَذَا كَانَتْ رِسَالة مُحَمَّد خَاتمة الرِّسَالاَت، والشّرائع السّماوِية،

---

(١) ٱلنَّحْلِ: ٨٩.

(٢) أُنظر، جريدة الجمهورية المِصْرية عدد ١٤ مايو «أيار» سَنَة ١٩٧٠م. (مِنْهُ ﷺ).

وكَان هُو خَاتم الرُّسل ، والنَّبيِّين ، وأيضاً مِن أَجل هَذَا أثنَىٰ عَلَيْهِ تَعَالَىٰ بِمَا لَمْ يُثنِ عَلَىٰ نَبيٍّ سوَاه (إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً . بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ ، وَ لاَ عَلَمٍ ـ بفَتح الْعَيْن واللاَّم ـ قَائِمٍ) . لأنّ النَّبيّ إِذَا أَهمل أُمّته مِن بَعده يَكُون خَائناً لهَا ، ونَاكثاً بِعَهد الله ، وَمِيثَاقه .

وَغريبة الغرَائب أَنْ يَقول مُسْلِم عَن نَبيِّه : أنّه مَات بلا وَصِيَّة ! .. ولمَاذا لَم يوصِ مُحَمَّد ؟ ألأنّ الْوَصِيَّة مِن الْمُحرَّمات ، وهُو القَائِل : مَن مَات بلاَ وَصيَّة مَات يَهوديّاً ، أَو نصْرَانِياً[١] ، أو لأنّه ﷺ لا يَهتم بأُمور ٱلْمُسْلِمِين ، وهُو القَائِل : «مَن أَصْبَحَ لاَ يَهتم بأُمور ٱلْمُسْلِمِين فلَيْسَ مِنْهُم »[٢] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي وَصف نَبيِّه ٱلْكَرِيم : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٣] .
فَهل تَرك النَّبِيّ ﷺ الْوَصِيَّة حِرصاً عَلَىٰ مصلَحة ٱلْمُسْلِمِين ، أو عَلَىٰ مرضَاة الله ؟[٤] .

ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم فِقْرَة ٢٨ ـ ٢٩:

(كِتَابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ مُبَيِّناً حَلاَلَهُ ، وَ حَرَامَهُ ، وَ فَرَائِضَهُ ، وَ فَضَائِلَهُ ، وَ نَاسِخَهُ ، وَ

(١) أُنظر ، مُسْنَد أحمد : ٩٦/٤ و : ٢٢/٦ ح ١٨٧٦ ، ط آخر ، الْمُعْجَم الْكَبِير : ١٩/ ٣٨٨ ح ٩١٠ ، مُسْنَد الطَّيَالسِي : ٢٥٩ ، تَفْسِير العياشيّ : ٣٠٣/٢ ح ١١٩ ، الإختصاص : ٢٦٨ ، سُنَن البَيْهَقِيّ : ١٥٦/٨ و ٢٧٠ ح ١٦٦١٢ ، صَحِيح مُسْلِم : ١٤٧٨/٣ ح ٥٨ ، الْمُعْجَم الْكَبِير : ٣٣٤/١٩ ح ٧٦٠٩.

(٢) أُنظر ، شَرْح أُصول الكَافِي : ٢٩/٩ ، وَسَائِل الشّيعة : ٣٣٦/١٦ ، تَارِيخ دِمَشْق : ٢٠٧/٢١.

(٣) ٱلتَّوْبَة : ١٢٨.

(٤) لاَ أَدري كَيْفَ يحق لأَبِي بَكْر أَنْ يكتب وَصِيته وهُو فِي حَال سكرَات ٱلْمَوْت كما تدعون ويُؤْخَذ بها وَلاَ يَحق لنبي الله ﷺ ورَسُول ٱلإِنْسَانية وصَاحب التّشريع أَنْ يوصي ؟ فإنْ قُلتم بأنّه كَانَ يخشَىٰ عَلَىٰ أُمّة مُحَمَّد ﷺ أَنْ تبقىٰ بدون راعٍ ، فكَيْفَ برسول الله ﷺ أَنْ لا يَخْشَىٰ عَلَىٰ أُمّته وهُو الّذي وصف بالرَّحْمَة ، والعَطف كما قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ ؟ ٱلأَنْبِيَاء : ١٠٧ ، وهل أَبو بَكْر أَو السَّيِّدة عَائِشَة أَو عُمَر بن الخَطَّاب أَكْثَر رَحْمَة وَعَطفاً وَحَناناً عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِنِين مِن رَسُول البَشرية مُحَمَّد ﷺ ـ والعِيَاذ بالله مِن ذَلِكَ القَوْل ؟

مَنْسُوخَهُ، وَ رُخَصَهُ، وَ عَزَائِمَهُ، وَ خَاصَّهُ، وَ عَامَّهُ، وَ عِبَرَهُ، وَ أَمْثَالَهُ، وَ مُرْسَلَهُ، وَ مَحْدُودَهُ، وَ مُحْكَمَهُ، وَ مُتَشَابِهَهُ مُفَسِّراً مُجْمَلَهُ، وَ مُبَيِّناً غَوَامِضَهُ[٢٨]، بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِهِ، وَ مُوَسَّعٍ عَلَىٰ الْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ، وَ بَيْنَ مُثْبَتٍ فِي الْكِتَابِ فَرْضُهُ، وَ مَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُهُ، وَ وَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ، وَ مُرَخَّصٍ فِي الْكِتَابِ تَرْكُهُ، وَ بَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِهِ، وَ زَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ، وَ مُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِهِ، مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ، أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ، وَ بَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ، مُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ[٢٩]).

اللُّغَة:

الفَرَائِضُ: جَمع فَرِيضَة، وَهِي ما يَجب فِعله، وَلاَ يَجُوز تَركه. والنَّسخُ: الإِزَالة. وَالرُّخصَةُ: اليُسر. والعَزِيمَةُ هنا: الْفَرِيضِة. والمُرْسَلُ: المُطلَقُ. والمَحْدُود: المُقيد. والْمُحْكَم: الوَاضح. والمُتَشَابَه: المُشكل، والغَامض. والسُّنَّة لُغة: الطَّرِيقة، وَشَرعاً: قَول ٱلْمَعْصُوم، أو فِعله، أو تَقرِيره.

الإِعْرَاب:

كِتَابَ مَفْعُول مَحْذُوف دَل عَلَيْهِ قَوْله: (وَ خَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ الأَنْبِيَاءُ)، كأَنّ سَائلاً **يَسْأَل:** ماذَا خَلف رَسُول الله ﷺ؟.

الجَوَاب:

كِتَابَ رَبِّكُمْ. ومُبَيِّناً حَال مِن الكِتَابِ. وبَيْنَ ظَرف مُتَعَلاِّق بِمَحْذُوف حَالاً مِن ٱلْكِتَاب أي دَائراً بَيْنَ كَذا وكَذا. وَمُبَايَنٌ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هُو مُبَايَنٌ.

الْمَعْنَىٰ:

أَحْكَام الشَّرِيعَة الإِسْلاَمِيّة عَلَىٰ نَوْعَين: اَعتقَادِية، ومَوْضُوعَها اَلْقَلْب، وَعَملية، ومَوْضُوعَها فِعل اَلإِنْسَان الصّادر عَنْه بإرَادته، واَختِيارِه، وَهَدفها ـ عَلَىٰ الإِجْمَال ـ إِصلاح الْفَرْد، والمُجْتَمع، وَمَصْدَرها الوَحي، واَلْعَقْل... واَلْقُرْآن وَحي مِن السَّمَاء، وَمِثله سُنة الرَّسُول لقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1]. وَقَد صَنَّف الإِمَام عليه السلام الكَثِير مِمَّا جَاء فِي كتَاب الله، ومِنْهَا الأحْكَام العَلمِية، وفِيما يَلي الْبَيَان:

١ ـ (مُبَيِّناً حَلاَلَهُ، وَ حَرَامَهُ). واَلْحَرَام كالظُّلم، والزّنا، والحَلال كالزِّينَة، والطَّيِّبَات، وكلّ ما فِيهِ خَير، وصَلاح فَهُوَ حَلال، وكلّ ما فِيهِ شرّ، وفسَاد فَهُوَ حرَام.

٢ ـ (وَ فَرَائِضَهُ، وَ فَضَائِلَهُ). الْفَرَائِض الوَاجبَات كالصَوْم، والصَّلاة، والفَضَائِل المُسْتَحبَات كالْبِرِّ، والإِحْسَان.

٣ ـ (وَ نَاسِخَهُ، وَ مَنْسُوخَهُ). النّسخ فِي الأَحْكَام الشَّرْعِيَّة هُو عَن إنشَاء الْحُكْم بِصِيغَة الدّوام، والإِستمرَار، وبَعد اَلْعَمَل بِهِ بَعْض الحِينَ يَصدر حُكم آخر عَلَىٰ عَكسه، والأَوّل يُسمىٰ مَنْسُوخاً، والثَّانِي نَاسِخاً، وَهَذَا صُوري لا وَاقعي، لأَنّ الْحُكْم الأَوّل دَائم، ومُستمر فِي ظَاهره، ومَحْدُود بأَمَد مُعين فِي وَاقِعه، ولكن اَلْحِكْمَة الاِلهية اَستدَعت إظهَاره بمَظهر الدّوام، والإِستمرَار، تَمَاماً كما لو رَأَىٰ الطَّبِيب أنّ مِن مَصلحة المَرِيض الإِمتنَاع عَن أَكل اللَّحم اَسبُوعاً وَاحداً، وأيضاً رَأَىٰ مِن

---

(١) الحَشر: ٧.

مَصلحته أنْ لا يُعلمَه بِتَحدِيد الوَقت ، فَنهَاه عَن اللَّحم مِن غَير قَيد عَلىٰ هَذَا الأَسَاس ، وبَعد مُضي الأُسبُوع أُذِن له أنْ يَأْكُل اللَّحم ... وعَلَيْهِ يَنحصر مَعْنَىٰ النَّسخ فِي محو ما ظَهر مِن إرَادَة الدّوام ، لا محو الإرَادَة الوَاقعِية الَّذي يَستَلزم البدَاء ، والْجَهْل .

٤ ـ (وَ رُخَصَهُ ، وَ عَزَائِمَهُ) . الرُّخْصَة لُغة اليُسر ، والتّخفِيف ، وشَرعاً الإذن للمُكلف بِفعل ما كَان ممنوعاً عَنْه ، الإذن لهُ بِذلِكَ لسَبب مُوجب كالإذن للمُضطر بالأَكل مِن ٱلْمَيْتَة : ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] . أَمَّا المُباح فِي الأَصل فلا يُسمىٰ رُخْصَة . والعَزِيمة لُغة القَصد المُؤكد ، وَشَرعاً الإلزَام بإيجَابٍ مِن الله سُبْحَانَهُ .

٥ ـ (وَ خَاصَّهُ ، وَ عَامَّهُ) . العَام يَشمل أفرَاد المَوْضُوع بكَاملها مِثل : ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[2] . والخَاص لاَ يَشمل إلّا بَعْض الأفرَاد مِثل : ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[3] .

٦ ـ (وَ عِبَرَهُ ، وَ أَمْثَالَهُ) . والمُرَاد بعِبَر ٱلْقُرْآن الآيَات الَّتي أخْبَرت عمَّا أَصَابَ أَهْل ٱلْفَسَاد ، والضّلال ، وَحَذرَت مِن بَأس الله ، وعذَابه . والأَمْثَال ما يُضرب لِلتَّقرِيب إلَىٰ الأَذْهَان كقَوْله تَعَالَىٰ : ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ﴾[4] . أو لِلتَّرغِيب : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ

(١) ٱلبَقَرَة : ١٧٣ .
(٢) ٱلطُّور : ٢١ .
(٣) آلِ عِمْرَان : ٥٠ .
(٤) ٱلنُّور : ٣٥ .

أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾[١]. أو لِلعِبرة، والعِظَة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾[٢]. وغَيْر ذَلِكَ.

٧ ـ (وَ مُرْسَلَهُ، وَ مَحْدُودَهُ). المُرسل غَيْر القيد مِثل: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[٣]. والمَحْدُود المُقيد مِثل: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[٤].

وَتجدُر الإِشَارَة إِلَىٰ أنّ النّاسخ، والمَنسُوخ، والعَام، والخَاص، والمُطلق، والمُقيد، والمُجمَل، والمُبين، كلّ ذَلِكَ يَدخل فِي مبَاحث عِلم أُصول الفِقْه، ومَا كَانَ هَٰذا أبوَابه، ومبَاحثه.

٨ ـ (وَ مُحْكَمَهُ، وَ مُتَشَابِهَهُ مُفَسِّراً مُجْمَلَهُ، وَ مُبَيِّناً غَوَامِضَهُ). فِي ٱلْقُرْآن آيَات واضِحة الدَّلاَلَة مِثل: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٥] وتُسمىٰ مُحْكَمَة، ومِنْهَا مَا يَحتَاج إِلَىٰ بيَان مِن أَهْل العِلم مِثل: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[٦] وَيُسمىٰ مُتشابِهاً. والنَّبِيّ، وأَهْل بَيْتِه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هُم المَرْجِع فِي تَفْسِيره، وبَيَانه، وأَهْل ٱلْبَيْت أدْرَىٰ بِالذَّي فِيهِ.

٩ ـ (بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِهِ، وَ مُوَسَّعٍ عَلَى ٱلْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ). أشرنا قبل قَلِيل إِلَىٰ أنّ أَحْكَام ٱلإِسْلاَم مِنْهَا ٱعتقَادِية، ومِنْهَا عِلمِية، ولاَ عُذر لِمَن يَجهل الأُصُول الأُولَىٰ مِن الأَحْكَام الإعتقَادِية، وَلاَ يُؤْمِن بِها كالإِيمَان بالله، وَرَسُوله، والْيَوْم الآخر، ويَعذر فِي أشيَاء أُخر كَالعِلم بأنّ صِفَات الله عَينُ ذَاته، أو غَيْرها، وتَكَلَّمنا

---

(١) ٱلْبَقَرَة: ٢٦١.

(٢) إِبْرَاهِيم: ٢٨ ـ ٢٩.

(٣) ٱلْمَائِدَة: ٨٩.

(٤) ٱلنِّسَاء: ٩٢.

(٥) ٱلنُّور: ٣١.

(٦) ٱلأَعْرَاف: ٥٤.

عَن ذَلِكَ مُفصلاً فِي كتَاب «فَلْسَفَة التَّوْحِيد والْـوِلاَيَة» بـعنوَان «مَـا يجب وَمَـا لاَ يَجب». أَمَّا الأَحْكَام ٱلْعَمَلية فيجب عَلَىٰ المُكلف أنْ يَعْرِف حُكم كلّ فِعل يُمارسه وَيَصدر عَنْه، عِبَادَةً كَان أو غَيْرها حَتَّىٰ المأكول، والمشرُوب.

١٠ ـ (وَ بَيْنَ مُثْبَتٍ فِي الْكِتَابِ فَرْضُهُ وَ مَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُهُ). ٱتفقُوا عَلَىٰ أنّ ٱلْكِتَاب يُنسخ بالسُّنة المتوَاتِرة، وٱختلفُوا فِي نَسخه بالخَبَر الوَاحد، فذَهب الأَكثَر إِلَىٰ عَدم الجوَاز، بل نُقل عَلَيْهِ الإجْمَاع... وفِي رَأينا أنّ الأَحْكَـام الثَّـابتة بـظَاهر ٱلقُرْآن يَجوز نَسخها بالخَبَر الوَاحد، لأنّ السُّنَّة بَيَان، وتَفسِير لكتَاب الله، ولاَ فَرق أَبَداً بَيْنَ الآيَة ٱلْقُرْآنية، وبَيْنَ الخَبَر الوَاحد مِن الوِجهة العِلمِية، ووجُـوب التَّـدين أيضاً فِيما يَعود إِلَىٰ الأَحْكَام الفرعِية بخَاصَّة إِذَا كَان الدَّلِيل عَلَىٰ حُجَّة الخَبَر الوَاحد السُّنَّة المُتوَاتِرة[١].

١١ ـ (وَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ، وَ مُرَخَّصٍ فِي الْكِتَابِ تَرْكُهُ). كَما يُنسخ ٱلْكِتَاب بِالسُّنة كَذَلِكَ تُنسخ السُّنَّة بِٱلْكِتَاب، والمُـرَاد بـالسُّنة قَـول ٱلْمَـعْصُوم، أو فِـعله أوتَقرِيره، وقَد ثَبت بالْيَقِين أنّ النَّبِيّ ﷺ كَـانَ يُـصلّي أَوّل الأَمْـر لجِـهة المَسْجِدِ الأَقْـصىٰ، فـحوَله ٱلـقُرْآن إِلَىٰ المَسْـجِدِ ٱلحَـرَام: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٢].

---

(١) أُنظر، عدة الأُصُول: ٤٦/٢ (فصل فِي ذكر نسخ ٱلْقُرْآن بالسنة وٱلسُّنَّة بِٱلْقُرْآن)، طَبْعَة بمبئي، بدائع الصَّنائع لأَبِي بَكْر الكاشاني: ٧/١، أوائل المقالات للشيخ المفيد: ١٢٣، عون المعبود: ٦٠/١٢، أَحْكَام ٱلْقُرْآن للجصاص: ٧٠/١، نواسخ ٱلْقُرْآن لِابْن الجوزي: ٢٥، الْفُصُول فِي الأُصُول للجصاص: ٢٤١/٢، الاحكام لِابْن حزم: ٤٧٧/٤.

(٢) ٱلْبَقَرَة: ١٤٤.

١٢ ـ (وَ بَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِهِ، وَ زَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ). يَنقَسم الوَاجب بالنَّظر إِلَىٰ الوَقت إِلَىٰ مُضيّق، ومُوسع، والمُضيق هُو الَّذي يَجب فِي وَقتٍ مُعين، ويَذْهَبُ بذهَابه، وَلاَ يَجب قضَاؤه إلّا بدَليل، كصَوْم شَهر رَمضان... يَجب فِي هَذَا الشّهر دُونَ غَيْره، والمُوسع لا يَختَص بوقت كصَلاَة الآيَات ـ ما عَدا الكسُوفِين ـ حَيْث تَجب المُبادرة إِلَيْهَا عِند حدُوثها، ومَن أخّر يَأْتِي بِها أدَاءً مُدَّة حيَاته، وَقد يكُون الوَاجب الوَاحد مُوسعاً مِن جِهة ثَانِيَة، كصَلاَة الظُّهْر، فَإِنَّهَا مُوسعة بالنِّسبة إِلَىٰ مَجمُوع الوَقت، وَمُضيقَة بالنِّسبة إِلَىٰ آخره، ولَم يُشر الإِمَام إِلَىٰ المُوسَّع[1].

١٣ ـ (وَ مُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِهِ مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ، أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ). يُشِير إِلَىٰ أنّ الذّنوب مِنْهَا كبَار، ومِنْهَا صِغار كمَا جَاء فِي الْكِتَاب العَزِيز: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[2]. واللَّمَمَ الصّغَائِر، ويُومىء قَول الإِمَام إِلَىٰ تَحدِيد الذّنب الْكَبِير بأنّه الَّذي توعدّ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وهَدد أصْحَابه بِالنَّار، وما عدَاه فصَغِير، وقَد أعدّ الله له الغُفرَان، وفِي هَذَا الْمَعْنَىٰ روَايات عَن أَهْل الْبَيْت عليهم السلام[3]. وَقَالَ صَاحب الجوَاهر:

(لاَ شَك أنّ الصّغَائِر لاَ يَنفك مِنْهَا الإِنْسَان... وإنَّ فِعل الطَّاعَات، واجتنَاب

---

(١) أُنظر بَحث الوَاجب المُوسّع والمُضّيق فِي الكُتب الفقهية والأُصُولية، فعلىٰ سَبِيل المثال، السَّرَائِر: ٢٧٣/١، جواهر الكَلاَم: ٣٣٥/١٧، المُسْتصفىٰ لِلغَزَّالِي: ٥٥، قَوَانِين الأُصُول: ١١٨، المحصول للرازي: ١١٦/١، مُنْتهىٰ المطلب: ٤٩ و١٠٧، الأَحْكَام للآمدي: ١٠٨/١.

(٢) النّجم: ٣٢.

(٣) أُنظر، مستند الشيعة: ١٢٢/١٨، المسالك للحلبي: ٤٠٢/٢، العدة للشيخ: ٣٥٩/١، تفسير الميزان: ٣٢٩/٤، مِنْهَاج الفقاهة: ١٠/٢، مصباح الفقاهة: ٣٢٠/١.

الكبَائر تكفِير لإرتكَاب الصّغائِر)[١]... وإذَنْ فَلا حَاجَة إلىٰ ٱلتَّوْبَة مِنْهَا... نَعم لاَ يَنْبَغِي تَرك العَزم عَلَىٰ الإِصْرَار، لحَـدِيث: «لاَ صَغِيرَة مَع إصرَار، ولاَ كَـبِيرة مَـع إسْتِغْفَار»[٢]. وَهَذَا الْخَبَر يُشعر بأنّه لا حَاجَة للصَّغِيرة إلىٰ الإِسْـتِغْفَار مَـع عَـدم الإِصْرَار.

١٤ ـ (وَ بَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ مُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ). مِثل قَوْله تَعَالىٰ: ﴿فَكَـفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَـرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَـطِ مَـا تُـطْعِمُونَ أَهْـلِيكُمْ أَوْ كِسْـوَتُهُمْ أَوْ تَـحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[٣]. فأدْنىٰ أفرَاد هَذِه الكُفَّارة الإِطعَام، وأقصَاها تَحرِير الرّقَبة، ولَيْسَ مِـن شَكٍّ أنّ فِي قَبُول الأَدْنىٰ تَوسعة عَلَىٰ الْعِباد.

ٱلْحَـجِّ فِقْرَة ٣٠ ـ ٣١:

(وَ فَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنَامِ، يَرِدُونَهُ وُرُودَ الْأَنْعَامِ، وَ يَأْلَهُونَ إِلَيْهِ وُلُوهَ الْحَمَامِ، وَ جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلاٰمَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ، وَ إِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ[٣٠]، وَ ٱخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ، وَ صَدَّقُوا كَلِمَتَهُ، وَ وَقَـفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ، وَ تَشَبَّهُوا بِمَلَائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ. يُحْرِزُونَ الْأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ، وَ يَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ، جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ لِـلْإِسْلاٰمِ عَلَماً، وَ لِلْعَائِذِينَ حَرَماً، فَرَضَ حَقَّهُ، وَ أَوْجَبَ حَجَّهُ، وَ كَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ

---

(١) أُنظر، جواهر الكَلاَم: ٤١/٢٩.

(٢) أُنظر، مسالك الأَفْهَام: ١٤/١٦٨، الكَافِي: ٢/٢٨٨ ح ١، الوَسَائِل: ١١/٢٦٨ ح ٣، الجَامِع الصَّغِير للسيوطي شَرْح المَنَاوي: ٢/٣٦٥.

(٣) ٱلْمَائِدَة: ٨٩.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(٣١)[1]).

اللُّغَة:

ٱلْحَجّ لُغة: القَصد. وَشَرعاً: المَناسك المَعْرُوفَة، وجَاء فِي أَقْرَب المَوارد: (ٱلْحَجّ بِالكَسر لُغة فِي ٱلْحَجّ، وَقِيل بٱلْفَتْحِ الاِسم، وبِالكَسر المَصْدَر)[2]. ووَصَف البَيْت بٱلْحَرَام حَيْث يَجب تَقدِيسه، وَيَحرُم هَتكه، وَلِمن لاَذّ بِهِ نَوْع مِن الحصَانة. حَتّىٰ الطّير يَحرُم صِيده هُناك عَلَىٰ المُحلّ، والمُحرِوم. وُرُودَ ٱلأَنْعَامِ أي كحَال ٱلأَنْعَام تَزَاحُماً عِند ورُود المَاء. ويَأْلَهُونَ: مِن الوَله، وهُو لُغة: ٱلْحُزْن، والوَجد، والمُرَاد بِهِ هُنا الحَنِين، وَالشّوق[3]. وَيَتَبَادَرُونَ: يَتَسارعُون. وَالْعَائِذِينَ: جَمع عَائذ، وهُو المُسْتَجِير والمُلتَجيء. والوِفَادَة: الزّيَارة.

الإِعْرَاب:

الَّذِي جَعَلَهُ: صِفَة لبَيْتِه، ومَنِ ٱسْتَطَاعَ (مَنِ) بَدل بَعْض النَّاس. وَمَن كَفَرَ (مَنَ) مُبْتَدَأ، والجُملة مِن أنْ وٱسمها، وخَبَرها خَبَر.

سِرّ ٱلْحَجّ:

مَعْنَىٰ كَلاَم الإِمَام عليه السلام وَاضح، وفِي غِنىً عَن الشّرح... أَجْل، أنّ فِي ٱلْحَجّ سِرّاً

---

(١) آلِ عِمْرَانَ: ٩٧.

(٢) أنظر، أَقْرَب الموارد، مَادّة حجّ، لِسَان العَرَب: ٢/٢٢٧، مختار الصّحاح: ١/٥٢، تاج العروس: ٢/١٧، شَرْح الشّافية لإِبْن الحاجب: ٤/٢١٧، تَفْسِير المِيزَان: ٣/٣٥٥.

(٣) أنظر، لِسَان العَرَب: ١٣/٥٦٢.

عَمِيق الدَّلاَلَة، وهُو وَحده يُفسر حَقِيقَته، ويَكشف عَن كُنهه، وَقَد أشَار الإِمَام إِلَىٰ هَذَا السّرّ بكَلِمَة عَابِرة، وَهِي: (وَ يَأْلَهُونَ إِلَيْهِ وُلُوهَ الْحَمَامِ). وإِلَيْك ما ٱستوحَينَاه مِن هَذِه الإِشَارَة فِي الْبَيَان التّالي:

تَكلَّم ٱلْمُسْلِمُون عَن ٱلْحَجّ وغَيْر ٱلْمُسْلِمِين أيضاً، وأطْنَبُوا، وكَررُوا فِيما كَررُوا: «أنّ ٱلْحَجّ مُؤتمر عَالمي يَعقده ٱلْمُسْلِمُون عَلَىٰ صَعِيدٍ وَاحد، وفِيهِ يَتعَارفُون ويَتَشاورُون».

ولاَ أدرِي مَاذا أنتَج هَذَا المُؤتمر، وغَيْره مِن المُؤتمَرات الَّتِي تُعقد هُنا، وهُناك؟.

ثُمَّ أي مُسْلِم ذَهب إِلَىٰ مَكَّة الْمُكَرَّمَة، وهُو يَحمل فِي رَأْسِه فِكرة التّعارف، وَالتّشاور؟ وَإِذَا صَادف، وتَعرف عَلَىٰ وَاحد، أو ٱثْنَيْن فَلا شَيء وَرَاء هَذِه ٱلْمَعْرِفَة إلّا الرّؤية تَمَامًاً كما تَلتقِي أنْتَ، وإِنْسَان فِي السّيارة، أو المَطعم.

أنّ السّرّ فِي ٱلْحَجّ أبْعَد مِن هَذَا وأعمَق، ويَتضح مِن الجَوَاب عَلَىٰ هَذَا التّساؤل: لِمَاذا يَذْهَبُ الْمُسْلِم إِلَىٰ ٱلْحَجّ بِهَذا الوَلَه والحَنِين، ويَدفع الأَمْوَال الطّائِلة، وَيَتحمل المشَاق، والأَخْطَار عَلَىٰ الطَّرِيق، وفِي مِنىٰ، وعَرفَات، وفِي المَسعىٰ، والطّوَاف... وقَبل سَفره يَحمل أورَاقه، ويَنتَقل بِهَا مِن دَائرة إِلَىٰ دَائرة، ومِن مَكتبٍ إِلَىٰ مَكتب؟ وَهل وَضع مُحَمَّد لونَاً مِن السّحر فِي أحجَار ٱلْكَعْبَة لاَ تَعرفه السّحرة، وَوَضع فِي قَبره نَوْعاً مِن الجَاذِبية لَم يَهتد إِلَيْهِ نيُوتن، وَلاَ الْعُلَماء مِن بَعده؟.

الجَوَاب:

أنّ فِي أحجَار ٱلْكَعْبَة، وفِي قَبر مُحَمَّد سِرّاً، وأي سِرّ، سِرّاً هُو أعظَم بكثِير مِن السِّحر، والجَاذِبيه النُّيوتَنِية... إنّه الحُبّ، حُبّ الله ورَسُوله الَّذي لاَ سُلطان عَلَيْهِ

لإِنْسَان، ولاَ شَيْطَان... وإِلَىٰ هَذَا الحُبّ أَشَار الإِمَام عليه السلام وقَوْله: (وَ يَـألَهُونَ إِلَـيْهِ وُلُوهَ الْحَمَامِ). والحَمَام ـ كَمَا هُو مَعلُوم ـ رَمز الحُبّ، والسَّلاَم، وأَشد الطُّيُور وَلَهاً وَحَنِيناً... وأيضاً هَذَا الحُبّ هُو الَّذي أَرَاده إِبْرَاهِيم أَبُو ٱلْأَنْبِيَاء عليهم السلام يَوْم وَقف إِلَىٰ جوَار ٱلْكَعْبَة يَبْتَهِل إِلَىٰ الله، ويَقول: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[(١)].

قَالَ: أَفْـئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ، ولَم يَقل: جَمَاعَة مِن النَّاس لأَنّ الفُؤَاد هُو سوِيدَاء ٱلْقَلْب، وَقَالَ: تَهْوِىٓ ولم يَقل: تَأتي، لأَنّ الْهَوَىٰ أو الْهُوَىٰ يَتضمن مَعْنَىٰ الشّوق، والوَجد، والْمُحِب الْمُشتاق لا يَسأل عَن الأَسرار، ولاَ يَهتم (بِالتّشاور، والتّذَاكر)... أَبَـداً لا يَعْرِف إلاّ ٱلسَّمْع، والطَّاعَة لِمَن عَشق، وأَحبَّ، وقَدِيماً قِـيل: إِنَّ الْمُحِبّ لِمَـن يُحِبّ مُطِيعُ[(٢)].

إِنَّ الْمُسْلِم حقّاً يَحس، وهُو ذَاهب إِلَىٰ ٱلْحَجِّ، بأَنّ دَعْوَة نزلَت عَلَيْهِ مِـن السَّمَاء مُوقعَة بٱسم الله، ورَسُوله لكِي يَحضر الإِحْتفَال بمكَّـة فِي الوَقت الْمُعين، فَـيُسرع رَافعاً صَوْته: «لَبَّيْكَ ٱللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لا شَرِيك لكَ لَـبَّيْكَ، إِنَّ الْحَـمْدَ، والنِّـعْمَة لَكَ، وٱلْمُلْكِ لا شَرِيكَ لَكَ»[(٣)]... فإذَا وَاجه ٱلْكَعْبَة خَفَق قَلْبه طَرباً، وتَساقَطت دمُوع

---

(١) إِبْرَاهِيم: ٣٧.

(٢) هَذَا هُو المصرع الثَّاني مِن ٱلبَيْت الشّعري الَّذي تمثل به الإِمَام الصَّادق ٧، وقيل لعبدالله بن المبارك، وقيل: لغيرهما. أُنظر، إِرشاد الأَذْهَان: ١/ ١٩، أسمىٰ المناقب فِي تَهْذِيب أسنىٰ المطالب: ١٧٣، ٱلرِّسَالَة السّعدية: ٢٦، أمالي الصّدوق: ٥٧٨، مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٣٩٥، فيض القَدِير شَرْح الجَامِع الصَّغِير: ٢/ ٣٦ ح ١٢٤١، كَشْف الخَفَاء: ٢/ ٢٠٣ ح ٢٢٨٤، تَارِيخ دِمَشْق: ٣٢/ ٤٦٩، الشّفا بتعريف حقوق الْمُصْطَفَىٰ: ٢/ ١٠، فلاح السّائل لِإبْن طاووس: ١٥٨.

لَو كَان حبُّك صَادقاً لأَطعتَه ... إِنَّ الْمُحِبّ لِـلمُحبّ مُـطيعُ

(٣) أُنظر، عَلَىٰ سَبِيل المثال: التّذكرة: ٧/ ٢٤٩، الخِلاَف: ٢/ ٢٩٣، كتاب الأمّ للشافعي: ٢/ ١٥٥، ترتيب

الفَرح مِن عَينِيه عَلَىٰ ما وُفق إِلَيْهِ مِن الإستجَابة لخَالقه ، والوقُوف موَاقف أَنْبيَائه ، والتَّشبِيه بمَلاَئِكته الْمُصْطَفِين بِعَرشه كمّا قَالَ الْإِمَام عليه السلام .

وَالأَثَر الأَوَّل الَّذي تَترکه فِي النّفس هَذِه الفَرحة ، والغِبطة هُو الشُّعُور بالمَسْئُولية أَمَام الله سُبْحَانَهُ ربّ هَذَا ٱلْبَيْت . وَهَذَا الشُّعُور بالمَسْئُولية أمَام قُوّة قَاهرة عَالِمَة جَدِيرة بالطَّاعَة ، والْعِبَادَة هُو ٱلْحِكْمَة مِن ٱلْحَجّ ، وتَشرِيعه ، والمُبرر الوَحِيد لوصف ٱلإِنْسَان بالتّدين ، والإِيمَان عَالِماً كَان أَم جَاهلاً .

وَتَسْأَل : أنّ كَثِيراً مِن أَهْل الحَجِيج لاَ يَشعرُون بِهَذه المَسْئُولية عَلَىٰ الإِطلاَق بدَلِيل أَنّهم يَعودُونَ مِن ٱلْبَيْت ٱلْحَرَام إِلَىٰ ما كَانوا عَلَيْهِ مِن قَبل ؟ .

الجَوَاب:

أنّ الإِمَام عليه السلام تَكلَّم عَن الّذين يَشعرُون ، وَيَقصدُون بَيْت الله ٱلْحَرَام ٱستجَابَة لدَعوته ، وتوَاضعاً لِعَظَمَتِه ، وإذعَاناً لِعزَّتِهِ ، وَمَن لاَ يَشعر بشيء مِن ذَلِكَ فَلا يُعد مِن حجَّاج بَيْت الله ٱلْحَرَام ، وإِنْ قَصده فِي كلّ عَام .. وكَم مِن صَائِمٍ لَيْسَ لهُ مِن صيَامه إِلّا الجُوع ، والظّمأ ، وكَم مِن قَائِمٍ لَيْسَ لهُ مِن قِيَامه إِلّا السّهر ، والعنَاء ، كَمَا قَالَ الإِمَام عليه السلام[1] .

⟸ مُسْنَد الشّافعي : ١/ ٣٠٤، المُغْنِي : ٣/ ٢٣٨، المَبْسُوط للسَّرْخَسِي : ٤/ ٢٥، صَحِيح مُسْلِم : ٢/ ٩١٥، مَعَالِم السّنَن للخطابي : ٢/ ٣٠١.

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة لُمحَمّد عَبْدَه: ٤/ ٣٥ ٱلْحِكْمَة (١٤٥)، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لاِبْن أَبي ٱلْحَدِيد: ١٨/ ٣٤٤، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لاِبْن مِيْثَم البحراني: ٥/ ٣٢٠، عيون الحكم والوعظ : ٣٨٠.

الخطبة

- ٢ -

بَعْدَ ٱنْصِرَافه مِن صِفِّين

لاٰ يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ... فقره ١ - ٣:

(أَحْمَدُهُ ٱسْتِتْمَاماً لِنِعْمَتِهِ، وَ ٱسْتِسْلَاماً لِعِزَّتِهِ، وَ ٱسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ. وَ أَسْتَعِينُهُ فَاقَةً إِلَىٰ كِفَايَتِهِ، إِنَّهُ لاٰ يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ، وَ لاٰ يَئِلُ مَنْ عَادَاهُ، وَ لاٰ يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ؛ فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ، وَ أَفْضَلُ مَا خُزِنَ[1]. وَ أَشْهَدُ أَنْ لاٰ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاٰ شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً مُمْتَحَناً إِخْلَاصُهَا، مُعْتَقَداً مُصَاصُهَا، نَتَمَسَّكُ بِهَا أَبَداً مَا أَبْقَانَا، وَ نَدَّخِرُهَا لِأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا؛ فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ، وَ فَاتِحَةُ الْإِحْسَانِ، وَ مَرْضَاةُ الرَّحْمَنِ، وَ مَدْحَرَةُ الشَّيْطَانِ[2]. وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ. أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ، وَ الْعَلَمِ الْمَأْثُورِ، وَ الْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَ النُّورِ السَّاطِعِ، وَ الضِّيَاءِ اللَّامِعِ، وَ الْأَمْرِ الصَّادِعِ، إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ، وَ ٱحْتِجَاجاً بِالْبَيِّنَاتِ، وَ تَحْذِيراً بِالْآيَاتِ، وَ تَخْوِيفاً بِالْمَثُلَاتِ[3]).

اللُّغَة:

ٱسْتِتْمَاماً: طَلباً للتَّمام. وَ ٱسْتِسْلَاماً: ٱنْقِيَاداً. وَ ٱسْتِعْصَاماً: طَلباً لِلعِصْمَة.

وَ لاُ يَئِلُ: لا يَنجو. ومُصَاصُهَا: خُلوصها مِن كلّ شَائِبَة. وأَهَاوِيل: مخَاوف. وَالمَدْحَرَةُ: الطّرد والبُعد. والمُرَاد بِالدِّينِ المَشْهُورِ الدِّين الظَّاهِر، وقِيل: التّام الأرْكَان. وَالعَلَمِ بِفَتح اللاَّم ما يَهْتَدِي بِهِ. المُرَاد بالمَأْثُورِ: المُخْتَار، وقِيل: والمَنقُول عَنْه، وهُو بَعِيد عَن الفَهم. وَالأَمْرِ الصَّادِعِ: الأَمْر الكَاشف عَن الحَقّ.

وَالمَثُلَاتِ: الأفَات، والنّكبَات.

الإِعْرَاب:

ٱسْتِتْمَاماً وَمَا بَعدها مَفْعُول مِن أَجله. وأَنْ لاُ إِلَهَ اِلاَّ اللّهُ (أَنْ) مُخففة، وٱسمها مَحْذُوف أي أنّه، وَجُملة ما بَعدها خَبَر، و(لاُ) نَافِية للجِنس، وإِلَه ٱسمها، والخَبَر مَحْذُوف ولفظ الجَلالة بَدل مِنْهُ أي موجُود إلّا الله. ومُمْتَحَناً حَال، إِخْلاَصُه فَاعِل له، ومِثله (مُعْتَقَداً مُصَاصُهَا). وأَبَداً يُؤكد بِهِ الزّمَان المُقبل نَفياً، وإِثبَاتاً، تَقول: لا أفْعَل أَبَداً، وَقَط البَتة لتأكِيد الزّمان المَاضي. وإِزَاحَةً ومَا بَعدها مَفْعُول لأَجْله.

المَعْنَىٰ:

(أَحْمَدُهُ ٱسْتِتْمَاماً لِنِعْمَتِهِ، وَ ٱسْتِسْلَاماً لِعِزَّتِهِ، وَ اسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ). يَحمد الله، ويَشكره لأُمور، مِنْهَا أنْ يَتم عَلَيْهِ نِعْمته بِالصَّبر، وغَيْره مِن النِّعَم بَعد أنْ أَنْعَم عَلَيْهِ بِالهدَاية إِلَىٰ الإِيمَان، ومِنْهَا أنّ فِي الحَمْدِ، والشُّكْر طَاعَة لله، ومُجَانَبَة لمَعْصِيَته، ومَعْنَىٰ ٱلعِزَّة: القُدْرَة، والغَلَبَةُ، عَبّر الإِمَام بِها عَن الذَّات القُدسِية للإِيمَاء إِلَىٰ أنّ

القَادر الغَالب حقّاً، ووَاقعاً هُو الله وَحده... ومِن أَقْوَاله: «مَا ظَفر مِن ظَفر الإِثْم بِهِ، والغَالب بالشَّرّ مَغْلُوب»[١]، وكأنَّه يُشِير إِلَىٰ أنّ مُعَاوِيَة مَا نَجَا مِن حَرْب صِفِّين إلّا بِالإِثْمِ، وٱلمَعْصِيَة.

(أَسْتَعِينُهُ فَاقَةً إِلَىٰ كِفَايَتِهِ). إذَا أَهَمَّك أَمر فٱسْتَعِن عَلَيْهِ بـالجِدّ، وٱلْـعَمَل مَـع التّوكل عَلَىٰ الله، لأنّ مقَالِيد الأُمُور كلّها فِي يَده، وَلاَ جَدوىٰ مِـن السّـعي إِذَا أَرَاد سُبْحَانَهُ أَنْ يَمنع عَنك ما تُرِيد، كما أنّه جَـلَّت حِـكْمَته، لا يُـعطِيك إلّا مَـع الجِـدّ، وَالسَّعي: ﴿فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[٢].

(إِنَّهُ لاٰ يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ). ولَكِنَّهُ، ﴿لَايَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[٣]. وإِنّمَا يَهدي مَن ٱتبع رِضْوَانه، وَسَبِيله القَيُّومِ (إِنَّمَا) هُنا لِلحَصر. (وَ لاٰ يَئِلُ مَنْ عَـادَاهُ). أي لاَ يَنجُو مِن عذَاب الله مَن عصَاه: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾[٤]. (وَ لاٰ يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ) أي أَغْنَاه، ومُرَاد الإِمَام عليه السلام بالْفَقْر، والْغِنَىٰ فِي الآخِرَةِ لا فِي الدُّنْيا بدَلِيل قَوْله فِي آخر النَّهج: «الْغِنَىٰ وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَىٰ اللهِ»[٥]. (فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ، وَ أَفْـضَلُ مَـا خُزِنَ).

الضَّمِير يَعُود إِلَىٰ الْحَمْدِ، وقِيل: يَعود إِلَىٰ الله مَع أَنّ (مَا) لِغَير الْعَاقِل ـ فِي الغَالب، وَمَهما يَكُنْ فإِنّ الأَمْر سَهلٌ لأَنّ الْحَمْدُ لله.

---

(١) أنظر، شَرْح نَهج ٱلبَلاَغَة: ٤/٧٨ ٱلْحِكْمَة (٣٢٧)، عيون الحكم والمواعظ: ٤٨١، غرر الحكم: ٦/٦١، شَرْح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْن أبي ٱلحَدِيد: ١٩/٢٣٩، جواهر المطالب: ٢/١٦٧.

(٢) ٱلمُلْكِ: ١٦.

(٣) غَافِرٍ: ٢٨.

(٤) ٱلزُّمَرِ: ٦١.

(٥) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٤٥٢).

كَلِمَة التَّوْحِيد:

(وَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ). لا شَيء أكمَل، وأعظَم مِن كَلِمَة الإِخْلاَص، والتَّنزيه، والتَّوْحِيد، وَهِي أَصل الأُصُول فِي عَقِيدة ٱلإِسْلاَم، وَبِهَا يَمتاز عَن جَمِيع الأَدْيَان، ولاَ يَكفي مُجرد التّدين بهَا مِن غَيْر نُطق، بل عَلَىٰ كلّ مُسْلِم أنْ يُكررها فِي اليَوْم، واللَّيْلَة مَرَّات، وهُو وَاقف بَيْنَ يَدي الله للصَلاة... هَذَا، إِلَىٰ أنّ للإِيمَان بالتَّوْحِيدِ صِلته الوَثِيقة بالأَخْلاَقِ، والتَّربِية، وتأثِيره فِي السّلوك والعَادَات، لأنّه إِيمَان بِالْحَقِّ، والْعَدْل، والمُسَاوَاة.

(شَهَادَةً مُمْتَحَناً إِخْلاَصُهَا. مُعْتَقَداً مُصَاصُهَا). أي أنّ كَلِمَة التَّوْحِيد خَرَجت مِن أعمَاق الإِمَام خَالصة لله وَحدَه إِخلاَصاً يَتفق فِيهِ السِّر مَع الإِعلاَن، والْقَلْب مَع اللِّسَانِ، ولَيْسَ مِن شَكٍّ أنّ من نَطق بكَلِمَة التَّوْحِيد، وهُو يَعتز بِغَير الله، وَيَستَعِين بِسوَاه فَهُوَ كَاذِب يُنَاقِض نَفْسه بنَفْسِهِ، وَمِن هُنا سُمِّيَت كَلِمَة التَّوْحِيد بكَلِمَة التَّقْوَىٰ؛ لِأَنَّهَا بمُوجب طَبْعَها، وَوَضعهَا تُورث التَّقْوَىٰ.

وسُمِّيَت أيضاً بكَلِمَة النَّجَاة؛ لأنّه لاَ نَجاة مِن عذَاب الله إلّا بهَا، وكَلِمَة النَّذِير؛ لِأَنَّهَا تُنذر بِفنَاء كلّ شيء إلّا وَجهه ٱلْكَرِيم، وكَلِمَة، التّوكل عَلَىٰ الله؛ لِأَنَّهَا تَنْفِي ٱلْقُوَّة عَمَّن سوَاه... وبالتّالي، فإنّ كَلِمَة التَّوْحِيد تَنزِيه للخَالق عَن الشّرِيك، وَللمَخلُوق عَن العبُودِية لِغَير الله. وَصَدق مَن قَالَ: أنّ كَلِمَة التَّوْحِيد لَيْسَت حرُوفاً، ولكنْ مَنْهَج حَيَاة، وشَرِيعَة قَلْب[1]... ومِن هُنا قَالَ رَسُول الله ﷺ: «خَير مَا جِئت بهِ أنَا، والنَّبِيُّونَ مِن قَبلي كَلِمَة لاَ إِله إلّا الله»[2].

---

(١) أنظر، تُحْفَة الأَحْوَذي للمباركفوري: ٩/١٠٧، قَرِيب مِن هَذَا.

(٢) أنظر، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة للمعتزلي: ٦/١٩٠، البحر الرّائق: ٢/٥٩٢، كتاب الموطأ: ١/٢١٥ ح ٣٢، إعانة الطّالبين: ١/١٩، فتح العزيز لعبدٱلكَرِيم الرّافعي: ٧/٣٥٩، الْمَجْمُوع: ٨/٩٤.

(فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ). أي لا إِيمَان بـدُونها (وَ فَـاتِحَةُ الْإِحْسَـانِ، وَ مَـرْضَاةُ الرَّحْمَنِ، وَ مَدْحَرَةُ الشَّيْطَان). إِنَّ الله سُبْحَانَهُ يُجزي مَن أَحْسَن بِالحُسنىٰ وزِيَادَة، ولكنْ عَلَىٰ شَرط التَّوْحِيد، وَكَلِمته، فِنْهَا تَبتدىء المُكَـفأة، أَمَّـا مَـن جَـحَد، أو أَشرَك، أو دلَّس فأجرَه عَلَىٰ الشَّيْطَان الَّذي قَالَ لِلْإِنْسَان: ﴿ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1].

(وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ). لا غِنىٰ بكَلِمَة التَّوْحِيد ـ عَلَىٰ عَظمَتِها ـ إِلّا مَع الشّهادة لُمحَمَّد بِٱلرِّسَالَة، ولاَ غِنىٰ بِهَذِه الشّهادة إِلّا مَع كَلِمَة التَّوْحِيد، وكلّ مِنْهُمَا جُزء مُتَمم للآخر! وٱلإِسْلاَم يَقوم عَلَيْهِما، وَعَلَىٰ الْإِيمَان بِالْيَوْم الآخر.

(أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ). الظَّاهِر عَلَىٰ الدِّين كلّه وَلَو كَرِه المُشركُون (وَ الْعَلَمِ الْمَأْثُورِ) مِن الإِيثَار أي المُختَار (وَ الْكِتَابِ الْمَسْطُورِ) ٱلْقُرْآن (وَ النُّورِ السَّاطِعِ، وَ الضِّيَاءِ اللَّامِعِ) مِن صِفَات ٱلْقُرْآن لأنّه أخرَج النَّاس مِن الظُّلمات إِلَىٰ ٱلنُّـورِ (وَ الْأَمْرِ الصَّادِعِ). الكَاشف عَن الحَقّ.

(إِزَاحَـةً لِـلشُّبُهَاتِ، وَ احْـتِجَاجاً بِـالْبَيِّنَاتِ، وَ تَـحْذِيراً بِـالْآيَاتِ، وَ تَـخْوِيفاً بِالْمَثُلَاتِ).

هَذِه هِي وَظِيفة المُبلغ الحَقّ، يُزِيح ٱلشُّبُهَات عَـن ٱلْـعُقُول، وٱلْـقُلُوب بِمَـنطق ٱلحِسّ، ٱلْعَقْل، وَيُحذر مِن غَضَب الله، وعذَابه، وَيُبَشر بِرضْوَانه، وثوَابه.

والمُبلغُون فِي عصرنا ـ وَيَا للأَسف ـ مِنْهُم المُتبَلّد فَهمَاً، وَفِكرَاً، ومِنْهُم كبَائِعات الْهَوَىٰ، والّذين يَسْتَمع إِلَيْهِمْ أَقَل مِن القَلِيل.

---

(١) ٱلحَشر: ١٦.

النَّاسُ فِي فِتَنٍ...فِقْرَة ٤ ـ ٥:

(وَ النَّاسُ فِي فِتَنٍ ٱنْجَذَمَ فِيْهَا حَبْلُ الدِّينِ، وَ تَزَعْزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ، وَ اخْتَلَفَ النَّجْرُ، وَ تَشَتَّتَ الْأَمْرُ، وَضَاقَ الْمَخْرَجُ، وَ عَمِيَ الْمَصْدَرُ، فَالْهُدَىٰ خَامِلٌ، وَ ٱلْعَمَىٰ شَامِلٌ. عُصِيَ الرَّحْمَنُ، وَ نُصِرَ الشَّيْطَانُ، وَ خُذِلَ الإِيمَانُ، فَـانْهَارَتْ دَعَـائِمُهُ، وَ تَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ، وَ دَرَسَتْ سُبُلُهُ، وَ عَفَتْ شُرُكُـهُ[٤]. أَطَـاعُوا الشَّـيْطَانَ فَسَـلَكُوا مَسَالِكَهُ، وَ وَرَدُوا مَنَاهِلَهُ، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلاَمُهُ، وَ قَامَ لِـوَاؤُهُ فِـي فِـتَنٍ دَاسَـتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا، وَ وَطِئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا، وَ قَامَتْ عَلَىٰ سَنَابِكِهَا، فَهُمْ فِيْهَا تَائِهُونَ، حَائِرُونَ، جَاهِلُونَ، مَفْتُونُونَ، فِي خَيْرِ دَارٍ، وَ شَرِّ جِيرَانٍ. نَوْمُهُمْ سُهُودٌ، وَكُـحْلُهُمْ دُمُـوعٌ، بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ، وَ جَاهِلُهَا مُكْرَمٌ[٥]).

اللُّغَة:

تُطلق الْفِتْنَة عَلَىٰ الإِضْلاَل، ولذَا يُقَال لِلشَّيْطَانِ: فَتّان، ومُفتّن، وعَلَيْهِ يَكُـون الْمَعْنَىٰ أنّ النَّاس كَانُوا عِند بِعثَة النَّبِيّ ﷺ فِي جَهَالاتٍ، وَضَلاَلاَت. وٱنْجَذَمَ: ٱنْقَطع. والسَوَارِي: جَمع سَارِية، العِمَاد. والْمُرَاد بالْيَقِينِ هنا الْحَقّ. والنَّجْرُ: الأَصل. وَضَاقَ الْمَخْرَجُ، أي مِمَّا هُم فِيهِ مِن الْفِتَن. وَعَمِيَ الْمَصْدَرُ. أي جَهلُوا مَصْدر الْـفِتَن، وهُـو أَهوَاؤهم، وَشَهوَاتهم. والخَامِلُ من لاَ ذِكر له، ولاَ أحد يَـنْتَبهُ إِلَـيْهِ. وتَـنَكَّرَتْ: تَغيرت. ومَعَالِمُهُ: عَلاَمَاته، وآثَاره. وَدَرَسَتْ وَعَفَتْ: ٱنطَمَسَتْ. والشُّرُك ـ بِضَم الشِّين، والرَّاء ـ الطَّرَائِق. والمَنَاهِل: جَمع مَنْهل مُورد الشُّرب. والأَخْفَاف للإِبل، والأَظْلاَف لِلبَقر، وَالمَعز وَالْغَنَم. والقَدَم لِـلْإِنْسَان. والسَّـنَابك: أَطْـرَاف الحَـافر. وَالسُّهُودٌ: الأَرَق.

الإِعْرَاب:

وَالنَّاسُ فِي فِتَنٍ مُبْتَدَأ، وَخَبَر، والوَاو للحَال. وَضَمِير (بِهِمْ) يَعُود للَّذين أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ. وجَاهِلُونَ خَبَر ثانٍ لـ(هُمْ) ومَفْتُونُونَ خَبَر ثَالِث. وفِي فِي خَيْرِ مُتَعَلِّق بـ (مَفْتُونُونَ) وبِأَرْضٍ بَدل مِن خَيْرِ دَارٍ، أو مُتَعَلِّق بِمَا تَعلق بهِ.

الْمَعْنَىٰ:

الْمَعْنَىٰ وَاضح، والْكَلِمَات مُتَرَادفة، أو مُتشَابهة، وذكرنا ذَلِكَ فِي مَعْنَىٰ المُفردَات، وبَعْض الجُمل فِي فِقْرَة (اللُّغَة)، ولاَ دَاعي لِلتكرَار، ويُمكن إيجَاز هَذَا المَقطع مِن ٱلْخُطْبَة بأَنّ الله سُبْحَانَهُ أَرسَل مُحَمَّداًﷺ فِي أَشرَف بُقعَة، وأفضَلها، وأَنّ أهلَها كَانوا آنذَاك شرّ أَهْل ٱلأَرْض، هِي مَكَّة الْمُكَرَّمَة... وإنّمَا أطْنَب الإِمَامعليه السلام لأنّه فِي مقَام الخطَابة، والإِشَارَة إِلَىٰ أنّ الّذين حَاربُوه فِي صِفِّين لا يَختلفُون فِي أوصَافهم عَن الّذين كَانوا عِند البِعثة، وأيضاً أرَاد الإِمَامعليه السلام، أنْ يُبين آيَات العَظمة فِي شَخصِية رَسُول الله ﷺ الّتي أتَت بأَطيَب الثّمار عَلَىٰ رُغم الصّعوبَات، والعَقبَات... ولَيْسَ مِن شَكٍّ أنّ شَخصِية مُحَمَّدﷺ مِن خوَارق العَادَات، وإِنَّهَا لاَ تُقاس بِٱلْمَألوف، وٱلْمَعْرُوف بِشهَادة الْعُلَمَاء الأَجَانب[1].

وَالغرِيب أنّه مَا مِن بَلد فِيهِ قَبر نَبِيٍّ، أو إمَام إلاّ وأكثَر سكَانه مِن الأَشْرَارِ الفُجَار، لا يَعْرِفون مِن الدِّين إلاّ ٱسْمه. ومَا الزّائر الغَرِيب عِندهم إلاّ صِيداً لِفخُوخهم وَشِباكهم، بَل وأَحل مِن الصِّيد، فَهل السّر فِي ذَلِكَ أَنّ الله سُبْحَانَهُ يَمتحن

(١) أنظر شَرْح ٱلْخُطْبَة الأُولَىٰ فِقْرَة (مُحَمَّد)ﷺ.

قُلوب الزّائرين لأوليَائه بِشيَاطِين الإِنْسِ ؟. وَصَدق الإمَامﷺ حَيْث يَقول: «إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لاٰ يَحْمِلُهُ إلاَّ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ ٱمْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَ لاٰ يَعِي حَدِيثَنَا إلاَّ صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وَ أَحْلَامٌ رَزِينَةٌ»[١].

أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام... فِقْرَة ٦:

(هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ، وَ لَجَأُ أَمْرِهِ، وَ عَيْبَةُ عِلْمِهِ، وَ مَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَ كُهُوفُ كُتُبِهِ، وَ جِبَالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقَامَ ٱنْحِنَاءَ ظَهْرِهِ، وَ أَذْهَبَ ٱرْتِعَادَ فَرَائِصِهِ[٦]).

اللُّغَة:

لَجَأُ ٱسْم، وَمَعنَاه المَلاَذ، وَمِثله المَوْئِلُ والكُهُوفُ. والعَيْبَةُ: الْوِعَاء. والفَرَائِص: جَمع فَرِيصَة، وهِي اللّحمة الّتي بَيْنَ الجَنب، والكَتف.

الإِعْرَاب:

لاَ يَختلف ٱثْنَان مِن الشّارِحِين فِي أنّ المُرَاد بِضَمِير (هُمْ) أَهْلُ ٱلْبَيْت[٢]، وإنّمَا الخِلاَف فِي ضمَائِر (سِرّه، وَ أَمْرِه، وَ عِلْمِه، وَ حُكْمِه، وَ كُتُبِه، وَ دِينِه، وَظَهْرِه، وَ فَرَائِصِهِ) فَمَن قَائِل: أَنَّهَا لله مَا عَدا ضَمِير ظَهْرِه، وَفَرَائِصِهِ فإنّهما لِرَسُول الله صلى الله عليه وآله، وقَائِل: كلّها للدِّين. وَقَالَ ثَالث: تَرجع بكَاملها لِرَسُول الله، والأرْجَح أنّ الضّمَائر

---

(١) أنظر، نَهْج ٱلبَلاَغَة، مِن كَلاَم له: رَقم (١٨٩).

(٢) أُنظر، كتاب: فَلْسَفَة التَّوْحِيد والوِلاَيَة، فصل من هم أَهْل ٱلبَيْت عليهم السلام. (مِنْهُ رحمه الله). وسيأتي الحَدِيث عنهم مفصلاً بعد قليل.

تَعُود إِلَىٰ رَسُول الله ما عَدا ضَمِير ظَهْره، وَفَرَائِصِهِ فإِنّها يَعُودَان إِلَىٰ الدِّين لِـتَقدم ذِكره فِي قَول الْإِمَام: (وَجِبَالُ دِينِهِ) ولقُرب الضَّمِير ين مِنْهُ.

الْمَعْنَىٰ:

إِنَّ المعيَار لصِحَة ما جَاء فِي نَهْج ٱلْبَلاَغَة، وَنِسبته إِلَىٰ الْإِمَام أَمِير ٱلْمُـؤْمِنِينَ عليه السلام هُو المَوَافقة للوَاقع المحسُوس، ولكتَاب الله، وسُنَّة النَّبِيّ صلى الله عليه وآله فأيّة خُطْبَة، أو كَـلِمَة جَاءت فِي النَّهْج عَلَىٰ وِفق ٱلْحِسّ، وٱلْكِتَاب، والسُّنَّة فَهِيَ لِلْإِمَامِ، ومِن الْإِمَامِ بلا رَيب وإلاَّ فَهُوَ مِنْهَا بَرَاء بَرَاءَة الصِّدْق مِن الْكَذِب... وكلّ ما وِصف بِهِ الْإِمَام أَهْل ٱلْبَيْت يَشهد بِهِ التَّأرِيخ، وٱلْقُرْآن، ومَن أُنزل عَلَيْه.

(هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ). أي سِرّ مُحَمَّد صلى الله عليه وآله كَما أشرنَا فِي فِقْرَة الْإِعْرَاب، والْمُرَاد بالسّرّ هُنا العِلم، وفِي كَلِمَات الْإِمَام، وخُطَبة نبُوَات تَحقّقت كَما أخبرَ قَبل أَنْ تَقع بعشرَات السِّنين، مِنْهَا حوَادث الزّنج[1]، ومَا حَدث لِلبَصْرَة، وأَهلها مِن ٱلْمَوْت، والجُوع، وهِي صُورة طِبق الأَصل عَن نبُوءة الْإِمَام، وكَانَتْ فِي القَرن الهِجرِي الثَّالِث[2]..

فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ أُعْطِيتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمَ الْغَيْبِ فَضَحِكَ عليه السلام، وَقَالَ لِلرَّجُلِ، وَكَانَ كَلْبِيّاً: (يَا أَخَا كَلْبٍ لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَ إِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ، وَ

---

(١) يقصد الشّيخ (رحمه الله) ٱلْخُطْبَة الَّتِي أشار إِلَيْهَا الْإِمَام عليّ تحت رَقم (١٢٨): (يَا أَحْنَفُ كَأَنِّي بِهِ وَ قَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لاَ يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ، وَ لاَ لَجَبٌ، وَ لاَ قَعْقَعَةُ لُجُمٍ، وَ لاَ حَمْحَمَةُ خَيْلٍ يُثِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ؛ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ)، قَالَ الشَّرِيف يومئ بِذَلِكَ إِلىٰ صاحب الزنج.

(٢) أُنظر، حوادث ثورة الزّنج فِي كتاب العالم ٱلإِسْلاَمي فِي العصرالعَبّاسيّ الثَّانِي لأَحْمَد إِبْرَاهِيم: ٣١٥، مروج الذّهب للمسعودي: ٢٠٨/٤.

إِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَ مَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1] فَيَعْلَمُ اللهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ ، أَوْ أُنْثَىٰ ، وَ قَبِيحٍ ، أَوْ جَمِيلٍ ، وَ سَخِيٍّ ، أَوْ بَخِيلٍ ، وَ شَقِيٍّ ، أَوْ سَعِيدٍ ، وَ مَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً ، أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً . فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلاَّ اللهُ ، وَ مَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ فَعَلَّمَنِيهِ ، وَ دَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي ، وَ تَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي)[2] .

عِلْمُ ٱلْمَعْصُوم عليه السلام :

قَالَ الله لِنَبِيِّهِ ٱلْكَرِيم عَنِ ٱلْمُنَافِقِين : ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[3] . وَقَالَ النَّبِيّ : ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4] . وَقَالَ الإِمَام : (لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ ، وَ إِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ) . وَقَالَ بَعْض النَّاس : كلاَّ ، إِنَّ الإِمَام يعلم الْغَيْب ، وإِنْ قَالَ الله ، والرَّسُول ، والإِمَام : إِنه لاَ يَعلم .. فإِنّا لله ، وإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُون .

(وَ لَجَأُ أَمْرِهِ ، وَ عَيْبَةُ عِلْمِهِ ، وَ مَوْئِلُ حُكْمِهِ ، وَ كُهُوفُ كُتُبِهِ) . قَالَ الشّيخ مُحَمَّد

---

(١) لُقْمَان : ٣٤.

(٢) أنظر ، نَهْج ٱلْبَلاَغَة : ٱلْخُطْبَةُ (١٢٨).

(٣) ٱلتَّوْبَة : ١٠١.

(٤) ٱلْأَعْرَاف : ١٨٨.

عَبْدَه: «إنَّ حُكْمِه، وَشَرعه ـ أي النَّبِيّ ـ يَرجع إلَيْهِمْ، وهُم ـ أي أَهْل ٱلْبَيْت ـ حفّاظ كُتبه يحوونها كَما تحوي الكهُوف والغِيرَان ما فِيْهَا، والكُتب ٱلْقُرْآن، وَجمعَه، لأنّه فِيما حوَاه كَجُملة مَا تَقدمه مِن الكُتب، ويَزِيد عَلَيْهَا مَا خَصّ الله به هَذِه الأُمّة ـ ثُمَّ قَالَ ـ وهَذِه صِفَات أَهْل ٱلْبَيْت لإستعدَادهم لأسرَار الله، وحِكْمَتة»[1].

وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: المُرَاد بِكِتبه يَعني ٱلْقُرْآن، والسُّنَّة عِندهم عليهم السلام[2].

(وَ جِبَالُ دِينِهِ). أي أنّ أَهْل ٱلْبَيْت مِثلهم بِالنِّسبة إلَىٰ ٱلإِسْلاَم كَمَثل الجِبَال بِالنِّسبة إلَىٰ ٱلأَرْض، فلَوْلاَ الْجِبَال لمَادت ٱلأَرْض بأهلها، ولَوْلاَ أَهْل ٱلْبَيْت لمَاد ٱلإِسْلاَم، ولَم يَكُنْ له عَينٌ، وَلاَ أَثَر (بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ، وَ أَذْهَبَ ٱرْتِعَادَ فَرَائِصِهِ).

قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «كنّىٰ بٱنحنَاء الظَّهْر عَن الضَّعْف فِي بِدء ٱلإِسْلاَم، وَبإقَامة الدِّين عَن ٱلْقُوَّة، وبِهِمْ أمِنَهُ مِن ٱلْخَوْف الَّذي تَرتَعد مِنْهُ الفَرَائص»[3].

فكَلاَم الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه صَرِيح فِي أنّ ٱلإِسْلاَم نَمَا، وقوّي، وٱمتَد بأَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام.

وَبَعد، فإنّ الأوصَاف الَّتي ذَكرها الإِمَام لأَهْل ٱلْبَيْت تَشهد بِها آيَة المُبَاهَلَة:

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[4].

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة للأُستاذ مُحَمَّد عَبْدَه: ١/ ٣٠

(٢) أنظر، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لإبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١/ ١٣٨.

(٣) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة للأُستاذ مُحَمَّد عَبْدَه: ١/ ٣٠

(٤) ٱتفَق أَهْل التَّفسِير عَلَىٰ نزول هَذِه الآيَة فِي وفد نصَارىٰ نَجْرَان، واتفقُوا أيضاً عَلَىٰ أنّ المَعْنِي به فِي لفظة

⇐ «أَبْنَآءَنَا» هما الحَسَن والحُسَيْن عليهما السلام وفي لفظة «نِسَآءَنا» فَاطِمَة الزّهراء عليها السلام وفي لفظة «أَنفُسَنَا» هُو الإِمَام عليّ بن أبي طالب عليه السلام كما صرّح بِذَلِكَ أَهْل العِلْم، لأنّ الرّسُول صلى الله عليه وآله استعان بِهِمْ فِي الدُّعاء إِلىٰ الله، والتّأمين عَلىٰ دُعَائه لتحصل له الإجَابة فِيهِ. هَذَا مِن جِهة، وَمِن جِهة ثَانِيَة أَنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله مراراً وتكراراً فسّر هَذِه الآيَة بأنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام هُو نَفْسه صلى الله عليه وآله ولَسْنَا بصدد ذكر الرّوَايَات الّتي تفسّر هَذَا المَعْنىٰ لكن الآيَة نزلت فِي أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام وهم: عليّ وفَاطِمَة والحَسَن والحُسَيْن عليهم السلام ومن شاء فليراجع المصادر التّالية.

فَتح القَدِير للشّوكاني: ١/٣١٦ الطّبعة الأُولىٰ و٣٤٧ الطّبعة الثّانِيَة ط مُصطفىٰ الحَلبي بِمِصْر. تَفْسِير آبن كثير: ١/٣٧٠ و ٣٧١ و ٣٧٦، و: ٢/٥٢ ط بيروت. تَفْسِير الكشّاف للزّمخشري: ١/٢٦٨ ط قم و ٣٧٠ ط بيروت. تَفْسِير الطّبَرِيّ: ٣/٢٩٧ ـ ٢٩٩ ط دار الكُتب العِلمِية بيروت وص ١٩٢ و ٣٣٠ و ٣٠١ ط الميمنية بمِصْر، و: ٢٢/٦، خُلَفَاء الرّسُول للعلّامة البحراني: ١٠٧، غَايَة المرَام: ٣٠٤ باب ٣/٤، تَأرِيخ آبْن كثير: ٥/٥٣ و ٥٤ ط السّعادة سَنَة ١٣٥١، إِمْتَاع الأَسماع للمَقْرِيزي: ٥٠٢، لوامع الحَقَائِق للميرزا أحمد الاشتياني: ٣١ و ٣٢، تلخيص الشّافِي: ٣/٦، كَشْف المُرَاد: ٤١١، كَشْف الغُمّة: ١/٢٣٣، ٱلصّرَاط المُسْتَقِيم: ١/٢١٠، حقّ ٱلْيَقِين: ١/٢٦٨، دَلاَئِل الصّدْق: ٢/٣٨٦ و ١٢٥، حقّ ٱلْيَقِين للسيّد شبّر: ١/٢٧٠. بِحَار الأَنْوَار: ٣٥/٢٥٧ و ٢٥٨ نقلاً عَن الفُصُول للشيخ المفيد فِي إحتجاج الإِمَام الرّضا عليه السلام عَلىٰ المأمون.

كما ورد فِي تَفْسِير الطّبرسي: ٢٦٦، كَشْف ٱلْيَقِين فِي فَضَائِل أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام لِاَبْن المطهّر الحلّي: ٢١٣ ـ ٢١٥ تحقيق حُسين الدرگاهي الطّبعة الأُولىٰ إيران. أمالي الشّيخ الطّوسي: ٢/١٧٧، عيون أخبار الرّضا: ٢/٢١٠ باب ٢٣/١، عبقات الأَنْوَار: ١/٢٥٢، تَفْسِير فرات الكوفي: ١٤/٤٥، مناقب الإِمَام عليّ عليه السلام لِاَبْن المغازلي: ٢٦٣ح٣١٠ ط بيروت.الفَضَائِل لأَحْمَد بن حنبل: باب فَضَائِل الحَسَن والحُسَيْن عليهما السلام ح٢٧، شَرْح النّهج لِاَبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١٦/٢٩١ ط مِصْر، و: ٤/١٠٨ ط مِصْر تحقيق مُحَمّد أبو الفَضْل، إحقاق الحَق للتستري: ٣/٤٦ ـ ٦٢، و: ٩/٧٠ و ٩١ الطّبعة الأُولىٰ طهران، المناقب للخوارزمي: ٦٠ و ٩٧، فَضَائِل الخَمْسَة: ١/٢٤٤، أُسد الغَابَة لِاَبْن الأَثِير: ٤/٢٦، الإِصَابَة لِاَبْن حجر العسقلاني: ٢/٧٢ ط الميمنية بمِصْر، مرآة الجنان لليافعي: ١/١٠٩، أَسْبَاب النّزول للواحدي: ٥٩ و ٧٤ الطّبعة الأُولىٰ.

وأُنظر أيضاً دَلاَئِل النّبوّة لأَبِي نعيم: ١/٢٩٧، فرائد السّمطين للحمويني: أوائل السمط الثّاني ⇐

⟸ ح ٣٧١، السِّيرَة الْحَلَبِية للحلبي الشّافعي: ٣/ ٢١٢ ط البهية بِمِصْر، السِّيرَة النَّبَوِيَّة لزين دحلان بهَامِش السِّيرَة الْحَلَبِية: ٣/ ٥، أَحْكَام الْقُرْآن للجصّاص: ٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ط عبدالرَّحْمَان مُحَمَّد بِمِصْر و ٢٩٥ الطّبعة الثَّانِيَة تحقيق القمحاوي، التسهيل لعلوم التَّنزيل للكلبي: ١/ ١٠٩، فتح الْبَيَان فِي مقاصد الْقُرْآن: ٢/ ٧٢، زاد المسير لِابْن الجوزي: ١/ ٣٩٩، جامع الْأُصُول لِابْن الْأَثِير: ٩/ ٤٧٠، العمدة لِابْن البطريق: ١٩٢ و ٢٩٦، الخصائص: ٩٧، تَفْسِير الحبري: ٥٠، الْمُسْتَدرَك لِلْحَاكِم: ٣/ ١٥٠، تَارِيخ دِمَشْق لِابْن عساكر: ١/ ٢٥٥ الطّبعة الثَّانِيَة، تَفْسِير أبي السّعود مطبوع بهَامِش تَفْسِير الرّازي: ٢/ ١٤٣ ط الدّار العامرة بِمِصْر، تَفْسِير الجلالين للسيوطي: ١/ ٣٣ ط مِصْر و ٧٧ ط دار الْكِتَاب الْعَرَبِي ببيروت.

وراجع أيضاً الرّياض النّضرة للطبري الشّافعي: ٢/ ٢٤٨ الطّبعة الثَّانِيَة، الْإِتْحَاف فِي نسب الْأَشْرَاف للشبراوي الشّافعي: ٥، مَعَالِم التّنزيل للبغوي بهَامِش تَفْسِير الخازن: ١/ ٣٠٢، مطالب السّؤول لِابْن طَلْحَة الشّافعي: ١/ ١٨ ط النّجف، صَحِيح مُسْلِم: ٢/ ٣٦٠ بشرح النّووي، و: ٧/ ١٢٠ ط مُحَمَّد عليّ صبيح، و: ٤/ ١٨٧١ ط مِصْر تحقيق مُحَمَّد فؤاد، و: ١٥/ ١٧٦ ط مِصْر، خصائص الوحي المبين: ٦٨ الفصل ٧، صَحِيح التِّرمذي: ٤/ ٢٩٣/ ٣٠٨٥، و: ٥/ ٦٣٨/ ٣٧٢٤ و ٣٠١/ ٣٨٠٨ فِي باب فَضَائِل أَمِير الْمُؤْمِنِين، مُسْنَد أحمد: ١/ ١٨٥ ط الميمنية، و: ٣/ ٩٧/ ١٦٠٨ ط دار المعارف، تَفْسِير القُرطُبي: ٤/ ١٠٤، أَحْكَام الْقُرْآن لِابْن عربي: ١/ ٢٧٥ الطّبعة الثَّانِيَة ط الحلبي و ١٧٥ ط السّعادة، صَحِيح مُسْلِم: باب فَضَائِل عليّ بن أبي طالب: ٢/ ٣٦٠ ط عِيسَىٰ الحلبي، و: ٤/ ١٨٨٣/ ٦١، الْأَرْبَعِين المنتقاة: باب ٣٨، كفاية الطّالب: ٦٤١ باب ٣٢ و ٨٥٥٤ و ١٤٢ ط الحيدرية.

ولاحظ أيضاً لباب النّقول فِي أَسْبَاب النّزول: ٧٥ الطّبعة الثَّانِيَة، شواهد التّنزيل: ١/ ١٢٠ و ١٢٩ ح ١٦٨ و ١٧٠ ـ ١٧٣ و ١٧٥، تَفْسِير الفخر الرّازي: ٨/ ٨٥ و ٨٦ ط البهية بِمِصْر، و: ٢/ ٦٩٩ ط دار الطّباعة العامرة بِمِصْر، الْمُصَنَّف لِابْن أبي شيبة: ١٢/ ٦٨/ ١٢١٤٢، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٢٥، تذكرة الخواصّ للسبط ٱبن الجوزي الحنفي: ١٧ ط النّجف، الدُّر المنثور للسيوطي: ٢/ ٣٨ و ٣٩، تَفْسِير البيضاوي: ٢/ ٢٢ ط بيروت، فرائد السّمطين: ١/ ٣٧٨/ ٣٠٧، و: ٢/ ٢٣/ ٣٦٥ و ٢٥٠/ ٤٨٤ ـ ٤٨٦، الْإِرْشَاد: ١٥٢ فصل ٤٨ باب ٢.

ومِن خلال هَٰذِه المصادر الكَثِيرَة وأتفاقها عَلَىٰ أنّ آية الْمُبَاهَلَة نزلت فِي وفد نصارىٰ نَجْرَان ومَع أنّ عباراتهم تختلف باختلاف أسلوب المفسّر ودلالته مِن خلال اللُّغَة والْحَدِيث النّبويّ الشَّرِيف رأينا مِن ⟸

⇔ الأفضل أنْ نختصر المقال لسرد القِصّة كاملة مِن خلال هَذِه المصادر، فننقل ما ذكره ٱبن كثير الشّافعي فِي تفسِير، قَالَ:

ثمّ قَالَ تَعَالَىٰ آمراً رسوله ﷺ أنْ يُباهل مَن عَاند الحَقّ فِي أمر عِيسَىٰ بعد ظهور الْبَيان: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ...﴾ أي نحضرهم فِي حَال الْمُبَاهَلَة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نلتعن ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي منّا ومنكم.

وكَانَ سبب نزول هَذِه المُبَاهَلَة وما قبلها مِن أوّل السُّورَة إلىٰ هنا فِي وفد نَجْرَان. إنَّ النّصارىٰ لمّا قَدموا فجَعَلُوا يحاجّون فِي عِيسَىٰ ويزعمون فِيهِ ما يزعمون مِن النُّبُوّة والإلهية، فأنزل الله صدر هَذِه الالسُّورَة ردّاً عَلَيْهِمْ.

وقدم عَلَىٰ رَسُول الله ﷺ وفد نَجْرَان ستّون راكباً، فِيهِمْ أَرْبَعَة عشر رجلاً مِن أشرافهم يؤول أمرهم إلَيْهِمْ، وهم: العاقب وٱسمه عبد ٱلْمَسِيح، والسّيّد وهُو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بَكْر بن وائل، وأُويس بن الحارث، وزَيد، وقَيْس، ويَزِيد وأبناه، وخُوَيْلد، وعَمْرُو، وخالد، وعبدالله، ومحسن.

وأمر هَؤُلَاء يؤول إلىٰ ثلاثةٍ مِنْهُم، وهم: العاقب. وكَانَ أمِير الْقَوْم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم، والَّذي لا يصدرون إلاّ عَن رأيه، والسّيّد وكَانَ عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم، وأبو حارثة بن علقمة وكَانَ أسقفهم وصاحب مدارستهم، وكَانَ رجلاً مِن الْعَرَب مِن بني بَكْر بن وائل ولَكِنَّهُ تنصّر، فعظّمته ٱلرُّوم وملوكها وشرّفوه، وبَنُوا له الكنائس وأخدموه لما يعلمونه مِن صلابته فِي دينهم. وقد كَانَ يَعْرِف أمر رَسُول الله ﷺ وصفته وشأنه ممّا علمه مِن الكتب المتقدّمة، ولكن حمله ذَلِكَ عَلَىٰ الاستمرار فِي النّصرانيّة لما يرى مِن تعظيمه فِيهَا وجاهه عند أهلها.

قَالَ ٱبن إسْحَاق: وحدّثني مُحَمّد بن جعفر بن الزُّبَيْر قَالَ: قدموا عَلَىٰ رَسُول الله ﷺ الْمَدِينَة فدخلوا عَلَيْهِ مسجده حِينَ صلّىٰ العصر، عَلَيْهِمْ ثياب الحبرات جببٌ وأرديةٌ. فِي جمال رجال بني الحارث بن كعب. قَالَ: يقول من رآهم مِن أصْحَاب النّبِيّ ﷺ: ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم فقاموا فِي مسجد رَسُول الله ﷺ. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: دعوهم. فصلّوا إلىٰ المشرق. قَالَ: فكلّم رَسُول الله ﷺ مِنْهُم أبو حارثة بن علقمة. والعاقب عبد ٱلْمَسِيح، والسّيّد الأيهم، وهم مِن النّصرانيّة عَلَى دين ٱلْمَلِكِ مَع ٱختلاف أمرهم، يَقُولُون: هُو الله، ويَقُولُون: هُو ولد الله، ويَقُولُون: هُو ثالث ثلاثة. تَعَالَىٰ الله عَن قولهم علوّاً كبيراً.

⇔

⇔ وكَذَٰلِكَ النَّصرانية، فهم يحتجّون فِي قولهم هُو الله، بأنّه كَانَ يحيي الموتىٰ، ويبرئ الأكمة والأبرص والأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق مِن الطّين كهيئة الطّير فينفخ فِيهِ فيكون طيراً. وذَٰلِكَ كلّه بأمر الله وليجعله آيةً للناس. ويحتجّون فِي قولهم بأنّه ابن الله، ويَقُولُون: لم يَكُنْ له أبٌ يعلم. وقد تكَلَّم فِي المهد بشيءٍ لم يَكُنْ أحدٌ مِن بني آدَمَ قبله. ويحتجّون عَلَىٰ قولهم بأنّه ثالث ثلاثة، بقول الله تَعَالَىٰ: فعلنا وأمرنا، وخلقنا وقضينا، فيَقُولُون لو كَانَ واحداً ما قَالَ إلاّ: فعلت وأمرت، وخلقت وقضيت، ولَكِنَّهُ هُو وعِيسَىٰ ومَرْيَمَ. تَعَالَىٰ الله وتقدّس وتنزّه عمّا يقول الظَّالِمُون والجاحدون علوّاً كبيراً. وفِي كلّ ذَٰلِكَ مِن قولهم: قد نزل ٱلْقُرْآن.

فلمّا كَلَمَة الحبران قَالَ لهما رَسُول الله ﷺ: أسلما. قالا: قد أسلمنا. قَالَ ﷺ: إنّكما لم تسلما فأسلما. قالا: بلىٰ قد أسلَمنا قبلك. قَالَ ﷺ: كَذَبتُمَا، يمنعكما مِن ٱلإِسْلاَم ادّعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصّليب، وأكلكما ٱلْخِنزِير. قالا: فمن أبوه يا مُحَمَّد؟ فصمت رَسُول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما. فأنزل الله فِي ذَٰلِكَ مِن قولهم واختلاف أمرهم صدر سُورَة آلِ عِمْرَانَ إِلىٰ بضع وثمانين آية مِنْهَا.

ثمّ تكَلَّم ٱبن إِسْحَاقَ عَلَىٰ تَفْسِيرها، إِلىٰ أنْ قَالَ:

فلمّا أتىٰ رَسُول الله ﷺ الْخَبَر مِن الله والفصل مِن ٱلْقَضَاء بينه وبَيْنَهُمْ وأمر بِمَا أمر به مِن ملاعنتهم إنْ ردّوا ذَٰلِكَ عَلَيْهِ دَعَاهم إِلىٰ ذَٰلِكَ فقَالُوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر فِي أمرنا ثمّ نأتيك بِمَا نريد أنْ نفعل فيما دعوتنا إِلَيْهِ. فانصرفوا عَنْه. ثمّ خلوا بالعاقب، وكَانَ ذا رأيهم فقَالُوا: يا عبد ٱلْمَسِيح ماذا ترىٰ؟ فَقَالَ: والله يا مَعْشَرَ النّصارىٰ، لقد عرفتم أنّ مُحَمَّداً لنبيّ مرسلٌ، ولقد جاءكم بالفصل مِن خَبَر صاحبكم، ولقد علمتم ما لاعن قَوْمٌ نبيّاً قطّ فبقي كبيرهم وَلاَ نبت صَغِيرَهم، وإنّه للاستئصال منكم إنْ فعلتم، فإنْ كنتم قد أَبَيْتُمْ إلاّ إلف دينكم والإقامة عَلَىٰ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِن القَوْل فِي صاحبكم فوادعوا الرَّجُل ثمّ ٱنصرفوا إِلىٰ بلادكم. فأتوا النَّبِيّ ﷺ فقَالُوا: يا أبا القاسم قد رأينا أنْ لا نلاعنك، وأنْ نتركك عَلَىٰ دينك ونرجع عَلَىٰ ديننا. ولكن ٱبعث معنا رجلاً مِن أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا فِي أشياء ٱختلفنا فِيْهَا مِن أَمْوَالنا فإنكم عِنْدَنَا رضاً.

قَالَ مُحَمَّد بن جعفر: فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ائتوني العشية أبعث مَعَكُمْ ٱلْقَوِيّ الأَمِين. قَالَ: فكان عُمَرَ بن الخَطَّاب يقول: ما أحببت الإمارة قطّ حبّي إيّاها يَوْمَئِذٍ رجاء أنْ أكون صاحبها، فرحت إِلىٰ الظُّهر مهجراً، فلما صلّىٰ بنا رَسُول الله ﷺ الظُّهر سلّم ثمّ نظر عَن يمينه، وعَن يساره، فجعلت أتطاول له ليراني....

ثمّ ذكر ٱبن كثير ما رواه البُخَارِيّ فِي هَذَا المَوْضُوع، وما رواه البَيْهَقِيّ فِي دَلاَئِل النُّبُوَّة وَقَالَ: فإنّ فِيهِ ⇔

⟸ فوائد كثيرةٌ، وفِيهِ غرابةٌ، وفِيهِ مناسبةٌ لِهَذَا المقام، قَالَ البَيْهَقِيّ: أخبرنا أبو عبدالله الحافظ، وأبو سعيد مُحَمَّد بن مُوسَىٰ بن الْفَضْل. قالا: حدّثنا أبو الْعَبَّاس مُحَمَّد بن يعقوب، حدّثنا أحمد بن عبدالجبّار، حدّثنا يُونُس بن بكير عَن سلمة بن عبد يسوع عَن أبيه عَن جدّه، قَالَ يُونُس ـ وكَانَ نصرانياً فأسلم: إنَّ رَسُول الله ﷺ كتب إِلَىٰ أَهْل نَجْرَان قبل أنْ يَنْزِل عَلَيْهِ طس سليمان: باسم إله إِبْرَاهِيم وإسْحَاقَ ويعقوب، مِن مُحَمَّد النَّبِيّ رَسُول الله إِلَىٰ أسقف نَجْرَان وأَهْل نَجْرَان إنْ أسلمتم فإنِّي أحمد إِلَيْكُم الله إله إِبْرَاهِيم وإسْحَاقَ ويعقوب. أمَّا بعد، فإنِّي أدعوكم إِلَىٰ عبادة الله مِن عبادة الْعِبَاد. وأدعوكم إِلَىٰ وِلاَيَة الله مِن وِلاَيَة الْعِبَاد. فإنْ أَبَيْتُمْ فالْجِزْيَة. فإنْ أَبَيْتُمْ فقد آذنتكم بحَرْبٍ، والسَّلاَم. فلمّا أتَىٰ الأسقف ٱلْكِتَاب وقرأه فظع به وذعره ذعراً شديداً...

ثمّ ذكر ٱبن كثير أيضاً رواية ٱبن مردويه فَقَالَ: وَقَالَ أبو بَكْر بن مردويه: حدّثنا سليمان بن أحمد، حدّثنا أحمد بن داود المكّي، حدّثنا بشر بن مِهْرَان، حدّثنا مُحَمَّد بن دينار عَن داود ٱبن أبي هند عَن الشّعبي عَن جابر قَالَ: قدم عَلَىٰ النَّبِيّ ﷺ العاقب وٱلطَّيِّب فدعاهما إِلَىٰ الملاعنة. فواعداه عَلَىٰ أنْ يلاعناه الغداة. قَالَ: فغدا رَسُول الله ﷺ فأخذ بيد عليّ وفَاطِمَة والْحَسَن والْحُسَيْن، ثمّ أرسل إِلَيْهِما، فأبيا أنْ يجيبا وأقرّا له بالْخَرَاج، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: والَّذي بعثني بِالْحَقّ لو قالا: لا، لأمطر عَلَيْهِمْ الوادي ناراً. قَالَ جابر: وفِيهِمْ نزلت: ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾، قَالَ جابر: أَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ: رَسُول الله ﷺ وعليّ بن أبي طالب، وأَبْنَآءَنَا: الْحَسَن والْحُسَيْن، ونِسَآءَنَا: فَاطِمَة.

وهكذا رواه الْحَاكِم فِي مستدركه عَن عليّ بن عِيسَىٰ عَن أحمد بن مُحَمَّد الأزهري عَن عليّ بن حجر عَن عليّ بن مسهر عَن داود بن أبي هند به بمعناه. ثمّ قَالَ: صَحِيح عَلَىٰ شرط مُسْلِم، ولم يخرجاه. هكذا. (تَفْسِير ٱبْن كثير: ١ / ٣٧٦).

أما الزَّمَخْشَري فَقَالَ فِي تَفْسِيره: قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ مِن النّصارىٰ ﴿فِيهِ﴾ فِي عِيسَىٰ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي مِن البيّنات الْمُوجِبَة للعلم ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ﴾ هلمّوا، والْمُرَاد المجيء بالرأي والعزم، كما تقول: تعالَ نفكّر فِي هَذِه المسألة ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ أي يدع كلّ منّي ومنكم أبناءه ونِسَآءَه ونَفْسه إِلَىٰ الْمُبَاهَلَة ـ إِلَىٰ أنْ قَالَ: ـ

وروي أنّهم لما دَعَاهم إِلَىٰ الْمُبَاهَلَة، قَالُوا: حَتَّىٰ نرجع وننظر، فلمّا تخالوا قَالُوا للعاقب وكَانَ ذا رأيهم: يا عبد ٱلْمَسِيح ما ترىٰ؟ فَقَالَ: والله لقد عرفتم يا مَعْشَرَ النّصارىٰ أنّ مُحَمَّداً نبيّ مرسلٌ، وقد جاءكم ⟸

↔ بالفصل مِن أمر صاحبكم، والله ما بأَهْل قَوْمٌ نبيّاً قطّ فعاش كبيرهم وَلاَ نبت صَغِيرَهم، ولئن قد فعلتم لتهلكنّ. فإنْ أَبَيْتُمْ إلاّ إلف دينكم والإقامة عَلَىٰ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ فوادعوا الرَّجُل وآنصرفوا إلىٰ بلادكم. فأتىٰ رَسُولالله وقد غدا محتضناً الحُسَيْن آخذاً بيد الحَسَن وفَاطِمَة تمشي خلفه وعليّ خلفها، وهُوﷺ يقول: إذا أنا دعوت فأمّنوا. فَقَالَ أسقف نَجْرَان: يا مَعْشَرَ النّصارىٰ إنّي لأرىٰ وجوهاً لو شاءالله أنْ يزيل جبلاً مِن مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا وَلاَ يَبْقَىٰ عَلَىٰ وجه ٱلأَرْض نصراني إلىٰ يَوْم ٱلْقِيَامَة. فقَالُوا: يا أبا القاسم، رأينا أنْ لا نباهلك وأنْ نقرّك عَلَىٰ دينك ونثبت عَلَىٰ ديننا. قَالَﷺ: فإذ أَبَيْتُمْ ٱلْمُبَاهَلَة فأسلموا يَكُنْ لكم ما لِلْمُسْلِمِين وعَلَيْكُمْ ما عَلَيْهِمْ. فأبوا.

قَالَﷺ: فإنّي أُناجزكم. فقَالُوا: مالنا بِحَرْب ٱلْعَرَب طاقةٌ. ولكن نصالحك عَلَىٰ أنْ لاتغزونا و لاتخيفنا، ولاَ تردّدنا عَن ديننا، عَلَىٰ أنْ نؤدّي إِلَيْك كلّ عام ألفي حلّة: ألفٌ في صفر وألفٌ في رجب. وثلاثين درعاً عاديةً مِن حديد، فصالحهم عَلَىٰ ذَلِكَ، وَقَالَﷺ: والَّذي نفسي بيده إنّ الهلاك قد تدلّىٰ عَلَىٰ أَهْل نَجْرَان، ولو لاعنوا لمسخوا قردةً وخنازير، ولاضطرم عَلَيْهِمْ الوادي ناراً. ولاستأصل الله نَجْرَان وأهله حَتَّىٰ الطَّير عَلَىٰ رُؤُوس الشَّجر، لما حَال الحول عَلَىٰ النّصارىٰ حَتَّىٰ يهلكوا. (الكشّاف: ١ / ٢٦٨ ط ٱلْبَلاَغَة قم).

وأَمَّا الطَّبَرِيّ فَقَالَ فِي تَفْسِيره: عَن ٱبن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ آلِ عِمْرَانَ: ٦٢: إنَّ الَّذي قلنا فِي عِيسَىٰ هُو الحَقّ ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ...﴾ الآية. فلمّا فصل جلّ ثناؤه بَيْنَ نَبِيّه مُحَمَّدﷺ وبَيْنَ الوفد مِن نصارىٰ نَجْرَان بِالْقَضَاء الفاصل والحُكْم ٱلْعَادِل وأَمْرِهِ إنْ هم تولّوا عمّا دَعَاهم إِلَيْهِ مِن الإِقْرَار بوحدانيّة الله وأنّه لا ولد له و لا صاحبة وأنّ عِيسَىٰ عَبْدَه ورسوله وأبوا إلاّ الجدل والخُصُومَة، أنْ يدعوهم إلىٰ الملاعنة، ففعل ذَلِكَ رَسُول اللهﷺ فلمّا فعل ذَلِكَ رَسُول اللهﷺ آنخزلوا وآمتنعوا مِن الملاعنة، ودعوا إلىٰ المصالحة. كالّذي حدّثنا ٱبن حميد، قَالَ: حدّثنا جرير عَن مغيرة عَن عامر قَالَ: فأمر بملاعنتهم بقَوْله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾... الآيَة، فتواعدوا أنْ يلاعنوه، وواعدوه الغد. فانطلقوا إلىٰ السَّيّد والعاقب وكانا أعقلهم، فتابعاهم فانطلوا إلىٰ رجل مِنْهُم عاقل. فذكروا له ما فارقوا عَلَيْهِ رَسُول اللهﷺ فَقَالَ: ما صنعتم؟ وندّمهم وَقَالَ لَهُمْ: إنْ كَانَ نبيّاً ثمّ دَعَا عَلَيْكُمْ لايغضبه الله فيكم أبداً، ولئن كَانَ ملكاً فظهر عَلَيْكُمْ لايستبقيكم أبداً، قَالُوا: فكَيْفَ لنا وقد واعدنا؟ فَقَالَ لَهُمْ: إذا غدوتم إِلَيْه فعرض عَلَيْكُمْ الَّذي فارقتموه عَلَيْهِ فقولوا: نعوذ بالله، فإنْ دَعَاكم أيضاً فقولوا له: نعوذ بالله، ولعلّه أنْ يعفيكم مِن ذَلِكَ. فلما غدوا غدا النَّبِيّﷺ محتضناً حسناً آخذاً بيد الحُسَيْن، وفَاطِمَة تمشي خلفه. فدعاهم ↔

﴿ إلىٰ الّذي فارقوه عَلَيْهِ بالأمس، فقَالُوا: نعوذ بالله، ثمّ دَعَاهم، فقَالُوا: نعوذ بالله مراراً. قَالَ ﷺ: فإنْ أبَيْتُمْ فأسلموا ولكم ما لِلْمُسْلِمِين وعَلَيْكُمْ ما ٱلْمُسْلِمِين، كما قَالَ الله عزّوجلّ: فإنْ أبَيْتُمْ فأعطوا الْجِزْيَة عَن يدٍ وأَنْتُمْ صاغرون. مضمون آية ٢٩ مِن سُورَة ٱلتَّوْبَة.

قَالَ: قَالُوا: ما لنا طاقةٌ بحَرْب الْعَرب، ولكن نؤدّي الْجِزْيَة. قَالَ: فجعل عَلَيْهِمْ فِي كلّ سنةٍ ألفي حلّة، ألفاً فِي رجب وألفاً فِي صفر، فقَالَ النَّبِيّ ﷺ: قد أتاني البشير بهلكة أهْل نَجْرَان، حَتَّىٰ الطّير عَلَىٰ الشّجر ـ أو العصافير عَلَىٰ الشّجر ـ لو تمّوا عَلَىٰ الملاعنة.

وَقَالَ: حدّثنا ٱبْن حميد قَالَ: حدّثنا عِيسَىٰ بن فرقد عَن أبي الْجَارُود عَن زَيد بن عليّ فِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾... الآيَة، قَالَ: كَانَ النَّبِيّ ﷺ وعليّ وفاطِمَة والْحَسَن والْحُسَيْن.

وَقَالَ: حدّثنا مُحَمَّد بن الحُسَيْن قَالَ: حدّثنا أحمد بن المفضّل قَالَ: حدّثنا أسباط عَن السّدّي: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾... الآيَة. فأخذ ـ يعني النَّبِيّ ﷺ ـ بيد الْحَسَن والْحُسَيْن وفَاطِمَة. وَقَالَ لعليّ: اتبعنا. فخرج معهم، فلم يخرج يَوْمَئِذٍ النّصارىٰ، وقَالُوا: إنّا نخاف أنْ يَكُون هَذَا هُو النَّبِيّ ﷺ ولَيْس دَعْوَة النَّبِيّ كغيرها، فتخلّفوا عَنْه يَوْمَئِذٍ، فقَالَ النَّبِيّ ﷺ: لو خرجوا لاحترقوا. فصالحوه عَلَىٰ صلح، عَلَىٰ أنّ له عَلَيْهِمْ ثمانين ألفاً. فما عجزت الدراهم ففي العروض، الحلّة بأرْبَعِين. وَعَلَىٰ أنّ له عَلَيْهِمْ ثلاثاً وثلاثين درعاً، وثلاثاً وثلاثين بعيراً، وأَرْبَعَة وثلاثين فرساً غازية، كلّ سنة. وأنّ رَسُول الله ﷺ ضامنٌ لها حَتَّىٰ نؤدّيها إلَيْهِمْ. (تَفْسِير الطَّبَرِيّ: ٣/٢٩٧ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت).

أمّا الشّوكاني: فقد قَالَ فِي تَفْسِيره: وأخرج الْحَاكِم وصحّحه وٱبْن مردويه وأبو نعيم فِي الدّلائل عَن جابر قَالَ: قدم عَلَىٰ النَّبِيّ ﷺ العاقب والسّيّد، فدعاهما إلَىٰ ٱلإسْلاَم، فقالا: أسلمنا يا مُحَمَّد، فقَالَ: «كَذَبْتُمَا، إنْ شئتما أخبرتكما ما يمنعكما مِن ٱلإسْلاَم، قالا: فهات، قَالَ ﷺ: حُبّ الصّليب، وشرب الْخَمْر، وأكلُ لحم ٱلْخِنزِير. قَالَ جابر: فدعاهما إلَىٰ الملاعنة، فواعداه عَلَىٰ الغد. فغدا رَسُول الله ﷺ وأخذ بيد عليّ وفَاطِمَة والْحَسَن والْحُسَيْن، ثمّ أرسل إلَيْهما فأبيا أنْ يجيباه وأقرّا له، فقَالَ ﷺ: والّذي بعثني بِالْحَقّ لو فعلا لأمطر الوادي عَلَيْهِمْ ناراً. قَالَ جابر، فنزلت ﴿تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا﴾... الآيَة. قَالَ جابر: ﴿أَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾: رَسُول الله ﷺ وعليّ ﵇ و ﴿أَبْنَآءَنَا﴾: الْحَسَن والْحُسَيْن ﵉، ﴿وَنِسَآءَنَا﴾: فَاطِمَة ﵍.

ورواه أيضاً الْحَاكِم مِن وجهٍ آخر عَن جابر وصحّحه. وفِيهِ أنّهم قَالُوا للنبي ﷺ: هل لك أنْ نلاعنك؟ وأخرج مُسْلِم، والتّرمِذي، وٱبْن الْمُنْذِر، والبَيْهَقِيّ عَن سعد بن أبي وَقّاص قَالَ: لمّا نزلت هَذِه ﴾

⇐ الآيَة:﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ دَعَا رَسُول اللهﷺ عَلِيّاً وفَاطِمَة وحسناً وحسيناً. فَقَالَﷺ: أَللَّهُمَّ هَؤُلَاء أَهـلي. (فتح القَدِير: ٢ / ٣٤٧).

أَمَّا الأَحَادِيث الواردة فِي تفْسِير الآيَة الْكَرِيمَة فَهِيَ كَثِيرَة وَلاَ يمكن إحصاؤها، ولكن نذكر جزءً مِنْهَا عَلَى سَبِيل المثال لا الحصر:

في عيون الأَخْبَار عَن الرّيّان بن الصَّلْت قَالَ: حضر الرِّضا عليه السلام مجلس المأمون بمرو، وقد أجتمع فِي مجلسه مِن عُلَمَاء أَهْل الْعِرَاق وخراسان. فَقَالَ المأمون: أخبروني عَن مَعْنَى هَذِه الآيَة ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَـٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فَاطِر: ٣٢] فقالت الْعُلَمَاء: أراد الله عزّوجلّ بِذَلِكَ الأُمَّة كلّها. فَقَالَ المأمون: ما تقول يا أبا الْحَسَن؟ فَقَالَ الرِّضا عليه السلام لا أَقُول كما قَالُوا، ولكني أَقُول: الْمُرَاد بِذَلِكَ العِتْرَة الطَّاهرة. فَقَالَ المأمون: وكَيْفَ عنىٰ العِتْرَة مِن دُونَ الأُمَّة؟

والْحَدِيث طويل جدّاً، ولكن نأخذ الشّاهد مِنْهُ، حَيْث قَالَ المأمون وَقَالَ الإِمَام الرِّضا عليه السلام حَتَّىٰ وصلا فِي حديثهما إِلَىٰ آية ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا﴾ ... وَقَالَ:

فأبرز النَّبِيّﷺ عَلِيّاً، والْحَسَن، والْحُسَيْن، وفَاطِمَة صلوات الله عَلَيْهِمْ وقرن أنفسهم بنَفْسِه. فهل تدرون ما مَعْنَىٰ قَوْله: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾؟ قالت الْعُلَمَاء: عنىٰ به نَفْسه.

فَقَالَ أبو الْحَسَن عليه السلام: لقد غلطتم، إِنَّمَا عنىٰ بها عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وممّا يـدلّ عَـلَىٰ ذَلِكَ قـول النَّبِيّﷺ حِينَ قَالَ: لتَنْتَهِين بَنُو وليعة أو لأبعثنّ إِلَيْهِمْ رجلاً كنفسي يعنى عليّ بن أبي طالب عليه السلام (عـيون أخبار الرِّضا عليه السلام: ٢٣٢. وقد ذكر الْحَدِيث أيضاً فِي الفَضَائِل لأَحْمَد: ٢ / ٥٧١ / ٩٦٦ و ٥٩٣ / ١٠٠٨، المناقب للخوارزمي: ١٣٦ / ١٥٣، المناقب لِابْن المغازلي: ٤٢٨، وأنظر جواهر العقدين: ٢ / ١٧٣، كنز الْعُمَّال: ٦ / ٤٠٥ / ٦١٣٣، نور الأَبْصَار للشبلنجي: ٢٢٧، وراجع أيضاً المصادر السابقة الَّتِي أشرنا إِلَيْهَا تحت عنوان: الْمُبَاهَلَة).

وأخرج صاحب المناقب عَن جعفر الصّادق عَن أبيه عَن جدّه عليّ بن الْحُسَيْن: أنّ الْحَسَن بن عليّ عليه السلام قَالَ فِي خطبته: قَالَ الله تَعَالَىٰ لجدّيﷺ حِينَ جحده كفرة أَهْل نَجْرَان وحاجّوه: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ...﴾ فأخرج جدّيﷺ معه مِن الأنفس أبي، ومِن البنين أنا وأخي الْحُسَيْن، ومِن النِّسَاء، فاطِمَة أُمّيّ، فنحن أهله ولحمه، ودمه ونفْسه، ونَحْنُ مِنْهُ وهُو منّا.(أمالي الشَّيخ الطّوسي: ٢ / ١٧٧، وعَنْه غَايَة المرام: ٣٠٤ باب ٤ حديث ٣).

⇐

وآيَة التَّطْهِير: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَاتَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]، وَحَدِيث الثّلقين الّذي سَاوىٰ النَّبيّ ﷺ فِيهِ بَيْنَ

⇔ وأخرج البغوي فِي تَفْسِيره: ﴿أَبْنَآءَنَا﴾ أراد الْحَسَن والحُسَيْن عليهما السلام و ﴿وَنِسَآءَنَا﴾ فَاطِمَة، و ﴿أَنفُسَنَا﴾ عنىٰ نَفْسه وعَلِيّاً عليه السلام. (مَعَالِم التّنزيل: ١ / ٤٨٠).

وَقَالَ الفخر الرّازي فِي تَفْسِيره: فخرج رَسُول الله ﷺ وعَلَيْهِ مرط مِن شعر أَسْوَد وقد احتضن الحُسَيْن وأخذ بيد الْحَسَن وفَاطِمَة تمشي خلفه وعليّ خلفها. (تَفْسِير الرّازي: ٨ / ٨٠، الميزان فِي تَفْسِير الْقُرْآن: ٣ / ٢٢٢ ـ ٢٤٤). ثمّ قَالَ الرّازي بعد ذَٰلِكَ: وأعلم أنّ هَٰذِه الرّواية كالمتفق عَلَىٰ صحّتها بَيْنَ أَهْل الْحَدِيث والتَّفْسِير.

وَقَالَ الشعبي عَن جابر بن عبدالله قَالَ: نزلت هَٰذِه الآيَة ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ...﴾ أَبْنَآءَنَا الْحَسَن والحُسَيْن عليهما السلام، و ﴿وَنِسَآءَنَا﴾ فَاطِمَة، و ﴿أَنفُسَنَا﴾ عليّ بن أبي طالب عليه السلام. (أنظر شواهد التّنزيل لِلْحَاكِم الحسكاني: ١ / ١٥٨ / ١٧٠ ـ ١٧٥ و ١٧٦، أَسْبَاب النّزول للواحدي: ٧٥).

وَقَالَ الحبري فِي تَفْسِيره: نزلت هَٰذِه الآيَة فِي رَسُول الله ﷺ وعليّ عليه السلام [وهُو] نَفْسه، ونِسَآءَنَا ونِسَآءَكم فَاطِمَة، وأَبْنَآءَنَا وأبناءكم حسن وحُسين، والدعاء عَلَىٰ الكاذبَيْن العاقب والسَّيِّد وعبدالْمَسِيح وأصحابهم (تَفْسِير الحبري: ٥٠ / ٩).

وَقَالَ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره بعد ما ذكر الآيَة: كَانَ النَّبِيّ ﷺ، وعليّ، وفَاطِمَة، والْحَسَن، والحُسَيْن ـ إلىٰ أنْ قَالَ: ـ وأخذ بيد الْحَسَن، والحُسَيْن، وفَاطِمَة، وَقَالَ لعليّ: اتبعنا فخرج معهم فلم يخرج يَوْمَئِذٍ النّصارىٰ، وقَالُوا: إنّا نخاف أنْ يَكُون هَٰذَا هُو النَّبِيّ ولَيْسَ دَعْوَة النَّبِيّ كغيرها... «أَبْنَآءَنَا وأبناءكم»؟ قَالَ: حسن وحُسين... (تَفْسِير الطَّبَرِيّ: ٢ / ٣٠٠، الفخر الرّازي فِي تَفْسِيره للآيَة، نور الأَبْصَار للشبلنجي: ١٠٠).

وعَن المطّلب بن عبدالله بن حنطب، قَالَ النَّبِيّ[9] لوفد ثقيف حِينَ جاؤوه: لتسلمنّ أو لأبعثنّ عَلَيْكُمْ رجلاً منّي ـ أو قَالَ: مثل نفسي ـ. (ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٦٤، فَضَائِل عليّ[7] ومَوَدَّة القربىٰ: ١٢ بالإضافة إِلَىٰ المصادر السّابقة).

(١) الْأَحْزَاب: ٣٣.

⇔

لاَ بُدّ لنا مِن تحدِيد مَعْنَىٰ (الأَهْل) لغتةً واَصطلاحاً ـ كما وردت فِي كتاب الله، وأحاديث رسوله ﷺ وقواميس اللُّغَة العَرَبِيَّة، وذَلِكَ لقطع الطَّرِيق عَلَىٰ المتلاعبين، وإلقاء الحجّة عَلَىٰ الآخرين، ولْيَكُنْ تحديدنا عَلَىٰ نحو الإستعراض السّريع.

فالأَهْل فِي اللُّغَة: أَهْل الرَّجُل، عشيرته، وذوو قرباه، جمعه: أهلون، وأهَلات، وأَهْل. يأهل ويأهِل أهولاً وتأهل واَتهل: اَتخذ أهلاً.

وأَهْل الأَمْر: وُلاَتِه، وللبَيْت سكّانه، وللمَذْهَب من يدين به، وللرجل زوجته كأهلته، وللنبي ﷺ أزواجه وبناته وصهره عليّ ﷺ أو نساؤه، والرِّجَال الّذين هم آله، ولكلّ نبيٍّ أُمّته، ومكان آهل، له أَهْل ومأهول، فِيهِ أَهْل...(أُنظر القاموس المحيط للفيروزآبادي).

وذكر فِي المُعْجَم الوسيط تعريفاً آخر للأهل: الأَهْل: الأقارب، والعشيرة، والزَّوْجَة، وأَهْل الشّيء: أَصْحَابِه، وأَهْل الدَّار ونحوها: سكّانها.

وذكر الرّازي صاحب مختارات الصّحاح مَعْنَىٰ الأَهْل فَقَالَ: من الأهالة، والأهالة لغةً: الودك والمستأهل هُو الّذي يأخذ الأهالة، والودك دسم اللحم، والبَيْت عيال الرَّجُل... والأَهْل، والأقارب، والعشيرة، والزَّوْجَة، وأَهْل الشّيء أَصْحَابِه، وأَهْل الدَّار سكّانها.

إذَنْ، كَلِمَة «أَهْل» عندما تطلق فَإنَّهَا تحتمل عدّة معان، فرُبَّمَا تعني: الزَّوْجَة فقط، أو الأَوْلاَد فقط، أو الزَّوْجَة والأَوْلاَد معاً، أو الأقارب والعشيرة، إلىٰ غَيْر ذَلِكَ. ولذا نجد كلّ وَاحِدَة من هَذِه المَعَانِي قد وردت فِي ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ، حَيْث قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ٱلْقَصَص:٢٩.

فأَهْل مُوسَىٰ ﷺ فِي الآيَة الكريمة هِي الزَّوْجَة الَّتِي خرج بها عائداً من مَدْين إلىٰ مِصْر، ولَيْسَ يصحبه أحد سواها، فلا تنصرف كَلِمَة «أَهْله» إلىٰ معنىً آخر. (أُنظر تَفْسِير السَّيِّد عبدالله شبّر: ٣٧٣ الطَّبعة الثّالثة دار إحياء التّراث).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يُوسُف: ٢٥.

والأَهْل هنا أيضاً تعني الزَّوْجَة، وَهِي زَوْجَة عزيز مِصْر لا غَيْر.

وأمّا قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ ٱلْعَنْكَبُوت: ٣٣، وقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾. طه: ١٣٢. فكَلِمَة «الأَهْل» فِي الآيتين الشّريفتين تعني

↔ الأُسرة المكوّنة من الزّوجين، والأَوْلاَد، ومُتَعَلِّقِي ٱلرِّجَال، عَلَىٰ الرّغم من ٱستثناء زَوْجَة لوطٍ عليه السلام فنالها العذاب.

وأَمَّا قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ...﴾ هُودٍ: ٤٥ و ٤٦، فكَلِمَة «الأَهْل» هنا تعني أُسرة الرّجُل السّالكين لدربه والسّائرين عَلَىٰ خطّه، ولذا خرج ٱبْنِهِ عَن الأُسرة، ولذا لم يعدّ أحد أبنائه، لأنّه خرج عَن خطّ أبيه عليه السلام. وكَانَ نُوح عليه السلام يحمل زوجه وأَوْلاَده وزوجات أَوْلاَده. (لاحظ تَفْسِير الآيَة فِي كتب التّفْسِير وخَاصّةً تَفْسِير الجلالين).

أَمّا قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ٱلنِّسَاء: ٣٥. وقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ يُوسُفَ: ٢٦، فكَلِمَة «الأَهْل» فِي الآيَة الأُولَىٰ تعني أقارب وعشيرة الزّوجين. أَمّا فِي الآيَة الثّانِيَة فتعني أقارب وعشيرة إمْرَأة عزيز مِصْر. (لاحظ تَفْسِير الآيَة فِي كتب التّفْسِير وخَاصّةً تَفْسِير الجلالين، ولاحظ تَفْسِير الميزان: ١٢ / ١٤٢).

وأَمّا قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾ ٱلأَنْبِيَاء: ٨٤، فكَلِمَة «أَهْل» فِي الآيَة هنا تشير إلى أبناء النّبِيّ أيوب عليه السلام بعد كَشْف الضّرّ عَنْه.

أَمّا قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ فَاطِرٍ: ٤٣، وقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ ٱلنِّسَاء: ٥٨، وقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ ٱلْكَهْفِ: ٧١، فكَلِمَة «أَهْل» فِي هَـٰذِهِ الآيَات الشّرِيفة تعني أَصْحَاب الشّيء أو أَصْحَاب ٱلْعَمَل.

والخُلاَصة: أنّ كَلِمَة «أَهْل» قد وردت فِي ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم ٥٤ مرّة (أُنظر المُعْجَم المفهرس لألفاظ ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم لمُحَمَّد فؤاد عبد الباقي).

أَمّا كَلِمَة «بَيْت» الّتي وردت فِي مواطن عديدة من كتاب الله تَعَالَىٰ وسنّة نَبِيّه صلى الله عليه وآله، أيضاً حملت عدّة معانٍ، مِنْهَا: ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَام. ومِنْهَا: ٱلْبَيْت النّسبي، ومِنْهَا: ٱلْبَيْت المادّي المعدّ للسكن، وغَيْر ذَٰلِكَ. فقد وردت بِمَعْنَىٰ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَام ١٥ مرّة؛ (أُنظر ٱلْبَقَرَة: ١٢٥ و ١٢٧ و ١٥١، ٱلْأَنفَالِ: ٢٥، هُودٍ: ٧٣، ٱلْحَجِّ: ٢٦ و ٢٩ و ٣٣، آلِ عِمْرَان: ٩٦ و ٩٧ ٱلْمَائِدَةِ: ٢ و ٩٧، ٱلْأَحْزَابِ: ٣٣، ٱلطُّورِ: ٤، إِبْرَاهِيم: ٢٧) لِأَنَّهَا من الأَلْفَاظ المشتركة.

أَمّا إِذَا أضفنا كَلِمَة «ٱلْبَيْت» إلىٰ الأَهْل فقد وردت فِي ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم مرّتين كما فِي قَوْله تَعَالَىٰ: ↔

⇔ ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ هُودٍ: ٧٣. وقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ ٱلْأَحْزَابِ: ٣٣.

أَمَّا كَلِمَة «أَهْل ٱلْبَيْت» فِي السّنّة المطهّرة فكَثِيرَة الورود، وَلاَ يمكن لنا آستعراضها، لاستلزام ذٰلِكَ مراجعة قَوْله وفعله وتقريره ﷺ، وَهٰذَا مِمَّا لا يمكن حصره.

وبِمَا أَنَّ المدلول الحَقِيقِي لِهٰذَا المصطلح الجليل قد تعرّض لحملةٍ من التّزوير، والتّشويه، وهُو مدار بحثنا فيقتضي التّنويه عمّا ورد عَنْه ﷺ عَلَىٰ سَبِيل الإجمال لا التّفصيل. فقد ورد عَنْه ﷺ عَن طريق أَهْل السّنّة والشّيعة ما يقاربُ الثّمانين، روىٰ مِنْهَا أَهْل السّنّة ما يقرب من أَرْبَعِين حديثاً. وروىٰ أَهْل الشّيعة أَكْثَر من ثلاثين طريقاً (راجع تَفْسِير الميزان: ١٦ / ٣٢٩). وَعَلَىٰ الرّغم من ذٰلِكَ فقد تمخّض عَن إهمال القرينة قيام عدّة آراء ومذاهب كلّ مِنْهَا تزعم سلامة الاتجاه والتّفْسِير لِهٰذَا المصطلح.

فمنهم من يقول: إِنَّ أَهْل ٱلْبَيْت الّذين عنتهم آية التّطْهِير هم: بَنُو هاشم ـ أي بَنُو عبدالمطّلب جَمِيعاً ـ. ومِنْهُم من قَالَ: إنّهم مؤمنو بني هاشم وعبدالمطّلب دُونَ سائر أبنائهما (روح المَعَانِي للآلوسي: ٢٤ / ١٤).

ومِنْهُم من يقول: إنّهم العَبّاس بن عبدالمطّلب وأبناؤه (المَصْدَر السّابق).

ومِنْهُم من يقول: هم الّذين حرموا من الصَّدَقَة: آل علي، وآل عَقِيل، وآل جعفر، وآل العَبّاس (أُنظر تَفْسِير الخازن: ٥ / ٢٥٩).

ومِنْهُم من يقول: هم نِسَآءَ النَّبِيّ ﷺ، وعليّ، وفَاطِمَة، والحَسَن، والحُسَيْن ﷺ (أُنظر تَفْسِير الخازن: ٥ / ٢٥٩، تفْسِير الكشّاف: ٣ / ٦٢٦، فتح القَدِير للشوكاني: ٤ / ٢٧٨ و ٢٨٠).

ومِنْهُم من يقول: هم نِسَآءَ النَّبِيّ ﷺ خاصّةً، حَتَّىٰ أَنّ عِكْرِمَة كَانَ يقول: من شاء باهلته بأنّها نزلت بأزواج الرَّسُول ﷺ.

ولَسْنَا بصدد مناقشة هٰذِهِ الأقوال، ولكن نُذكّر القارئ ٱلْكَرِيم بأَنّ عِكْرِمَة بن عبدالله يرىٰ رأي نجدة الحَرُورِيّ وهُو من أشدّ ٱلْخَوَارِج بغضاً لعلي بن أبي طالب ﷺ. ويرىٰ أيضاً كفر جَمِيع ٱلْمُسْلِمِين من غَيْر ٱلْخَوَارِج. وهُو القَائِل فِي موسم ٱلْحَجّ: وددت أنّ بيدي حربةً فأعترض بها من شهد الموسم يميناً وشمالاً. وهُو القَائِل أيضاً عندما وقف عَلَىٰ باب ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَام: ما فِيهِ إلاّ كافر.

ومن مفاهيمه الإعتقادية: إنّما أنزل الله متشابه ٱلْقُرْآن ليضلّ به. وقد آشتهر بكذبه ووضعه للحديث آبن عَبّاس، وآبن مسعود، ولذا وصفه يحيىٰ بن سعيد الأنْصَاري بأنّه كذّاب. (أُنظر ترجمة عِكْرِمَة فِي ميزان ⇔

⇔ الإِعْتِدَال للذهبي: والمعارف لِابْن قُتَيْبَة: ٤٥٥ الطَبعة الأُولَىٰ قم منشورات الشَّريف الرَّضِي، طَبقَات ابن سعد). أفيصحّ بعد هَذَا أنْ نأخذ بحديثٍ يرويه؟!

أمَّا الرَّاوي الثَّانِي بعد عِكْرِمَة فَهُوَ مقاتل بن سليمان البلخي الأَزْدِيّ الخراساني، كَانَ مفسّراً لِلْقُرْآن ٱلْكَرِيم عَلَىٰ طريقته الْخَاصَّة، حَتَّىٰ قَالَ فِيهِ ابن المبارك: ما أحسن تَفْسِيره لو كَانَ ثقة. (أُنظر ميزان الإعتدال للذهبي: ٤ / ١٧٣ الطَبعة الأُولَىٰ بيروت، تَهْذِيب الْعُمَّال فِي أسماء ٱلرِّجَال للحافظ الخَزْرَجِي الأَنْصَاري). وكَانَ من غلاة المجسّمة يشبّه الْخَالِق بالْمَخْلُوقِينَ، حَتَّىٰ قَالَ أبو حَنِيفَة: أفرط جهم فِي نفي التّشبيه حَتَّىٰ قَالَ: إنّه تَعَالَىٰ لَيْسَ بشيء وأفرط مقاتل فِي الإثبات حَتَّىٰ جعله مثل خلقه. (أُنظر الْمَصْدَر السّابق). وَقَالَ النّسائي: والكذّابون الْمَعْرُوفُون بوضع الْحَدِيث: ابن أبي يحيىٰ بِالْمَدِينَة، والواقدي ببغداد، ومقاتل بن سليمان. (ميزان الإِعْتِدَال: ٣ / ٥٦٢ فِي ترجمة مُحَمَّد بن سعيد المصلوب). وكَانَ مقاتل عَلَىٰ مَذْهَب المرجئة. (الفصل لِابْن حزم: ٤ / ٢٠٥)، ويأخذ عَن اليهود، والنّصارىٰ ويغرّر بِالْمُسْلِمِين، حَتَّىٰ قَالَ فِيهِ الذّهبي: كَانَ مقاتل دجّالاً جسوراً. (ميزان الإِعْتِدَال: ٣ / ٥٦٢).

عَود عَلَىٰ بدء: كَيْفَ يفسّر عِكْرِمَة أو مقاتل بأنّ الآيَة نزلت فِي نِسَآءَ النَّبِيّ ﷺ خَاصَّةً مَع أنّ الْمُرَاد من الرّجس هُو مطلق الذّنب؟! وَهَذَا يلزم إذهاب الرّجس عنهنّ وبالتّالي لا يصحّ أنْ يُقَال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ...﴾ ٱلْأَحْزَاب: ٣٢، ولما صحّ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ ٱلْأَحْزَاب: ٣٠.

وكَيْفَ يفسّران ايذاءهنّ له ﷺ مَع إذهاب الرّجس عنهنّ؟! حَيْث ذكر البُخَارِيّ: إنّ النَّبِيّ ﷺ هجر عَائِشَة، وحفصة شهراً كاملاً، وذَلِكَ بسبب إفشاء حفصة الْحَدِيث الَّذي أسرّه لها إلى عَائِشَة، فقالت للنبي ﷺ: إنّك أقسمتَ أنْ لا تدخل علينا شهراً. (صَحِيح البُخَارِيّ: ٣ / ٣٤). وفِي رواية أنس: قَالَ ﷺ: آليت منهنّ شهراً. (نفس الْمَصْدَر السّابق). وهاهُو ابن عبَّاس يقول: لم أزل حريصاً عَلَىٰ أنْ أسأل عُمَر بن الخَطَّاب عَن المرأتين من أزواج النَّبِيّ ﷺ اللتين قَالَ الله تَعَالَىٰ فِيهِمَا: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ٱلتَّحْرِيم: ٤. حَتَّىٰ حجّ وحججت معه... حَتَّىٰ قَالَ ابن عبَّاس: فقلت لِلْخَلِيفَة: من المرأتان؟ فَقَالَ عُمَر بن الخَطَّاب: واعجباً لك يا ابن الْعَبَّاس! هما عَائِشَةَ وحفصة. (الْمَصْدَر السّابق: ٧ / ٢٨ ـ ٢٩، و: ٣ / ١٣٣). وهاهِي عَائِشَة وتعقّبها للنبيّ ﷺ بعد ما فقدته فِي ليالي نوبتها، وقَوْله ﷺ لها: «مالك يا عَائِشَةَ! أغرتِ؟ فقالت: ومالي أنْ لا يغار مثلي عَلَىٰ مثلك؟! فَقَالَ لها ﷺ: أفأخذكِ

⇔

⇐ شيطانكِ؟! (مُسْنَد أحمد: ٦/ ١١٥، وأُنظر تفْسِير الطَّبَرِيّ: ٢٨/ ١٠١، وطَبَقَات ٱبْن سعد: ٨/ ١٣٥ ط أوربا، وصَحِيح البُخَارِيّ: ٣/ ١٣٧، و: ٤/ ٢٢، وصَحِيح مُسْلِم كتاب ٱلطَّلَاقِ ح ٣١ ـ ٣٤).

وكَيْفَ يفسّران قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ٱلْأَحْزَابِ: ٥٧، وقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٱلتَّوْبَة: ٦١، وقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ...﴾ ٱلتَّحْرِيم: ٥، وقَوْله ﷺ لأُمّ سلمة عند ما سألته: يا رَسُول الله ألست من أَهْل ٱلْبَيْت؟ قَالَ: أنتِ إِلَىٰ خيرَ إنّك من أزواج النَّبِيّ. وما قَالَ: إنّك من أَهْل ٱلْبَيْت؟! (أُنظر كتاب شواهد التّنزيل لِلْحَاكِم الحسكاني: ٢/ ١٢٤ تحقيق الشّيخ المحمودي نقلاً عَن كتاب معجم الشّيوخ: ٢/الورق ٧ من المصوّرة، تفْسِير الطَّبَرِيّ: ٢٢/ ٧).

أمّا المَدلول الحَقِيقِي لأَهْل ٱلْبَيْت بعد تخصيص هَذَا التعميم وتقييد الإطلاق فِي الآيَة ٱلْكَرِيمَة من خلال القرينة الَّتِي ترافق الاستعمال، وكَذَٰلِكَ من خلال الأَحَادِيث النَّبَوِيَّة المحدّدة للمراد من أَهْل ٱلْبَيْت فِي آية التَّطْهِير وَهِي ما أجمعت عَلَيْهِ الأمّة من خلال كتب الحَدِيث المعتبرة أو كتب التَّفْسِير فإنّه يظهر لنا أنّ هَذِه الآيَة نزلت فِي خمسةٍ، وهم: مُحَمَّد، وعليّ، وفَاطِمَة، والحَسَن والحُسَيْن عليهم السلام. ومصادر تلك الأَحَادِيث غَيْر محصورة، ولكن نشير إِلَىٰ ماهُو متداول ومنشور مِنْهَا:

١ ـ روت أُمّ ٱلْمُؤْمِنِين أمّ سلمة بشأن نزول هَذِه الآيَة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ قالت: إنّها نزلت فِي بَيْتِي، وفِي ٱلْبَيْت سبعة: جبْرِيلَ، وميكال، وعليّ، وفَاطِمَة، والحَسَن، والحُسَيْن رضي الله عنهم وأنا عَلَىٰ باب ٱلْبَيْت، قلت: يا رَسُول الله، ألست من أَهْل ٱلْبَيْت؟ قَالَ: إنك إِلَىٰ خير، إنكِ إِلَىٰ خير! إنكِ من أزواج النَّبِيّ. (أُنظر الدّر المنثور للسيوطي: ٤/ ١٩٨، ومشكل الآثار: ١/ ٢٣٣، ورواية أُخرىٰ فِي سُنَن التِّرمِذي: ١٣/ ٢٤٨، ومُسْنَد أحمد: ٦/ ٣٠٦، أُسد الغابَة: ٤/ ٢٩، وتَهْذِيب التَّهْذِيب: ٢/ ٢٩٧).

٢ ـ وروى عبدالله بن جعفر بن أبي طالب قَالَ: لمّا نظر رَسُول الله ﷺ إِلَىٰ الرَّحْمَة هابطة قَالَ: أدعوا لِي، أدعوا لِي، فقالت صفيه بنت حُيي بن أخطب زوج رَسُول الله ﷺ: مَن يا رَسُول الله؟ قَالَ: أَهْل بَيْتِي: عَلِيّاً، وفَاطِمَة، والحَسَن، والحُسَيْن. (أُنظر مُسْتَدرَك الصَّحِيحين: ٣/ ١٤٧، صَحِيح مُسْلِم: ٥/ ١٥٤، مُسْنَد أحمد: ١/ ٩، سُنَن البَيْهَقِيّ: ٦/ ٣٠٠). فجيء بِهِمْ، فألقىٰ عَلَيْهِمْ النَّبِيّ ﷺ كساءه، ثمّ رفع يديه، ثمّ ⇐

⇔ قَالَ: أَللَّهُمَّ هَؤُلاَء آلي فصلّ عَلَىٰ مُحَمَّد وآل مُحَمَّد. فنزل قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ...﴾.

٣ ـ وروت أُمّ ٱلْمُؤْمِنِين عَائِشَةَ بشأن نزول هَذِهِ الآيَة قالت: خرج رَسُول الله غداةً وعَلَيْهِ مرط مرحل من شعر أَسْوَد، فجاء الْحَسَن بن عليّ فأَدْخَلَه، ثمّ جاء الحُسَيْن فدخل معه، ثمّ جاءت فَاطِمَة فأَدْخَلَها، ثمّ جاء عليّ فأَدْخَلَه. (أنظر مُسْتَدرَك الصَّحِيحِين: ٣/١٤٧ ط حيدر آباد، تَفْسِير الطَّبَرِيّ: ٢٢/٥ ط بولاق)، ثمّ قَالَ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

٤ ـ وعَن أنس بن مالك قَالَ: إِنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يمرّ بباب فَاطِمَة ستة أشهر كلّما خرج إِلَىٰ صَلاَة ٱلْفَجْرِ يقول: الصَّلاَة يا أَهْل ٱلْبَيْت، إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البَيْت. (أنظر المصادر السّابقة، وتَفْسِير أبْن كثير: ٣/٤٨٣، والدُّر المنثور، ٥/١٩٩، ومُسْنَد الطَّيَالِسِي: ٨/٢٧٤).

فهَؤُلاَء أَهْل بَيْت النَّبِيّ ﷺ عليّ، وفَاطِمَة، والحَسَن، والحُسَيْن عليهم السلام كما جاء فِي النقل المتواتر الّذي لا يقبل اللبس، وكما هُو معروف من أحوال النَّبِيّ ﷺ وسيرته معهم.

ونظراً لكثرة المصادر التَّأرِيخِية، والحديثية، والتَّفْسِيرية نكتفي بذكرها فقط دُونَ تدوين ٱلْوَاقِعَة.

أَوّلاً: بدءً بالسَّيِّدة عَائِشَةَ زَوْجَة النَّبِيّ ﷺ وٱعترافها بأنّ أَهْل ٱلْبَيْت هم: عليّ، وفَاطِمَة، والْحَسَن والحُسَيْن عليهم السلام، وَهِي خارجة عنهم، أي لم تشملها الآيَة.

أُنظر ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ للطبري الشّافعي: ٢٤، صَحِيح مُسْلِم باب فَضَائِل أَهْل ٱلْبَيْت: ٢/٢٦٨ ط عِيسَىٰ الحلبي بِمِصْر، و: ١٥/١٩٤ ط مِصْر أيضاً بشرح النّووي، فتح الْبَيَان لصدّيق حسن خان: ٧/٣٦٥، فتح القَدِير للشوكاني: ٤/٢٧٩، شواهد التّنزيل للحسكاني الحنفي: ٢/٥٦ ح ٦٧٦ ـ ٦٨٤ تحقيق الشّيخ المحمودي، المُسْتَدرَك لِلْحَاكِم: ٣/١٤٧، الدُّر المنثور للسيوطي: ٥/١٩٨، إحقاق الْحَقّ للتستري: ٩/١٠، كفاية الطّالب للحافظ الكنجي الشّافعي: ٥٤ و ٣٧٣ و ٣٧٤ ط الحيدرية، نظم درر السّمطِين للزرندي الحنفي: ١٣٣.

وثانياً: أعتراف أُمّ ٱلْمُؤْمِنِين أُمّ سلمة زوج النَّبِيّ ﷺ بأنّ أَهْل ٱلْبَيْت هم: عليّ، وفَاطِمَة، والْحَسَن والحُسَيْن عليهم السلام، وَهِي خارجة عنهم.

أُنظر شواهد التّنزيل للحسكاني الحنفي: ٢/٣٩ ح ٦٥٩ و٧٠٦ و٧٠٧ ـ ٧١٠ و٧١٣ و٧١٤ و٧١٧ و ٧٢٠ و ٧٢٢ و ٧٢٤ و٧٢٥ و ٧٢٦ و ٧٢٩ و ٧٣١ و ٧٣٧ و٧٣٨ و ٧٤٠ و ٧٤٧ و ٧٤٨ و ٧٥٢ ⇔

↔ و ٧٥٥ و ٧٥٧ ـ ٧٦١ و ٧٦٤ و ٧٦٥ و ٧٦٨، الرِّياض النّضرة لمحبّ الدِّين الطّبَرِيّ الشّافعي: ٢٤٨/٢ الطّبعة الثّانِيَة، مطالب السّؤول لِابْن طَلْحَة الشّافعي: ١٩/١ ط النّجف. سُنن التِّرمِذي: ٣٢٧/٥ ح ٣٢٠٥، صَحِيح التِّرمِذي: ٣١/٥ ح ٣٢٥٨ و ٣٢٨ ح ٣٨٧٥ و ٣٦١ ح ٣٩٦٣.

وأُنظر فتح ٱلْبَيَان لصدّيق حسن خان: ٣٦٤/٧، فتح القَدِير للشوكاني: ٢٧٩/٤، مناقب الإمام عليّ بن أبي طالب لِابْن المغازلي الشّافعي: ٣٠٣ ح ٣٤٧ و ٣٤٩، تَفسِير ٱبْن كثير: ٤٨٤/٣، الدُّر المنثور للسيوطي: ١٩٨/٥، نظم درر السّمطين للزرندي الحنفي: ٢٣٨، ذَخَائِر ٱلْعُقْبَىٰ للطبري الشّافعي: ٢١، كفاية الطّالب للحافظ الكنجي الشّافعي: ٣٧٢ ط الحيدرية، يَنَابِيع المَوَدَّة للحافظ القندوزي الحنفي: ١٠٧ و ٢٢٨ و ٢٣٠ و ٢٩٤ ط اسلامبول، أُسد الغَابَة لِابْن الأَثِير: ١٢/٢، و: ٤١٣/٣، و: ٢٩/٤، السِّيرَة النّبَوِيّة بهَامِش السِّيرَة الحَلَبِية: ٣٣٠/٣ ط البهية بِمِصْر. تَفْسِير الطّبَرِيّ: ٧/٢٢، إسعاف الرّاغبين بهَامِش نور الأَبْصَار: ٩٧ ط العُثْمانِية، بحَار الأَنْوَار: ٢٢٦/٣٥.

وَثَالِثاً: ٱختصاص أَهْل ٱلْبَيْت بعلي، وفَاطِمَة، والحَسَن، والحُسَيْن عليهم السلام من خلال قَوْله صلى الله عليه وآله: أَللّٰهُمَّ هَؤُلَاء أَهْل بَيْتِي فأذهب عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً. وقَرِيب مِنْهُ أَلفَاظ أُخرىٰ كما ورد عَن جابر بن عبدالله: أَنّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله دَعَا عَلِيّاً، وأبنيه وفَاطِمَة، فألبسهم من ثوبِهِ. ثمّ قَالَ: أَللّٰهُمَّ هَؤُلَاء أَهلي، هَؤُلَاء أهلي.

أُنظر، شواهد التّنزيل لِلْحَاكِم الحسكاني الحنفي: ٢٨/٢ تحقيق الشّيخ المحمودي ح ٦٤٧ ـ ٦٤٩ و ٦٥٤ و ٦٥٩ و ٦٧٠ و ٦٧٢ و ٦٧٣ و ٦٧٥ و ٦٨٢ و ٦٨٤ و ٦٨٦ و ٦٨٩ و ٦٩١ ـ ٦٩٣ و ٧١٨ ـ ٧٢٢ و ٧٢٤ و ٧٢٦ و ٧٣١ و ٧٣٢ و ٧٣٤ و ٧٣٧ ـ ٧٤١ و ٧٤٣ و ٧٥٤ و ٧٥٨ ـ ٧٦١ و ٧٦٥ و ٧٦٨، فرائد السّمطين: ٣١٦/١ ح ٢٥٠ و ٣٦٨ ح ٢٩٦، و: ١٤/٢ ح ٣٦٠، الرّياض النّضرة لمحبّ الدِّين الطّبَرِيّ الشّافعي: ٢٤٨/٢ الطّبعة الثّانِيَة، السِّيرَة الحَلَبِية للحلبي الشّافعي: ٢١٢/٣ ط البهية بِمِصْر، صَحِيح التِّرمِذي: ٣١/٥ ح ٣٢٥٨ و ٣٢٨ ح ٣٨٧٥ و ٣٦١ ح ٣٩٦٣، صَحِيح مُسْلِم باب فضائل عليّ بن أبي طالب: ١٧٦/١٥ ط مِصْر بشرح النّووي.

وأُنظر أيضاً مناقب الإمَام عليّ بن أبي طالب لِابْن المغازلي الشّافعي: ٣٠٢ ح ٣٤٦ ـ ٣٥٠، مطالب السّؤول لِابْن طَلْحَة الشّافعي: ١٩/١ ط النّجف، المناقب للخوارزمي الحنفي: ٦٠، مقتل الحُسَيْن للخوارزمي: ٧٥/١، خصائص أمِير ٱلْمُؤْمِنِين للنسائي: ٤ و ١٦ ط القاهرة وص ٤٦ بتحقيق الشّيخ ↔

↔ المحمودي، المُسْتَدرَك عَلَىٰ الصَّحِيحِين لِلْحَاكِم: ٢/ ١٥٠ و ٤١٦، و: ٣/ ١٠٨ و ١٤٦.

وأُنظر كَذٰلِكَ تَفْسِير الطَّبَرِيّ: ٢٢/ ٦. السِّيرَة النَّبويَّة لزين دحلان بهَامِش السِّيرَة الحَلَبِية: ٣/ ٣٣٠ ط البهية بمِصْر، فتح الْبَيَان لصدّيق حسن خان: ٧/ ٣٦٤، فتح القَدِير للشوكاني: ٤/ ٢٧٩، الدُّر المنثور للسيوطي: ٥/ ١٩٨، إحقاق الْحَقّ: ٩/ ٢ ـ ٦٩، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ لمحبّ الدِّين الطَّبَرِيّ الشّافعي: ٢٣، تَفْسِير آبْن كثير: ٣/ ٤٨٣، مَجْمَع الزّوائد: ٧/ ٩١، تَأريخ الخُلَفَاء للسيوطي: ١٦٩، يَنَابِيع المَوَدَّة للحافظ القندوزي الحنفي: ١٠٧ و ١٠٨ و ١٩٤ و ٢٢٨ ـ ٢٣٠ و ٢٤٤ و ٢٨١ و ٢٩٤ط اسلامبول، مُسْنَد أحمد: ١/ ١٨٥، و: ٣/ ٢٥٩، و: ٦/ ٢٩٨ ط الميمنية بمِصْر، مشكاة المَصَابِيح للعمري: ٣/ ٢٥٤ تَأرِيخ آبْن عساكر الشّافعي: ١/ ٢١ ح ٣ وص ١٨٤ و ٢٤٩ و ٢٧١ ـ ٢٧٣، تَفْسِير الفخر الرّازي: ٢/ ٧٠٠، أُسد الغَابَة لِابْن الأَثِير: ٢/ ١٢، و: ٣/ ٤١٣، و: ٤/ ٢٦، و: ٥/ ٦٦ و ١٧٤ و ٥٢١ و ٥٨٩.

وراجع مُنْتَخب كنز الْعُمَّال بهَامِش مُسْنَد أحمد: ٥/ ٥٣، مصابيح السّنّة للبغوي الشّافعي: ٢/ ٢٧٨ ط مُحَمّد عليّ صبيح، الْمُعْجَم الْصَّغِير للطبراني: ١/ ٦٥، نظم درر السّمطين للزرندي الحنفي: ١٣٣ و ٢٣٨ و ٢٣٩، مَعَالِم التّنزيل للبغوي الشّافعي مطبوع بهَامِش تَفْسِير الخازن: ٥/ ٢١٣، الصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة لِابْن حجر: ١١٩ و ١٤١ ـ ١٤٣ و ٢٢٧ ط الْمُحَمَّدية، تَفْسِير الخازن: ٥/ ٢١٣، مرآة الجنان لليافعي: ١/ ١٠٩، التّأريخ الْكَبِير للبخاري: ١/ق ٢/ ٦٩ رقم ١٧١٩ و ٢١٧٤ ط سنة ١٣٨٢ هـ. أَسْبَاب النّزول للواحدي: ٢٠٣، الإِتْحَاف للشبراوي الشّافعي: ٥، الاِسْتِيعَاب لِابْن عبد البرّ بهَامِش الإِصَابَة: ٣/ ٣٧ ط السّعادة، كفاية الطّالب للحافظ الكنجي الشّافعي: ٥٤ و ١٤٢ و ١٤٤ و ٢٤٢ ط الحيدرية.

ورابعاً: آختصاص أَهْل ٱلْبَيْت بعلي، وفَاطِمَة، والْحَسَن، والحُسَيْن عليهم السلام وذٰلِكَ من خلال أَقْوَاله صلى الله عليه وآله عندما يخرج للصّلاة، ويمرّ بباب عليّ وفَاطِمَة عليهما السلام، كرواية أنس بن مالك قَالَ: إِنَّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله كَانَ يمرّ بباب فَاطِمَة ستة أشهر، فَإِذَا خرج إِلىٰ صَلاة ٱلْفَجْرِ يقول: الصَّلاة يا أَهْل ٱلْبَيْت، إِنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أَهْل ٱلْبَيْت.

أنظر، شوَاهد التّنزيل للحسكاني الحنفي: ٢/ ١٨ ح ٦٣٧ ـ ٦٤٠ و ٦٤٤ و ٦٩٥ و ٦٩٦ و ٧٧٣ تحقيق الشّيخ المحمودي. مطالب السّؤول لِابْن طَلْحَة الشّافعي: ١/ ١٩، صَحِيح التِّرمِذي: ٥/ ٣ ح ٣٢٥٩، مُسْنَد أحمد: ٣/ ٢٥٩ و ٢٨٥ ط الميمنية بمِصْر، مُنْتَخَب كنز الْعُمَّال بهَامِش مُسْنَد أحمد: ٥/ ٩٦، الدُّر المنثور للسيوطي: ٥/ ١٩٩، تَفْسِير الطَّبَرِيّ: ٢٢/ ٦، مَجْمَع الزّوائد للهيثمي الشّافعي: ٩/ ١٦٨، ↔

⇐ تَفْسِير ٱبْن كثير: ٢/ ٤٨٣ و ٤٨٤، المُسْتَدرَك لِلْحَاكِم: ٣/ ١٥٨، يَنَابِيع المَوَدَّة للقندوزي الحنفي: ١٩٣ و ٢٣٠ ط اسلامبول، فتح البَيَان لصدّيق حسن خان: ٧/ ٣٦٥ ط القاهرة، أنساب الأشْرَاف للبلاذري: ٢/ ١٠٤ ح ٣٨، أسد الغَابَة لِابْن الأَثِير: ٥/ ٥٢١.

وخامساً: ٱختصاص أَهْل ٱلبَيْت بعلي، وفَاطِمَة، والحَسَن، والحُسَيْن عليهم السلام من خلال سبب النّزول، وما قاله صلى الله عليه وآله فِيهِمْ كحديث أُمّ سلمة: إنَّ النَّبِيّ صلى الله عليه وآله كَانَ فِي بَيْتِها، عَلَىٰ منامة له، عَلَيْهِ كساء خيبري، فجاءت فَاطِمَة ببرمة فِيْهَا خزيرة، فَقَالَ: ٱدعي زوجك وٱبنيك، فدعتهم، فبيناهم يأكلون إذ نزلت عَلَىٰ النَّبِيّ صلى الله عليه وآله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. فأخذ النَّبِيّ صلى الله عليه وآله بفضلة الْكِسَاء فغشّاهم إيّاها، ثمّ قَالَ: ٱللّهُمّ هَؤُلَاء أَهْل بَيْتِي وحامّتي فأذهب عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً. قالها النَّبِيّ صلى الله عليه وآله ثلاث مَرّات. قالت أُمّ سلمة: فأدخلت رأسي فِي ٱلبَيْت، فقلت: وأنا مَعَكُمْ يا رَسُول الله؟ قَالَ: إنّكِ إلىٰ خير.

أُنظر شواهد التّنزيل لِلْحَاكِم الحسكاني: ٢/ ١٣ ح ٦٣٧ ـ ٦٤١ و ٦٤٤ و ٦٤٨ ـ ٦٥٣ و ٦٥٦ ـ ٦٦١ و ٦٦٣ ـ ٦٦٨ و ٦٧١ ـ ٦٧٣ و ٦٧٥ و ٦٧٨ و ٦٨٠ و ٦٨١ و ٦٨٦ و ٦٨٩ و ٦٩٠ و ٦٩١ و ٦٩٤ و ٧٠٧ و ٧١٠ و ٧١٣ و ٧١٤ و ٧١٧ و ٧١٨ و ٧٢٩ و ٧٤٠ و ٧٥١ و ٧٥٤ ـ ٧٦٢ و ٧٦٤ و ٧٦٥ و ٧٦٧ و ٧٦٩ و ٧٧٠ و ٧٧٤ ط وزارة الثّقافة والإرْشَاد الإسْلَامي، صَحِيح مُسْلِم: فَضَائِل أَهْل ٱلبَيْت ٢/ ٣٦٨ ط عِيسَىٰ الحلبي، صَحِيح التِّرمِذي: ٥/ ٣٠ ح ٣٢٥٨، و: ٥/ ٣٢٨ ح ٣٨٧٥ ط دار الفِكْر، مُسْنَد أحمد: ١/ ٣٣٠ ط الميمنية بِمِصْر، فرائد السّمطين للحمويني الشّافعي: ١/ ٣١٦ ح ٢٥٠، و: ٢/ ٩ ح ٣٥٦ و ٣٦٢ و ٣٦٤، عبقات الأنْوَار: قسم حديث الثّقلَيْن: ١/ ٢٨٥، إسعاف الرّاغبين للصبّان بهامش نور الأبْصَار: ١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٦ ط السّعيدية، فتح القَدِير للشوكاني: ٤/ ٢٧٩.

وأُنظر كَذَٰلِكَ نور الأبْصَار للشبلنجي: ١٠٢ ط السّعيدية، فتح البَيَان لصدّيق حسن خان: ٧/ ٣٦٣ ـ ٣٦٥، الرّياض النّضرة لمحبّ الدّين الطَّبَرِيّ الشّافعي: ٢/ ٢٤٨ الطّبعة الثّانِيَة، إحقاق الحَقّ للتستري: ٢/ ٥٠٢ ـ ٥٤٧، فَضَائِل الخَمْسَة: ١/ ٢٢٤ ـ ٢٤٣، يَنَابِيع المَوَدّة للقندوزي الحنفي: ١٠٧ و ١٠٨ و ٢٢٨ ـ ٢٣٠ و ٢٤٤ و ٢٦٠ و ٢٩٤ ط اسلامبول، العقد الفريد لِابْن عبد ربه المَالِكِي: ٤/ ٣١١ ط لجنة التّأليف والنّشر بِمِصْر، الإسْتِيعَاب لِابْن عبدالبرّ بهامش الإصَابَة: ٣/ ٣٧ ط السّعادة، خصائص أمير المُؤْمِنِين للنسائي الشّافعي: ٧٢ تحقيق الشّيخ المحمودي، مُنْتَخَب كنز العُمّال بهامش مُسْنَد أحمد بن حنبل: ٥/ ٩٦.

⇐

ٱلْقُرْآن وأَهْل بَيْتِه، وَقَد جَمع أَسَانِيد هَذَا الْحَدِيث الْمُتَوَاتر مِن طَرِيق السُّنَّة، جَمَعَهَا الشّيخ قوّام الدِّين الوَشنُوي القُمّي فِي رِسَالة خَاصَّة، أسمَاها (حَـدِيث الثَّـقلين)، وَنَشرتها دَار التَّقرِيب بَيْنَ ٱلْمَذَاهِب الإِسْلاَمِيّة[1]، أَمَّا آيَة الْمُبَاهَلَة فَقَد دَلت عَلَىٰ أَنّ

⇐ وأنظر أيضاً السِّيرَة النَّبويَّة لزين دحلان بهامِش السِّيرَة الْحَلَبِية: ٣/٣٢٩ و ٣٣٠ ط البهية بمِصْر، كفاية الطّالب للحافظ الكنجي الشّافعي: ٥٤ و ٣٧٢ ـ ٣٧٥، أسد الغَابَة فِي مَعْرِفَة الصَّحَابَة لِابْن الأَثِير الشّافعي: ٢/١٢ ـ ٢٠، و: ٣/٤١٣، و: ٥/٥٢١ و ٥٨٩، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ للطبري الشّـافعي: ٢١ و ٢٣ و ٢٤، أَسْبَاب النّزول للواحدي: ٢٠٣ ط الحلبي بِمِصْر، الصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة لِابْن حجر الشّافعي: ٨٥ و ١٣٧ ط الميمنية بِمِصْر، الإتقان فِي علوم ٱلْقُرْآن للسيوطي: ٤/٢٤٠ مطبعة المشهد الحُسَيْني بِمِصْر، التّسهيل لعلوم التّنزيل للكلبي: ٣/١٣٧، التّـفْسِير المـنير لِمَعَالِمِ التّـنزيل للجاوي: ٢/١٨٣، أَحْكَـام ٱلْـقُرْآن للجصّاص: ٥/٢٣٠ ط عبدٱلرَّحْمَان مُحَمَّد، مناقب عليّ بن أبي طـالب لِابْـن المـغازلي الشّـافعي: ٣٠١ ح ٣٤٥ و ٣٤٨ ـ ٣٥١.

وراجع مصابيح السّنّة للبغوي الشّافعي: ٢/٢٧٨ ط مُحَمَّد عليّ صبيح ووردت فِي تَفْسِير البرهـان: ٣/٣١٢ ح ١٢ و ٣١٤ ح ١٤ رواية عَن عَمْرو بن يَزِيد عَن مكحول وفِيْهَـا قَالَ جِبْرِيل: وأنا منكم يا مُحَمَّد...، مَجْمَع الْبَيَان: ٧ ـ ٨: ٣٥٦ و ٣٥٧ ط إحياء التّراث العَرَبِي بيروت، تَفْسِير الشّوكاني: ٤/٢٨٠، خُلَفَاء الرَّسُول للعلاّمة البحراني: ١٧٨، الْمُسْتَدرَك لِلْحَاكِم: ٣/١٤٦ ط دار ٱلْمَعْرِفَة بيروت، القَوْل الفصل للسيّد علوي بن طاهر الحدّاد: ٢/٢٨٦ ط جاوا، تَفْسِير جامع الْـبَيَان: ١/٢٩٦ دار ٱلْمَعْرِفَة، تَـفْسِير النّيسابوري: ٢٢/١٠، تَفْسِير الطَّبَرِيّ: ٢٢/٦ و ٧ و ٢٨ ط مِصْر، الدُّر المـنثور للسـيوطي: ٥/١٩٨ و ١٩٩، مشكاة ٱلْمَصَابِيح للعمري: ٣/٢٥٤، الكشّاف للزمخشري: ١/١٩٣ ط مصطفىٰ مُحَمَّد، تَـفْسِير القُرطُبي: ١٤/١٨٢ الطّبعة الأُولَىٰ بالقاهرة، تَفْسِير اَبن كثير: ٣/٤٨٣ ـ ٤٨٥ و ٤٩١ الطّـبعة الثّـانِيَة بِمِصْر، تذكرة الخواصّ للسبط بن الجوزي الحنفي: ٢٣٣، مطالب السّؤول لِابْن طَلْحَة الشّافعي: ١/١٩ و ٢٠ ط دار الكتب فِي النّجف، أَحْكَام ٱلْقُرْآن لِابْن عربي: ٢/١٦٦ ط مِصْر.

(١) أُنظر، حَدِيث الثَّقَلَيْن: (صَحِيح مُسْلِم: ٤/فَضَائِل عَليّ ح ٣٦ و ٣٧، وسُـنن التِّرمِـذي: ٥/بـاب ٣٢، وسُنَن الدَّارِمِي: ٢/فَضَائِل ٱلْقُرْآن، وخصَائص النَّـسَائي: ٥٠، وذَخَائِر الْـعُقْبَىٰ للـمحبّ الطَّـبَرِيّ: ١٦، وتَذكِرَة الخـوَاصّ: البَـاب ١٢، وأُسـد الغَـابَة: ٢/١٢، وتَأرِيخ اليـعقُوبِي: ٢/١٠٢، والمُسْـتَدرَك عَـلَىٰ ⇐

⇐ الصَّحِيحِين: ٣/١٠٩، ومُسْنَد أحمد: ٣/١٧ و ٥/١٨١ و ٣٧١، والصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ٢٥ المَطْبعة المِيمَنِية بِمِصْر، وص: ٤١ المَطْبَعة المُحَمَّدية بِمِصْر، ومَجْمَع الزَّوائد: ٩/١٦٤، وتَأريخ دِمَشْق لِابْن عساكر: ٢/٤٥ ح ٥٤٥، وكَنز العُمَّال: ١/١٦٨ ح ٩٥٩ الطَّبعة الأُولىٰ، ويَنَابيع المَوَدَّة: ٣٧ طَبع إسلامْبُول... إلخ).

ولَسْنَا بصدد بَيَان وبَحث حديث الثَّقَلَيْن، بل نَقول لِمَاذَا مَنع الألوف عَن المَسِير؟ وأرجَاع مَن تَقَدَّم مِنْهُم وإلحاق مَن تأخّر؟ ولِمَ أنزلهم فِي العراء لاَ كَلأٌ ولاَ مَاء؟ وَلِمَاذَا قَالَ ﷺ: لِيُبلّغ الشّاهد مِنْهُم الغَائِب؟ وَلِمَاذَا يَنعىٰ نَفْسه لَهُمْ؟ وَلِمَاذَا يَسألهُم عَن الشّهادتِين؟ وَلِمَاذَا يُحذّرهم من النَّار، والمَوْت، والسّاعة، والبَعث مَن فِي القُبُورِ؟ وهَل من المَعْقُول أنْ يَجْمَعهم عَلَىٰ أمرٍ هُو من أوضَح الوَاضحَات بِحُكم الوجدَان والعَيان وهُو ﷺ المُنَزَّه فِي أفعَاله، وأقْوَاله بِحُكم الحِكْمَة، والعَقْل، والعِصْمَة؟ هَذِه أسْئِلة نَطرحها عَلَىٰ ابْن كَثِير ومَن سَار عَلَىٰ نَهْجِهِ.

ثمّ إنَّ لفظَة «مِنّي» فِي حديث المَنْزِلَة «أنتَ منّي بِمَنْزِلَةِ هارون من مُوسَىٰ إلاّ أنّه لَيْس نَبيّ بَعدي» كمَا ذَكر ذَلِكَ البُخَاريّ فِي صَحِيحه: ٢/٢٠٠، وصَحِيح مُسْلِم: ٧/١٢٠، والتِّرمِذي: ١٣/١٧١، والطَّيَالسِي: ١/٢٨/٢٠٥ و ٢٠٩ و ٢١٣، وابْن مَاجه: ح ١١٥، وأحمَد فِي مُسْنَده: ١/١٧٠ و ١٧٣ و ١٧٥ و ١٧٧ و ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٤و ١٨٥ و ٣٣٠، و: ٣/٣٢ و ٣٣٨، و: ٦/٣٦٩ و ٤٣٨، ومُسْتَدرَك الحَاكِم: ٢/٣٣٧، وطبقَات ابْن سَعد: ٣/١ و ١٤ و ١٥، ومَجْمَع الزَّوائد: ٩/١٠٩ وفِي لفظٍ آخر لِمُسْلم «إلاّ أنّه لاَ نَبيّ بَعدي» فَلفظَة «مِنّي» توضّح المُرَاد من المَعْنَىٰ، وذَلِكَ أنّ هَارون لمّا كَـانَ شَريكاً لمُوسَىٰ فِي النُّبوّة، ووَزِيره فِي التَّبليغ، وكَانَ عَليّ عليه السلام من خَاتم الأنْبِيَاء ﷺ كَذَلِكَ بِاسْتِثنَاء النُّبوّة. فَتَبقَىٰ لِعَليٍّ عليه السلام الوزَارة فِي التّبليغ، وكَذَلِكَ لأوْلاَده: فِي حَمل أعبَاء التَّبليغ إلَىٰ المكلّفِين مُبَاشرة، وَلذَا فَـهُم: مِنْهُ ﷺ وهُـو مِنْهُم، يَشْتَرِكُون فِي التّبليغ ويَختلفُون فِي أنّه ﷺ يَأخذ الأحْكَام الّتي يُبلّغها مِن الله عَن طَـرِيق الوَحـي، وهُـم يَأخذُونها عَن طَرِيق رَسُول الله ﷺ فَهم مُبلّغون عَن رَسُول الله إلَىٰ الأُمّة. وَقَد أعَدّهُم الله ورَسُوله لحَمل أعبَاء التَّبليغ، وذَلِكَ بِمَا عَصمهُم من الرّجس وطَهّرهُم تَطهِيراً كمَا وَرد فِي الآيَة الكَرِيمَة.

ولِهَذَا فَإنّ الرَّسُول الأكرَم ﷺ كَانَ مُدركاً أنّ قَوْمه حَدِيثُو عَهد بِالجَاهِلِيّة، وأنّهم طَـالمَا عَـارضوا أحْكَامه وقَرَارَاته عِدّة مَرّات كمَا حَدث فِي صُلح الحُدَيْبِيَة، وأحد، وحُنَين، وأثنَاء مَرَضه ﷺ فِي الكِتَاب والدّوَاة، وسَرِيّة أُسامة، وصَلاَة الجُمُعَة أثناء إقبَال العِير المُحمّلة بِالبضَاعة. ولِذَا نَجد أنّ عَملية التّبلِيغ الّتي نَفّذها النَّبيّ ﷺ قَد جَرت أمَام عشرَات الآلاف مِن المُسْلِمِين، وأنَّ اسْتِثنَاء النُّبوّة جَاء لِئَلا يَتوهّم مُتوهّم

⇐

نَفْس عَليّ هِي نَفْس مُحَمَّد بالذَّات حَيْث قَالَ: ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ وأرَاد نَفْسه، وَعَلِيّاً الَّذي أخرجَه مَعه. وَقَالَ: ﴿وَنِسَآءَنَا﴾ وَلَم يَكُنْ مَعه عِند الْمُبَاهَلَة وَاحِدَة مِن ٱلنِّسَاء إلّا فَاطِمَة، أَمَّا أزوَاجه فَبقِين فِي بُيُوتِهِنَّ. وَقَالَ: ﴿أَبْنَآءَنَا﴾ ومَا كَان مِن الأَبْنَاء إلّا الْحَسَن، والحُسَيْن بإتّفَاق المُفسرِين.

أَغرَب مَا قرأت فِي التّنَاقضات أنّ بَعْض السُّنَّة يَقُولُون: أنّ آية التَّطْهِير نَزلت فِي نِسَآءِ النَّبِيّ، وفِي الوَقت نَفْسه يَقُولُون: أنّ الْمُرَاد مِن نِسَآءَنا فِي آية الْمُبَاهَلَة فَاطِمَة لا أزوَاج النَّبِيّ... فَأينَ وَجه الجَمع[1]؟

زَرَعُوا الْفُجُورَ...فِقْرَة ٧ ـ ٨:

(زَرَعُوا الْفُجُورَ، وَ سَقَوْهُ الْغُرُورَ، وَ حَصَدُوا الثُّبُورَ[7]، لاَ يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ، وَ لاَ يُسَوَّىٰ بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً: هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ، وَ عِمَادُ الْيَقِينِ. إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي، وَ بِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي. وَ لَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلاَيَةِ، وَ فِيهِمُ الْوَصِيَّةُ، وَ الْوِرَاثَةُ، اْلآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَ نُقِلَ إِلَىٰ مُنْتَقَلِهِ[8]!).

اللُّغَة:

الثُّبُورَ: الهَلاَك. والْغَالِي: مِن الغُلوّ، وهُو الزِّيَادَة، وتجَاوز الحدّ. والتَّالِي: المُقصر ضِدّ الغَالِي المُتطرف. وَنُقِلَ إِلَىٰ مُنْتَقَلِهِ بِفَتح القَاف أي رَجع إِلَىٰ المُوضع الَّذي نُـقل

⇐ أنّ الله تَعَالَىٰ قَد جَعل لعَليّ الشّركة فِي النُّبوّة. وإننَا نَعلم أنّ الإمَامَة موقُوفة عَلَىٰ تَنصِيص الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ كمَا أنّ النُّبوّة موقُوفة عَلَىٰ تَنصِيص البَاري عزّ وجلّ.

(١) تَقدَّم مناقشة ذَلِكَ.

عَنْه أوّلاً.

الْإِعْرَاب:

الْأُمَّةِ عَطف بَيَان مِن هَذِه. وٱلْآنَ ظَرف مُتَعلِّق برَجَع. وإِذْ بِمَعنىٰ قَد، وَقِيل: زَائِدَة.

الْمَعْنَىٰ:

(زَرَعُوا الْفُجُورَ، وَ سَقَوْهُ الْغُرُورَ، وَ حَصَدُوا الثُّبُورَ). تَنطَبق هَذِه الأوصَاف تَمَاماً عَلَىٰ الْفِئَةُ الَّتي حَاربت الإِمَامِ فِي صِفِّين بِقِيادة مُعَاوِيَة بن أَبي سُفْيَانَ الَّذي قَاد الْحُرُوب ضِدّ رَسُول الله ﷺ فِي بَدْرٍ، وأُحد، وٱلْأَحْزَابِ. وهَذِه الْفِئَةُ هِي الْمُرَادة مِن قَول الْإِمَام، لأنّ هَذِه ٱلْخُطْبَة كَانَتْ بَعد رجُوعه مِن صِفِّين بلاَ فَاصل، ولأنّ الْإِمَام وَصَف مُعَاوِيَة بِالْغَدْر فِي مقَام آخر، وَقَالَ: «وَاللهِ مَا مُعَاوِيَة بِأَدْهَىٰ مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ، وَيَفْجُرُ، وَلَوْ لاٰ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ، لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَىٰ النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَ اللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلاٰ أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ»[1].

(لاٰ يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ) لأنّ الله طَهرهُم مِن الذّنُوب بِنَص آيَة التَّطْهِير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2] ورَسُول الله سَاوىٰ فِي حَدِيث الثّقلين بَيْنَهُمْ، وبَيْنَ ٱلْقُرْآن الَّذي لا يُقاس بِهِ شيء،

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَةُ (٢٠٠).

(٢) الأحزاب: ٣٣. وقد تقدم الحديث عن ذلك.

ولاَ يَأْتِه ٱلْبَاطِل مِن بَيْنَ يَدِيه ولاَ مِن خَلفه[١].

(وَ لاْ يُسَوَّىٰ بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً : هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ ، وَ عِمَادُ الْيَقِينِ) .

قَالَ آبن أَبِي ٱلْحَدِيد : «ولاَ رَيب أنّ مُحَمّداً ﷺ وأهلَه الأدْنِين مِن بَنِي هَاشم ، لا سِيَّما عَلِيّاً ﷺ أنعمُوا عَلَىٰ الخَلق كَافة بنِعْمَة لا يُقدّرها قَدرها ، وهِي الدُّعاء إِلَىٰ ٱلإِسْلاَم ، وٱلهِدَايَة إِلَيْهِ... لقَد جَاهد عليٌّ بِالسَّيْف أَوّلاً ، وثَانِياً ، ونَشر العلُوم ، وتَفْسِير ٱلْقُرْآن ، وإرشَاد الْعَرَب إِلَىٰ مَا لَم تكن فَاهمة ، ولاَ مُتصورة... لقَد أَنْعَم عَليّ حَتَّىٰ عَلَىٰ الّذين تَقدموا عَلَيْهِ... جَاهد عَنْهم وهُم قَاعدُون ، وأَمَدهم بعلُومه الَّتي لَوْلاَها لحَكمُوا بِغَير الصّواب[٢]... وَقَد آعترَف عُمَر بِذَلِكَ ، والْخَبَر مَشهُور : «لَوْلاَ عَلِيّ لهَلَك عُمَر»[٣].

---

(١) تَقدَّم الْحَدِيث عَن ذَلِكَ.

(٢) أنْظر ، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لاِبْن أَبِي ٱلْحَدِيد : ١/١٤١.

(٣) أُنظر فتح الباري فِي شَرْح البُخَارِيّ : ١٣/٣٤٣ و١٧/١٠٥ ، تأويل مختلف الحَدِيث : ١/١٦٢ فيض القَدِير : ٤/٤/٣٥٧ ، تَهْذِيب الكَمَال : ٢٠/٤٨٥ ، صفوة الصّفوة : ١/٣١٤ ، الإِسْتِيعَاب : ٣/١١٠٣ ، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ : ٢/٣٣٩ ، الإِصَابَة : ٤/٥٦٨ ، المدخل إِلَىٰ السّنَن الْكُبْرَىٰ : ١/١٣٠ ح ٧٨.

وأخرج الحافظ الكنجي فِي الكفاية : ٢١٨ هَذِه القِصَّة عَن حُذَيْفَة بن اليمان أنّه لقي عُمَر بن الخَطَّاب ، فَقَالَ له عُمَرَ : كَيْفَ أَصْبَحت يأبن اليمان؟ فَقَالَ : كَيْفَ تريدني أَصْبَحَ ؟ أَصْبَحتُ والله أكره الْحَق ، وأُحبُّ الْفِتْنَة ، وأشهد بِمَا لم أره ، وأحفظ غَيْر الْمَخْلُوق ، وأُصلّي عَلَىٰ غَيْر وضوء ، ولي فِي ٱلأَرْض ماليس لله فِي السَّمَاء . فغضب عُمَرَ لقَوْله ، وٱنصرف مِن فوره ، وقد أعجله أمرٌ ، وعزم عَلَىٰ أذىٰ حُذَيْفَة لقَوْله ذَلِكَ.

فبينا هُو فِي الطَّرِيق إذ مرّ بعليّ بن أبي طالب فرأىٰ الغضب فِي وجهه ، فَقَالَ : ما أغضبك ياعُمَرَ ؟ فَقَالَ : لقيت حُذَيْفَة بن اليمان فسألته كَيْفَ أَصْبَحت ؟ فَقَالَ : أَصْبَحت أكره الْحَق . فَقَالَ ﷺ : صدق ، يكْرَه ٱلْمَوْت وهُو حق ، فَقَالَ : يقول : وأُحبُّ الْفِتْنَة ، قَالَ ﷺ : صدق ، يحبّ ٱلْمَال والولد ، وقد قَالَ الله تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فَقَالَ : يا عليّ ، يقول : وأشهد بِمَا لم أره ؟ فَقَالَ : صدق ، يشهد لله بالوحدانيّة ،

⇔

↔ والمَوْت، والبعث، وٱلقِيَامَة، وٱلجَنَّة، وٱلنَّار، وٱلصِّرَاط ولم يرِ ذَٰلِكَ كلّه. فَقَالَ: يا عليّ، وقد قَالَ: إنّني أحفظ غَيْر المَخْلُوق، قَالَ: صدق، ويحفظ كتاب الله تَعَالَىٰ (ٱلقُرآن) وهُو غَيْر مخلوق. قَالَ: ويقول: أُصلّي عَلَىٰ غَيْر وضوء، فَقَالَ: صدق، يصلّي عَلَىٰ ٱبن عمّي رَسُول الله ﷺ عَلَىٰ غَيْر وضوء، والصَّلاة عَلَيْهِ جائزة. فَقَالَ: يا أبا الحَسَن قد قَالَ أكبر مِن ذَٰلِكَ! فَقَالَ: وما هُو؟ قَالَ: إنّ لِي فِي ٱلأرض ماليْسَ لله فِي السَّماء. قَالَ: صدق، له زَوْجَة، وولد، وتَعَالَىٰ الله عَن الزَّوْجَة، والولد. فَقَالَ عُمَرَ: كاد يهلك ٱبن الخَطَّاب لَوْلاَ علي بن أبي طالب.

وفِي فرائد السّمطين: ١/٣٤٨/٢٧٢، و ٢٧٦/٣٥٠ قَالَ عُمَرَ بن الخَطَّاب: أعوذ بالله مِن معضلةٍ لا عليّ لها.

وفِي المناقب لِابْن شهرآشوب: ٣٥٨/٢ و ٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٥، وٱلبِحَار: ٢٢٣/٤٠ و ٢٢٦ سأل رَسُول ملك ٱلرُّوم أبا بَكْر عَن رجل لا يرجو ٱلجَنَّة، وَلاَ يخاف ٱلنَّار، وَلاَ يخاف الله، وَلاَ يركع، وَلاَ يسجد، ويَأْكُل ٱلمَيْتَة، والدم، ويشهد بِمَا لا يرىٰ، ويحبّ الفِتْنَة، ويبغض الحَق، فلم يجبه. فَقَالَ عُمَرَ: ٱزددت كفراً إلىٰ كفرك. فأخبر بِذَٰلِكَ علي ﷺ فَقَالَ: هَذَا رجل مِن أوْلِيَاء الله لا يرجو ٱلجَنَّة وَلاَ يخاف ٱلنَّار، ولكن يخاف الله، وَلاَ يخاف الله مِن ظلمه وإنّمَا يخاف مِن عدله، وَلاَ يركع وَلاَ يسجد فِي صَلاة الجَنَازَة، ويَأْكُل الجراد والسّمك، ويَأْكُل الكبد، ويحبّ ٱلمَال والولد ﴿إنَّمَآ أمْوَٰلُكُمْ وَأوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ويشهد بِٱلجَنَّة وٱلنَّار وهُو لم يرهما، ويَكْرَه ٱلمَوْت وهُو حق... وساق الحَدِيث.

وفِي تَهْذِيب التَّهْذِيب: ٢٩٦/٧ و ١٠ / ٩٤ قَالَ عُمَرَ بن الخَطَّاب فِي قِصَّة أُخرىٰ لَسْنَا بصددها: معضلة ولَيْسَ لها إلاّ أبو الحَسَن. وفِي تَأريخ دِمَشق لِابْن عساكر ترجمة الإمَام علي ﷺ: ٣ / ٩٣ و ٤١ / ١٠٧١ و ١٠٧٠ بتحقيق الشّيخ المحمودي قَالَ عُمَرَ بن الخَطَّاب: أعوذ بالله مِن معضلة لَيْسَ لها أبو حسن علي بن أبي طالب. وروى ٱبن عبد البرّ فِي الاسْتِيعَاب عَن سعيد نحوه فِي هَامِش الإصَابَة: ٣ / ٣٩.

وجاء فِي الطّرق الحكمية: ٤٦: إنّ عُمَرَ بن الخَطَّاب سأل رجلاً: كَيْفَ أنْتَ؟ فَقَالَ: مِمَّنْ يحبّ الفِتْنَة ويَكْرَه الحَق، ويشهد عَلَىٰ ما لم يره، فأمر به إلىٰ السّجن، فأمر علي ﷺ، بردّه فَقَالَ: صدق. قَالَ عُمَرَ: كَيْفَ صدّقته؟! قَالَ ﷺ: يحبّ ٱلمَال والولد وقد قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿إنَّمَآ أمْوَٰلُكُمْ وَأوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ وكره ٱلمَوْت وهُو الحَق، ويشهد أنّ مُحَمَّداً رَسُول الله ولم يره، فأمر عُمَرَ بـاطلاقه. وقَـالَ: ﴿ٱللَّهُ أعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ٱلأنْعَام: ١٢٤. وجاء فِي المناقب لِابْن شهرآشوب: ٢ / ٣٠ ـ ٣٤ ط ايران: لَوْلاَ عليّ لهلك عُمَر.

↔

(إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي) الَّذي أفرط، وتجاوز الحدّ (وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي) الَّذي فرّط وَقصّر عَن بلُوغ الْحَقّ، وأَهْل الْحَقّ، والْعَدْل، وبِهِمْ يُقاس تَقصِير هَذَا، وتَفرِيطه،

⇐ وروىٰ الحَاكِم فِي المُسْتَدرَك قريباً مِن هَذَا فِي: ١/٤٥٧ بسنده عَن أبي سعيد الخدري فِي حديث طويل قَالَ عُمَرَ بن الخَطَّاب أعوذ بالله أنْ أعيش فِي قَوْم لست فِيهِمْ يا أبا الحَسَن.

وورد فِي الرِّياض النّضرة: ٢/١٩٥ و ١٩٦، و: ٣/١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ وذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٧٩ ـ ٨٢ قَالَ عُمَرَ بن الخَطَّاب فِي حديث طويل أيضاً: عجزت ٱلنِّسَاء أنْ تلدن مثل علي بن أبي طالب، لَوْلاَ علي لهلك عُمَرَ. وكَذٰلِكَ ورد مثله فِي مطالب السّؤول لِابْن طَلْحَة الشّافعي: ١٣، والمناقب للخوارزمي الحنفي: ٣٩ و ٤٨ و ٦٠ و ٦٥ و ٨١، والفخر الرّازي فِي الْأَرْبَعِين: ٤٦٦. وروى ٱبن الجوزي فِي كتاب الأذكياء: ١٨ وفِي كتابه أخبار الظّراف: ١٩ فِي حديث طويل قَالَ فِيهِ عُمَرَ بن الخَطَّاب: لا أبقاني الله بعد ٱبْن أبي طالب. ومثله فِي تذكرة الخواصّ: لسبط ٱبْن الجوزي: ٨٧ و ١٤٨.

وفِي كنز الْعُمَّال: ٣/١٧٩، و: ٥/٢٤١ و ٤٥١ وح ١٣٥٨٤ قَالَ عُمَرَ مخاطباً الْإِمَام عليّ: لا أبقاني الله لشِدَّة لست لها، وَلاَ فِي بلد لست فِيهِ. ومثله فِي مصباح الظّلام: ٢/٥٦. وَقَالَ فِي المناقب للخوارزمي: ٥٣ و ٨١/٩٥ و ٩٧/٩٨: أَللَّهُمَّ لا تبقني لمعضلة لَيْسَ لها عليّ حيّاً. وكَشْف الْيَقِين لِابْن المطهّر الحلّي: ٦٢ نقلاً عَن المناقب للخوارزمي: ٥٧.

ومِمَّا يجدر ذكره أنّ عُثْمَان بن عفّان أيضاً قَالَ: لَوْلاَ عليّ لهلك عُثْمَان. جاء ذَلِكَ فِي كتاب زين الفتىٰ فِي شَرْح سُورَة هل أتىٰ للحافظ العاصمي نقلاً عَن الْغَدِير: ٨/٢١٤. المسترشد فِي إِمَامَة أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين للحافظ مُحَمَّد بن جرير الطَّبَرِيّ الإمامي: ٦٥٤ تحقيق أحمد المحمودي. وفِي كتاب أحمد بن حنبل ـ فَضَائِل الْصَّحَابَة ـ عَن سعيد بن المسيب قَالَ فِي: ٢/٦٧٤: كَانَ عُمَرَ يتعوّذ مِن معضلة لَيْسَ لها أبو حسن. ومثله فِي الْاِسْتِيعَاب: ٣/١١٠٢، صفة الصّفوة: ١/١٢١، كفاية الطّالب: ٩٥، أُسد الغَابَة: ٤/٢٢.

وأُنظر أيضاً طَبَقَات ٱبْن سعد: ٢/ق ٢/١٠٢، تَهْذِيب التَّهْذِيب: ١/٣٣٧، الصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة: ٧٦، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢٢١، نور الأَبْصَار: ٧٤، أرجح المطالب: ١٢١ و ١٢٤، الإِصَابَة: ٤ ق ١/٢٧٠، فيض القَدِير: ٤/٣٥٧، فَضَائِل الْخَمْسَة مِن الصّحاح السّتة: ٢/٢٩٠ و ٣٠٩ علي إِمَام الْمُتَّقِين لِلشَّرقَاوي: ١/١٠٠ و ١٠١، أَنْسَاب الْأَشْرَاف للبلاذري، وٱبْن بطّة فِي الإبانة، والزَّمَخْشَرِي فِي الفائق، كلّهم عَن ٱبْن شهرآشوب، والمفيد فِي الْإِرْشَاد: ٩، وٱبْن البطريق فِي العمدة: ٢/٤، والْمَعْرِفَة والتَّارِيخ: ١/٤٦٢، والبداية والنِّهَايَة لِابْن كثير: ٦/٢٠١، ومُسْنَد زَيد: ٣٣٥ الطّبعة الثَّانِيَة دار الكتب الإسْلاَمِيّة طهران.

وَغلوّ ذَاكَ، وإفرَاطه. أنّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «مَثلُ أَهْل بَيْتِي كَسَفِينةِ نُوح مَن رَكبها نَجا، ومَن تَخَلف عَنْهَا غَرق»[1].

(وَ لَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلاَيَةِ). بِمَعْنَىٰ الرّيَاسة، والسُّلطة، وقُلنا: «إنَّ لِلكمَال الْعَادِلِ وِلاَيَة عَلَىٰ النّاقص بِحُكم اَلْعَقْل والوَاقع، وأَهْل اَلْبَيْت عليهم السلام أفضَل وأكمَل خَلق الله بَعد رَسُول الله ﷺ»[2].

(وَ فِيهِمُ الْوَصِيَّةُ، وَ الْوِرَاثَةُ) المُرَاد وَصِيّة النَّبِيّ بِالْخِلاَفَةِ، وهُم وحدَهم لهَا وَارثُون. وتَأتِي الإِشَارَة إِلَىٰ ذَلِكَ فِي اَلْخُطْبَة التّالية المَعْرُوفَة بالشِّقشِقِيَّة (اَلْآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَ نُقِلَ إِلَىٰ مُنْتَقَلِهِ) وهُو اَلْخِلاَفَة (وَ نُقِلَ إِلَىٰ مُنْتَقَلِهِ) أي عَادت اَلْخِلاَفَة إِلَىٰ المَوْضُوع الَّذي نُقلت مِنْهُ ظُلماً، وعُدْوَاناً.

---

(١) أُنظر، مُسْتَدرَك الصَّحِيحِين: ٣٤٣/٢، طَبعَة حيدر آباد سَنَة ١٣٢٤ هـ. (مِنْهُ ﵀). وفي رواية: كمثل، وفي ورواية أُخرىٰ: عَن البزّار عَن ابن عَبَّاس وعَن ابن الزُّبَيْر. ولِلْحَاكِم عَن أبي ذرّ مثلها.

وعَن عليّ عليه السلام: ومن تعلّق بها فاز، ومن تخلّف عَنْهَا زجّ فِي اَلنَّار. (ذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٢٠). وفي رواية عَن عليّ عليه السلام: ومن تخلّف عَنْهَا أُولج ـ يعني دخل ـ. مَوَدَّة القربىٰ: ١٣، كنز العُمَّال: ١٢/١٠٠/٣٤١٨٠، و: ١٦/١٥٣، و: ١٢/٩٥ فضل أَهْل اَلْبَيْت ح ٣٤١٥١، وأُنظر جمع الفوائد: مناقب أَهْل اَلْبَيْت وأصهاره: ٢/٢٣٦، مجمع الزّوائد: ١٦٨/٩، المُعْجَم الْكَبِير للطبراني: ٣/٤٥/٢٦٣٦، مُنْتَخَب كنز العُمَّال بهَامِش أحمد: ٥/٩٢، الفضَائِل لأَحْمَد: ٢/٧٨٥/١٤٠٢، الجَامِع الصَّغِير: ٢/٥٣٣/٨١٦٢، حلية الأولياء لأبي نعيم: ٣٠٦/٤، تَأريخ بغداد للخطيب: ١٢/١٩، مجمع الزّوائد للهيثمي: ٩/١٦٨، فرائد السّمطين: ٢/٢٤٢/٥١٦، و: ٢/٢٤٧، جواهر العقدين: ٢/١٩٠، المناقب لابن المغازلي: ١٣٢/١٧٣ ـ ١٧٧، كمال الدّين وتمام النّعْمَة: ٢٣٩، شواهد التّنزيل: ١/ ٣٦١، الدُّر المنثور: ١/ ٧١، مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٣٩.

(٢) أُنظر، فَلْسَفَة التَّوحِيد والوِلاَيَة: ٥٨ (مِنْهُ ﵀).

الخطبة

-٣-

وَتُعْرَفُ بالشِّقْشِقِيَّة لِقَول الْإِمَامِ﵇ بَعدَها :

تِلْكَ شِقْشِقَةُ هَدَرَتْ ، ثُمَّ قَرَّتْ .

يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ...فِقْرَة ١:

(أَمَا وَ اللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ ، وَ إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَا . يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ ، وَ لاَ يَرْقَىٰ إِلَيَّ الطَّيْرُ . فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً ، وَ طَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً ، وَ طَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَىٰ طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ ، يَهْرَمُ فِيْهَا الْكَبِيرُ ، وَ يَشِيبُ فِيْهَا الصَّغِيرُ ، وَ يَكْدَحُ فِيْهَا مُؤْمِنٌ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ رَبَّهُ[1] !) .

اللُّغَة:

تَقَمَّصَهَا : لَبِسَهَا كَالقَمِيص . وقُطْبِ الشَيء : مَلاكه ، ومدَاره . وَسَدَلَ الثَّوب : أرْخَاه ، وبهِ يُكنىٰ عَن الإِعرَاض . والكَشْح : ما بَيْنَ الخَاصِرة ، والجَنب . وَطَفِقْتُ :

شَرَعت. واليَد الجَذَّاء: المَقطُوعة. والطَخْيَة: الظُّلمة.

الْإِعْرَاب:

«أَمَا» لِلتَّنبِيه. والوَاو لِلقَسم. والهَاء فِي لِلْخِلاَفَة بدَلاَلَة الحَال.

الْمَعْنَىٰ:

(أَمَا وَ اللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَافُلاَ نٌ، وَ إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَا). ما هَذَا؟. هَل هُو حُرقة، وتَلهُف عَلَىٰ ٱلْخِلاَفَة، كَمَا يَترَاءىٰ للأَغْبِياء؟ حَاشَا لِمَن قَالَ: «وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا مَا لِعَلِيّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَىٰ، وَلَذَّةٍ لاَ تَبْقَىٰ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ»[١]. وكُلنا يَعلم أنّ عَلِيّاً يَفعل مَا يَقول، ولاَ يَقول ما لاَ يَفعل، وإذَنْ فمَا هُو السّر لهٰذهِ الشّكوىٰ وَهَذَا التّظلم؟. السِّر وَاضح، لاَ إبهَام فِيهِ... أنّه نَفْس الشّيء الَّذي أَشْعُر بِهِ أنا، وأَنْتَ، وكلّ إِنْسَان حِينَ يَنْتَهب ثُوبه عَن بَدنه نَاهب، أو غَاصب، نَقُول: هَذَا مَع الإِيمَان، والعِلم بأنّ عَلِيّاً أحرَص عَلَىٰ مصَالِح النَّاس مِن النَّاس أَنْفسهم، وإنّه لا يَرضىٰ، ويَغضب إلّا الله وَحدَه... هَذَا، إِلَىٰ أَنَّهَا نَفْثَة مَصدُور، هَدَرَتْ، ثُمَّ قَرَّتْ، كَمَا قَالَ عليه السلام.

(يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَ لاَ يَرْقَىٰ إِلَيَّ الطَّيْرُ). وكَفىٰ شَاهداً قَول الرَّسُول الْأَعْظَم صلى الله عليه وآله: «أَنَا مَدِينَةُ العِلم، وَعليٌّ بَابها»[٢]: (فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً، وَ طَوَيْتُ

---

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبلاَغَة: ٱلْخُطبَة (٢٢٤).

(٢) لقَد وَصل إلينا حَدِيث «أَنَا مَدِينة العِلْم وعليٌّ بابها» متوَاتراً عَن طريق أَهْل الشّيعة، والسُّنّة كَما صرح ←

⇐ بِذَلِكَ أَكْثَر الْفُقَهَاء، والْعُلَمَاء، وأَصْحَاب الْحَدِيث، والسُّنَن مَع وجود بَعْض الإِخْتِلاَف فِي اللفظ. فتارةً يأْتِي بإضافة «فمن أراد العِلْم فَليأت البَاب» كما ذكر ذَلِكَ آبْن عساكر فِي تَأرِيخ دِمَشْق / ترجمة الإِمَام علي عليه السلام: ٤٦٧/٣ والمناقب لِإبْن المغازلي: ٨١ وغَيْرهما كثير الَّذين نصّوا عَلَىٰ تصحيحه، وصحّته متناً، وسنداً، وقد أوردنا هذين المَصْدَرين عَلَىٰ سَبِيل المثال لا الحصر.

وورد الْحَدِيث هَذَا وغَيْره بمضمون واحد كحديث «أنا مدينة العِلْم وعليٌّ بابها، وَلاَ تُؤتىٰ الْبُيُوت إِلاّ مِن أبوابها» و«أنا مدينة الْجَنَّة وأَنْتَ بابها، يا عليّ كَذِب مَن زَعَم أنّه يدخلها مِن غَيْر بابها» و«يا علي أنا مدينة العِلْم، وأَنْتَ البَاب، كَذَب مَن زَعَم أنّه يصل إِلىٰ الْمَدِينَة إِلاّ مِن البَاب» و«أنا مدينة الفِقْه، وعليٌّ بابها، فمن أراد العِلْم فليأت البَاب» و«أنا دار الْحِكْمَة، وعليٌّ بابها، فمن أراد الْحِكْمَة فليأتها» و«أنا دار الْحِكْمَة، وعليٌّ بابها» و«أنا دار الْحِكْمَة، وعليٌّ مِفْتَاحها» و«أنا خزانة العِلْم، وعليٌّ مِفْتَاحها» و«فَهُوَ ـ أي عليّ ـ باب مدينة علمي» و«أنا ميزان الْحِكْمَة وعليٌّ لسانه» و«أنا ميزان العِلْم، وعليٌّ كفّتاه».

وكثير وكثير ولَسْنَا بصدد إحصاء الأَحَادِيث الَّتِي قالها رَسُول الله صلى الله عليه وآله بحقّ أعلمية الإِمَام علي عليه السلام والَّتِي نصّ عَلَىٰ صحّتها وتصحيحها كما ذكرنا سابقاً أَكْثَر الْفُقَهَاء كالطَّبَرِيّ فِي تَهْذِيب الآثار، والحاكم النّيسابوري، والفيروزآبادي، والبغدادي، والسّيوطي، والبُخَاريّ، والسّمرقندي، والصّنعاني، وآبْن طَلْحَة الشّافعي، والجزري، والسّخاوي، والمتقي الهندي، والبدخشي... إلخ.

أَمّا مصادر الْحَدِيث فَهِيَ: صَحِيح التِّرمِذي: ٢٩٩/٢ ح ٣٨٠٧ «أنا دار الْحِكْمَة وعليٌّ بابها». أَمّا سُنَن التِّرمِذي: ٥/باب ٨٧ / ٣٠١ ففيها «أنا مدينة العِلْم وعليٌّ بابها»، وأخرجه الطّبراني فِي الْمُعْجَم الْكَبِير: ١٠٨/٣، و: ١١٠٦١/٥٥/١١ عَن آبْن عَبّاس، الحاكم فِي المناقب: ٢٢٦، مُسْتَدرَك الصَّحِيحين: ١٢٦/٣ و ١٢٧ و ١٢٩.

وذكر صدر الْحَدِيث فقط سَبِيل النَّجَاة فِي تتمة المراجعات: رقم (٥٥٨)، أسنىٰ المطالب للجزري: ٧٠ و٧١، تَأرِيخ بغداد: ٢٠٤/١١ و٤٨ و٤٩ «أنا مدينة العِلْم وعليٌّ بابها» و«أنا دار الْحِكْمَة وعليٌّ بابها» ومثله فِي: ٣٧٧/٢ و: ٢٤٨/٤، و: ١٧٢/٧، لِسَان الميزان لِإبْن حجر: ١٩٧/١ تحت رقم ٦٢٠، الصّواعق الْمُحْرِقَة: ٧٣ و ١٢٠ و ١٢٢/ ٩ ط الْمُحَمَّدية أورد الْحَدِيثين «أنا مدينة العِلْم...» و«أنا دار الْحِكْمَة...».

وأُنظر تَهْذِيب التَّهْذِيب: ٣٢٠/٦، و: ٤٢٧/٧، تذكرة الحفّاظ: ٢٨/٤ ط حيدرآباد، نزل الأبرار: ٧٣، كتاب الفِرْدَوْس لأَبِي شجاع الديلمي: ١٠٩/٧٦/١، مَوَدَّة القربىٰ: ٢٤، مصابيح السُّنَّة للبغوي: ⇐

⟸ ٢٧٥/٢ «أنا دار ٱلْحِكْمَة...» الجَامِع الصَّغِير للسيوطي: ١/ ٣٧٤ ح ٢٧٠٥ و ٢٧٠٤ ط مصطفىٰ مُحَمَّد. مُنْتَخَب كنز العُمَّال بهَامِش مُسْنَد أحمد: ٥/ ٣٠ «أنا دار ٱلْحِكْمَة...» وكنز العُمَّال: ٦/ ١٥٢ و ١٥٦ «عليّ باب علمي...» و ١١/ ٦١٤/ ٣٢٩٧٩. و ٦٠٠/ ٣٢٨٨٩. و: ١٣/ ١٤٧/ ٣٦٤٦٢ و ٣٦٤٦٣. و: ١٥/ ١٢٩/ ٣٧٨ الطَّبعة الثَّانِيَة. ٱلْفَتح الْكَبِير للنبهاني: ١/ ٢٧٢ و ٢٧٦. البداية والنِّهَايَة لِابْن كثير: ٧/ ٣٥٨. كنوز الحَقَائِق للمناوي: ٤٣ و ٤٦ ط بولاق و ٣٧ ط أُخرىٰ. مَجْمَع الزَّوائد للهيثمي: ٩/ ١١٤.

ولاحظ تلخيص الشَّافي: ٣/ ٢١. دَلاَئِل الصِّدْق للشيخ المظفر: ٢/ ٣٣٢ و ٤٣٩ و ٤٤١ و ٥٢٠. ٱلصِّرَاط الْمُسْتَقِيم للعلاّمة البياضي: ٢/ ١٩. حلية الأَوْلِيَاء: ١/ ٦٤ و ٦٣. عبقات الأَنْوَار: ج ٥ و ١٠ خاصّ بحديث مدينة العِلْم ط الهند. فرائد السِّمطِين: ١/ ٩٨. شواهد التَّنزيل للحافظ الحسكاني: ١/ ٣٣٤/ ٤٥٩ و ٨١/ ١١٨ و ٨٢/ ١١٩ و ١٢٠ و ١٢١ ط أُخرىٰ. الرِّياض النَّضرة: ٢/ ١٩٣ و ٢٥٥ الطَّبعة الثَّانِيَة. أسمىٰ المناقب: ٧٦. أمالي الشَّيخ الصَّدوق: المجلس السَّادس والخمسون ح ٨. والمجلس الحادي والسِّتون ح ١١. ٱلْبِحَار: ٤٠/ ٢٠٠ و ٢٠١. المناقب لِابْن شهرآشوب: ٢/ ٣٦. الْغَدِير: ٦/ ٦١ ـ ٨٥. و: ٧/ ١٩٨ و ١٩٩.

وراجع فَضَائِل الْخَمْسَة: ٢/ ٢٤٨ و ٢٥٠. جامع الأُصُول: ٩/ ٤٧٣/ ٦٤٨٩. شَرْح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢/ ٢٣٦ ط بيروت. و: ٧/ ٢١٩ ط مِصْر بتحقيق مُحَمَّد أبو الفَضْل. اللآلي المصنوعة: ١/ ١٧١. تَأريخ جرجان: ٢٤. إحقاق الحَقّ: ٥/ ٤٧٠ و ٤٨٣. ميزان الإِعْتِدَال للذهبي: ١/ ٤١٥ و ٤٣٦ تحت رقم ٤٢٩. و: ٢/ ٢١٥. و: ٣/ ١٨٢. و: ٤/ ٩٩. أسد الغَابَة: ٤/ ٢٢. تَأرِيخ دِمَشْق لِابْن عساكر الشَّافعي/ ترجمة الإِمَام علي عليه السلام: ٢/ ٤٥٩/ ٩٨٣ و ٤٦٤ و ٤٧٦ حديث ٩٨٤ و ٩٨٦ و ٩٩٧.

نظم درر السِّمطين للزرندي الحنفي: ١١٣ المناقب لِابْن المغازلي: ٨٠ و ٢١٢ حديث ١٢٠ ـ ١٢٦ و ١٢٦/ ١٥٨ ط آخر و ٨٦/ ١٢٨ «أنا مدينة العِلْم وعليّ بابها». الإِسْتِيعَاب بهَامِش الإِصَابَة: ٣/ ٣٨. فيض القَدِير للشوكاني: ٣/ ٤٦. كفاية الطَّالب للكنجي الشَّافعي: ٢٢٠ ط الحيدرية و ٩٩ ط الغري /٥٨.

وراجع أيضاً فتح ٱلْمُلك العلي بصحة حديث باب مدينة العِلْم عليّ لأَحْمَد بن مُحَمَّد الصِّدِّيق المغربي طبع سنة ١٣٠٤ هـ بالمطبعة الإِسْلاَمِيَّة بمِصْر ٣ ـ ٥ و ١٤ ـ ١٦. و ٢٢ ـ ٢٤ و ٢٨ و ٢٩ و ٤٠ ـ ٤٤ و ٥٤ و ٥٥ ط الحيدرية. يَنَابِيع المَوَدَّة للحافظ القندوزي: ٦٥ و ٧١ و ٧٢ و ٨١ و ١٧٩ و ١٨٣ و ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٣٤ و ٢٥٤ حديث «أنا دار ٱلْحِكْمَة...» و ٢٨٢ و ٤٠٠ و ٤٠٧ ط اسلامبول و ٢١١ و ٢١٧ و ٢٧٨ ⟸

عَنْهَا كَشْحاً). وَعَطف الجُملَة الثَّانِيَة عَلَىٰ الأُولَىٰ للتَوضِيح، والتَّفسِير، والْمَعْنَىٰ أَنّه عليه السلام أعرَض عَن ٱلْخِلاَفَة، وَلَم يَلتَفت إِلَيْهَا، ثُمَّ بَيّن السّبب المُوجب لذَلِك بقَوْله: (وَ طَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَىٰ طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ).

بَعد أنْ بُويع أَبُو بَكْر بِالْخِلاَفَةِ فكر الْإِمَام عليه السلام: ماذَا يَصنع؟. وٱنْتَهىٰ بِهِ التّفكِير إِلَىٰ أَنّه وَاقف بَيْنَ مَحذُورين: إمّا أنْ يَصر، وَيَنْهَض مُطَالِباً بحقّه مِن غَيْر جَدوىٰ إلّا إرَاقة الدِّمَاء لعَدم النّاصر، وتَفْتِيت وحدَة ٱلْإِسْلاَم، وٱلْمُسْلِمِين، وإِمّا أنْ يَسْكُت، وَيَصبر حِرصاً عَلَىٰ هَيْبَة الدِّين، وصَالحه، فٱختَار الصّبر كمَا يَأْتِي.

وَهَذَا الكَلاَم وَاضح الدَّلاَلَة فِي أنّ الْإِمَام عليه السلام لَم يُعلن الْحَرْب مِن أَجْل ٱلْخِلاَفَة، ولَكِنَّهُ لَم يَسكت عَن حَقّه، بل ٱستَمر فِي الدَّعْوَة إِلَىٰ نَفْسِه هُو، وَمَن شَايَعه، كسَلْمَان، وأَبِي ذَرّ، وعَمّار، والمُقداد، بل وَاجه بِذَلِكَ أَبَابَكْرٍ فِي بَعْض موَاقفه، وَقَالَ لهُ: «أَفْسَدتّ عَلينا أَمرَنا، وَلَم تَسْتَشر، تَرع لنَا حَقّاً»(١). وَقَالَ فِي خُطْبَة يَأْتِي شَرحها إنْ شَاء الله: «قَالَ لِي قَائِل: «قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ يَا ٱبْنَ أَبِي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ، فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقّاً لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ. فَلَمَّا قَرَّعْتُهُ

⇐ و ٣٠٣ و ٣٣٨ ط الحيدرية، و: ٣/ ١٢٢ و ١٩٨ و ٢٠٤، و: ٢/ ٢٩٢، و: ١/ ١٣٧ و ٢١٨ و ٢٢٠ و ٢٢٢ تحقيق السَّيِّد علي جمال أشرف الحُسَيْني، مقتل الحُسَيْن للخوارزمي الحنفي: ١/ ٤٣، تذكرة الخواصّ لسبط ٱبن الجوزي: ٤٧ و ٤٨، إسعاف الرّاغبين للصبّان بهامش نور الأبْصَار للشبلنجي: ١٤٠ و ١٧٤، تَأريخ الخُلَفَاء للسيوطي: ١٧٠ و ١٠٧ ط آخر.

(١) أُنظر، السَّقِيفَة للشيخ مُحَمَّد رضا المظفر: ١٤٨ و ١٧٩ (مِنْهُ ﷺ). مروج الذّهب: ١/ ٤١٤ و: ٢/ ٣٠٧ طَبْعَة أُخرىٰ، الإمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/ ١٢ ـ ١٤.

بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلإِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لاَ يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ !»[(١)] ومَعْنَىٰ هَبَّ هُنا ٱنْهَزَم.

وَهَذَا الكَلاَم يَدل بظَاهره أنّه كَان مَع أَحد الخُـلَفَاء الّذين تَقدمُوا عَلَىٰ الإِمَـام، وأنّه عليه السلام قَد طَالبة، وٱحتج عَلَيْهِ فَهزمه، وأَفْحَمه، فَهل بَعد هَذَا، يُقَال: إنَّ عَلِيّاً أَقر بِخلاَفه الخُلَفَاء، وَرَضي بِمَا كَان فِيهِ؟ أَجْل، لاَ يَشك مُسْلِم أنّه قَد تَعَاوَن مَعهم، ومَع غَيْرِهم عَلَىٰ إقَامة الْعَدْل، والصّالح العَام... وقرَأت فِي كتَاب «الدُّرة النّجَفِية» شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لعَبد الصّمد التّبرِيزي: «إِنَّ أَكْثَر الشّيعة قَالُوا: إِنَّ عَلِيّاً لَم يُبَايع أصلاً، ومِنْهُم من قَالَ: بَايَعَ بَعد سِتة أشهر، وَقَالَ السُّنَّة: بَايَعَ بَعد أنْ تَخَلف فِي بَيْتِه، ودَافع طَوِيلاً»[(٢)]. وَعَلَىٰ أيّة حَال فَمن قرَأ تَأرِيخ أَهْل ٱلْبَيْت مِن عليٍّ، وفَاطِمَة إِلَىٰ آخـر إمَام ـ يَجد الشّكوىٰ، وَالتّظلم مِن كُلّ مَن تَسلط، وَحَكم فِي عَهْدِهم.

الصَّبْرَ أَحْجَىٰ...فِقْرَة ٢ ـ ٣:

(فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَىٰ هَاتَا أَحْجَىٰ، فَصَبَرْتُ وَ فِي الْعَيْنِ قَذًى، وَ فِـي الْـحَلْقِ شَجًا، أَرَىٰ تُرَاثِي نَهْباً، حَتَّىٰ مَضَىٰ الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ، فَأَدْلَىٰ بِهَا إِلَىٰ فُلَانٍ بَـعْدَهُ. ثُـمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَعْشَىٰ[(٣)]:

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَةُ (١٧٢).

(٢) أنظر، السَّقِيفَة للشيخ مُحَمَّد رضا المظفر: ١٥٧، مناقب آل أبي طالب: ٢٣٧/١، أسد الغَـابَة: ٢٢٢/٣، تَأرِيخ بغداد: ١١٥/١٠، سير أعلام النّبلاء: ٤١٥/١٤، البداية والنّهاية: ٣٠٧/٥، صَحِيح البُخَاريّ مَع ٱلفَتْح: ٥٦٤/٧.

(٣) هُو مَيمُون بن قَيس بن جَندل بن ثَعْلبة الوَائلي، ويُكنىٰ أَبَا بَصِير، كَمَا جَاء فِي طَبقات ٱبن سَلاّم: ٣٦. أنظر، دِيوان الأَعْشَىٰ قَيس الْكَبِير: ٩٦.

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَىٰ كُورِهَا وَ يَـوْمُ حَـيَّانَ أَخِـي جَـابِرِ

فَيَا عَجَباً ! ! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ـ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا[٢] ! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا ، وَ يَخْشُنُ مَسُّهَا ، وَ يَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا ، وَ الاِعْتِذَارُ مِنْهَا ، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ ، وَ إِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ ، فَمُنِيَ النَّاسُ ـ لَعَمْرُ اللهِ ـ بِخَبْطٍ ، وَ شِمَاسٍ ، وَ تَلَوُّنٍ ، وَ اعْتِرَاضٍ ، فَصَبَرْتُ عَلَىٰ طُولِ الْمُدَّةِ ، وَ شِدَّةِ الْمِحْنَةِ[٣]) .

اللُّغَة:

هَاتَا : هَذِه . وأَحْجَىٰ : أَجْدَر . والَقَذىٰ ما يَقع فِي الْعَيْن مِن تِبْنَة ، وَنحوها .

وشَجاً : ما يَقع فِي الحَلق مِن عَظم ، وَنحوه . وَكُورِ النَّاقة : ما يُوضع عَلَىٰ ظَهرها للرّكوب . وتَشَطَّرَا : أَخذ كلّ وَاحد شَطراً . والحَـوْزَة : الطَّبيعَة . وكُـلْمُها ـ بِـضَم الكَاف ـ : الأَرْض الغَليظة . والْعِثَارُ ـ بِكَسر الْـعَيْن ـ : الزَّلَـل . والصَّـعْبَة : النَّـاقة الشّديدة الَّتي يَصعب قِيادها . وأَشْنَقَ النَّاقة : جَذبها إِلَـيْهِ بـالزِّمام . وخَـرَمَ أنـف النّاقة : شَقَّه . وأَسْلَسَ للنَّاقة : أرْخَىٰ لهَا الزّمَام . وتَقَحَّمَ : هَلك . والخَبْط : السَّير بلا هُدىٰ . وَالشِمَاس : الإِمتنَاع . والتَّلَوُّن : التّبدل . والإِعْتِرَاض : السَّير بلا آستقَامة .

الإِعْرَاب:

شَتَّانَ آسم فِعل بِمَعْنَىٰ بَعُد ، تَقول : شَتَّانَ زَيد ، وبَكْر أي بَعُد ما بَـيْنَهما ، و «مَـا» زَائِدَة . ويَوْمِي الأَوَّل فَاعِل ، والثَّانِي عَطف عَلَيْهِ . فَيَا عَجَباً ! ! أي يَا عَجبي آحْضَر . وبَيْنَ : تُسْتَعمل لظَرف الْمَكَان مِثل جَـلست بَـيْنَهَا ، ولظَـرف الزّمـان مِـثل بَـيْنَ

الطّلوعِين، والألْف فِي بَيْنَ عُوض عَن كَلِمَة أوقَـات المَحْـذُوفَة، أي بَـيْنَ أوقَـات الإسْتَقالة مِنْهَا عَقَدَهَا لغَيره. لَشَدَّ مَا اللاَّم زَائِدَة للتّوكِيد، وشَدّ فِعل ماضٍ، و«مَا» مَصْدَرِيَّة، والْمَصْدَر المُنسبك فَاعِل شَدّ ـ ولعَمر اللهِ ـ اللاَّم زَائِدَة للتّوكِيد، وعُـمَرَ مُبْتَدَأ، والخَبَر مَحْذُوف وجُوباً أي لَعَمْرُ اللهِ قَسمي، والْمَعْنَىٰ أقْسم بـدوَام الله، وَإِذَا حُذفت اللاَّم تَعَيَن نَصب عُمَرَ عَلَىٰ المَصْدَرِيَّة.

الْمَعْنَىٰ:

(فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَىٰ هَاتَا أَحْجَىٰ، فَصَبَرْتُ وَ فِي الْعَيْنِ قَذًى، وَ فِـي الْـحَلْقِ شَجًا). صَبر الإِمَام عليه السلام عَلَىٰ مَضض حَيْث لا مَلجأ إلّا الصّبر، ولَو لَم يَصبر لوَقع ما هُو أشَد، وآلَم.

وَتَسْأَل: هَل عَدَم الصَّبر يَكْشِف عَن عَدَم الإِيمَان؟

الجَوَاب:

إنَّ الصَّبر مِن شُؤُون ٱلْعَقْل لاَ مِن شُؤُون الدِّين، لأنّه نَتيجَة لِعَملِية المَوازنة بَيْنَ ضَررين لاَ مَفَرّ مِن أَحدِهما، يُجرِيها ٱلإِنْسَان بنَفْسِهِ... ولَيْسَ مِن شَكٍّ أَنّ الْعَاقِل يَختَار مَا هُو أَخَف وَطأَة، وأَقَل ضَرَراً، وَالدِّين بِـدُورة يَـقر ٱلْـعَقْل عَـلَىٰ حُـكْمَه وَٱخْتِياره، أَمَّا الأَحَادِيث الَّتي تَقول: «لاَ إِيمَان بِلا صَبْر»[1]، فَمعنَاها فِي وَاقِع الأَمْر أنّه لا إيمَان بِلا عَقل سَليم يَختَار الأَجْدَىٰ، والأَصْلَح... وَمِن البدَاهَة أنّ الله سُبْحَانَهُ

(١) أُنظر، كتاب التّمحيص لمُحَمَّد بن همام الإسكافِي: ٦٤، مُسْتَدرَك الوَسَائِل: ٤٢٤/٢، عيون الحكم والمواعظ: ٥٣٦، بحَار الأَنْوَار: ٣٩/٧٥، تحف الْعُقُول: ٢٠٢، التلخيص: ٦٤ ح ١٥٠.

يُجزِي الْعِبَاد بعقُولِهِمْ تَمَامًا كَمَا يُجزِيهم بإيمَانهم.

(أَرَىٰ تُرَاثِي نَهْباً). كَنَىٰ عَن ٱلْخِلاَفَة بالتُّراث لِأَنَّهَا حَقّ لهُ تَمَامًا كالمِيرَاث الَّذي هُو حقّ خَاص بِالقرِيب دُونَ البَعِيد، ولَيْسَ الْمُرَاد أَنّ ٱلْخِلاَفَة إِرْث كَالمتَاع... كَيْفَ وهُو القَائِل: وَاعَجبَاه!. أتكُون ٱلْخِلاَفَة بالْصَّحَابَة والْقَرَابَة؟[1].

وَتَسْأَل: وكَيْفَ تَكُون ٱلْخِلاَفَة حَقّاً خَاصّاً بِعَلِيٍّ؟.

الْجَوَاب:

قَالَ الشِّيعة: أنّ النَّبِيّ ﷺ نَصّ عَلَىٰ عَلِيٍّ بِالْخِلاَفَةِ، وَقَالَ السُّنَّة: بَل تَركهَا شُورَىٰ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِين.

وَسَأَلهم الشِّيعَة: هَل نَصّ النَّبِيّ ﷺ عَلَىٰ أَنّ ٱلْخِلاَفَة شُورَىٰ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِين؟.

ثُمَّ قَالَ الشِّيعَة: وَإِذَا ٱدْعىٰ مُدع أَنّ وجُوب ٱلشُّورَىٰ مِن الوَاضِحَات، ولاَ يَحتَاج إِلَىٰ نَصٍّ، وَبَيَان... هَذَا، إِلَىٰ أَنّ الله سُبْحَانَهُ قَد نصّ عَلَيْهَا بقَوْله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2].

إِذَا ٱدْعىٰ هَذَا مُدع أَجْبنَاه: لَو كَان وَاضحاً لمَا وَقَع الخِلاَف، ولَو كَان الْمُرَاد بِهَذِه الآيَة ٱلْخِلاَفَة لكَان أَبُو بَكْر فِي نَصّه عَلَىٰ عُمَرَ مُخَالِفاً لله، وَرَسُوله، ولاَ قَائِل مِن

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٤٣/٤ ٱلْحِكْمَة (١٩٠)، وشَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة للمعتزلي: ٤١٦/١٨ رقم (١٨٥)، شَرْح النَّهْج للبحراني: ٣٤١/٥، شَرْح النَّهْج للخوئي: ٢٦٢/٢١، شَرْح النَّهْج للفيض: ١١٦٣ رقم (١٨١)، خصائص الأئِمَّة للشريف الرَّضِي: ١١١. وروي له شعر فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ:

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَىٰ مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ ... فَكَيْفَ بِهَذَا وَالْمُشِيرُون غُيَّبُ؟
وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَىٰ حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ ... فَغَيْرُكَ أَوْلَىٰ بِالنَّبِيّ وَأَقْرَبُ

(٢) ٱلشُّورَىٰ: ٣٨.

السُّنَّة بِذَلِكَ، وإِذَنْ فَلا دَلاَلَة فِي الآيَة عَلَىٰ ٱلْخِلاَفَة[(١)].

وَيَتَلَخص دَلِيل الشِّيعة عَلَىٰ وجُود النّص بأنّ الله سُبْحَانَهُ قَد أكمَل الدِّين لأُمّة مُحَمَّدﷺ كَمَا جَاء فِي الآيَة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾[(٢)] ولاَ يَكمل الدِّين مِن غَيْرِ النَّص عَلَىٰ ٱلْخِلاَفَة، لِأَنَّهَا مِن أَهَم

---

(١) إنَّ ٱستدلالكم عَلَىٰ ٱلشُّورَىٰ بالآيَاتِ الواردة فِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿...وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ...﴾ ٱلشُّورَىٰ: ٣٨.، وقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿...وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ...﴾ آلِ عِمْرَانَ: ١٥٩.، وأنّ رَسُول اللهﷺ كَانَ يستشير أَصْحَابه فِي الأُمُور المُهِمّة والصّعبة، كما ٱستشارهم فِي غَزْوَة بَدْر، وأُحد والخندق... إلخ.

وهنا نسألكم: أتدل الآيَة الأُولَىٰ عَلَىٰ الوجوب أم عَلَىٰ الاستحباب؟ فإنْ قلتم عَلَىٰ الوجوب فهذا لم يقل به أحد، بل إنَّ الآيَة الواردة فِي سُورَة ٱلْأَحْزَابِ تكون معارضة لها: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ ٱلْأَحْزَابِ: ٣٦.. أمّا إذَا قلتم بالاستحباب فقد ثبت المطلوب وهُو أنّ الآيَة واردة بخصوص التّشاور الّذي لم يرد فِيهِ أمر مِن الله ورسوله. وَهَذَا بعيد عما ورد بشأن الإِمَامَة بأنّها مِن الله ورسوله، ومقطوع بها بالنصّ. وَلاَ عِلاَقَة لها بِالْبَيْعَةِ حَتَّىٰ تمارس الأُمّة صلاحيتها عَن طريق ٱلشُّورَىٰ، بل إنّ ٱلشُّورَىٰ هنا تحكم عَلَىٰ النّص، وتنقل حقّ الْحُكْم مِن الله ورسوله إلىٰ الأُمّة، وَهَذَا خلاف الوجدان.

أنّ ٱلشُّورَىٰ ٱلّتي أوجدها عُمَرَ بن الخَطَّاب وخرج بها عَن النّص، والإختيار وحصرها فِي ستة، وذَمّ كلّ واحد مِنْهُم، ثُمّ أهله لِلْخِلاَفَة، وبعدها جعل الأَمْر إلىٰ أَرْبَعَة، ثُمّ إلىٰ واحد وصفه بالضَّعْف، والقصور تارةً، وفِرْعَوْنَ هَذِهِ الأُمّة تارة ثانِيَة، ويجعل خاتمه فِي أصبع آمْرأته تارة ثالثة و...و...

والسّؤال هُو لِمَاذَا لم ينص عَلَىٰ واحد بعينه؟ وَلِمَاذَا لا يترك الأُمّة هِي ٱلّتي تختار كما يدعي المدعي؟ ولِلْأُمّةِ حقّ الإختيار، وٱلْبَيْعَة؟

(٢) ٱلْمَائِدَة: ٣.

الْغَدِير عَهدٌ إلٰهي

أجمع المؤرّخون وأهْل السِير أنّ رَسُول اللهﷺ خرج فِي السّنَة العاشرة مِن الْهِجْرَةِ للحجّ، ودَعَا ٱلْمُسْلِمِين عموماً إلىٰ ذَلِكَ فاستجاب لدعوته ٱلْمُسْلِمُون، وقد اختُلف فِي عددهم، فمنهم من قَالَ: (٩٠) ألفاً، ومِنْهُم من قَالَ: (١١٤) ألفاً، ومِنْهُم من قَالَ: (١٢٠) ألفاً، ومِنْهُم من قَالَ: (١٢٤) ألفاً،

⇔

⇐ وقيل: أَكْثَر من ذَٰلِكَ. وَهِي الحجّة الَّتي يطلق عَلَيْهَا حجّة الوداع لأنّها الحجّة الوحيدة الَّتي حجّها رَسُول الله ﷺ، وكَذَٰلِكَ تسمّىٰ بحجّة البلاغ نسبة إِلىٰ قَوْله تَعَالَىٰ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وتسمّىٰ أيضاً بحجّة التّمام والكَمَال طبقاً لقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.

خرج من الْمَدِينَة يَوْم السّبت لخمس ليالٍ أو ستّ بقين من ذي القعدة، وقد خرج معه نساؤه جَمِيعاً فِي هوادج وسار معه أَهْل بَيْتِه ﷺ وأغلب الْمُهَاجِرين والأَنْصَار، بالإضافة إِلىٰ الّذين جاؤوا من الْيَمن مع الإمَام عليّ عليه السلام وأبي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيّ. وأثناء خروجه من الْمَدِينَة أصيب النَّاس بوباء الجدري أو الحصبة مِمَّا تسبب فِي منع الكَثِير من الذّهاب إِلىٰ ٱلْحَجّ معه ﷺ ورغم ذَٰلِكَ فقد حجّ معه ﷺ ذَٰلِكَ العدد المشار إِلَيْه سابقاً.

أَصْبَحَ ﷺ يَوْم الأحد بيلملم، ثُمّ راح فتعشّىٰ بشرف السّيالة، وصلّىٰ المغرب والْعِشَاء، ثُمّ صلّىٰ الظُّهْر بعرق الظّبية، ثمّ نزل الرّوحاء، ثمّ سار فصلّىٰ العصر بالمنصرف، وصلّىٰ المغرب والْعِشَاء بالمتعشّىٰ، وصلّىٰ الصّبح بالإثابة، وأَصْبَحَ يَوْم الثّلاثاء بالعرج، وأحتجم بلحىٰ جمل ـ عَقَبَة الْجُحْفَة ـ ونزل السّقياء يَوْم الأَرْبعَاء، وأَصْبَحَ بالأبواء وصلّىٰ هناك، ثمّ راح ونزل يَوْم ٱلْجُمُعَةِ بِالْجُحْفَة، ومِنْهَا إِلىٰ قَدِيد وسبّت فِيه، وكَانَ يَوْم الأحد بعسفان.

ثمّ سار فلمّا كَانَ بالغميم اعترض المشاة فصفّوا صفوفاً فشَكَوْا إِلَيْهِ المشي، فَقَالَ: استعينوا بالنسلان ـ وهُو المشي السّريع دُونَ الْعَدْوَ ـ ففعلوا فوجدوا لذلك راحة، وكَانَ يَوْم الاثْنَيْن بمرّ الظّهران فلم يبرح حَتَّىٰ أمسىٰ وغربت له ٱلشَّمس بسرف فلم يصلّ المغرب حَتَّىٰ دخل مَكَّة، ولمّا انتهىٰ إِلىٰ الاثْنَيْن بات بَيْنَهما فدخل مَكَّة نهار الثّلاثاء.

أنظر، المصادر التّالية: تذكرة الخواصّ لسبط أبْن الجوزي: ٣٠، السّيرَة الْحَلَبية: ٣/٢٥٧، السّيرَة النَّبَوِيّة لزين دحلان بهَامِش السّيرَة الْحَلَبية: ٣/٣، الْغَدِير للعلامة الأميني: ١/٩، الطّبَقَات الْكُبْرَىٰ لابْن سعد: ٣/٢٢٥، إمْتَاع المقريزي: ٥١٠، إرشاد السّاري: ٦/٤٢٩، تَأْرِيخ الْخُلَفَاء لابْن الجوزي: ٤/١٨، دائرة المعارف لفريد وجدي: ٣/٥٤٢، مَجْمَع الزّوائد: ٩/١٥٦، ثمار الْقُلُوب: ٥١١، أَسْبَاب النّزول للواحدي: ١٣٥ الدُّر المنثور: ٢/٢٩٨، فتح الْقَدِير: ٢/٥٧، تَفْسِير النّيسابوري: ٦/١٩٤.

ولمّا صدر رَسُول الله ﷺ من حجّة الوداع (أنظر، مَجْمَع الزّوائد: ٩/١٠٥ و ١٦٣ ـ ١٦٥ وأنظر، أيضاً ⇐

⇐ المصادر السّابقة) نزلت عَلَيْهِ فِي ٱلْيَوْم الثّامن عشر من ذي الحجة (أُنظر، الْحَاكِم الحسكاني فِي شواهد التّنزيل: ١ / ١٩٢ ـ ١٩٣) آية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فنزل بغدير خمّ من الجحفة (راجع مَجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٦٣ ـ ١٦٥ البداية والنّهاية لِابْن كثير: ٢٠٩ ـ ٢١٣ (وخمّ: وادٍ بَيْنَ مَكَّة والمَدِينَة عند الجحفة). عنده خطب رَسُول الله ﷺ وَهَذَا الوادي موصوف بكثرة الوخامة (أُنظر، ربيع الأبرار للزمخشري: ١ / ٨٤ طَبْعَة بغداد). وقيل خمّ موضع تصبّ فِيهِ عين. وقيل هُو بئر من المبشب، حفرها مرّة بن كعب وهُو عَلَىٰ بعد ٣ أميال من الجحفة وقيل عَلَىٰ بعد ميل، وَهِي الَّتِي عناها الشّاعر:

وَقَالت بِالْغَدِير غَدِير خُمٍّ ... أُخَيَّ إِلَىٰ مَتَىٰ هَذَا الرّكُوب

(أُنظر، مراصد الْإِطِّلَاع: ١ / ٤٨٢، وسفينة ٱلْبِحَار: ٢ / ٣٠٩) وكَانَ يتشعّب مِنْهَا طريق المَدِينَة، ومِصْر، والشّام (أُنظر، معجم البلدان: مَادَّة الجحفة) ووقف هناك حَتَّىٰ لحقه من بعده وردّ من كَانَ تَقَدَّم (أُنظر، البداية والنّهاية لِابْن كثير: ٢١٣) ونهىٰ أَصْحَابه عَن سمرات متفرّقات بالبطحاء أنْ ينزلوا تحتهنّ، ثمّ بعث إليهنّ فقُمّ ما تحتهنّ من الشّوك (مَجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٠٥ ومَعْنَىٰ السّمر: نَوْع من الشّجر، وقُمّ ـ من باب مدّ أي كنسه ونظّفه. وأُنظر، المصادر السّابقة، والبداية والنّهاية لِابْن كثير: ٢٠٩) ونادىٰ الصَّلَاة جامعة (أُنظر، مُسْنَد أحمد: ٤ / ٢٨١، سُنَن ٱبْن ماجه باب فَضَائِل عليّ، تَأرِيخ ٱبْن كثير: ٢٠٩ و ٢١٠)، وعمد إليهنّ (مَجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٦٣ و ١٦٥) وظلّل لرسول الله ﷺ بثوب عَلَىٰ شجرة سمرة من ٱلشَّمْس (مُسْنَد أحمد: ٤ / ٣٧٢، البداية والنّهاية لِابْن كثير: ٥ / ٢١٢)، فصلّىٰ الظُّهر بهجير (مُسْنَد أحمد: ٤ / ٢٨١ وأُنظر، المصادر السّابقة).

ثمّ قام خطيباً، فحمدالله وأثنىٰ عَلَيْهِ، وذكر ووعظ وَقَالَ ما شاء الله أن يقول، ثمّ قَالَ: إِنّي أُوشك أنْ أُدعىٰ فأُجيب، وإِنّي مَسْئُول وأَنْتُمْ مَسْئُولون، فماذا أَنْتُمْ قائلون؟ قَالُوا: نشهد أنّك بلّغت ونصحت فجزاك الله خيراً، قَالَ: أَلَيْسَ تشهدون أنْ لا إله إلاّ الله وأنّ مُحَمَّداً عَبْده ورسوله، وأنّ ٱلْجَنَّة حقّ، وأنّ ٱلنَّار حقّ؟ قَالُوا: بلىٰ نشهد ذَٰلِكَ. قَالَ: أَللَّهُمَّ ٱشهد. ثمّ قَالَ: ألا تسمعون؟ قَالُوا: نعم، قَالَ:

يا أيّها النّاس إِنّي فرط وأَنْتُمْ واردُونَ عليَّ الحوض وإنَّ عرضه ما بَيْنَ بُصرىٰ إِلَىٰ صنعاء (كَانَتْ بصرىٰ ٱسماً لقرية بالقرب من دِمَشْق، وأُخرىٰ بالقرب من بغداد) فِيهِ عدد النّجوم قدحان من فضّة، وإِنّي سائلكم عَن الثّقلَيْن، فانظروا كَيْفَ تخلفوني فِيهِمَا. فنادى منادٍ: وما الثّقلان يا رَسُول الله؟ قَالَ: كتاب الله، طرف بيد الله وطرف بأيديكم، فاستمسكوا به، لا تضلّوا وَلاَ تبدّلوا، وعِتْرَتِي أَهْل بَيْتِي وقد نبّأني اللّطيف ⇐

⇐ الخبير أنّهما لنْ يفترقا حَتَّىٰ يردا عليّ الحوض، سألت ذٰلِكَ لهما ربّي، فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، وَلاَ تعلّموهما فهم أعلم منكم. (مَجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٥، الحَاكِم فِي المُسْتَدرَك: ٣ / ١٠٩، اَبْن كثير فِي البداية والنّهايَة: ٥ / ٢٠٩).

ثمّ قَالَ: ألستم تعلمون أنّي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِين من أنفسهم؟ قَالُوا: بلى يا رَسُول الله (مُسْنَد أحمد: ١ / ١١٨ و ١١٩، و: ٤ / ٢٨١، سُنن اَبْن ماجه: ١ / ٤٣ / ١١٦ اَبْن كثير فِي البداية والنّهايَة: ٥ / ٢٠٩). قَالَ: «ألستم تعلمون ـ أو تشهدون ـ أنّي أَوْلَىٰ بكلّ مُؤْمِن من نَفْسِه؟ قَالُوا: بلىٰ يا رَسُول الله (راجع المصادر السّابقة ومُسْنَد أحمد: ٤ / ٢٨١ و ٣٦٨ و ٣٧٠ و ٣٧٢ البداية والنّهايَة لِابْن كثير: ٥ / ٢١٢).

ثمّ أخذ بيد عليّ بن أبي طالب بضبعيه فرفعها، حَتَّىٰ نظر النّاس إلىٰ بياض إبطيهما (أنظر، الحَاكِم الحسكاني: ١ / ١٩٠ وفِيهِ: فرفع يديه حَتَّىٰ يُرىٰ بياض إبطيه، وفِي ١٩٣: حَتَّىٰ بان بياض إبطيهما. وجاء فِي لِسَان الْعَرَب مَادَّة «ضبع» بسكون الباء: وسط العضد بلحمه). ثمّ قَالَ: أيّها النّاس، الله مولاي وأنا مولاكم (تَقَدَّمَت تخريجاته وراجع الحَاكِم فِي شواهد التّنزيل: ١٥ / ١٩١ البداية والنّهايَة لِابْن كثير: ٥ / ٢٠٩ وورد فِيهَا «وأنا مَوْلَىٰ كلّ مُؤْمِن»، فَمن كُنتُ مَوْلاَه فَهذا عَلِيٌّ مَوْلاَه، أَللَّهُمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه (تَقَدَّمَت تخريجاته) وأنصر من نصره وأخذل من خذله.

أنظر، المصادر التّالية: تَأرِيخ اَبْن عساكر: ٢ / ١٣ / ٥٠٨ و ٥١٣ ـ ٥١٦ و ٥٢٣ و ٥٤٤ و ٥٦٢ و ٥٦٩ الطّبعة الأُولَىٰ بيروت. يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢٤٩ طَبْعَة اسلامبول: ٢٩٧ طَبْعَة الحيدرية. كفاية الطّالب: ٦٣ طَبْعَة الحيدرية: ١٧ طَبْعَة الغري، المناقب للخوارزمي: ٨٠ و ٩٤ و ١٣٠، نظم درر السّمطين: ١١٢. كنز الْعُمَّال: ٦ / ٤٠٣ الطّبعة الأُولَىٰ، و: ١٥ / ١١٥ / ٣٣٢ و ٤٠٢ الطّبعة الثّانِيَة، أَنْسَاب الأَشْرَاف للبلاذري: ٢ / ١١٢، شواهد التّنزيل: ١ / ١٥٧ / ٢١١ و ١٩٢ / ٢٥٠.

وأُنظر، أيضاً مَجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٠٥، مُنْتَخَب كنز الْعُمَّال بهامِش مُسْنَد أحمد: ٥ / ٣٢، شَرْح النّهج لِابْن أبي الْحَدِيد: ١ / ٢٠٩ و ٢٨٩ الطّبعة الأُولَىٰ بِمِصْر، و: ٢ / ٢٨٩، و: ٣ / ٢٠٨ طَبْعَة مِصْر تحقيق مُحَمَّد أبو الْفَضْل، إسعاف الرّاغبين المطبوع بهامِش نور الأَبْصَار: ١٥١ طَبْعَة السّعيدية: ١٣٧ طَبْعَة العُثْمَانِيَة، خصائص أمِير الْمُؤْمِنِين للنسائي: ٩٦ طَبْعَة الحيدرية: ٢٦ و ٢٧ طَبْعَة مِصْر، الملل والنّحل للشهرستاني: ١ / ١٦٣، بيروت) وأحبّ من أحبّه، وأبغض من أبغضه (تَقَدَّمَت تخريجاته) وراجع أيضاً مُسْنَد أحمد: ١ / ١١٨ و ١١٩، و: ٤ / ٢٨١ و ٣٧٠ و ٣٧٢ و ٣٧٣، و: ٥ / ٣٤٧ و ٣٧٠، مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٣ / ١٠٩، ⇐

⇔ سُنن أبْن ماجه باب فَضَائِل عليّ.

وراجع شواهد التّنزيل: ١ / ١٩٠ و ١٩١، البداية والنِّهاية لِابْن كثير: ٥ / ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١٣ وفِيهِ «قلت لزَيد: هل سمعته من رَسُول الله ﷺ؟ فَقَال: ما كَانَ فِي الدّوحات أحد إلاّ رآه بعينه وسمعه بأذنه. ثمّ قَالَ أبْن كثير: قَالَ شيخنا أبو عبدالله الذّهبي: وَهَذَا حديث صَحِيح». ثمّ قَالَ: أَللّهُمّ اشهد (راجع المصادر السّابقة)، ثمّ لم يتفرّقا ـ رَسُول الله وعليّ ـ حَتَّىٰ نزلت هَذِه الآيَة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾: ٱلْمَائِدَة: ٣.

وأُنظر، المصادر التّالية الّتي تحدّد زمن نزول هَذِه الآيَة فِي ١٨ من ذي الحجّة فِي مكان يُقَال له غدير خم: تَأرِيخ دِمَشْق لِابْن عساكر ترجمة الإِمَام عليّ عليه السلام: ٢ / ٧٥ / ٥٧٥ ـ ٥٧٧ و ٥٨٥ الطّبعة الأُولَىٰ بيروت، البداية والنّهاية لِابْن كثير: ٥ / ٢١٣، و: ٧ / ٣٤٩ طَبْعَة القاهرة، روح الْمَعَانِي للآلوسي: ٦ / ٥٥، و: ٢ / ٢٤٩ طَبْعَة المنيرية، شواهد التّنزيل: ١ / ١٥٧ / ٢١١ ـ ٢١٥ و ٢٥٠ الطّبعة الأُولَىٰ بيروت، مناقب الإِمَام عليّ عليه السلام لِابْن المغازلي: ١٩ / ٢٤ الطّبعة الأُولَىٰ طهران، تَأرِيخ اليعقوبي: ٢ / ٣٥، الْغَدِير للعلاّمة الأَمِيني: ١ / ٢٣٠، تَفْسِير أبْن كثير: ٢ / ١٤ الطّبعة الأُولَىٰ بِمِصْر، و: ٣ / ٢٨١ طَبْعَة بولاق.

وراجع أيضاً مقتل الحُسَيْن للخوارزمي: ١ / ٤٧ طَبْعَة مطبعة الزّهراء، تَأرِيخ بغداد: ٨ / ٢٩٠ طَبْعَة السّعادة بِمِصْر، الدُّر المنثور: ٢ / ٢٥٩ الطّبعة الأُولَىٰ بِمِصْر، الإتقان للسيوطي: ١ / ٣١، و: ١ / ٥٢ طَبْعَة المشهد الحُسَيْني بِمِصْر، المناقب للخوارزمي: ٨٠ طَبْعَة الحيدرية، تذكرة الخواصّ: ٣٠ وص ١٨ طَبْعَة آخر، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١١٥، و: ١ / ٣٤٧، و: ٣ / ٣٦٥ طَبْعَة أُسوة، تحقيق السّيّد عليّ جمال أشرف، فرائد السّمطين: ١ / ٧٢ و ٧٤ و ٣١٥ الطّبعة الأُولَىٰ بيروت، كَشْف الْغُمَّة: ٩٥، العمدة: ٥٢.

وأُنظر، كَذَلِكَ الخصائص العلوية لأَبِي ٱلْفَتْح النّطنزي عَن أَبِي سعيد الخدري وجابر الأَنْصَاري وعَن الإمامين الباقر والصّادق عليهما السلام، الطّبَرِيّ صاحب التَّفْسِير المشهور روى بإسناده عَن زَيد فِي كتابه الْوِلاَيَة، الحافظ أبو نعيم فِي كتابه ما نزل من ٱلْقُرْآن فِي عليّ، توضيح الدّلائل عَلَىٰ ترجيح الفَضَائِل كما ورد فِي الْغَدِير: ١ / ٢٣٥ مَجْمَع الْبَيَان: ٢ / ٢٠٠ طَبْعَة مؤسّسة التّأرِيخ العَرَبِي بيروت، المناقب لِابْن شهرآشوب: ٣ / ٢٣ طَبْعَة دار الأَضواء.

فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: الله أكبر عَلَىٰ إكمال الدّين وإتمام النّعْمَة، ورضا الرّبّ برسالتي، والْوِلاَيَة لعلي، رواه الْحَاكِم الحسكاني عَن أَبِي سعيد الخدري: ١ / ١٥٧ و ١٥٨ / ٢١١ و ٢١٢ وعَن أَبِي هريرة:

⇔

↔ ٢١٣/١٥٨، والبداية والنّهاية لابْن كثير: ٥/ ٢١٤).

ولَسْنَا بصدد بَيَان حَقِيقَة حديث الْغَدِير؛ لأنّه من أوضح الواضحات، ولكن نشير بشكل إجمالي كما أشرنا سابقاً إِلىٰ سنده وتواتره وصحّته.

فطرق حديث الْغَدِير متعدّدة، فما رواه أحمد بن حنبل من ٤٠ طريقاً، وأبْن جرير الطَّبَرِيّ مـن ٧٢ طريقاً، والجزري من ٨٠ طريقاً، وأبْن عقدة من ١٠٥ طرق، وأبو سعيد السّجستاني من ١٢٠ طريقاً، وأبو بَكْر الجعابي من ١٢٥ طريقاً، ومُحَمَّد الْيَمَني: ١٥٠ طريقاً، وأبو الْعَلاء العـطّار الهَـمَذانيّ مـن ٢٥٠ طريقاً، ومسعود السّجستاني يروي الْحَدِيث بـ ١٣٠٠ إسناد وَقَالَ عبدالله الشّافعي فِي كتابه المناقب. إِنَّ هَذَا الْخَبَر ـ حديث الْغَدِير ـ قد تجاوز حدّ التّواتر فلا يوجد خَبَر قطّ نقل من طرق كَـهَذِه الطّـرق. (أنـظر، الْغَدِير: ١/ ١٤ و ١٥٨ وإحقاق الْحَقّ: ٦/ ٢٩٠، المراجعات تحقيق حُسين الرّاضي: ٣١٩).

وأعترف بتواترة كلّ من جلال الدّين السّيوطي الشّافعي فِي الفوائد المتكاثرة فِي الأَخْبَار المتواترة، وفِي الأَزْهَار المتناثرة فِي الأَخْبَار المتواترة، ونقل كَلاَم السّيوطي العلّامة المنّاوي فِي التّيسير فى شَرْح الجَـامِع الْصَّغِير: ٢/ ٤٤٢، والعلّامة العزيزي فى شَرْح الجَامِع الْصَّغِير: ٢/ ٣٦٠، والملّا عليّ القـاري فِي المـرقاة شَرْح المشكاة: ٥/ ٥٦٨، وجمال الدّين الشّيرازي فِي كتابه الأَرْبَعِين، وصاحب عبقات الأَنْوَار: ٦/ ١٢٣، والمنّاوي فِي التّيسـير فِي شَرْح الجَامِع الْصَّغِير: ٢/ ٤٤٢، والميرزا مخدوم فِي النّواقض عَلَىٰ الرّوافض كما جاء فِي العبقات: ٦/ ١٢١، ومُحَمَّد بن إِسْمَاعِيلَ اليماني فِي كتابه الرّوضـة النّـدية كـما جـاء فِي إحـقاق الْحَـقّ: ٦/ ٢٩٤، وخلاصة العبقات: ٦/ ١٢١ ومُحَمَّد صدر عالم فِي كتاب معارج العُلىٰ فِي مناقب المرتضىٰ كـما جاء فِي عبقات الأَنْوَار: ٦/ ١٢٧.

وَقَالَ بتواتره أيضاً عبدالله الشّافعي فِي كتابه الأَرْبَعِين، والشّيخ ضِياء الدّين المقبلي فِي كتاب الأبحاث المسدّدة فِي الفنون المتعدّدة كما جاء فِي خلاصة عبقات الأَنْوَار: ٦/ ١٢٥، وأبْن كثير فِي البداية والنّهاية: ٥/ ٢١٣، والحافظ أبْن الجزري فِي أسنى المطالب: ٤٨.

ومن أراد المزيد فليراجع إحقاق الْحَقّ: ٢/ ٤٢٣، وعبقات الأَنْوَار لمير حامد حُسين النّيشابوري الهندي، مجلّدات حديث الْغَدِير، والْغَدِير للعلّامة الأميني، والتّرمذي فِي صحيحة: ٢/ ٢٩٨ قَالَ: حديثٌ حسَن صَحِيح، والطّحاوي فِي مشكل الآثار: ٢/ ٣٠٨ قَالَ: صَحِيح الاسناد وَلاَ طعن لأحدٍ فِي رواته، وأبْن عبدالبرّ فِي الإسْتِيعَاب: ٢/ ٢٧٣، والْحَاكِم النّيسابوري فِي الْمُسْتَدرَك عَلَىٰ الصّحِيحين: ٣/ ١٠٩، ↔

⇔ وٱبْن حجر العسقلاني فِي فتح الباري: ٧ / ٦١ وٱبْن حجر المكي فِي الصَّوَاعِق: ٢٥ قَالَ: إنّه حديث صَحِيح لامرية فِيهِ.

أَمَّا روَاة الحَدِيث مِن الصَّحَابَة فَهُم كالتَّالِي حَسَب الحرُوف الأَبجَدِية:

أبو هريرة الدّوسي (ت ٥٧ / ٥٨ / ٥٩ هـ) وهُو ٱبْن ثمان وسبعين عاماً، أبو ليلى الأَنْصَاري يُقال: إنّه قُتل بصِفّين سَنَة (٣٧ هـ)، أبو زينب بن عوف الأَنْصَاري، أبو فضالة الأَنْصَاري من أَهْل بَدْر قُتل بصِفّين مَع الإِمَام عليّ عليه السلام، أبو قُدَامَة الأَنْصَاري أحد المستنشدين يَوْم الرّحبة، أبو عمرة بن عَمْرُو بن محصن الأَنْصَاري، أبو الهَيْثَم بن التّيهان قُتل بصِفّين سَنَة (٣٧ هـ)، أبو رافع القبطي مَوْلَىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله، أبو ذويب خُوَيْلد (أو خالد) بن خالد بن محرث الهزلي الشّاعر الجَاهِلِي ٱلإِسْلاَمي المتوفىٰ فِي خلافة عُثْمَان، أبو بَكْر بن أبي قحافة التّيمي المتوفىٰ (١٣ هـ)، أُسامة بن زَيد بن حارثة الكلبي (ت ٥٤ هـ) وهُو ٱبْن ٧٥ عاماً، أُبيّ بن كعب الأَنْصَاري الخَزْرَجِي سيّد القرّاء المتوفى سَنَة (٣٠ / ٣٢ هـ)، أسعد بن زرارة الأَنْصَاري.

أسماء بنت عُميس الخثعمية، أُمّ سلمة زوج الرَّسُول صلى الله عليه وآله، أُمّ هاني بنت أبي طالب، أبو حَمْزَة أنس بن مالك الأَنْصَاري الخَزْرَجِي خادم النَّبِيّ صلى الله عليه وآله (ت ٩٣ هـ)، البراء بن عازب الأَنْصَاري الأوسي نزيل الْكُوفَة (ت ٧٢ هـ)، بريدة بن الحصيب أبو سهل الأسلمي (ت ٦٣ هـ)، أبو سعيد ثابت بن وديعة الأَنْصَاري المدني، جابر بن سَمُرَة بن جنادة أبو سليمان السّوائي نزيل الْكُوفَة (ت بعد ٧٠ وقيل ٧٤ هـ)، جابر بن عبدالله الأَنْصَاري (ت بالْمَدِينَة ٧٣ / ٧٤ / ٧٨ هـ) وهُو ٱبْن ٩٤ عاماً، جبلة بن عَمْرُو الأَنْصَاري، جبير بن مطعم بن عَدِيّ القُرَشِيّ النّوفلي (ت ٥٧ / ٥٨ / ٥٩ هـ)، جرير بن عبدالله بن جابر البَجَلِيّ (ت ٥١ / ٥٤ هـ)، أبو ذرّ جُنْدُب بن جنادة الغفاري (ت ٣١ هـ)، أبو جنيدة جُنْدُب بن عَمْرُو بن مازن الأَنْصَاري.

حَبّة بن جوين أبو قُدَامَة العرني البَجَلِيّ (ت ٧٦ / ٧٩ هـ)، حبشي بن جنادة السّلولي نزيل الْكُوفَة، حبيب بن بديل بن ورقاء الخزاعي، حُذَيْفَة بن اسيد أبو سريحة الغفاري من أَصْحَاب الشَّجَرَة (ت ٤٠ / ٤٢هـ)، حُذَيْفَة بن اليمان اليماني (ت ٣٦ هـ)، حَسّان بن ثابت أحد شعراء الْغَدِير، الإِمَام الْحَسَن بن عليّ عليه السلام، الإِمَام الحُسَيْن بن عليّ عليه السلام أبو أيوب خالد بن زَيد الأَنْصَاري ٱسْتُشْهِدَ غازياً ٱلرُّوم سَنَة (٥٠ / ٥١ / ٥٢ هـ)، أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيره المَخْزُومِيّ (ت ٢١ / ٢٢ هـ)، خُزَيْمَة بن ثابت الأَنْصَاري ذو الشّهادتين الْمَقْتُول بصِفّين مَع عليّ عليه السلام سَنَة ٣٧ هـ، أبو شُرَيْح خُوَيْلد بن عَمْرُو الخزاعي نزيل الْمَدِينَة (ت ٦٨ هـ)، رفاعة بن عبد الْمُنْذِر الأَنْصَاري، زبير بن العوّام القُرَشِيّ الْمَقْتُول سَنَة (٣٦ هـ)، زَيد بن ⇔

⟸ أرقم الأَنْصَاري الخَزْرَجي(ت ٦٦ / ٦٨ هـ).

أبو سعيد زَيدبن ثابت (ت ٤٥ / ٤٨ وقيل بعد ٥٠ هـ)، وزَيد (يَزِيد) بن شراحبيل الأَنْصَاري، زَيدبن عبدالله الأَنْصَاري، أبو إِسْحَاقَ سعدبن ابي وَقَّاص (ت ٥٤ / ٥٥ / ٥٦ / ٥٨ هـ)، سعدبن جنادة العوفي والدَ عَطِيَّة العوفي، سعدبن عبادة الأَنْصَاري الخَزْرَجي (ت ١٤ / ١٥ أحد النّقباء الاثني عشر). أبو سعيد سعدبن مالك الأَنْصَاري الخدري (ت ٦٣ / ٧٥ / ٧٤ هـ)، سعيدبن زَيد القُرَشيّ العدوي (ت ٥٠ / ٥١ هـ) سعيدبن سعدبن عبادة الأَنْصَاري، أبو عبدالله سَلْمَان الفَارِسي (ت ٣٦ / ٣٧ هـ).

أبو مُسْلِم سلمة بن عَمْرُوبن الأكوع الأسلمي (ت ٧٤ هـ)، أبو سليان سَمُرَة بن جُنْدُب الفزاري(ت بالْبَصْرَةِ ٥٨ / ٥٩ / ٦٠ هـ)، سهل بن حُنَيْف الأَنْصَاري الأوسي (ت ٣٨ هـ)، أبوالعَبَّاس سهل بن سعد الأَنْصَاري الخَزْرَجي السَاعدي (ت ٩١ هـ) عَن ١٠٠ سَنَة. أبو أُمَامَة الصَدي بن عجلان البَاهِليّ نزيل الشّام (ت ٨٦ هـ)، ضميرة الأسدي، طَلْحَة بن عُبَيْدالله التَميمي المَقْتُول يَوْم الجَمَل سَنَة (٣٦ هـ) وهُو آبْن ٦٣ سَنَة، عامربن عمير النّمري، عامر بن ليلى بن حَمْزَة، عامر بن ليلى الغفاري. أبو الطّفيل عامربن واثلة اللّيثي (ت ١٠٠/١٠٢/١٠٨/١١٠هـ).

عَائِشَةَ بنت أبي بَكْربن أبي قحافة زوج الرّسُول ﷺ، عَبَّاس بن عبدالمطّلب بن هاشم عمّ النّبِيّ ﷺ (ت ٣٢ هـ)، عبدالرَّحْمَان بن عبد ربّ الأَنْصَاري، أبو مُحَمَّد عبدالرَّحْمَان بن عوف القُرَشيّ الزّهري (ت ٣١ / ٣٢ هـ)، عبدالرَّحْمَان بن يعمر الدّيلمي نزيل الكُوفَة، عبدالله بن أبي عبدالأسدي المَخْزُومِيّ، عبدالله بن بديل بن ورقاعة سيد خزاعة المَقْتُول بصِفِّين مَع عليّ ؑ.

عبدالله بن بشر (بُسْر) المازني، عبدالله بن ثابت الأَنْصَاري، عبدالله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي (ت ٨٠) عبدالله بن حنطب القُرَشيّ المَخْزُومِيّ، عبدالله بن زبيعَة، عبدالله بن عَبَّاس (ت ٦٨ هـ)، عبدالله بن أبي أوفى علقمة الأسلمي (ت ٨٦ / ٨٧ هـ)، أبو عبدالرَّحْمَان عبدالله بن عُمَربن الخَطَّاب العدوي (ت ٧٢ / ٧٣هـ)، أبو عبدالرَّحْمَان عبدالله بن مسعود (ت ٣٢ / ٣٣ هـ). عبدالله بن باميل (يامين) عُثْمَان بن عَفَّان (ت ٣٥ هـ)، عُبَيْدبن عازب الأَنْصَاري أخو البرّاء بن عازب، أبو طريف عَدِيّ بن حاتم (ت ٦٨ هـ وهُو آبْن ١٠٠ سَنَة، عَطِيَّة بن بُسْر المازني، عُقْبَة بن عامر الجهني ولّي أمر مِصْر لمُعَاوِيَة ثلاث سنين مات في قرب السّتّين.

أمِير ٱلمُؤْمِنِين عليّ بن أبي طالب ؑ ٱسْتُشْهِدَ سَنَة (٤٠ هـ)، أبو اليقظان عَمَّار بن ياسر العنسي الشّهيد ⟸

⇐ وأبْن حجر العسقلاني فِي فتح الباري: ٧ / ٦١ وأبْن حجر المكي فِي الصَّوَاعِق: ٢٥ قَالَ: إنّه حديث صَحِيح لامرية فِيهِ.

أمَّا رِوَاة الحَدِيث مِن الصَّحَابَة فَهُم كالتَّالِي حَسَب الحرُوف الأَبجَدِيَة:

أبو هريرة الدّوسي (ت ٥٧ / ٥٨ / ٥٩ ه) وهُو أبْن ثمان وسبعين عاماً، أبو ليلى الأَنْصَاري يُقَال: إنّه قُتل بصِفِّين سَنَة (٣٧ ه)، أبو زينب بن عوف الأَنْصَاري، أبو فضالة الأَنْصَاري من أَهْل بَدْر قُتل بصِفِّين مَع الإِمَام عليّ ﷺ، أبو قُدَامَة الأَنْصَاري أحد المستنشدين يَوْم الرّحبة، أبو عمرة بن عَمْرُو بن محصن الأَنْصَاري، أبو الهَيْثَم بن التيهان قُتل بصِفِّين سَنَة (٣٧ ه)، أبو رافع القبطي مَوْلَىٰ رَسُول الله ﷺ، أبو ذويب خُوَيْلد (أو خالد) بن خالد بن محرث الهزلي الشّاعر الجَاهِلِي ٱلإِسْلاَمي المتوفىٰ فِي خلافة عُثْمَان، أبو بَكْر بن أبي قحافة التّيمي المتوفىٰ (١٣ ه)، أُسامة بن زَيد بن حارثة الكلبي (ت ٥٤ ه) وهُو أبْن ٧٥ عاماً، أُبيّ بن كعب الأَنْصَاري الخَزْرَجِي سيّد القرّاء المتوفى سَنَة (٣٠ / ٣٢ ه)، أسعد بن زرارة الأَنْصَاري.

أسماء بنت عُميس الخثعمية، أُمّ سلمة زوج الرَّسُول ﷺ، أُمّ هاني بنت أبي طالب، أبو حَمْزَة أنس بن مالك الأَنْصَاري الخَزْرَجِي خادم النّبيّ ﷺ (ت ٩٣ ه)، البراء بن عازب الأَنْصَاري الأوسي نزيل الْكُوفَة (ت ٧٢ ه)، بريدة بن الحصيب أبو سهل الأسلمي (ت ٦٣ ه)، أبو سعيد ثابت بن وديعة الأَنْصَاري المدني، جابر بن سَمُرَة بن جنادة أبو سليمان السّوائي نزيل الْكُوفَة (ت بعد ٧٠ وقيل ٧٤ ه)، جابر بن عبدالله الأَنْصَاري (ت بالْمَدِينَة ٧٣ / ٧٤ / ٧٨ ه) وهُو أبْن ٩٤ عاماً، جبلة بن عَمْرُو الأَنْصَاري، جبير بن مطعم بن عَدِيّ القُرَشيّ النّوفلي (ت ٥٧ / ٥٨ / ٥٩ ه)، جرير بن عبدالله بن جابر البَجَلِيّ (ت ٥١ / ٥٤ه)، أبو ذرّ جُنْدُب بن جنادة الغفاري (ت ٣١ ه)، أبو جنيدة جُنْدُب بن عَمْرُو بن مازن الأَنْصَاري.

حَبّة بن جوين أبو قُدَامَة العرني البَجَلِيّ (ت ٧٦ / ٧٩ ه)، حبشي بن جنادة السّلولي نزيل الْكُوفَة، حبيب بن بديل بن ورقاء الخزاعي، حُذَيْفَة بن اسيد أبو سريحة الغفاري من أَصْحَاب الشَّجَرَة (ت ٤٠ / ٤٢ه)، حُذَيْفَة بن اليمان اليماني (ت ٣٦ ه)، حَسَّان بن ثابت أحد شعراء الْغَدِير، الإِمَام الْحَسَن بن عليّ ﷺ، الإِمَام الحُسَيْن بن عليّ ﷺ أبو أيوب خالد بن زَيد الأَنْصَاري أسْتُشْهِدَ غازياً ٱلرُّوم سَنَة (٥٠ / ٥١ / ٥٢ ه)، أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيره المَخْزُومِيّ (ت ٢١ / ٢٢ ه)، خُزَيْمَة بن ثابت الأَنْصَاري ذو الشّهادتين المَقْتُول بصِفِّين مَع عليّ ﷺ سَنَة ٣٧ ه، أبو شُرَيْح خُوَيْلد بن عَمْرُو الخزاعي نزيل الْمَدِينَة (ت ٦٨ ه)، رفاعة بن عبد الْمُنْذِر الأَنْصَاري، زبير بن العوّام القُرَشيّ الْمَقْتُول سَنَة (٣٦ ه)، زَيد بن ⇐

↩ أرقم الأَنْصَاري الخَزْرَجي(ت ٦٦ / ٦٨ هـ).

أبو سعيد زَيد بن ثابت (ت ٤٥ / ٤٨ وقيل بعد ٥٠ هـ)، وزَيد (يَزيد) بن شراحيل الأَنْصَاري، زَيد بن عبدالله الأَنْصَاري، أبو إِسْحَاقَ سعد بن ابي وَقَّاص (ت ٥٤ / ٥٥ / ٥٦ / ٥٨ هـ)، سعد بن جنادة العوفي والدَ عَطِيَّة العوفي، سعد بن عبادة الأَنْصَاري الخَزْرَجي (ت ١٤ / ١٥ أحد النقباء الاثني عشر)، أبو سعيد سعد بن مالك الأَنْصَاري الخدري (ت ٦٣ / ٧٥ / ٧٤ هـ)، سعيد بن زَيد القُرَشيّ العدوي (ت ٥٠ / ٥١ هـ) سعيد بن سعد بن عبادة الأَنْصَاري، أبو عبدالله سَلْمَان الفَارِسْي (ت ٣٦ / ٣٧ هـ).

أبو مُسْلِم سلمة بن عَمْرُو بن الأكوع الأسلمي (ت ٧٤ هـ)، أبو سليمان سَمُرَة بن جُنْدُب الفزاري(ت بالْبَصْرَةِ ٥٨ / ٥٩ / ٦٠ هـ)، سهل بن حُنَيْف الأَنْصَاري الأوسي (ت ٣٨ هـ)، أبو الْعبَّاس سهل بن سعد الأَنْصَاري الخَزْرَجي السَاعدي (ت ٩١ هـ) عَن ١٠٠ سَنَة. أبو أُمَامَة الصَدي بن عجلان البَاهِلِيّ نزيل الشَام (ت ٨٦ هـ)، ضميرة الأسدي، طَلْحَة بن عُبَيْدالله التَميمي المَقْتُول يَوْم الجَمَل سَنَة (٣٦ هـ) وهُو أبْن ٦٣ سَنَة، عامر بن عمير النَمري، عامر بن ليلى بن حَمْزَة، عامر بن ليلى الغفاري، أبو الطَفيل عامر بن واثلة اللَيثي (ت ١٠٠/١٠٢/١٠٨/١١٠هـ).

عَائِشَةَ بنت أَبي بَكْر بن أبي قحافة زوج الرَسُول ﷺ، عبَّاس بن عبدالمطَّلب بن هاشم عمّ النَبيّ ﷺ (ت ٣٢ هـ)، عبدٱلرَّحْمَان بن عبد ربّ الأَنْصَاري، أبو مُحَمَّد عبدٱلرَّحْمَان بن عوف القُرَشيّ الزهري (ت ٣١ / ٣٢ هـ)، عبدٱلرَّحْمَان بن يعمر الدَيلمي نزيل الْكُوفَة، عبدالله بن أَبي عبدالأسدي المَخْزُومِيّ، عبدالله بن بديل بن ورقاء سيد خزاعة المَقْتُول بِصِفِّين مَع عليّ ﷺ.

عبدالله بن بشر (بُسْر) المازني، عبدالله بن ثابت الأَنْصَاري، عبدالله بن جعفر بن أَبي طالب الهاشمي (ت ٨٠) عبدالله بن حنطب القُرَشيّ المَخْزُومِيّ، عبدالله بن رَبيعَة، عبدالله بن عبَّاس (ت ٦٨ هـ)، عبدالله بن أَبي أوفى علقمة الأسلمي (ت ٨٦ / ٨٧ هـ)، أبو عبدٱلرَّحْمَان عبدالله بن عُمَر بن الخَطَّاب العدوي (ت ٧٢ / ٧٣هـ)، أبو عبدٱلرَّحْمَان عبدالله بن مسعود (ت ٣٢ / ٣٣ هـ)، عبدالله بن ياميل (يامين) عُثْمَان بن عفَّان (ت ٣٥ هـ)، عُبَيْد بن عازب الأَنْصَاري أخو البرّاء بن عازب، أبو طريف عَدِيّ بن حاتم (ت ٦٨ هـ) وهُو أبْن ١٠٠ سَنَة، عَطِيَّة بن بُسْر المازني، عُقْبَة بن عامر الجهني ولّي أمر مِصْر لمُعَاوِيَة ثلاث سنين مات في قرب السّتِّين.

أمِير ٱلمُؤْمِنِين عليّ بن أَبي طالب ﷺ أسْتُشْهِدَ سَنَة (٤٠ هـ)، أبو اليقظان عمَّار بن ياسر العنسي الشهيد ↩

⇐ بصِفّين (٣٧ ﻫ)، عُمَر بن أبي سلمة بن عبد الأسد المَخْزُومِيّ ربيب النَّبِيّ ﷺ أُمّه أُمّ سلمة زوج النَّبِيّ ﷺ (ت ٨٣ ﻫ)، عُمَر بن الخَطَّاب المَقْتُول سَنَة (٢٣ ﻫ)، عَمَّارة الخَزْرَجِي الأَنْصَاري المَقْتُول يَوْم اليمامة، أبو نجيد عِمْرَان بن حصين الخزاعي (ت ٥٢ ﻫ) بالبَصْرَة، عَمْرُو بن الحَمْق الخزاعي المسْتَشْهِد (٥٠ ﻫ)، عَمْرُو بن شراحبيل، عَمْرُو بن العَاص، عَمْرُو بن مرة الجهني أبو طَلْحَة أو أبو مَرْيَم، الصِّدِّيقة فاطِمَة بنت النَّبِيّ ﷺ، فَاطِمَة بنت حَمْزَة بن عبدالمطّلب، قَيس بن ثابت شماس الأَنْصَاري، قَيس بن سعد بن عبادة الأَنْصَاري الخَزْرَجِي، أبو مُحَمَّد كعب بن عجرة الأَنْصَاري المدني (ت ٥١ ﻫ)، أبو سليمان مالك بن الحويرث اللَّيثي (ت ٧٤ ﻫ)، المقدام بن عَمْرُو الكندي الزّهري (ت ٣٣ ﻫ) وهُو آبن ٧٠ سَنَة.

ناجية بن عَمْرُو الخزاعي، أبو برزة فضلة بن عُتْبَة الأسلمي (ت بخراسان سَنَة ٦٥ ﻫ)، نعمان بن عجلان الأَنْصَاري، هاشم المرقَال بن عُتْبَة بن أبي وَقّاص المدني المَقْتُول بصِفّين مَع أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام (٣٧ﻫ)، أبو وسمة وحشي بن حَرْب الحبشي الحمصي، وهب بن حَمْزَة، أبو جحيفة وهب بن عبدالله السّوائي، وهب الخَيْر (ت ٧٤ ﻫ)، أبو مرازم يعلى بن مرة بن وهب الثّقَفِيّ. أُنظر، رواياتهم وحياتهم فِي كتاب الغَدِير: ١ / ١٤ ـ ٦٠ طَبْعَة دار الكتب الإِسْلاَمِيّة.

وذكر آبْن طاووس فِي كتاب الطّرائف عَن آبْن عقدة فِي كتاب الوِلاَية زِيادَة عَلَىٰ ذَٰلِكَ عُثْمَان بن حُنَيف الأَنْصَاري، رفاعة بن رافع الأَنْصَاري، أبو الحمراء خادم النَّبِيّ ﷺ، جُنْدُب بن سُفْيَانَ العَقْلِي البَجَلِيّ، أُمَامَة بن زَيد بن حارثة الكلبي، عبدالرَّحْمَان بن مدلج. وَإِذَا أردت المزيد فانظر المناقب لِآبْن شهرآشوب: ٣ / ٢٥ و ٢٦ طَبْعَة قم.

أَمَّا روَاة حَدِيث الغَدِير فَهُم:

أبو راشد الحبراني الشّامي، أبو سلمة عبدالله (إِسْمَاعِيل) بن عبدالرَّحْمَان بن عوف الزّهري المدني (ت ٩٤ ﻫ)، أبو سليمان المؤذن، أبو صالح السّمّان ذكوان (ت ١٠١ ﻫ)، أبو عنفوانه المازني، أبو عبدالرّحيم الكندي، الأصبغ بن نُباتة التّميمي الكوفِي، أبو ليلى الكندي، أياس بن نذير، جميل بن عمارة، حارثة بن نصر، حبيب بن أبي ثابت الأسدي الكوفِي، الحارث بن مالك، الحُسَيْن بن مالك الحويرث، الحكم بن عتيبة الكوفِي الكندي (ت ١١٤ ـ ١١٥ ﻫ)، حميد بن عمارة الخَزْرَجِي الأَنْصَاري، حميد الطّويل أبو عُبَيْدَة بن أبي حميد البَصري (ت ١٤٣ ﻫ)، خيثمة بن عبدالرَّحْمَان الجعفي مات بعد سَنَة (٨٠ ﻫ)، رَبِيعَة الجرشي المَقْتُول سَنَة (٦٠ ـ ٦١ ـ ٧٤ ﻫ)، أبو المُثَنَّىٰ رياح بن الحارث النَّخَعِيّ الكوفِي، أبو عَمْرُو أذان الكندي البزاز، البزار ⇐

⇐ (ت ٨٢ هـ)، أبو مَرْيَمَ زربن حبيش الأسدي (ت ٨١ ـ ٨٢ ـ ٨٣ هـ)، زياد بن أبي زياد.

زَيد بن يثيع الهَمَذانيّ الكوفي، سالم بن عبدالله بن عُمَرَ بن الخَطّاب القُرَشيّ العدوي المدني (ت ١٠٦ هـ)، سعيد بن جبير الأسدي الكوفي قتل بَيْنَ يدي الحَجّاج سَنَة (٩٥ هـ)، سعيد بن أبي حدان ويُقال ذي حُدّان، سعيد بن المسيّب القُرَشيّ المَخْزُوميّ صهر أبي هريرة (ت ٩٤ هـ)، سعيد بن وهب الهَمَذانيّ الكوفي (ت ٧٦ هـ)، أبو يحيىٰ سلمة بن كهيل الحضرمي الكوفي (ت ١٢١ هـ)، أبو صادق سليم بن قَيْس الهلالي (ت ٩٠ هـ)، أبو مُحَمَّد سليمان بن مِهْران الأعمش (ت ١٤٧ ـ ١٤٨ هـ)، سهم بن الحصين الأسدي، شهر بن حَوْشَب، الضَّحّاك بن مزاحم الهلالي (ت ١٠٥ هـ)، طاووس بن كيسان اليماني الجُنْدي (ت ١٠٦ هـ)، طَلْحَة بن المنصرف الأَيّامي (اليامي) الكوفي (ت ١١٢ هـ)، عامر بن سعد بن أبي وَقّاص المدني (ت ١٠٤ هـ).

عَائِشَةَ بنت سعد بن أبي وَقّاص (ت ١١٧ هـ)، عبدالحميد بن المُنْذِر بن الجَارُود العبدي، أبو عمارة عبد خير بن يَزيد الهَمَذانيّ الكوفي، عبدالرَّحْمَان بن أبي ليلىٰ (ت ٨٢ ـ ٨٣ ـ ٨٦ هـ)، عبدالرَّحْمَان سابط ويُقال: ٱبْن عبدالله بن سابط الجُمَحِيّ المكي (ت ١١٨ هـ)، عبدالله بن أسعد بن زرارة، أبو مَرْيَمَ عبدالله بن زياد الأسدي الكوفي، عبدالله بن شريك العامري الكوفي أبو مُحَمَّد عبدالله بن مُحَمَّد بن عَقيل الهاشمي المدني (ت ١٤٠ هـ)، عبدالله بن يعلى بن مرة، عَدِيّ بن ثابت الأَنْصَاري الكوفي الخطمي (ت ١١٦ هـ)، أبو الحَسَن عَطِيَّة بن سعد بن جنادة العوفي الكوفي (ت ١١١ هـ)، عليّ بن زَيد بن جدعان البصري (ت ١٢٩ ـ ١٣١ هـ)، أبو هارون عَمّار بن جوين العبدي (ت ١٣٤ هـ)، عُمَرَ بن عبدالعزيز الأموي (ت ١٠١ هـ)، عُمَرَ بن عبدالغفار.

عُمَرَ بن عليّ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام، عَمْرُو بن جَعْدَة بن هُبَيْرَة، عَمْرُو بن مرة، أبو عبدالله الكوفي الهَمَذانيّ (ت ١١٦ هـ)، عَمْرُو بن عبدالله أبو إِسْحَاق السَّبيعي الهَمَذانيّ (ت ١٢٧ هـ)، عَمْرُو بن ميمون الأودي (ت ٧٤ هـ)، عميرة بنت سعد بن مالك أُخت سهل أُمّ رفاعة بن مبشر، عميرة بن سعد الهَمَذانيّ، عيسى بن طَلْحَة بن عُبَيْدالله التَّيمي، أبو مُحَمَّد المدني مات في خلافة عُمَرَ بن عبدالعزيز، أبو بَكْر قطر بن خليفة المَخْزُوميّ مَوْلاَهُم الحنّاط (ت ١٥٠ ـ ١٥٣ هـ)، قبيصة بن ذؤيب (ت ٨٦ هـ)، أبو مَرْيَمَ قَيْس الثَّقَفيّ المدايني، مُحَمَّد بن عُمَرَ بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام (ت ١٠٠ هـ)، أبو الضّحىٰ مُسْلِم بن صبيح الهَمَذانيّ الكوفي العطار، مُسْلِم الملائي، أبو زرارة مُصْعَب بن سعد بن أبي وَقّاص الزّهري المدني (ت ١٠٣ هـ).

⇐

⇐ مطلّب بن عبدالله القُرَشيّ المَخْزُومِيّ المدني، مطر الورّاق، معروف بن خربوذ، منصور بن رِبْعِيّ، مهاجر بن مسمار الزّهري المدني، مُوسَىٰ بن أكتل بن عمير النّميري، أبو عبدالله ميمون البصري مَوْلَىٰ عبدالرَّحْمَان بن سَمُرَة، نذير الضّبي الكوفي، هاني بن هاني الهَمَذانيّ الكوفي، أبو بلج يحييٰ بن سليم الفزاري الواسطي، يحييٰ بن جَعْدَة بن هُبَيْرَة المَخْزُومِيّ، يَزيد بن أبي زياد الكوفي (ت ١٣٦ هـ) وله ٩٠ سَنَة، يَزيد بن حيّان التّميمي الكوفي، أبو داود يَزيد بن عبدالرَّحْمَان بن الأُودي الكوفي، أبو نجيح يسار الثَّقَفِيّ (ت ١٠٩هـ). أنظر، حياتهم ورواياتهم فِي الْغَدِير: ١ / ٦٢ ـ ٧٢ طَبْعَة بيروت.

أَمَّا أَهَم المُؤلِفِين فِي حَدِيث الْغَدِير فَهُم:

أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير بن يَزيد بن خالد الطَّبَرِيّ (ت ٣١٠ هـ)، أبوالْعَبَّاس أحمد بن مُحَمَّد بن سعيد الهَمَذانيّ ٱلْمَعْرُوف بأبْن عقدة (ت ٣٣٣ هـ)، أبو بَكْر مُحَمَّد بن عُمَرَ بن مُحَمَّد بن سالم التّميمي البغدادي ٱلْمَعْرُوف بالجعابي (ت ٣٥٥ هـ)، أبو طالب عُبَيْدالله بن أحمد بن زَيد الأَنْبَاري الواسطي (ت ٣٥٦ هـ)، أبو غالب أحمد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الزّراري (ت ٣٦٨ هـ)، أبو الْفَضْل مُحَمَّد بن عبدالله بن عبدالمطّلب الشّيباني (ت ٣٧٢ هـ)، الحافظ عليّ بن عُمَرَ الدّار قطني البغدادي (ت ٣٨٥ هـ)، الشّيخ محسن بن الحُسَيْن بن أحمد النّيسابوري الخزاعي، عليّ بن عبدالرَّحْمَان بن عِيسَىٰ بن عُرْوَة الجَرّاح القناني (ت ٤١٣ هـ)، أبو عبدالله الحُسَيْن بن عُبَيْدالله بن إبْرَاهِيم الغضائري (ت ٤١١ هـ)، الحافظ أبو سعيد مسعود بن ناصر بن أبي زَيد السّجستاني (ت ٤٧٧ هـ)، أبو ٱلْفَتْح مُحَمَّد بن عليّ بن عُثْمَان الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ)، عليّ بن بلال بن مُعَاوِيَة بن أحمد الْمُهَلَّبِي، الشّيخ منصور اللائي الرّازي، الشّيخ عليّ بن الْحَسَن الطّاطري الكوفي، أبو القاسم عُبَيْدالله الحسكاني، شمس الدّين مُحَمَّد بن أحمد الذّهبي (ت ٧٤٨ هـ)، شمس الدّين مُحَمَّد بن مُحَمَّد الجزري الدِّمَشْقِي المقري الشّافعي (ت ٨٣٣ هـ)، المَوْلَىٰ عبدالله بن شاه منصور القزويني الطّوسي، السّيّد سبط الْحَسَن الجايسيّ الهندي اللّكهنوي، السّيّد مير حامد حُسين السّيّد مُحَمَّد قلي الموسوي الهندي اللّكهنوي (ت ١٣٠٦ هـ)، السّيّد مهدي بن السّيّد عليّ الغريفي البحراني النّجفي (ت ١٣٤٣ هـ)، الشّيخ عَبَّاس بن مُحَمَّد رضا القمي (ت ١٣٥٩ هـ)، السّيّد مرتضىٰ حُسين الخطيب الفتحبوري الهندي، الشّيخ مُحَمَّد رضا أبْن الشّيخ طاهر آل فرج الله النّجفي، الحاج السّيّد مرتضى الخسروشاهي التّبريزي. وأُنظر، الْغَدِير: ١ / ١٥٢.

أَمَّا المُنَاشدة والإِحْتِجَاج بِحَدِيث الْغَدِير فَهِي كَالتَّالِي:

مُنَاشدة الإِمَام عليّ بن أبي طالب عليه السلام يَوْم ٱلشُّورَىٰ سَنَة (٢٣ هـ)، ومناشدته عليه السلام أَيّام عُثْمَان بن عَفَّان، ⇐

⇐ ويَوْم الرّحبة سَنَة (٣٥ هـ) فِي ٱلْكُوفَة، ويَوْم الْجَمَل سَنَة (٣٦ هـ) عَلَىٰ طَلْحَة، وحديث الرّكبان فِي ٱلْكُوفَة سَنَة (٣٦ ـ ٣٧ هـ)، ويَوْم صِفِّين سَنَة (٣٧ هـ) واحتجاج الصّدّيقة فاطِمَة الزّهراء عليها السلام بنت رَسُول الله صلى الله عليه وآله، واحتجاج الإِمَام الْحَسَن عليه السلام سَنَة (٤١ هـ)، ومناشدة الإِمَام الحُسَيْن عليه السلام سَنَة (٥٨ ـ ٥٩ هـ)، إحتجاج عبدالله بن جعفر عَلَىٰ مُعَاوِيَة بعد أستِشْهَاد الإِمَام عليّ عليه السلام، احتجاج برد عَلَىٰ عَمْرُو بن العَاص، احتجاج عَمْرُو بن العَاص عَلَىٰ مُعَاوِيَة، احتجاج عمّار بن ياسر يَوْم صِفِّين عَلَىٰ عَمْرُو بن العَاص سَنَة (٣٧ هـ). احتجاج الأصبغ بن نُباتة عَلَىٰ مُعَاوِيَة سَنَة (٣٧ هـ)، مناشدة شابّ أبا هريرة بمسجد الْكُوفَة. مناشدة رجل زَيد بن أرقم، مناشدة رجل عراقي جابر الأَنْصاري، احتجاج قَيْس بن سعد عَلَىٰ مُعَاوِيَة سَنَة (٥٠ ـ ٥٦هـ)، واحتجاج دارمية الحجونية عَلَىٰ مُعَاوِيَة (٥٠ ـ ٥٦ هـ)، احتجاج عَمْرُو الأودي عَلَىٰ مناوئي أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام، احتجاج عُمَر بن عبدالعزيز ٱلْخَلِيفَة الأُموي، احتجاج المأمون عَلَىٰ الْفُقَهَاء. (أنظر، الْغَدِير للأميني: ١/ ١٥٩ ـ ٢١٢، تذكرة الخواصّ لسبط أبْن الجوزي: ٣٥، المناقب للخوارزمي: ٢٢٢، أسنى المطالب للجزري: ٥٠، يَنَابيع المَوَدَّة: ٤٨٢، البداية والنِّهَايَة لِابن كثير: ٥/ ٢١١، مُسْنَد أحمد: ٤/ ٣٧٠، و: ١/ ١١٨ و ٩٦١، و: ٥/ ٣٧، مَجْمَع الزّوائد: ٩/ ١٠٥).

وَقْفَة وَتأمل فِي الإِيرَادَات الوَاهِية مِن قِبل البَعْض عَلَىٰ الحَدِيث:

لَمْ نَجد غَمزاً ولاَ وَقيعةً فِي صحّة وأسانيد ورواة حديث الْغَدِير من قِبل أَهْل السّنّة والشّيعة ماعدا ما يُنقل عَن أبْن حزم الأندلسي، وأبْن تيمية فِي مِنْهَاج السّنّة: ٤/ ١٣ وأبْن الأَثِير فِي النِّهَايَة: ٥/ ٢٢٧، وصاحب السِّيرَة الْحَلَبِية: ٣/ ٢٧٥، وأبْن خلدون، وأحمد أمين، وغَيْرهم.

ولَسْنَا بصدد بَيَان حَيَاة هَؤُلَاء ٱلرِّجَال بل نعطي نموذجاً واحداً من حَيَاة واحِدٍ مِنْهُم وهُو أحمد بن عبد الحليم بن عبدالسَّلاَم بن عبدالله بن الخضر تقيّ الدّين، أبوالْعَبَّاس آبْن تيمية الحرّاني الدِّمَشْقِي الحنبلي (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ) فقد قَالَ الشّوكاني فِي البَدْر الطّالع: ٢/ ٢٦٠: صرّح مُحَمَّد البُخَاريّ الحنفي بتبديعه ـ صاحب بِدْعَة ـ ثمّ تكفيره ثمّ صار يصرّح فِي مجلسه: أنّ من أطلق القَوْل عَلَىٰ أبْن تيمية بأنه شيخ ٱلإِسْلاَم فَهُوَ بِهَذَا الإِطلاَق كافر. وأنظر، هَامِش الْغَدِير: ١/ ٢٤٧، وأبْن تيمية حياته عقائده موقفه من الشّيعة وأَهْل ٱلْبَيْت لصائب عبدالحميد، منشورات مركز الْغَدِير للدراسات الإِسْلاَمِيّة ـ قم. ولِسَان المِيزَان: ٤/ ٢٠٠، وتفسِير الآلوسي: ٢١/ ٧٦، أبْن خلّكان فِي تَأرِيخه: ١/ ٣٧٠ وغَيْر هَذِه المصادر لدراسة حَيَاة هَؤُلَاء ٱلرِّجَال، هَذَا أوّلاً.

⇔

⇔ وَثَانِياً، لَسْنَا بصدد بَيَان كلّ ما أورده هَؤُلاَء من التمحّلات والتّخرّصات وٱلأَوْهَام بل نذكر نموذجاً أو نموذجين مِنْهَا وبشكلٍ يسير جداً بل إشارة فقط وَعَلَىٰ اللّبيب مراجعة ذَلِكَ فِي مظان ٱلْبَحْث. فقد قَالَ بَعْض هَؤُلاَء إِنَّ حادثة ٱلْغَدِير وقعت فِي ٱلْمَدِينَة وبالتالي أن الرّواية وردت هكذا أنه ﷺ قَالَ: «مَن كنت مَوْلاَه فعليٌّ مَوْلاَه» أَمَّا الزّيَادَة «أَللّٰهُمَّ والِ من والاه وعادِ من عاداه» لا ريب أنه كَذِب!

والجَوَاب: أَنّ الواقع يرفض ذَلِكَ بأَدِلّة كَثِيرَة ولكن نختصر الكَلاَم كما ذكرنا سابقاً لأَنّ القَائِل بِذَلِكَ هُو ٱبْن تيمية. فقد روىٰ البُخَاريّ فِي صحيحة: ١٨١/١ و ١٧٥ ومُسْلِم فِي صحيحه: ٣٨٢/١ عَن عبدالله بن عُمَر: أَنّ رَسُولالله ﷺ أناخ بالبطحاء بذي الحليفة فصلّى بها، وأتى معرّسة بذي الحليفة فقيل له: إنك ببطحاء مباركة، وكَانَ ﷺ يَنْزِل بذي الحليفة حِينَ يعتمر. فيفهم من هَذَا أَنّ حادثة ٱلْغَدِير قد وقعت فِي غدير خُمّ ٱلْمَعْرُوف. (فانظر مصابيح البغوي: ٨٣/١، وفاء الوفا للسمهودي: ٢١٢/١، معجم البلدان: ٢١٣/٢، لِسَان ٱلْعَرَب: ٢٣٦/٣، تاج العروس للزبيدي: ١٢٤/٢ فِي مَادّة (بطح). الغَدِير للعلاّمة الأَمِيني: ٢٤٧/١). هَذَا أوّلاً.

وثانياً: أَنّ الزّيَادَة الَّتِي أنكرُوها هِي موجودة فِي مُسْنَد أحمد: ١١٩/١ بطريقين، و: ٢٨١/٤، ٣٧٠، ٣٧٢، سُنَن ٱبْن ماجه: ٤٣/١ ح ١١٦، المُسْتَدرَك: ١٠٩/٣، خصائص النّسائي: ٢١ ـ ٢٧، البداية والنّهَايَة: ١٨٣/٥. وراجع المصادر السّابقة الَّتِي ذكرناها فِي تخريج الحَدِيث «أَللّٰهُمَّ والِ من والاه وعادِ من عاداه».

وَقَالَ البعض الآخر: أَنّ سُورَة ٱلْمَعَارِج مكية، ونزولها قبل واقعه ٱلْغَدِير بأَكْثَر من عشر سنين.

والجَوَاب: صَحِيح أَنّ الإِجْمَاع عقد عَلَىٰ أَنّ مجموع السُّورَة مكية ولكن هَذَا لا ينافِي أَنّ آية مِنْهَا أو آيتين قد نزلت فِي ٱلْمَدِينَة كما فِي كثير من السّوَر من أمثال سُورَة ٱلْعَنْكَبُوتِ فَإِنَّهَا مكية إلّا العشر الأَوّل مِنْهَا فَهِيَ مدنية كما ذكر ذَلِكَ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره: ٨٦/٢٠ والقُرطُبي فِي تَفْسِيره: ٣٢٣/١٣. (راجع ٱلْغَدِير: ٢٥٦/١). كما أَنّ غَيْر أحد من السّوَر المدنية فِيْهَا آيات مكية كما فِي سُورَة ٱلْمُجَادِلَة فَإِنَّهَا مَدنية إلّا العَشر الأَوّل كماجاء فِي تَفْسِير أَبِي السّعود فِي هَامِش ج ٨ من تَفْسِير الرّازي: ١٤٨، والسِّرَاج المنير: ٢١٠/٤. (أنظر، ٱلْغَدِير: ٢٥٧/١).

وهناك وجوه واعتراضات أُخرىٰ ذكرها صاحب ٱلْغَدِير وأجاب عَنْهَا رحمه الله تَعَالَىٰ بأَنّ الآيَة نزلت يَوْم بَدْر قبل يَوْم ٱلْغَدِير بسنين؛ أو أَنَّهَا نزلت بسبب ما قاله المشركون بمَكَّة ولم يَنْزِل عَلَيْهِمْ العذاب، أو ⇔

⇐ كآية أَصْحَاب الفيل، أو أنّ الحارث كَانَ مسلماً، أو أنّه غَيْر معروف، أعرضنا عَنْها للاختصار، فراجع الْغَدِير: ١ / ٢٥٨ ـ ٢٦٦ بالإضافة إِلىٰ اْبن كثير فِي البداية والنِّهَايَة: ١ / ٢٧٦ طَبْعَة دار الإحياء بيروت، وتَفْسِير الثّعلبي، وتذكرة الخواصّ: ٣٠ طَبْعَة طهران، وتَفْسِير أبي السّعود العمادي: ٩ / ٢٩ طَبْعَة دار الإحياء، وتَفْسِير السِّرَاج المنير: ٣٦٤/٤، ومَجْمَع الْبَيَان للطبرسي: ٤٤٦/٥، والْمُسْتَدرَك: ٢ / ٥٠٢، والقُرطُبي فِي تَفْسِيره لسُورَةِ اْلمَعَارِجِ ، وتَأريخ اْبن خلّكان: ٦٠/٤ رقم ٣٥٤ طَبْعَة دار الثّقافةبيروت، وتَفْسِير غريب اْلقُرْآن للهروي.

وَقَالَ البعض الآخر: أنّ أُسامة بن زَيد قَالَ لعلي عليه السلام: لست مولاي إنّما مولاي ـ أي معتقي ـ رَسُول الله صلى الله عليه وآله، فقَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وآله: مَن كُنت مَوْلاَه ـ أي معتقه ـ فعليٌّ مَوْلاَه ـ أي معتقه. فالْحَدِيث ورد فِي عتق أُسامة بن زَيد لا أنّ عَلِيّاً مَوْلىٰ للمؤمنين، أورد هَذَا الاشكال اْبن الأَثِير فِي النِّهَايَة: ٥ / ٢٢٧.

والجَوَاب: يعرفه أدنىٰ من درس العلوم الإِسْلاَمِيّة وهُو إذَا كَانَ أُسامة قد أُعتق من قِبل النَّبِيّ صلى الله عليه وآله فلا مَعْنىٰ لعتقه مرة ثَانِيَة من قِبل الإِمَام عليّ عليه السلام. وكَيْفَ يَكُون ذَلِكَ والإِمَام عليّ عليه السلام باعتراف اْلصَّحَابَة هُو أقضاهم كما ذكرنا سابقاً المصادر الَّتِي أشارت إِلىٰ قول عُمَر بن الخَطَّاب (أقضانا عليّ) فراجع.

أمّا صاحب السِّيرَة الحَلَبِية فقد أشكل فِي: ٣ / ٢٧٥ بإشكال واهٍ جداً ولم يورد دليلاً واحداً عَلىٰ نقض حديث الْغَدِير بل اكتفىٰ بنقل الحادثة الَّتِي وقعت لبريدة وغزوته مَع الإِمَام عليّ عليه السلام لليمن وكَيْفَ لقي بريدة جفوة من الإِمَام عليّ عليه السلام وشكاية بريدة للنبي صلى الله عليه وآله من عليّ عليه السلام واعتراف بريدة بأنه قَالَ: ذكرت عَلِيّاً فتنقّصته، فرَأَيْت وجه رَسُول الله صلى الله عليه وآله، فقَالَ: يا بريدة، ألست أَوْلَىٰ باْلمُؤْمِنِين من أنفسهم؟ قلت: بلىٰ يا رَسُول الله، قَالَ: مَن كُنت مَوْلاَه فعليٌّ مَوْلاَه. وزعم صاحب السِّيرَة أنّ الرَّسُول صلى الله عليه وآله قَالَ ذَلِكَ لبريدة وحده عندما كَانَ فِي مَكَّة ثمّ بعد ذَلِكَ عمّمه عَلىٰ اْلصَّحَابَة فقام خطيباً وبرّأ ساحة الإِمَام عليّ عليه السلام من ذَلِكَ الكَلاَم الَّذي تُكلّمُوه ضِدّه.

والجَوَاب: أنّ شكاية النّاس وبريدة كَانَتْ بمَكَّة أَيَّام اْلحَجّ، والرَّسُول صلى الله عليه وآله بيّن لَهُمْ أنّ الشّكاية فِي غَيْر محلّها لأنّ الَّذي أستخلفه الإِمَام عليّ عليه السلام عَلىٰ جنده بعد ما تعجّل عليه السلام من اليَمن فِي القدوم إِلىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله بمَكَّة حَتَّىٰ يلتحق به للحج، فعمد ذَلِكَ الرَّجُل وكسا كلّ واحد من جنده حلّة من البزّ الَّذي كَانَ معه من أَهْل نَجْرَان، فعندما دنا جَيْشه وخرج الإِمَام عليّ عليه السلام ليلقاهم شاهد عَلَيْهِمْ الحلل فقَالَ له: ويلك ما هَذَا؟ قَالَ: كسوت اْلقَوْم لتجملوا به .... فقَالَ عليه السلام: ويلك أنزع قبل أنْ ينتهي به إِلىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله فانتزع الحلل ⇐

⇔ من النّاس وردّها في البرّ. فشكا النّاس عَلِيّاً عليه السلام ولذا قَالَ ﷺ: لا تَشكُوا عَلِيّاً، فوالله إنه لأخشن فِي ذات الله من أن يُشكىٰ.

وروىٰ هَـٰذِهِ القِصّة البُخَاريّ فِي صحيحه: ٢/ ٢٩٧ باختلافٍ يسير فِي الألفاظ، وَقَالَ فِيهَا رَسُول الله ﷺ: ما تريدون من عليّ؟ ما تريدون من عليّ؟ ما تريدون من عليّ؟ إنَّ عَلِيّاً منّي وأنا مِنْهُ، وهُو وليّ كلّ مُؤمِن بعدي. ورواه أحمد فِي مُسْنَده: ٤/ ٤٣٧، ٥/ ٣٥٦، والطّيَالِسِي فِي مُسْنَده: ٣/ ١١١.و: ١١/ ٣٦٠، حلية الأَوْلِيَاء: ٦/ ٢٩٤، الرّياض النضرة: ٢/ ١٧١، ٢٠٣، كنز العُمّال: ٦/ ١٥٤ و١٥٩ و٣٩٦ و٤٠١، المُصَنّف لابْن أبي شيبة: ١٥٥ و٣٩٩، خصائص النّسائي ٢٤، مَجْمَع الزّوائد:٩/ ١٠٩ و١١٩ و١٢٧ و١٢٨، كنوز الحقايق: ١٨٦، تَأريخ بغداد: ٤/ ٣٣٩، أُسد الغَابَة: ٩٤، فيض القَدِير في الشّرح: ٣٥٧.

ولو كَانَ كما يدّعيه ٱبْن كثير لما جمع النّاس فِي الْيَوْم الثّامن عشر من ذي الحجّة بعد انقضاء ٱلْحَجّ ورجوعه إِلىٰ ٱلْمَدِينَة وقام خطيباً عَلَىٰ عموم النّاس، ومجرّد التّحامل لا يستدعي هَذَا الوقوف أيضاً، بل يستدعي بَيَان الْفَضْل والرّدّ عَلَىٰ المتحاملين كما قَالَ ﷺ: هَذَا ٱبْن عمّي وصهري وأبو ولدي وسيّد أَهْل بَيْتِي فلا تؤذوني فِيهِ. ولو كَانَ كما يدّعيه ٱبْن كثير فَلِمَاذَا نزلت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ ولو سلّمنا جدلاً فانّ ٱلْوَاقِعَة الأُولَىٰ لا دخل لها فِي ٱلْوَاقِعَة الثّانِيَة وإنما جاء الخلط نتيجة التّعَصّب الأَعْمَىٰ ونسيان كَلاَمه ﷺ أنّه جاء بعد الأَمْر بالتمسّك بِٱلْكِتَاب والعِتْرَة وبَيَان أنهما لم يفترقا حَتَّىٰ يردا عَلَيْهِ الحوض.

ولَسْنَا بصدد بَيَان وبحث حديث الثَّقَلَيْن، بل نقول لِمَاذَا منع الألوف عَن المسير؟ وارجاع من تقدّم مِنْهُم وإلحاق من تأخّر؟ ولِمَ أنزلهم فِي العراء لا كلأ وَلاَ ماء؟ وَلِمَاذَا قَالَ ﷺ: ليبلّغ الشّاهد مِنْهُم الغائب؟ وَلِمَاذَا ينعىٰ نَفْسه لَهُمْ؟ وَلِمَاذَا يسألهم عَن الشّهادتين؟ وَلِمَاذَا يحذّرهم من ٱلنَّار وٱلْمَوْت والسّاعة والبعث مَن فِي القُبُور؟ وهل من المعقول أنْ يجمعهم عَلَىٰ أمرٍ هُو من أوضح الواضحات بحكم الوجدان والعيان وهُو ﷺ الْمُنَزّه فِي أفعاله وأَقْوَاله بحكم ٱلْحِكْمَة وٱلْعَقْل والعِصْمَة؟ هَذِهِ أسئلة نطرحها عَلَىٰ ٱبْن كثير ومَن سار عَلَىٰ نَهْجِهِ.

إِنَّ لفظَة «منّي» فِي حَدِيث الْمَنْزِلَة «أَنتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُون من مُوسَىٰ إلاّ أَنّه لَيْسَ نبيّ بَعدِي» كما ذَكر ذَلِكَ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه: ٢/ ٢٠٠، وصَحِيح مُسْلِم: ٧/ ١٢٠، والتِّرمِذي: ١٣/ ١٧١، والطّيَالِسِي: ⇔

↔ ٢٠٥/٢٨/١ و٢٠٩ و٢١٣، وابن ماجه: ح ١١٥، وأحمد في مُسْنَده: ١٧٠/١ و١٧٣ و١٧٥ و١٧٧ و١٧٩ و١٨٢ و١٨٤و ١٨٥ و ٣٣٠، و:٣٢/٣ و٣٣٨، و:٣٦٩/٦ و٤٣٨، ومُسْتَدرَك الحَاكِم:٣٣٧/٢، وطَبقَات ابن سَعد: ١/٣ و ١٤ و ١٥، ومَجْمَع الزّوائد: ١٠٩/٩ وفي لفظٍ آخر لمُسلم «إلّا أنّه لا نَبي بَعدِي» فلفظة «منّي» توضّح المُرَاد من المَعْنَىٰ، وذَلِكَ أنّ هَارُون لمّا كَانَ شَرِيكاً لمُوسَىٰ في النُّبُوّة، ووزِيرَه فِي التّبليغ، وكَان عَليّ عليه السلام من خَاتَم ٱلْأَنْبِيَاء صلى الله عليه وآله وسلم كَذَلِكَ بِاْستثناء النُّبُوّة، فَتَبقىٰ لِعَلي عليه السلام الوزَارة فِي التّبليغ، وكَذَلِكَ لأوْلاده: فِي حمل أعبَاء التّبليغ إِلَىٰ المُكلّفين مُبَاشرة، ولذَا فَهُم: مِنهُ صلى الله عليه وآله وسلم وهُو مِنهُم، يَشتركُون فِي التّبليغ ويَختلفُون فِي أنّه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ الأحْكَام الّتِي يُبلّغها من الله عَن طَرِيق الوَحي، وهُم يَأخذونَها عَن طَريق رَسُول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهُم مُبلّغون عَن رَسُول الله إِلَىٰ الأُمّة. وقد أعدّهم الله ورَسُوله لحمل أعبَاء التّبليغ، وذَلِكَ بِمَا عَصمهم من الرّجس وطهّرهم تَطهِيراً كمَا ورد فِي الآيَة ٱلْكَرِيمَة.

وهَذَا فإنّ الرّسُول الأكرَم صلى الله عليه وآله وسلم كَان مُدركاً أنّ قَوْمه حَديثو عَهد بِالجَاهِلِيّة، وأنّهم طَالما عَارضُوا أَحْكَامه وقَرَارَاته عِدّة مَرّات كمَا حَدث فِي صُلح الحُدَيْبِيَة وأُحد وحُنين وأثنَاء مَرضه صلى الله عليه وآله وسلم فِي ٱلْكِتَاب والدّواة وسَرِيّة أُسامة وصَلاة ٱلْجُمُعَة أثنَاء إقبَال العِير المُحمّلة بالبضَاعة. ولذَا نجد أنّ عَمليّة التّبليغ الّتي نَفّذها النّبِيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد جَرت أمَام عشرَات الآلاف من ٱلْمُسْلِمِين، وأنّ اْستثنَاء النُّبُوّة جَاء لئلّا يَتوهم مُتوهم أنّ الله تَعَالَىٰ قَد جَعل لعَليّ الشّركة فِي النُّبُوّة. وإنّنَا نَعلم أنّ الإِمَامَة مَوقُوفة عَلَىٰ تَنصِيص الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ كمَا أنّ النُّبُوّة موقُوفة عَلَىٰ تَنصِيص البَاري عزّ وجلّ.

كمَا أنّ الأَمْر بالتّبلِيغ جَاء فيه تَهدِيد ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ وإعْلَامه صلى الله عليه وآله وسلم وإعْلَام غَيْره مَا لهَذَا الحُكْم من الأهمّية بِحيث إِذَا لَم يَصل الحُكْم، وحَاشا للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنْ لا يُبلّغ مَا أَمْره الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ، أمّا قَوْله تَعَالَىٰ ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لفظ النّاس اْعتبَاراً بسوَاد الأفرَاد الّذي فِيهِ ٱلْمُؤمِن وٱلْمُنَافِق والّذي فِي قَلْبه مَرض. فالْعِصْمَة هُنا بِمَعْنَىٰ الحِفظ والوقَاية من شرّ هَؤُلَاء.

وبالتّالي فالْمَعْنَىٰ يَكُون: مَن كنتُ مُتقلّداً لأمره وقَائِماً بِهِ فعَليٌّ مُتقلّد أمْرَه والقَائم بِه، وهَذَا صَرِيح فِي زعَامة الأُمّة وإمَامتها وولَايتها، وثَبت لعَليّ مَا ثَبت لرَسُول صلى الله عليه وآله وسلم من الوِلَايَة العَامّة والزّعَامة والتّصدّي لشأنٍ من شُؤُون الغَير، وَهِي فِي قبَال العَدَاوة وَهِي التّجاوز والتّعدّي عَلَىٰ الغَير والتّصرّف فِي شُؤُون الغَير مُطلقاً، ويَدلّ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَىٰ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ٱلتَّوْبَة: ٧١، وقَوْله تَعَالَىٰ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ ↔

الْأُمُور، وعَلَيْهَا قوَام ٱلْحيَاة، والدِّين بَيَّن حُكم العُصفُور المَذبُوح بِلا تَسمِية لا يَهمل عَلَيْهِ مدَار ٱلْحيَاة بشَيء جهَاتها... هٰذَا، بالإِضَافة إِلَىٰ أَنَّهَا خِلاَفة عَن الله وَرَسُوله ثُمَّ قَالَ الشِّيعة: إِنَّ النّص موجُود وثَابت بِالفِعْل فِي حَقّ عَليّ بن أَبي طَالب بالذَّات.

وَقَد تَتَبَّع الشِّيعة كُتب السُّنَّة، وآثَارهم، وَجمعُوا مفردَات النّص بِالخِلاَفَةِ عَلَىٰ الإِمَام، جَمَعُوا من كُتب السُّنَّة فِي الحَدِيث، والتَّأرِيخ، والتَّفْسِير، بل والْأَدب أيضاً، بَل تَخصص كَثِيرُون من عُلَمَاء الشِّيعة فِي هَذَا المَوْضُوع بالذَّات، وأَلَّفوا فِيهِ المُجلدَات، مِنْهَا «الشَّافِي» لِلمُرتضىٰ، و «دَلاَئِل الصِّدْق» للعَلاَّمة، والمُظفر، وآخرها ـ فِيمَا أَعْلَم ـ «فَضَائِل الْخَمْسَة مِن الصّحاح السّتة». فِي ثَلاَثة مُجلدَات كِبار للفِيرُوز آبَادي. وَيَمتَاز هَذَا السِّفر عَن غَيْره بِالحيَاد التّام، لأَنّه مُجرد عَرض وَنَقل عَن كُتب السُّنَّة بِلا فَلْسفَات، وَتَعلِيقات، بَل يَدع المُؤلف القَارِىء وشَأْنه،

⇐ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ ٱلْبَقَرَة: ٢٥٧.

وتَبقىٰ شَنْشَنة ٱبن تَيمِية وأَصْحَابِه بأَنّه دُعاء، ودُعَاء النَّبِيّ ﷺ مُستجاب، وَهَذَا الدّعَاء لَيْس بِمُستجَاب، فالنَّتِيجة أَنّه لَيْس دُعاء من قِبل النَّبِيّ ﷺ.

والجَوَاب أيضاً من أوضح الوَاضحات؛ لأَنّ الأُمّة مُجمعَة عَلَىٰ أَنّ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام بَعد قَتل عُثْمَان لَم تَحصل لهُ الإِمَامَة بِنصّ من رَسُول الله ﷺ يَتناول تِلك الفَتْرَة الزّمنية والاخْتصَاص بها دُونَ ما تقدّمها من الزّمن، بل إِنّ الْوِلاَيَة كَانَتْ لهُ قبل ذَلِكَ. فولاَيته عَامّة كمَا كَانَتْ وِلاَيَة النَّبِيّ ﷺ عَامّة ويَدلّ عَلَىٰ ذَلِكَ كَلِمَة «مِن» المَوْصُولة. ولذَا نُجد أبن خَلدُون يَقفز وَلَم يُشر إِلَيْهَا عَلَىٰ الرّغم مِن أَنّه ذَكر كلّ مَا حَدث فِي حَجّة الوَدَاع. ولكن قَفزه هَذَا دَليل عَلَىٰ نظريته حوَل الإِمَامَة والتَّأرِيخ. فإِذَا أورَد الْحَدِيث فإِنّ ذَلِكَ يُناقض نَظريته حوَل الْإِمَامَة الّتِي يَرىٰ فِيْهَا أمراً دُنيوياً يَقُوم عَلَىٰ مصَالح النَّاس وَلاَ مَدخلية للنّص فِيْهَا. وٱدّعىٰ بأَنّ الْحَدِيث لَم يَنقله البُخَاريّ ومُسْلِم والوَاقدي ولكن ٱبن تَيمِية وأَمثاله يَعرفُون حَقّ ٱلْمَعْرِفَة أَنّ عَدم النّقل لا يَدلّ عَلَىٰ القَدح فِي الْحَدِيث.

يَسْتَخلص بِعَقْله وَفَهمه مَا شَاء وأَرَاد، ولاَ يُحَاول إقنَاعه بشيء. وَلِكـي يُـبرهِن المُؤلف عَلَىٰ تَثبته فِي النّقل ذكر اسم اَلْكِتَاب، والجُزء، ورَقم الصّفحة، كَمَا ذكر فِي آخر الجُزء الثّالث تَارِيخ الطّبع، ومكَانه، واسم المطْبَعة، أو المكْتَبة الَّتي نَشرَته.

(حَتَّىٰ مَضَىٰ الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ، فَأَدْلَىٰ بِهَا إِلَىٰ فُلَانٍ بَعْدَهُ). وهَذِه اَلْبَيْعَة حَمـلت فِي طِيّاتها أسوَأ الآثَار، وَعَلَىٰ المَدىٰ البَعِيد بِالنِّسبة إِلَىٰ أَهْل اَلْبَيْت، وَشِيعَتهم.

وَأي شيء كَان أسوَأ أثراً عَلَىٰ آل الرّسُول، وَمُحبِيهم مِن وِلاَيَـة مُـعَاوِيَة عَـلَىٰ الشَّام الَّتي تَولَّد مِنْهَا خِلاَفة يَزِيد بن مُعَاوِيَة؟ وهَل كَـان للأُمـويين مِـن دَولة فِي اَلْإِسْلاَم لَوْلاَ وِلاَيَة مُعَاوِيَة.

(فَيَا عَجَباً!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ). كَيْفَ عَـقَد أَبُو بَكْر اَلْخِلاَفَة لِعُمر بَعد وفَاته. وكَان مِن قَبل يَظهر الزُّهْد فِيْهَا، وَيَقُول: «أقِيلُونِي مِنْهَا أَقِيلُونِي»(١).

---

(١) كَيْفَ تُفسرونَ وتُؤوّلون مَقُولة أَبي بَكْر: «أقِيلُوني فَلَست بِخيركم، وَعليّ فِيكُم...»؟ أُنظر، التّجريد فِي إستقالة أَبي بَكْر، وشَرح التّجريد للقوشجيّ، ذكر القَوْل بدُون أنْ يُناقش فِيهِ.. ورُوي هَذَا القَوْل بألفاظ مُختلفة، فقد أورده ابن قُتَيْبَة بِلفظ: «إنّ لِيَ شَيطَاناً يَعتَرِيني فإنْ اسْتقمت فأعِينُوني، وإنْ زِغت فقَوِّمُوني وإنْ غَضِبت فَجنبُوني...». وفِي الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ٣٤/١. بلفظ: «هِي لكُم رَد وَلاَ بَيْعَة لكُم عِنْدِي» كنز العُمّال: ١٣٢/٣.. وفِي لفظ آخر بالكنز عَن الطّبرانيّ فِي الأوسط: «قَد أقلتم رَأيكم أنيّ لَست بِخيركم». كنز العُمّال: ١٣٥/٣.. وفِي لفظ آخر فِي الكنز: «قَد أقلت بَيعتكم». كنز العُمّال: ١٤١/٣.

وقَريب مِن هَذَا اللّفظ فِي شَرح النّهج لِابْن أَبي اَلْحَديد، وقَد أخذَه مِن خُطْبَة الشّقشِقيَّة: «...فَيَا عَجَباً! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ـ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا» شَرح النّهج لِابْن أَبي اَلْحَديد: ٥٦/١. وفِي تَارِيخ الطَّبَريّ قَـالَ: «وَلّـيتُ عَـلَيْكُمْ ولست بخـيركم». وفِي لفـظ: «أمـا والله ماأنابخيركم» تَارِيخ الطَّبَريّ: ٢٠٣/٧. كنز العُمّال عَن الحَسَن. المَصْدَر السَابق.. ومثل ذَلِكَ كثير كـما فِي

⇔ الكَامِل لِابْن الأَثِير ،الكَامِل لِابْن الأَثِير: ٢/ ١٦٠. وطَبقَات آبن سعد، الطَّبَقَات ٱلْكُبْرَىٰ: ٣/ ١٨٣. ومَجْمَع الزّوائد: ٥/ ١٨٦. والسِّيرَة لِابْن هشام: ٤/ ٣١١، والسيوطيّ فِي تَأريخ الخُلَفَاء: ٦٦، وفِي السِّيرَة الحَلَبِية: ٣/ ٣٥٩، وفِي السِّيرَة النَّبَوِيَّة لِابْن كثير: ٤/ ٤٩٣. ورواه الزُّبَيْر آبْن بكار فِي الأَخْبَار الموفقيات: ٥٧٩، والسَّيِّد المرتضىٰ فِي الشَّافِي: ٣/ ١١٦. وفِي الصَّوَاعِق أيضاً: الفصل الأَوّل مِن البَاب الأَوّل. وغَيْرهم كثير. ورغم كلّ هَذِه المصادر الَّتِي ذكرت القَوْل يَأْتِي بعضُ من يدعي العِلْم والْمَعْرِفَة ويشكك فِي صحة الرّواية ويقول بلفظ: «إِنْ صح هَذَا فَهُوَ من باب التّواضع».

والجَوَاب أنّه ـ أبوبَكْر ـ لو كَانَ معتقداً بإمارته لم يجز له طلب الإقالة، كما لايجوز للنبيﷺ، أنْ يقيل نَفْسه من النُّبوّة؛ لِأَنَّهَا تنصيب إلهي، فكَذَلِكَ الإِمَامَة هِي تنصيب إلهي؛ لِأَنَّهَا إمتداد للنُّبوّة. وَلَايجوز له أيضاً الفسخ بناءً عَلَىٰ الإختيار؛ لأنّ الإختيار هُو فِي أصل آنعقادها فإلحاق الحل به مِمَّا لادليل عَلَيْهِ، بل هُو مخالف لقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ أنظر، دَلاَئِل الصِّدْق: ٣/ ١٤، والآيَة فِي سُورَة المائده: ١. وأنّه كَانَ يعلم علم اليَقِين بأنّ الإِمَام عَلِيّاً أفضل مِنْهُ، ولذا نصّ عَلَيْهِ عند إستقالته.

هَذَا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ أراد أنْ يهيج الرّأي العام عَلَيْهِ ـ عَلَىٰ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِين ـ ويحرض أعوانه عَلَيْهِ ليبلغ أحد الأَمْرين، إمّا آنفراد عليّ؈ أو قتله، فيأمن بذَلِكَ عَلَىٰ مُسْتَقْبله. الْمَصْدَر السَابق. (بتصرف). وكَيْفَ يصلح لِلأُمَّةِ مَن كَانَ له شَيْطَان يعتريه وكَيْفَ يحافظ عَلَىٰ الأَحْكَام والدِّمَاء والْفُرُوج، وَعَلَىٰ هَذَا يمكن أنْ تعلل حَرْب أبي بَكْر لِلْمُسْلِمِين بعد أنْ آستقام له الأَمْر وأشراب النِّفَاق بالْمَدِينَة وآرتداد العَرَب كما تقولون. وهم القائلون نصلّي وَلاَ نؤدي الزَّكَاة... ولذا نرىٰ عُمَرَ خلا به نهاره أجمع، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/ ٣٥، صَحِيح مُسْلِم كتاب الإِيمَان باب ٨: ١/ ٥١، سُنَن آبْن ماجه: ٢/ ١٢٩٥ باب سُنَن البَيْهَقِيّ: ٨/ ١٩٠ و ١٩٦، صَحِيح البُخَارِيّ: ٩/ ٦ باب ٦، صَحِيح التِّرمذِيّ: ٤/ ٤٩ ح ١٤٤٤، مُسْنَد أحمد: ١/ ٦١ ـ ٧٠، كنزالْعُمَّال: ١٥/ ١٤٨. لعله يرجع عَن رأيه فِي قتالهم فلم يفلح.

إِذَنْ عَمَله هَذَا من الشَّيْطَان الَّذِي آعتراه فِي تلك السَاعة، ولذا نراه فِي حَال عدم وجود الشَّيْطَان فِي رَأْسِه يقول الْحَقّ فِي أثناء محاورته لعبد ٱلرَّحْمَان بن عوف حِينَ حضرته الوفاة، قَالَ عبد ٱلرَّحْمَان: «... خفّض عَلَيْكَ من هَذَا يرحمك الله، فإنّ هَذَا يهيضك عَلَىٰ مابك... وَلاَ أراك تأسىٰ عَلَىٰ شيء من الدُّنْيَا فاتك،

قَالَ: أجل، والله ما آسي إلاّ عَلَىٰ ثلاث فعلتهن: ليتني كنت تركتهن، وثلاث تركتهن ليتني فعلتهن:

⇔

أَمَّا بَيْت الشِّعر الَّذي تَمَثل بِهِ الْإِمَام فَهُو لأَعْشَىٰ قَيْس، واْسمه مَيمُون بن جَندل، وحيّان سيِّد بَني حَنِيفَة، وكَان فِي جَاهٍ، ونِعْمَة، وكَان الْأَعْشَىٰ يُنَادمه، وَيَـقضِيان أَيَّامَاً فِي السُّكر، واللّهو... ومَعْنَىٰ اَلْبَيْت: فَرقٌ بَعِيد بَيْنَ يَوْم الشّاعر، وهُـو عَـلَىٰ النّاقة تَسِير بِهِ فِي الرّمضاء، ويَوْمِه فِي الظّل الوَارف يَطرب مَـع حـيّان، وغَـرض الْإِمَام مِن إنشَاد اَلْبَيْت بَيَان الفَرق بَيْنَ خِلاَفَته الَّتي جرّت عَـلَيْهِ المـتَاعب كـيَوم الشّاعر عَلَىٰ النّاقة، وبَيْنَ خِلاَفة غَيْره الَّتي كَانَتْ كيَوم الشّاعر مَع حيّان المُترف.

(لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا). ضَمِير التَّثنِية فِي تَشَطَّرَا. يَعود لأَبِي بَكْـر، وعُـمَرَ، وهَاء ضَرْعَيْهَا لِلْخِلاَفَة، وَشَبهَا الْإِمَام بالنّاقة يَقْتَسم مـنَافعهَا الْأَوَّل، والثَّـانِي، لكلّ مِنْهُمَا ضَرْع يَحْتَلبه، وَقَالَ المُؤرخِين: كَان عُمَرَ أَوَّل من بَايَعَ أَبَا بَكْر، فَحَفظها لهُ.

(فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا، وَ يَخْشُنُ مَسُّـهَا). يُشِـير إِلَىٰ أخـلاَق عُمَرَ، فإِنَّه كَان مَعرُوفاً بالغِلْظَة، قَالَ طَلْحَة لأَبِي بَكْر: «ماأَنْتَ قَائِل لربّك غَـداً،

⟸ وثلاث ليتني سألت رَسُول الله عنهن، فأمّا اللاتي فعلتهن وليتني لم أفعلهن: فليتني تركت بَيْت عليّ وإنْ كَانَ أعلن عليٌّ الْحَرْب، وليتني يَوْم سَقِيفَة بني ساعدة كنت ضربت عَلَىٰ يد أحد الرّجلين... وليتني حِينَ أتيت بذي الفجاءة السّلمي أسيراً... ولم أكن أحرقته تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٤٢٩/٣، ط مِصْر تحقيق مُحَمَّد أبو الْفَضْل. الكَامِل للمبرد أيضاً: ١١/١، والعقد الفريد: ٢٦٨/٤، وإعْجَاز اَلْقُرْآن: ١١٦، بِالنَّار... إلخ» أُنظر، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٤٢٩/٣، ط مِصْر تحقيق مُحَمَّد أبو الْفَضْل. الكَامِل للمبرد: ١١/١، والعقد الفريد: ٢٦، إعْجَاز اَلْقُرْآن: ١١٦..

أُنظر، التّجريد فِي إستقالة أَبِي بَكْر، وشَرْح التّجريد للقوشجيّ. ذكر القَوْل بدون أنْ يـناقش فِـيه. الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ٣٤/١، كنز الْعُمَّال: ١٣٢/٣ و ١٤١، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٢٠٣/٧.

وَقَد وَلِّيت عَلِينا فَظّاً غَلِّيظاً ؟»[1].

(وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيْهَا، وَ الاِعْتِذَارُ مِنْهَا). ضَمِير مِنْهَا لطَبِيعَة عُمَرَ الَّتِي عبّر الإِمَام عَنْهَا بِالحوزة، وكَانَ عُمَرَ يَتَسرع فِي إصدَار الأَحْكَام بآسم الله وشَرعه حَتَّىٰ إِذَا نُبِّه إِلَىٰ خَطَئه اعْتَذر، وَقَد أُحصي عَلَيْهِ الكَثِير، مِن ذَلِكَ مَا هُو مَشهُور كَتَحدِيده لمَهر الزَّوْجَة، وآعترَاض إِمَرْأَة عَلَيْهِ بآيَة: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَاتَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[2]. فَقَالَ: «كُلّ النَّاس أَفْقَه مِن عُمَرَ حَتَّىٰ رَبَّات الحِجَال»[3].

(فَصَاحِبُهَا ـ أي طَبِيعَة عُمَرَ ـ كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَ إِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ). مَن كَانَتْ له طَبِيعَة كَهَذِه كَانَ أَشبَه برَاكب النَّاقة الشّموس، إِنْ كَفهَا بالزِّمام خَرَم أنفها، وَشَقَّه، وإِنْ أَرْخىٰ زِمَامها صَارت حيَاته فِي كَف عفرِيت.

(فَمُنِيَ النَّاسُ ـ لَعَمْرُ اللهِ ـ بِخَبْطٍ، وَ شِمَاسٍ، وَ تَلَوُّنٍ، وَ اَعْتِرَاضٍ). يَقصد أَنّ النَّاس آبتَلوا بطَبِيعَة عُمَرَ، وَهِي خَلِيط مِن الإِضْطِرَاب، وعَنْه عبّر الإِمَام بالخَبط،

---

(١) أنظر، الرّياض النّضرة: ١/١٨١، كنز الْعُمّال: ٦/٣٢٤، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبي ٱلْحَدِيد: ١/١٦٤ و: ٦/٣٤٣ و: ١١/١٣، تَأْرِيخ الأُمم والمُلُوك: ٣/٢١٠، المطبعة الحُسَيْنِية بِمِصْر. الايضاح للفاضل بن شاذان الأَزْدِيّ: ١٩٠، التعجب لأَبِي ٱلْفَتْح الكراجكي: ٢٠، الملل والنّحل للشهرستاني: ٣١، المعيار والموازنة لأَبِي جعفر الإسكافِي: ٤٧.

(٢) ٱلنِّسَاء: ٢٠.

(٣) أُنظر، مَجْمَع الزّوائد: ٤/٢٨٤، الكشاف للزمخشري: ١/٤٩١، فيض القَدِير: ٢/٨ ح١١٨٧، كَشْف الْخَفَاء: ١/٢٦٩ ح ٨٤٤، الْمَجْمُوع للنووي: ١٦/٣٢٧، المَبْسُوط للسَّرْخَسِي: ١٠/١٥٣، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبي ٱلْحَدِيد: ١/١٨٢ و: ١٧/١٧١، المُصَنَّف لعبدالرّزاق: ٦/١٦٠، سُنن البَيْهَقِيّ: ٧/٤٤٢، سُبل السَّلاَم: ٣/١٤٩، الدُّر المنثور: ٢/٤٦٦، كنز الْعُمّال: ١٦/٥٣٧ ح ٤٥٧٩٨، تَفْسِير آبْن كثير: ١/٤٧٨، علل الدار قطني: ٢/٢٣٩، فتح القَدِير: ١/٤٤٣.

وخَلِيط أيضاً مِن الصّرَامة، وإِلَيْهَا أشَار بالشِّماس، وَمِن التَّبدل مِن حَالٍ إِلَىٰ حَال، وهُو الْمُرَاد مِن التَّلَوُّن، أَمَّا الإعْتِرَاض فالقَصد مِنْهُ عَدم الاِسْتِقَامَة عَلَىٰ حَال.

(فَصَبَرْتُ عَلَىٰ طُولِ الْمُدَّةِ، وَ شِدَّةِ الْمِحْنَةِ). أراد بالمُدَّة عهد الّذين سبقوه إِلَىٰ ٱلخِلاَفَة.. وَلَيت شِعري مَتىٰ صَفَت لكَ الأَيَّام يَا أبا الْحَسَن حَتَّىٰ خَصَصت بالذِّكر عَهد الخُلَفاء؟. هَل صَفَت ٱلخِلاَفَة لكَ مَع أَهْل الْكُوفَة، أو الْبَصْرَة، أو فِي صِفِّين، أو يَوْم النَّهْرَوَان، أو يَوْم ٱستِشْهَادك وأَنْتَ سَاجد لله فِي بَيْت الله؟. ولاَ بِدع فحيَاتك، وحَيَاة أبْنَائك، وأحفَادك كلّها آلام، وَمِحن.

أَقْرَنُ إِلَىٰ هَذِهِ النَّظَائِرِ!..فِقْرَة ٤:

(حَتَّىٰ إِذَا مَضَىٰ لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ، فَيَا للهِ وَ لِلشُّورَىٰ! مَتَىٰ ٱعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّىٰ صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَىٰ هَذِهِ النَّظَائِرِ! لَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَ طِرْتُ إِذْ طَارُوا، فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ، وَ مَالَ الآخَرُ لِصِهْرِهِ، مَعَ هَنٍ وَ هَنٍ، إِلَىٰ أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجاً حِضْنَيْهِ، بَيْنَ نَثِيلِهِ وَ مُعْتَلَفِهِ، وَ قَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خِضْمَةَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَىٰ أَنِ ٱنْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَ أَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ[٤]!).

اللُّغَة:

أَسَفَّ الطَّائِر: دَنَا مِن ٱلأَرْض. ولِضِغْنِهِ: لحِقدَه. وَيُطلق ٱلهَن عَلَىٰ الشَّيء، والْمُرَاد بِهِ هُنا الْهَوَىٰ، والغَرض. ونَافِجاً: رَافِعاً. ونَثِيلِهِ: رَوثه. والمُعْتَلَف: مِن العَلف. ويَخْضَمُونَ: يَأكلُون. وفَتْل الحبَل: لوَاه. وبِطْنَه ـ بِكسر البَاء ـ التُّخمة.

الإِعْرَاب:

النَّظَائِر عَطف بَيَان مِن هَذِهِ. ونَافِجاً حَال مِن ثَالِثُ الْقَوْمِ.

الْمَعْنَىٰ:

(**حَتَّىٰ إِذَا مَضَىٰ لِسَبِيلِهِ ـ أي عُمَرَ ـ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ**). لمَّا طَعن أبُو لؤلؤة عُمَرَ، وَعَلم أنّه مَيت دَعا عَلِيّاً، وعُثْمَان، وطَلْحَة، والزُّبَيْر، وَسَعداً، وعَبدٱلرَّحْمَان بن عُوف، وَقَالَ: «مَات رَسُول الله، وهُو رَاضٍ عَن هَؤُلاَء، وَقَد رَأَيْت أنْ أَجْعَلها شُورَىٰ بَيْنَهُمْ، ثم قَالَ لمَن يَعتمد عَلَيْهِ: إنْ ٱجْتَمع عَليّ، وعُثْمَان فَالقَوْل ما قَالاَه، وإنْ صَاروا ثلاَثة، وثَلاَثة فالقَوْل للَّذين فِيهِمْ عبدٱلرَّحْمَان بن عُوف لِعِلمه أنّ عَلِيّاً، وَعُثْمَان لاَ يَجْتَمِعَان، وإنَّ ٱبن عُوف لا يَعدل بالأَمْر عَن عُثْمَان لأنّ ٱبن عُوف صِهره، وزَوج أُخته، ثُمَّ أمر عُمَرَ أنْ تُضرب أعنَاق السِّتة إنْ ٱمْتَنَعُوا عَن تَنْفِيذ أَمْره.

هَذَا إيجَاز سرِيع لمُجمل القِصَّة، لا لتفَاصِيلها المذكُورة فِي شَرح ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد، وكُتب التَّأرِيخ، ولكَ إنْسَان أنْ يَتَساءل: كَيْفَ أمر عُمَرَ بِقَتل السِّتة كلّهم أو بَعْضهم بَعد أنْ شَهد بأنّ رَسُول الله ﷺ مَات، وهُو راضٍ عَنْهم؟ وما هُو السّبب المُوجب لترجِيح الثّلاَثة الّذين فِيهِمْ ٱبن عُوف عَلَىٰ الّذين فِيهِمْ عَليّ؟ ولمَاذا لَم يَجعل الأَمْر بيد ٱبن عُوف مُنذ البدَاية؟ وَما الَّذي دَعَاه إِلَىٰ أنْ يَجعل ٱلشُّورَىٰ إِلَىٰ سِتة لا إِلَىٰ جَمِيع ٱلمُسْلِمِين كَمَا فَعل رَسُول الله ـ عَلَىٰ زَعْمه ـ أو يَختَار الأَصْلَح الَّذي يَعرفه، ويَعتمده كَمَا فعل أبو بَكْر؟. وبالتَّالي إِذَا كَانَتْ ٱلشُّورَىٰ مَبدأ إسلاَمِياً إِلهياً فَقد أُشير عَلَىٰ عُمَرَ أنْ يَختَار وَلَده عَبدالله، فلمَاذا خَالف ٱلشُّورَىٰ وٱسْتَبد برَأيه؟ (فَيَا للهِ وَ

لِلشُّورَىٰ!)[1].

(١) وَالشُّورَىٰ كما مورست فِي التَّأريخ وأدت إِلىٰ تعيين عُثْمَان بن عَفَّان، هِيَ أيضاً مظهر من مظاهر العهد، وإِنْ كَانَتْ ظاهراً غَيْر فردية؛ لاكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَة فردية صرفة؛ لِأَنَّهَا بيد عبد الرَّحْمَان بن عوف، وَهَذَا ما حدث فعلاً، ولذا جاء فِي العقد الفريد الحوار الَّذي دار بَيْنَ مُعَاوِيَة بن أَبِي سُفْيَانَ، والحُصين بن مالك بن الخشخاش: «قَالَ: فأنا أُخبرك، أنّه لم يشتت بَيْنَ الْمُسْلِمِين، وَلاَ فرق أَهْوَاءهم إِلاّ الشُّورَىٰ الَّتي جعلها عُمَرَ بن الخَطَّاب إِلىٰ ستة نفر...». العقد الفريد: ٣٣/٥.

أَلا يظهر من هَذَا كلّه أَنّ الرَّجُل ـ أي عُمَرَ بن الخَطَّاب ـ قد جعل أمر التَّرشيح بيد رجل واحد وهُو عبد الرَّحْمَان بن عوف، وعبد الرَّحْمَان هَذَا يَعْرِف بأنّ الإِمَام عليّ عليه السلام يرفض الإلتزام بسيرة الشَّيخين. ولذا اشترط الإلتزام حَتَّىٰ يبعد عَنْهَا عَلِيّاً وذَلِكَ لما بَيْنَهما من الإِخْتِلاَف من حيث السِّيرَة حَتَّىٰ فِي الإستخلاف، ولما بَيْنَ سيرتهما، وبَيْنَ سيرة الرَّسُول صلى الله عليه وآله، طَلَب عبد الرَّحْمَان فِي حَقِيقَته تعجيزي لا يمكن أَنْ يقبل به إِلاّ اللّعوب الَّذي لا يرعىٰ عهداً، وَلاَ يلتزم بتعهد، وذَلِكَ مستحيل عَلَىٰ مثل عليّ عليه السلام. لذا قبلها عُثْمَان، ولم يلتزم بها أبداً وهُو يعلم أنّه لنْ يلتزم، وكَيْفَ يلتزم بثلاثة أنماط من السِّيرَة متباينة، مختلفة. ولَيْسَ فِيْهَا جامع. وهُو الَّذي رفض منذ الْيَوْم الأَوَّل خلافة أَبِي بَكْر، وَقَالَ: «لقد تقمصها فُلاَن...» وهُو يعلم بأمر الهجوم عَلَىٰ بَيْتِه بأمر أَبِي بَكْر، وقائد الحملة الهجومية لإحراق الْبَيْت عَلَىٰ فَاطِمَة الزّهراء ومَن فِيهِ، أَلا وهُو عُمَرَ بن الخَطَّاب هُو صاحب الكَلِمَة و«إنْ»، ويعلم بأنّ أبابَكْر قد خالف فِي قتال من يسميهم بالمرتدين، وقد خالف فِي إحراق الفجاءة و... و... وكَذَلِكَ يعلم بجهل أَبِي بَكْر فِي كثير من الأُمُور من ميراث الجدة الَّذي رواه مالك ابْن أنس، فِي الموطأ: ٣٣٥/١. وأبو داود فِي السّنن: ١٧/٢، وابْن ماجه فِي السّنن: ١٦٣/٣، وأحمد بن حنبل فِي المسند: ٢٢٤/٤.... واعتراف كبار الْعُلَمَاء فِي العقائد والكَلاَم حَتَّىٰ أنّه أخذ بآراء الْفَاسِق الْمُغِيرَة بْنَ شُعْبَة... حَتَّىٰ أنّه لم يَعْرِف مَعْنَىٰ الكلالة و... و...

أَمَّا مخالفات عُمَرَ فَهِيَ كَثِيرَة وقد أشرنا إِلىٰ بعضٍ مِنْهَا من إنكاره لمَوْت النَّبِيّ صلى الله عليه وآله وتصرفه فِي بَيْت الْمَال بغير حق، و... و... والإِمَام عليّ عليه السلام يعلم أنّ أبابَكْر وعُمَرَ اختلفا فِي سيرة كلّ مِنْهُمَا: لأنّ أبابَكْر نصّ عَلَىٰ خلافة عُمَرَ، وعُمَرَ جعلها شُورَىٰ، وأبوبَكْر رَأَىٰ أَنْ يُقَاتِل الَّذين امتنعوا عَن دفع الزَّكَاة، وعُمَرَ له رأي غَيْر هَذَا... وكتب أبوبَكْر لنفر من المؤلفة قلوبهم بحقوقهم، وعُمَرَ مزق كتابه... إلخ. فكَيْفَ يسير عَلَىٰ هاتين السِّيرتين المخالفتين لكتاب الله وسُنة رَسُول الله صلى الله عليه وآله وهُو الَّذي كَانَ يقف مع النّصوص، والظَّواهر، وَلاَيتعداها إِلىٰ الأقيسة، ويطبق أمور الدُّنْيَا عَلَىٰ الدّين، ولذا قَالَ عليه السلام لعبد الرَّحْمَان بن عوف:

⇐ أرجو أنْ أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، بينا نرىٰ عُثْمَان قَالَ: أنا يا أبا مُحَمَّد أُبايعك عَلَىٰ ذَٰلِكَ كما جاء فِي فتح الباري: ١٩٨/١٣. فَإِذَا سار بسيرة أحدهما فقد خالف الأُخرىٰ فيكون قد نكث عَهْدِه، وإنْ سار بسيرة رَسُول اللهﷺ فقد خالف سيرة الشّيخين وقد يَكُون قد نكث عَهْدِه. إنَّ الأَمْر مُعد أصلاً ليكون عُثْمَان هُو ٱلْخَلِيفَة ولذا قَالَ عليّ، لعمّهالعَبَّاس «والله مابي رغبة فِي السُّلْطَان وحبّ الدُّنْيَا ولكن لاظهار الْعَدْل والقيام بِٱلْكِتَاب والسّنة». أنظر، شَرْح النّهج: ٥١/٩ وَقَالَ عليّ لعبد ٱلرَّحْمَان عندما صفق عَلَىٰ يد عُثْمَان: «والله ما فعلتها إلّا لانّك رجوت مِنْهُ ما رجا صاحبكما دق الله بَيْنَكُمَا عطر منشم». دَلاَئِل الصِّدْق م٣: ١٢٣. قيل: ففسد بعد ذَٰلِكَ ما بَيْنَ عُثْمَان وعبد ٱلرَّحْمَان فلم يُكلم أحدهما صاحبه حَتَّىٰ مات عبد ٱلرَّحْمَان.

ثُمَّ ما هِي الميزة، والخصيصة، والمنقبة الَّتِي تميز بها عبد ٱلرَّحْمَان بن عوف حَتَّىٰ يُجعل هُو الحكم بَيْنَ طرفِي الإِخْتِلاَف إِذَا وقع حَتَّىٰ وإنْ صفق بإحدىٰ يديه عَلَىٰ الأُخرىٰ كما ذكرنا سابقاً من المصادر التَّأْرِيخِيَة. الكَوْن عبد ٱلرَّحْمَان بن عوف زوج أُمّ كُلْثُوم بنت عُقْبَة بن أُبِي مُعَيْط، وأُمّها أروىٰ بنت كريز، وأروىٰ أمّ عُثْمَان فلذلك هُو صهره كما يَقُولُون؟ أُنظر، أَنْسَاب الأَشْرَاف ٥: ١٩. أم لكونه من أنصار وحِزْب أبِي بَكْر فِي يَوْم السَّقِيفَة مَع عُمَرَ، وأبِي عُبَيْدَة، والْمُغِيرَة بْن شُعْبَة وسالم مَوْلَىٰ حُذَيْفَة.؟ الإِسْتِيعَاب: ٣٨٥/٢، الإِصَابَة: ٤٠٨/٢، أُسد الغَابَة: ٣١٣/٣. أم لكونه قَالَ يَوْم السَّقِيفَة: «يامَعْشَرَ الأَنْصَار إنّكم وإنْ كنتم عَلَىٰ فضل فلَيْسَ فيكم مثل أبِي بَكْر وعُمَرَ..» تَأرِيخ اليعقوبيّ: ١٠٣/٢. أم لكونه من ٱلرِّجَال الّذين دخلوا بَيْت فَاطِمَة بنت رَسُول اللهﷺ مَع عُمَرَ بن الخَطَّاب، وخالد، وثابت بن قَيْس، وزياد بن لبيد، ومُحَمَّد بن مَسْلَمَة، وزَيد بن ثابت، وسلمة بن سالم، وسلمة بن أسلم، وأُسيد بن حضير؟ تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤٤٣/٣، شَرْح النّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١٣٠/٢، الإِسْتِيعَاب: ٨٣/٢، الإِصَابَة: ٦١/٢، هَٰذِه المصادر عَلَىٰ سَبِيل المثال لا الحصر.

أم لكونه نصح عُمَرَ بأنْ لا يقول مقولته فِي منىٰ عندما قَالَ له: «يا أَمِيرَٱلْمُؤْمِنِين لا تفعل فإنْ الموسم يجمع رُعَاع النّاس، وغوغاءهم... فأمهل حَتَّىٰ تقدم الْمَدِينَة فَإِنَّهَا دار السُّنَّة فتخلص بأَهْل الفِقْه وأشراف النَّاس فتقول ماقلت بالْمَدِينَة متمكناً فيعي أَهْل الفِقْه مقالتك ويضعوها عَلَىٰ مواضعها... فقبل عُمَرَ مِنْهُ ذَٰلِكَ...»؟ السِّيرَة لِابْن هشام: ٣٣٦/٤. أم أنّه أحقّ بالنظر لمصلحة الأُمَّة من أَمِيرَٱلْمُؤْمِنِين الَّذي فِيهِ قَالَ عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ ٱلْمَائِدَة: ٥٥. أم أنّ عُمَرَ علم بأنّ عبد ٱلرَّحْمَان لا يختلف مَع ختنه عُثْمَان وابْن عمّه سعد كما صرح به أَمِيرَٱلْمُؤْمِنِين عليّ وَقَالَ له: حبوته حبو دهر لَيْسَ

⇐

↔ هَذَا أَوَّل يَوْم تظاهرتم فِيهِ علينا فصبرٌ جميل والله المستعان عَلَىٰ ماتصفون...؟ أم لكونه صاحب ثروة قدروها بألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومئة فرس كما ترك ذهباً قُطع بالفؤوس حَتَّىٰ مجلت أَيْدِي ٱلرِّجَال مِنْهُ؟ كما جاء فِي الطَّبقَات الْكُبْرَىٰ: ١٣٦/٣.

ثُمَّ لِمَاذَا أدخل ـ جعل الحَكم ـ عبد الله بن عُمَرَ أيضاً كما فِي بَعْض الأَخْبَار وهُو القَائِل كما روي فِي تَارِيخ الْمَدِينَة عَن إِبْرَاهِيم قَالَ: قَالَ عُمَرَ بن الخَطَّاب «يأمروني أَنْ أُبايع لرجل لم يُحسن أنْ يُطلق ٱمْرأته»؟ تَارِيخ الْمَدِينَة: ٩٢٣/٣. وفِي طَبقَات ٱبْن سعد قَالَ عُمَرَ: «مَن أستخلف؟ فقيل له: فأين أنتَ من عبدالله بن عُمَرَ؟ فَقَالَ: قاتلك الله والله ما أردت الله بِهَذَا، أستخلف رجلاً لَيْسَ يحسن أنْ يُطلق ٱمْرأته»؟ تَارِيخ الْمَدِينَة: ٣٤٣/٣. وفِي تَارِيخ السّيوطيّ: «أنّ رجلاً قَالَ لعمر: ألا تستخلف عبدالله بن عُمَرَ؟ فَقَالَ: قاتلك الله! والله ماأردت الله بِهَذَا، أستخلف رجلاً لم يحسن أنْ يُطلق ٱمْرأته». تَارِيخ السّيوطيّ: ١٣٥. أم لكون عُمَرَ يعلم بأنّ ٱبْنِهِ معلوم الإنحراف عَن عليّ ابن أبي طالب ولذا لم يُبايعه لما كَانَتْ ٱلْبَيْعَة له بعد عُثْمَان، وبَايَعَ بعده مُعَاوِيَة ويَزِيد بن مُعَاوِيَة...، بل قيل إنّه انتظر عَلَىٰ باب الحَجَّاج ثلاثة أَيَّام ليبايعه، والحَجَّاج مشغول عَنْه، حَتَّىٰ دخل عَلَيْهِ فِي الْيَوْم الثَّالث وهُو يقول: مَنْ مات ولَيْس فِي عُنقه بَيْعَة مات ميتة جاهلية. وكَانَ الحَجَّاج منشغلاً بالأكلّ فمد رجله إِلَيْهِ وبايعه...

إذَنْ عبدالله بن عُمَرَ يحمل نفس السّبب الَّذي كَانَ يحمله عُمَرَ، تجاه عليّ بن أبي طالب، وهُو السّر الَّذي دَعَاه فِي آخر حياته أنْ يُبايع يَزِيد بن مُعَاوِيَة يَزِيد الخمور، والْفُجُور، والْكُفْر، والإلحاد مقابل منة ألف درهم قدمها إِلَيْهِ مُعَاوِيَة أَيَّام حياته، وبعد قتل يَزِيد لقرة عين الرّسُولﷺ والبتول فَاطِمَة الزّهراء وعليّ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين، والحُسَيْن هُو سيد شباب أَهْل ٱلْجَنَّة، فهل من المعقول أنْ يقف ٱبن عُمَرَ هَذَا الموقف ليدافع عَن يَزِيد الْفَاسِق، حَيْث روىٰ الْبُخَارِيّ عَن نافع قَالَ: لما خلع أَهْل ٱلْمَدِينَة يَزِيد بن مُعَاوِيَة جمع ٱبن عُمَرَ حشمه ومواليه وفِي رواية سليمان وولده، وَقَالَ: إِنّي سمعت رَسُول اللهﷺ يقول: «ينصب لكلّ غادر لواء يَوْم ٱلْقِيَامَة» وزاد الزّهريّ: «وإنّا قد بايعنا هَذَا الرّجُل عَلَىٰ بَيْعَة الله ورسوله، وإِنّي لا أعلم غدراً أعظم من أنْ تُبايع رجلاً عَلَىٰ بَيْعَة الله ورسوله، ثمّ تنصب له الْقِتَال، وإِنّي لا أعلم أحداً منكم خلع وَلاَ بَايَعَ فِي هَذَا الأَمْر إلاّ كَانَتْ الفيصل بيني وبينه». صَحِيح الْبُخَارِيّ: ١٦٦/١، سُنَن الْبَيْهَقِيّ: ١٥٩/٨، مُسْنَد أَحمد: ٩٦/٢.

وَقَالَ فِي وَقْعَة الحرة الَّتِي أباح فِيهَا يَزِيد الْمَدِينَة الْمُنَوَّرَة ثلاثة أَيَّام، ثمّ يَأْتِي ٱبن عُمَرَ ويوجه جرائم ↔

⇐ يَزِيد حينما قَالَ مخاطباً عبد الله بن مطيع: «سمعت رَسُول اللهﷺ يقول: من خلع يداً من طاعةٍ لقي الله يَوْم ٱلْقِيَامَة لا حجّة له، ومَن مات ولَيْسَ فِي عنقه بَيْعَة...» صَحِيح مُسْلِم: ٦/٢٢.

ثُمَّ ما هِي المِيزة الَّتي ميزت أبا عُبَيْدَة بن الجَرَّاح ـ عامر بن عبدالله؟

الكَوْن ـ أبي عُبَيْدَة ـ من الّذين كانوا فِي السَّقِيفَة فِي حِزْب أبي بَكْر وهُو القَائِل لعليّ: «ياأبا الحَسَن! إنّك حدث السّنّ وهَؤُلاَء مشيخة قُرَيْش قومك لَيْسَ لك مثل تجربتهم ومَعْرِفَتهم بالأُمُور، ولاَ أرىٰ أبابَكْر إلاّ أقوىٰ عَلَىٰ هَذَا الأَمْر منك وأشدَّ احتمالاً له واضطلاعاً به، فسلِّم له هَذَا الأَمْر وارض به فإنّك إنْ تعِشْ ويَطُلْ عمرك فأنْتَ لِهَذَا الأَمْر لخليق وعَلَيْهِ حقيق فِي فضلك وقرابتك وسابقتك وجهادك...»؟ شَرْح النَّهج لإبْن أبِي ٱلْحَدِيد: ٢/١٣٤ و: ٦/٢٨٦.

أم لكونه من الّذين اختمروا بالأُزُر، لايمرون بأحد إلّا ضبطوه... وقدموه، فمدوا يده فمسحوها عَلَىٰ يد أبي بَكْر يبايعه شاء ذَلِكَ أم أبىٰ»؟ شَرْح النّهج للمعتزلي: ١/٢١٩. ولِهَذَا وغَيْره أصْبَحَ عُمَرَ يردد هَذِهِ المقولة: «لو كَانَ أبو عُبَيْدَة بن الجَرَّاح حيّاً لإستخلفته ولو كَانَ سالم مَوْلَىٰ أبي حُذَيْفَة حيّاً لإستخلفته»، وكأنّه رد الجميل الّذي صدر مِنْهُمَا أيّام السَّقِيفَة وغَيْرها، وهُو يعلم بأنّهما قد ماتا فلا بأس بأنْ يبعد ٱلشُّبْهَة، والإشكالية الّتي طرأت فِي أذهان النَّاس، وكأنّ الأَمْر حَقِيقَة هُو شُورَىٰ وهُو... وهُو...،وقد تناسىٰ كلّ الآيَات، والأَحَادِيث الّتي جاءت بحق الإِمَام عليّ حَتَّىٰ قَوْله: «بخٍ بخٍ لك ياابن أبي طالب! من مثلك يباهِي الله به مَلاَئِكَة سبع سماوات؟» أو «أصْبَحت مولاي ومَوْلَىٰ كلّ مُؤْمِن ومؤمنة...» شَرْح النّهج للمعتزليّ: ١/٢١٩..

وهَذَا الحرف «لو» للتمني وهُو حرف إمتناع لوجود أيضاً فلو كَانَ حقاً أبو عُبَيْدَة أو سالم من الأحياء لم يولِّ عُمَرَ أحداً مِنْهُمَا وذَلِكَ؛ لأنّه اختراق لبنود السَّقِيفَة الّتي نصت عَلَىٰ التّتابع – أبو بَكْر، ثمّ عُمَرَ، ثمّ عُثْمَان – وإنّما ذكرهما من باب أنّ الرَّسُولﷺ قد آخىٰ بَيْنَهما فِي المؤاخاة الأُولَىٰ عندما كَانَ فِي مَكَّة، فقد آخىٰ بَيْنَ أصْحَابه من قُرَيْش ومواليهم، فآخىٰ بَيْنَ عمّه حَمْزَة ومَوْلاَه زَيد بن حارثة، وبَيْنَ عُبَيْدَة بن الحارث بن عبد المطلب، وبلال مَوْلَىٰ أبي بَكْر، وبَيْنَ أبي عُبَيْدَة ابن الجَرَّاح، وسالم مَوْلَىٰ أبي حُذَيْفَة. وهَذِهِ الموالاة هِي الّتي حطمت الإعْتِبَار والتّمايز الطّبقيّ القبليّ الإِقْتِصَاديّ.الرّوض الأنف: ٢/٢٥٢. وكَانَ أبو عُبَيْدَة بن الجَرَّاح المَسْئُول المركزي عَن المخصصات المالية.

ودليلنا عَلَىٰ أنّ عُمَرَ قَالَ ذَلِكَ للفذلكة أنّه قَالَ أيضاً: «لو أدركت معاذ بن جبل لإستخلفته ووليته»، ⇐

⇐ الْإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ٢٣/١. ومعاذ هَذَا لَيْسَ من طبقة البَدْرِيين، بل من الأَنْصَار، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٥٨٣/٣. فَإِذَا كَانَتْ تَولِيَة الأَنْصَار جائزة فَلِمَاذَا لم تكن جائزة يَوْم السَّقِيفَة؟ علماً بأَنّ سعداً طالب بِالخِلاَفَةِ وهُو أحد النُّقباء لَيْلَة العقبة الّذين إختارهم جِبْرِيل عليه السلام، وسعد لَيْسَ كمعاذ؛ لأنّه سيد الخزرج بلا منازع. الْمَصْدَر السَّابق، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ٥/١ و٨. وأُنظر إِلىٰ الفذلكة الأُخرىٰ الَّتِي قالها عُمَرَ: «لو أدركت خالد بن الوليد لوليته»، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ٢٤/١. وخالد بن الوليد هَذَا من الطَّبَقَة العاشرة من طَبقَات الْصَّحَابَة كما تدعون، وهُو الَّذي أنقض عَلَىٰ الرّماة يَوْم أُحد... وهُو الَّذي قَالَ فِيهِ رَسُول الله صلى الله عليه وآله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أبرء إِلَيْك ممّا صنع خالد». السّيرَة النَّبَوِيَّة لِابْن كثير: ٥٩٢/٣، تَأرِيخ ٱلْإِسْلاَم للذهبيّ: ٥٦٨/٣، الكَامِل فِي التَّأرِيخ لِابْن الأَثِير: ٢٥٦/٢، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ١٤٨/٢ تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٦٧/٣، السِّيرَة لِابْن هشام: ٧٣/٤، المغازي للواقدي: ٨٨١/٣.

ومن هَذَا وذَاكَ لا نندهش إِذَا رأينا مُعَاوِيَة الطَّلِيق ابْن الطّليق يعتلي سدة ٱلخِلاَفَة، والحُكم، والإمارة، وكَذَلِكَ مَرْوَان بن الحكم الَّذي كَانَ محظوراً عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أبيه أَنْ يدخلا الْمَدِينَة فِي زمن رَسُول الله صلى الله عليه وآله، وزمن أَبِي بَكْر، وزمن عُمَرَ أيضاً، إِلىٰ أَنْ آلت الخِلاَفَة إِلىٰ عُثْمَان فأدْخَلَه معززاً مكرماً، ثمّ طلب ٱلخِلاَفَة وطالب فعلاً بالإمارة، ولكن عُثْمَان اتخذه وَزِيراً له حَتَّىٰ قَالَ الإِمَام عليّ عليه السلام: «إنا والله إِذَنْ لنكسرن رماحنا ولنقطعن سيوفنا وَلاَ يَكُون فِي هَذَا الأَمْر خير لمن بعدنا» الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة لِابْن قُتَيْبَة: ٢٩/١، العقد الفريد: ٢٧٢/٢، نقله مختصراً عَن ابْن أَبِي شيبة عَن طريق الأعمش..

ثُمَّ ألا تعتقدون بأَنّ تَولِيَة عُثْمَان لِلْخِلاَفَة كَانَ قد بُتَّ فِيهَا فِي حَيَاة عُمَرَ بن الخَطَّاب، وتعيين السِّتَّة فِي ٱلشُّورَىٰ كَانَ من أجل تمرير هَذَا الأَمْر بصورة مرضية لدىٰ الجَمِيع كما يتصورون، وذَلِكَ عندما أنبأ عُمَرَ سعيد بن العَاص أنّه سيلي بعده ذو رحم، ألا وهُو عُثْمَان وطلب مِنْهُ أَنْ يجيء الأَمْر عنده، وهَذَا ما كَشَفَ عَنْه عُثْمَان نَفْسه عندما خطب فِي أَوَّل خُطْبَة له حَيْث قَالَ: أيها النَّاس إِنَّ أَوَّل مركب صعب، وإِنَّ بعد الْيَوْم أَيَّاماً، وإِنْ أعش تأتكم الْخُطْبَة عَلَىٰ وجهها فما كُنا خطباء... فأرتج عَلَيْهِ... فَقَالَ: إِنَّ أبا بَكْر وعُمَرَ كَانَ يعدان لِهَذَا المقام مقالاً وسيأتي الله به...»، البداية والنِّهَايَة: ١٦٦/٧، العقد الفريد: ٤١٠/٢، الْبَيَان والتبيين: ٢٥٠/٢، تحقيق مُحَمَّد هارون، تَأرِيخ الخُلَفَاء تحت عنوان «أوليات عُثْمَان»، وابْن كثير: ٢١٤/٧، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ فِي ترجمة عُثْمَان: ٦٢/٣، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٢٤/٥ و ٢٥. وهُو أَوَّل يَوْم عفا به أثناء خطبته عَن عُبَيْد الله بن عُمَرَ من جريمته لقتل الهُرمُزَان وكَانَ من ٱلْمُسْلِمِين، وقَالَ: لا وارث له إِلاَّ ⇐

(مَتَىٰ اَعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّىٰ صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَىٰ هَذِهِ النَّظَائِرِ!). عَفوك، ورِضوَانك يَا مولاَي ألست القَائِل: إِنَّ الْحَقّ ثَقِيل مَرِيء، وإِنَّ ٱلْبَاطِل خَفِيف، وَبِيء؟[1]. وإذَنْ فَأي عَجب إِذَا قَرنُوك إِلَىٰ هَذِهِ النّظائر فما دُونها؟. ولَيْسَ مِن قَصدي أنْ أُبرر المُقارنة كلاَّ، وَألف كلاَّ.. وأي مُبرر للمُقَارنة، والموَازنة بَيْنَ

↩ ٱلْمُسْلِمُون عامة وأنا إمامكم وقد عفوت أفتعفون؟ قَالُوا: نعم، فَقَالَ عليّ عليه السلام: أقد الْفَاسِق فإنّه أتىٰ عظيماً، قتل مسلماً بلا ذنب، وَقَالَ لعُبَيْد الله: «يافاسق لئن ظفرت بك يوماً لأقتلنك بالهرمزان». المصادر السّابقة. وَلاَ ندري هل هَذَا رد الجميل من قبل عُثْمَان لأَبِيه؟ أو لسبب آخر لا نعرفه؟ وعُمَرَ هَذَا هُو الَّذي حرض سعيد بن العَاص عَلَىٰ قتل الإِمَام عليّ عليه السلام عندما قَالَ له: «مالي أراك مُعرضاً كأنّك ترىٰ أنّي قتلت أباك؟ ما أنا قتلته ولَكِنَّهُ قتله عليّ بن أبي طالب»، وكَانَ قد قتله ببَدْر، فأراد بِذَلِكَ عُمَرَ إثارة الضّغائن عَلَىٰ الإِمَام عليه السلام.

ويكشف لنا هَذَا التّصور، بل التّصديق بأنّ ٱلْخِلاَفَة قد بُتّ بها مسبقاً ما أستفاض من الرِّوَايَات من مناشده الإِمَام عليّ عليه السلام لأصحاب ٱلشُّورَىٰ وتعديده فَضَائِله وخصائصه الَّتي بان بها مِنْهُم ومن غَيْرِهم، فقد روىٰ شَرْح النّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد، قَالَ الإِمَام عليّ عليه السلام: «إِنَّ لنا حقاً إنْ نُعطه نأخذه، وإنْ نمنعه نركب أعْجَاز الإِبِلِ، وإنْ طال السّرىٰ...»، ثمّ قَالَ لَهُمْ: «أنشدكم الله، أفيكم أحد آخىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله بينه وبَيْنَ نَفْسه حَيْث آخىٰ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِين وبَعْض، غَيْرِي؟» فقَالُوا: لا... فقَالَ... فقَالُوا... قَالَ: «فأيُّنا أقْرب إِلَىٰ رَسُول الله نسباً؟» قَالُوا: أَنْتَ. فقطع عَلَيْهِ عبد ٱلرَّحْمَان آن عوف كَلاَمه وَقَالَ: ياعليّ: قد أبىٰ النَّاس إلاّ عَلَىٰ عُثْمَان، فلا تجعلن عَلَىٰ نَفْسِكَ سبيلاً. ثمّ قَالَ: ياأبا طَلْحَة، ما الَّذي أمرك به عُمَرَ؟ ـ وهنا بَيْت القصيد ـ قَالَ: أنْ أقتل من شق عصا الْجَمَاعَة. فَقَالَ عبد ٱلرَّحْمَان لعليّ بَايَعَ إِذَنْ... وإلاّ كنتَ مُتبعاً غَيْر سَبِيل ٱلْمُؤْمِنِين وأنفذنا فيك ما أمرنا به. فَقَالَ: «لقد علمتم أنّي أحقّ بها من غَيْرِي، ووالله لأسلمنَّ...». شَرْح النّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٦/١٦٧. كَانَ عليه السلام يعلم بأنّ ٱلْخِلاَفَة زويت عَنْه، وإنّما اشترك معهم فِي ٱلشُّورَىٰ كي لايُقَال: هُو الَّذي زهد فِي ٱلْخِلاَفَة ولم يطلبها. وَقَالَ عُمَرَ أكْثَر من مرة إِنَّ قُرَيْشاً أجمعت أنْ لا تَوَلِّي أي هاشميّ. أبن الأثِير: ٣/٢٤، وشَرْح النّهج: ٣/١٠٧ و ١٠٥ و ١١٤، الإمامه وَالسِّيَاسَة: ١/٢٦، نظام الْحُكْم للقاسمي: ٢٢٢.

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٤/٩٠ الْحِكْمَة (٣٧٦)، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٥/٤٤، الْفُتُوح لِابْن أعْثَم: ٢/١٨٩، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢/١٠٤ و: ١٩/٣١٣.

مَخلوق، وبَينَ من قَالَ لهُ الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ: «أنْتَ أَخِي وَولِي فِي الدُّنْيَا والآخِرَة»[١].. وَلكنْ مِن قَصدي، وإنْ قُصر الْبَيَان، أنْ أُشير إِلَىٰ أنّ للْحَقِّ ثَمَنه الغَالي مِن البَلوىٰ.

وَمِن أقوَالِكَ يَاسيدي: «وَرُبَّ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ مُسْتَدْرَجٌ بِالنُّعْمَىٰ، وَرُبَّ مُبْتَلىً مَصْنُوعٌ لَهُ بِالْبَلْوَىٰ! فَزِدْ أَيُّهَا الْمُسْتَنْفِعُ فِي شُكْرِكَ، وَقَصِّرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَقِفْ عِنْدَ مُنْتَهَىٰ رِزْقِكَ»[٢]. وأي صُنع، ورَصِيد أجلّ، وأفضَل مِن هَذَا الرّصِيد الَّذي أدخَره الله لأخِيك مُحَمَّد ﷺ، وَلَك؟.. لقَد اتفَق المُسلِمُون عَلَيْهِ، وعَلَيْكَ، واخْتَلفُوا فِي الّذين قَرنُوك، وأخرُوك، وَلاَ شَيء أدَّل مِن هَذَا الإتفَاق عَليهِ أنّك أخُو مُحَمَّد ﷺ، وأنّك مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ هَارُون مِن مُوسَىٰ حَقّاً، وَصِدقاً، وإلّا لإخْتَلفوا فِيك تَمَاماً كَمَا اخْتَلفوا فِي الّذين قَرنُوك، وأخرُوك[٣].

---

(١) أنظر، سُنن التِّرمِذي: ٥ / ٢٠ ح ٣٨٠٤. مشكاة المَصَابِيح: ٣ / ١٧٢٠ ح ٦٠٨٤. صَحِيح البُخَاريّ: ٢ / ٢٩٩، و: ٥ / ٣٠٠ / ٣٨٠٤ و ٦٣٦ / ٣٧٢٠. جامع التِّرمِذي: ٢ / ٢١٣. مصابيح السّنّة للبغوي: ٢ / ١٩٩ ومُستَدرَك الحَاكِم: ٣ / ١٤ والإسْتِيعَاب: ٢ / ٤٦٠. تيسير الوصول: ٢٧١/٣. مشكاة المَصَابيح هَامِش المرقاة: ٥ / ٥٦٩ الطّبعة الثّانِيَة، والرّياض النّضرة: ٢ / ١٦٧ و ٢١٢. تَأريخ مدينة دِمَشْق لِابْن عساكر: ١ / ١٠٩ ح ١٤٩. الإسْتِيعَاب بهَامِش الإصَابَة: ٣ / ٣٥. مُسْنَد أحمد: ١ / ٢٣٠.

(٢) أنظر، نَهج البَلاغَة: الحِكْمَة (٢٧٣).

(٣) قَالَ الرَّسُول ﷺ: «أمَا تَرضَىٰ أنْ تكون منّي بِمَنْزِلَةِ هارون من مُوسَىٰ إلّا أنّه لا نبي بعدي، إنّه لا يَنْبَغي أن أذهب إلّا وأنْتَ خليفتي. أنظر، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة لِابْن حجر: ٢٩. صَحِيح البُخَاريّ: ٢ / ٢٠٠ و ٣٢٤. وروىٰ بسنده، و: ٤ / ٢٠٨، و: ١٤ / ٢٤٥ / ٣٤٧٠، و: ١٦ / ٢١٧ / ٤١١٥ بشرح الكرماني. صَحِيح مُسْلِم فِي فَضَائِل عليّ: ٣٢٤. المُسْتَدرَك لِلحَاكِم النّيسابوري: ٣ / ١٠٩. مُسْنَد ابْن ماجه: ١ / ٢٨. مُسْنَد الإمَام أحمد: ١ / ١٧٥ و ١٧٧ و ١٧٩ و ١٨٢ و ٣٣١ و ٣٦٩. كنز العُمّال: ٦ / ١٥٢ ح ٢٥٠٤. وتلخيص الحافظ الذّهبي عَلَىٰ المُسْتَدرَك: ٣ / ١٣٣. وخصائص النّسائي: ١٧. والإصَابَة لِابْن حجر: ٤ / ٥٦٨.

⇔ ويَنَابِيع المَوَدَّة للقندوزي: ٢/ ٥٨.

حديث الْمَنْزِلَة:

وحديث الْمَنْزِلَة من الأَحَادِيث المتواترة، والمشهورة عند أَهْل الشيعة، والسُّنَّة، واعترف بصحّة سنده أكابر عُلَمَاء ٱلْمُسْلِمِين، وثقات الرّواة، ولَسْنَا بصدد بَيَان ما فِيهِ من ٱلأدِلَّة القاطعة والبراهين السّاطعة فِي كَيْفِيَّة إنزال الإِمَام عليّ عليه السلام بِمَنْزِلَةِ هارون من مُوسَىٰ ولم يستثنِ من جَمِيع المنازل إلاّ بِمَنْزِلَةِ النُّبوّة. ولَسْنَا أيضاً بصدد الدفاع عَن الْحَدِيث عند المشككين فِي أسانيده كالآمدي مثلاً، والكرماني، وابن تيمية، والجاحظ وغَيْرهم وذَلِكَ لأنّ مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيلَ أبو عبدالله البُخَاريّ (١٩٤ ـ ٢٥٦ ه‍) هُو الرّاوي له عَن سعد بن أَبِي وَقَّاص ولَوْلاَ ثبوته عنده لما رواه. وصرّح الذّهبي بصحّته فِي تلخيص الْمُسْتَدرَك، وذكره ٱبْن حجر الهيتمي فِي صواعقه.

ومُعَاوِيَة نَفْسه الَّذي أسّس سبّ ولعن الإمَام عليّ عليه السلام عَلَىٰ منابر ٱلْمُسْلِمِين لم يجحد هَـذَا الْحَـدِيث، وقصّته مع سعد بن أبي وَقّاص أشهر من أنْ تذكر عندما قَالَ لسعد: ما منعك أنْ تسبّ أبا تراب؟ فَقَالَ سعد: أما ذكرت ثلاثاً قالهنّ له رَسُول الله صلى الله عليه وآله فلن أسبّه لأنّ تكون لِي وَاحِدَة مِنْهَا أحبّ إِلَيّ من حُمُر النَّعَم، سمعت رَسُول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي وقد خلفه فِي بَعْض غَزَوَاته: أَمَا تَرْضَىٰ أنْ تكون منّي بِمَنْزِلَةِ هارون من مُوسَىٰ إلاّ أنّه لا نُبُوّة بعدي. بل إنّ مُعَاوِيَة نَفْسه حدّث بحديث الْمَنْزِلَة عندما سَأله سائل عَن مسألةٍ ما فَقَالَ مُعَاوِيَة للسائل: سل عَنْهَا عَلِيّاً فَهُوَ أعلم. قَالَ السّائل جوابك فِيْهَا أحبّ إليّ من جواب عليّ، قَالَ مُعَاوِيَة: بئس ما قلت، لقد كرهت رجلاً كَانَ رَسُول الله صلى الله عليه وآله يغرّه بالعلم غرّاً، ولقد قَالَ له: أَنْتَ منّي بِمَنْزِلَةِ هارون من مُوسَىٰ إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي. (أنظر الصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة: ١٠٧ المقصد ٥ باب ١١).

وروىٰ الْحَدِيث بطرق عديدة وعَن جَمَاعَة من الصَّحَابَة مِنْهُم: سعد بن أبي وَقَّاص، والبرّاء بن عازب، وأبو هريرة، ومُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَانَ، وزَيد بن أرقم، وأُمّ سلمة، وأُمّ سليم بنت ملحان بن خالد الأَنْصَارية ـ أُخت حرام بن ملحان ـ ٱسْتُشْهِدَ أبوها وأخوها بَيْنَ يدي رَسُول الله صلى الله عليه وآله وَهِي أُم أنس خادم رَسُول الله صلى الله عليه وآله، ورواه حبشي بن جنادة، وجابر بن عبدالله الأَنْصَاري، وعُمَر بن الخَطَّاب، وعبدالله بن عُمَرَ، ومالك بن الحويرث، والإمَام عليّ بن أبي طالب، وأنس بن مالك، وأبو أيوب الأَنْصَاري، وعبدالله بن عبّاس، وزيد بن أبي أوفى، ونبيط بن شريط، وفاطِمَة بنت حَمْزَة، وأبو بردة، وجابر بن سَمُرَة، وعبدالله بن مسعود، وأسماء بنت عميس، وأبو سعيد الخدري، وٱبْن أبي ليلىٰ، وعامر بن سعد بن أبي وَقَّاص،
⇔

↩ وإبْرَاهِيم بن سعد بن أبي وَقَّاص، وغيْرهم كثير.

وروي فِي أكْثَر من ١٠٥ كتاب أعظم محدّثي أهْل السّنّة كما قَالَ الأمِيني فِي مراجعاته: ١٣٩، وأعيان الشّيعة: ٣٧١/١، وغَايَة المرام للمحدّث البحراني المقصد الأوّل ب ٢١. وطرق سعد كَثِيرَة ذكرها ٱبْن خثيمة، فِي الاسْتِيعَاب بهَامِش الإِصَابَة: ٣٤/٣: أَنْتَ منّي بِمَنْزِلَةِ هارون من مُوسَىٰ. ورواه عَن سعد ٱبْنِهِ إبْرَاهِيم وعَائِشَة بنت سعد ومُصْعَب بن سعد وسعد بن المسيّب، وأبو عبدالله بن سعد وعبدالله بن بديل كلّهم عَن سعد. وروي فِي مناسابات عدّة كغَزْوَة تبُوك وَهِي العمدة وخيبر، وسدّ الأبواب والمؤاخاة الأُولَىٰ، والثَّانِيَة، والمعراج، والْغَدِير، وتَفْسِير ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ وأتكاء الرَّسُول ﷺ عَلَىٰ عليّ، وزيارته لأُم سليم وتسميتة للحسنين عليهما السلام وروي بألْفَاظ مختلفة من التّقديم والتّأخير والزّيادة والنّقص حسب ٱلْوَاقِعَة. فتارة «أَنْتَ منّي بِمَنْزِلَةِ هارون من مُوسَىٰ إلّا أنه لا نبيّ بعدي كما فِي المناقب لِابْن المغازلي: ٣٣ ح ٥٠. وتارةً أُخرىٰ «أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تكون منّي بِمَنْزِلَةِ هارون من مُوسَىٰ» كما فِي صَحِيح البُخَارِيّ بشرح الكرماني: ٣٤٧٠/٢٤٥/١٤. وتارةً ثالثة «أَنْتَ منّي كهارون من مُوسَىٰ» كما فِي تَارِيخ دِمَشْق: ٣١٢/١ ح ٣٧٤. وتارةً رابعة «إنّما عليّ منّي بِمَنْزِلَةِ هارون من مُوسَىٰ إلّا أنّه لا نبيّ بعدي» كما فِي تَارِيخ دِمَشْق: ٣٣٠/١ ح ٣٩٩. وتارة خامسة «هَذَا عليّ بن أبي طالب لحمه لحمي ودمه دمي وهُو منّي بِمَنْزِلَةِ هارون من مُوسَىٰ إلّا أنّه لا نبيّ بعدي» كما فِي فرائد السِّمطِين: ١٤٩/١ ح ١١٣، سُنَن التِّرمِذي: ٥٩٨/٥ ح ٣٧٣٠، ومن شاء فليراجع إلىٰ المصادر التّالية عَلَىٰ سَبِيل المثال لا الحصر:

صَحِيح البُخَارِيّ: ٣٤٧٠/٢٤٥/١٤، و: ٤١١٥/٢١٧/١٦ بشرح الكرماني، و: ٧١/٤ ط بمبي، و: ٢٠٨/٤ ط دار الْفِكْر، و: ١٩/٥ ط الأميرية، و: ٣٧/٥ و ٢٤ ط بمبي و ٥٤/٣ ط الميمنية، و: ٣/٦ ط مُحَمَّد عليّ صبيح، وكَذَلِكَ ط الفجالة، و ٦١ ط الشّرقية، و ٨٦ ط إحياء الكتب، و ٣ ط مطابع الشّعب، و ٦٣ ط الخيرية، و ٥٨ ط المعاهد، ١٢٩/٥ ط دارالْفِكْر. وراجع صَحِيح مُسْلِم: ٣٦٠/٢ ط عِيسَىٰ الحلبي، و: ٣٢٣ و ٣٢٤ باب الفَضَائِل، و: ١٢٠/٧ ط مُحَمَّد عليّ صبيح، و: ١٨٧٠/٤ ح ٣٠، روي بسنده عَن سعيد بن المسيّب عَن عامر بن سعد بن أبي وَقَّاص عَن أبيه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ لعلي: أَنْتَ منّي بِمَنْزِلَةِ هارون من مُوسَىٰ إلّا أنّه لا نبيّ بعدي. قَالَ سعيد: فأحببت أنْ أشافه به سعداً فلقيت سعداً فحدّثته بِمَا حدّثني عامر فَقَالَ: أنا سمعته، فقلت: أَنْتَ سمعته؟ فوضع أُصْبعَيه عَلَىٰ أُذنيه فَقَالَ: نعم وإلّا فأستكتا.

↩

↔ ورواه أيضاً فِي كتاب الفَضَائِل بسنده عَن عامر بن سعد بن أبِي وَقَّاص عَن أبيه فِي قصّته مَع مُعَاوِيَة وطلب مُعَاوِيَة مِنْهُ ـ سعداً ـ أنْ يسبّ عَلِيّاً. وراجع تَأرِيخ دِمَشْق لِابْن عساكر ترجمة الإِمَام عليّ عليه السلام: ٣١٢/١ رقم ٣٧٤ بسنده عَن الزّهري عَن عامر بن سعد، وص ٢٠٦ ح ٢٧١ و ٢٧٢، و ٣٣٩ ح ٤١٠ و ٤١١ الطّبعة الأُولَىٰ، و ٣٦٩ ح ٤١٠ و ٤١١ الطّبعة الثّانِيَة بيروت، و: ١ ح ٣٠ و ١٢٥ و ١٤٨ ـ ٢٥١ و ٢٧١ ـ ٢٧٤ و ٢٧٦ ـ ٢٨١ و ٣٢٩ و ٣٣٠ و ٣٣٦ ـ ٤٥٦ الطّبعة الأُولَىٰ بيروت، و ٧٨ ح ١٢٥ و ٤٠٦، وص ٣٣٨ ح ٤٠٩، وحديث ٣٣٩ مروي عَن طريق عُمَر بن الخَطَّاب عندما سمع رجلاً يشتم عَلِيّاً كَانَتْ بينه وبينه خصومه، فَقَالَ له عُمَر بن الخَطَّاب: إنّك من ٱلْمُنَافِقِين، لقد سمعت رَسُول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّما عليّ منّي بِمَنْزِلَةِ هارون من مُوسَىٰ إلّا أنّه لا نبيّ بعدي.

وروىٰ الحَدِيث أحمد بن حنبل فِي مُسْنَده: ١٧٣/١ و ١٧٥ و ١٧٧ و ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٥ و ٣٣١، و ٩٤ ح ١٦٠٠ ط آخر، و ٩٧ ح ١٦٠٨، و: ٢٥/٥ ح ٣٠٦٢ ط دار المعارف بِمِصْر، و: ٣٦٩/٦ و ٤٣٨، و: ٣٢/٣، و ٥٠ ح ١٤٩٠، و ٥٦ ح ١٥٠٥، و ٥٧ ح ١٥٠٩، و ٦٦ ح ١٥٣٢، و ٧٤ ح ١٥٤٧، و ٨٨ ح ١٥٨٣ ط آخر. وروي فِي صَحِيح ٱبْن ماجه: ٢٨/١ و ٤٢ ح ١١٥ و ١٢١ ط دار إحياء الكتب. تَأرِيخ الخُلَفَاء للسيوطي: ٦٥ و ١٦٨ مُسْتَدرَك الحَاكِم: ٣٣٧/٢، و: ١٠٩/٣، الصَّوَاعِق ٱلْمُحْرِقَة: ١٧٧ ط ٱلْمُحَمَّدية و ١٠٧ المقصد الخامس ب ١١. شواهد التّنزيل: ١٥٠/١، و: ٢١/٢ ح ٢٠٤ و ٢٠٥ تحقيق الشّيخ المحمودي. مرآة الجنان لليافعي: ١٠٩/١ ط بيروت. العقد الفريد: ٣١١/٤ و ١٠٠/٥ ط لجنة التّأليف بِمِصْر، و: ٢٧٩/٢، و: ٤٨/٣ ط العُثْمَانِيَة.

وأنظر كنز ٱلْعُمّال: ١٣٩/٥ ـ ٤٠٣/١٣٩ و ٤٠٤ و ٤١٠ و ٤١١ و ٤٣٢ و ٤٨٧ الطّبعة الثّانِيَة. أَنْسَاب الأَشْرَاف للبلاذري: ١٠٦/٢ ح ٤٣، وص ٩٢ ح ٨ و ١٥ ـ ١٨ ط آخر. خصائص النّسائي ٤٨ و ٧٦ ـ ٨٥ ط الحيدرية، و ١٠٦ ح ٤٥ ـ ٤٨ و ٦١ ط بيروت. وذَخَائِر ٱلْعُقْبَىٰ: ٦٣ و ٦٤ و ٦٩ و ٨٧. مقتل ٱلْحُسَيْن للخوارزمي: ٤٨/١ و ١٤٩. ٱلْمُعْجَم ٱلصَّغِير للطبراني: ٢٢/٢ و ٥٤. الإِسْتِيعَاب بهامِش الإِصَابَة: ٣٤/٣ و ٣٥. مَجْمَع الزّوائد: ١٠٩/٩ ـ ١١١ و ١١٩. إسعاف الرّاغبين بهامِش نور الأَبْصَار: ١٤٨ و ١٤٩ ط السّعيدية و ١٣٤ و ١٣٦ ط العُثْمَانِيَة. نظم درر السّمطين: ٩٥ و ١٠٧.

وراجع صَحِيح التِّرمِذي: ٣٠١/٥ ح ٣٨٠٨ صحّحه وح ٣٨١٣ وصحّحه أيضاً وح ٣٨١٤ حسّنه ط دار ٱلْفِكْر. أُسد الغَابَة: ٢٧٢٥/٤، و: ٨/٢ ط آخر. الإِصَابَة لِابْن حجر: ٥٠٩/٢ و ٥٠٧. كفاية ↔

(ولَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَ طِرْتُ إِذْ طَارُوا). لأنّ المُنَافسة بَيْنَ الْقَوْم كَانَتْ عَلَىٰ الأَلْقَاب، والمَنَاصب، والفُرص غَيْر مُتكافِئة، والظّرُوف غَيْر مؤاتِية لِلإمَام كِي يَردع المُخالِفِين عَن اَلْبَاطِل، ويَرجعهم إِلَىٰ الْحَقّ، فكَان السُّكُوت لمَصلحته، وصَالح اَلْمُسْلِمِين... ولَكِنَّهُ كَانَ عَلَيْهِمْ رَقِيباً يُحَاسبهم، ويُرشدهم للَّتي هِي أَقوَم، والإنْصَاف أنّ أبا بَكْر، وعُمَرَ كَانا يَسْمعَان مِنْهُ، ويَرجعَان إِلَيْهِ فِي الكَثِير مِن المُهِمّات، أَمّا عُثْمَان فَقد كَانَتْ لهُ شيَاطِين لا شَيْطَان وَاحد يقُودهم مَرْوَان بن الحَكم، الْحَاكِم بأَمْرِه.

⇐ الطّالب: ٨٤ ـ ٨٦ ط الحيدرية و٢٨ و٧٠ ط الغري و ٢٨١ ـ ٢٨٥ و ٢٨٧ ط الحيدرية، و ١٤٨ ـ ١٥٣ ط الغري، المناقب للخوارزمي: ١٩ و ٢٤ و ٥٩ و ٦٠ و ٧٤ و ٧٦ و ٨٣ و ٨٤ و ٨٦ و ١٣٠ و ٢١٤.

وأُنظر أيضاً فرائد السّمطِين: ١ / ١٢٢ و ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٥٠ و ٣١٧ و ٣٢٩، و ٣٧١، و ٣٧٨ ط آخر، الرّياض النّضرة: ٢ / ٢١٤ ـ ٢١٦ و ٢٤٧ و ٢٤٨ الطّبعة الثّانية، جامع الأُصُول لِابْن الأَثِير: ٩ / ٤٦٨ و ٤٦٩. يَنَابِيع المَوَدَّة: ٣٥ و ٤٤ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١ و ٥٥ ـ ٥٧ و ٦٣ و ٨٠ و ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٢٩ و ١٣٠ و ١٧٦ و ١٨٣ و ١٨٥ و ٢٠٤ و ٢٢٠ و ٢٣٤ و ٢٥٤ و ٤٠٨ و ٤٩٦ ط اسلامبول، حلية الأَوْلِيَاء: ٧ / ١٩٤ ـ ١٩٧، الإسْتِيعَاب بهَامِش الإصَابَة: ٣ / ٣٤ و ٣٥، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٣ / ١٠٤، المناقب لِابْن المغازلي: ٣٤ ح ٥٢ ط طهران، و ٢٧ ح ٤٠ ـ ٣٠٣ الطّبعة الأُولَىٰ طهران.

وراجع كَذَلِكَ شَرْح النَّهج لِابْن أبي اَلْحَدِيد: ٢ / ٤٩٥ و ٥٧٥ و ٣ / ٢٥٥ ط مِصْر تحقيق أبو الفَضْل، و: ٤ / ٢٢٠ ط مِصْر، و: ٩ / ٣٠٢، و: ١٠ / ٢٢٢، و ١٨ / ٢٤، إرشاد الشّيخ المفيد: ١٤١ الفصل ٤٣ من البَاب ٢، ميزان الإعْتِدَال: ٣/٢، تَفْسِير العيّاشي: ١ / ٣٣٢ ح ١٥٣ ط قم، مصابيح السّنّة للبغوي: ٢ / ٢٧٥ ط مُحَمَّد عليّ صبيح، إثبات الهداة للحرّ العاملي: ٣ باب ١٠ ح ٣٧٦ و ٢٤٣ ط طهران وح ٦١٩ و ٦٦١ و ١٠٨ ط آخر، اَلْفَتْح الْكَبِير للنبهاني: ١ / ٢٧٧، و: ٣ / ٣٩٨.

وراجع أيضاً أمالي الشّيخ الطّوسي: ١ / ٤٩ و ٨٥، مشكاة المَصَابِيح: ٣ / ٢٤٤، الجَامِع الصَّغِير للسيوطي: ٢ / ٥٦، مُنْتَخَب كنز العُمَّال بهَامِش مُسْنَد أحمد: ٥ / ٣١ و ٥٣ و ٥٥، إحقاق الحَقّ: ٥ / ١٣٣ الطّبعة الأُولَىٰ طهران، علل الشّرايع للصدوق: ١٣٧ و ١٣٨، بحَار الأَنْوار: ٣٧ / ٢٥٤ و ٢٥٦ و ٢٥٧ ط الجديد و ٢٠٦ و ٢٦٠، و: ٣٨ / ٣٣٤ ح ٧ و ١١ و ١٨ ط الجديد و ٤٣ ح ١٨ ط الجديد.

(فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ). وهُو سَعد بن أبي وَقَّاص، وكَانَتْ أُمّه أُموية، والإِمَامعليه السلام قاتَل الأُمويين مَع رَسُول الله، وقَتل صنَادِيدهم عَلَىٰ الشّرك، ومُحاربة الرَّسُول، الحِقد الَّذي عِند سَعد عَلَىٰ الإِمَام جَاء مِن قِبل أخوَاله الّذين قَتلهم الإِمَام (وَ مَالَ ٱلآخَرُ لِصِهْرِهِ). والآخَر هُو عَبدٱلرَّحْمَان بن عَوف، وكَانَ زوّجاً لأُخت عُثْمَان (مَعَ هَنٍ وَ هَنٍ) أي أغرَاض أُخرىٰ لا يُريد الإِمَام ذِكرها، ومِن حِكَمِهِ: «لاَ تَقل ما لاَ تَعلم، بَل لاَ تَقل كلّ مَا تَعلم»[1].

(إِلَىٰ أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ -أي عُثْمَان- نَافِجاً حِضْنَيْهِ، بَيْنَ نَثِيلِهِ وَ مُعْتَلَفِهِ، وَ قَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خِضْمَةَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَىٰ أَنِ انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَ أَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَ كَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ!). وَندع الكَلاَم عَن عُثْمَان للسُّنة أنفسهم، قَالَ ٱبن قُتَيْبَة، وأبُو الفدَاء: إِنَّ عُثْمَان ٱقطَع فَدَكاً لمَرْوَان، وهِي صَدقة الرَّسُول الَّتي طَلَبتها فَاطِمَة[2].... وكَانَ الحَكم بن العَاص عمّ عُثْمَان، ومِن أَشَد النَّاس عَدَاءً، وإِيذَاءً لِرَسُول الله صلى الله عليه وآله، وكَانَ قَد طَرده، وَنفاه، فَرده عُثْمَان، وأغدَق عَلَيْهِ الأَمْوَال، ووَلاَّهُ، وأَعْطَاه فِيما أَعطَاه ثَلاَثمئة ألف دِرهم مِن أَمْوَال ٱلْمُسْلِمِين فِي عَطِيَّة وَاحِدَة كَما قَالَ البلاَذُري[3].

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٤/٩١ ٱلحِكْمَة (٣٨٢)، عيون الحكم والمواعظ: ٥٢٦، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْن أَبي ٱلحَدِيد: ١٩/٣٢٣، دستور مَعَالِم الحكم لِابْن سلامة: ٧٢.

(٢) أُنظر، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/٣٥، المعارف: ١٩٥، تَأريخ أَبي الفداء: ١/١٦٩، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٥/٢٥، العقد الفريد: ٣/٧٧، و: ٤/٢٨٣ طَبْعَة أُخرىٰ، الْفُتُوح لِابْن أَعْثَم: ١/٣٥، سُنَن البَيْهَقِيّ: ٦/٣٠١، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْن أَبي ٱلحَدِيد: ١/١٩٨، وفاء الْوَفَاء: ٣/١٠٠٠، سُنَن أَبي داود: ٢/٤٩، تَأريخ اليعقوبي: ٢/٢٢٣.

(٣) أُنظر، أَنْسَاب الأَشْرَاف للبلاذري: ٥/ ٢٥ ـ ٢٩.

وأَعْطىٰ مَرْوَان بن الحَكَم، وهُو زَوّج ٱبْنَته، خَمسمِئَة ألف دِينار فِي يَوْم وَاحد وأَعْطَىٰ الحَارث أَخَا مَرْوَان وزوج ٱبْنَة عُثْمَان، أَعْطَاه ثَلاَثمِئَة ألف دِرهم، وَإبل الصَّدَقَة وسُوق الْمَدِينَة[1]. وجَاء فِي «العِقد الفَرِيد» إنّه أعْطىٰ عبدالله بن خَالد الأُموي أَرْبَعمئة ألف[2]. وفِي شَرح بن أبي ٱلْحَدِيد: أعْطَىٰ عُثْمَان أَبا سُفْيَانَ مِئتي ألف[3]. وفِي «ٱبن الأَثِير»: أعطىٰ عَبدالله بن أبي سَرح مِئة ألف دِينار[4].

وَقَالَ السَّيِّد قُطب: «والأَمْثِلة كَثِيرَة عَلَىٰ توسعَات عُثْمَان فَقَد مَنح الزُّبَيْر سِتمئة ألف، وطَلْحَة مِئتي ألف، وَقَالَ لهُ زَيد بن أرْقَم خَازن أَمْوَال ٱلْمُسْلِمِين: أَظن أنّك تَأخذ هَذَا ٱلْمَال عِوَضاً عمّا كُنت تنْفقه فِي عَهد رَسُول الله ﷺ.. وكَانَتْ توسعَات عُثْمَان تَغدق عَلَىٰ الْوُلاَة مِن قرَابته، فَقَد وَسّع عَلَىٰ مُعَاوِيَة فِي مُلكه، فَضم إلَيْهِ فِلسْطِين، وَحِمص. وآوىٰ عَمّه الحَكم بن العَاص طَرِيد رَسُول الله، وَجَعل ٱبْنِه مَرْوَان وزِيره المُتصرف. وكَانَ الصَّحَابَة يرون هَذِه التّصرفات خَطِيرة ٱلْعَوَاقِب، فَيتدَافعُون إلَىٰ الْمَدِينَة لإنقَاذ تقَالِيد ٱلإسْلاَم ـ إلَىٰ أنْ قَالَ ـ ولاَ بُد لِمن يَنظر إلَىٰ الأُمُور بِعَين ٱلإِسْلاَم، وَيَسْتَشعر الأُمُور برُوح ٱلإِسْلاَم، أنْ يُقرر أنّ الثّورة عَلَىٰ

(١) أُنظر، الرّياض النّضرة: ١٤٣/٢، الأنساب للبلاذري: ٢٧/٥، مرآة الجنان لليافعي: ٨٥/١، الصّوَاعِق المُحْرِقَة: ٦٨، السّيرَة الحَلَبية: ٨٦/٢، الطَّبَقات الكُبْرَىٰ: ٤٥٧/٥ و ٤٩٩، تَأريخ مدينة دِمَشق: ٣٢١/٣٤، تَأريخ المَدِينَة: ١٠٩١/٣، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٣٨٢/٣، شَرْح نَهج ٱلبَلاَغَة لاِبْن أبي الحَدِيد: ٥٤/٣.

(٢) أُنظر، العقد الفريد: ٧٧/٣، و: ٢٨٣/٤ طَبْعَة أُخرىٰ

(٣) أُنظر، شَرْح نَهج ٱلبَلاَغَة لاِبْن أبي ٱلحَدِيد: ٦٧/١ و ٢٦٩، شَرْح نَهج ٱلبَلاَغَة لِمُحَمَّد عَبْدَه: ٤٦/١..

(٤) أُنظر، الكَامِل فِي التَّأريخ: ٢٤٩/٢ ـ ٢٥١ و: ١١٤/٣، البداية والنِّهَايَة: ٢٥٠/٧، الاِسْتِيعَاب: ٩١٨/١، الإصَابَة: ١٠٩/٤، المعارف: ١٣١ و ١٤١، تَأريخ اليعقوبي: ١٤٥/٢، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٤٩/٥ ـ ٥١، تَأريخ ٱبْن كثير: ١٥٧/٧، النّجوم الزّاهرة: ٩٤/١ ـ ٩٧، أُسد الغَابَة: ١٧٣/٣.

عُثْمَان كَانَتْ فِي عمُومها مِن رُوح ٱلإِسْلاَم»[١].

وَمَع هَذَا قَالُوا: كَانَ عُثْمَان مِن الخُلَفَاء الرّاشدِين، أَمَّا السّر ـ فِيما نَظن ـ فَهِيَ خِلاَفة عَلِيّ بَعد عُثْمَان، لأنّ مَا مِن أحدٍ يَجرؤ عَلَىٰ القَوْل: إنَّ عَلِيّاً لَم يَكُنْ رَاشداً فِي خِلاَفته، وَصَعب عَلَيْهِمْ أَنْ يَعدوا عَلِيّاً مِن الرّاشدِين دُونَ عُثْمَان، فأَلحقُوه بِهِمْ عَلَىٰ عِلاّته.. ولو أنّ أحداً تَوَلَّىٰ ٱلْخِلاَفَة بَعد عُثْمَان غَيْر عَلِيّ لحصر الرُّشد بأَبِي بَكْـر، وعُمَرَ فَقط.

عَفْطَةُ عَنْز..فِقْرَة ٥ ـ ٦:

(فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ وَ النَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ، يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّىٰ لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ، وَ شُقَّ عِطْفَايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ. فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ، وَ مَرَقَتْ أُخْرَىٰ، وَ قَسَطَ آخَرُونَ: كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَايُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢] بَلَىٰ! وَ اللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا، وَ وَعَوْهَا، وَ لَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا[٥]!

أَمَا وَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَ بَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْ لاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَ قِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَ مَا أَخَذَ اللهُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَىٰ كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَ لاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَىٰ غَارِبِهَا، وَ لَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَ لَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ[٦]!).

---

(١) أُنظر، العَدَالة الاجتماعية لسيد قطب: ٢١٠، طَبْعَة ١٩٦٤م. (مِنْهُ ﷺ).

(٢) ٱلْقَصَص: ٨٣.

اللُّغَة:

عُرْف الضَّبُع: مَا كَثر عَلَىٰ عُنقهَا مِن الشَّعر، وهِي حيوَان مُفترس. ويَـنْثَالُون: يَتتَابعُون مُزدَحِمِين. وَشُقّ: جُرِح، أو خَدش. وعِطْفَاي: جَانبَاي. ورَبضَة الدّابة: بَركت. وَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ: القِطعة الرّابضَة مِن الْغَنَم. ونَكَثَتْ العَهد: نَقَضه ولَم يَفّ بِهِ، والنَّاكِثُون: علَم عَلَىٰ أَصْحَاب الْجَمَل، وهُم عَائِشَة، وطَلْحَة، والزُّبَيْر. وَمَرَق مِن الدِّين: خَرَج مِنْهُ بِبِدْعَة فهُو مَارق، والْمَارِقُون: عـلَم عَـلَىٰ الْخَـوَارِج أَصْـحَاب النَّهْرَوَان. وَقَسط الْوَالِي: جَار، أو عَدل، والْقَاسِطُون بِمَعْنَىٰ الْـفَاسِقِين عـلَم عَـلَىٰ أَصْحَاب صِفِّين الّذين حَارَبُوا الإِمَام عليّ عليه السلام بقيَادة مُعَاوِيَة، وعَمْرُو بن العَـاص. وحَلِي الشّيء فِي عَيني فُلاَن: أَعْجَبه. وَرَاق الشّرَاب: صَفَا. والزِّبْرِج ـ بِكَسر الزَّاء ـ الزِّينَة. وفَلَقَ الْحَبَّة: شَقَّها. وَبَـرَأَ النَّسَـمَةَ: خَـلَقها. أَلاَّ يُـقَارُّوا: أنْ لا يـقرُوا وَيَسكنُوا. والْمُرَاد بِكِظَّةِ ظَالِمٍ اعتدَاؤه عَلَىٰ حقُوق النَّاس، وَ لاَسَغَبِ مَظْلُوم هَضم حُقُوقِه. والغَارِب: العُنق أو أَعلَىٰ الظَّهْر مِمَّا يَلِي العُنق. وَيُرِيد بعَفْطَةِ العَنْز المُخَـاط الّذي تَنْثره فِي أنْفها عِند العِطَاس.

الإِعْرَاب:

فَاعِل رَاعَنِي مَحْذُوف أي شَيء، أو رَايع. والنَّاسُ الوَاو للـحَال، وإِلَيَّ مُـتَعَلِّق بِمَحْذُوف حَال مِن النَّاس أي مُتزَاحِمِين إِلَيَّ، ومُجْـتَمِعِينَ حَال ثَانِيَة. وبَلَىٰ! حَـرف جوَاب تَبطل النّفي، وَقَد أَبْطَلت «لَم يسمِعُوَا». و «أَمَا» حَرف اَستفْتَاح.

الْمَعْنَىٰ:

(فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ وَ النَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ، يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّىٰ لَقَدْ

وُطِئَ الْحَسَنَانِ، وَ شُقَّ عِطْفَايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ). غَضب ٱلْمُسْلِمُون عَلَىٰ عُثْمَان، وأفعَاله، ورغبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَصلح، ويَعدل، وَلاَ يُحَابِي أحداً فِي حقّ الله، ولاَ يَصغي لمَرْوَان، وأمثَاله مِن أربَاب الْأَغْرَاض، والأهوَاء، ولكن قَعد بِهِ الضَّعْف أمَام ذَويه، وأرحَامه، فَعرض عَلَيْهِ كَثِيرُون أَنْ يَعتزل، ولمّا رَفض ثَاروا عَلَيْهِ، وَقتلُوه. وبطَبِيعَة الحَال تَألم لقَتله قَوْم، وهُم الّذين كَانوا يَسْتغلُونه، وَيَنْتَفعُون مِنْهُ، ومِن خِلاَفَته، وفَرح آخرون، وفِي طَلِيعتهم طَلْحَة، والزُّبَيْر... قَالَ المُؤرخُون: «كَانَ طَلْحَة يُحرض الثّائرين عَلَىٰ عُثْمَان طَامعاً فِي وِلاَيَة الْأَمْر مِن بَعده، وأنّ الزُّبَيْر لَم يَكُنْ أقل طمُوحاً إِلَيْهَا مِن طَلْحَة، ومِن أَجل هَذَا كَانَ هوَاه مَع الثّائِرين، ولَكِنَّهُ لم يَتظَاهر»[1].

وَبَعد أَنْ قُتل عُثْمَان وَقُضي الْأَمْر ذَهب الثّائرون إِلَىٰ الْإِمَام ليُبَايعُوه بِالْخِلاَفَةِ فَرَفض، ولمَّا أَلحوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ: «دَعُونِي وَ ٱلْتَمِسُوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ، وَ أَلْوَانٌ، لاَ تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَ لاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ. وَ إِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَ الْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَ ٱعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَ لَمْ أُصْغِ إِلَىٰ قَوْلِ الْقَائِلِ، وَ عَتْبِ الْعَاتِبِ، وَ إِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَ لَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ، وَ أَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَ أَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً»[2]!

---

(١) أُنظر، ٱلْفَتْح الرّبانيّ: ١١٢/٢٣، العقد الفريد: ٧٣/٣، تَأرِيخ الطّبَريّ: ٣٥/٥ و ١٢٢، الأنساب للبلاذري: ١٣٥، صفوة الصّفوة لِابْن الجوزي: ١٣٢/١، جواهر المطالب فِي مناقب الإِمَام عليّ لِابْن الدّمَشْقي: ١٨٩/٢، الرّياض النّضرة: ٢٥٩/٢، مروج الذّهب: ١١/٢، العقد الفريد: ٢٧٩/٢، أُسد الغَابَة: ٦١/٣، دول ٱلْإِسْلاَم للذهبي: ١٨/١، الكَامِل لِابْن الأثِير: ١٠٤/٣، شَرْح النَّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٤٠٤/٢.

(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٩٢).

قَالَ هَذَا لِيَدفعهم عَنْه، ولَو قَبلها مِنْهُم وحدَهم لقَال النَّاس: «مَا بَايعهُ أحـد مِـن ٱلْمُسْلِمِين إلاّ قَتَلَة عُثْمَان، وإنَّ بَيْعَة عليّ كَانَتْ فَلتة نَتِيجة للظرُوف، والمُفاجآت.. وأيضاً لو وَلِيهم الإِمَام عليه السلام لحَملهم عَلَىٰ الْحَقّ الوَاضح، والْحَجَّة الْبَيْضَاء كـمَا قَـالَ ٱلْخَلِيفَة الثَّانِي[1]، الْحَقّ مُرّ المَذاق، وثَقِيل عَلَىٰ أنْفسهم، وبالتَّالي يَرون شِدَّة عَليّ فِي الْحَقّ، وقُوَّتِه فِي الْعَدْل شرّاً عَلَيْهِمْ لا خَيراً، وقَول الإِمَام عليه السلام مُنزّل عَلَىٰ رَأيهم هَذَا لا عَلَىٰ الوَاقع، وإذَنْ فَلا وَجه للتَّشكِيك فِي نِسبة هَذَا القَوْل إلَىٰ الإِمَام كمَا فَعل بَعْض الشّارِحِين، فـإنّ لكـلّ مـقَال مـقَاماً، وقَـبل الإِمَـام عليه السلام قَـالَ خَـاتم النَّـبِيِّين صلى الله عليه وآله لِلمُشرِكِين: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

ثُمَّ جَاء الْمُهَاجِرُون، والأَنْصَار يَرجُون عَلِيّاً ويَلحُون عَلَيْهِ أنْ يَقبل ٱلْخِلاَفَة لِيلم شَعث ٱلْمُسْلِمِين، ولأنّه هُو الرَّجُل الوَحِيد الَّذي كَانَ يُعبر عَـن رَغـبة النَّـاس فِي ٱلْحَيَاة الحُرَّة ٱلْكَرِيمَة، فَلم يَر بُداً مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُد، قَالَ الدّكتور طَه حُسين: «وأدَار كلّ مِنْهُم الأَمْر بَيْنه وبَيْنَ نَفْسه، وَبَيْنهُ وبَيْنَ مَن ٱستطَاع أنْ يَلقىٰ مِن أَصْحَابِه. فإذَا هُم يَميلون إلَىٰ عَليّ ويُؤْثرُونه عَلَىٰ صَاحِبِيه.

وكَذَلِكَ أقْبَلوا ـ أي الْمُهَاجِرِين، والأَنْصَار ـ عَلَىٰ عَليّ يَعرضُون عَلَيْهِ الإِمَامَة، ويُلحُون عَلَيْهِ فِي قَبُولها، وحَاول عليّ أنْ يَمتنع، فَلم يَجد إلَىٰ الإِمْتنَاع سَبيلاً، قَد وَقَد رَفض عليّ ٱلْخِلاَفَة حِينَ قدّمها إلَيْهِ الثَّـائرُون، وهَـؤُلاء الْمُـهَاجِرُون، والأَنْـصَار يَعرضُونها عَلَيْهِ، ويَريدُون أنْ يُبَايعُوه كمَا بَايعُوا مِن قَبله. وَجَلس للبَيْعَة عَلَىٰ مِنْبر

---

(١) أنظر، أنسَـاب الأَشرَاف: ٥/١٨، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لإِبْـن أبي ٱلْحَـدِيد: ١٢/٢٥٩، ٱلْفَتْح المبين: ٢/١٨٠، الإِسْتِيعَاب: ٣/١١٥٤، الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ: ٣/٣٤٢.

(٢) سَبَإ: ٢٤.

النَّبِيّ ﷺ . كَمَا جَلس الخُلَفَاء مِن قَبله، وأقبَل النَّاس فبَايعُوه، ولكنَّ نَفراً أبَوْا أنْ يُبَايعوا، فَلم يُلحّ عَلَيْهِمْ، وَلَم يَأذن للثَّائرين فِي إكرَاههم عَلَيْهَا. مِن هَؤُلاَء النّفر سَعدُ ٱبن أبِي وَقَّاص، وعَبدالله بن عُمَرَ»[1].

(فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ). نَقلنا قَبل لَحظة عَن المُؤرخِين أنّ هوىٰ طَلْحَة والزُّبَيْر كَانَ مَع الثّائرين عَلَىٰ عُثْمَان طَمعاً بوِلاَيَة الأَمْر مِن بَعده، ولكن المُهَاجِرين والأَنْصَار أبُوا إلّا عَلِيّاً، وتَبعهم النَّاس، وتَزاحمُوا أو تَجمعُوا عَلَىٰ الإمَام للبَيْعَة كمَا وَصفهم بقَوْله: «يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ» وتَأثر الزُّبَيْر وطَلْحَة بِهَذا الزّحام والتّجمع، وبَايعا مَع مَن بَايَعَ، ثُمّ نَدما وثَارا مَع عَائِشَةَ، أو ثَارت عَائِشَةَ مَعهُما. قَالَ طَه حُسين: «كَانَتْ عَائِشَةَ مِن أشد نِسَاءَ النَّبِيّ ﷺ إنْكَاراً عَلَىٰ عُثْمَان، وكَانَتْ تَعترض عَلَىٰ الكَثِير مِن أعمَاله حَتَّىٰ ظَنّ كَثِيرٌ مِن النَّاس أنَّهَا كَانَتْ مِن المُحرّضِين عَلَىٰ الثّورة بِه.... وكَانَتْ تُنكر عَلَىٰ عليّ فِيما ٱعْتَقد أمرين آخرين: أحَدهما لَم يَكُنْ لِعليّ فِيهِ خيَرة، فَقَد تزوّج فَاطِمَة بِنت رَسُول الله ورُزق مِنْهَا الْحَسَن والحُسَيْن، فكَان أَبا الذُّرِّيَّة البَاقِيَة للنَّبيّ ﷺ ولَم يُتح لهَا هِي الوَلد مِن رَسُول الله ﷺ.... أَمَّا الأَمْر الآخر فَهوَ أنّ عَلِيّاً قَد تَزوج أسمَاء الخَثْعميَّة بَعد وفَاة أبِي بَكْر، وأسمَاءُ هِي أُمّ مُحَمَّد بن أَبِي بَكْر الَّذي نَشأ فِي حِجر عَليّ، فكَانَتْ عَائِشَةَ

(١) أنظر، الفِتْنَة الكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه للدكتور، طه حُسين: ٨و ٩. طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م. والّذين لم يبايعوا: (سعد بن أبي وَقَّاص، وعبدالله بن عُمَرَ، وصهيب، وزَيد بن ثابت، ومُحَمَّد بن مَسْلَمَة، ومَسْلَمَة بن وقش، وأُسامة بن زَيد). كما نصّ عَلَىٰ ذَلِكَ ٱبن قُتَيْبَة فِي الإمَامَة وَالسِّيَاسَة: ٦٦/١، مروج الذَّهب: ٣٧٩/٢، البداية والنِّهايَة: ٢٢٨/٧، الفُتُوح لإبْن أعْثَم: ١٦٣ طَبْعَة قديمة، تَأريخ الطَّبَريّ: ١٥٥/٥.

تَجِد عَلَىٰ عَلِيّ هٰذا كُلّه »(١).

وكَانَ مِن قِصَّة مِن أَهْل الْجَمَل ما هُو مَعروف، وإِلَـيْهِمْ أشَـار الإِمَـام بـقَوْله: (نَكَثَتْ طَائِفَةٌ). وأخذ هَذَا الْوَصْف من أَمر رَسُول الله ﷺ له بِـقتَال النَّـاكِـثِينَ، والْقَاسِطِينَ، والْمَارِقِينَ(٢).

(وَ مَرَقَتْ أُخْرَىٰ) وَهِي الْخَوَارِج، وفِي صَحِيح الْبُخَارِيّ: إِنَّ النَّـبِيّ ﷺ قَـالَ: «الْخَوَارِج يَخرجُون عَلَىٰ خَير فُرقة مِن النَّاس»(٣).

(وَ قَسَطَ آخَرُونَ). وهُم الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ بـقيَادة اَبـن العَـاص، ومُـعَاوِيَة... وفِي صَحِيح الْبُخَارِيّ عَن رَسُول الله ﷺ، أنّ عَمَّاراً «تَقْتُلُه الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ»(٤)، وَمِثله فِي

---

(١) أُنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه: ٢٦، طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م.

(٢) أُنظر، مُسْتَدرَك الصَّحِيحِين: ١٣٩/٣ طَبْعَة حيدر آباد سَنَة ١٣٣٢ هـ، أُسـد الغَـابَة: ٣٠٣/٤، المطبعة الوهبية بِمِصْر سَنَة ١٢٨٥ هـ. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أُنظر، صَحِيح البُخَارِيّ كتاب «بدء الخلق» و: ٢٠٠/٤ و: ١٦/٩ ـ ١٧، وصَحِيح مُسْلِم كتاب «الزَّكَاة باب التَّحْذِير مِن الأغترار بزِينَة الدُّنْيا» و: ١١٢/٣، فتح القَدِير للشوكاني: ٦٤/٥، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ١١٠، فتح الباري: ٢٦٢/١٢، السّنن الْكُبْرَىٰ: ١٥٦/٥ ح ٨٥٦٠ و ٨٥٦١، خصائص أَمِير الْمُؤمِنِين للنسائي: ١٣٨ و ٣٠٥، دَلائِل النُّبوَّة للإصبهاني: ١٣٠/١، تَفْسِير القُرطُبي: ٣١٨/١٦، مناقب الخوارزمي: ٢٥٩، كنز الْعُمَّال: ٣٠٧/١١، شَرح النهج للمعتزلي: ٢٦٥/٢.

(٤) هُو أبو اليقظان عَمَّار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قَيس بن الحُصين بن الوَذِيم مِن بـني ثـعلبة، وأُمّه سُميَّة. وكَانَ حليفاً لبني مخزوم. وكَانَ هُو ووالده مِن السابقين إِلىٰ الإِسْلاَم وهُو سابع سبعة أجهروا بإسلامهم، وقد اَسْتُشْهِدَ والداه أثر تعذيب قُرَيْش إيّاهما عَلَىٰ إسلامهما. وقد ورد عَن الرَّسُول ﷺ أحاديث صحيحة فِي مدحه مِنْهَا قَوْله ﷺ: إِنَّ عَمَّاراً مُلِئَ إِيمَاناً إِلىٰ مُشاشِه. ومِنْهَا قَوْله ﷺ: ويحك يابْن سُميَّة تقتلك الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ. أُنظر، صَحِيح الْبُخَارِيّ: كتاب الصَّلاَة، باب التَّعَاون فِي بناء المساجد، و: ١٢٢/١، صَحِيح مُسْلِم: ٢٢٣٥/٤، صَحِيح التِّرمِذي: ٦٦٩/٥، مُسْنَد أحمد: ١٦١/٢ و١٦٤، و: ١٩٧/٤، و: ٢٨٩/٦،

⇔ مُسْنَد أبي داود الطَّيَّالِسِي: ٣/٩٠، حلية الأَوْلِيَاء: ٤/١١٢، تَأرِيخ بغداد: ١٣/١٨٦، و: ٥/٣١٥، و: ٧/٤١٤، طَبقَات اَبْن سعد: ٣/١٧٧، الطَّرائف لِابْن طاووس: ١/١٠٣، الطَّبقَات لِابْن سعد: ٣/٣٥٩، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ١/١٧٠، الإِسْتِيعَاب: ١/١٥٧، مُسْنَد أحمد: ٥/٢١٤، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٣/٣١٦، الموضّح للخطيب: ١/٢٧٧. وأنظر أيضاً الرِّوَايَات الَّتي خلقها الطَّبَرِيّ: ١/٣٠٩٥ ـ ٣٠٩٦، والخطيب فِي الموضّح: ١/٢٧٥، واَبْن عساكر بترجمة خُزَيْمَة بسنده عَن سَيْف مِن مخطوطات المكتبة الظَّاهِرية بدِمَشْق: ٥ رقم ٣٣٧ ورقة ٣٠٢ و٣٠٣. وقارن أيضاً مَع ما رواه اليعقوبي فِي تَأرِيخه: ٢/١٧٨، ومروج الذّهب: ٢/٣٦٦، والفُتُوح لِابْن أَعْثَم: ٢/٢٨٩. وفِي تَأرِيخ ٱلإِسْلاَم للذهبي: ٢/١٧١.

وهنالك أحاديث أُخرىٰ، وهُو الَّذي نزلت فِيهِ آية ١٠٦ مِن سُورَة ٱلنَّحْلِ ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِالْإِيمَـٰنِ﴾ أُنظر، تَفْسِير الآيَة فِي تَفْسِير الطَّبَرِيّ، والقُرطُبي، واَبْن كثير، والسّيوطي. وأُنظر طَبقَات اَبن سعد: ٣/١٧٨، والمُسْتَدرَك: ٣/١٧٨.

وأُنظر ترجمة عَمَّار بن ياسر فِي مروج الذّهب: ٢/٢١ و٢٢، أَنْسَابالأَشْرَاف: ٥/٤٨ ـ ٨٨، و: ٢/٣١٤ وما بعدها تحقيق المحمودي ط الأعلمي بيروت، مُسْنَد أحمد: ١/٩٩ و١٢٣ و١٢٥ و١٣٠ و١٣٧ و٤٠٤، و: ٢/١٦١ و١٦٤ و٢٠٦، و: ٣/٥، و: ٢٢ و٢٨ و٩٠، و: ٤/٧٦ و٨٩ و٩٠ و١٩٧ و١٩٨ و٣١٩، و: ٥/٢١٤، و٣٠٦، و: ٦/٢٨٩، و٣٠٠، و٣١١ و٣١٥ و٤٥٠، وصَحِيح البُخَارِيّ: الجِهَاد ب ١٧، سُنَن اَبْن ماجه ب ١١ مِن المقدّمة، وسُنَن التِّرمِذي: ب ٣٣ مِن كتاب المناقب، ومُسْنَد الطَّيَّالِسِي: ١١٧ و٦٠٣ و٦٤٣ و٦٤٩ و١١٥٦ و١٥٩٨ و٢١٦٨ و٢٢٠٢، والإِسْتِيعَاب: ٢/٤٦٩ حرف العَيْن، الإِصَابَة: ٢/٥، خصائص أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين للنسائي: ١٣٢ ط الحيدرية، حلية الأَوْلِيَاء: ٤/١٧٢ و٣٦١، و: ٧/١٩٧ و١٩٨، ومَجْمَع الزّوائد: ٧/٢٤٠ و٢٤٢، و٢٤٤ و: ٩/٢٩٥، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٥/٣٩ و٤١، و: ١٠/٥٩.

وأُنظر ترجمته أيضاً فِي أُسد الغَابَة: ٢/١١٤ و١٤٣ و٢١٧، و: ٤/٤٦، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة لِابْن قُتَيْبَة: ١/١١٧، تَأرِيخ اليعقوبي: ٢/١٦٤ ط الغري، وَقْعَة صِفِّين: ٣٤١ و٣٤٣، العقد الفريد: ٤/٣٤١ و٣٤٣، المناقب للخوارزمي: ٥٧ و١٢٣ و١٢٤ و١٥٩ و١٦٠، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٣/٣١٠ و٣١١، الإِسْتِيعَاب بهامِش الإِصَابَة: ٢/٤٣٦ ط السّعادة، فرائد السّمطين: ١/١١٤ و١٢٠ و٢٨٧، المُعْجَم ⇔

صَحِيح مُسْلِم «كتَاب الْفِتَن، بَاب: «لاَ تَقوم السّاعة حَتَّىٰ يَمر الرَّجُل بِقَبر الرَّجل فَيَتمَنىٰ أنْ يَكُون مكَانه»[1].

قَالَ طَه حُسين: «ومَا زَال قَتله ـ عَمَّار بن يَاسر ـ مِن الأَحَادِيث المَأثُورة بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِين، فهُو آبن أَوّل شَهيدِين فِي الإِسْلاَم. فتَن أبو جَهل أبَاه يَاسراً، وأُمّه سُمِيَّة حَتَّىٰ قَتلهُماكَمَا هُو مَعرُوف. وهُو الَّذي قَالَ لهُ النَّبِيّ ﷺ: وَيحك يا آبن سُمَيَّة، تَقْتُلك الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ...، وكَانَ خُزَيْمَة بن ثَابت الأَنْصَاري يَتبع عَلِيَّاً فِي صِفِّين ولَكِنَّهُ لا يُقَاتل، وإنّمَا يَتحرىٰ أمر عَمَّار، فلَمَّا عَرف أنّه قُتل، قَالَ: الآنْ آستبَانت الضّلالة. ثُمّ قَاتل حَتَّىٰ قُتل. ووَقع قَتْل عَمَّار مِن مُعَاوِيَة، وأَصْحَابه وَقعاً أَليماً مُروّعاً، ولَم يَشكّوا فِي أنّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ لهُ: تَقْتُلك الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، وإنّمَا حَاولوا أنْ يُخفوا عِلمهم بِهَذا الْحَدِيث. فلَمَّا لَم يَجدوا إِلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلاً تَأولُوه. وَقَالَ مُعَاوِيَة: أَنَحْنُ قَتلنَاه؟ إنّمَا

⇐ الصَّغِير للطبراني: ١/ ١٨٧.

وراجع أيضاً شَرْح النّهج لِابْن أبي الْحَدِيد: ٨/ ١٠ و ١٧ و ١٩ و ٢٤، و: ١٥/ ١٧٧ ط مِصْر تحقيق مُحَمَّد أبو الْفَضْل، و: ٢/ ٢٧٤ الطّبعة الأُولَىٰ مِصْر، سيرة آبْن هشام: ٢/ ١٠٢، نور الأَبْصَار: ١٧ و ٨٩ ط السّعيدية بِمِصْر، كفاية الطّالب: ١٧٢ ـ ١٧٥ ط الحيدرية، و ٧١ و ٧٣ ط الغري، تذكرة الخواصّ: ٩٣ و ٩٤، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١٢٨ و ١٢٩ ط اسلامبول، و: ١٥١ و ١٥٢ ط الحيدرية، و: ١/ ١٢٨ و ١٢٩ ط العرفان، وأَحْكَام آلْقُرآن لِابْن عربي: ٤/ ١٧٠٥ الطّبعة الثّانِيَة تحقيق البجاوي. وكَانَ عَمَّار مَع عَليّ فِي حَرْب الجَمَل وصِفِّين، وقتل بصِفِّين مساء الخميس ٩ صفر سنة (٣٧ هـ) وله مِن الْعُمُر ٩٣ سَنَة.

(١) أنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٤/ ٢٢٣١ ح ٢٩٠٧، صَحِيح البُخَارِيّ: ٦/ ٢٦٠٥ ح ٦٧٠٤، مُسْنَد أحمد: ٢/ ٢٣٦ ح ٧٢٢٦ و ١٠٨٧٨، سُنَن أبي داود: ٤/ ١١٥ ح ٤٣١٢، المُصَنَّف لعبدالرّزاق: ٩/ ٧٤، عقد الدُّرر: ٦٤، السّنَن الواردة فِي الْفِتَن: ٢/ ٤٥٣ ح ١٧٥ و ١٧٧، فتح الباري: ١٣/ ٨٨، صَحِيح آبْن حبّان: ١٥/ ١٠٠ ح ٦٧٠٧، سُنَن آبْن ماجه: ٢/ ١٣٤٠ ح ٤٠٣٧، مُسْنَد الرَّبِيع: ١/ ١٩٧ ح ٤٨٩، موطأ مالك: ١/ ٢٤١ ح ٥٧٢.

قَتَله الّذين جَاءوا بِه»[1].

فـ«طَه حُسين» يُدِّين مُعَاوِيَة بأنّه اَرْتَكب إثماً لمحاولته إخفَاء الحَدِيث، ولمَّا عَجز أوّله بٱلْبَاطِل عَن قَصدٍ، وَعَمدٍ، ثُمَّ قَالَ الدّكتور طَه: «وَلَم يَجِيء أحد بعَمَّار إِلَىٰ صِفِّين، لَم يَسْتَكرهه عَليّ عَلَىٰ الحَرْب، وَلاَ عَلَىٰ الخُرُوج مَعه، وإنّما كَانَ عَمَّار شَيخاً قَد نِيف عَلَىٰ التّسعِين، شَاخ جِسمه، ولكنّ قَلْبه، وعَقْله، وبَصِيرته ظلّت بمَأمن مِن الشّيخُوخة...، وهُو الّذي سَلَّم عَلَىٰ عَائِشَة بَعد وَقْعَة الجَمَل، وَقَالَ لها: كَيْفَ رَأَيْت ضِرَابنا يَا أُمَّه![2] قَالت: لَستُ لكَ بأُمّ، وَلستَ لِي بٱبن. قَالَ مُتضَاحكاً: بَل أنتِ أُمّي، وأنَا ٱبنك، وإنْ كَرهتِ. يُرِيد أنّ ٱلْقُرْآن قَد نَزَّل بأنّ أزوَاج النَّبِيّ أُمّهات ٱلْمُؤْمِنِين، فَلن تَسْتَطِيع عَائِشَة أنْ تُغير ما نَزَل بِهِ ٱلْقُرْآن. وكَانَ عَمَّار أَشَد أَصْحَاب عَليّ تَحرِيضاً عَلَىٰ الْحَرْب، وكَانَ يُحَارِب يَوماً تجَاه عَمْرُو بن العَاص... وَيُشِير إِلَىٰ رَاية عَسْكَر مُعَاوِيَة، ويَقول: والله لقَد قَاتلت صَاحب هَذِه الرّاية مَع رَسُول الله ﷺ ثَلاَث مَرَّات ـ فِي بَدْر، وأُحد، وٱلْأَحْزَاب ـ وهَذِه الرّابعة، ومَا هِي

(١) أنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه: ٧٦ ـ ٧٧ (مِنْهُ ﷺ)، طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م، والطَّبقَات الْكُبْرَىٰ: ٢٥٣/٣ و ٢٥٩، عمدة القاري فِي شَرْح صَحِيح البُخَاريّ: ١٩٢/٢٤، مُسْنَد أحمد: ١٦٤/٢ و ٢٠٦، وفاء الوفا: ٣٢٩/١، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٢/٤ و ٣ و ٢٨ و ٢٩، كنز العُمَّال: ١٤٣/١٦، الكَامِل فِي التَّأريخ: ١٤٨/٣ و ١٥٧ و ١٥٨، المرقاة فِي شَرْح المشكاة: ٤٤٧/٥، الإمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١٢٦/١، تَأريخ الخميس: ٢٧٧/٢، المُستَدرك عَلَىٰ الصَّحِيحِين: ٣٧٨/٣، نسيم الرّياض فِي شَرْح الشّفا: ١٦٦/٣، العقد الفريد: ٢٠٣/٢ ـ ٢٠٤، خصائص النّسائي: ١٣٣، الرّوض الأنف: ٢٦٤/٤ و ٢٦٥، تَأريخ مدينة دِمَشْق: ٤٢٥/٤٣، تَفْسِير ٱبْن العَرَبِي: ٥١٩/٢، تَهْذِيب الكَمَال: ١١٤/١٧.

(٢) أنظر، مروج الذّهب: ٣٦٢/٢، تَفْسِير الطَّبَرِيّ: ٥٣٨/٣، الْفِتْنَة ووَقْعَة الجَمَل لسَيْف بن عُمَرَ الضَّبي: ١٧٢، حلية الأوْلِيَاء: ٧٥/٥، سُنَن التّرمِذي: ٣٦/٢، مُسْنَد أحمد: ٣٧٦/١، تَأريخ بغداد: ٣٨٨/٤، كنز العُمَّال: ١٨٨/٧، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٥٢٠، سُنَن أبي داود: ٢٠٧/٢.

بَأبرّهن[1]. وكَانَ يَقول لأصحَابه حِينَ رَأَىٰ بَعْض آنْكشَافهم: «والله لَـو ضَربُـونا حَتَّىٰ يُبلغونا سَعَفات هَجَر لعَلِمنا أنّا عَلَىٰ الْحَقّ، وأنّهم عَلَىٰ ٱلْبَاطِل»[2].

(كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَايُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3] بَلَىٰ! وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا، وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا). وَمِن أَقْوَالهﷺ: «وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ وَلاكُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ وَلاكُلُّ نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ»[4]. وأي إِنْسَان لا يَنْتَفع بالتَّجارِب، ويُؤْمِن، وَيَعمل بِمَا يُوحي بِهِ ٱلْعَقْل، والبدِيهة، وَلاَ يَتعظ وَيَـعتبر بِمَـا يَسمع، ويَرىٰ فهُو كمَن لاَ عَقل له، ولاَ سَمع، وَبَصر. قَالَ عزّ من قَائِل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّايُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾[5].

(لَوْ لا حُضُورُ الْحَاضِرِ). قِيل، الْمُرَاد بِحُضُورُ الْحَاضِرِ مَن حَضَر لبَـيْعَة الإِمَـام بِالْخِلاَفَةِ مِن الْمُهَاجِرين، والأَنْصَار، وقِيل: بَل الْمُرَاد حـلُول الوَقت الَّـذي وقّـته

(١) أنظر، الطّبقَات الكُبْرىٰ: ٢٥٨/٣، مجْمَع الزّوائد: ٢٤٣/٧، تَأرِيخ الطّبَرِيّ: ٢٨/٤، مُسْنَد أحمد: ٣١٩/٤.

(٢) أنظر، الْفِتْنَة الكُبْرىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه: ٧٦ ـ ٧٧، طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م، حلية الأَوْلِيَاء: ١٤٢/١، صَحِيح أبن حبّان: ٥٥٥/١٥ ح ٧٠٨٠، المُسْتَدرَك عَلَىٰ الصَّحِيحين: ٤٣٣/٣ ح ٥٦٥١ وص: ٤٤٢ ح ٥٦٧٦، مجْمَع الزّوائد: ٢٤٣/٧ و: ٢٩٤/٩، المُصَنَّف لِابْن أبي شيبة: ٥٤٧/٧ ح ٣٧٨٣٩ و ٣٧٨٦٦ و ٣٧٨٧٢، مُسْنَد الطَّيَالِسِي: ٨٩/١ ح ٦٤٣، سير أعلام النّبلاء: ٤٠٨/١، تهْذِيب الكَمَال: ٢٢٥/٢١، الإِسْتِيعَاب: ١١٣٩/٣، الطّبَقَات الْكُبْرىٰ: ٢٥٧/٣، تَأرِيخ الطّبَرِيّ: ٩٨/٣.

(٣) اَلْقَصَص: ٨٣.

(٤) أُنظر، نَهْج اَلْبَلاغَة: اَلْخُطْبَةُ (٨٨).

(٥) اَلأَعْرَاف: ١٧٩.

رَسُول الله ﷺ لقتَال الإِمَام مِن بَعده، وقِيل غَيْر ذَلِكَ.... وفِي رَأينا أنّ المُرَاد بِحُضُورُ الْحَاضِرِ الوَضع الْحَاضِر، وهُو ٱلْفَسَاد الَّذي كَانَ سائِداً، ومُنتشِراً آنذَاك.

(وَ قِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ). أي لاَ حُجّة، وَلاَ عُذر عِند الله لِمَن يَسكُت عَن ٱلْفَسَاد، والضّلال إِذَا وِجد مَن يُناصره، ويُؤازره، والإِمَام عليه السلام بَعد أنْ رَأَىٰ ٱلْفَسَاد فِي ٱلأَرْض، وَبعد أنْ عُرِضت عَلَيْهِ ٱلْخِلاَفَة ـ أَصْبَحَ مِن وَاجبه أنْ يَقبل، وَيَنهض، وَيَردع المُفسدِين، وَيَرعىٰ مصَالِح ٱلْمُسْلِمِين.

(وَ مَا أَخَذَ اللهُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَىٰ كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَ لاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ). بَعد أنْ قَالَ الإِمَام عليه السلام: أنّ إِنْكَار الْمُنْكَر حَتمٌ، ووَاجب بِخَاصَّة إِذَا وِجد الْمُنْكِرُ المُناصر وَالمُؤازر، بَعد هَذَا أَشَار إِلَىٰ الدَّلِيل القَاطع عَلَىٰ هَذَا الوجُوب، واللّزُوم، وهُو أنّ الله سُبْحَانَهُ قَد أخَذ عَلَىٰ الْعُلَمَاء عَهداً أنْ يكُونوا للمظلُوم عُوناً، وَعَلَىٰ الظَّالِمِ حَرْباً... ومَعْنَىٰ كِظَّةِ ظَالِمٍ، تُخْمَته وَبَشمه، وَكَنَىٰ بِها الإِمَام عَن تَمَاديه فِي العتُو، والطّغيان، ومَعْنَىٰ سَغَبِ مَظْلُومٍ جُوعه، وبُؤسه. وفِي هَذَا الْمَعْنَىٰ يَقول الشّاعر:

وَالْمَرْء وهُو يُدَاوي الْبَطْن مِن بَشمٍ   يَسْعىٰ لِيَسلب طَاوي الْبَطْن مَا جَمْعا[1]

الْغَايَة تُبَرر الوَاسِطة:

(لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَىٰ غَارِبِهَا، وَ لَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَ لأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ). الهَاء فِي حَبْلَهَا وغَارِبِهَا وآخِرَهَا وأَوَّلِهَا تَعود إِلَىٰ ٱلْخِلاَفَة، ومَعْنَىٰ هَذَا، وما قَبله أنّه لَوْلاَ ما أَوْجَبَ الله عَلَىٰ الإِمَام مِن إِنْكَار الْمُنْكَر

(١) البَشِمُ: التّخمة مِن الطّعَام، مِن باب طرب، وبَشِمَ مِن فُلاَن أي سئم مِنهُ، والبَشَامُ شجر طَيب يُتَّخذ مِن القسيّ يستاك به. يقول: قرنت البَشَمِ بالثّمام، والثُمام ضعيف فسقط. فسقط البيض فأنكسر. أُنظر، غريب الْحَدِيث لابْن قُتَيْبَة: ١/٢٩٣، مختار الصّحاح: ١/٢٢.

بَعدمَا أوكَلوا إِلَيْهِ أمر ٱلخِلاَفَة لكَان مُوقفه مِنْهَا كمَا كَانَ مِن قَبل، لأنّ الدُّنْيَا بكَاملها لاَ تَعدل المُخاط الَّذي تَنثره العَنْز مِن أَنْفها عِند العِطاس.

وَقَد ٱشتَهر عَن المَذْهَب الميكيافِيللي أنّه يَقول: الْغَايَة تُبرِر الوَاسِطة، وَمِثله البرجمَاتِية والإِنتهَازِية... وأيضاً الإِمَام يَقول، الْغَايَة تُبرر الوَاسِطة، ولكنَّ الكَلاَم أو الفَرق فِي تَحدِيد الْغَايَة: مَا هِي؟ هَل الْغَايَة يَنْبَغِي أنْ تكُون فَردِية ذَاتية تَعود إِلَىٰ هَذِه ٱلْحَيَاة ومتَاعها، ومَنافعها بِصَرف النّظر عَن الأَخْلاَقِ، والدِّين، والمبَادىء والقَوَانِين ـ بحَيث لا شَيء حلاَل أو حرَام فِي ذَاته، وَلاَ بالقِياس إِلَىٰ مَبدأ عَام، أو قَاعدة كُلِّية كمَا تَقول الإِنْتهَازِية البرجمَاتِية، أو الْغَايَة شيء آخر أَجلّ، وأرْفَع؟

قَالَ الإِمَام عليه السلام: إنَّ الغَايَة الحقّة الَّتي وِجد ٱلإِنْسَان مِن أَجلِها، وعَلَيْهِ أنْ يُضحي بنَفْسِهِ، وجَاهه، وأَهْله، ومَاله فِي سَبِيلها ـ هِي الآخِرَة، هِي ٱلْجَنَّة وَحدَها، وَمَرضاة الله وَحده، وبيّن هَذِه الْغَايَة فِي الكَثِير مِن أَقْوَاله، مِنْهَا: «أَلاَ فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلآخِرَةِ[(١)]... فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ[(٢)]... فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الأَعْمَالَ إِلَىٰ دَارِ الْقَرَارِ فَكُونُوا مِنْهَا عَلَىٰ أَوْفَازٍ، وَ قَرِّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ[(٣)]... إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ وَ الآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ[(٤)]... إِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَىٰ بَصَرِ الأَعْمَىٰ»[(٥)]... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُو

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَةُ (١٥٧).
(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَةُ (١٥٧).
(٣) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَةُ (١٣٢).
(٤) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (٢٠٣).
(٥) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَةُ (١٣٣).

مَعرُوف، وَمَشهُور.

هَذِه هِيَ الْغَايَة عِند الإِمَام، وَهِي السِّمة البَارزة الَّتي طَبعت جَمِيع حركَاته وسَكنَاته، وفِي ضَوئها يَجب أنْ تُفسر أَقْوَاله، وأفعَاله مُنذ يَوْمِه الأَوَّل مَع رَسُول الله النَّفس الأَخير مِن حيَاته. ونَختم الكَلاَم فِي شَرح هَذِه ٱلْخُطْبَة، بِمَا جَاء فِي خُطبَة ثَانيَة:

«... فَقُلْتُ: يَا رَسُولُ اللهِ، أَ وَلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ ٱسْتُشْهِدَ مَنِ ٱسْتُشْهِدَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِين، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبْشِرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ»؟ فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً»؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَ لَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَىٰ، وَالشُّكْرِ»[1].

شَقّ عَلَىٰ الإِمَامﷺ أنْ لا يَٱسْتَشْهِد فِي سَبِيل الله، وعَاتب النَّبِيّﷺ عَلَىٰ ذَلِك، ولمّا أيقَن بالشَّهادة وأَنَّهَا آتِية لا مَحَالَة، ٱسْتَبشر، وشَكر، وَعَدها الفُوز الأَكْبَر، وَقَالَ حِينَ أَتَته بِبَهجة البُشرىٰ وفَرحتها: «فُزتُ وربّ ٱلْكَعْبَة»[2].. هَذَا هُو عَليّ

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطبَةُ (١٥٦).

(٢) ذُكرت قِصَّة ضرب ٱبن مُلْجَم مقطّعة فِي بَعْض الكتب التَّأريخية، وأَهْل السِير، ولكن نَحنُ بصدد تحقيق هَذَا ٱلْكِتَاب، ولَسْنا بصدد بَيان وجمع المقاطع عَلَىٰ الرّغم من أنّ بَعْض الكتب قد نقلتها تفصيلاً مَع إختلاف يسير فِي الأَلْفَاظ، وكَذَلِكَ مِن التقديم، والتأخير.

أنظر، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٥ / ١٤٣، مقاتل الطَّالبيين: ٢٩ و٤٧، طَبقات ٱبن سعد: ٣ / ٣٥، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ٤٨٩ و٤٩٩ و٥٢٤، مروج الذّهب: ٢ / ٤١١، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٥٩، الكَامِل فِي التَّأريخ: ٣ / ٣٨٩، مناقب الخوارزمي: ٣٨٠ ـ ٤١٠، مناقب ٱبْن شهرآشوب: ٣ / ٣١١، تَأريخ ٱبْن

⇔

ٱبن أبي طَالب، لا يَفرح بِالْخِلاَفَةِ، والْوِلاَيَة، وإنْ أَتت مُنقَادة تَجرر إِلَيْهِ أذيَـالها، ويَفرح بالضَّربة المَسمُومة القَاتِلة لأَنّ ٱلْجَنَّة بَعدها ووَرَاءها: «مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَـعْدَهُ النَّارُ، وَمَا شَرّ بِشَرّ بَعْدَهُ ٱلْجَنَّةُ، وكُلّ نَعِيمٍ دُونَ ٱلْجَنَّةِ فَهُوَ مَحْقُورٌ، وَكُلُّ بَلاَءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ»(١).

⇐ عساكر: ٣/٣٦٧ ح ١٤٢٤ وأضاف قول الإمَام عليّ عليه السلام عند ما ضربه أبن مُلْجَم «فُزتُ وربّ ٱلْكَعْبَة»، وذكر ذَلِكَ البلاذري فِي الأنساب: ١/٤٨٨ و ٤٩٠، تَأْرِيخ دِمَشق: ٣٨/٩٧، و: ٣/٣٠٣ ح ١٤٠٢ وما بعدها، كنز الْعُمّال: ١٣/٦٩٧، ٱلْفَتح الرّبّاني: ٢٣/١٦٣، والْحَـاكِم فِي الْمُسْتَدرَك: ٣/١٤٤، ذَخَـائِر الْعُقْبَىٰ: ١١٠ فَضَائِل عليّ عليه السلام، الصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة: ١٣٣ باب ٩ فصل ٥ مَع تقديم وتأخير بِمَا يناسب السّياق، ويحفظ أسترسال الْمَعْنَىٰ واللفظ. الْفُتُوح لِابن أَعْثَم: ٢/٢٧٦، الإِسْتِيعَاب: ٣/٥٩ بإضافة «... لا يفوتنكم الكلب»، أسد الغَابَة: ٤/٣٨، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١٦٤، أرجح المطالب: ٦٥١.

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٣٨٧).

الخطبة

ـ ٤ ـ

بِنَا ٱهْتَدَيْتُمْ...فِقْرَة ١:

(بِنَا ٱهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ، وَ تَسَنَّمْتُمْ ذُرْوَةَ الْعَلْيَاءِ، وَ بِنَا أَفْجَرْتُمْ[1] عَنِ السِّرَارِ. وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الْوَاعِيَةَ، وَ كَيْفَ يُرَاعِي النَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ؟ رُبِطَ جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ الْخَفَقَانُ. مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْغَدْرِ، وَ أَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِّينَ، حَتَّىٰ سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ الدِّينِ، وَ بَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ[1]).

اللُّغَة:

تَسَنَّمَ الشَّيء: عَلاَه مِن قَولهم تَسَنَّمَ أي رَكب سَنَّامها. والذُّرْوَةَ الْمَاء مِن الأَرْض أي خرُوجها مِنْهَا، ويجُوز أنْ يُرَاد دَخلتم فِي ٱلْفَجْرِ. والمُرَاد بالسِّرَارِ هُنا الظَّلام.

والوُقِر: الصَّمم. وتُطلق الْوَاعِيَةَ عَلَىٰ الصُّراخ، يُقَال: اَرْتَفعت الوَاعِية أي الصُّراخ عَلَىٰ ٱلْمَيِّت. والنَّبْأَةَ: الصَّوْت الخَفي: والصَّيْحَةُ: الصَّوْت المُرتفع.

---

(١) فِي أَكْثَر النُّسخ «اَنْفجرتُم»، وما أثبتناه أفْصَح.

والجَنَان: ٱلْقَلْب. وَأَتَوَسَّمُ: أَتَفَرَّسُ.

الإِعْرَاب:

سَمْعٌ نَائب عَن الفَاعل لِوُقِر، وَكَيْفَ ٱستفهَام فِيهِ مَعْنَىٰ التَّعجب فِي مَحل نَصب عَلَىٰ الحَال أي عَلَىٰ أي حَال يرَاعي. واليَاء فِي بَصَّرَنيكُمْ مَفعُول أَوَّل، وكَاف المُخَاطبِين مَفْعُول ثَانٍ.

الْمَعْنَىٰ:

(بِنَا ٱهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ). غَيْرُ المُصلح يُعبر عَن نَفْسه بِمَا يحُوز، ويَملك. وبِالمظَاهر، والمُضَاهاة، أو بالجرَائم، والآثَام... أمَا المُصلح فيُعبر عَن هَويته بِمَا يَسدِيه لِلإِنْسَانية مِن خَيرٍ، وصَلاح، ومَا مِن أحدٍ، أو أَهْل بَيْت تَركوا للعَالم مَا تَركه مُحَمَّد ﷺ. وسلَيْلَة مُحَمَّد، وآل مُحَمَّد مِن خَيرٍ، وهدَايةٍ للعَالم كلّه مِن أقصَاه إلَىٰ أقصَاه بشهَادة ٱلحِسّ، والتَّارِيخ، والبَعِيد قَبل القرِيب، وَهَذَا ٱلْقُرْآن، ونَهْج ٱلْبَلاَغَة، وكُتب الحَدِيث، والشَّرِيعَة وغَيْرها فِي مُتناول كلّ يَد.

(وَ تَسَنَّمْتُمْ ذُرْوَةَ الْعَلْيَاءِ). كَانَ الْعَرَب قَبل ٱلإِسْلاَم أُميين، ورُعاة إبل، وشَاءٍ، وفِي مَوْطِن الْفَقْر، وٱلْجَهْل، والتَّأخر، والخمُول، فأَصْبحُوا بنِعْمَة ٱلإِسْلاَم شَيْئاً مذكُوراً.

وَمُحَمَّد وآله هُم دَعَائِم ٱلإِسْلاَم، وحُمَاته، وبِهِمْ أكمَل الله دِينه، وخَتم وَحيّه

(وَبِنَا أَفْجَرْتُمْ عَنِ السِّرَارِ). أي خَرجتُم مِن ظُلمة ٱلْجَهْل، وخمُول الذِّكر إلَىٰ نُور العِلم وعلُو الشَّأن، وأشَار ٱلْقُرْآن إلَىٰ ذَلِكَ بقَوْله: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِيَ أُوحِيَ إِلَيْكَ

إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُۥ ـ أي الذّي أوحىٰ إِلَيْك ـ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ (١).

وقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ بَعد قَوْله: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِىَ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ ـ يُشعر بأنّ ٱلْمُسْلِمِين لا يكُون لَهُمْ ذِكـر، وشَأن، ولنْ يَكُـون أَبَـداً إلّا إذَا تمسكوا بالوَحي، وعَملوا بهِ، وحَرصوا عَلَيْهِ، وإنْ أهمَلوا، وتقَاعسُوا فَـيُصبحُوا أذَلّ الأُمّم لا يَنْتَفعُون بكَثْرة، وَلاَ يَعْتَصِمُون مِن عَدُوّ، وإنْ قَـلّ، وَحَـقر... وَقَـد حَدَث ذَلِكَ بالفِعْل، والشّاهد إِسْرَائِيلَ، وفِي ذَلِكَ يَقول الإِمَامﷺ: «وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ ـ أي غَيْر ملومين عَلَيْهَا بنفاقٍ، وَرِيَاء ـ وَلاَ مُسْتَكْرَهٍ بِهَا. وَ اللهِ لَتَفْعَلُنَّ، أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ ٱلإِسْلاَم، ثُمَّ لاَ يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً حَتَّىٰ يَأْرِزَ ـ أي يَرجع ـ الْأَمْرُ إِلَىٰ غَيْرِكُمْ» (٢).

(وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الْوَاعِيَةَ). هَذَا دُعَاء بِالصَّمم عَلَىٰ مَن يَسمع المـوَاعـظ ولاَ يَتعظ، وتهتف بِهِ الزّواجر ولاَ يَزدَجر (وَكَيْفَ يُرَاعِي النَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ ؟).

الْمُرَاد بالنَّبْأَةَ هُنا حِكم الْإِمَام، ومواعظه، وبالصَّيْحَةُ ما فِي كتَاب الله، وسُنّة نَبِيّه مِن تخويف، وَتَحذِير، والْمَعْنَىٰ مَن لاَ يَنْتَفع بنَذر الله، والرّسُول، ونِدَائمـها لا يَـنْتَفع بِهَمْسَة مِني، أو مِن غَيْرِي، وشَبّه الْإِمَام عِظته بالنَّبْأَة، وَهِي الصَّوْت الخَفي، وعِظَة الله والرَّسُول الصَّيْحَةُ ـ تَعْظِيماً لمقَامها، وَعُلو شَأنهما.

(رُبِطَ جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ الْخَفَقَانُ). فإذَا دُعاء بِالصَّبر، وصَلاَبة الأعصَاب لكلّ ذِي قَلب يخفق بٱستمرَار خَوْفاً، ورَهْبَةً مِن غَضب الله، وعذَابه، ويُلقي إِلَـيْهِ بـالطَّاعَة

(١) ٱلزُّخْرُفِ: ٤٣ ـ ٤٤.
(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَةُ (١٦٩).

رَغبةً، وطَمعاً فِي مَرْضَاتِه، وثوابه.

(مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْـغَدْرِ، وَ أَتَـوَسَّمُكُمْ بِـحِلْيَةِ الْـمُغْتَرِّينَ). وَجَـه الإمَامعليه السلام هَذَا الخطَاب للنَّاكثِين، والمَارِقِينَ الّذين بَايعُوه ثُمَّ غَدرُوا بِهِ، وكَانَ الإمَام يَترقب الْغَدْر مِنْهُم، وَيَتفرس فِيهِمْ الإغـتِرَار (حَتَّىٰ سَـتَرَنِي ـأي كَـفَنِي ـ عَـنْكُمْ جِلْبَابُ الدِّينِ). يَقول لَهُمْ: أنَا أعرف مَن أَنْتُم؟ حَقّاً، وواقعاً، ولكنْ لاَ سَـبِيل لِي عَلَيْكُمْ ما أظْهَرتم كَلِمَة ٱلإِسْلاَم، وشعَائِرة... وقَد كَانَ شَأنهم مَع الإمَامعليه السلام تَمَاماً كشَأن ٱلْمُنَافِقِين مَع رَسُول الله صلى الله عليه وآله.

(وَ بَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّة). أي أنّ الّذي عرَّف الإمَامعليه السلام بِحَقِّيقتهم هُو صِدقه فِي نِيّته، وصفَاؤه فِي دَخِيلته، وإخلاَصه فِي إيمَانه، قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «وصَاحب ٱلْقَلْب الطّاهر تَنفذ فرَاسته إلَىٰ سرَائر النّفوس فَتَسْتَخبرها»[1] بالإضَافة إلَىٰ إخبَار النَّبِيّ صلى الله عليه وآله لِعَليّعليه السلام بأنّه يُقَاتل النَّاكِثِينَ، والْقَاسِطِينَ، والْمَارِقِينَ.

ويَأْتِي إنْ شَاء الله إنَّ الإمَام مرَّ بقَتلىٰ يَوْم النَّهْرَوَان فَقَالَ: «بُؤْساً لَكُمْ، لَقَدْ ضَرَّكُمْ مَنْ غَرَّكُمْ، فَقِيل لهُ: مَنْ غَرَّهُمْ يا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِين؟ فَقَالَ: الشَّيْطَانُ الْمُضِلُّ، والأَنْفُسُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، غَرَّتْهُمْ بِالأَمَانِيِّ، وَفَسَحَتْ لَهُمْ بِـالمَعَاصِي، وَوَعَـدَتْهُمُ الإظْـهَارَ فَٱقْتَحَمتْ بِهِمْ النَّارَ»[2].

مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ...فِقْرَة ٢:

(أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَىٰ سَنَنِ الْحَقِّ فِي جَوَادِّ الْـمَضَلَّةِ، حَـيْثُ تَـلْتَقُونَ وَ لاَ دَلِـيلَ، وَ

(١) أنظر، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ١/٣٩.
(٢) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٣٢٣).

تَحْتَفِرُونَ وَ لاَ تُمِيهُونَ.

الْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيَانِ! عَزَبَ رَأْيُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّي! مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ! لَمْ يُوجِسْ مُوسَىٰ عليه السلام خِيفَةً عَلَىٰ نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ، وَ دُوَلِ الضَّلاَلِ! الْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْحَقِّ، وَ الْبَاطِلِ. مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ[٢]).

اللُّغَة:

السُّنن: جَمع سُنّة، وهِي السِّيرَة، والطَّرِيقة، والشَّرِيعَة.

والجَوَادّ ـ بتَشدِيد الدَّال ـ جَمع جَادّة، وَهِي وَسَط الطَّرِيق. والمَضِلَّة ـ بِفَتح المِيم، وَكَسر الضَّاد، أو فَتحها ـ هِي الأَرْض الَّتي يَضل سَالكها. وأصل كَلِمَة مَاء مَوَهٌ بدَلِيل الجَمع مِياه وأمواه، وَ لاَ تُمِيهُونَ: لا تَجدُون مياهاً. والْمَرْأَة الْعَجْمَاء فِي لسَانها لُكنَة، وكَلِمَة عَجْمَاء: غَامِضة مُبهَمة. والْمُرَاد بالعَجْمَاء هُنا من لاَ نُطق لهَا. وَعَزَبَ: غَاب. ولَمْ يُوجِسْ: لَم يَحس. وأَشْفَقَ: خَاف. وتَوَاقَفْنَا: تَقَابَلْنَا.

الإِعْرَاب:

حَيْثُ ظَرف مَبني عَلَىٰ الضَّم، وتَلزم الإضَافة إِلَىٰ جُملة، وَقَد تَرد للزَّمان بِمَعْنَىٰ مَتَىٰ: وَإِذَا لَحقتها «مَا» كَانَتْ بِمَعْنَىٰ الشَّرط، وجَزمت فعلين. وذَاتَ مُؤنث «ذُو» وَمُثناها «ذَوَاتَان» وَجَمعَهَا «ذَوات». وخِيفَةً مَفْعُول بِهِ أي أحسّ الْخَوْف. ومَنْ مُبْتَدأ، ولَمْ يَظْمَأْ خَبَر.

الْمَعْنَىٰ:

كَانَتْ ظرُوف الإمَامِ﵇ قَاسِيَة، ومُرهِقة تَمَاماً كظرُوف النَّبِيّ ﷺ فِي أَوَّل البِعْثة.. أُبتلي النَّبِيّ بقَوْم يَعبدُون الأَصنَام، ويَأتون الفـوَاحش، ولاَ هَـادي لَهُـمْ ودَلِـيل، فحَاربهم بِالْقُرآن، وحَاربُوه بالسَّيْف، والسّنَان، وأبـتلي الإِمَـام بـقَوْم ظَـاهرهم الْهُدَىٰ، وبَاطن أَكْثَرهم الْغَدْر، والضّلال، وهُم الّذين خَاطبهم بقَوْله:

(أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَىٰ سَنَنِ الْحَقِّ فِي جَوَادِّ الْـمَضَلَّةِ، حَـيْثُ تَـلْتَقُونَ وَ لاَ دَلِـيلَ، وَ تَحْتَفِرُونَ وَ لاَ تُمِيهُونَ). كانُوا أفرَاداً، وَفِئات يَسِيرون فِي ٱتجَـاهات مُـتبَاينة لا يَجْمَعها إلّا ٱلْفَسَاد، والضّلال، وكانُوا يَلتقُون، وَيـتدارسُـون شُـؤوُنَهم عَـسَىٰ أَنْ يَهتدُوا إِلَىٰ رُشد، ولكنْ بغَير جَدوىٰ... تَمَاماً كالذَّي يَطلب الْمَاء بالْبَحْث، والحَفر ولاَ يَجد شَيْئاً... وقد يَكُون لَهُمْ بَعْض العُذر لَو لم يَقم فِيهِمْ رَجُل رَشِيد... أَمَّا وَقَد وقَف الإمَام منَاراً، وعَلماً فَلا حجّة، وَلاَ مَعذَرة.

قَالَ طَه حُسين: «كَـانَ عَـلِيّ يُـقسم وَقـتَه بَـيْنَ شُـؤوُن الْحَـرْب وَالسِّـيَاسَة وَالدِّين... يُقِيم للنَّاس صَلاتهم، وَيَعظهم، وَيُـفقههم فِي دِيـنهم... وكَـانَ يَـعِظهم جَالساً عَلَىٰ المِنبر، أو قَائماً... ولم يَكُنْ يَعظهم بِمَا كَانَ يَقول لَهُمْ، وإنّما كَانَ يَعِظهم، وَيُعلّمهم بِسيرته فِيهِمْ، كَانَ لَهُمْ إمَاماً، وكَانَ لَهُمْ مُعلماً، وكَانَ لَهُمْ قُدْوَة وأُسوَة»[1].

(الْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيَانِ!). الْمُرَاد بالْعَجْمَاء هُنا العِظات، والعِـبر، وهِي صَامتة مِن حَيْث المَقَال، نَاطِقة بلِسَان الحَال، والْمَعْنَىٰ أنّ الإمَام شَرح، وَبَيّن لَهُمْ أسرَار العِبر، والعِظات، ومَا تَهـدف إلَـيْهِ مِـن التَّـحْذِّير، والتّـخوِيف لَـعَلَّهُمْ

(١) أنظر الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه: ١٤٤، طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م.

يَرشدُون (عَزَبَ رَأْيُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّي !)؛ لأنّه تَخلف عَن إمَام اَلْهُدَىٰ، وكَلِمَة التَّقْوَىٰ، وَقَالَ فِي خطَاب آخر: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الْأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ، وَ أَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوْصِيَاءُ إِلَىٰ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَ أَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَ حَدَوْتُكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا ـ أي تَجْتَمِعُوا ـ لِلّٰهِ أَنْتُمْ! أَ تَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ، وَ يُرْشِدُكُمُ اَلسَّبِيلَ؟»[1].

(مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ !). هَذَا بَيَان للسَّبب المُوجب للزّوم طَاعته، ووجُوب مُتابَعته، وَعِلم الإِمَام بالحَلال، والحَرَام يَسْتَحِيل أنْ يَتطَرق إِلَيْهِ الشَّك لأنّه صُورة طبق الأصل عمّا فِي عِلم الله تَعَالَىٰ، وَمِن هَذَا قَالَ الإِمَام: «لو كُشِفَ لِي الغِطَاء ما اَزددتُ يَقِيناً»[2].

(لَمْ يُوجِسْ مُوسَىٰ عليه السلام خِيفَةً عَلَىٰ نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ، وَ دُوَلِ الضَّلاٰلِ !). وكأنّ سَائِلاً يَسأل: كَيْفَ لا يَشك الإِمَام فِي الحَقّ إطلاَقاً، وَمِن قَبله نَبي الله مُوسَىٰ خَاف مِن السّحرة مَع أنّ الله سُبْحَانَهُ قَالَ لهُ، ولأَخِيه: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[3] فهل الإِمَام أقوىٰ إيمَانَاً، وأثبت جِناناً مِن اَلأَنْبِيَاء؟.

فأجَاب عليه السلام بأنّ مُوسَىٰ عليه السلام لَم يَخف عَلَىٰ نَفْسِه، وإنّمَا خَاف أنْ يَلتَبس الأَمْر عَلَىٰ النَّاس، وَيَنخدعُوا بأباطِيل السّحرة، وأنْ يَتغلب عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنَ، وأعوَانه.

---

(١) أنظر، نَهج اَلبَلاَغَة: اَلخُطبَةُ (١٨٢).

(٢) أُنظر، حاشية السّندي: ٩٦/٨ ح ٤٩٨٧، حلية الأَوْلِيَاء: ٢٠٣/١٠، المصنوع: ١٤٩/١ ح ٢٥٤، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢٠٣/١، تذكرة الخواص: ١٧، عيون الحكم والمواعظ: ٤١٥، شَرْح مئة كَلِمَة للبحراني: ٥٢، إرشاد اَلقُلُوب للديلمي: ٢١٢/٢، شَرْح أُصول الكَافِي: ١٧٣/٣، المناقب للخوارزمي: ٣٧٥ ح ٣٩٥.

(٣) سُورَةُ طَه: ٤٦.

قَالَ الشّيخ مُحَمّد عبدة: «وَهَذَا أَحْسَن تَفْسِير، وتَبرئة لِنَبي الله مِن الشّك فِي أَمْرِه، كَمَا أَنّ ٱلْبَلاَغَة وَاضحة فِي ضَرب المَثَل لمُوسَىٰ، لأَنّ مُوسَىٰ قُوبل بالسِّحر، وهُو أبطَل ٱلْبَاطِل، ومَا قُوبل به أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين يَشبَه السّحر» فِي بَاطِله.

(الْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْحَقِّ، وَ الْبَاطِلِ). أي أنّ الإِمَام وَقَف مُوقف الْحَق ووقَفوا هُم مُوقف ٱلْبَاطِل، واَتَضح كلّ شيء.

(مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ). وفِي معنَاه قَول الْإِمَام عليه السلام: «اعمل لوجهٍ وَاحد يَكفِيك الوجُوه كلّها»[1]، وقَول الرَّسُول الْأَعْظَم صلى الله عليه وآله مُخَاطِباً رَبّه: «إِنْ لَم يَكُنْ بكَ غَضَب عَليّ فلا أُبَالي»[2]. وكَتب الْإِمَام فِيما كَتب إِلَىٰ مُعَاوِيَة: «وَمَا عَلَىٰ الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ، وَ لاَ مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ»[3].

(١) أُنظر، الكَامِل فِي التّأريخ: ٧/٤٩، لِسَان المِيزان: ٦/١٤٦، الجَامِع الصَّغِير: ١/١٨١ ح ١٢٠٠، تأريخ جرجان: ٣٩٢ ح ٦٥٢، والمصادر كلّها تنسبه إِلَىٰ النَّبِيّ صلى الله عليه وآله.

(٢) أُنظر، تَفْسِير القُرطُبي: ١٦/٢١١، تَفْسِير ٱبن كثير: ٤/١٧٦، البداية والنِّهَايَة: ٣/١٦٦.

(٣) مِن كتاب له عليه السلام إِلَىٰ مُعَاوِيَة، أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة رقم ٱلْكِتَاب (٢٨).

الخطبة

-٥-

عَلِيٌّ وٱلْمَوْتِ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

(أَيُّهَا النَّاسُ، شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ، وَ عَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ، وَ ضَعُوا تِيجَانَ الْمُفَاخَرَةِ. أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ، أَوِ ٱسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ. هَذَا مَاءٌ آجِنٌ، وَ لُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا. وَ مُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا، كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ[١]. فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا: حَرَصَ عَلَىٰ الْمُلْكِ، وَ إِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا: جَزِعَ مِنَ الْمَوْتِ! هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا، وَ الَّتِي! وَ اللهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ، بَلِ ٱنْدَمَجْتُ عَلَىٰ مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمْ ٱضْطِرَابَ الْأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ[٢]!).

اللُّغَة:

عَرِّجُوا: مِيلُوا. وأَفْلَحَ: فَازَ: وآجِنٌ الْمَاء ـ بِفتح الجيم ـ تَغير لونه، وَطَعمه فصَار كَرِيه المذَاق. وٱنْدَمَجْتُ عَلَىٰ كَذا: ٱنطويتُ عَلَيْهِ. والمَكْنُون: المَستُور. والْأَرْشِيَة: جَمع الرِّشاء ـ بِكَسر الرَّاء ـ الحَبل. والطَّوِيُّ: البِئر. والْبَعِيدَة: الْعَمِيقَة.

الْإِعْرَاب:

كَالزَّارِعِ خَبَرَ لِمُجْتَنِي. وهَـيْهَات آسم فِـعل بِمَـعْنَىٰ بَـعُد. واللَّـتيَّا، وَالَّـتِي جَـر بِالإِضَافة، واللاَّم مَفتُوحة فِي اللَّتيَّا، وَيُعبر بهَاتِين الكَلمتِين عَن الأهوَال كبَارها، وصغَارها، وقِيل: اللَّتَيَّا الهَوْل الصَّغِير، وَالَّتِي للهَول الكَبِير[1].

الْمَعْنَىٰ:

(أَيُّهَا النَّاسُ، شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ، وَ عَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ، وَ ضَعُوا تِيجَانَ الْمُفَاخَرَةِ). هَذِه ٱلْخُطْبَة قَالها الإِمَام بَعد أنْ حَدَث مَا حَدث مِن أمر السَّقِيفَة، وبَيْعَة أبي بَكْـر، ومُحَـاولة أَبي سُـفْيَانَ إثَـارة الْـفِتَن، والقَـلاَقل، ويَأْتِي التَّفصِيل. والمُفَاخرة، والمُنَافرة بِمَعنىً وَاحـد، أو مُـتلاَزمان لأنّ المـفَاخرة النّـفرة والعدَاء. والْفِتَن كأموَاج البَحر تُؤَدِّي إِلَىٰ الغَرق، والهَلاك. وأيّة وسِيلة يَكُون بِهما الخَلاص مِن الْفِتَن، ومحَارم الله سُبْحَانَهُ فَهِيَ سفِينة النَّجَاة والسَّلاَم... هَذِه كَـانَتْ نَصِيحة الْإِمَام لِلْمُسْلِمِين حِينَ بُويع أبو بَكْر بالخِلاَفَةِ، وكلّ حَيَاة الإِمَـام نُـصح، وتَضحِية مِن أَجل ٱلإِسْلاَم. لقَد كَانَ يَرىٰ ٱلْخِلاَفَة حقّاً لهُ لا يجُوز أنْ تُصرف إِلَىٰ غَيْره كَائِناً من كَانَ، وكَانَ فِي الوقت نَفْسه يَرىٰ أنّ مَصلحة ٱلإِسْلاَم أَهم، وفَـوق كلّ شَيء.

قَالَ الأدِيب الشّهِير طَه حُسين: «كَانَ عَليّ رَبِيب النَّبِيّ ﷺ، وصَاحب السّابقة فِي ٱلإِسْلاَم، وصَاحب البَلاء الْحَسَن المُمتاز فِي المشَاهد كلّها، وكَانَ النَّبِيّ يَـدعُوه

---

(١) آسمان مِن أسماء الداهية. أنظر، مختار الصّحاح: ٣٠٣، القاموس المحيط: ٣٨٤/٤، معجم البحرين: ١٠٧/٤.

أخَاه، حَتَّىٰ قَالت لهُ أُمّ أَيمن ذَات يَوْم مُداعبة: تَدعُوه أخَاك وَتُزوجه ٱبْنَتك! وَقَالَ لهُ النَّبِيّ: أَنْتَ مِني بِمَنْزِلَةِ هَارُون مِن مُوسَىٰ[1]، وَقَالَ لِلْمُسْلِمِين يَوماً آخر: مَن كُنت مَوْلاَه فَعليٌ مَوْلاَه[2]... مِن أجْل ذَلِكَ كلّه أَقبل الْعَبَّاس بَعد وفَاة النَّبِيّ ﷺ، وَقَالَ لهُ: مُدَّ يَدك أُبَايعك، ولكنَّ عَلِيّاً أَبىٰ مَخَافة الْفِتْنَة... وجَاءَه أبُو سُفْيَانَ الَّذي حَارب النَّبِيّ ﷺ، ولَم يَسلم إلاّ كَارِهاً لا طَائِعاً، وٱعترَف بأنّ لاَ إله إلاّ الله، ولكنْ حِينَ طَلَب إِلَيْهِ أنْ يَشهد أنّ مُحَمَّداً رَسُول الله قَالَ: أَمَّا هَذِهِ فإنّ فِي نَفْسي مِنهَا شَيْئاً، ولَوْلاَ حثُّ الْعَبَّاس لهُ، وتَخويفه الْقَتْل لمَا ٱعترَف بِهَذِه الشّهادة الَّتِي كَانَ فِي نَفْسِه مِنْهَا شيء... فهُو إذَنْ أحَد الطُّلقاء... جَاء أبو سُفْيَانَ إِلَىٰ عَلِيّ وَقَالَ لهُ: ٱبْسط يَدَّك أُبَايعك، ولكنَّ عَلِيّاً أَبىٰ أنْ يَسْتَجيب خَوْفاً مِن إثَارة الْفِتْنَة»[3].

---

(١) تَقدَّم إستخراج ذَلِكَ.

(٢) تَقدَّم إسْتِخرَاج ذَلِكَ.

(٣) أنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه: ١٧، طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م، وموقف أَبِي سُفْيَانَ صخر بن حَرْب الأُموي: وهُو الْعَدُوّ الأَوّل لرسول الله ﷺ، والْعَدُوّ اللّدود لعليّ بن أَبِي طالب عليه السلام وللإِسْلاَم منذ بدء الدَّعْوَة الإِسْلاَميّة حَتَّىٰ غُلِبَ عَلَىٰ أَمْرِه فِي فتح مَكَّة، وتوفي فِي صدر خلافة عُثْمان، ولم يدخل الإِيمَان فِي قَلْبه، وَلاَ فِي قلب أَوْلاَده، وعندما توفي رَسُول الله ﷺ وكَانَ غائباً عَن الْمَدِينَة، رجع فلقي رجلاً فِي بَعض طريقه مقبلاً مِن الْمَدِينَة، فَقَالَ له: مات مُحَمَّد؟ قَالَ: نعم. قَالَ: فمن قام مقامه؟ قَالَ: أبو بَكْر. قَالَ أبو سُفْيَانَ: فماذا فعل ٱلْمُسْتَضْعَفَان عليّ، والعَبَّاس؟ قَالَ: جالسين. قَالَ: أَمَا والله لئن بقيت لهما لأرفعن مِن أعقابهما، ثمّ قَالَ: إنّي أرىٰ غبرة لا يطفيها إلاّ دم، ثمّ لما وصل الْمَدِينَة جعل يطوف فِي أزقتها ويقول:

بني هاشم لاتطمعوا النّاس فيكم ... وَلاَ سيما تَيم بن مرة أو عَدِيّ

فما الأَمْر إلاّ فيكم وإلَيكُم ... ولَيْسَ لها إلاّ أبو حسن عليّ

العقد الفريد: ٦٢/٣، السَّقِيفَة برواية شَرْح النّهج لإبْن أَبِي الْحَدِيد: ١٣٠/٣.

وفِي رواية: زاد اليعقوبيّ:

أبا حسن فأشدد بها كف حازم ... فإنك بالأَمْر الَّذي يرتجىٰ ملي

(أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ، أَوِ ٱسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ.). الْمُرَاد بالجَنَاح هُنا الْقُدْرَة، والْمَعْنَىٰ أَنّ مَن يَملك الْقُدْرَة، ويَستغلها فِي إحقَاق الحَقّ، وإزهَاق ٱلْبَاطِل فقَد رَبح، وفَاز، أَمَّا العَاجز فخَير له، وللنَّاس أَنْ يَصبر حَتَّىٰ إِذَا مَرّت الْفُرْصَة ٱنْتَهزها، وَمِن أَقْوَال الإِمَام: «مِنَ الخُرْقِ المُعَاجَلَةُ قَبْلَ الإِمْكَانِ، والأَنَاةُ بَعْدَ الفُرْصَةِ»[1]... لقَد آذت قُرَيْش رَسُول الله ﷺ وَقَالَ عَنْه عُتَاتها: شَاعر، وسَاحر، وكَاهن، ومَجنُون، ووثَبوا عَلَيْهِ يَوماً، فأخَذ بَعضهم بخنَاقه، وجذَبه آخر بثُوبه، ونَتَف ثَالث مِن شَعره.. وحَرشوا عَلَيْهِ الصّبيَان فطَاردُوه، ورمُوه بالحجَارة حَتَّىٰ أُصِيب فِي قَدمِيه، وسَالت مِنْهَا الدِّمَاء... كلّ هَذَا وأَكْثَر مِن هَذَا حَدث لرَسُول الرَّحْمَة ﷺ دُونَ أَنْ يُحرك سَاكِناً طَاعَة لله فِي قَوْله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[2]. ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[3].

(هَذَا مَاءٌ آجِنٌ، وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا. وَ مُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا، كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ). هَذِه إشَارة إِلَىٰ طَلب ٱلْخِلاَفَة، والظّرُوف غَيْر مؤَاتِية، وإِنّه مِن الحُمْق، وسُوء التّصرف أَنْ يَطلبها، أَو يَتصدىٰ لهَا مَع المُقَاومة، وإعلاَن الحَرْب

↔ تَأريخ اليعقوبيّ: ٢/١٥٠، شَرْح النّهج: ٦/٧.

وزاد الطَّبَرِيّ فِي تَأريخه: «... أين ٱلْمُسْتَضْعَفَان! أين الأذلان! عليّ، والْعَبَّاس؟ وَقَالَ: أبا حسن أبسط يدك حَتَّىٰ أُبايعك فأبىٰ عليّ عليه السلام وجعل يتمثل بشعر المتلمس:

إِنَّ الهـوان حِمَار الأَهْـل يـعرفه ... والحـر يـنكره والرّسـلة الأجـد

تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٣/٤٤٩، والسَّقِيفَة لأَبِي بَكْر الجوهري برواية شَرْح النّهج لاِبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢/١٣٠.

(١) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٣٦٣).

(٢) لُقْمَان: ١٧.

(٣) يُونُس: ١٠٩.

مِن أجْلها، لِأَنَّهَا كَانَتْ بالنِّسبة إِلَيْهِ بَعد وَفَاة الرَّسُول ﷺ كالْمَاء الَّذي لا يُسْتسَاغ شُربه، واللّقمة يَغص بهَا الآكل، والثَّمَرَة المَقطُوفة قَبل النّضوج، وَمَن قَطف الثَّمَرَة قَبل الأوَان لاَ يَنْتَفع بِها كَمَا أنّ مَن زَرع فِي غَيْر أرْضه لا يَنْتَفع بِمَا زَرع... ولَيْسَ مَعْنَىٰ هَذَا أنّ العَاجز لا يَنْبَغِي لهُ أنْ يُطالب بِحَقه، كلاً، بَل أنْ يُطالب، ويَحتج، ولكنْ عَلَىٰ قَدر طَاقته... وأشرنَا فِيما سَبق إِلَىٰ ٱحتجَاج الْإِمَام ﷺ عَلَىٰ مَن سَبقه إِلَىٰ ٱلخِلاَفَة.

وَقَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: يُشِير ـ الْإِمَام بقَوْله هَذَا ـ إِلَىٰ أنّ ذَلِكَ لَم يَكُنْ الوَقت الَّذي يَسوغ فِيهِ طَلَب الْأَمْر فلُو نَهض إِلَيْهِ كَانَ كَمُجتني الثَّمَرَة قَبل إينَاعها، وَنُضجها[1]. وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلحَدِيد: يَجُوز أنْ يُرِيد بَيْعَة السَّقِيفَة[2].

(فَإِنْ أَقُلْ ـ أي أطلُب ٱلخِلاَفَة ـ يَقُولُوا: حَرَصَ عَلَىٰ الْمُلْكِ، وَ إِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا: جَزِعَ مِنَ الْمَوْتِ!). ثُمَّ مَاذا وإنْ قَالُوا؟ أَليس أَكْثَر النَّاس، أو الكَثِير مِنْهُم عَلَىٰ ذَلِكَ مُنذ كانُوا؟. وهَل ٱتفقوا عَلَىٰ تَصرف وَاحد مِن الْخَالِق، أو مِن الْمَخْلُوق؟... وذُو الضَّمِير الحَي، والدِّين المَتِين يصغِي لوجدَانه، وإِيمَانه، وَيسخَر مِن كلّ قَول لا يُؤْمِن بِهِ، وإنْ أَجمَع عَلَيْهِ أَهْل الدُّنْيَا... وأحمد الله عَلَىٰ هَذِه النِّعْمَة، وهِي وَسِيلتي إِلَىٰ رِضْوَانه، وَجِنَانه.

(هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا، وَ الَّتِي!). أبَعد أنْ رَكب عليٌّ الأهوَال، والشَّدَائِد فِي بَدْر، وأُحد، وخَيبر، وٱلْأَحْزَابِ، وغَيْرها، وبَارز مَرحباً، وٱبن وِدّ العَامري، وبَات عَلَىٰ فِرَاش النَّبِيّ لَيْلَة الْهِجْرَة، وبَرقت الأسُنة، ولمَعت السُّيُوف مِن حوله، يَنْتَظر ٱلْمَوْت بَيْنَ لَحظة، وَلَحظة، أبَعد هَذَا وأَكْثَر مِن هَذَا يُقَال: جَزِعَ عليّ مِنَ الْمَوْتِ!؟

(١) أنظر، شَرْح النَّهج: ١/ ٤٠.
(٢) أُنظر، شَرْح النَّهج: ١/ ٢١٤.

قَالَ فِيلسُوف صِيني: ٱلإِنْسَان أَكْثَر مخلُوق مُشاكس فِي العَالم، وقَد خَلقه الله، وهُو يَعلم أَنَّه يخلق كَائناً مُشاكِساً: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ (١).

(وَ اللهِ لاٰبْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ). واللهِ كلّ من يَعْرِف: مَن هَو عليّ عليه السلام يُقسم معَه هَذَا القَسم، بَل كلّ مَن يَثق، ويُؤْمِن بأَنّ لهُ بَعد ٱلْمَوْت ما لعَليّ مِن النَّعِيم، والتّعظِيم عِند الله كمَا وَثق، وآمن عَليّ بِذَلِكَ طَلَب ٱلْمَوْت وتَعشَقه، وأَنس بِهِ كمَا يَأنس الطّفل بِثَدي أُمّه، أو أَكْثَر... وإِذَنْ فأَين مكَان العُجب فِي قَول عليّ هَذَا، أو فِي قَوْله: «فَوَاللهِ مَا أُبَالِي دَخَلْتُ إِلَىٰ الْمَوْتِ، أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ» (٢).

(بَلِ ٱنْدَمَجْتُ عَلَىٰ مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاٰضْطَرَبْتُمْ ٱضْطِرَابَ الْأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ!). يُرِيد الإِمَام بِهَذا العِلم أَسرَار النَّبيّ صلى الله عليه وآله الَّتي خَصّه بهَا، وٱئْتَمَنه عَلَيْهَا دُونَ غَيْره، وقَوْله: «لَوْ بُحْتُ بِهِ لاٰضْطَرَبْتُمْ» يومىء إِلَىٰ أَنّ النَّبيّ صلى الله عليه وآله أَخْبَره عَن حَقِيقَة بَعْض الْصَّحَابَة الّذين يَظن النَّاس بِهِمْ خَيراً، وهُم عِند الله مِن شرَار خَلقه... ومَن كَانَ يَظن بأَهْل الجِبَاه السّود، وفِيهِمْ مِن الْصَّحَابَة، أَنْ يمرقُوا مِن الدِّين، أو يَظن بعَائِشَة فرَاش النَّبِيّ أَنْ تَركب الجَمَل، وتُحرض ٱلْمُسْلِمين عَلَىٰ أَنْ يَذبَح بَعضهم بَعضاً، أو يَظن بالزُّبَيْر، وهُو حوَاري رَسُول الله صلى الله عليه وآله أَنْ يحَارِب عَلِيَّاً ٱبن عَمَّته، وكَانَ أَشَد النَّاس حُبّاً له، وَمِن أَجْله شَهر السَّيْف يَوْم السَّقِيفَة؟.

ويُؤيد مَا ٱخترنَاه مِن تَفْسِير العِلم مَا جَاء فِي النَّهْج بَاب الْمُخْتَار مِن رَسَائِله بِعنوَان «مِن دُعَاءٍ لهُ»، وهُو قَوْله: «فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَسْلَمُوا، وَلَكِنِ ٱسْتَسْلَمُوا، وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ» (٣).

---

(١) ٱلْكَهْف: ٥٤.

(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ١/١٠٤، رقم ٱلْكِتَاب (٥٥).

(٣) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: رسالة رقم (١٦).

الخطبة

- ٦ -

أَضْرِبُ الْعَاصِيَ بالْمُطِيعِ:

(وَ اللهِ لاَ أَكُونُ كَالضَّبُعِ : تَنَامُ عَلَىٰ طُولِ اللَّدْمِ ، حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا ، وَ يَخْتِلَهَا رَاصِدُهَا ، وَ لَكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَىٰ الْـحَقِّ الْـمُدْبِرَ عَـنْهُ ، وَ بِـالسَّامِعِ الْـمُطِيعِ الْعَاصِيَ الْمُرِيبَ أَبَداً ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي . فَوَاللهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعاً عَـنْ حَـقِّي ، مُسْتَأْثَراً عَلَيَّ ، مُنْذُ قَبَضَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ حَتَّىٰ يَوْمِ النَّاسِ هَذَا) .

اللُّغَة:

الضَّبُع : مِن السِّباع مُؤنَثة . واللَّدْمِ : نَحوٌ مِن الضَّرْب . والرَّاصِد : الرَّقِيب ، والَّذي يَقْعُد بِالمرصَاد أي الطَّرِيق للحرَاسة ، وَيَخْتِلَهَا يَخدعها . والْمُرِيب : المُشكك .

الإِعْرَاب:

يَصِلَ مُضارع مَنْصُوب بأنْ بَعد حَتَّىٰ ، وَيَخْتِلَهَا مَعطُوف عَلَىٰ يَصِلَ .
أَبَداً ظَرف مَنْصُوب بأضْرِب . ومُسْتَأْثَراً حَال مِن التّاء فِي «مَا زِلْتُ» أو خَبَر بَعد

خَبَر. وحَتَّىٰ حَرف بِمَعْنَىٰ إِلَىٰ.

الْمَعْنَىٰ:

تَقَدَّم فِي خُطْبَة الشِّقشِقيَّة أنّ الكَـثرة الكَـثِيرَة مِـن ٱلْمُسْـلِمِين، وفِي مُـقدّمتهم الْأَنْصَار، والْمُهَاجِرُون ـ أَرَادوا الْإِمَام لِلْخِلاَفَة لأنّه الوَحِيد الَّذي يَضمن لَهُمْ الْعَدْل، والْكَرَامَة، وَيُحقق الْأَمْن والْحُرِّيَّة، وٱستجَاب لِيُؤدي مَا أَخَذَ اللهُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ «أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَىٰ كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَلاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ»، لكِنّ طَلْحَة، والزُّبَيْر، ومُعَاوِيَة وغَيْرهم سَاءهم أنْ يَكُون عَلِيّ عُوناً للمَظلوم، وخَصماً للظَّالم، فَجَنَّدُوا لهُ، وخَرجوا عَلَيْهِ. ولَيْسَ مِن ٱلْحِكْمَة فِي شيء أنْ يَبْقَىٰ الْإِمَام فِي الْمَدِينَة لِيَغزُوها أَهْل الشّام، وأَصْحَاب الْجَمَل، ومِن أجْل هَذَا ٱستَعد للخرُوج إِلَىٰ الْعِرَاق.

ولمّا أُشير عَلَيْهِ بِٱلْبَقاء فِي الْمَدِينَة قَالَ: (وَ اللهِ لاَ أَكُونُ كَالضَّبُعِ: تَنَامُ عَلَىٰ طُولِ اللَّدْمِ، حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَ يَخْتِلَهَا رَاصِدُهَا). كَيْفَ أصْبر، وٱنْتظر حَتَّىٰ يَغزُوني الْعَدُوّ فِي عِقر دَاري؟ أَترِيدُونني أنْ أَكُونَ كَالضَّبُعِ يَخدعها صَائِدها؟ لاكَانَ ذَلِكَ أَبداً (وَ لَكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَىٰ الْحَقِّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ، وَ بِالسَّامِعِ الْمُطِيعِ الْعَاصِيَ الْمُرِيبَ أَبداً، حَتَّىٰ يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي). أَبداً لا هوَادة عِند الْإِمَام للطُّغاة، وٱلْمُجْرِمِين ما وَجد عَلَيْهِمْ أعوَاناً، وأنصَاراً... لقَد وَجد المُجرِمُون الأعوَان للبَاطِل، فثَاروا بِهِمْ عَلَىٰ الْحَقّ، وحَاربُوه، فَهل يَسْتَسلم الْإِمَام، وعِنده مَن يَسمع، وَيُطِيع؟ وبِمَاذا يَعتذر إِلَىٰ الله، والنَّاس؟.

وَمِن كتَابٍ لهعليه السلام إِلَىٰ بَعْض أُمَرَاء جَيْشه: «وَإِنْ تَوَافَتِ الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَىٰ الشِّقَاقِ وَ الْعِصْيَانِ فَانْهَدْ بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَىٰ مَنْ عَصَاكَ، وَٱسْتَغْنِ بِمَنِ ٱنْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ

تَقَاعَسَ عَنْكَ، فَإِنَّ الْمُتَكَارِهَ مَغِيبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ، وَقُعُودُهُ أَغْنَىٰ مِنْ نُهُوضِهِ »[1].

(فَوَاللهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعاً عَنْ حَقِّي، مُسْتَأْثَراً عَلَيَّ، مُنْذُ قَبَضَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ حَتَّىٰ يَوْمِ النَّاسِ هَذَا). إِنَّ حقّ الإِمَام فِي الْخِلاَفَة هُو حقُوق الإِنْسَان بالذَّات، لأنّه الحَارس لهَا، والضّامن، وَمِن أجْل هَذَا وَحده حَاربُوه، ودَافعوه عَن الْخِلاَفَة، ولمَّا توافرت لهُ أسبَابهـا ثَار عَلَيْهِ النَّاكِثُون، والْقَاسِطُون، والْمَارِقُون، وخَلقوا المشَاكل، والمصَاعب لِلإِسْلاَم، والمُجتمع الإِسْلاَمي بكَامله مِن التّفرقة فِي الدِّين، وسَفك الدِّمَاء، وانتهَاك الحُرمات فَتظلّم الإِمَـام، وتَألم للْحَقِّ، والنَّـاس جَمِيعًا[2].

---

(١) أنظر، نَهْج الْبَلاَغَة: الْكِتَاب رقم (٤).

(٢) لقد كَانَ الإِمَام عليّ عليه السلام يتصرّف تصرّف الحجّة فَهُوَ الَّذي لم يرفع سَيْفاً بعد وفاة الرّسُول صلى الله عليه وآله عَلَىٰ الرّغم مِن مَعْرِفَته بأغتصاب حقّه. لكن قتال هَؤُلاَء وعدٌ وعهدٌ عَهْدِه إِلَيْهِ رَسُول الله صلى الله عليه وآله كما قَالَ الخوارزمي فِي مناقبه: ١٢٥ و ٢٢١: أخبرني سيّد الحفّاظ أبو منصور شهردار بن شيرويه بن شهردار الديلمي فيما كتب إليَّ مِن هَمَذان، أخبرني الشّيخ العالم محيي السُّنّة أبو الْفُتُوح عبدوس بن عبدالله بن عبدوس الهَمَذانيّ كتابه، أخبرني أبو الحُسَيْن أحمد بن مُحَمَّد بن تميم الحنظلي بقنطرة بردان... حدّثني جدّي سعد بن عبادة عَن عليّ عليه السلام قَالَ: أمرت بقتال ثلاثة: النَّاكِثِينَ، والْقَاسِطِينَ، والْمَارِقِينَ. أَمَّا الْقَاسِطُون فأهْل الشّام، وأَمَّا النَّاكِثُون فأهْل الجَمَل، وأمَّا الْمَارِقُون فأهْل النَّهْرَوَان.

وَقَالَ ابْن عساكر فِي: ٣ / ٢٠٠ ط بيروت مِن ترجمة الإِمَام عليّ عليه السلام مثله عَن زَيد بن عليّ... عَن عليّ قَالَ: أمرني رَسُول الله صلى الله عليه وآله بقتال النَّاكِثِينَ، والْمَارِقِينَ، والْقَاسِطِينَ. ومثله عَن عليّ بن ربيعه قَالَ سمعت عَلِيّاً يقول: عهد إِليَّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله أنْ أقاتل النَّاكِثِينَ، الْقَاسِطِينَ، والْمَارِقِينَ. ومثله عَن أنس بن عَمْرو... عَن عليّ قَالَ: أُمرت بقتال ثلاثة: الْمَارِقِينَ، والْقَاسِطِينَ، والنَّاكِثِينَ. ومثله عَن إِبْرَاهِيم عَن علقمة ومثله أيضاً عَن خليد القصري قَالَ: سمعت أَمِير الْمُؤْمِنِين عليّ يقول يَوْم النَّهْرَوَان: أمرني رَسُول الله صلى الله عليه وآله بقتال النَّاكِثِينَ، والْمَارِقِينَ، والْقَاسِطِينَ.

الخطبة

-٧-

اَتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ:

(اَتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مِلاٰكاً، وَ اتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً، فَبَاضَ، وَ فَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَ دَبَّ، وَ دَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ، فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَ نَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وَ زَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ، فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ، وَ نَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَىٰ لِسَانِهِ!).

اللُّغَة:

مِلاَك الْأَمْر: قوَامه الَّذي يَملك بِهِ، يُقَال: اَلْقَلْب مِلاَك الجَسد أي لا وجُود للجَسد إلّا بِهِ. وأَشْرَاك: جَمع حبَائل الصّيد. والحُجُور: جَمع حِجر ـ بِكسر الحَاء ـ حِضن اَلإِنْسَان. والزَّلَل: الزَّلق، ويَستَعمل فِي اَرتكَاب الذّنُوب. والخَطَلَ: الحُمْق.

الْإِعْرَاب:

فِعْلَ مَنْصُوب عَلَىٰ المَصْدَرِيَة أي فَعلوا فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي.. إلخ.

الخطبة

-٧-

ٱتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ:

(ٱتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مِلاٰكاً، وَ ٱتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً، فَبَاضَ، وَ فَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَ دَبَّ، وَ دَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ، فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَ نَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وَ زَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ، فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ، وَ نَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَىٰ لِسَانِهِ!).

اللُّغَة:

مِلاَك الْأَمْر: قوَامه الَّذي يَملك بِهِ، يُقَال: ٱلْقَلْب مِلاَك الجَسد أي لا وجُود للجَسد إلّا بِهِ. وأَشْرَاك: جَمع حبَائل الصّيد. والحُجُور: جَمع حِجر ـ بِكسر الحَاء ـ حِضن ٱلإِنْسَان. والزَّلَل: الزَّلق، ويَستَعمل فِي ٱرتكَاب الذّنُوب. والخَطَل: الحُمْق.

الْإِعْرَاب:

فِعْلَ مَنْصُوب عَلَىٰ المَصْدَرِيَة أي فَعلوا فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي.. إلخ.

الْمَعْنَىٰ:

(ٱتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مِلاٰكاً، وَ ٱتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً، فَبَاضَ.. إلخ). هَذَا الْوَصْف يَنطبق عَلَىٰ مَن أبغَض عَلِيّاً، ونَصب له العداء... إذْ لاَ مكَان أرْحَب، وَأوسع للأبَالِسة، والشّياطِين مِن بُغض عَليّ، وسَبّه، وحَرْبه... وأي شيء فِي عَليّ يَستُوجب السَّب، والعدَاء؟ أفِي زُهده بالدُّنْيا الَّتي لا تُعادل عِنده عَفْطَة عَنْز، أم فِي عَدله الَّذي مَلأ قُلوب البُؤساء، وٱلْمُسْتَضْعَفِين فَرحاً، وطَمأنِينةً، أم فِي عِلمه الَّذي لَوْلاَه لهَلك الرّاشدُون، وأهلَكوا مَعهم ٱلْمُسْلِمِين، أم فِي شجَاعته الَّتي هَدمت صَرُوح الشّرك، وأقَامت دَعَائِم الدِّين، وأركَانَ ٱلإِسْلاَم، أم فِي حَسَبه، وَنسبه، أم فِي مَاذا؟.

وَقَد تَعرض شُبْهَة كَاذِبة لإِنْسَان جَاهل فيؤلّه عَلِيّاً، وَيَقول بِربُوبِيته.... أَمَّا مَن نَصب لهُ العدَاء، وسَبّه عَلَىٰ المَنابر، وأَمر النَّاس بِسبّه، وعَلقّ المشَانق لِمن لا يُسب، ويُلعن، أَمَّا هَذَا فلاَ شُبْهَة لهُ، ولاَ مَعذَرة[1].

---

(١) تَقَدَّم إستخراج مَن أسّس سبّ، ولعن الإمَام عليّ عليه السلام عَلَىٰ منابر ٱلْمُسْلِمِين.

أُنظر شواهد التّنزيل: ٢ / ٤٥٩، فرائد السّمطِين: ١ ب ٣١ ح ١١٧ / ١٥٥ ط بيروت، تَأرِيخ دِمَشْق: ٢ / ٣٤٨ و٤٤٢ و٤٤٣ ح ٨٥١ الطَّبعة الثَّانِيَة ح ٩٥٩، لِسَان الميزان: ١ / ١٧٥، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ١٠٣ و١١٣، أحمد بن حنبل: ح ٧٢ / ٤٦ ط قم، كفاية الطّالب: ب ٦٢ / ٢٤٤ و٢٤٦، كنوز الْحَقَائِق: ٨٢ و٩٢ و ١٣١، المناقب للخوارزمي: ٦٢ و١٨٧ فصل ١٧ ح ١١ فصل ٩، نور الأَبْصَار: ٧٠ و١٠١، الصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة: ٩٦ و١٦١ ولكن رغم أنّه يروي الْحَدِيث بلفظ «... قَالَ: ومَن عدوي؟ قَالَ: من تبرّأ منك ولعنك» فقد سبّ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام وذَلِكَ مِن خلال حبّه ـ أبن حجر ـ لمُعَاوِيَة بن أَبِي سُفْيَانَ الَّذي سبّ عليّ عليه السلام، ولعنه فِي الأقطار الإِسْلاَمِيّة وطلب التّبرّي مِنْهُ وإنْ لم يَكُنْ ذَلِكَ فالضَّرْب، والشّتم، والهتك، والقتْل للمؤمنين، وَهَذَا مشهور ولا يَحْتَاج إِلَىٰ برهان ودليل. وأُنظر خصائص الوحي المبين: ١٣١

⇔

الخطبة

- ٨ -

بَايَعَ بِيَدِهِ:

(يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ، وَ لَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ، فَقَدْ أَقَرَّ بِالْبَيْعَةِ، وَ ادَّعَى الْوَلِيجَةَ. فَلْيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرَفُ، وَ إِلاَّ فَلْيَدْخُلْ فِيمَا خَرَجَ مِنْهُ).

اللُّغَة

الْوَلِيجَةَ: الْمُضْمَرة[١].

⇐ فصل ٢١ الطّبعة الأُولَىٰ، الدُر المنثور: ٦ / ٧٩، و٣١٩، و: ٧ / ٣٠٥، مَجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٣١، و: ٧ / ١٧، وبشارة الْمُصْطَفَىٰ: ١٦٣، تَفْسِير الطَّبَرِيّ: ٦ / ١٨٦، و: ١٢ / ٦٥٧ ط أُخرىٰ، وذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٨٨ و ١٠٢، وروح الْمَعَانِي: ٣٠ / ٢٠٧ ط مِصْر، وتَأريخ بغداد: ٧ / ٤٢١، الأغاني: ١٨ / ٣٩ الطّبعة الأُولَىٰ بيروت، والمسترشد فِي إمَامَة أَمِير الْمُؤْمِنِين: ٣٥٤، ويَنَابِيع المَوَدَّة: ٦٢ و٧٤ و٢٧٠ ط اسلامبول و: ٧١ و٨٤ و٣٦١ و٣٦٢ ط الحيدرية، و: ١ / ١٩٦ و٢٢٣ ط أُسوة، و: ٢ / ٣٥٧ و ٤٥٢ ط أُسوة، وتذكرة الخواص: ١٨، وفتح القَدِير للشوكاني: ٥ / ٤٧٧، إسعاف الرّاغبين بِهَامِش نور الأَبْصَار: ١٧٢، جواهر العقدين: ٢ / ٢١٩، وفِي الصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة: ١٦١ ب ١١ فصل ١....

(١) أي وَلِيجَة الرّجلِ بِطَانته، ودُخلاؤه، وخَاصته. أنظر، النِّهَايَة فِي غريب الْحَدِيث: ٥ / ٢٢٣، لِسَان الْعَرَب: ٢ / ٤٠٠.

الإِعْرَاب:

فَلْيَأْتِ مَجْزُوم بِلاَم الطَّلب. وإلاّ كَلمتَان: إنْ الشّرطِية، ولاَ النّافِية، وَفِعل الشّرط مَحْذُوف أي وإنْ لَم يَأت فَلْيَدْخُلْ.

الْمَعْنَىٰ:

بَايَع الزُّبَيْر عَلِيّاً ثُمَّ نَكث، وتآمر، ولمّا آحْتَج عَلَيْهِ الإِمَامﷺ بِالْبَيْعَةِ قَالَ: أظْهَرتها ومَا قَصدتها... وإنْ دَلت هَذِه الْمَعْذِرَة عَلَىٰ شَيء فإنّما تَدل عَلَىٰ جَهل الزُّبَيْر بدِين الله، وشَرِيعَة رَسُول اللهﷺ لأنّ قَوْله: بَايعت، إِقْرَار صرِيح بِالْبَيْعَةِ، وهل يَسْتَطِيع لهَا نَفياً، وإنكَاراً!.. والْمَرْء مؤاخذ بِإقْرَاره، وبِهِ تَثبت المَسْئُولية عَلَيْهِ أمَام الْقَضَاء فِي جَمِيع الشّرائع. أَمَّا قَوْله: مَا قَصدت، ولاَ أرَدت فَمردُود عَلَيْهِ إلاّ مَع الدَّلِيل القَاطع، لأنّ الإرَادَة يُترجم عَنْهَا القَوْل، أو الفِعْل فهُو الحُجّة لمَن قَالَ، أو فِعل. وقد أظهر الزُّبَيْر ٱلْبَيْعَة، وعَبّر عَنْهَا بوضُوح، وَصرَاحة، ثُمَّ آدعىٰ خِلاف هَذَا الظَّاهِر فَعلِيه أنْ يزثبت وإلا فَلْيَلتزم بِمَا أظهر، وعبّر. أَمَّا الوَاقع بِمَا هُو فَلا أثَر لهُ أمَام الْقَضَاء مَا دزام مَستوراً، وَمَجهولاً.

الخطبة

- ٩ -

أَرْعَدُوا وَ أَبْرَقُوا:

(وَ قَدْ أَرْعَدُوا ، وَ أَبْرَقُوا ، وَ مَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ ، وَ لَسْنَا نُرْعِدُ حَتَّىٰ نُوقِعَ ، وَ لاٰ نُسِيلُ حَتَّىٰ نُمْطِرَ) .

اللُّغَة:

أَرْعَد ، وَأَبْرَق : هَدَد ، وَتَوعد . والْفَشَلُ : الْجُبْن ، والضَّعْف .

الْإِعْرَاب:

تَسْتَعمل «مَعَ» مُفردة غَيْر مُضَافة ، فَتُنوّن وَتَكُون حَالاً نَحو جِئنا معاً أي جَمِيعاً ، وَتَسْتَعمل مُضَافة لمكَان الإِجْتمَاع فتكُون ظَرفاً مكَانياً مِثل : اَجْتَمع مَعَكُمْ ، ولظرف الزّمان فَتَضمن مَعْنَاه نحو : جِئت مَع العَصر ، وتكُون بِمَعْنَىٰ عِند كقَول الإمَام : وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ أي عِندهما . وَلاٰ نُسِيلُ عَطف عَلَىٰ وَلَسْنَا نُرْعِدُ .

الْمَعْنَىٰ:

للضَّمير فِي أَرْعَدُوا، وَأَبْرَقُوا لأَصحَاب الجَمَل كمَا فِي شَرح ٱبن أَبي ٱلحَدِيد، وَقَالَ الشّارحُون لهَذا الكَلاَم: «إِنَّ الضّوضَاء والجلْبَة إمَارة الجُبْن، والْعَجْز، وهُو صِفَة أَصْحَاب الجَمَل الّذين أرْعَدوا، وأبرَقُوا بِلا مَطر، وإِنَّ الصّمت، والسُّكُوت إمَارة الشَّجَاعَة، والبطُولة، وَهِي مِن صِفَات الإِمَام عليه السلام»[1]. وَقد دَلتنا التَّجَارِب أنّ مِن سِمَات البطَالة، والفرَاغ كَثرة الثَّرثَرة، والتّفاهَات، ومِن صِفَات الضَّعْف، والغُرُور - فِي الغَالب - كَثرة الأقوَال الفَارغة، والإدعَاءات، أَمَّا البَطل المُتوَاضع فَيقول مَا يَفعل، وَلاَ يَقول ما لا يَفعل، وَقَالَ عَارف حَكِيم: «خَير المُحاربِيْنَ مَن لاَ يُظهر غَصبه الجَامِع»... والإِمَام لا يَقول شَيْئاً حَتَّىٰ يَفعله تَمَاماً كالسّيل لا يَجري إلّا بَعد نزُول المَطَر... ومِن أَقْوَاله: «إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ»[2]، وقرَأت لأحدِ فَلاَسفة هَذَا العَصر كَلِمَة قَالَ فِيهَا: فَرق وَاضح بَيْنَ الكَلاَم، والحَدِيث، لأَنّ القَصد مِن الحَدِيث فِي الغَالب مُجرد المُتْعَة، بِخَاصَّة إِذا كَانَ بَيْنَ صدِيقين، أَمَّا الكَلاَم فالْغَايَة مِنْهُ الجَدّ، والصِّدْق، والْوَفَاء.

---

(١) أُنظر، شَرح النّهج: ١/٢٣٨.

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (٤١).

الخطبة

-١٠-

الشَّيْطَانُ جَمَعَ حِزْبَهُ:

(أَلاٰ وَ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ، وَ آسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ، وَ رَجِلَهُ، وَ إِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي: مَا لَبَّسْتُ عَلَىٰ نَفْسِي، وَ لاٰ لُبِّسَ عَلَيَّ. وَ آيْمُ اللهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ! لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ، وَ لاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ).

اللُّغَة:

المُرَاد بخَيْلَه رَاكِبوا الخَيْل، وَبرَجِلَه المشَاة. وَلاٰ لَبَّسْتُ عَلَىٰ نَفْسِي: ما خَدعتها بِالأَمَانِيّ، ولاَ خَدَعتني بالكواذب. وَلاٰ لُبِّسَ عَلَيَّ: لا خَدعَني خَادع. لأُفرِطَنَّ: لأَملأَنَّ. ومَاتِحُه: مَالِئَه، أو نَازح مَائه مِن البِئر. والصّدُرُ: ضِدّ الورُود، وصَدُرَ عَنْه رَجَع، وآنْصَرف.

الإعْرَاب:

أَلاٰ لاِفْتِتَاح الكَلاَم، أو التَّنبِيه، وَآيْم مُبْتَدأ، والخَبَر مَحْذُوف أي قَسمي، وجُملة

لايَصْدُرُونَ صِفَة «حَوْضاً».

الْمَعْنَىٰ:

(أَلاَ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ، وَٱسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ، وَرَجِلَهُ). الشَّيْطَان مُضاف إِلَىٰ مَحْذُوف أي قَرِين الشَّيْطَان، أو نَصِير الشَّيْطَان. وظَاهر الكَلاَم يَصدق عَلَىٰ أَهْل صِفِّين، وأَصْحَاب الجَمَل، لأنّ كلاً مِنْهُمَا جَمَعَ حِزْبَهُ، وَٱسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ، وَرَجِلَهُ لحَرب الإِمَام عليه السلام. (وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي: مَا لَبَّسْتُ عَلَىٰ نَفْسِي، وَلاَ لُبِّسَ عَلَيَّ). لَيسَ الْمُرَاد بالبَصِيرَة هُنا المعَادلات العِلمِية، والأَرْقَام الإِحْصَائِية، بل المُرَاد بِهَا فِطْرَة الله الَّتي نَشأت، وَتَرعرَعت فِي أحضَان الرَّسُول الأَعْظَم صلى الله عليه وآله، والإِمَام يُدرك الأُمُور عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا بِهَذِه الْفِطْرَة الإِلهية المُحَمَّدية الَّتي لا تَخدع صَاحبها، وَتصُونه مِن خدَاع الخَادعِين.

قَالَ ٱبن أَبي ٱلحَدِيد: «مَا لَبَّسْتُ تَقسِيم جَيد لأنّ كلّ ضَال عَن ٱلهِدَايَة، فإمّا أَنْ يَضل مِن تِلقاء نَفْسه، وإمّا بإضلاَل غَيْره لهُ»[1]. وكلّ مِن هذِين لاَيَصدق فِي حقّ الإِمَام، لأنّ البَصِيرَة الَّتي كَانَتْ معهُ فِي عَهد الرَّسُول الأَعْظَم صلى الله عليه وآله هِي هِي مـا تَغيرت، ولاَ تَبدلت.

(وَٱيْمُ اللهِ لأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ! لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ، وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ). أي أنّ الإِمَام عليه السلام سَيلقّن حِزْب الشَّيْطَان دَرساً قَاسِياً لا يَنْسَاه أَبداً... فَمَن ثَبت مِن هَذَا الحِزْب للقتَال فَنَصِيبه ٱلمَوْت لا مَحَالَة، ومَن فـرَّ فَلنْ يَعود إِلَىٰ الْقِتَال

(١) أُنظر، شَرْح النَّهج: ١/٢٣٩.

ثَانِيَة... وَهَذَا مَا حَدث بِالضَّبط لأصحَاب الْجَمَل، كَمَا كَاد يُقتل مُعَاوِيَة، أو يَفرّ لَوْلاَ ٱلْمَصَاحِف، وبَيْت مِن الشّعر(١):

وَقَولِي كُلّما جَشأَت، وَجَاشتْ　　مكَانَكِ تُحْمَدي، أَو تَسْتَرِيحي

---

(١) يُنسب هَذِه ٱلْبَيْت إِلىٰ عَمْرُو بن عامر بن زَيد مناة الخَزْرَجي، شاعر وفارس مِن فرسان الجَاهِلِيّة، والإِطْنَابة أُمّه: بنت شهاب مِن بني القين، ومَعْنىٰ الإطْنَابة: سير الحزام يَكُون عوناً لسير آخر إِذَا قلق: وسير يشد فِي وتر القوس العَرَبِيّة. أنظر، معجم ٱلشُّعَرَاء للمرزباني: ٢٠٣ و ٢٠٤. أُنظر، الأَبْيَات وقِصَّة عزم مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَانَ عَلىٰ الفرار، والهروب مِن المعركة، لَوْلاَ أَنْ ذكر أبيات أبن الإِطْنَابة بعد أنْ وضع رجله فِي ركاب الفرس:

أبتْ لِي همَّتي وأَبَىٰ بلائي　　وأَخْذي الحَمْدُ بالثّمن الرَّبيح
وإِجشامي عَلَىٰ ٱلْمَكْرُوه نفسي　　وضَرْبِي هامة البَطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشتْ　　مكانَك تُحمدي أو تستريحي
لأدفع عَن مآثر صالحاتٍ　　وأَحمي بعْدُ عَن عِرْض صَحِيح

تَارِيخ الطَّبَرِيّ: ٤/١٧، البداية والنِّهَايَة: ٧/٢٩٤، أَنْسَاب الأَشْرَاف للبلاذري: ٣٠٦، وَقْعَة صِفِّين: ٣٩٥، أمالي القالي: ١/٢٥٨، لباب الآداب: ٢٢٣، المناقب للخوارزمي: ٢٤٤، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لابن أبي ٱلْحَدِيد: ٢/٢٢٥، لِسَان الميزان: ١٣/٥٠٦، الكَامِل: ٤/٦٨، الوحشيات: ٧٧، تَارِيخ دِمَشْق: ٢٦/٤٢٦، الأخباريين: ١٥٩، عيون الأَخْبَار: ١/١٢٦، العقد الفريد: ١/١٠٤.

الخطبة

- ١١ -

أَعِرِ اللهَ جُمْجُمَتَكَ:

(تَزُولُ الْجِبَالُ وَ لاَ تَزُلْ ! عَضَّ عَلَىٰ نَاجِذِكَ . أَعِرِ اللهَ جُمْجُمَتَكَ . تِدْ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ . آرْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَىٰ الْقَوْمِ . وَ غُضَّ بَصَرَكَ . وَ آعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ) .

اللُّغَة:

النَاجِذ : وَاحد النَواجِذ ، وهِي أَقْصَىٰ الأضرَاس الْأَرْبَعَة . والجُمْجُمَة : عَظم الرّأس المُشتَمل عَلَىٰ الدَّماغ . وتِدْ : ثَبت قَدَمَك كالوَتد .

الإِعْرَاب:

بِبَصَرِكَ البَاء زَائِدَة أي آرْمِ بِبَصَرِكَ . والْمَصْدَر مِن أَنَّ النَّصْرَ . . إلخ . . . سَاد مَسد مَفْعُولي آعْلَمْ .

الْمَعْنَىٰ:

أعْطَىٰ الْإِمَامُ عليه السلام الرَّاية[1] يَوْم الْجَمَل لوَلَده مُحَمَّد بن الْحَنَفِيَّة[2]، وأوصَاه بِهَـٰذِه الْوَصِيَّة، وكَانَ الْإِمَام يَقذف بِهِ فِي مهَالك الْحَرْب ثِقة بِصَبره، وَشَجاعته، ويَكف عَنْهَا الْحَسَن، والْحُسَيْن عليهما السلام لِئلا يَنْقَطع نَسل رَسُول الله صلى الله عليه وآله. كَمَا أشَار إِلَىٰ ذَلِكَ فِي

(١) كَانَتْ فتنة الْجَمَل الأصغر فِي الْبَصْرَةِ لخمس بقين مِن ربيع الثَّاني سنة (٣٦ هـ) قبل وصول الْإِمَام عليّ عليه السلام إِلَيْهَا. وكَانَ عاملها عُثْمَان بن حُنَيْف الْأَنْصَاري الَّذي أسّره جيش أُمّ ٱلْمُؤْمِنِين، وطَلْحَة، والزُّبَيْر، والَّذي قتل من فِي الْمَسْجِدِ (٤٠) رجلاً مِن شيعة الْإِمَام عليّ عليه السلام، وقتل أيضاً (٧٠) آخرين فِي مكان آخر. وكَانَ عُثْمَان مِن ٱلصَّحَابَة الأجلاء. وأرادوا قتله لَكِنَّهُمْ خافوا من أنْ يثأر له أخوه سهل، والْأَنْصَار جَمِيعَاً فعمدوا عَلَىٰ نتف لحيته، وشاربيه، وحاجبيه، وشعر رَأْسه، وضربوه ضرباً مبرحاً، وطردوه مِن الْبَصْرَةِ. وقابلهم بعد ذَلِكَ حكيم بن جبلة مَع جَمَاعَة مِن بني عبدالقَيْس، ومِن رَبِيعَة فَاقتتلوا معهم حَتَّىٰ اسْتُشْهِدَ مِنْهُم جَمَاعَة، ومِنْهُم الأشرف بن حكيم، وأخوه الرعل، وفتحت الْبَصْرَة كما ذكر صاحب أُسد الغَابَة: ٣٨/٢، وشَرْح نَهْج ٱلْبَلَاغَة: ٢/ ٤٨١ ط بيروت أفست، وأَنْسَاب الْأَشْرَاف للبلاذري: ٢/ ٢٢٨، ومروج الذّهب للمسعودي: ٢/ ٣٥٨، كتاب الْجَمَل للشيخ المفيد ط الحيدرية، كتاب أحاديث عَائِشَة أُمّ ٱلْمُؤْمِنِين للعلّامة العسكري: ١/ ١٢١ ـ ٢٠٠ ط الحيدرية فِي طهران و١٧٢ ـ ٢٧٠ ط ٥ مطبعة صدر نشر دار التَّوْحِيد، وتَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٥/ ١٧٨.

أَمَّا وَقْعَة الْجَمَل الْأَكْبَر فَكَانَتْ فِي جمادى الثَّانِيَة مِن نفس السّنة أي سنة (٣٦ هـ) بعد ستة أشهر مِن خلافة أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام كما ذكر صاحب أعيان الشّيعة: ١/ ٤٤٧، والكَامِل لِابْن الْأَثِير: ٣/ ٢٠٥، وتَأرِيخ اَبْن أَعْثَمْ: ١٧٦. ولَسْنَا بصدد بَيَان ذَلِكَ، وكَانَ اللواء بيد مُحَمَّد ٱبن الْحَنَفِيَّة. أنظر، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤٦٥/٣، و: ٢٠٧/٥ ط أُخرىٰ، وتَأرِيخ الْفُتُوح لِابْن أَعْثَمْ: ٤٧٨/١ ومروج الذّهب: ١٣/٢.

(٢) مُحَمَّد بن الْحَنَفِيَّة: هُو مُحَمَّد بن عليّ بن أَبي طالب، ٱبن الْحَنَفِيَّة خولة بنت جعفر بن قَيْس بن مَسْلَمَة بن عُبَيْد بن ثعلبة بن يربوع بن حنفية مِن جذم بَكْر بن وائل، سبيت ثمّ أخذها عليّ عليه السلام، واختلفوا فِي كَيْفِيَّة سبيها، روىٰ ٱبن أَبي الْحَدِيد فِي شَرْح النَّهْج: ١/ ٨١ مِن شرحه عَن أَنْسَاب البلاذري أنّ بني أسد أغارت عَلَىٰ بني حَنِيفَة فِي أَيَّام أَبي بَكْر فسبوها مِنْهُم، وقدموا بها الْمَدِينَة فباعوها مِن عليّ، وبلغ قومها خَبَرها فأتوا عَلِيّاً وأخبروه بمَوْضِعها مِنْهُم، فأعتقها، ومهرها وتزوّجها فولدت مُحَمَّداً فكنّاه أبا القاسم. وقيل: إنَّ خالداً قاتل أهلها فِي حَرْب الرِّدَّة، وسباها ودفعها أبو بَكْر إِلَىٰ عليّ. (أنظر المعارف لِابْن قُتَيْبَة: ٢١٦).

بَعْض ما يَأْتِي مِن كلاَمه . . . . وكَانَ مُحَمَّد مُطِيعاً لأخوِيه الحَسَنِين مُقرّاً بـإمَامتهما، ومَا ادعىٰ الإمَامَة بَعدهما، وَلاَ دَعا أحداً لنَفْسِه، وكَانَ مِن رُؤُوس التّابِعِين عِلماً، وَتُقىً ومكَانةً.

الخطبة

-١٢-

أَهَوَىٰ أَخِيكَ مَعَنَا:

(فَقَالَ لَهُ عليه السلام : أَهَوَىٰ أَخِيكَ مَعَنَا ؟ فَقَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَقَدْ شَهِدَنَا ، وَ لَقَدْ شَهِدَنَا فِي عَسْكَرِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلاَبِ الرِّجَالِ ، وَ أَرْحَامِ النِّسَاءِ ، سَيَرْعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ ، وَ يَقْوَىٰ بِهِمُ الْإِيمَانُ) .

الْمَعْنَىٰ:

لَيْسَ هَذَا مِن ٱلْخُطْبَة فِي شيء ، وَمَع ذَلِكَ أطلَقنا عَلَيْهِ ، وَعَلَىٰ بَعْض ما تَقَدَّم ٱسم ٱلْخُطْبَة ، ونُطلقه أيضاً عَلَىٰ بَعْض ما يَأْتِي ، أوّلاً لأنّه مُدرج فِي باب الخُطْب . وثَانِياً للتِّيسِير عَلَىٰ مَن يَرجع إِلَىٰ «الكَاشف عَن أَلفَاظ النَّهج»[1] لِيَهْتَدِي إِلَىٰ مَا يَبْتَغِيه مِن كَلِمَات الْإِمَام عليه السلام .

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي : ومِن كَلام له عليه السلام لَمَّا أظفَره الله بأَصْحَاب الْجَمَل ، وَقَدْ قَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ : وَدِدْتُ أَنَّ أَخِي فُلَاناً كَانَ شَاهِدَنَا لِيَرَىٰ مَا نَصَرَكَ اللهُ بِهِ عَلَىٰ أَعْدَائِكَ . فأجَابه الْإِمَام بِهَذِه الكَلِمَة ، ومعناها أنّ كلّ من كَانَ هوَاه مَع الْحَقّ فَقد

---

(١) أنظر ، المُعْجَم المفهرس لألفاظ نَهج ٱلبَلاَغَة ، طَبْعَة دار التّعارف للمطبوعات ، بيروت ، لبنان .

رآنا بقَلْبه، وعَقْله، ولهُ أجر الأخيَار، والأبرَار حَاضراً كَانَ فِي عَسكرنا هَـذَا، أَم غَائِباً عَنْه... وَسَيجُود الزّمان بأجيَال مِن شِيعتنا يُقوّي بِهِمْ الْحَقّ، وَيَعتز الدِّيـن بِصدقهم، وإِخلاصهم، وهُم معنا، وفِي هَذَا العَسكر، وإِنْ غابوا عَنْه بأبدَانهم.

وَإِذَا كَانَ الغَرض مِن الْقِتَال مَع الإِمَام مَرضاة الله، والْجَنَّة فكلّ مَن مَات عَـلَى وِلاَيته فهُو مِن أَهْل ٱلْجَنَّة لِحَدِيث: «يَا عَلِيّ أَنْتَ وَشِيعَتك فِي الجنَه»[(١)].

---

(١) أُنظر، تأريخ الخطيب البغدادي: ١٢/ ٢٨٩ ح ٦٧٣١، مطبعة السّعادة بِمصْر سَنَة ١٣٤٩ هـ، حـلية الأَوْلِيَاء: ٤/ ٣٢٩ مطبعة السّعادة بِمصْر سَنَة ١٣٥١ هـ. (مِنْهُ ﴿ﻅ﴾)، وأُنظر مَجْمَع الزّوائد: ٩/١٣١، المُعْجَم الْكَبِير: ١/٣١٩ ح ٩٤٨، شواهد التّنزيل: ٢/٤٥٩ الطّبعة الأُولَىٰ تحقيق المحمودي ١١٢٥ ـ ١١٤٨ مَع اختلاف فِي اللفظ، ولكن حديثنا ورد فِي الشّواهد تحت رقم ١١٢٦ عَن أبن عَبّاس بلفظ: قَالَ النّبِيّ ﷺ لعليّ: هُو أَنْتَ وشيعتك ـ لكن بإضافة: تأتي أَنْتَ وشيعتك ـ يَوْم ٱلْقِيَامَة راضين، ومرضيين، ويَأْتِي عَدُوّك غضاباً مقمحين ـ وأضاف: ـ قَالَ عليّ عليه السلام: يا رَسُول الله ومن عدوّي؟ قَالَ: من تبرّأ منك ولعنك، ثُمّ قَالَ رَسُول الله ﷺ: من قَالَ: رحم الله عَلِيّاً يرحمه الله. وفِي بَعْض الأَحَادِيث الأُخرىٰ السّابقة بلفظ: هم أَنْتَ، وشيعتك، وموعدي وموعدكم الحوض... وبلفظ: هم أَنْتَ وشيعتك يا عليّ وميعاد ما بيني وبَينكُمْ الحوض... وفِي البعض الآخر:... رواةً مرويّين، ويرد عَدُوّك عطاشاً مقمحين... وأُنظر، سعد السّعود: ١٠٨ ب ٢ الطّبعة الأُولَىٰ، تَفْسِير فرات: ٢١٨ و٢١٩ ح ٩٥١، فرائد السّمطين: ١ ب ٣١ ح ١١٧ / ١٥٥ ط بيروت، اللآلي المصنوعة: ١ / ١٧٠، تأريخ دِمَشْق: ٢/٣٤٨ و٤٤٢ و٤٤٣ ح ٨٥١ الطّبعة الثّانِيَة ح ٩٥٩، لِسَان الميزان: ١ / ١٧٥، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ١٠٣ و١١٣، أحمدبن حنبل: ح ٧٢ / ٤٦ ط قم قَالَ فِيه: عليّ خير البرية...، كفاية الطّالب: ب ٦٢ / ٢٤٤ و٢٤٦، كنوز الحَقَائِق: ٨٢ و٩٢ و ١٣١، أمالي الشّيخ الطّوسي: ٩ / ٢٥٧ ح ٣٦، غَايَة المرام: ٣٢٧ و٣٢٨ ح ١٠ ب ٢٧ وب ٢٨ ح ٦، تَفْسِير البرهان: ٤ / ٤٩١ الطّبعة الأُولَىٰ و٤٨٦ ط أُخرىٰ، المناقب للخوارزمي: ٦٢ و١٨٧ فصل ١٧ ح ١١ فصل ٩، نور الأَبْصَار: ٧٠ و١٠١، الصّوَاعِق الْمُحْرِقَة: ٩٦ و١٦١ ولكن رغم أنّه يروي الْحَدِيث بلفظ «... قَالَ: ومَن عدوي؟ قَالَ: من تبرّأ منك، ولعنك» فقد سبّ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام وذَلِكَ من خلال حبه ـ أبن حجر ـ لمُعَاوِيَة بن أَبِي سُفْيَانَ الّذي سبّ عليّ عليه السلام ولعنه فِي الأقطار الإِسْلاَمِيّة وطلب التّبرّي مِنْهُ وإِنْ لم يَكُنْ ذَلِكَ فالضَّرب، والشّتم، والهتك، والْقَتْل للمؤمنين، وَهَذَا مشهور وَلاَ يَحْتَاج إِلَىٰ برهان ودليل بل

الخطبة

-١٣-

أَتْبَاعُ الْبَهِيمَة:

(كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ؛ وَ أَتْبَاعَ الْبَهِيمَةِ، رَغَا فَأَجَبْتُمْ، وَ عُقِرَ فَهَرَبْتُمْ. أَخْلاَقُكُمْ دِقَاقٌ،

⇔ يكفي للمصنّف أنْ يسأل عَن قتل حجر بن عَدِيّ رضي الله عنه وأَصْحَابِه كمثال عَلَىٰ ذَلِكَ. وأُنظر الحَدِيث فِي خصائص الوحي المبين: ١٣١ فصل ٢١ الطَّبعة الأُولَىٰ، كَشف الغُمّة: ١ / ٣١٦، الدُّر المنثور: ٦ / ٧٩، و٣١٩، و: ٧ / ٣٠٥، مَجْمَع الزّوائد: ٩ / ١٣١، و: ٧ / ١٧ ولكن بإضافة:... ثمّ جمع يده إلىٰ عنقه يريهم الإقماح، وأُنظر بحَار الأَنْوَار: ٦٨ / ٣١ و٦٤ و٦٥، مصباح الأَنْوَار: ١٣٨ وفيهِ لفظ:... هم شيعتك، وأنْتَ إمامُهم.

وأُنظر إعلام الورىٰ: ١٦٥، وبشارة المُصْطَفَىٰ: ١٦٣، والإِرْشَاد: ١ / ٤١، وتَفْسِير الطَّبَرِيّ: ٦ / ١٨٦، و: ١٢ / ٦٥٧ ط أُخرىٰ، وذَخَائِر العُقْبَىٰ: ٨٨ و ١٠٢، وروح المَعَانِي: ٣٠ / ٢٠٧ ط مِصْر، وتَأريخ بغداد: ٧ / ٤٢١، وبحَار الأَنْوَار: ٣٩ / ٢٤٨، و: ٢٢ / ٤٥٨، الأغاني: ١٨ / ٣٩ الطّبعة الأُولَىٰ بيروت، والإحقاق: ٧ / ٣١٩، والمناقب المرتضوية: ١١٦ و١١٥، والمسترشد فِي إمَامَة أَمِير المُؤْمِنِين: ٣٥٤، ويَنَابِيع المَوَدَّة: ٦٢ و٧٤ و٢٧٠ ط اسلامبول و: ٧١ و٨٤ و٣٦١ و٣٦٢ ط الحيدرية، و: ١ / ١٩٦ و٢٢٣ ط أُسوة، و: ٢ / ٣٥٧ و ٤٥٢ ط أُسوة، وتذكرة الخواصّ: ١٨، وفتح القَدِير للشوكاني: ٥ / ٤٧٧، والغَدِير: ٢ / ٥٧، ومَجْمَع البَيَان: ٥ / ٦٦٩ ط مؤسّسة التَّأريخ العَرَبِي بيروت، إسعاف الرَّاغبين بهامش نور الأَبْصَار: ١٧٢، والمناقب لِابْن شهرآشوب: ٣ / ٦٧ ط دار الاضواء، جواهر العقدين: ٢ / ٢١٩، وفِي الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٦١ ب ١١ فصل ١ ورد بلفظ:... أَنْتَ وشيعتك خير البريّة، تأتي يَوْم القِيَامَة....

وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ، وَ دِينُكُمْ نِفَاقٌ، وَ مَاؤُكُمْ زُعَاقٌ، وَ الْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ، وَ الشَّاخِصُ عَنْكُمْ مُتَدَارَكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ. كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ قَدْ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهَا الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا، وَ مِنْ تَحْتِهَا، وَ غَرِقَ مَنْ فِي ضِمْنِهَا. وَ فِي رِوَايَةٍ: وَ آيْمُ اللهِ لَتَغْرَقَنَّ بَلْدَتُكُمْ حَتَّىٰ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ مَسْجِدِهَا كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ، أَوْ نَعَامَةٍ جَاثِمَةٍ.

وَ فِي رِوَايَةٍ: كَجُؤْجُؤِ طَيْرٍ فِي لُجَّةِ بَحْرٍ.

وَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ: بِلاٰدُكُمْ أَنْتَنُ بِلاٰدِ اللهِ تُرْبَةً: أَقْرَبُهَا مِنَ الْمَاءِ، وَ أَبْعَدُهَا مِنَ السَّمَاءِ، وَ بِهَا تِسْعَةُ أَعْشَارِ الشَّرِّ، الْمُحْتَبَسُ فِيهَا بِذَنْبِهِ، وَ الْخَارِجُ بِعَفْوِ اللهِ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ قَرْيَتِكُمْ هَذِهِ قَدْ طَبَّقَهَا الْمَاءُ، حَتَّىٰ مَا يُرَىٰ مِنْهَا إِلاَّ شُرَفُ الْمَسْجِدِ، كَأَنَّهُ جُؤْجُؤُ طَيْرٍ فِي لُجَّةِ بَحْرٍ!).

اللُّغَة:

الْبَهِيمَة: كُلّ ماَ لاَ نُطق لهُ، والْمُرَاد هُنا جَمل عَائِشَةَ. وَرَغَا الْجَمَل: صَوّت. وَعُقِر: جُرح. ودِقَاقُ الشّيء: صَغِيرَه، حَقِيرَه، ودِقَاق الْأَخْلاَق دَنَاءتها. والشِّقَاق: الخِلاَف. والزُّعَاق: المَالح. وشَخِص فُلاَن مِن بَلْدٍ إِلَىٰ بَلد: ذَهب. وَتَدَارَك الْقَوْم: تَلاَحقوا، وتَدَارَكه الله بِرَحْمَته: لَحقه بِها. وَالجُؤْجُؤ: الصَّدر.

الإِعْرَاب:

كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ، البَاء زَائِدَة، وَمَسْجِدِكُمْ مَفْعُول لِفعل مَحْذُوف أي كَأَنِّي أَرَىٰ

مَسْجِدِكُمْ، كَجُؤْجُؤ مُتَعَلِّق بِمَحْذُوف حَال مِن مَسْجِدِكُمْ، وَمِثله كَأَنِّي بكَ أي كَأَنِّي أرَاك.

الْمَعْنَىٰ:

تَجمّع أَهْل الْبَصْرَة لحَرْب الإِمَام مَع عَائِشَةَ، وطَلْحَة، والزُّبَيْر، وبَعد أنْ تغلّب عَلَيْهِمْ، وَصَفهم بِضَعف ٱلْعَقْل، والدِّين، والأَخْلاَق، فَهُم بِلا عَقل؛ لأَنّهم أَتْبَاعَ الْبَهِيمَةِ، وهُم بِلا دِين؛ لأَنّهم مُنَافقُون، وهُم بلا أَخلاَق؛ لأَنّهم نَكثُوا العَهد.. ولَيْسَ هَذَا بغَرِيب عَلَيْهِمْ فٱلإِنْسَان ٱبن ٱلأَرْض، مِنْهَا وُلد، وعَلَيْهَا يَعيش، وأَرْضهم نَتِنَةٌ عَفِنَةٌ، وَمَاؤُهُمْ مِلح أُجَاج.. ثُمَّ أَشَار الإِمَام إِلَىٰ مَا سُوف يَحدث لِلبَصْرَة من الغَرق. وَقَالَ ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد: «غَرقت الْبَصْرَة مَرتين: مَرَّة فِي أَيَّام القَادر بالله، ومرَّة فِي أَيَّام القَائِم بأمرِ الله، ولَم يَبق مِنْهَا إِلّا الْمَسْجِدِ الجَامِع بارزاً بَعْضه كَجُؤْجُؤ الطَيْر كَمَا أخبَرَ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين. وأَخبَار هذِين الغَرقِين مَعْرُوفة عِند أَهْل الْبَصْرَة يَتنَاقلها خَلفهم عَن سَلفهم»[1].

تَجمع أَهْل الْبَصْرَة لحَرْب الإِمَام، وَلو أَمْكَنتهم الْفُرْصَة مِنْهُ لا خْتَطفُوه بِأسلِحتهم، وهُو يَعلم ذَلِكَ عِلم الْيَقِين... فَمَاذا كَافأ الإِمَام أَهْل الْبَصْرَة عِندما ظَفَر بِهِمْ؟. ونَترك الجَوَاب عَن هَذَا السّؤال لطّه حُسين. قَالَ ما نَصّه بِالحَرف الوَاحد:

«سَار عَليٌّ فِي أَهْل الْبَصْرَة سِيرة الرَّجُل ٱلْكَرِيم ٱلَّذي يقْدِر فَيعفو، وَيَملك فَيسجَح، وكَانَ يَقُول: سِرت فِي أَهْل الْبَصْرَة سِيرةَ رَسُول الله ﷺ فِي أَهْل مَكّة...

---

(١) أُنظر، شَرح النّهج: ١/ ٢٥٣.

وَبَعد أنْ دَخل الْبَصْرَة. عَمد إلَىٰ بَيْت ٱلْمَال، فَقسّم مَا وَجد فِيهِ عَلَىٰ النَّـاس.. قَسّم ٱلْمَال فِي الغَالبِين والمغلوبِيْنَ جَمِيعاً... وَغَضِب مَن حَارب مَعه، وَقَالَ: لَم يُفرّق بَيْنَ شِيعته، وبَيْنَ عَدُوّه... وكَانَ مَع أَهْل الْجَمَل جَمَاعَة بَني أُمَيَّة، ولمَّا تَغلب غَضَّ الطَّرف عَنهم، وكَانَ يَعلم أنّ عَائِشَةَ ضَمت إلَيْهَا كَثِيراً مِن الجَـرحىٰ، فَلم يَتعَرض لَهُمْ بِسُوء، وكَانَ يَعلم بمكَانهم»[1].

ولَيْسَ هَذَا بكَثِير عَلَىٰ أَهْل المبَادِيء، والدِّين، والأَئِمَّة ٱلْمَعْصُومين. ومن أَقْوَاله: «إذَا قَدَرْتَ عَلَىٰ عَدُوِّكَ فاْجعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ»[2].

(١) أنظر. الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه: ٥٣ ـ ٥٥، طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م.
(٢) أنظر. خطب نَهج ٱلبَلاَغَة: ٤/٤ ٱلْحِكْمَة (١١).

الخطبة

- ١٤ -

خَفَّتْ عُقُولُكُمْ:

(أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَاءِ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ. خَفَّتْ عُقُولُكُمْ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ، فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ، وَأُكْلَةٌ لِآكِلٍ، وَفَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ).

اللُّغَة:

خَفِيف الرُّوح: لَطِيف، وخَفِيف الظَّهْر: قَلِيل العِيال، وخَفِيف الْقَلْب: ذكي، وخَفِيف الْعَقْل: أَحمَق. وحُلُوم: جَمع حِلم - بِكَسر الحَاء - وهُو الأَنَاة، ومُرَاد الإِمَام أنّهم يُخطِئُون الوَاقع لِطَيشهم، وَسُرعتهم. والغَرَض: الهَدَف. والنَّابِل: من يَرمي بالنَّبل. والأُكْلَة: المأكول. والمُرَاد بالفَرِيسَة القَتِيل، أو السَّلِيب. والصَّائِل: الوَاثب.

الإعْرَاب:

إِذَا قُلت: سَفِه زَيد - بِكسر الفَاء - فَمعنَاه صَار زَيد سَفِيهاً، وَإِذَا قُلت: سَفِه زَيد رَأيه فَرَأيه مَفْعُول، والأصل سَفِه رَأي زَيد، فلمَّا أُسند الفِعْل إِلَىٰ زَيد تَحول الفَاعِل

إِلَىٰ مَفْعُول ، وَلَم يَتَحول إِلَىٰ التَّمِيز ، لأنّ التَّمِيز لا يَكُون مَعْرِفَة هكذا قَالُوا .

الْمَعْنَىٰ:

الخطَاب لأَهْل الْبَصْرَة ، وهُم أَوَّل من أعْلَن الْحَرْب عَلَىٰ الإِمَام بَعد بَيْعَته بالْخِلَافَةِ... وأرْضهم قَرِيبَة من الْمَاء لِأَنَّهَا عَلَىٰ الشّاطيء ، وبَعِيدة مِن السَّماء أي مِن رَحْمَة الله تَعَالَىٰ ، ونَقل ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد عَن عُلَمَاء الهيئة أنّهم ـ ما رَأوا أنذاك ـ عَلَىٰ أنّ أَبعَد مَوضع فِي المَعْمُورة عَن دَائرة مُعدل النَّهَار هُو الأبُلَّة ، والأُبُلَّة هِي قَصَبة الْبَصْرَة . ثُمَّ قَالَ : وَهَذَا المَوضع مِن خصَائِص أَمِير ٱلْمُؤْمِنِينَ عليه السلام لأنّه أُخبر عَن أمرٍ لاَ تَعْرِفه الْعَرَب ، ولاَ تَهْتَدِي إِلَيْهِ ، وهُو مُخْتَص بالمُدَققِين مِن الحُكماء . وَهَذَا مِن أسرَاره ، وغرَائِبه البَدِيعة[1] .

(١) أنظر ، شَرْح النّهج : ١/٢٦٨ .

الخطبة

- ١٥ -

مِنْ أَينَّ لَكَ هَذا؟

(وَ اللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَ مُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً. وَ مَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ!).

الْمَعْنَىٰ:

(وَ اللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَ مُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ، لَرَدَدْتُهُ). ضَمِير الغَائِب فِي وَجَدْتُهُ ومَا بَعده يَعُود إِلَىٰ ٱلْمَال الَّذي وَهبه بِغير حسَاب، لا لِشيء إلّا لأنّه كَانَ لاَ يرىٰ بَأساً، وَلاَ جُناحاً فِي أنْ يَأخذ الضّرائب مِن المُسْتَهلكِين، والكَادحِين وَيُعطِيها للأَغْنِياء، والمُترَفِين، فلَيْسَ مِن الْعَدْل فِي نَظره أنْ يُساوي بَيْنَ النَّاس، وأنْ لا يُؤثر قَرِيباً عَلَىٰ بَعيد، وقوِياً عَلَىٰ ضَعِيف، ولاَ مِن الْحَقّ فِي مَفهُومه أنْ يَحفظ عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِين حقُوقهم، وأَمْوَالهم، ولاَ يَنفقها إلّا فِي مَوَاضعها.

وكَانَ الإِمَام أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عَلَىٰ العَكس تَمَاماً من عُثْمَان، كَانَ يَرىٰ أنّ الثّروة يَجب أنْ توزع عَلَىٰ الجَمِيع بِالمُسَاوَاة: وَلاَ يَجُوز أَبَداً فِي عَقِيدته أنْ تَتَركز فِي أَيْدِي القِلة

كِيلا يَبغي ، وَيَعلو بَعضهُم عَلَىٰ بَعْض ، ومِن أَقْوَاله : «لَوْ كَانَ ٱلْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ ! أَلاَ وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ ، وَإِسْرَافٌ»(١) .

وكَانَ لا يَأخذ لنَفْسِه من بَيْت ٱلْمَالِ إلّا ما يُقيم الأَوَد ، وإنْ أستطَاع أنْ يَنقص عَن مُقدار ٱلْحَاجَة ، والضّرورة فَعل ، ومِن أَقْوَاله : «وَلاَ أَخَذْتُ مِنْهُ إِلاَّ كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ»(٢) .. وكَانَ أكره شَيء عَلَيْهِ الإدْخَار ، وَيَقول فِي ذَلِكَ : «فَوَاللهِ ! مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً ، وَلاَ ٱدَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً ، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً ، وَلاَ حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً»(٣) .

وَأجمَع الرّوَاة ، وأَهْل السِّير عَلَىٰ أنّ عَلِيّاً كَانَ يَدخل بَيْت ٱلْمَال ، ويُقسم عَلَىٰ النَّاس ما وَجد فِيهِ حَتَّىٰ الإبرَة ، والخَيط ، وَكِسرة الخُبز ، ثُمَّ يَأمر فَيَكْنس ، وَيَنضح الْمَاء ، ثُمَّ يُصلي فِيهِ رُكعتِين ، وَيَقول : هَكَذا يَجب أنْ يَكُون بَيْت ٱلْمَال(٤) .

وإذَنْ فَلا عُذر ، وَلاَ مَندُوحة لِعَلِيٍّ ، وقَد أَصْبَحَ خَلِيفَة ٱلْمُسْلِمِين ـ أنْ يَسكُت ، وَيَتجَاهل ما ٱنْتَهبه المُستغلُون مِن بَيْت ٱلْمَال ، وأنْ لا يَأخذهم بمَبدأ «مِنْ أَينَّ لكَ هَذَا ؟» حَتَّىٰ لَوْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ ، وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ .....

ومِن أجْل هَذَا ثَار عَلَيْهِ النّاهبُون ، والمُغتَصبُون . قَالَ التَّأرِيخ : أنّ عَمْرُو بن

---

(١) أنظر ، خُطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة : ٱلْخُطْبَة (١٢٦) .

(٢) أنظر ، نَهْج ٱلْبَلاَغَة : من كتاب له إلىٰ عُثْمَان بن حُنَيْف ، رقم ٱلْكِتَاب (٤٥) .

(٣) أنظر ، نَهْج ٱلْبَلاَغَة : من كتاب له إلىٰ عُثْمَان بن حُنَيْف ، رقم ٱلْكِتَاب (٤٥) .

(٤) أنظر ، كنز الْعُمَّال : ١٨٢/١٣ ح ٦٥٤٦ ، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة للمعتزلي : ١٩٩/٢ ، تَأرِيخ مدينة دِمَشْق : ٤٧٨/٤٢ ، تَأرِيخ ٱلْإِسْلاَم (الْخُلَفَاء الرّاشدون) : ٦٤٣ ، الْإِسْتِيعَاب : ٤٩/٣ ، تَأرِيخ الخُلَفَاء للسيوطي : ٢١٣ ، سُبل الْهُدَىٰ والرّشاد : ٢٨٨/١١ ، يَنَابِيع المَوَدَّة : ٤٥٠/١ و : ٤١١/٢ ، الغارات : ٤٦/١ ، حلية الأَوْلِيَاء : ٨١/١ .

العَاص كَتب إِلَىٰ مُعَاوِيَة يَقول: «مَا كُنت صَانعاً فاْصنع، إِذْ قَشَّرَك ٱبن أبي طَالب مِن كلّ مَا تَملك كمَا تُقشَّر عَن العَصَا لحَاها»[١] أي قَشّرَها... وأيضاً قَالَ التَّأرِيخ أنّ الإِمَام أمَر بأنْ تُجمع كلّ الأَمْوَال الَّتي أعطَاها عُثْمَان حِيثما كَانَتْ، وأنْ تُؤخذ إِبل الصَّدَقَة الَّتي كَانَتْ فِي دَار عُثْمَان حِينَ قُتل[٢].

وَتَسْأَل: أَلَيست هَذِه قَسوَة من الإِمَام، يَأخذ إِبل الصَّدَقَة مِن دَار ٱلخَليفَة الْمَقْتُول، وَيَحرم مِنْهَا أَهْله، وأَوْلاَده؟

الجَوَاب:

إِنَّ القَاسي هُو الَّذي يَعتدِي عَلَىٰ حقُوق النَّاس، أَمَّا مَن ٱنتصر للْحَقِّ، ورَده من الغَاصب إِلَىٰ أَرْبَابه فهُو عَادل، ورَحِيم، ما فِي ذَلِكَ رَيب.... هَذَا، إِلَىٰ أنّ أبا بَكْر ٱنْتَزع فَدَكاً من فَاطِمَة، وهِي بِضْعَة مِن رَسُول الله ﷺ، وكَانَتْ تَتصرف بفَدَك فِي حَيَاة أَبِيها وَعَلَىٰ مَرأَىٰ مِنْهُ، ومَع هَذَا أخَذ أبو بَكْر فَدَكاً، وَقَالَ: هِي لِلْمُسْلِمِين[٣].. فَهل أَوْلاَد عُثْمَان أَفضَل، وأَعظَم عِند الله من فَاطِمَة الَّتي كنَّاها

(١) أنظر، تأرِيخ المسعودي: ٣٥٦/٢، مروج الذَّهب: ٤٤٣/١، شَرْح نَهْج ٱلبَلاَغَة للمعتزلي: ٢٧٠/١.

(٢) أُنظر، دَعَائِم ٱلإِسْلاَم: ٣٩٦/١، إثبات الْوَصِيَّة: ١٢٠، مناقب آل أبي طالب: ٣٧٧/١، شَرْح الأَخْبَار: ٣٧٣/١، شَرْح نَهْج ٱلبَلاَغَة للمعتزلي: ٢٩٦/١.

(٣) أُنظر، صَحِيح البُخَاري: ٧/١٢، صَحِيح مُسْلِم كتاب الجِهَاد رقم «٥١ و٥٣ و٥٤ و٥٦»، مُسْنَد أحمد: ٤/١ و٦، عَن عَائِشَة إشارة إِلَىٰ المحاورة الَّتي دارت بَيْنَ فَاطِمَة الزَّهراء البتول ﷺ وبَيْنَ أبي بَكْر حيث قَالَ: إِنّي سمعتُ رَسُول الله ﷺ يقول: «إنّا مَعَاشِر ٱلأَنْبِيَاء لا نُورّث، ما تركناه فَهُوَ صدقةٌ»!!

وقد علق الإِمَام يحيىٰ بن الحَسَن الهادي فِي كتابه «تثبيتُ الإِمَامَة»، تحقيق العلاّمة السَّيِّد مُحَمَّد رضا

⇐ الحُسَيْني الجَلالي فِي ص: ٢٩ مانصه: «ولو سألنا جَمِيع من نقل من أَصْحَاب مُحَمَّدﷺ: هل روىٰ أحدٌ منكم عَن أحدٍ من أَصْحَاب مُحَمَّدﷺ أنّه سمعَ من رَسُول الله ﷺ مثل ما قَالَ أبو بَكْر؟؟

لقَالُوا: أَللَّهُمَّ، لا.

ثُمّ جاءت ـ من بعد ذَلِكَ ـ أسانيدُ كَثِيرَة قد جمعها الجهّال لحبّ التَكَاثُر بِمَا لاينفع: عَن عَائِشَةَ، وعَن ٱبن عُمَرَ، فنظرنا عند ذَلِكَ إِلىٰ أصل هَذِه الأَحَادِيث الَّتِي أسندوها إِلىٰ عَائِشَةَ عَن النَّبِيّﷺ، فَإِذَا عَائِشَة تقول: سمعتُ أبا بَكْر، وٱبن عُمَرَ يقول: سمعتُ أبا بَكْر يقول: سمعت رَسُول اللهﷺ: إِنّا مَعَاشِر ٱلْأَنْبِيَاء لا نورّث ما تركناه فَهُوَ صدقة.

وَإِذَا هَذِه الأسانيد المختلفة ترجع إِلىٰ أصل واحدٍ، ولم يوجد أحدٌ من أَصْحَاب مُحَمَّدﷺ يشهد بمثل شهادة أبي بَكْر فِي الميراث!

فدفع أبو بَكْر فَاطِمَةﷺ عَن ميراثها بِهَذَا الْخَبَر الذى أسندَ إِلىٰ رَسُول اللهﷺ. وَهَذَا الْخَبَر ينقضُ كتاب الله، وحكمه فِي عِبَادِه!

فويلٌ لمن يُهِمُ أنّ رَسُول اللهﷺ ينقضُ ما جاء به محكماً عَن الله عزّ وجلّ.

وقد كَانَ فِي كَلاَم فَاطِمَةﷺ لأَبِي بَكْر بيانٌ لمن خاف الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: أَفِي كتاب الله أَنْ ترثَ أباك وَلاَ أرثَ أبي، لقد جئتَ شَيْئاً فريّاً!!؟؟ ثم ٱنصرفت عَنْه.

ومن أعجب العجائب: أنّ جَمِيع هَذِه الأُمَّة أجمعت: أنّ مَن ٱدّعىٰ لنَفْسِه، أو دعوىٰ له فِيْهَا حقّ أنّه «خَصمٌ»، شهادته لا تُقبل، حَتَّىٰ يشهد له عَلَىٰ ذَلِكَ شاهدان عدلان لا دعوىٰ لهما ما شهدا فِيهِ.

وأجمعوا أيضاً: أنّ الإِمَام لا يحكمُ لنَفْسِه بحقّه دُونَ أَنْ يشهدَ له به غيرُه.

ثم النَّاس عَلَىٰ ذَلِكَ إِلىٰ يومنا هَذَا، لا تُقبل شهادة الرَّجُل لنَفْسِه، وَلاَ يُحكم لأحدٍ عَلَىٰ أحدٍ فِي دعوىٰ يدّعيها عَلَيْهِ إلاّ بشاهدين عدلين غَيْر فَاطِمَةﷺ، فإنّه حُكم عَلَيْهَا خلاف ما حُكم به عَلَىٰ جَمِيع الخلق، وٱنتزع من يدها ما كَانَتْ تملكه، وتحوزه ـ من ميراث أبيهاﷺ، ومالها من فَدَك ٱلْمَعْرُوف بها، ولها بلا شهود! إلاّ بِمَا ٱدّعىٰ أبو بَكْر لنفسه، وللمسلمين من الصَّدَقَة عَلَيْهِمْ بأَمْوَال رَسُول اللهﷺ.

فكان أبو بَكْر المدعي لنَفْسِه، ولأصحابه أَمْوَال رَسُول اللهﷺ.

فيا للعجب من قبضه ما لَيْسَ بيده، وَلاَ شهود له، وَلاَ بَيِّنَة!؟ وطلبُه الشّهود، وٱلْبَيِّنَة من فَاطِمَةﷺ عَلَىٰ ما هُو بيدها، ولها!

⇐

اَلْمُسْلِمُون «بأُمّ أَبِيها» لِأَنَّهَا أشبَه النَّاس بِهِ سَمتاً، وخُلقاً، وهَدياً، وَمَنطقاً![1].

(فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً). لأنّه يَضع الأُمُور فِي موَاضعها، وَيُعطي لكلّ ذِي حق حقّه، ولَيْسَ فِي دَولته ظَالم، وَلاَ مَظلُوم (وَ مَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ!) بالبدَاهة، لأنّ من لاَ يُطيق الْعَدْل، والإِنْصَاف، وَيَنفر مِنْهُ كَيْفَ يُطِيق العَسف، والجَوْر.

⇔ وقد أجمعت الأُمّة عَلَىٰ أنّ مَنْ كَانَ فِي يده شيءٌ، فَهُوَ أحق به حَتّىٰ يُستحقّ بالْبَيّنَةِ الْعَادِلَة. فقلبَ أبو بَكْر الحجّة عَلَيْهَا فِي ما كَانَ فِي يدها! وإنّما تجبُ عَلَيْهِ هُو ولىٰ أَصْحَابه فِي ما أدّعاه له، ولَهُمْ. فحكم عَلَىٰ فَاطِمَة عليها السلام بِمَا لم يُحكمْ به عَلَىٰ أحدٍ من المُسْلِمِين، وطلب مِنْهَا الْبَيّنَة عَلَىٰ ما فِي يدها، ومُنِعَتْ ميراثَ أبيها. وَشَهِدَ عَلَىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله أنّه لم يورّثها! والله تَعَالَىٰ قَد وَرَّثَ الوَلد من والده، نبيّاً كَان أو غيرُه.

(١) أُنظر، المُعْجَم الْكَبِير: ٣٩٧/٢٢ ح ٩٨٥، المقتني فِي سرد الكنىٰ: ١٦٧/٢ ح ٦٩٤٦، سير أعلام النّبلاء: ١١٩/٢، طَبقَات المحدثين: ٣٠/١ ح ١٧٢، الكاشف: ٥١٤/٢ ح ٧٠٤٩، تَهْذِيب الكَمَال: ٢٤٧/٣٥ ح ٧٨٩٩، التّعديل والجرح: ١٢٩٥/٣ ح ١٧٢٨، الإِصَابَة: ٨٣/٨ ح ١١٥٨٣.

الخطبة

- ١٦ -

حَجَزَتْهُ التَّقْوىٰ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

(ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةٌ . وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ . إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلَاتِ ، حَجَزَتْهُ التَّقْوىٰ عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ[1] . أَلاٰ وَ إِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ . وَ الَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً ، وَ لَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً ، وَ لَتُسَاطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ ، حَتَّىٰ يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاٰكُمْ ، وَ أَعْلاٰكُمْ أَسْفَلَكُمْ ، وَ لَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا ، وَ لَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا . وَ اللهِ مَا كَتَمْتُ وَشْمَةً ، وَ لاٰ كَذَبْتُ كِذْبَةً ، وَ لَقَدْ نُبِّئْتُ بِهٰذَا الْمَقَامِ ، وَ هٰذَا الْيَوْمِ[2]) .

اللُّغَة:

الذِّمَّة : العَهد ، والأَمَان . ورَهِينَةٌ : مَأخُوذ بِهِ . وزَعِيمٌ كَفِيل . وصَرَّحَتْ : كَشَّفت . والْعِبَرُ جَمع عِبرَة ـ بِكسر الْعَيْن ـ العِظَة يَتعظ بِهَا . والْمَثُلَات : العقُوبَات . البَلْبَلَة : الإِختلاَط ، والهَيجَان . وغَرْبَلَ الشّيء : قَطعه ، أو مَيزّ الصّالح من غَيْر الصَّالح . وسَاطَ الشّيء : خَلطه . وَالوَشْمَة : الكَلِمَة ، والمرَّة .

الإِعْرَاب:
جُمْلَة حَجَزَتْهُ خَبَرَ إِنَّ. وَيَعُود بِمَعْنَىٰ بَصِير، وأَعْلاَكُمْ مَفْعُول.

الْمَعْنَىٰ:
(ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةٌ، وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ). أي كُلّ مَا أقُوْله، وأُحدثكُم بهِ أنا مَسْئُول عَنْه، ومَأخوذ بهِ، وَكَفِيل بأنّه وَاقع لا مَحَالَةَ، وهُو:

١ ـ (إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلَاتِ، حَجَزَتْهُ التَّقْوَىٰ عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ). مَن يَتعظ بِمَا رَأىٰ، وَسَمع عَن الدَّهْر، وضَربَاته، وَدُولاَب ٱلْحَوَادِث، ودَورَاته ـ يَحجم، وَيَقف عِند مَظَّنة الْخَطِيئَة، والعُقُوبَة فَضلاً عَمّا هُو صَرِيح فِي المَنع، وٱلتَّحْرِيم، ومِن أَقْوَاله: «وَلاَ وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ، وَلاَ زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي الْحَرَامِ»[1]. وفِي الْحَدِيث: «إِنَّمَا الأُمُور ثَلاَثَة: أمرٌ بيّن رُشده فيُتّبَع، وأمرٌ بَيّن غَيُّه فَيُجتَّنب، وأمرٌ مُشكل فَيُرَدّ حُكمهُ إِلَىٰ الله»[2]، وفِي حَدِيث ثَانٍ: «مَن تَرك ٱلشُّبُهَات نَجا مِن الْمُحَرَّمات، ومَن وَقَع فِي الْمُحَرَّمات هَلكَ مِن حيّث لاَ يَعلم»[3]، وفِي ثَالِث: «الوقُوف عِنْدَ ٱلشُّبْهَة خَيرٌ من الإقتحَام فِي الهَلَكة»[4].

---

(١) أُنظر، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٢٧/٤، ٱلْحِكْمَة (١١٣).

(٢) أُنظر، الكَافِي: ٦٨/١، كنز العُمَّال: ٨٥٥/١٥ ح ٤٣٤٠٣، الخِصَال: ١٥٣ ح ١٨٨، تَأرِيخ دِمَشق: ١٨١/٢٠، تحف ٱلْعُقُول: ٢١٠، الْمُعْجَم الْكَبِير: ٣١٨/١٠ ح ١٠٧٧٥، مَجْمَع الزّوائد: ١٥٧/١، فيض القَدِير: ١٠٣/٢، نصب الرّاية: ٦٢/٣ ح ٤٢، زوائد الهَيْثَمي: ٩٦٧/٢ ح ١٠٧٠.

(٣) أُنظر، الكَافِي: ٦٨/١ ح ١٠، مُسْنَد أحمد: ٢٦٧/٤، وَسَائِل الشّيعة: ١١٤/١٨ ح ٩، حلية الأَوْلِيَاء: ١٢٦/١٠، تحرير الأَحْكَام للحلي: ٢/ ١٨١، تذكرة الحفاظ: ٨٨٤/٣ ح ٨٥٢.

(٤) أُنظر، الكَافِي: ٥٠/١ ح ٩، تحف ٱلْعُقُول: ٢١٤، الأَحْكَام ليحيىٰ الهادي: ٢٢٢/٢، كتاب الزُّهْد لحسين بن سعيد الكوفي: ١٩ ح ٤١، عيون الحكم والمواعظ: ٦٨، المَحَاسِن: ٢١٥/١.

ونَحْنُ نَعرف أفرَاداً يُضفُون من تِلقائِهم ثَوب ٱلشُّبْهَة عَلىَ ٱلحَرَام الصّرِيح لِيُبررُوا ٱقْتحامهم، وجُرأتهم عَلىَ ٱلْحَرَام.

٢ ـ (أَلاَ وَ إِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ). يُرِيد أنَّ ٱلْمُسْلِمين آنذاك تَمَامَاً كَمَا كانُوا فِي الجَاهِلِيَّة الجهلاَء: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[1] عَلَىٰ ما فِيهِمْ مِن سَائر الْعُيُوب... وتَكلَّم كَثِيرُون عَن السّبب المُوجب لتَأخُر ٱلْمُسْلِمين، ووَضع بَعضهم المُؤلفَات فِي ذَلِكَ، وَفَسروه بالفُرْقَة، والشّتَات، والمُخالفة عَن أَمر ٱلإِسْلاَم، وَعَدم الإلتزَام بأَحْكَامه، وتَعَالىَمه، وكَلاَم الإِمَام ؑ يُومىء إِلَىٰ ذَلِكَ، لأَنّه رَبط، وَلاَزَم بَيْنَ عَدم التَّقْوَىٰ، وَالبَلِية، وآيَات ٱلْقُرْآن أكدَت هَذَا الْمَعْنَىٰ، مِنْهَا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[2]. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[3].

ونُوجز بَيَان التّلازم، والتّرابط بأنّ الْمُسْلِم الْحَقّ هُو الَّذي يُؤْمِن، ويَعْتَقِد أوّلاً: وقَبل كلّ شَيء بأنّ وَرَاء هَذَا الكَوْن ذَاتاً، وقُوَّة يَجب أنْ يُقدسها، وَيُحبها، وأيضاً يُؤْمِن ويَعْتَقِد بأنّ تِلك الذّات وٱلْقُوَّة هِي مَصْدَر الفِعْل، والتّدبِير فِي هَذَا الْوُجُود، وَمَصْدَر التّحلِيل، وٱلتَّحْرِيم، وإنَّهَا تُهاب، وتُرجىٰ، وتُثيب، وتُعَاقب.

ثَانِياً: أنْ يُترجِم الْمُسْلِم الْحَقّ تَقدِيسه، وحُبّه لله، وإيمَانه تَعَالَىٰ هُو وَحده الْخَالِق المُدبر، والْحَاكِم المُشرع، والمُراقب المُعاقب، وأنْ يُترجِم ذَلِكَ كُلّه بالأَفْعَال لاَ بالأَقْوَال فَقط، لأنّ الحُبّ، والإيمَان يُقَاسان بالآثَار، والأَعْمَال، أَمَّا مُجرد النّظرِية

(١) ٱلْحَشْرِ: ١٤.

(٢) الصّف: ٥.

(٣) سُورَةُ مُحَمَّد: ٧.

المَنطِقية، والخَاطرة النّفِيسة فَيشبهَان حَدِيث النّفس، والخَيَال.

هَذَا هُو الْمُسْلِم الْحَقّ، والْإِسْلاَم الصّحِيح.... وَإِذَا نَظرنا إِلَىٰ مُسلمي هَذَا العَصر، وأرَدنا أنْ نُقيّم تَدينهم عَلَىٰ هَذَا الأَسَاس ـ وجَدنَاهم يُترجمُون تَقدِيس الله سُبْحَانَهُ بالمظَاهر، والشّعائِر كالصَوْم، والصَّلاَة، وبنَاء المسَاجد، والحُسَيْنِيّات، أَمّا المُجْتَمع الإِسْلاَمي عَلَىٰ وَجه العمُوم، فالْإِسْلاَم عِنده نظرِية منطقِية تَنحصر فِي الأَذْهَان، والإِستدلاَل، وعَصبِية عَاطفِية لا تَتجاوز النّفوس، والأقوَال.

إنَّ الّدين فِي مُجتمعنا الْيَوْم مُجرد «أتيتيكيت»... و«بروتوكول» تَمَاماً كَالتّهنئة فِي الأفرَاح، والتّعزية فِي الأترَاح، وَلاَ نَرىٰ لهُ أثراً إلّا فِي العَبرَات، وضَرب القَامَات، وفِي سِير المَوكب، وإقَامة الحفلاَت، وفِي الأذَان، والصّلوات، وفِيما عَدا ذَلِكَ لا أثَر للدِّين إلّا عِند بَعْض الأفرَاد، وهُم أنْدَر من النّادر... وهكَذا كلّما كَثرت المظَاهر الدّينِية، وأرتَفع طَنِينها ضَعف تأثِير الدِّين من الوَجهة ٱلْعَملية حَتَّىٰ قَالَ قائِل عَلَىٰ صفحَات الجرَائد: «إِنَّ الله لا يُوجد بَيْنَ الْقَوْم الّذين يُؤْمِنُون بِهِ» أي إِنَّ الّذين يَكثرون من التّظاهر بالإِيمَان هُم أبْعَد النَّاس عَنْه، تَمَاماً كالكَسول البطّال يُكثر من الثّراثرَات، والتّفَاهات... إِنَّ الْإِيمَان الْحَقّ يَظهر أثره فِي جَمِيع أفعَال ٱلْمُؤْمِن، وحَرَكَاته، ووجُوه نَشَاطه، وأخلاَقه، لا فِي مُجرد الشّعائِر، والمظَاهر.

(وَ الَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً، وَ لَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً، وَ لَتُسَاطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ، حَتَّىٰ يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاَكُمْ، وَ أَعْلاَكُمْ أَسْفَلَكُمْ). هَذِه الجُمل تَوْأم من حَيْث الْمَعْنَىٰ، وتَرمىٰ إِلَىٰ هَدف وَاحد، وهُو أضطرَاب حَال ٱلْمُسْلِمِين بَعد الإِمَام، وأختلاَط حَابلهم بِنَابلهم، وتَأخرهم عَن الأُمّم... وقَد مرّ عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِين أدوَار مُتقلبة، ومُتنوعة سوءاً، وضَعفاً، وأسوَأها عَلَىٰ الإِطلاَق ما هم عَلَيْهِ الآنْ... أنّهم أذَلّ

الأُمَم، وأضْعَف ٱلْخَلاَئِق، والسِّر الأَسَاسِي ـ فِيمَا نَعتَقد ـ هُو أنّ الحُكْم، ومَركز ٱلْقُوَّة، والْقِيَادَة فِي أَيدٍ أثيمة خَائنة، وإِلَىٰ هَذَا أشَار الإِمَام بقَوْله: «يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاَكُمْ، وَأَعْلاَكُمْ أَسْفَلَكُمْ»، وعَنْه تَتفرع بَقِية المَسَاوِىءِ كَسِيطرة الأَعدَاء، والأَجَانب، وظُهور الدَّجَالِين[1]، والأَدْعِيَاء، والتَّفرقة، والشّتَات، وما إِلَيْهِ من التّأخُر، والإِنْحطَاط. لقَد كَانَ فِيمَا مضىٰ أُمَم قوِّية، ومُتحَضرة، ثُمَّ مَزقهم التّنَاحر، وأَفْسَدتهم الآفَات، فانْمَحوا مِن الْوُجُود، وصَاروا أثَراً بَعد عَين، فَهل يُحِيق بنَا مَا حَاقّ بِهِمْ، أو يَتداركنا الله بِرَحمته؟.

(وَ لَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا، وَ لَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا).

قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «وَلَقد سَبق مُعَاوِيَة إِلَىٰ مقَام ٱلْخِلاَفَة، وَقد كَانَ فِي قصُوره عَنْه، بحَيث لا يَظن وصُوله إِلَيْهِ، وقَصر آل بَيْت النُّبُوَّة عَن بلُوغه، وقَد

(١) أنظر، عقد الدُّرر: ٦٤، كنز الْعُمَّال: ١٤ / ١٩٨ ح ٣٨٣٧٣، سُنن أبي داود: ٤ / ١٢١ ح ٤٢٥٢. وفيه: «ثلاثون دجالون كلّهم يزعم أنّه رَسُول الله»، الإِرْشَاد: ٢ / ٣٧١، كتاب الْغَيْبَة للشيخ الطّوسي: ٤٣٤ ح ٤٢٤، إعلام الورىٰ: ٤٢٦، ٱلبِحَار: ٥٢ / ٢٠٩ ح ٤٦، مُسْنَد أحمد: ٢ / ٤٢٩ ح ٩٥٤٣ وفيه «...وكذابون ثلاثون أو أكثَر» وفي رواية: «... ثلاثون دجالاً كذاباً»، صَحِيح البُخَاري: ٤ / ٢٤٣، صَحِيح مُسْلِم: ٤ / ٢٢٣٩ ح ١٥٧، أبن عساكر، عَلَىٰ مَا فِي تَأرِيخ دِمَشق: ٣ / ٤٤٥، المُعْجَم الصَّغِير للطبراني: ٢ / ١٨٣ ح ٩٩٣ و ١٨٠٨، صححه وراجع أصوله عبد ٱلرَّحْمَان، طبع المَدِينَة المُنوَّرَة، صَحِيح أبن حبّان: ١٥ / ١١٠، المُسْتَدرَك عَلَىٰ الصَّحِيحين: ٤ / ٤٩٦، المسند المستخرج عَلَىٰ صَحِيح الإِمَام مُسْلِم: ١ / ٤٣ ح ٢٠ و ٧١، مُسْنَد أبي عوانة: ٤ / ٣٧٣ ح ٦٩٩٨، سُنَن التِّرمِذي: ٤ / ٤٩٩ ح ٢٢١٩، مَجْمَع الزّوائد: ٧ / ٣٣٢، عون المعبود: ١١ / ٢١٨، السُّنن الواردة فِي الفِتَن: ٤ / ٨٦١ ح ٤٤١ ـ ٤٤٤، تُحْفَة الأَحْوَذي: ٦ / ٣٦٨، شَرْح النّووي: ١٨ / ٤٥، فتح الباري: ١٣ / ٨٧، فيض القَدِير: ٦ / ٤١٩، تذكرة الحفاظ: ٢ / ٧٠٣، سير أعلام النّبلاء: ١٤ / ٢١٨، تأريخ بغداد: ٣ / ٣٣.

كانُوا أسبَق النَّاس إِلَيْهِ»[١]. وَهَذَا صَحِيح فِي نَفْسِه، ولَكِنَّهُ بَعِيد عَن الكَلاَم، فـإنّ المُتبادر من كَلِمَة السّباق هُنا السّبق إِلَىٰ الفَضَائِل، لا إِلَىٰ السُّلْطَان حَـتَّىٰ ولو كَـانَ جَوْراً.

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[٢]. وَقَـالَ الإِمَـام عليّ عليه السلام: وَغَداً السّباق. ويُقَال: لَيْسَت لهُ سَابقة، أي مَنْقَبة، وَفَـضِيلة، أَمَّـا لَـفظ القَاصر، والمُقصر فَهُوَ أظْهر فِي الذَّمِ مِن لَفظ السّابق فِي المَدح. ومرَاد الإِمَام ـ كَـمَا يُرجح فِي الظّن ـ أنّ بَعْض الْصَّحَابَة كَانَتْ لَهُـمْ سَابِقة مَع رَسُول الله صلى الله عليه وآله، ثُمَّ خَتمُوا حيَاتهم بأسوَأ الأَعْمَال كـالزُّبَيْر الَّـذي حَـبط عَـمَلُه فِي الْـبَصْرَةِ إلّا أنْ يَـقبل الله تَوْبَته[٣]... وَبَعضهم لم تكُـن لَهُـمْ سَـابقة يُـعرفُون بهـا ثُمّ سَـبقوا إِلَىٰ الفَـضَائِل، والْخَيْرَات، وما أَكْثَر هَؤُلاَء فِي الْمُهَاجِرين، والأَنْصَار، والتّابعِين لَهُمْ بإحسَان.

(وَاللهِ مَاكَتَمْتُ وَشْمَةً، وَ لاَكَذَبْتُ كِذْبَةً، وَ لَقَدْ نُبِّئْتُ بِهَذَا الْمَقَامِ، وَ هَذَا الْيَوْمِ).

إِنَّ ٱلْقُرْآن النّاطق الَّذي يَدور الحَقّ مَـعه كَـيْفَما دَار يَسْـتَحِيل فِي حَـقّه الْكَـذِب، والخِيَانة... بل هُو حجّة ودَليل عَلَىٰ الْحَقّ، والصِّدْق. وَقَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه فِي شَرح هَذَا الكَلاَم بِبلاَغة وإِيجَاز: «كَانَ رَضي الله عَنْه لا يَكتم شَيْئَاً يَحوك بنَفْسِهِ، كَانَ أَمَّاراً بِٱلْمَعْرُوف نَهّاءً عَن الْمُـنْكَر، لا يُحـابي، وَلاَ يُـداري، وَلاَ يَكـذب، وَلاَ يُداجي. وَهَذَا القِسم تُوطئة لقَوْله: نُبِّئْتُ بِهَذَا الْمَقَامِ، أي أنّه قَد أُخبر بِهِ من قَـبل

(١) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ١/٤٧.

(٢) ٱلْوَاقِعَة: ١٠ ـ ١١.

(٣) أُنظر، عوَالي اللئالي: ٢/٢٤٠، بحَار الأَنْوار: ٣٢/٣٣٦.

عَلَىٰ لِسَان النَّبِيّ ﷺ بأنّه سَيقُوم هَذِه المقَام، ويَأْتِي عَلَيْهِ يَوْم مِثل هَذَا الْيَوْم»[١].

وَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «يَا عَلِيّ! سَتَلقىٰ بَعدي جُهداً. قَالَ عَلِيّ: أَفِي سَلاَمة مِن دِيني يَا رَسُول الله؟. قَالَ: فِي سَلاَمة من دِينك»[٢]. فالأهَم عِند عليّ أنْ يَسلم لهُ دِينه قَبل كلّ شَيء لا نَفْسه، وأهْله، أمَّا حَدِيث تُقَاتل النَّاكِثِينَ، والقَاسِطِينَ، والمَارِقِينَ فقَد تجَاوز حَدّ التّوَاتر[٣].

خَابَ مَنِ ٱفْتَرىٰ...فِقْرَة ٣ ـ ٥:

(أَلاَ وَ إِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَ خُلِعَتْ لُجُمُهَا، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ. أَلاَ وَ إِنَّ التَّقْوَىٰ مَطَايَا ذُلُلٌ، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَ أُعْطُوا أَزِمَّتَهَا، فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ. حَقٌّ وَ بَاطِلٌ، وَ لِكُلٍّ أَهْلٌ، فَلَئِنْ أَمِرَ الْبَاطِلُ لَقَدِيماً فَعَلَ، وَ لَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّمَا وَ لَعَلَّ، وَ لَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ! شُغِلَ مَنِ الْجَنَّةُ، وَ النَّارُ أَمَامَهُ! سَاعٍ سَرِيعٌ نَجَا، وَ طَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا، وَ مُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَىٰ. الْيَمِينُ وَ الشِّمَالُ مَضَلَّةٌ، وَ الطَّرِيقُ الْوُسْطَىٰ هِيَ الْجَادَّةُ، عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَابِ، وَ آثَارُ النُّبُوَّةِ، وَ مِنْهَا مَنْفَذُ السُّنَّةِ، وَ إِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ[٤]. هَلَكَ مَنِ ٱدَّعَىٰ، وَ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ. مَنْ أَبْدَىٰ صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ. وَ كَفَىٰ بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلاَّ يَعْرِفَ قَدْرَهُ. لاَ يَهْلِكُ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ سِنْخُ

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ١/٤٨.

(٢) أُنظر، مُستَدرَك الصَّحِيحين: ٣/ ١٤٠، طَبعَة مجلس دائرة المعارف بحيد آباد سَنَة ١٣٢٤ هـ. (مِنهُ ﷺ). و: ٣/١٥١ ح ٤٦٧٧، طَبعَة أخرىٰ: المُصَنَّف لِابن أبي شيبة الكوفي: ٦/٣٧٢ ح ٣٢١١٧، نظم درر السّمطين: ١١٨، مُنتَخب كنز العُمّال بهامِش مُسنَد أحمد: ٥/٣٤، فرائد السّمطين: ١/٣٨٧ ح ٣١٨، كنز العُمّال: ١١/٦١٧ ح ٣٢٩٩٦، سُبل الهُدىٰ والرّشاد: ١٠/١٥٠.

(٣) تَقَدَّم إستخراجه.

أَصْلٍ، وَ لاَ يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ. فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ، وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَ التَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ، وَ لاَ يَحْمَدْ حَامِدٌ اِلاَّ رَبَّهُ، وَ لاَ يَلُمْ لاَئِمٌ اِلاَّ نَفْسَهُ[٥]).

اللُّغَة:

الْخَطَايَا: جَمع خَطِيئَة، وهِي الذّنب. والشُّمُسُ ـ بِضَم الشِّين، والمِيم ـ جَمع شُمُوس، الفَرس الجَمُوح يَأبىٰ، ويَمتنع أنْ يُمكن أحداً مِن ظَهره، وإسرَاجه، وإلجَامه. ومَطَايَا: جَمع مَطِّية، وَهِي الدّابة يَسْتَوِيَ فِيهَا المُذكر، والمُؤنث. وذُلُلٌ: جَمع ذُلول، وذُل البَعِير: سَهل ركُوبه، وٱنْقِياده. وأَمِرَ ـ بِكَسر المِيم ـ كَثُرَ. والمَضَلَّة ـ بِفَتح المِيم ـ ضِدّ ٱلْهُدَىٰ. وصَفْحَتَه: وَجْهه، والمُرَاد هُنا مَن جَاهر بِعَدَاء الحَقّ. وسِنْخُ الأَصْل: مَوْضِعه، وَمَنْبَته.

الإِعْرَاب:

شُمُوس صِفة للخِيل، وذُلُل صِفَة الخَطَايَا، وحَقٌّ خَبَر لمُبْتَدأ مَحْذُوف، وَمِثله بَاطِلٌ أي التَّقْوىٰ حَق، والخَطَايَا بَاطِل، وقَدِيماً مَنْصُوب بِنَزع الخَافض، والأصل فَعَل فِي الزّمن القَدِيم، ثُمَّ حُذف حَرف الجَر، والمُوصُوف، وأُقِيمت الصِّفَة مقَامه. ورُبَّ للتَّقلِيل، وَتُجر النّكرة المُوصُوفة، وَمَجرُورها لاَ يَتعلق بشيء، وَإِذَا لَحقتها «مَا» كَفتها عَن ٱلعَمَل، وَلَعَلَّ مِن أخوَات أنّ تَنصب الإسم، وتَرفع الْخَبَر، وَإِذَا لَحقتها «مَا» كَفتها عَن ٱلعَمَل، ومِن أَجل هَذَا كَفت هُنا رُبَّ، وَلَعَلَّ، ومَعْنَىٰ لَعَلَّ التّوقع، والتّرجي. ولَئِنْ اللاَّم لِلقَسم، وإنْ شَرطِية، وقَلَّ فعلها، وجوَابها مَحْذُوف، والتّقدِير فَلَرُبَّمَا يَعُود.

الْمَعْنَىٰ:

(أَلاَ وَ إِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا ، وَ خُلِعَتْ لُجُمُهَا ، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ) . أي أنّ الذّنب كَالفَرس الجمُوح ، والنَّفس كالرّاكب ، والدِّين كاللِّجام ، وَمَن رَكِب فَرساً جمُوحاً بِلا لجَام يَردعها أورَدته منَاهل الهَلكة ، وهكذا فاعِل الخطَايا ، ومُرتكب الذّنوب بِلا رَادعٍ مِن دِين الله ـ مآله إِلَىٰ ٱلنَّار لا محَالَةَ ، ومن أَقْوَاله عليه السلام : «أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا ٱسْتَهَانَ بِهِ صَاحِبُهُ»[1] .

(أَلاَ وَ إِنَّ التَّقْوَىٰ مَطَايَا ذُلُلٌ ، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا ، وَ أُعْطُوا أَزِمَّتَهَا ، فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ) . أَمَّا مَن يَتقِي الله ، وَيَسلس قِيادة إِلَىٰ أَحْكَامه ، وحلاَله ـ فنهَايته إِلَىٰ ٱلْجَنَّة تَمَاماًكرَاكب المَطيَة الذَّلُول تَسِير طوع إِرَادته فِي طرِيق السّداد ، والأَمَان .

(حَقٌّ وَ بَاطِلٌ ، وَ لِكُلٍّ أَهْلٌ) . النَّاس مِنْهُم المُحق ، ومِنْهُم المُبطل ، ما فِي ذَلِكَ رَيب ، ولكنْ بأَي شيء نُميز بَيْنَهما ، وكلّ من الاثْنَيْن يَدعي الْحَقّ ، وَيَنْتحله ؟ وهَل للْحَقّ قيَاس ؟ والجَوَاب عِند الإِمَام عليه السلام وَاضح ، فكلّ من أطَاع الله هُو مُحقّ ، والمُبطل مَن عَصىٰ الله : ومِن أَقْوَاله : «الْحَلاَلَ مَا أَحَلَّ اللهُ ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللهُ»[2] . وَقَد بَيّن سُبْحَانَهُ عَلَىٰ لِسَان نَبِيِّه ٱلْكَرِيم صلى الله عليه وآله مَحَابّة مِن الأَعْمَال ، ومكَارهه ، ونَوَاهيه وأَوَامره ، فألقىٰ إِلَيْكُم المَعْذِرَة ، وٱتّخذ عَلَيْكُمْ الحُجّة عَلَىٰ الجَمِيع ، ولَم يَدع لأَحدٍ من عُذرٍ يَتعلل بِهِ[3] . ومَا رَسمه عُلَماء الأَخْلاَق ، وغَيْرهم مِن المُفكرِين للفَضِيلة

(١) أنظر ، خطب نَهج ٱلْبلاَغَة : ٨١/٤ ، ٱلْحِكْمَة (٣٤٨).

(٢) أنظر ، خطب نَهج ٱلْبلاَغَة : ٩٤/٢ ، جزء من خطبةٍ له (١٧٦).

(٣) يقصد الحَدِيث النبوي الوارد عَن النَّبِيّ صلى الله عليه وآله : «إِنَّ ٱلْجَنَّة حُفت بالمكاره ، وإِنَّ ٱلنَّار حفت بِالشَّهوَات».

ٱلْعَمَلية، وٱعتبرُوه طَرِيقاً سَلِيماً للمُعَامَلَة ٱلإِنْسَانية ـ فإِنَّه يَلتقي مَع دِين الله، وَحَلاَله وحرَامه، وإِنْ نَظر كلّ مِنْهُمَا إِلَىٰ المَوْضُوع مِن زَاوِيته الْخَاصَّة.

(فَلَئِنْ أَمِرَ الْبَاطِلُ لَقَدِيماً فَعَلَ). لا غرَابة أَبَداً فِي أنْ يَقوىٰ ٱلْبَاطِل، ويَكثر فِي أعوَانه. فهَذا هُو شَأنه، وشَأن النَّاس مَعه مُنذ القدِيم، لأنّه خَفِيف عَلَىٰ النّفس، وَعَلَىٰ وفَاق مَع شَهَوَاتِهَا، وأَهْوَائِها (وَ لَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّمَا وَ لَعَلَّ). الْحَقّ قَلِيل الأعوَان، وَقَد يَنْتَصر حِيناً من الدَّهْر. وقَول الْإِمَامِ عليه السلام: «وَلَعَلَّ» يَشبه قَولنا: «أَللَّهُمَّ إِنَّا نَرْغَبُ إِلَيْكَ فِي دَوْلَةٍ كَرِيمَةٍ تُعِزُّ بِها الإِسْلاَمَ، وَأَهْلَهُ، وَتُذِلُّ بِها النِّفَاقَ، وَأَهْلَهُ»[1].

(وَ لَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ!). سِياق الكَلاَم يَدل عَلَىٰ أنّ الْمُرَاد بالشَّيء هُنا دَولة قَوْم من النَّاس، ولَيْسَ الْمُرَاد مِنْهُ الْحَقّ كَمَا فِي شَرح مِيْثَم[2]. وعَلَيْهِ يَكُون الْمَعْنَىٰ نَادِراً ما تَعود دَولة قَوْم بَعد زوَالها، وَعَلَىٰ هَذَا ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد، والشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه[3]. ودُولاَب ٱلْحَوَادِث يُؤَيد ذَلِكَ ويُعزِزه. ومِن أَقْوَال الْإِمَام: «لِكُلِّ مُقْبِلٍ

⇐ أُنظر، خطب نَهج ٱلْبَلاَغَة: ١/ ١٥٠ و: ٢/ ٩٠، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٦/ ٣٥٠ و: ١٠/ ١٦، الْمُعْجَم الْكَبِير: ٩/ ١٠٤ ح ٨٥٤٦، التَّمهيد لِابْن عبدالبر: ١٩/ ١١٦، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٣/ ٤٣٦، صَحِيح أبن حبّان: ١٦/ ٤٠٦، صَحِيح التِّرمِذي: ٤/ ٦٩٣ ح ٢٥٦٠، مَجْمَع الزَّوائد: ١٠/ ٢٣٥، السّنن الْكُبْرَىٰ: ٣/ ١٢١، الْمُصَنَّف لِابْن أَبِي شيبة: ٧/ ١٠٣ ح ٣٤٥٢٧، مُسْنَد الرّوياني: ٢/ ٢٨٨ ح ١٣٧٦.

(١) أُنظر، الكَافِي: ٣/ ٣٢٤ ح ٦، إِقبال الأَعْمَال: ١/ ١٢٧، تَهْذِيب الأَحْكَام للطوسي: ٣/ ١١١، مصباح المتهجد للطوسي: ٥٨١، كَشف اللثام: ١/ ٢٥١.

(٢) أُنظر، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ١/ ٢٩٦.

(٣) أُنظر، شَرْح النَّهْج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١/ ٢٧٢، شَرْح النَّهْج لمُحَمَّد عَبْدَه: ١/ ٤٢.

إِدْبَارٌ، وَمَا أَدْبَرَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ»[1].

(شُغِلَ مَنِ الْجَنَّةُ، وَ النَّارُ أَمَامَهُ!). مَن كَانَ مَصيرهُ إِلَىٰ النَّعِيمِ، أَو الجَحِيم، ولاَ ثَالث فَعَليه أَنْ يَشغل نَفْسه بِمَا يبتعد بِهِ عَن هَذَا، ويُقربه مِن ذَاكَ. وقَد ٱشتَهر عَلَىٰ أَلسِّنة النَّاس إِذَا وَاجه أحدهُم أمراً خَطِيراً أَنْ يَقول: المسأَلة مَسأَلة مَصِير، وحيَاة أو مَوْت.... وَيَعني بهَذا أنّه سَيَبذل الوِسع، والجُهد، ويُضحي بكلّ عزيز كَي يَبتعد عَن الخَطر الدَّاهم، وأي خَطر أشَد مِن ٱلنَّار، وعذَابهـا؟... ثُمَّ قسّم الإِمَام‌ﷺ النَّاس إِلَىٰ أَقْسَام:

١ ـ (سَاعٍ سَرِيعٌ نَجَا). أَسرَع إِلَىٰ مَرضَاة الله، وتَقرّب إِلَيْهِ بالأَعْمَال الصَّالحَات، فَنَجَا مِن أَلِيم العذَاب، وشِدَّتِهِ.

٢ ـ (وَ طَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا). يُحبّ الخَيْرَ وَيُطلبه، وَيَعمل لهُ، ولكنْ بِبطءٍ، وَكَسل، وقَد تَتدارك هَذَا رَحْمَة مِن رَبِّه.

٣ ـ (وَ مُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَىٰ). لاَ يُسرع، ولاَ يُبطيء، بَل يَعرض، ويُقصر. ولَيْسَ مِن شَكٍّ أَنّ عَاقِبَة التَّقصِير الخُسران، والنّدامة. ومِن أَقْوَالهﷺ: «لاَ تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الآخِرَةَ بِغَيْرِ الْعَمَلِ، وَيُرَجِّي ـ أي يؤخر ـ التَّوْبَةَ بِطُولِ الأَمَلِ»[2].

(الْيَمِينُ وَ الشِّمَالُ مَضَلَّةٌ، وَ الطَّرِيقُ الْوُسْطَىٰ هِيَ الْجَادَّةُ). أي المُتعَادلة، الوَاضحة، والمُتوسطة بَيْنَ الإسرَاف، والتَّقْصِير، ومَن ٱنحَرف عَنْهَا يَمنةً، أو يَسرةً فَقَد ٱنحرَف عَن ٱلهُدَىٰ إِلَىٰ الضّلال، وعَن النَّجاة إِلَىٰ الهَلاك (عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَابِ، وَ

(١) أنظر، خطب نَهج ٱلبَلاَغَة: ٤/ ٤٠، ٱلحِكْمَة (١٥٢).

(٢) أنظر، خطب نَهج ٱلبَلاَغَة: ٣/ ١٨٩ رقم (١٥٠)، شَرح النَّهج لاِبن مِيثَم البحراني: ٥/ ٣٢٨ رَقم (١٣٧)، شَرح النَّهج لاِبن أَبي ٱلحَدِيد: ١٨/ ٣٥٦ رَقم (١٤٦).

آثَارُ النُّبُوَّةِ). المُرَاد بِبَاقي الْكِتَاب الْكِتَاب البَاقي بِبقَاء الله تَعَالَىٰ، والْمَعْنَىٰ مَا مِن شيء جَاء فِي كِتَابِ الله، وسُنّة نَبيّه إلاّ وهُو قَائم عَلَىٰ هَذِه الطَّرِيق الْوُسْطَىٰ، والجَادَّةُ المُثلىٰ (وَ مِنْهَا مَنْفَذُ السُّنَّةِ). مِن هَذِه الطَّرِيق يَبتدىء، وعَلَيْهَا يَسِير حَلاَل مُحَمَّد، وَحرَامه (وَ إِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ). لأنّ ٱلخَلاَئِق يَوْم ٱلْقِيَامَة يُحاسبُون عَلَىٰ أَسَاس ٱلسِّرَاط الْمُسْتَقِيم.

والخُلاَصة، أنّ ٱلْمَنْهَج السّوي الَّذي يَجب شَرعاً، وَعَقلاً أنْ يَسِير عَلَيْهِ الأفرَاد، والْجَمَاعَة هُو القَائِم بَيْنَ الإسرَاف، والتَّقْصِير، فكلٌّ مِن هَذِين شرٌّ، وفَسَادٌ، ومَا بَيْنَهما خَيرٌ، وصَلاح... وقَد رَأينا النَّاس يُحبون الرَّجُل المُعتدل فِي سلُوكه، وأعمَاله، وَيَثقُون بِهِ يَصفونه بأوصَاف الكَمَال، والتّقدِير كالْعَاقِل، والمُتزن، بَل وَيستَشِيرُونه فِي المُهمات مِن أُمورهم، ولاَ وَزن عِندهم للمُقصر، أو المُسرف، وإنْ كَانَ دمَاغه مَخزناً للعُلُوم، والآرَاء، والأرْقَام.

(هَلَكَ مَنِ ٱدَّعَىٰ) بِلا حُجّة، ودَلِيل (وَ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ) بِلا رَادع، وزَاجرٍ (مَنْ أَبْدَىٰ صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ) وَمِثله قَول الإمَامِ عليه السلام: «مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صَرَعَهُ»[1] (وَ كَفَىٰ بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلاَّ يَعْرِفَ قَدْرَهُ). لأنّه يَتجَاوز ٱلحُدُود بالإفترَاءَات، والأدعَاءَات الْكَاذِبة، ومن أَقْوَاله عليه السلام: «يَفْعَل الْجَاهِل بنَفْسِهِ مَا لاَ يَفْعَله الْعَاقِل بِعَدُوّه...» وتُطلق كَلِمَة الْجَاهِل الأحمَق عَلَىٰ كلّ مَن يَضع الأُمُور فِي غَيْر موَاضعها، حَتَّىٰ ولَو دَرس عشرَات السِّنِين، وحَفَظ مِئَات الكُتب... وأحمَق النَّاس فِي عَصرنا سَائقُو السّيارَات الّذين يُسرعُون فِي سَيرهم.

(١) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٩٥/٤، ٱلْحِكْمَة (٤٠٨).

(لاَ يَهْلِكُ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ سِنْخُ أَصْلٍ). المُرَاد بالسِّنْخ هُنا التُّربة، وبالأَصْل الجذُور، والمَعْنَىٰ إِذَا قامت الأَعْمَال عَلَىٰ أَسَاس مِن التَّقْوَىٰ كَانَ العَامل فِي مَأمن مِن الهلاَك تَمَاماً كجذُور الشَّجَرَة تَنْبُت فِي تُربة طَيِّبَة، تَسلم مِن الآفَات، والعَاهَات (وَ لاَ يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ). هَذَا تَشبِيه ثَانٍ لِلتَّقْوَىٰ، وإِنَّهَا كالمَاء والزّرع يَنمو بِهِ، وَيُثمر، فكَذَلِكَ الأَعْمَال تَعود عَلَىٰ صَاحبها بِالخَيْرَات مَع التَّقْوَىٰ، ومِن أَقْوَاله ﷺ: «لاَ يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوَىٰ، وَكَيْفَ يَقِلُّ مَا يُتَقَبَّلُ؟»[1]

(فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ). هَذَا خطَاب للغُوغَاء، والسّواد مِن النَّاس، وهُو يَأمرهم بالسُّكُوت، وَعَدم الخَوض فِيما لاَ يَعلمون خَوْفاً مِن البَلْبَلَة، وإِثَارة الْفِتْنَة. ومِن أَقْوَاله فِي وَصف الْغَوْغَاء: «هُمُ الّذين إِذَا اجْتَمَعُوا ضَرُّوا، وَإِذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا.. فَقِيل لهُ: قَد عَرفنا مَضَرة اجْتِمَاعهم، فَمَا مَنْفَعة افتِرَاقهم؟. قَالَ: يَرْجِعُ أَصْحَابُ الْمِهَنِ إِلَىٰ مِهْنَتِهِمْ، فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِمْ»[2].

(وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) وَهِي الحَال الّتِي يُجْمِعُون عَلَيْهَا، والمُرَاد بِها هُنا الإِلفَة، والمَحبَّة، وفِي الحَدِيث: «صَلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلاَة، وَالصِّيَام»[3] (وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ) المُرَاد بِوَرَائِكُمْ هُنا بَيْنَ أيدِيكم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[4] أي بَيْنَ يَدِيه، لأَنّ العذَاب لاَحق بِهِ،

(١) أنظر، خطب نَهج ٱلبَلاَغَة: ٢١/٤، ٱلحِكْمَة (٩٥).
(٢) أنظر، خطب نَهج ٱلبَلاَغَة: ٤٦/٤ ٱلحِكْمَة (١٩٩).
(٣) أنظر، نَهْج ٱلبَلاَغَة: جزء من خُطْبَة (٤٧) من وصية له ﷺ، لِلإِمَامِ الحَسَن، والحُسَيْن ﷺ.
(٤) إبْرَاهِيم: ١٦ ـ ١٧.

وكَذَلِكَ التَّوْبَة لاَحقه بالعَاصي بٱعتبَار أَنَّهَا بَيْنَ يَدِيه، ولاَ يَمـنعَه عَـنْهَا مَـانِع (وَ لاَ يَحْمَدْ حَامِدٌ إِلاَّ رَبَّهُ) لأنّه هُو وحدَه يَستحق الشُّكْر، والْحَـمْدُ (وَ لاَ يَـلُمْ لاَئِـمٌ إِلاَّ نَفْسَهُ) لأنّه أعرَض عَن دَعْوَة الْحَقّ، والْعَدْل، وٱستجَاب للهَوىٰ، وٱلْجَهْل.

الخطبة

- ١٧ -

ضَالٌّ مُضِلٌّ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

(إنَّ أَبْغَضَ الْخَلَائِقِ إِلَىٰ اللهِ رَجُلاٰنِ : رَجُلٌ وَكَلَهُ اللهُ ، إِلَىٰ نَفْسِهِ فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ ، مَشْغُوفٌ بِكَلَامِ بِدْعَةٍ ، وَ دُعَاءِ ضَلاٰلَةٍ ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ اَفْتَتَنَ بِهِ ، ضَالٌّ عَنْ هَدْيِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ ، مُضِلٌّ لِمَنِ اَقْتَدَىٰ بِهِ فِي حَيَاتِهِ ، وَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ[1] .

وَ رَجُلٌ قَمَشَ جَهْلاً ، مُوضِعٌ فِي جُهَّالِ الْأُمَّةِ ، عَادٍ فِي أَغْبَاشِ الْفِتْنَةِ ، عَمٍ بِمَا فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ ، قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً وَ لَيْسَ بِهِ ، بَكَّرَ فَاَسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ ؛ مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ ، حَتَّىٰ إِذَا اَرْتَوَىٰ مِنْ مَاءٍ آجِنٍ ، وَ اَكْتَنَزَ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ ، جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِياً ضَامِناً لِتَخْلِيصِ مَا اَلْتَبَسَ عَلَىٰ غَيْرِهِ ، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَىٰ الْمُبْهَمَاتِ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثًّا مِنْ رَأْيِهِ ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ[2]).

اللُّغَة:

قَصْدِ السَّبِيلِ : اَلسِّرَاط الْمُسْتَقِيم . والجَائِرُ : المَائِل عَن هَذَا اَلسِّرَاط . والبِدْعَة ـ

بِكَسر البَاء ـ ما ٱبْتَدَع عَلَىٰ غَيْرِ مِثال سَابق لُغة. أَمَّا شَرعاً فَهِيَ الإِحدَاث فِي الدِّين بِتَقليمه، أو تَطعيمه. ولِلْفِتْنَةِ معَان، والمُرَاد بها هُنا الضَّلال بدَلِيل سِيَاق الكَلاَم. وقَمَش: جَمَع، وتُطلق عَلَىٰ أكلٍ. والمُوضِع ـ بِضَم المِيم، وَكَسر الضَّاد ـ المُسرِع. والعَادي أيضاً المُسرع، أو السَّاعي. والأَغْبَاش ـ بِفَتح الهَمزة ـ جَمع غَبِش ـ بِكَسر البَاء ـ المُظلم. عَم مِن ٱلْعَمَىٰ. وبَكَّرَ: بَادر. وٱستَكْثَرَ الشَّيء: رَآه كَثِيراً، وٱستَكْثَرَ مِن الشَّيء أَكْثَرَ من فِعله. والمَاء الآجِن: الفَاسد الَّذي تَغير لونَه، وَطَعمه. ولِلتَخْلِيص: لفَصل الخُصومَات بِبَيَان الحَقّ. والإلْتبَاس: الإِشتبَاه. والمُبْهَمَات: المُشكِلاَت. والحَشْو: الزَّائِد. والرَّثّ: البَالي.

الإِعْرَاب:

رَجُلاَن خَبَر إنَّ، والرَّجُلُ الأَوَّل بَدل مُفصل مِن مُجمل، والرَّجُلُ الثَّانِي عَطف عَلَىٰ الأَوَّل، المُبدل مِنْهُ رَجُلان. ومن جَمع بالتَّنوين، و«مَا» مَوْصُولة مُبْتَدَأ، وخَيْرٌ خَبَر. حَتَّىٰ حَرف ٱبتدَاء، وَلاَ عَمل لها هُنا، وَإِذَا ظَرف مُتضمن مَعْنَىٰ الشّرط، وجَلَس جوَاب الشَّرط، وقَاضِياً حَال، وضَامِناً صِفة له، ورَثًّا صِفة «حَشْواً».

الْمَعْنَىٰ:

(إِنَّ أَبْغَضَ الْخَلاَئِقِ إِلَىٰ اللهِ رَجُلاَنِ). حُبّ الله تَعَالَىٰ: رَحْمَته، وثوَابه، وَبُغضه: نِقْمَته، وعذَابه. وأَشد النَّاس مَقتاً عِند الله، وأَبعدهُم مِن رَحْمَته (رَجُلٌ وَكَلَهُ اللهُ، إِلَىٰ نَفْسِهِ). وهُو الَّذي تَتحكم فِيهِ نَفْسه الأمَارة بالسُّوء بِلا رادع، وزَاجرٍ.

كالتَّائِه المَغرُور، والمُسرِف، المُبَذر، والبَخِيل المُمسك، والحَسُود الحَقُود، ومِمَّنْ

ٱنْتَهك حُرمَات الله، والتّابع لشرَار الخَلق، وكلّ مَن لاَ يَهْتَدِي إِلَىٰ دَلِيل، قَالَ الإمَام زين ٱلْعَابِدِين عليه السلام: «أَللَّهُمَّ إِنْ وَكَلْتَنِي إِلَىٰ نَفْسِي عَجَزْتُ عَنْهَا»[١]، وفِي دُعَاء ثَانٍ: «وَأَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِي بِمَا تُعين بِهِ الصَّالِحِين عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ»، وفِي ثَالثٍ: «أَللَّهُمَّ خُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ نَفْسِي مَا يُخَلِّصُهَا، وَأَبْقِ لِنَفْسِي مِنْ نَفْسِي مَا يُصْلِحُهَا»[٢]، وفِي رَابعٍ: «سَيِّدِي إِنْ وَكَلْتَنِي إِلَىٰ نَفْسِي عَجَزْتُ عَنْهَا، وَلَمْ أُقِمْ مَا فِيهِ مَصْلَحَتُهَا، وَإِنْ وَكَلْتَنِي إِلَىٰ خَلْقِكَ تَجَهَّمُونِي، وَإِنْ أَلجَأْتَنِيْ إِلَىٰ قَرَابَتِي حَرَمُونِي، وَإِنْ أَعْطَوْا أَعْطَوْا قَلِيْلاً نَكِداً، وَمَنُّوا عَلَيَّ طَوِيلاً، وَذَمُّوا كَثِيراً. فَبِفَضْلِكَ أَللَّهُمَّ فَأَغْنِنِي، وَبِعَظَمَتِكَ فَانْعَشْنِي، وَبِسَعَتِكَ فَابْسُطْ يَدِي، وَبِمَا عِنْدَكَ فَاكْفِنِي»[٣].

وكُلّ مَن عَرف نَفْسه، وحَقِيقَته يَشعر هَذَا الشُّعُور، ومِن هُنا قِيل: «مَن عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»[٤]. ومَن فَقد هَذَا الشُّعُور فهُو أجْهَل النَّاس بنَفْسِه، وخَالقه.

(فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ) أي مَائل عَن صرَاط الْحَقّ وٱلإِنْسَانية، وأي ٱمرىء يَعمل لِمَنفَعته الْخَاصَّة، ولاَ يَهتم بِمَجيئه فَقد ٱنحرف عَن ٱلصِّرَاط الْقَوِيم، أَمَّا إِذَا أَضَرَّ سلُوكه بغَيره فهُو وَحش كَاسر، وحيوَان مُفترس... لأنّ ٱلإِنْسَان بِمَا هُو إِنْسَان يَسْتَحِيل أنْ يَنْتَهك حِمىٰ ٱلإِنْسَانية، وَيَعتدي عَلَىٰ أَخِيه ٱلإِنْسَان.

(مَشْغُوفٌ بِكَلَامِ بِدْعَةٍ، وَ دُعَاءِ ضَلاَلَةٍ). الضَّلاَلَة ضِدّ ٱلهِدَايَة، ومَن ضَلَّ فِي

---

(١) أُنظر، الدُّعاء الثَّاني والعشرون من الصّحيفة السّجادية.

(٢) أُنظر، الدُّعاء العشرون من الصّحيفة السّجادية.

(٣) أُنظر، الدُّعاء الثَّاني والعشرون من الصّحيفة السّجادية.

(٤) أُنظر، عيون الحكم والمواعظ: ٤٣٠، غرر الحكم: ٱلحِكْمَة (٧٩٤٦)، شَرح مئة كَلِمَة للبحراني: ٥٧ (الكَلِمَة الثّالثة)، حاشية الدسوقي: ٩/١، فيض القَدير: ٢٩١/١ ح ٣١٠.

سَعيه خَابت آمَاله، ومطَالبه، والبِدْعَة هِي الْعَقِيدَة، أو الفَتوىٰ الَّتي لاَ دَلِيل عَلَيْهَا مِن ٱلْكِتَاب، أو السُّنَّة، أو الإجْمَاع، أو ٱلعَقْل، وَهَذَا الْبَغِيض البَعِيد مِن رَحْمَة الله مُولع بالشُّهرة، والإستطَالة، ومِن أَجْلها يُرَائي، وَيُدلس، وَيَبتدع، وَيَختَلق فِي الدِّين وشَرِيعَة سيِّد النَّبيِّين، ويدعُو إِلَىٰ الضّلال، والْفَسَاد (فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ ٱفْتَتَنَ بِهِ) الْمُرَاد بالْفِتْنَة هُنا تضلِيل مَن صَدقه، وإفسَاد مَن وَثِق بِهِ.

(ضَالٌّ عَنْ هَدْيِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ). وهُم الّذين أشَار إِلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ بقَوْله: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾[1] ومِن دُعاء لِلإِمَام زين ٱلْعَابِدِين ﷺ: «أَللَّهُمَّ أَلحِقْنِي بِصَالح مَن مَضىٰ، وٱجْعَلْني مِن صَالح مَن بَقِي، وخُذ بِي سَبِيل ٱلصَّالِحِينَ»[2] (مُضِلٌّ لِمَنِ ٱقْتَدَىٰ بِهِ فِي حَيَاتِهِ، وَبَعْدَ وَفَاتِهِ). إنَّ أَخْسَر النَّاس صَفقةً، وأَخيَبهم سَعْياً مَن ضَلّ عَن سَبِيل ٱلصَّالِحِينَ مِن قَبله، وكَانَ قُدْوَة للمُضلين مِن بَعدهِ.

(حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ) مِن الّذين تَرأس عَلَيْهِمْ، ونَال الحُظوة عِندهُم بِالتَّدليس، والتّظاهر بِالعِلم، والتَّقْوَىٰ. قَالَ عزَّ مَن قَائِل: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[3].... (رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ). ولاَ فُكَاك لهَذا الرَّهن، ولاَ ثَمن عذَاب الحَرِيق.

والخُلاَصة، أنّ أَشد النَّاس عَذاباً ٱثْنَان: الأَوَّل أسلَس القِياد لشهوَاته، وأَهْوَائِه، فَمَالت بِهِ عَن ٱلسِّرَاط الْقَوِيم، وعَاش فِي دُنيا ٱلْفَسَاد، والضّلال،

---

(١) الأنعام: ٩٠.

(٢) أنظر، مصباح المتهجد: ١٤٣ و ٢٧٣ و ٥٩٦، الكَافي: ٥٨٦/٢، إقبال الأَعْمَال: ١٧٣/١.

(٣) ٱلعَنْكَبُوت: ١٣.

والتّدليس والنِّفَاق، وٱنخَدع بِهِ مَن ٱنْخَدع مِن ٱلْجَهْلة، وسـوَاد النّـاس، فَـضلّ، وأضَلّ، وتَحمل أثقَاله، وأثقَال من ٱغترَّ بِهِ... وَقَد يَملك أَهْل الضّلال مِن دُنيَاهم الجَاه، وٱلْمَال، ولكن هَذَا ٱلْمُلْك يَعود عَلَيْهِمْ بالخُسرَان، والوبَـال حَـيْث يَجـعلهم عَـبِيداً لأكـثَر مـن إله، ويُـورثهم جُـبناً فِي الْحَـقّ، وٱنْـغمَاساً فِي المُـرَاوغـة، وٱلْبَاطِل... أَمَّا الرَّجُل الثَّانِي فَهُوَ الَّذي أَشَار إِلَيْهِ الإِمَام بقَوْله:

(وَ رَجُلٌ قَمَشَ جَهْلاً). ويَلتقي مَع الأَوَّل فِي ٱلْفَسَاد، والضّلال حَـيْث أَسْـلَس الأَوَّل قِياده لِلنَّفس الأَمَّارة، والثَّانِي يَقُوده ٱلْعَمَىٰ، وٱلْجَهْل، والنّـتيجه وَاحِـدَة، وَهِيَ الخُذلان، والخُسران (مُوضِعٌ) بضم الميم، وكَسر الضّـاد، أي مُـسرع (فِـي جُهَّالِ الأُمَّةِ). يَمضي بِهِمْ فِي التّضليل، ويُزيدهم جَهلاً عَلَىٰ جَـهل، ويَـنطَبق هَـذَا الْوَصْف عَلَىٰ أَكْثَر المُعَممين فِي عَصرنا... تُجالس أحدهُما فَـلا تَـشم مِـنْهُ عَـبِير الإِيمَـان، والْيَقِين، ولاَ تَرىٰ عَلَىٰ حَدِيثه نُور العِلم، والذّكاء، ولاَ تَلمس مِنْهُ غَـيْر السُّخف، وٱلْجَهْل، ومَع هَذَا يُحب الشّهرة، ويحنُّ إِلَيْهَا، ويَشتريها بكلّ ثَمَن.

(عَادٍ) مِن الْعَدُوّ السُّرعَة (فِي أَغْبَاشِ الْفِتْنَةِ) أي ظُلمَات ٱلْجَهْل، والأَبَـاطِيل، يُسرع فِيهاً تَائِهاً لاَ يَدري أَين المَـصِير (عَـمٍ بِـمَا فِـي عَـقْدِ الْـهُدْنَةِ). ٱخـتَلف الشّارحُون فِي تَفْسِير هَذِه الجُملة عَلَىٰ أَقْوَال لا تَركن النّفس إِلَىٰ شيء مِنْهَا، والَّذي نَفْهمه نَحْنُ: أنّ الشَّريعَة الإِسْلاَميّة ٱلإِنْسَانية تَقوم عَـلَىٰ أُسس عَـدِيدة، أهـمّها، وأدقها رعَاية الْمَصْلَحَة، ودَفع الْمَفْسَدَة. لأنّ أَحْكَام ٱلإِسْلاَم تَبْتَنِي بكلاّمها عَـلَىٰ هَذَا الأَسَاس، وقَد يَكُون فِي الحَادثه، أو الفِعْل مصلَحة مِن جِهة، ومَـفسدَة مِـن جِهة ثَانِيَه، وَعِندها لا مَفرّ مِن عملِية الموَازنة بَيْنَ رِعَاية الْمَصْلَحَة، ودَفع الْمَفْسَدَة، وَتقدِيم الأهَم عَلَىٰ المُهم، فإِنْ كَانَ دَرء الْمَفْسَدَة أَوْجَبَ تجَاهلنا الْمَصْلَحَة، وعَـقدنا

المُدْنَة، والمصَالحة مَع الْمفْسَدَة إِلَىٰ أَنْ تَحِين الْفُرْصَة، وتَسنَح، والشّرط الأوّل فِيمَن يَجري عملِية الموَازنة أنْ يَكُون مِن ٱلْعَارِفِين الحُكَمَاء.

(قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً وَ لَيْسَ بِهِ). يَسْتَعمل الْإِمَامِ عليه السلام كَلِمَة أشبَاه النَّاس وأشبَاه ٱلرِّجَال فِي الجُهلاء الّذين لاَ يُمَيِّزُون بَيْنَ ما يَضُرّهم، ويَنْفَعهم، وفِي الْجُبنَاء الّذين يَتهربُون مِن الْجِهَاد، والكفَاح مِن أجل حُرِّيتهم، وكرَامتهم، ولَيْسَ فِي هَذَا الإستعمَال كنَاية، وتجُوز، لأنّ الرَّجُل مَأخوذ من الرّجُولة الَّتي تُومىء إِلَىٰ الشَّجَاعَة، والصّبر عَلَىٰ الشَّدَائِد، ومن أَقْوَال الْإِمَام عليه السلام: «قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَىٰ قَدْرِ هِمَّته»[1].

(بَكَّرَ فَٱسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ؛ مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ). كلّ مَا يُحرر ٱلإِنْسَان مِن ٱلْجَهْل، وٱلْخَوْف، والْفَقْر، وَيَتجه بِهِ إِلَىٰ حَيَاة أفضَل فهُو خَير، وحَق وجَمِيل، وعَظِيم، وكَثِير، وإِنْ كَانَ قَلِيلاً بالقِياس إِلَىٰ غَيْره. هَذَا هُو مَعْنَىٰ الْخَيْر عِند الْإِمَام. ومن أَقْوَاله: «خَيْرُ الْبِلاَدِ مَا حَمَلَكَ»[2] ... فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ ... لاَ خَيْرَ فِي عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ»[3]. وعَلَيْهِ فلا فَرق أَبداً بَيْنَ مَن أَقلَّ، أو ٱسْتَكْثَرَ مِن المعْلُومَات، وأكمَل، فكَيْفَ بمَن ٱسْتَكْثَرَ مِن الجهَالاَت، والأسَاطِير الَّتي تُعمي عَن الْحَقِّ، وتُبعد عَن الوَاقع؟.

(حَتَّىٰ إِذَا ٱرْتَوَىٰ مِنْ مَاءٍ آجِنٍ). كَنَّىٰ الْإِمَام عليه السلام بالْمَاء العَفن المُتغير لوناً، والمُستكره طَعماً، كَنَّىٰ بِهِ عَن البِدع، والجهَالاَت، والأسَاطِير، والخُرَافات (وَٱكْتَثَرَ

(١) أنظر، خطب نَهْج ٱلبَلاَغَة: ١٣/٤. ٱلحِكْمَة (٤٧).
(٢) أنظر، خطب نَهْج ٱلبَلاَغَة: ١٠٣/٤. ٱلحِكْمَة (٤٤٢)، عيون الحكم والمواعظ: ٢٤٠.
(٣) أنظر، خطب نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٤٠/٣ جزء من كتاب لِلإمَامِ الحَسَن عليه السلام، تحت رَقم (٣١).

مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ) . أي أنّ هَذَا الغرّ الجَاهِل بَعد أنْ جَمع ، وحَفظ الكَثِير مِن صَفحَات الكُتب والمُجلدَات المُضللة ، والرّوَايَات الْكَاذِبة (جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِياً) . ولاَ يَجلس هَذَا المَجلس إلاّ نَبيّ ، أو وَصي نَبيّ ، أو شَقي ، وفِي بَعْض التّفاسِير أنّ المُرَاد بالْأَمَانَة الْقَضَاء فِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1] . هَذِه صُورة طِبق الأصل عَن بَعْض قُضَاه المحَاكم الجَعفرِية بِلُبنان ، إِلَىٰ جَانب الإِشَاعة عَن بَعضهم بالرّشوة ، والْفُجُور ، وشُرب الخُمُور ... ولَو جَرت عَملِية التّكرِير ، والتَّطْهِير ، وأخذ الْعَدْل مَجرَاه لكَان أَكْثَرهم فِي السّجن مَع ٱلْمُجْرِمين[2] .

(ضَامِناً لِتَخْلِيصِ مَا ٱلْتَبَسَ عَلَىٰ غَيْرِهِ) . فهُو وَحده بزَعمه العَالِم اللاَّمع الَّذي يَرىٰ ما لاَ يَرىٰ الْعُلَمَاء ، ويعْرِف ما لاَ يَعرفُون ، ويَحل ٱلْمُعْضِلاَت الَّتي ٱستَعْصت عَلَىٰ أَهْل الْفِكْر ، والعِلم ، أَمَّا كَيْفَ ؟ ومِن أَين نَال ، وتُوصل إِلَىٰ هَذِه الْمَنْزِلَة فَمِن ذَاته الَّتي تَنْفَجر تَحقِّيقاً ، وتَدقِّيقاً ، لا مِن جِدّه ، وإِجْتِهَاده .

(فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَىٰ الْمُبْهَمَاتِ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثًّا مِنْ رَأْيِه ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ) .

«إِنَّ لله فِي كُلّ وَاقعة حُكماً »[3] ، والطَّرِيق إِلَىٰ مَعْرِفَته ٱلأدِلَّة ٱلْأَرْبَعَة : ٱلْكِتَاب ، والسُّنّة ، والإِجْمَاع ، ٱلْعَقْل ، وَقَد تُفيد هَذِه الأُصُول العِلم بِحُكم الله لجَمِيع النَّاس

(١) ٱلْأَحْزَاب : ٧٢.

(٢) نَحْنُ الآن فِي سَنَة ١٩٧١م . (مِنْهُ ﷺ).

(٣) هَذِه الرّواية متواترة بالْمَعْنَىٰ كما أعترف به المحققون من الأصحاب في باب التَّخْطِئَة والتصويب . أنظر ، فرائد الأُصُول : ١/ ١١٤ ، القواعد الفقهية : ١/ ١٣ .

كوجُوب الصَّلاَة، والصّيام، وكَثيراً مَا يَتعذر ٱستخرَاج الْحُكْم مِنْهَا إلاّ عَلَىٰ أَهْـل النّظر، والاِجْتهَاد بخَاصَّة إِذَا كَانَ فِي ٱلْوَاقِعَة جِهة صَلاحٍ، وَجِهة فسَاد، وتصَارعت الآرَاء فِي الموَازنة بَيْنَهما، والتّرجيح، والتّقدِيم عَلَىٰ أَسَاس الشَّرِيعَة، وَمبَادئها، ولكنَّ الجَسور المَغرُور الّذي عنَاه الإِمَامعليه السلام يُلفق مِن خَياله، وأوهَامه (حَشْواً رَثّاً) أي كَلاَماً فَارغاً (ثُمَّ قَطَعَ بِهِ). وَيقُول: هَذَا هُو الْحَقّ الّذي لاَ رَيب فِيهِ... وهَكذا يَعِيش فِي دُنيا الظّلام، وٱلأَوْهَام مِن يَتَّخِذ مِن ذَاته مِقْيَاساً لكلّ شيء، وَيَجهل، أو يَتجَاهل الْحَقّ، والوَاقع.

يَعِيشُونَ جُهَّالاً، وَيمُوْتُونَ ضُلَّالاً...فِقْرَة ٣ ـ ٥:

(فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ: لاٰ يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ، فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ، وَ إِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ[٣]. جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالاٰتٍ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ، لَمْ يَعَضَّ عَلَىٰ الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ. يَذْرُو الرِّوَايَاتِ ذَرْوَ الرِّيحِ الْهَشِيمَ لاٰ مَلِيٌّ ـ وَ اللهِ ـ بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، وَ لاٰ أَهْلٌ لِمَا قُرِّظَ بِهِ، لاٰ يَحْسَبُ الْعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، وَ لاٰ يَرَىٰ أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ، وَ إِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ اكْتَتَمَ بِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ[٤]. تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدِّمَاءُ، وَ تَعَجُّ مِنْهُ الْمَوَارِيثُ. إِلَىٰ اللهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً، وَ يَمُوتُونَ ضُلَّالاً، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَ لاٰ سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً، وَ لاٰ أَغْلَىٰ ثَمَناً مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَ لاٰ عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَ لاٰ أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ[٥]!).

اللُّغَة:

اللَّبْس ـ بِفَتح اللاَّم ـ الإختلاَط، وَعَدم الظّهور، والوضُوح. والخَبْط: الضَّرْب: وَيُقَال، يَخْبط خَبْطَ عشوَاء لِمن يَتصرف فِي الأُمُور عَلَىٰ غَـيْرِ بَـصِيرة. والعَـاشي والأَعْشَىٰ: ضَعِيف الْبَصَر. وذَرت الرِّيحِ التُّرَاب: أطَارته. وَالْهَشِيم: النَّبت اليَابس المُتكسر. وكلّ مَا يَتجر بِهِ يُسمّىٰ سِلعة.

الْإعْرَاب:

جَاهِلٌ خَبَرَ ثانٍ لَهُوَ، وخَبَّاطُ صِفة جَاهِل، ومِثله وَلاَ مَلِيٌّ، وبِـإِصْدَارِ مُـتَعَلّق بِمَلِيٌّ، ومَا بَلَغَ مَجرُور بالإِضَافة، ومَذْهَباً مَـفْعُول يَـرَىٰ، وجُـهَّالاً حَـال مـن وَاو يَعِيشُونَ، وضُلَّالاً حَال من وَاو يَمُوتُونَ، وفِيهِمْ خَبَر مُقَدَّم لَيْسَ، وسِـلْعَةٌ اسمـها، وأَبْوَرُ صِفَة، لسِلْعَة، وبَيْعاً تَمْيِيز، ومِثله ثَمَناً.

الْمَعْنَىٰ:

(فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ). الرّاسخُون فِي عِلم ٱلْكِتَاب، والسُّنّة هُم الْمَرْجِع فِي دَفع ٱلشُّبُهَات عَن دِين الله، وشرِيعته، وحلّ المُشْكِلاَت حِينَ تَلْتَبس الآرَاء، وتَختَلف الأهوَاء، لأنّهم عَلَىٰ يَقِين من مَعْرِفَة الْحَـق، أمَّـا الْجَـاهِل الَّذي يَتسم بِسمَات أَهْل العِلم، ولَيْسَ مِنْهُم فهُو عَارٌ، وَشنَارٌ عَلَىٰ الدِّين، وأهْـله، لأنّه فِي ضَعفه عِلماً، وفهماً كَنَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ، ومَا أضْعَف مِن يَتقي بِهَذا النّسج مِن الْعَدُوّ، وضَربَاته.

(لاَ يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ). جَاهل لا يَعْرِف قَدره، وَلاَ يَقف عِندَه، بَل يَقتحم

ٱلشُّبُهَات، ويَقُول بالظَّنة، وَيَحكم بالتُّهمة (فَإِنْ أَصَابَ) صِدفةً، ورِمية من غَيْرِ رَامٍ (خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ) لجَهله بمدرَك الصّواب، وموَاقعه (وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ) لِعَمَاه عَن أَسْبَاب الخَطَأ، وموَارده، ومن أَقْوَال الإِمَام عليه السلام فِي الثّناء عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِن: «يَقُولُ فَيُفْهِمُ، وَيَسْكُتُ فَيَسْلَمُ»[1].

(جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالاَتٍ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ). وتُومِيء صِيغة المُبَالغة فِي خَبَّاط، وركّاب إِلَىٰ كَثْرَة الأَغلاَط، والأَخْطَاء (لَمْ يَعَضَّ عَلَىٰ الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ). أي لاَ يُعتمد فِي أَقْوَاله، وأَحْكَامه عَلَىٰ أصل ثَابت، وقَاعدة صَحِيحة (يَذْرُو الرِّوَايَاتِ ذَرْوَ الرِّيحِ الْهَشِيمَ). والمُرَاد بالرِّوَايَات هنا كلّ نَقل يُثبت قَول ٱلْمَعْصُوم، أو فِعله، أو تَقريره، ويُذْري الرِّوَايَات كنَاية عَن جَلهه بِدلالاَتها، ووقَائعها (لاَ مَلِيٌّ ـ وَاللهِ ـ بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ) فَارغ مِن العِلم، فإذَا وَردت عَلَيْهِ إِحدىٰ القضَايا قَالَ فِيْهَا بِٱلْجَهْل، والغَبَاء، وحَكَم بالجَوْر، والأَهوَاء (وَلاَ أَهْلٌ لِمَا قُرِّظَ بِهِ). وتَوَلَّىٰ الْقَضَاء بِالشَّفَاعات، والرَّشَاوَات.

(لاَ يَحْسَبُ الْعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ). زُين لهُ ٱلْجَهْل أنّه أحَاط بكلّ شَيء عِلماً، وإنْ مَا غَاب عَنْه فلَيْس بعِلم... وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[2]... (وَلاَ يَرَىٰ أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ). لَيْسَ لِلعُلَمَاء ـ فِي زَعْمه ـ بحُوث، وتَجَارب، وَلاَ لِلأَئِمَة آرَاء، ومذَاهب، وَلاَ للعُلُوم تَقدَّم، وتَطور... أَبَداً لا شيء إلّا عَقْله، وفَهمه، وهُو الحَكِيم الخَبِير... وهَذِه أبشَع صُورة للجَاهل، وقَد يُظن أَنَّهَا ضَرب مِن المُبَالغة... كلاَّ،

(١) أنظر، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ١٥٢/١، ٱلْخُطْبَة (٨٧).

(٢) ٱلإِسْرَاء: ٨٥.

هِي عَين الوَاقع، ومن تَتَبَّع، وتَأمل رَآها فِي أَكْثَر مِن وَاحد.

(وَإِنْ أَظْلَمَ) أي خَفي (عَلَيْهِ أَمْرٌ اكْتَتَمَ بِهِ) سَتر جَهله بالأَمْر الَّذي خَفي عَلَيْهِ (لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ) ومَع هَذَا يتظَاهر بالعِلم، وٱلْمَعْرِفَة كِيلا يُعد مَع الجَاهِلِين (تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدِّمَاءُ). أي أنّ الدِّمَاء الَّتي يحكم بِها تَنطق بلِسَان الحَال أَنَّهَا أُرِيقت ظُلماً، وعُدْوَاناً (وَ تَعَجُّ مِنْهُ الْمَوَارِيثُ) لِحُكمه فِيْهَا بغَير ما أَنـزَّل الله سُبْحَانَهُ (إِلَىٰ اللهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً، وَ يَمُوتُونَ ضُلَّالاً). والعَيش فِي ٱلْجَهْل مَع التّظَاهر بالعِلم مَوْت عَلَىٰ ٱلْفَسَاد، والضّلال، ولاَ شيء وَرَاء هَذَا العَيش، أو ٱلْمَوْت إلاّ الدَّاهية، والهَاوِية.

(لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ). الْمُرَاد بِالتِّلاوة هُنا الفَهم السَّلِيم، والتَّفْسِير الْقَوِيم لآيَات الله، والْمَعْنَىٰ أنّ هَؤُلاء المَعَاشِر إِذَا فُسر ٱلْقُرْآن بِالْحَقِّ، وبغَير مَا تَهوىٰ أَنْفسهم أعرضُوا عَنْه، وعَاندُوه (وَ لاَ سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً، وَ لاَ أَغْلَىٰ ثَمَناً مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) وأوّل بِمَا يَشتهُون... فالدِّين عِندهم الْمَصْلَحَة وكَفىٰ (وَ لاَ عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ) لأنّه يُخالف أَهْوَاءهم (وَ لاَ أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ) لأنّه عَلَىٰ وِفق مقَاصدهم... قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «وَمَا أَشبَه حَال هَذَا المَعشر بالمَعَاشِر مِن أَهْل هَذَا الزّمان»[1].

---

(١) أُنظر، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة للأُستاذ مُحَمَّد عَبْدَه: ١/٥٥، رقم ٱلْكِتَاب (١٨). من كَلاَم له ﷺ فِي ذَمّ ٱختلاف ٱلْعُلَمَاء فِي الفُتيا، وفِيهِ بِذَمّ أَهْل الرَّأي، ويكلّ أمر الحُكْم فِي أُمور الدِّين لِلْقُرْآن.

الخطبة

- ١٨ -

(تَرِدُ عَلَىٰ أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيْهَا بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَىٰ غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيْهَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقُضَاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْإِمَامِ الَّذِي ٱسْتَقْضَاهُمْ، فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ - جَمِيعاً - وَ إِلَهُهُمْ وَاحِدٌ! وَ نَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ! وَ كِتَابُهُمْ وَاحِدٌ! أَ فَأَمَرَهُمُ اللهُ - سُبْحَانَهُ - بِالْإِخْتِلَافِ فَأَطَاعُوهُ! أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ[1]! أَمْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً نَاقِصاً فَٱسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَىٰ إِتْمَامِهِ! أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ، فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا، وَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْضَىٰ؟ أَمْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً تَامّاً فَقَصَّرَ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ تَبْلِيغِهِ، وَ أَدَائِهِ، وَ اللهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[1] وَ قَالَ: «فِيهِ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ»[2]، وَ ذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَ أَنَّهُ لا ٱخْتِلَافَ فِيهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[3]. وَ إِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ، وَ بَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لا تَفْنَىٰ عَجَائِبُهُ، وَ لا تَنْقَضِي

---

(١) ٱلأَنْعَام: ٣٨.

(٢) أقتباساً من الآيَة ٨٩ من سُورَة ٱلنَّحْلِ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

(٣) ٱلنِّسَاء: ٨٢.

غَرَائِبُهُ، وَلاَ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلاَّ بِهِ[٢]).

اللُّغَة:

ٱسْتَقْضَاهُمْ: طَلَبهم، أو ٱخْتَارهم لِلْقَضَاء. والتِّبْيَان: التَّوضِيح. والأَنِيق: الْحَسَن الَّذي يَسُرّ النَّاظِرين.

الْإِعْرَاب:

الَّذِي ٱسْتَقْضَاهُمْ صِفة لِلْإِمَام، وجَمِيعاً حَال من الضَّمِير فِي آرَاءَهُمْ. ومِن زَائِدَة، وشَيْءٍ مَفْعُول فَرَّطْنَا، والْمَصْدَر مِن أَنَّ والْكِتَاب... إلخ مَفْعُول ذَكَرَ.

الْمَعْنَىٰ:

هَذِه ٱلْخُطْبَة وَاضِحة فِي ذَمّ ٱلْجَهْل، وٱلْعَمَل بالرَّأي، وتَلتَقِي مَع الَّتِي قَبلها عَلَىٰ صَعِيد وَاحد، ومن أَجْل هَذَا نَشرحها بإِيجاز ما أَمْكن (**تَرِدُ عَلَىٰ أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيْهَا بِرَأْيِهِ**) لا بالأُصُول المُقررة للشَرِيعَة، وأَحْكَامها. ومِن البدَاهة أنّ أَحْكَام الله سُبْحَانَهُ لا تُصاب بالآرَاء، وَلاَ تُدرك أسرَارها بالأفكَار (**ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَىٰ غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيْهَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ**). قَد يَنْبع الْإِخْتِلاَف بَيْنَ الْفُقَهَاء مِن الإِخْتِلاَف فِي فَهم آية، أو صِحة رِوَاية، وَهَذَا جَائزٌ، وَمَشروعٌ، ما فِي ذَلِكَ رَيب، والمُخطِىء مَعذُور، بل ومَأجُور مَع بَذل الجُهد، وإِفرَاغ الوِسع فِي الْبَحْث، والتّنقِيب، وقَد يَنبع الْإِخْتِلاَف من مُجرد الإِخْتِلاَف فِي الرّأي

والاِسْتِحْسَان وَهَذَا مَحظور، وصَاحبه آثم حَتَّىٰ ولَو أَصَابَ الوَاقع إِذَا ٱدْعىٰ الاِجْتِهَاد زُوراً، وبُهتَاناً، وهُو المَقصُود مِن كَلاَم الإِمَام.

(ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقُضَاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الإِمَامِ الَّذِي ٱسْتَقْضَاهُمْ). المُرَاد بالإِمَام هُنا ٱلْخَلِيفَة الَّذي صَيَّرهم قُضَاة، و «بِذَلِكَ» إِشَارة إِلَىٰ الحُكم الَّذي ٱختلفُوا فِيهِ (فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ ـ جَمِيعاً) مَع العِلم بأَنَّه «مَا ٱخْتَلَفَتْ دَعْوَتَانِ إِلَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلَالَةً»[1]. كمَا قَالَ الإِمَام عليه السلام.. (وَ إِلَهُهُمْ وَاحِدٌ! وَ نَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ! وَ كِتَابُهُمْ وَاحِدٌ!). وإِذَنْ فلِماذا الإِخْتِلاَف؟. ومَرَّة ثَانِيَة نُشِير إِلَىٰ أَنّ مُراد الإِمَام الإِخْتِلاَف الَّذي لا مَصْدَر لهُ إِلّا الرّأي، والاِسْتِحْسَان المَشوب بٱلْجَهْل، والغَرض.

(أَ فَأَمَرَهُمُ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ بِالإِخْتِلَافِ فَأَطَاعُوهُ! أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ)! بل أَمَرهم بالْوَحْدَة، ونهَاهم عَن الفُرْقَة. قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]... (أَمْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً نَاقِصاً فَٱسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَىٰ إِتْمَامِهِ!... إلخ). أشار الإِمَام عليه السلام إِلَىٰ جَمِيع الفَروض، الإِحْتِمالاَت الَّتي تَبرر ٱعتمادهم عَلَىٰ الرّأي، وأورَدها فِي صُورة الإِستفْهَام مَع النّفي، والإِنْكَار، والغَرض إِثبات النّقيض، وتأكِيده.

هَل عَجز الله عَن تَشريع أَحكَامه، وخُفِيت عَلَيْهِ أَسرَارها فٱستعَان بهَيئة مِنْهُم تُخَطط، وتُشرع؟.

هَل هُم شُركَاؤه فِي خَلقه، أو فِي دِينه، أو أَذِن لَهُمْ؟.

هَل قَصّر مُحَمّد صلى الله عليه وآله فِي التَبليغ فأَتمُوه، وأَكمَلُوه؟.

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلحِكْمَة (١٨٣).

(٢) ٱلأَنفَال: ٤٦.

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِن ذَلِكَ شيء ثَبت أَنّهم عَلَىٰ الْحَقّ يفترُون، وقد خَاب من ٱفْتَرىٰ.. وَقَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: ٱستدَل أَمِير ٱلْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِثلاَث آيَات: بالأُولَىٰ عَلَىٰ عَدم النُقْصَان، وَهِي: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[1]. وبالثَّانِيَة عَلَىٰ الوضُوح مَع التّمام، وَهِي: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[2]. وَبِالثَّالِثة عَلَىٰ عَدم الإِخْتِلاَف، والتّناقض، وَهِي: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[3]. فَلا يَكمل بالرّأي دِينٌ وصفَهُ كَذَلِكَ[4].

---

(١) ٱلأَنْعام: ٣٨.
(٢) ٱلنّحْلِ: ٨٩.
(٣) ٱلنّسَاء: ٨٢.
(٤) أنظر، شَرْح النّهج: ٱلْخُطْبَة (١٨)، طَبْعَة عَبْدَه.

الخطبة

- ١٩ -

كَانَ الْإِمَامُ عليه السلام يَخْطُب عَلَىٰ منبر الْكُوفَة ، فَاعترَضه الأَشْعَث بن قَيْس فِي بَعْض كَلامه ، وَقَالَ: يا أَمِير الْمُؤْمِنِين هَذَا عَلَيْكَ لا لَك ، فَخَفض الْإِمَام إِلَيْهِ بَصره ، ثُمَّ قَالَ :

عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ، وَ لَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ:

مَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي ، عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللهِ وَ لَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ ! حَائِكٌ ابْنُ حَائِكٍ ! مُنَافِقٌ ابْنُ كَافِرٍ ، وَ اللهِ لَقَدْ أَسَرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً وَ الْإِسْلامُ أُخْرَىٰ ! فَمَا فَدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالُكَ وَ لا حَسَبُكَ ! وَ إِنَّ امْرَأً دَلَّ عَلَىٰ قَوْمِهِ السَّيْفَ ، وَ سَاقَ إِلَيْهِمُ الْحَتْفَ ، لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقُتَهُ الْأَقْرَبُ ، وَ لا يَأْمَنَهُ الْأَبْعَدُ !

الْإِعْرَاب:

«مَا» الْأُولَىٰ اسْتفهَام فِيهِ مَعْنَىٰ الْإِنْكَار ، ومَحَلها الرّفع بِالابْتِدَاء ، وجُملة يُدْرِيكَ خَبَر ، وَمِثلها «مَا» الثَّانِيَة ، وَعَلَيَّ خَبَرها ، ومضمُون الجُملة مَفْعُول يُدْرِيكَ ، و «مَا» مَوْصُول مَجرور بِمن ، ويَتَعلق بِمَا تَعلقت به عَلَيَّ، ولِي صِلة ، وحَائِكٌ خَبَر لمُبْتَدَأ

مَحْذُوف أي أَنْتَ حَائِك، والْمَصْدَر مِن أَنْ يَمْقُتَهُ مَنْصُوب بِنَزْع الخَافض.

الأَشْعَث بن قَيْس:

يُقَال: رَجُل أَشعْث أي مُغْبر الرّأس مُتلّبد الشَّعر[1]، أو مُنْتَشره، تَقول: لمَّ الله شَعْثكُم أي جَمع أَمركم، وأسم الأَشْعَث مَعدي كَرب، وغَلب عَلَيْهِ الأَشْعَث حَتَّىٰ نُسي أسمه، لأنّه كَانَ أَشْعث الرَّأس، وأسم أَبِيه قَيْس الأشج، لأنّه شُجّ فِي بَعْض الحُرُوب[2]. ونَقل ٱبن أَبي ٱلْحَدِيد عَن (تَأَرِيخ الطَّبَرِيّ): «كَانَ ٱلْمُسْلِمُون يَلعنُون الأَشْعَث، ويَلْعَنه الْكَافِرُون أيضاً، وسَبَايا قَوْمه، وسمّاه نِسَآءَ قَوْمه عُرف ٱلْنَّار، وهُو ٱسم للغَادر عِندهم»[3]. وعُرف ٱلْنَّار تَشبِيهاً بِعُرف الدِّيك.

وَقَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: أَسلم الأَشْعَث فِي زَمن النَّبِيّ، وأرْتَد بَعد مَوْته، وكَانَ من أَصْحَاب عَلِيّ ثُمَّ خَرج عَلَيْهِ. وَقَالَ مُحَمَّد عَبْدَه، وكَثِير من أَهْل السِّير،

---

(١) أنظر، الغريب لِابْن قُتَيْبَة: ٤٧/٢، النِّهَايَة فِي غريب الْحَدِيث: ١٤٦/٥.

(٢) الأَشْعَث بن قَيْس الكندي: وفد مَع قَوْمه إلىٰ النَّبِيّ ﷺ سنة عشر من الْهِجْرَة، وأرتدّ بعد النَّبِيّ فأسر وجيء به إلىٰ الْمَدِينَة فَقَالَ لأَبِي بَكْر: أستبقني لحَرْبك، وزوّجني أُختك، ففعل. وشهد مَع عليّ صِفِّين وألزم عَلِيّاً بالتّحْكِيم. مات بعد سنة أَرْبَعِين بالْكُوفَة. (أنظر المعارف لِابْن قُتَيْبَة: ١٦٨، أُسد الغَابَة: ١ / ٩٨، الأَخْبَار الطّوال: ١٥٦، الْفُتُوح لِابْن أَعْثَمْ: ٢ / ٣٦٧، العقد الفريد: ٤ / ٣٣٠، وأُنظر الشّافِي: ٤ / ١٢٩ ـ ١٣٥ المطبوع و: ١٩٣ رَقم ١٢٨٢ المخطوط فِي مكتبة السَّيِّد المرعشي النّجفي. وتلخيص الشّافِي للشيخ الطّوسي: ٣ / ١٦٢ ـ ١٦٧، شَرْح النّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٣٠ ـ ٣٣ ط القديمة، بحار الأَنْوَار: ٨ / ٢٤٨ ـ ٢٥٠، المسترشد فِي الإِمَامَة لِابْن رُسْتُم الطَّبَرِيّ: ٣٥٣ تحقيق الشّيخ المحمودي.

(٣) أُنظر، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٢٧٥/٣ و٥٤٨، وشَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢٩٦/١، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة للأُستاذ مُحَمَّد عَبْدَه: ٥٧/١، الغارات: ٤٩٥/٢، تَأرِيخ مدينة دِمَشْق: ١٣٢/٩، أَنْسَاب الأَشْرَاف للبلاذري: ٣٧٩، فتوح البلدان: ١٢١/١.

والتَّأرِيخ: «كَانَ الأَشْعَث فِي أَصْحَاب الإِمَامِ عليه السلام كعَبدالله بن أَبي سَلُّول فِي أَصْحَاب النَّبِيّ صلى الله عليه وآله كلّ مِنْهُمَا رَأس النِّفَاق[1]، وٱشتَرَك الأَشْعَث فِي دَم الإِمَام أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام[2]، وٱبنُه مُحَمَّد[3] فِي دَم الإِمَام الحُسَيْن سيّد الشّهداء عليه السلام، وٱبْنَته جَعْدَة

(١) حقاً أنّه تشبيه رائع ويظهر ذٰلِكَ من خلال واقعة صلح الحُدَيْبِيَة وقِصَّة التَّحْكِيم، وخلاصتها: إِنَّ الأَشْعَث بن قَيْس جاء يَوْم التَّحْكِيم لعليّ عليه السلام، فَقَالَ: أمح هٰذَا الإِسم، فَقَالَ عليّ: لا إله إلّا الله والله أكبر سُنَّة بسُنَّة، أمَّا والله لعلىٰ يدي راد هٰذَا الأَمْر يَوْم الحُدَيْبِيَة حِينَ كتبت ٱلْكِتَاب عَن رَسُول الله صلى الله عليه وآله: هٰذَا ما تصالح عَلَيْهِ مُحَمَّد رَسُول الله وسهيل بن عَمْرُو، فَقَالَ سهيل: لا أُجيبك إِلىٰ كتاب تُسمّي رَسُول الله، ولو أعلم أنّك رَسُول الله لم أُقاتلك، إنّي إذاً ظلمتك إنْ منعتك أنْ تطوف ببَيْت الله، وأَنْتَ رَسُول الله، ولكن أُكتب مُحَمَّد بن عبدالله، أُجيبك، فَقَالَ مُحَمَّد صلى الله عليه وآله: يا عليّ، إنّي لرسول الله، وإنّي لمُحَمَّد بن عبدالله ولنْ يمحو عَن ٱلرِّسَالَة كتابي إِلَيْهِمْ من مُحَمَّد بن عبدالله، فٱكتب مُحَمَّد بن عبدالله، فراجعني المشركون فِي عهد إِلىٰ مُدَّة، فالْيَوْم أكتبها إِلىٰ أبنائهم كما كتبها رَسُول الله صلى الله عليه وآله إِلىٰ آبائهم سُنَّة ومثلاً. أنظر شَرْح النَّهْج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد أيضاً: ١٩٦/١ و ٢٣٢/٢، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٢٩/٦، ٣٧/٤ ط أُخرىٰ، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١٥١/١، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٣١٨/٣، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١٨/٢.

(٢) أُنظر، قِصَّة ٱستِشْهَاد الإِمَام عليّ عليه السلام، ومشاركة الأَشْعَث بن قَيْس فِي المؤامرة ٱلْكُبْرَىٰ.

فقد ذكر صاحب الإِرْشَاد: ١٩/١: وقد كانوا قبل ذٰلِكَ ألقوا إِلىٰ الأَشْعَث بن قَيْس ما فِي نفوسهم من العزيمة عَلىٰ قتل أَمِير المؤمنين عليه السلام، وواطأهم عَلَيْهِ، وحضر الأَشْعَث بن قَيْس فِي تلك ٱللَّيْلَة لمعونتهم عَلىٰ ما ٱجتمعوا عَلَيْهِ. وكَانَ حُجر بن عَدِيّ رضي الله عنه فِي تلك ٱللَّيْلَة بائتاً فِي ٱلْمَسْجِد فسَمِع الأَشْعَث يقول لِابْن مُلْجَم: النّجاء النّجاء لحاجتك فقد فضحك الصّبح، فأحسّ حُجر بِمَا أراد الأَشْعَث فقَالَ له: قتلته يا أعور. وأضاف البلاذري فِي: ٤٩٤/٢. فلمّا قتل عليّ قَالَ عفيف: هٰذَا من عملك وكيدك يا أعور....

وَقَالَ أبو الفرج فِي مقاتل الطّالبيين: ٤٧: وللأشعث بن قَيْس فِي ٱنحرافه عَن أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين أخبار يطول شرحها... ومثل ذٰلِكَ فِي شَرْح النَّهْج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢٤٠/٢، أمالي الشّيخ الصّدوق: ١٨/٣، كنز ٱلْعُمَّال: ١٧٠/١٥ ح ٤٩٧، وقريب مِنْهُ فِي تَأرِيخ دِمَشْق: ح ١٣٩٧، ٱبن أَبِي الدُّنيا فِي مقتل أَمِيرٱلْمُؤْمِنِين: ح ٥٣٢، مَجْمَع الزّوائد: ١٤١/٩، والطَّبَرِيّ: ٨٤/٦ ط أُخرىٰ، وشَرْح النَّهْج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٣٤/٢، والشّيخ المفيد فِي الإِرْشَاد: ٢٠/١.

(٣) بعث ٱبن زياد مَع ٱبن الأَشْعَث ألف فارس وخمسمئة راجل إِلىٰ قتال مُسْلِم بن عَقِيل، فخرج إِلَيْهِمْ

نَاولت الإِمَام الْحَسَن الزَّكي السّم الَّذي مَات بِهِ بَعد أنْ وَعدها مُعَاوِيَة بالزَّواج من وَلَده يَزِيد[١]. وهَكَذا جَمع الأَشْعَث اللُّؤم مِن أَطْرَافه[٢].

↩ مُسْلِم بسَيْفه عندما اقتحموا عَلَيْهِ الدَّار فشدّ عَلَيْهِم حَتَّىٰ أَخْرَجَهُمْ من الدَّار، ثمّ أشرفوا عَلَيْهِ من فوق ظهر ٱلبَيْت، وأَخَذُوا يرمونه بالحجارة، ويلهبون ٱلنَّار في أطناب القصب، فخرج عَلَيْهِمْ مصلتاً سَيْفه في السكة فقاتلهم، ولمّا أقبل عَلَيْهِ مُحَمَّد بن الأَشْعَث وَقَالَ له: يافتىٰ لك الأَمَان لاتقتل نَفْسَكَ، فأقبل يُقَاتلهم وهُو يقول:

أقسمت لا أُقتل إلّا حرّا ... وإنْ رأَيْت ٱلْمَوت شَيْئاً نُكرا

فكتب إِلَيْهِ: إِنَّ رجلاً واحداً يقتل منكم خلقاً كثيراً، فكَيْفَ لو أرسلناك إلىٰ مَن هُو أشدّ مِنْهُ قوةً وبأساً؟ ـ يعني الْحُسَيْن عليه السلام ـ فكتب الجَوَاب: إِنَّمَا أرسلتني إلىٰ سَيْف من أسياف آل مُحَمَّد... إِنَّمَا بعثتني إلىٰ أسد ضرغام، وسَيْف حسام، في كفّ بطل همام، من آل خير الأنام، فأمدّه بالعسكر الكَثِير، ثمّ حمل مُسْلِم عَلَيْهِمْ فقتل مِنْهُم خلقاً كثيراً وصار جلده كالقنفذ من كثرة السّهام، فقَالَ ابن الأَشْعَث: لك الأَمَان يا مُسْلِم. فقَالَ لَهُ: لا أمان لكم يا أعداء الله، وأعداء رسوله.

انظر، المصادر التالية: تاريخ الطَّبَرِي: ٦/ ٢٠٧، و٥/ ٣٤٧، أنساب الأَشْرَاف: ٥/ ٣٣٨، الأغاني: ١٧/ ١٦٢، الأَخْبَار الطّوال لابن داود الدينوري: ٢٤٠، شَرْح مقامات الحريري للشريشي: ١/ ١٩٢، المعارف لابن قُتَيبة: ٣٥٣، الطّبقات خليفة: ١/ ٣٣١، الكَامِل لابن الأَثير: ٤/ ١٢٠، مقتل الْحُسَيْن للخوارزمي: ١/ ٢٠٨ فصل ١٠ وص: ٢١٤، تَارِيخ الخميس: ٢/ ٢٦٦، المحبر لابن حبيب: ٤٨١، مختصر تَارِيخ الدول لابن العبري: ١١٦، تَارِيخ أبي الفداء: ١/ ١٩٠، البداية والنِّهَاية لابن كثير: ٨/ ١٥٧، تَارِيخ ابن عساكر: ٤/ ٣٣٢، ينابيع المَوَدَّة: ٣/ ٥٦ ـ ٥٧، الإِمَامَة والسِّيَاسَة: ٢/ ٨ ـ ١٠، الفتوح لابن أعثم: ٣/ ٥٧، مروج الذّهب: ٢/ ٨٨، تَهْذِيب التَّهْذِيب: ٩/ ٦٤.

(١) انظر، مقاتل لأَبِي الفرج الإصبهاني: ٤٣، وأَنْسَاب الأَشْرَاف: ١/ ٤٠٤، وابْن أَبِي الْحَدِيد في شَرْح النَّهج: ٤/ ١١ و١٧... وأراد مُعَاوِيَة البيعة لابنه يزيد، فلم يكنْ شيء أثقل عَلَيْهِ من أمر الْحَسَن بن عليّ وسعد بن أبي وقّاص، فدسّ إليهما سمّاً فماتا منهُ.

وسبب ثقل أمر الْحَسَن وسعد عَلَيْهِ هُو: أنّ سعداً كَانَ الباقي من الستّ أهل الشُورىٰ الّذين رشّحهم عُمَر للخلافة من بعده. وأمّا الْحَسَن فلما جاء في معاهدة الصّلح بَيْنَهما: أنْ يكُون الأَمْر للحسن من بعده، وليس لمُعَاوِيَة أنْ يعهد به إلىٰ أحد. انظر ابن كثير: ٨/ ٤١، تَارِيخ الخُلَفَاء: ١٣٨، الإِصَابَة ترجمة الْحَسَن،

↩

وَقَالَ طَه حُسين: «وَلَست أذْكُر مِن هَؤُلَاء إلاَّ الأَشْعَث بن قَيْس الكِنْدي، ذَلِكَ الَّذي أسلم أيَّام النَّبِيّ ﷺ، ثُمَّ ارتدّ بعد وفاته، وألّب قومه حتَّىٰ ورّطهم فِي الْحَرْب، ثُمَّ أسلمَهم ـ إلَىٰ الْقَتْلِ ـ وأسرَع هُو إلَىٰ الْمَدِينَة تَائِباً»(١).

وَقَالَ الدّكتور طَه: «فمَا أستبعدُ أنْ يَكُون الأَشْعَث بن قَيْس، وهُو مَاكر أَهْل الْعِرَاق ودَاهِيتهم، قَد اتصل بعَمْرُو بن العَاص مَاكر أَهْل الشّام ودَاهِيتهم، ودبرُوا

⇐ ابْن قُتَيْبَة: ١٥٠، ابْن أَبِي الْحَدِيد: ٤ / ١٣، الصَّوَاعِق: ٨١.

أمَّا إنّه كَيْفَ اغتالها؟ فلم نجد من يشرح كَيْفِيّة اغتيال سعداً. أمَّا الْحَسَن فقد روىٰ المسعودي فِي مروج الذّهب بهَامِش الكَامِل: ٢ / ٣٥٣، ٦ / ٥٥، والمقاتل أيضاً: ٧٣، وتهْذِيب تَارِيخ دِمَشْق لِابْن عساكر: ٤ / ٢٢٦، وأسماء المغتالين من الأَشْرَاف: ٤٤، وتَارِيخ اليعقوبي: ٢ / ٢٢٥، وابْن الأَثِير: ٢ / ١٩٧، وابْن شحنة بهَامِش ابْن الأَثِير: ١١ / ١٣٢، وابْن كثير: ٨ / ٤٣، وابْن أَبِي الْحَدِيد فِي شَرْح النَّهْج: ٤ / ٤ و ١٧، وابن حجر فِي الصَّوَاعِق الْمُحْرِقَة: ١٣٦ ب ١٠ فصل ١ وغيْرهم قَالُوا: إنَّ جَعْدَة بنت الأَشْعَث بن القَيْس الكنديّ سقته السمّ؛ وقد كَانَ مُعَاوِيَة دسّ إلَيْهَا: أنّك إنْ احتلت فِي قتل الْحَسَن وجّهت إلَيْك بمئة ألف درهم، وزوّجتك يَزِيد. فكان ذَلِكَ الَّذي بعثها عَلَىٰ سمّه. فلمّا مات وفَّىٰ لها مُعَاوِيَة بالْمَال، وأرسل إلَيْهَا: إنّا نحبّ حَيَاة يَزِيد، ولَوْلاَ ذَلِكَ لوفيّنا لك بتزويجه. وأنظر أيضاً تَارِيخ الدول الإِسْلاَمِيّة: ١ / ٥٣، تذكرة الخواصّ: ٦٢، تَارِيخ أَبِي الفداء: ١ / ١٩٤.

وحريّ بِهَذِهِ الأثيمة أنْ تُجيب نداء ابْن هند فَهِيَ من أُسرة انتهازية لها تَارِيخها الأَسود، فقد جبلت عَلَىٰ الطّمع وَعَلَىٰ الإستجابه لجَمِيع الدوافع المادية.

(٢) أُنظر، خطب نَهْج الْبَلاَغَة: ١/٥٦. حقاً إنَّ الأَشْعَث شرك فِي دم أَمِير الْمُؤْمِنِين، وابنته جَعْدَة سمّت الْحَسَن، وابْنه شرك فِي دم الْحُسَيْن. وقريب من هَذَا وذَاكَ فِي الاسْتِيعَاب: ١ / ٣٨٩، تَارِيخ الْخُلَفَاء للسيوطي: ٧٤، مُسْتَدرَك الْحَاكِم: ٣ / ١٧٦، الإِرْشَاد للشيخ المفيد: ٣ / ١٥، الْبِحَار: ٤٤ / ١٥٧ و ١٤٩ / ٢٦ و ١٨، العدد الْقَوِيَّة (مخطوط): ٧٣، المناقب لِابْن شهرآشوب: ٣ / ١٩١، كشف الْغُمَّة: ١ / ٥٨٤، روضة الواعظين: ٢٠٠، الإِحْتِجَاج للطبرسي: ٢ / ١١، الكَافِي: ١ / ٤٦٢ ح ٣، الخرائج والجرائح (مخطوط ١٢٥): ح ٧.

(١) أُنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبنُوه: ٨٠، طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م.

هَذَا الأَمْر بَيْنَهُمْ تَدبِيراً. ودَبرُوا أنْ يَقتتل الْقَوْم ـ أي جَيش عَليّ ومُعَاوِيَة ـ فإنْ ظَهر أَهْل الشّام فذَاك، وإنْ خَافوا هَزِيمَة، أو أشرفُوا عَلَيْهَا رَفعُوا ٱلْمَصَاحِف فأوقعُوا الفُرْقَة بَيْنَ أَصْحَاب عَليّ، وجَعَلُوا بأسَهم بَيْنَهُمْ شدِيداً.

وَقَد تَمَّ لَهُمْ ما دبّروا، إنْ كَانوا قَد دبّروا شَيْئاً، وٱستكرَه الأَشْعَث، ومَن أطَاعه عَلِيّاً عَلَىٰ كفّ الْقِتَال، فَلم يرَ بُدّاً مِن الإذْعَان لِمَا أرَادُوا.

وأكْبَر الظّن عِنْدِي كَذَلِكَ أنّ المُؤامرة لَم تَقف عِند هَذِه الحَد، وإنّما تجاوزَته إلَىٰ ما هُو أشَد مِنْهُ خَطراً، وهُو إخْتِيار الحَكَمَيْن.... فَقد كَانَ عَليّ إذَنْ مُكْرَهاً عَلَىٰ قَبُول التَّحْكِيم، ومُكْرَهاً عَلَىٰ إختيَار أَحد الحَكَمَيْن، ولَم تَأت الأُمُور مُصادفة، وإنّما جَاءت عَن ٱئتمَار، وتدبِير بَيْنَ طلاّب الدُّنْيَا مِن أَصْحَاب عليّ، وأَصْحَاب مُعَاوِيَة جَمِيعاً»[1].

ٱبن العَاص يَخلص لمُعَاوِيَة ـ وبالأصَح يَخلص لنَفْسِه؛ لأنّه شريك مُعَاوِيَة فِي الرّبح والغَنِيمَة، والأَشْعَث يتآمر، ويَغدر بالإمامعليه السلام، لأنّ دُنياه عِند مُعَاوِيَة، ولاَ شيء عِند الإمَام إلاّ الدِّين... وأية حَاجَة للأَشْعَث، وأمثَال الأَشْعَث بالدِّين إذَا لم يَكُنْ وَسِيلة للدُّنيا، وحطَامها؟.

(مَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي). الأَشْعَث المُرتَد، والمُنَافِق الوَغد يُحدد، ويَعْرِف من قَالَ فِيهِ الرَّسُول الأَعْظَمصلى الله عليه وآله: «عَليٌّ مَع الْحَقّ، والْحَقّ مَع عَليّ»[2] يَعْرِفه بِمَا يجب له

---

(١) أنظر، الفِتْنَة الكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه: ٨١ ـ ٨٢، طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م.

(٢) أنظر، مَجْمَع الزّوائد: ٧/٢٣٥، تَأرِيخ بغداد: ١٤/٣٢٠ ح ٧٦٤٢، الإمَامَة وَالسّيَاسَة: ١/٧٨، فرائد السمطين: ١/١٧٧، المناقب لابن المغازلي: ١١٧ و ٢٤٤، والمُسْتَدرك: ٣/١٩ و ١٢٤، التَّفْسِير الكَبِير ⟺

وعَلَيْهِ... وَلاَ جوَاب لِهَذا الوَقح الخَاسر إلّا ما قَالَ سُبْحَانَهُ لإِبْلِيس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1].

(حَائِكٌ ابْنُ حَائِكٍ). قَالَ ٱبن أَبي ٱلْحَدِيد، والشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه، وغَيْرهما: إِنَّ «الحَائِكين أنقص النَّاس عَقلاً، وأَهْل الْيَمن يُعيرُون بالحِيَاكة، والأَشْعَث يمني من كِندة، وَقَالَ عَارف بأَهْل الْيَمن[2]: ما فِيهِمْ إلّا حَائك بُرد، أو دَابغ جِلد، أو سَائس قِرد، مَلكتهم إمْرَأَة، وأَغرقتهم فَأرة، ودَل عَلَيْهِمْ هُدهد»[3].

(مُنَافِقٌ ٱبْنُ كَافِرٍ). كَانَ أَبو الأَشْعَث مِن ٱلْمُشْرِكِين، أَمَّا هُو فَمِن ٱلْمُنَافِقِين، والمُرتدِين كمَا تَقَدَّم. (أَسَرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً، وَ الإِسْلامُ أُخْرَىٰ!). قُتل قَيْس أبو الأَشْعَث في الجَاهِلِيَّة، فخَرج طَالِباً بثَأر أَبيه مِن القَاتل فأُسر، فالأَب قَتِيل، والاِبْن أَسِير.. أَمَّا قَول الإِمَامﷺ للأَشْعَث: (فَمَا فَدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالُكَ، وَ لا حَسَبُكَ!)، فمعناه مَا مَنعك من خِزي الْجُبْن، ومَنقَصته، وعَار الأَسر، ومَذلته ـ مَالٌ، وَلا حَسَبٌ. وحَسبُ الْمَرْء عِند الْعَرَب هُو ما يَدعِيه مِن مفَاخر ٱلآبَاء، والأَجْدَاد.

للرازي: ٢٠٥/١، شَرح الأَخْبَار للمغربي: ٥٢٥/٢، سُنن التِّرمِذي: باب مناقب عليّ، ح ٣٧١٤، جامع التِّرمِذي: ٢١٣/٢، كنز العُمَّال: ١٥٧/٦، الصَّوَاعِق المُحرِقَة: ١٢٤، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٩٠، المطالب العالية: ٦٦/٤، المحصول للرازي: ١٣٤/٦، وفي بَعْض المصادر بلفظ: «رحمَ الله عَليّاً أدر الحَقّ معه حيثُ دار». أُنظر أيضاً، المُعْجَم الأوسط: ٩٥/٦ ح ٥٩٠٦، تُحْفَة الأَحْوَذي: ١٤٩/١٠، فيض القَدِير: ١٩/٤، تَهْذِيب الكَمَال: ٤٠٢/١٠ ح ٢٢٥٦، الرِّيَاض النَّضرة: ٢٤٣/١ ح ٨٧.

(١) ٱلحِجْر: ٣٥.

(٢) يقصد بِذَلِكَ خالد بن صفوان التّميمي.

(٣) أُنظر، خطب نَهج ٱلبَلاغَة للأُستاذ مُحَمَّد عَبْدَه: ٥٦/١، شَرح النَّهج لِابن أَبي ٱلحَدِيد: ٢٩٧/١، معجم البلدان للحموي: ٣٧/٥.

ويُشِير الإِمَام بأسِر ٱلإِسْلاَم إِلَىٰ ٱرتدَاد الأَشْعَث، وخرُوجه مَع قَـوْمه لقـتَال ٱلْمُسْلِمِين، ولمَّا أَسرُوه أظهر ٱلتَّوْبَة، وأضْـمَر الْكُـفْر (وَ إِنَّ ٱمْـرَاً دَلَّ عَـلَىٰ قَـوْمِهِ السَّيْفَ، وَ سَاقَ إِلَيْهِمُ الْحَتْفَ، لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقُتَهُ الْأَقْرَبُ، وَ لاَ يَأْمَنَهُ الْأَبْعَدُ!).

لمّا ٱرتَد الأَشْعَث، وقَوْمه عَن ٱلإِسْلاَم حَاربهم ٱلْمُسْلِمُون، وحَاصرهم أَيَّامَاً، فطَلب الأَشْعَث الْأَمَان لهُ، ولِعَشرة من أَهله، وإِخْوَانِهِ، وتَجَاهل غَيْرهم، ثُمّ فَتح الحُصن وٱستَسلم هُو والعَشرة للأَسِر، وتَرك بَقِية قَوْمه للسَّيْف، والحَتف، وهُـم (٨٠٠) فَقُتلوا بكَاملهم[1]، ومِن أجل هَذَا الْغَدْر أَسمَاه ٱلنِّسَاء: عُرف ٱلنَّار[2]، وإِلَىٰ هَذَا أَشَار الْإِمَام عليه السلام بقَوْله: «وَإِنَّ ٱمْرَأً دَلَّ عَلَىٰ قَوْمِهِ السَّيْفَ.. إلخ».

(١) أنظر، سير أعلام النّبلاء: ٢/ ٣٩، فتوح البلدان: ١/ ١٢٣، تهْذِيب الكَمَال: ٣/ ٢٩٠، معجم البلدان: ٢/ ٢٧١، خطب نَهج ٱلْبَلاَغَة: ١/ ٥٦، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة للمعتزلي: ١/ ٢٩٧، وفي بَعْض المصادر فأخذ الْأَمَان لسبعين بدلاً من عشرة.

(٢) تَقَدَّم إستخراجه، ولكن أُنظر، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٣٧٩، تَأرِيخ دِمَشْق: ٩/ ١٣٢، مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٩٩، أمالي المفيد: ١٤٧، الغارات: ٢/ ٢٩٥، كتاب سليم بن قَيْس: ٢١٤.

الخطبة

— ٢٠ —

قَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ الْحِجَابُ:

(فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزِعْتُمْ، وَ وَهِلْتُمْ، وَ سَمِعْتُمْ، وَ أَطَعْتُمْ. وَ لَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَا قَدْ عَايَنُوا، وَ قَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ الْحِجَابُ! وَ لَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَ أُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ، وَ هُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ، وَ بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: لَقَدْ جَاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ، وَ زُجِرْتُمْ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ. وَ مَا يُبَلِّغُ عَنِ اللهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّمَاءِ إِلاَّ الْبَشَرُ).

اللُّغَة:

الجَزع، والفَزع، والوَهلْ، والْخَوْف بِمَعْنَىً وَاحد. والْعِبَر جمع عِبرة وَهِي اَلْمَوْعِظَة، والْمُرَاد بهَا هُنا الاعْتِبَار، قَاله سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾[1].

ومُزْدَجَرٌ ـ بِفَتح الدّال ـ ما فِيهِ رَدع، ومَنع عَن التّقحم فِي المعَاصي، والآثَام.

---

(١) اَلنَّازِعَاتِ: ٢٦.

الإِعْرَاب:

مَحْجُوبٌ مُبْتَدَأ، ومَا قَدْ عَايَنُوا «مَا» ٱسم مَوْصُول نَائب فَاعِل لَمحْجُوب، وقـد سَدَّ مَسد الْخَبَر. مَا يُطْرَحُ الْحِجَابُ! «مَا» مَـصْدَرِيَة، والْمَـصْدَر الْمُنسبك مُـبْتَدَأ مُؤَخَّر، وقَرِيبٌ خَبَر مُقَدَّم أي وطَرْحُ الْحِجَابُ قَرِيبٌ. وفِيهِ خَبَر مُقَدَّم، ومُزْدَجَرٌ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر. والجُملة صِلة المَوْصُول.

لِلمِنْبَرِ ـ الدُّنْيَا جَنَازَة:

الدُّنْيَا جَنَازَة، وقَبر، ومَجلس فَاتحة، وعزَاء، وحفلَة تأبِين، ورِثَاء... ثُم يَنْتَهي كلّ شَيء... أَبَداً كأَنْ لَم يَكُنْ إلّا مُرور عَـابر، أو هـوَاجس خَـاطر... وإذَنْ قـد كَشفت الدُّنْيَا عَن عيُوبها، ولَم تخفِ مِنْهَا شَيْئاً، والبَصِير من أَبْصر، وتَذكر.

وللمَوْت حشرَجَات، وسكرَات، وللقَبر وَحشة، وظُلمات... ولو أيقَن الْمَرْء بهَذا وتَنبه له كأَنَّه أمَام عِينِيه ـ لاِتقىٰ محَارم الله، وعـمِل لآخـرِته كأنَّـه يَمُـوْت فِي سَاعته... ولِمَاذا لا يُوقن، ويَعتبر، ويَتذكر، ويَزدجر، وقَد حُذِّر من الغَفلة، وسُوء المَصِير، وأنذَر بالحُجَج الْـبَوَالِغ عَـلَىٰ لِسَـان ٱلأَنْـبِيَاء، والأَوْصِـيَاء، والْـعُلَمَاء، والمُبَلِغِين؟.

وَقَالَ قَائل من الفَلاَسِفة: «التّفكِير فنّ لاَ عِلم». ويرجَح فِي ظَـننا أنّ التّـفكير فَـنّ، وعِـلم، ودِيـن، وتَـطور، وتَـقَدُّم إذَا كَـانَ سَـلِيماً، ووَسِـيلة للإِيمَـان، والنَّعِيم... والفنّ، أو العِلم دَاهية، وكَارِثة إِذَا كَانَ سَبِيلاً للبَلاء، والشّقاء.

هَذَا محصل ما يهدف إِلَيهِ الإِمَام عليه السلام مِن كَلاَمه هنا، وشَرحته بهَـذا الأُسـلوب لأنّي ـ حِينَ ٱنتهيت إِلَىٰ هَذِهِ ٱلْخُطْبَة ـ تَنبهت إِلَىٰ أنّ الوعَاظ، والمُبَلغِين يَتطلعُون إِلَىٰ

خُطب النَّهْج ، وشَرحها ، فحَاولت التَّعَاون مَعهم ولو بِاليَسير كلّما دَعت ٱلحَـاجَة ، أو شَعرت مِن نَفسي الميل ، والرّغبة إِلَىٰ ذَلِكَ... وأنْ أذكُر هَذَا اليَسِير فِي مـوَارده بعنوَان مِن العنَاوين ليَهْتَدِي إِلَيْهِ بسهُولة مَن يَهمه الأَمْر إِذَا رَاجع الفِهرست ، وأنْ أستقَل ما ذَكرت تَحت هَذَا العنوَان «المكرور» فإنّ الكَلِمَة الحيّة تَنتَقل بـالقَاريء المُفكر المَوْهُوب إِلَىٰ أجوَاء ، وأجوَاء... عَلَىٰ أنّ القَـلِيل المَـقْبُول خَـير فِي الكَـثِير المَمْلُول . ويُضاف إِلَىٰ هَذَا أنّه لو جَمع شتَات هَذِه الْكَلِمَات الَّتي أكتُبها تَحت العنوَان المَذكور لاِستَوعبت عشرَات الصّفحات .

وَلاَ يَعني هَذَا أنّ ما يَصلح مَادَّة للتَّبليغ ، والإِرْشَاد يَنحَصر بِمَـا قُـلته بـعنوَان : «لِـلمِنبَرِ» كَـيْفَ ، وكـلّ خُـطب النَّهْـج هِـي حِكـم ، ومـوَاعـظ ، والشّرح تَـابع للأصل ؟... ولكنَّ الَّذي عَنِيته هُو التّركيز عَلَىٰ قَصد ٱلمَوْعِظَة ، والخطابَة بِمَّا ذكرته بهذَا العنوَان والاِهتَمَام بِهِ أَكْثَر مِن أي شيء آخر عَلَىٰ أسَـاس المَـعْنَىٰ الَّـذي أرَاده الإِمَام عليه السلام . وقد أَتْرُك كَلِمَة «المِنْبر» مُكتَفِياً بِمَا يُشِير إِلَىٰ المَوْضُوع .

الخطبة

ـ ٢١ ـ

تَخفَّفُوا تلْحَقوا:

(فَإِنَّ الْغَايَةَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ وَرَاءَكُمُ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ. تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ).

الْمَعْنَىٰ:

(فَإِنَّ الْغَايَةَ أَمَامَكُمْ). الْمُرَاد بالْغَايَة هُنا النِّهايَة، ولَيْسَ مِن الشّك أنّ ٱلْمَوْت نهَايَة ٱلإنْسَان، وَلاَ شيء بَعده إلّا ٱلْحِسَاب، وٱلْجزَاء الأوفىٰ عَلَىٰ قدم... إنْ خَيراً فخَير، وإنْ شرّاً فَشرّ (وَإِنَّ وَرَاءَكُمُ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ). الْمُرَاد بالسَّاعة هُنا ٱلْقِيامَة، وتَحْدُوكُمْ أي تَسُوقكم، وَقَالَ: وَرَاءَكُمْ. مَع أنّ ٱلْقِيامَة أمَامنا تَنزِيلاً لها بِمَنْزِلَةِ السّائق الَّذي يَسُوقنا إِلَىٰ ما نَسير إِلَيْهِ لا مَحالَةَ. ومِن أَقْوَال الإِمَام عليه السلام: «كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيدٌ: سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَىٰ مَحْشَرِهَا، وَ شَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا»[1].

---

(١) أنظر، خطب نَهج ٱلبَلاَغة: ١٤٨/١، ٱلخُطْبَة (٨٥).

وَقَالَ: «مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ؛ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ، وَ إِنْ كَانَ وَاقِفاً، وَيَقْطَعُ الْمَسافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً ـ أي سَاكِناً ـ وَٱعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ؛ فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَىٰ حَرْبٍ، وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلاَ كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ»[1].

(تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا) بِفَتح التّاء، ومَن كَانَ خَفِيف الجِسم، والحَمل أسرَع فِي خُطاه، وَلَحق بِالذين سَبقوه، ومرَاد الإِمَامعليه السلام أنّ مَن تَحرر مِن الذّنوب، والأوزَار لحق بالسَّلف الصّالح، وحُشر معهم، وفِي زُمرتهم (فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ).

يُمثل ٱلإِنْسَان دوره فِي هَـٰذِه ٱلْحَـيَاة، ثُمَّ يَمضي إِلَىٰ حُفرته، ويَمكث إِلَىٰ يَوْم يُبعثُون، ويَأْتِي بَعده الأَوْلاَد، والأَحفَاد لِيمثلوا دَورهم، ونهَاية الكلّ وَاحِدَة، والسّابق يَنْتَظِر اللاَحق، وَلاَ يَسبقه إِلَىٰ البَعث، وٱلْحِسَاب. حَتَّىٰ إِذَا جَاء أمر الله لما يُريده من تَجدِيد خَلقه بَعث سُبْحَانَهُ الأَجْيَال كلّها دُفعة وَاحِدَة، وحَشرهم لِلْحِسَابِ، وٱلْجَزَاء بلا تَرتِيب، وتَقدِيم، وتأخِير... فالتَّقدِيم، والتّأخِير إنّما هُو فِي ٱلْحَيَاة، وٱلْمَوْت لا فِي النّشر، وٱلْحَشْرِ.

(١) أُنظر، خطب نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٣/٥٠، جزء من وصيته عليه السلام، لِلإِمَامِ ٱلْحَسَن، والحُسَيْن عليهما السلام، تحت رَقم (٣١).

الخطبة

- ٢٢ -

وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللهِ... فِقْرَة ١ ـ ٣:

(أَلاَ وَ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِزْبَهُ، وَ آسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ، لِيَعُودَ الْجَوْرُ إِلَىٰ أَوْطَانِهِ، وَيَرْجِعَ الْبَاطِلُ إِلَىٰ نِصَابِهِ. وَ اللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَ لاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ نَصِفاً[١]. وَ إِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَ دَماً هُمْ سَفَكُوهُ: فَلَئِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَ لَئِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي، فَمَا التَّبِعَةُ إِلاَّ عِنْدَهُمْ، وَ إِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ، وَ يُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ. يَا خَيْبَةَ الدَّاعِي! مَنْ دَعَا! وَ إِلاَمَ أُجِيبَ! وَ إِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَ عِلْمِهِ فِيهِمْ[٢]. فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ، وَ كَفَىٰ بِهِ شَافِياً مِنَ الْبَاطِلِ، وَ نَاصِراً لِلْحَقِّ! وَ مِنَ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ! وَ أَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلاَدِ! هَبِلَتْهُمُ الْهَبُولُ! لَقَدْ كُنْتُ وَ مَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَ لاَ أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ! وَ إِنِّي لَعَلَىٰ يَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وَ غَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي[٣]).

اللُّغَة:

ذَمَّرَ: حَثَّ، وحضَّ. الجَلَب ـ بفتح اللاَّم ـ مَصْدَر بمَعْنَىٰ المَفْعُول، وهُو المَجْلُوب

من بَلَدٍ إِلَىٰ بَلَد. والْمُرَاد بِهِ هُنا الجَمع. والنِصَابِ: الأَصل. والنَصِف: الْعَدْل. والتَّبِعَة: ما يَترتب عَلَىٰ فِعل الشَّرّ من المُؤَاخَذَة. وهَبِلَتْهُم: ثَكَلتهُم. والهَبُول: ٱلنِّسَاء الثَاكلاَت.

الإِعْرَاب:

أَلا للتَّنبِيه، وجُملة هُمْ تَرَكُوه حَال مِن وَاو يَطْلُبُون، ويجُوز أَنْ تكُون صِفة «حَقّاً» وخَيْبَةَ مُنادىٰ أي أَيَّتُهَا الخَيْبَة ٱحْضَرِيّ فهَذا أَوَانك، ومَنْ دَعَا مُبْتَدَأ وخَبَر، وفِيهِ مَعْنَىٰ التّعجب، والبَاء فِي «بِهِ» زَائِدَة، والهَاء فِي مَحل رَفع عَلَىٰ الفَاعِلية، وشَافِياً تَمْيِز، وَمِنَ الْعَجَبِ خَبَر مُقَدَّم، وبَعْثُهُمْ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، وإِلَىٰ مُتَعَلِّق بِهِ، والْمَصْدَر مِن أَنْ أَبْرُزَ مَفْعُول مَحْذُوف أي يَطْلُبُون البرَاز، وَمَا أُهَدَّدُ الوَاو زَائِدَة دَخَلْت عَلَىٰ خَبَر كَانَ لمجرد تزيين الكَلاَم.

الْمَعْنَىٰ:

(أَلاَ وَ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ ـ أي حَثَّ ـ حِزْبَهُ) عَلَىٰ مَعْصِيَة الله، والرَّسُول... إِنْ لله سُبْحَانَهُ حِزْباً، ولِلشَّيْطَانِ أيضاً حِزْباً، وَقَد حَدد الله فِي كتَابه العزيز كُلاً مِن الحِزْبَيْنَ تحديداً واضحاً لاَ لبس فِيهِ، قَالَ فِي تَحديد حِزْبه تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1]. والْمُرَاد بالْوِلاَيَة هُنا الطَّاعَة بقرينة الحَال، وبالَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْل الْعِصْمَة مِن آل مُحَمَّد ﷺ ٱلَّذِينَ سَاوىٰ

(١) ٱلْمَائِدَة: ٥٦.

النَّبِيّ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ٱلْقُرْآن، وأَمر بالَّتمسك بِهُ، وبِهِمْ فِي حَدِيث الثَّقَلَيْن الَّذي روَاه عُلَماء السُّنَّة[١]، وأيضاً قَالَ سُبْحَانَهُ عَن حِزْبه: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

أَمَّا حِزْب الشَّيْطَان فقَد أَشَار إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بقَوْله: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾[٣]. فحِزْب الشَّيْطَان هُم الّذين نَسوا وِلاَيَة الله، ورَسُوله، وأَهْل بَيْتِه.

(وَ ٱسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ). بَعد أنْ حَثَّ الشَّيْطَان أتباعه، وحِزْبه عَلَىٰ مَعْصِيَة الله جَمَعهم لحَرْب الحَقّ، وأهْله، والمُرَاد بحِزْب الشَّيْطَان أَصْحَاب الجَمَل كما تَدل الْكَلِمَات الآتِية، وَقَالَ الإِمَامُ عليه السلام فِي خُطْبَة سَبق شَرحها: «أَلاَ وَ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ، وَ ٱسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ»[٤].. (لِيَعُودَ الْجَوْرُ إِلَىٰ أَوْطَانِهِ، وَ يَرْجِعَ الْبَاطِلُ إِلَىٰ نِصَابِهِ). أي أنّ الشَّيْطَان بَعد أنْ ٱنتقل النَّبِيّ صلى الله عليه وآله إِلَىٰ الرَّفِيق الأعْلَىٰ زَين لبعض ٱلْمُسْلِمِين الإرتدَاد عَن ٱلإِسْلاَم، والرُّجُوع إِلَىٰ شِرك الجَاهِلِيَّة (وَ اللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً). الضَّمِير فِي يَعود إِلَىٰ أَنْكَرُوا النَّاكِثِينَ، إِنَّ الّذين نَكثُوا بَيْعَة الإِمَام عليه السلام، وحَارَبُوه ما وجدُوا عَلَيْهِ أية حُجّة، أو عُذراً لَهُمْ يَتذرعُون بِهِ، بَل الحُجّة لهُ عَلَيْهِمْ (وَ لاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ نَصِفاً). مَا دَعوه إِلَىٰ المُحَاكمة عِند عَالم عَادل يَنصف بَيْنَه وبَيْنَهُمْ، بل أعلنُوا عَلَيْهِ الحَرْب ٱبتدَاءً، وبلاَ سَابقة.

---

(١) تَقَدَّم إستخراجه.
(٢) ٱلْمُجَادِلَة: ٢٢.
(٣) ٱلْمُجَادِلَة: ١٩.
(٤) أنظر، ٱلخُطْبَة رقم: ١٠.

(وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَ دَماً هُمْ سَفَكُوهُ). الْمُرَاد بالدَّم هِنا دَم عُـثْمَان، وبِالْحَقِّ ٱلْقِصَاص مِن قَاتليه، وأشرنا فِيما سَبق إِلَىٰ أَنّ هوىٰ الزُّبَيْر كَانَ مَع الثّائِرين عَلَىٰ عُثْمَان، ولَكِنَّهُ لم يتظَاهر، وأنّ طَلْحَة كَانَ يُحرض عَلَىٰ قتله، وَلاَ يُخفي مِيله إِلَىٰ الثّائِرين، أَمَّا عَائِشَةَ فَكَانَتْ مِن أَشَد النَّاس إنكَاراً عَلَىٰ عُثْمَان حَيث قِيل: أَنَّهَا لم تَتَحرج مِن الجَهر بقولها: أُقتلُوا نَعثلاً، قَتل الله نَعثلاً أي عُـثْمَان[1]... قَـتلوا عُـثْمَان ليصلوا إِلَىٰ مكَانه، وَيَحلوا محَله فِي ٱلْخِلاَفَة، ولمّا ٱنقطع أملَهم طالبوا الأبرِياء بدَمه، وهُنا مَحل الغرَابة...

وأعجَب من هَذَا التّناقض أنْ يُؤْمِن مَن يُؤْمِن بأنّ عُثْمَان، وطَلْحَة، والزُّبَيْر هُم مِن العَشرة الّذين بَشرهم النَّبِيّ ﷺ بٱلْجَنَّة... ومَعْنَىٰ هَذَا أنّ القَاتل عَمداً، والْمَقْتُول ظُلماً ـ بزَعمهم ـ عِند الله سوَاء!... وهَكذا يُمجد ٱلْجَهْلة الأَغبِياء أبطَال الخِـدَاع، والأَدعِياء من حَيْث لا يَشعرُون!.

(فَلَئِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ ـ أي فِي دَم عُثْمَان ـ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ). من ٱشتَرك مَع غَيْره فِي جَرِيمَة مِن الجرَائم فهما بِمَنْزِلَةِ سوَاء، حسَـاباً، وعـقَاباً. ومـن أَقْـوَال الإِمَام ﷺ: «أَكْبَرُ الْعَيْبِ أَنْ تَعِيبَ مَا فِيكَ مِثْلُهُ»[2]. (وَ لَئِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي، فَمَا

---

(١) أنظر، تَأريخ الْفُتوح لِابْن أَعْثَم: ٢/٢٢٥، النّهايَة لِابْن الأَثِير: ٥/٨٠، شَرْح النَّهْـج للـمعتزلي: ٤/٧٧، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٣/١٢، خطب نَهْـج ٱلـبَلاَغَة لعَـبْدَه: ٣/٣، تـاج العـروس: ٨/١٤١، لِسَـان الْـعَرَب: ١٤/١٩٣، الكَامِل فِي التَّارِيخ: ٣/٢٠٦، تذكرة الخواص: ٦١، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/٤٩، ولكن بـلفظ (فجر)، السِّيرَة الحَلَبِية: ٣/٢٨٦، ترجمة الإِمَام الْحَسَن لِابْن عساكر: ١٩٧ ح ٣٢٥، المحصول للـرازي: ٤/٣٤٣، شيخ المضيرة أبو هريرة لمحمود أبو رية: ١٧٠.

(٢) أُنظر، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٤/٨٢، ٱلْحِكْمَة (٣٥٣)، عيون الحكم والمواعظ: ١١٦، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١٩/٢٦٩.

التَّبِعَةُ إلاّ عِنْدَهُمْ). إنْ لم يَكُنْ الإِمَام شرِيكاً مَع عَائِشَةَ ، وطَلْحَة ، والزُّبَـيْر فِي دَم عُثْمان فهُم وحدَهم المَسْئُولون عَنْه ، والمُؤاخذون عَلَيْهِ ، وإذَنْ بأي مُبرر يـطالبُون بدَمه ؟... سلاَم الله عَلَيْكَ يَا مَـولاي ... أنْتَ تَـنطق بـلِسَان الله ، والحَـقّ ، وهـم يتكَلَّمُون بِلُغة السّاسَة ، وَالسِّيَّاسَة .

(وَ إنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ) . لأنّهم يَزعمُون أنّ عُثْمَان قُتل مَظلُوماً ، وهُم الْقَتَلة ، ومَعْنَىٰ هَذَا أنّهم قَد حَكموا بأنْفُسِهِم عَلَىٰ أَنْفُسِهِم (يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ) وَجَفّ لَبنها ، يُرِيد الإِمَام بِهَذَا المِثال أنّ طَلْحَة ، والزُّبَيْر يَـطلبان ٱلْخِـلاَفَة بَـعد أنْ أدْبَرت عَنها ، ونَفرت مِنْهُمَا ، ولقلّما أَدبَر شَيء فأقبَل كَمَا قَالَ الإِمَـام . (وَ يُـحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ) . المُرَاد بالبِدْعَة هُنا سِيرة عُثْمَان فِي توزِيع الأَمْوَال ، والمَناصب ، أَمّا إحيَاء طَلْحَة ، والزُّبَـيْر لهَـذه البِـدْعَة فـهُو محَـاولتها أنْ يُـعيدا هَـذِه السِّـيرَة إلَىٰ ٱلْحيَاة... وكَانَ طَلْحَة قد طَلَب مِن الإِمَام الْوِلاَيَة عَلَىٰ الْبَصْرَةِ كَمَا طَـلب الزُّبَـيْرُ الْوِلاَيَة عَلَىٰ الْكُوفَة ، ومُراده بإِمَامَة هَذِه البِدْعَة أَنّه قَد أبـطَل هُـو سِـيرة عُـثْمَان ، وَقَضىٰ عَلَيْهَا .

(يَا خَيْبَةَ الدَّاعِي !). قَالَ ٱبن أبي ٱلْحَدِيد : «الدَّاعي هُو أَحد الثّلاَثة : الرَّجُلاَن والْمَرْأَة»[1] أي طَلْحَة ، والزُّبَيْر ، وعَائِشَةَ (مَنْ دَعَا !) ! . هَذَا تَحقِير للدَّاعي ، وشَأنه ، والإِستخفَاف بِه ، وبدعوَته تَمَامَاً كمَا تَـقول لمَـن تَـزدَريه : مَـن أَنْتَ ! ....(وَ إلاَمَ أُجِيبَ) ! إلَىٰ الْبَغْي ، والجَوْر ! . حَاشا لله ، ولِلْمَعْصُومِين من أوْلِيائه (وَ إِنِّي لَـرَاضٍ بِحُجَّةِ اللهِ عَلَيْهِمْ) وَهِي الْوَفَاء بالعَهد . قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَوْفُواْ بِـالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْـعَهْدَ كَـانَ

(١) أُنظر ، شَرْح النّهج : ١/٣٠٥.

مَسْـُٔولًا﴾[١] وَقَـالَ: ﴿وَٱلْـمُوفُونَ بِـعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِـى ٱلْـبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٢] ... (وَ عِلْمِهِ فِيهِمْ) بأنّهم نَكثوا العَهد، ومَن نَكثهُ حَلت عقُوبته. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣] أي سَقطت حُرمته بَعد أنْ ٱنتَهك حُـرمة الْحَقّ، والعَهد.

(فَإِنْ أَبَوْا) عَن الْوَفَاء بِعَهد ٱلْبَيْعَة، وأصرُوا عَلَىٰ إيقَاظ الْفِتْنَة، وإعلاَن الْحَرْب (أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ) لِلْقَضَاء عَلَىٰ الْفِتْنَة، وٱلْفَسَاد (وَكَفَىٰ بِهِ ـ أي السَّيْف ـ شَافِياً مِنَ الْبَاطِلِ، وَ نَاصِراً للْحَقِّ!). الإمَام يَسْتَعمل السَّـيْف لِـيُحطم بـِهِ سَـيْف الْـبَغْي والضّلال. ومِن أَقْوَاله: «وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِالسَّيْفِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَكَـلِمَةُ الظَّالِمِينَ هِيَ السُّفْلَىٰ، فَذلِكَ الّذِي أَصَابَ سَبيلَ ٱلْهُدَىٰ، وَقَامَ عَلَىٰ الطَّرِيق، وَنَوَّرَ فِي قَلْبِهِ الْيَقِينُ»[٤].

(وَ مِنَ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ! وَ أَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلَادِ!). وموضع العَجب أنّهم أعرَف النَّاس بشَجاعة الإِمَام، وثَـباته. (هَـبِلَتْهُمُ الْـهَبُولُ!) دُعـاء عَـلَيْهِمْ بالثّكل. (لَقَدْ كُنْتُ وَ مَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَ لاَ أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ! وَ إِنِّي لَعَلَىٰ يَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وَ غَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي). قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَـبْدَه: «بـيَّن الإمَـام فِي الجُـمل

(١) ٱلإِسْرَاء: ٣٤.
(٢) ٱلبَقَرَة: ١٧٧.
(٣) ٱلفَتْح: ١٠.
(٤) أُنظر، خطب نَهج ٱلبَلاغَة: ٨٩/٤، ٱلحِكْمَة (٣٧٣).

الأخِيرة أنّه خُلق للحَرْب، فَهُوَ لا يَهابها مِن طَبعه، ثُمَّ ٱزدَاد إقدَاماً عَلَيْهَا، لأنّه عَلَىٰ يَقِين من رَبّه فِي حقّه، وإنّه ما ٱعترَته شُبْهَة قَط فِي دِينه، فكَيْفَ يُهَدد، أو يُرْهب مِن حَاله كَذَلِكَ»؟[1].

(١) أنظر، شَرْح النّهج: ٩٠، مطبعة عَبْدَه، وشَرْح النّهج: ٢/٣٠٦.

الخطبة

-٢٣-

اَعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاءٍ، وَلاَ سُمْعَةٍ..فِقْرَة ١ ـ ٢:

(أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الْأَرْضِ كَقَطَرَاتِ الْمَطَرِ إِلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ، أَوْ نُقْصَانٍ، فَإِنْ رَأَىٰ أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ نَفْسٍ فَلاَ تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً، فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ، وَ يُغْرَي بِهَا لِئَامُ النَّاسِ، كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ، وَ يُرْفَعُ بِهَا عَنْهُ الْمَغْرَمُ[1]، وَ كَذَلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ إِحْدَىٰ الْحُسْنَيَيْنِ: إِمَّا دَاعِيَ اللهِ فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لَهُ، وَ إِمَّا رِزْقَ اللهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ، وَ مَالٍ، وَ مَعَهُ دِينُهُ، وَ حَسَبُهُ. وَ إِنَّ الْمَالَ وَ الْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا، وَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الْآخِرَةِ، وَ قَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ تَعَالَىٰ لِأَقْوَامٍ. فَاحْذَرُوا مِنَ اللهِ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، وَ اخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ، وَ اعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاءٍ، وَ لاَ سُمْعَةٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللهِ يَكِلْهُ اللهُ لِمَنْ عَمِلَ لَهُ. نَسْأَلُ اللهَ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَ مُعَايَشَةَ السُّعَدَاءِ، وَ مُرَافَقَةَ الْأَنْبِيَاءِ[2]).

اللُّغَة:

الغَفِيرَة: الزِّيَادَة. وغَشَا زَيدٌ بَكْراً: أَتَاهُ. وَيُغْرِي: يُحَرِّض. والْفَالِج: الرَّابح. وَالْيَاسِرِ: اللاّعب بِالْمَيْسِرِ أي القِمار. والقِدَاح: سِهامٌ يُلعبُ بها بالقِمار. والمَغْرَم: والْمَغْنَمَ: المَنْفَعَة. والْمَغْرَم: المَضَرة. والحَرْث: ما يَعود عَلَىٰ الحَارْث بالنَّفع. والتَعْذِير: العُذر الْكَاذِب. والسُمْعَة: الشُّهرة، أو مَا يَقصد بهِ الشُّهرة.

الإِعْرَاب:

أَمَّا للتَّوكِيد، وبَعْدُ ظَرف مَبني عَلَىٰ الضّم فِي مَحل نَصب مُتَعَلاّقٍ بِفعل مَحْذُوف أي نُزُولاً مِثل نُزُول قَطَرَات، وَمَا لَمْ يَغْشَ «مَا» مَصْدَرِيَة ظَرفِيَة، والْمَرْء ٱسم أنّ، وكَانَ كَالْفَالِجِ خَبَرها، وكَذَلِكَ الْمَرْء مُبْتَدَأ، وخَبَر، فَإِذَا هُوَ «إِذَا» للمُفَاجَأة.

الْمَعْنَىٰ:

تَكَلَّم الإِمَام عليه السلام كَثِيراً عَن ٱلرِّزْقِ فِي خِطبهِ، ورَسَائلِهِ، وحِكَمه، ويَأْتِي الْبَيَان، وكَلاَمه واضحٌ، وصريح فِي أنّ ٱلرِّزْق مُقدَّر، ومَقسوم، من ذَلِكَ قَوْله: (**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الْأَرْضِ كَقَطَرَاتِ الْمَطَرِ إِلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ، أَوْ نُقْصَانٍ**). قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه فِي تَعلِيقه: «أنّ الْمَطَر مُقدر بالقِياس إِلَىٰ الأَمَاكن الَّتي يَسقط فِيْهَا، وهُو مَصْدَر أَرْزَاق ٱلْخَلاَئِق»[1]. وٱقتَبس الشّيخ هَذَا الْمَعْنَىٰ مِن ٱبن أبي ٱلحَدِيد، كما هُو شَأنه فِي أَكْثَر أَقْوَاله، وتَعلِيقاته، وقَد يَنقل

(١) أنظر، خطب نَهج ٱلبَلاَغَة: ١/٦١.

العبَارة بِنَصها الحَرفِي.

لِلمِنْبَرِ ـ فِي ٱلرِّزْق:

كَتَبت كَثِيراً عَن ٱلرِّزْقِ، وأسبَابه فِي «التَّفْسِير الكَاشف»[1].

والآنْ أعود إِلىٰ هَذَا المَوْضُوع للمرَّة السّادِسة، وبَعد التّأمل، والتّفكِير الْعَمِيق، وتَتَبّع الْآيَات، والرِّوَايَات، وبَعد تجَارب مَرّات، ومَرّات ـ ٱنتهيت إِلىٰ الإِيمَان القَاطع بأنّه لا يَحدث شيء فِي الْوُجُود من جَليلٍ، أو حَقيرٍ إلّا ولله فِيهِ قضَاء، وتَدبِير... وَهَذَا هُو الأصل الأَوّل، والمَبدأ الأَسَاسِي لعقِيدتي فِي كلّ المَيَادِين، وفَلسَفتي لكلّ بَحث أتكَلّم فِيهِ أيّاً كَانَ نوعه، ومَوْضُوعَه.

ولَيْسَ مَعْنىٰ هَذَا أنّ الله سُبحَانَهُ يتَوَلّىٰ كلّ صَغِيرة، وكَبِيرة بنَفْسِهِ مُباشرة، وبلا وَاسطَة، بَل مَعنَاه أنّ كلّ شيء خَاضع لسُلطانه تَعَالىٰ، وإنّه لا شيء يَحدث فِي ٱلأَرْض، والسَّماء قَسراً لإِرَادته، ولَكِنَّهُ، جَلَّت حِكْمَته، شَاء أنْ يَربط المُسببات بأسبَابها، والنّتائج بِمُقدماتها، وهُو تَعَالىٰ ٱلْقُوَّة المُبدِعة لكلّ مُقدمة، وسَبب، ويَعني هَذَا أنّ الله يُقسم ٱلأَرْزَاق، ولكنْ عَن طرِيق ٱلْعَمَل، ويَهب الأَوْلاَد بوَاسطة الزّواج، ويَمنح الشُّهرة، والجَاه لأَهْل العِلم، والمُوهبة، والخَدمات ٱلإِنْسَانية.. وهكَذَا كلّ جُهد يَبذله ٱلإِنْسَان يُمكن أنْ يُحقق النّتائج المقصُودة بمَشيئة الله تَعَالىٰ،

---

(١) أنظر، فِقْرَة «ٱلرِّزْق وفساد الأَوْضَاع» فِي تَفْسِير الآيَة (٦٦) من سُورَة ٱلْمَائِدَةِ، وفِقْرَة «هل ٱلرِّزْق صدفة، أو قدر» فِي تَفْسِير الآيَة (١٠٠) من هَذِه السُّورَة، وفِقْرَة «ٱلإِنْسَان وٱلرِّزْق» عند تَفْسِير الآيَة (٢٦) من سُورَة ٱلرَّعْد، وفِقْرَة «ٱلرِّزْق والثّقة بالمخلوق دُونَ الخَالِق» عند تَفْسِير الآيَة (٦٠) من سُورَة ٱلْعَنْكَبُوتِ، وفِقْرَة «ٱلرِّزْق بِٱلْعَمَل لا بالدعاء» عند تَفْسِير الآيَة (٢٧) من ٱلشُّورَىٰ. (مِنْهُ ﷺ)

لأنّه هُو الَّذي خَلق الكَوْن بِمَا فِيهِ، ولو شَاء لذهب بِهِ، وبِمَا يحويه.

وَتَسْأَل: أَليس مَعْنَىٰ هَذَا أنّ ٱلإِنْسَان مُسيَّر، لا مُخيّر، وبالتَّالي أنّه غَيْر مَسْئُول أمَام الله عَن سلُوكه، وأفعَاله؟

الجَوَاب:

إنَّ الله سُبْحَانَهُ مَنح ٱلإِنْسَان ٱلْعَقْل، والْقُدْرَة، والإِرَادَة، وبٱلْعَقْل يُمَيِّز، وبالْقُدْرَة يَفعل، وبالإِرَادَة يَسْتَطِيع أنْ يَختار أحد النّجدَين: طَرِيق الْخَيْر، وطَرِيق الشَّرّ: ويَسلك أيّهما شَاء. عَلَىٰ هَذَا يَكُون لِلإِنْسَان شيء مِن الْحُرِّيَّة يستَتبِّع المَسْئُولية أمَام الله... [1].

سُؤال ثَانٍ: هَل ٱلرِّزْق ٱلْحَرَام أيضاً مَقسُوم، ومُقدر مِن الله تَعَالَىٰ؟.

الجَوَاب:

يَسْتَحِيل فِي حقّه سُبْحَانَهُ أنْ يُحَرِّم عَلَىٰ ٱلإِنْسَان أخذ ٱلْمَال بلا مُبرر، ثُم يَجعله رِزقاً له، لأنّ ما حَرُم أخذَه حَرُم عطَاؤه... بالإِضَافة إِلَىٰ أنّه تَشجِيع عَلَىٰ ٱلْحَرَام، وَفِعله... ولكنْ إذَا ٱختَار ٱلإِنْسَان رِزقه من ٱلْحَرَام يَتركه الله، وسُوء إِختِيَاره، وفِي الوَقت نَفْسه يَحرمه مِن ٱلرِّزْق الحَلال الَّذي كَانَ مُقدراً له، ثُم يحقّ عَلَيْهِ القَوْل بِنزول العذَاب.

وفِي الآثَار: أنّ السّارق إذَا سَرق حَبَسه الله من رِزقه، وكَانَ عَلَيْهِ إِثمه، ولو صَبر

---

(١) أُنظر، ذَلِكَ مفصلاً فِي كتابنا: «فَلْسَفَة التَّوْحِيدِ والْوِلاَيَة» بعنوان «فَلْسَفَة الإختيار»: ٦٦. (مِنْهُ ﷺ).

لنَال ذَلِكَ من وِجهه المُشروع، وخَير ما قَرأت فِي بَاب ٱلرِّزْق قَول الإمَام الصّادق عليه السلام: «إنَّ الله أَبىٰ إلا أنْ يَجهل أرزَاق المُتَّقِين مِن حَيْث لا يَحْتسبُون، وأنْ لا يَقبل لأوْلِيَائه شهَادة فِي دَولة الظَّالِمِينَ»[1]... وَهَذَا ثَابت بٱلحِسّ، والعيَان. فالَّذي يَتجر بالمُحرَّمات يَعْرِف دَخله سَلفاً، وقَبل الأوَان. أَمَّا المُتَّقُون فعَلىٰ بَابك يَاكريم.

(فَإِنْ رَأَىٰ أَحَدُكُمْ لأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ نَفْسٍ فَلاَ تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً). الغَفِيرَة الزِّيَادَة، وَهِي فِي الأَهْل كَثرة الأَوْلاَد، والأعوَان، وفِي النّفس العُمُر الطّويل، والجَاه العرِيض، والصّحة الدَّائمَة، والمُرَاد بالفِتْنَة هُنا ما يُفضي إلىٰ ٱلحَسَد، والغِيرة، أو الطّمع، والتّودد الكَاذِب لأَهْل الجَاه، وٱلمَال يَلتمس ما فِي أَيْدِيهم من حُطام، والمَعْنَىٰ أنّ ٱلطَّيِّب الصّالح يَغض البَصر عمَّا فِي أَيدِي النَّاس، ويَترفع عَن ٱلحَسَد، وغَيْره مِمَّا يُشِين، ويُهِين، وَلاَ يَتقرب إلىٰ مَخلُوق إلاّ بِمَا يُرضي الله، والضَّمِير.

(فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ ـ بفَتح اليَاء وسكُون الغِين ـ دَنَاءَةً تَظْهَرُ). أيِ لم يَجترح سَيِّئَة تَثبت عَلَيْهِ (فَيَخْشَعُ لَهَا) يَستحي مِنْهَا (إِذَا ذُكِرَتْ) ويتوارىٰ عَن ٱلأَعْيُن خَجلاً من سُوء ما يُذكر بِهِ (وَ يُغْرَي بِهَا لِئَامُ النَّاسِ) يَحملهم عَلَىٰ هَتك سِتره، ونَشره فِي المَلأ، ويَفتضح حَيْث الفَضِيحة بِهِ أَوْلَىٰ (كَانَ كَالْفَالِجِ) الرّابح (الْيَاسِرِ) المُقامر، مِن اللّعب بِٱلمَيْسِر أي بالقمَار (الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ ـ أي السّهام الَّتي يَلعب بهَا فِي القمَار ـ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ، وَ يُرْفَعُ بِهَا عَنْهُ الْمَغْرَمُ). أي أنّ الَّذي يَجترج السَّيِّئَات مِثله كمَثل المُقامر الرّابح يَنتظر أَوّل كَسب يَجلب لهُ نَفعاً،

(١) أنظر، الكَافِي: ٥٧١/٢، أمالي الشّيخ الطّوسي: ٣٠٠ ح ٤٠، رسائل المرتضىٰ: ٥٧/١٧ ح ١.

ويَدفع عَنْه ضرّاً... مَع وجُود الفَارق بَيْنَ الاثْنَيْن، ولذا قَالَ الإمَامعليه السلام: وَ (كَذَلِكَ) وشَبِيه بالرَّابح الَّذي جَلب لهُ الرّبح المَنْفَعَة، ودَفع عَنْه المضَرة (الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيَانَةِ) لعَهد الله فِي حَلاله، وحرَامه (يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ إِحْدَىٰ الْحُسْنَيَيْنِ) وهُما حَسَنَات الدُّنْيا، وحَسَنَات الآخِرَة، وأشَار إِلَىٰ الثَّانِيَة بقَوْله: (إِمَّا دَاعِيَ اللهِ فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لَهُ). لأنّه تَعَالَىٰ أعَد للمُحسنِين مّغْفِرَة وأجراً كَرِيماً، وأشَار إِلَىٰ الأُولَىٰ بقَوْله: (وَ إِمَّا رِزْقَ اللهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ، وَ مَالٍ، وَ مَعَهُ دِينُهُ، وَ حَسَبُهُ). أي وإنْ أَمَدَّ الله فِي حيَاته عَاش سَعِيداً فِي دِينه، وكرَامة فِي عِرضه، وقَد يَفتح الله عَلَيْهِ بَاب الخَيْرَات، والبَركَات، فَيسعد أيضاً، ولو لحظَات فِي نَفْسِه، وأهْله، ومَاله. وهُناك لون آخر من السَّعَادَة أَكْثَر مُتعة من الأَهْل، وٱلْمَال، وهُو أنْ تَقرأ عَلَىٰ ٱنفرَاد كتَاباً، أو مقَالاً يَجمع بَيْنَ الحَقِيقَة، والفَن، بَيْنَ رِقة العَاطفة، وفائِدة العِلم، ولم يُشر إِلَيْهِ الإمَام لأنّه للصَّفوة لا لجَمِيع الْفِئَات.

(وَ إِنَّ الْمَالَ وَ الْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا) يَتمتع ٱلإنْسَان بِها أَيَّاماً، ثُم لاَ شَيء، تَمَاماً كَالَّتمتع برُؤية الكَوَاكِب، والحَدَائِق، والأشجَار، وٱلأَنْهَار (وَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الْآخِرَةِ). وحصَاده مُلك دَائم، ونَعِيم قَائِم، وهُو حرَام إلّا عَلَىٰ من أطَاع ٱلرَّحْمَان، وٱتقىٰ مدَارج الشَّيْطَان (وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ تَعَالَىٰ لِأَقْوَامٍ). ضَمِير التّثنِية يَعود لخَير الدُّنْيا، وخَير الآخِرَة، وَقَدْ: هُنا للأقَل مِن القَلِيل، لأنّ البَلاء موكل بٱلْمُؤمِن، وذَاق الإمَامعليه السلام مِنْهُ الكَثِير الكَثِير، وَقَالَ سُبْحَانَهُ لنبيّه، والّذين آمنوا مَعه: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[1].

(١) آلِ عِمْرَانَ: ١٨٦.

(فَاحْذَرُوا مِنَ اللهِ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ). حَيْث قَالَ عزّ مَن قَائل: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

(وَ ٱخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ) أي بذَات عُذر عَلِيل، والْمَعْنَىٰ مَن خَاف الله حقّاً، وصِدقاً لم يَعصه فِي شيء يَعتذر مَعه بأعذَار وَاهية كَاذِبة، ومَن عَصىٰ الله واْعتذَر مُدعِياً ٱلْخَوْف مِنْهُ فَهُوَ كَاذِب فِي دعوَاه، لأنّ الَّذي يَخَاف الله يَتَبَيَّن خَوْفه فِي عَمَله، وبكَلِمَة: ٱلْمُؤْمِن الحَقّ لا يَخشىٰ إلّا الله، وَلاَ يُطيع أحداً سوَاه.

(وَ ٱعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاءٍ، وَ لاَ سُمْعَةٍ). وهل يَجْتَمِع الرِّيَاء، والْإِيمَان بأنّ الله وحدَه هُو مَالك الضُّر، والنّفع؟. أمّا الشُّهرة فَهِيَ مَعشوقة الأذلاَء الّذين يَعتزّون بغَير الله (فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللهِ يَكِلْهُ اللهُ لِمَنْ عَمِلَ لَهُ). هَذَا هُو الحَقّ، والْعَدْل، لأنّ أُجرة الخَادم عَلَىٰ مَخدُومه، ومَن كَانَ له الغُنم فَعَليه الغُرم[2]... بالإضَافة إِلَىٰ أنّ ٱلْعَمَل لغَير الله شِرك فِي وَاقعه، وتعدٍ عَلَىٰ حقّه تَعَالَىٰ، فإنّ العَبد يَفعل بِقدرة من الله، فإنْ تصَرف بها فِي غَيْر طَاعته فَقد خَان الْأَمَانَة.

(نَسْأَلُ اللهَ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَ مُعَايَشَةَ السُّعَدَاءِ، وَ مُرَافَقَةَ الْأَنْبِيَاءِ). ونَحْنُ أيضاً نَسْأله تَعَالَىٰ مُرافقة عَليّ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين سيّد الْأَوْصِيَاء، وإمَام الأتْقِيَاء.

الْقَرَابَة...فِقْرَة ٣ ـ ٤:

(أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لاَ يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ ـ وَ إِنْ كَانَ ذَا مَالٍ ـ عَنْ عِتْرَتِهِ، وَ دِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ، وَ أَلْسِنَتِهِمْ، وَ هُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ، وَ أَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ، وَ

(١) اَلنُّور: ٦٣.

(٢) هَذِه قاعدة عقلانية. أُنظر، القواعد الفقهية للبجنوردي: ٦/٣٠٨.

أَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ. وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يَرِثُهُ غَيْرُهُ[٣].

وَمِنْهَا: أَلاَ لاَ يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَىٰ بِهَا الْخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لاَ يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ وَلاَ يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ، وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ، فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ، وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ، وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ[٤]).

اللُّغَة:

الحَيْطَة ـ بِفَتح الحَاء ـ الرِّعَاية، وبِكَسرها الصِّيَانة: والمَعْنَيَان مُتقَارِبَان. والشَعَث ـ بِفَتح الْعَيْن ـ التَفرق. والنَّازِلَة: المُصِّيبة. وَلِسَانُ الصِّدْقِ: حُسن الذِّكر بِالْحَقِّ. والْخَصَاصَة: الْفَقْر، وٱلْحَاجَة. والحَاشِيَة هُنا: الجَانب، والجَناح، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[١].

الإِعْرَاب:

حَيْطَةً تَمْيِيز، وإلاّ للتَّنبيه، والمَصْدَر من أَنْ يَسُدَّهَا بَدل ٱشتمال من الْقَرَابَة، أي لا يَعدلن عَن سَدِ حَاجَة الْقَرَابَة، مِثل أعْجَبني زَيد ثَوبه، أي أعْجَبني ثَوب زَيد.

الْمَعْنَىٰ:

نَصّ ٱلإِسْلاَم كتَاباً، وسُنَّة عَلَىٰ أنّ لِلْفُقَرَاءِ حقّاً مَعلوماً فِي أَمْوَال الأَغْنِيَاء عَلَىٰ

(١) ٱلإِسْرَاء: ٢٤.

سَبِيل الشّركة حَقِيقَة، أو حُكماً من غَيْر فرق بَيْنَ أنْ يَكُون الْفَقِير مِن أقَارب الْغَنِيّ، أو بَعِيداً عَنْه رَحماً، ونَسباً... نَعم القرِيب أوْلَىٰ استحبَاباً من البَعيد، وفِي بَعْض الرِّوَايَات «لاَ صَدَقة وذُو رَحِم مُحتَاج»[1]... وما جَعل الإِسْلاَم للقرِيب الفَقِير، ولاَ غَيْر الإِسْلاَم ـ فِيما نَعلم ـ نَصِيباً فِي مَال قَرِيبه الْغَنِيّ ما دَام حيّاً، أمَّا وجُوب الإِنْفَاق عَلَىٰ فِئَة خَاصَّة مِن الأقَارب فَلا يَسْتَدعي أنْ تكُون هَذِه الفِئَةُ شَرِيكة لِلغَني فِي أَمْوَاله.

ومِن أجْل هَذَا سَلك الإِمَام سَبِيلاً غَيْر النّص كالاِسْتِحْسَان، وهُو يَحث الأَغْنِيَاء أنْ يُنفقوا عَلَىٰ أقَاربهم الْفُقَرَاء، كتَرغِيب الْغَنِيّ البَاذل فِي الذِّكر الجَمِيل الَّذي أشَار إِلَيْهِ الإِمَام بقَوْله: (وَلِسَانُ الصِّدْقِ) وقُوَّتِه بالعَشِيرة، والقَبِيلة (وَ دِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ، وَ أَلْسِنَتِهِمْ) وأنّ الْمَال الَّذي فِي يَده (يَرِثُهُ غَيْرُهُ... لاَ يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ، وَ لاَ يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ) وما إِلَىٰ ذَلِكَ من أوجه الاِسْتِحْسَان... وَلاَ مَحذور من الاِعْتِمَاد عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ القِيَاس أيضاً فِي الإِستدرَاج إِلَىٰ عَمل الْخَيْر.

ونَكتفِي بِهَذِه الإِشَارَة، لأنّ كَلِمَات الإِمَام وَاضحة فِي هَذَا البَاب لا تَحتَاج إِلَىٰ الشّرح، وهَدفه أوْضح، بالإِضَافة إِلَىٰ أنّ صِلة الرّحم أشبه بالأُمُور الخَاصَّة كعقُوق الوالدِين... ومِن أجْل هَذَا لا نَجد لها أثَراً فِي القَوَانِين الحَدِيثَة، وأَقْوَال المُشرعِين مَع أنّهم تَكَلَّمُوا عَن حقُوق المَرْأَة، وأوضَاع العَاطلِين عَن العَمَل، واللاّجئِين، والمُتقَاعدِين.

---

(١) أنظر، من لا يحضره الفَقيه: ٣٨/٢ ح ١٦٦، النّاصريات: ٣٢١، البحر الزّخّار: ٢٨٠/٤، الخِلاف: ١٢٨/٥، المعتبر: ٦١٦/٢، المجمع: ٣٣٥/١٥.

الخطبة

- ٢٤ -

فِرُّوا إِلَىٰ اللهِ:

(وَ لَعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ، وَ خَابَطَ الْغَيَّ، مِنْ إِدْهَانٍ وَ لاَ إِيهَانٍ. فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَ فِرُّوا إِلَىٰ اللهِ مِنَ اللهِ، وَ امْضُوا فِي الَّذِي نَهَجَهُ لَكُمْ، وَ قُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ، فَعَلِيٌّ ضَامِنٌ لِفَلْجِكُمْ آجِلاً، إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلاً).

اللُّغَة:

الْإِدْهَانُ: نِفَاق، وخُذان. والإِيهَانٍ: ضَعف، وجُبن. ونَهَجَه: أَوْضَحه، وَبَيَّنه: وعَصَبَه: شدَهُ، ورَبطهُ، والْمُرَاد هُنا التّكلِيف، والإِلزَام. والفَلْج: الفُوز، والظّفر.

الْإِعْرَاب:

لَعَمْرِي مُبْتَدَأ، وخَبَره مَحْذُوف وجُوباً أي قسَمي، وَعَلَيَّ خَبَر مُقدَّم، وإِدْهَان مُبْتَدَأ مُؤَخَّر و«مِنْ» زَائِدَة، وعِبَادَ الله مُنادىٰ عَلَىٰ حَذف النّداء، وآجِلاً حَال من فَلْجِكُمْ، وعَاجِلاً حَال مِن ضَمِيره فِي تُمْنَحُوه.

الْمَعْنَىٰ:

(وَلَعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ، وَ خَابَطَ الْغَيَّ، مِنْ إِدْهَانٍ وَ لاَ إِيهَانٍ). .... أَبَداً لا شَيء عِند عَليّ عليه السلام إلّا الْحَق، ورِضىٰ الله، فَهُو دِينه، ودِيانه، ونَفْسه، وعَلقه، ولحمه، ودَمه، ولْيَكُنْ بَعد هَذَا ما كَانَ من مَوْتٍ، أو حَيَاة، وهُو كَذَلِكَ يَسْتَحِيل فِي حقّه أنْ يُصانع، ويُداهن فِي أمرٍ من أُمور ٱلإِسْلاَم، وٱلْمُسْلِمِين، أو يَجبن، ويَضعف أمَام أَهْل الْبَغْي، وأَعْدَاء الْحَقّ. ومن أَقْوَاله: «مَا ضَعُفْتُ، وَلاَ جَبُنْتُ، وَلاَ خُنْتُ، وَلاَ وَهَنْتُ، وَٱيْمُ اللهِ لأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ ـ أي المُبطلين ـ حَتَّىٰ أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ»[1]. وَقَالَ: «لاَ يُقِيمُ أَمْرَ اللهِ إِلّا مَنْ لاَ يُصَانِعُ، وَلا يُضَارِعُ، وَلا يَتَّبِعُ المَطَامِعَ»[2].

(فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَ فِرُّوا إِلَىٰ اللهِ مِنَ اللهِ) مِن غَضبِهِ إِلَىٰ رَحمتِهِ، ومِن ٱلْمَعْصِيَة إِلَىٰ ٱلتَّوْبَة، وما طَرق بَابه ٱلْكَرِيم طَارق إلّا وشَمله بِعفوه، ورَحْمته (وَ ٱمْضُوا فِي الَّذِي نَهَجَهُ لَكُمْ) وأوضَحه فِي كتَابه وسُنَّة نَبيِّه مِن حدُود الحَلال، وٱلْحَرَام (وَ قُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ). أدوا إِلَىٰ الله طَاعته، وٱتقوه فِي أَمْره، ونَهيه (فَعَلِيٌّ ضَامِنٌ لِفَلْجِكُمْ آجِلاً، إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلاً). إِنَّ أَجر الْمُتَّقِين فِي الْآخِرَة مُؤكد، ومَضمُون، أَمَّا أَجرهم فِي الدُّنْيَا فرُبَّمَا، وَلَعَل... ولَيْسَ فِي شَكٍّ أنّ القَلِيل الدَّائم ـ وإنْ قَل ـ خيرٌ مِن الزّائل ـ وإنْ كَثُرَ، فكَيْفَ إذَا قلَّ هَذَا، وَكَثُرَ ذَاكَ!!

---

(١) أنظر، خطب النّهج: ٱلْخُطْبَة (١٠٤).

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (١١٠).

الخطبة

- ٢٥ -

مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي...فِقْرَة ١ ـ ٢:

(مَا هِيَ اِلاَّ الْكُوفَةُ، أَقْبِضُهَا، وَ أَبْسُطُهَا، إِنْ لَمْ تَكُونِي اِلاَّ أَنْتِ، تَهُبُّ أَعَاصِيرُكِ فَقَبَّحَكِ اللهُ!

لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ يَا عَمْرُو إِنَّنِي　　　عَلَىٰ وَضَرٍ مِنْ ذَا الإِنَـاءِ قَـلِيلِ

أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ اطَّلَعَ الْيَمَنَ، وَ إِنِّي وَ اللهِ لَأَظُنُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِـنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، وَ تَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَ بِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ، وَ طَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ، وَ بِأَدَائِـهِمُ الأَمَـانَةَ إِلَـىٰ صَـاحِبِهِمْ، وَ خِـيَانَتِكُمْ، وَ بِصَلاَحِهِمْ فِي بِلاَدِهِمْ، وَ فَسَادِكُمْ. فَلَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَىٰ قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلاَقَتِهِ[١]. أَللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ، وَ مَلُّونِي، وَ سَئِمْتُهُمْ، وَ سَئِمُونِي، فَأَبْدِلْنِي بِـهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَ أَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي، أَللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، أَمَا وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسِ بْنِ غَنْمٍ[٢]).

هُنَالِكَ، لَوْ دَعَوْتَ، أَتَاكَ مِنْهُمْ　　　فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْـحَمِيمِ[١]

---

(١) ينسب هذا الشعر إلىٰ أبي جندب الهذلي، وفي روايته: رجال مثل أرمية الحميم، كما جاء في اللسان: ٣٣٧/١٤ و: ٥٤/١٩، تاج العروس: ١٥٧/١٠، وقيل للأخفش كما في غريب الحديث للحربي: ٧٧.

اللُّغَة:

أَقْبِضُهَا ، وَأَبْسُطُهَا : أتصَرف فِيْهَا . والأَعَاصِيرُ : جَمع إِعصَار ، رِيح تَرتفع بالغُبار وتَستدِير كالعَمُود . اَطَّلَعَ : بَلَغَ . والقَعْب ـ بِفَتح القَاف : القَدح . والعِلاَقَة ـ بِفَتح الْعَيْن ـ لمَا لا يَحس من الْمَعَانِي ، وَبِكَسرها لمَا يَحس ، وَهِي ما يَعلق من الشّيء . ومِثْ : أذِب .

الْإِعْرَاب:

هِيَ ضَمِير القِصَّة مُبْتَدأ ، والْكُوفَةُ خَبَر ، وجُملة أَقْبِضُهَا خَبَر لمُبْتَدأ مَحْذُوف أي أنا أَقْبِضُهَا ، واليَاء فِي تَكُونِي للمُخَاطبة اَسماً لكَان ، وأَنْتِ تأكِيد للياء ، وخَبَر كَانَ مَحْذُوف أي عِدّة ، وقُوَّة ، أُنبِئْتُ نَبأ يَتضمن مَعْنَىٰ العِلم ، ولذَا تَعدىٰ إِلَىٰ مَفعُولين ، نَاب عَن الْأَوَّل تَاء الضَّمِير ، وبُسْراً مَفْعُول ثانٍ ، والْمَصْدَر مِن أَنَّ هَؤُلَاء .. إلخ سَادّ مَسد مَفْعُولي ظُنَّ ، وخَبَراً مَفْعُول ثانٍ لأَبْدِلْنِي ، أو صِفة لمَفْعُول مَحْذُوف أي قَوماً خَيراً .

لِلمِنْبَرِ ـ عَليٌّ وٱلْخِلاَفَة:

بُويع الْإِمَام عليه السلام بِالْخِلاَفَةِ فِي ذِي الحُجَّة سَنَة (٣٥ هـ) ، وٱسْتُشْهِدَ فِي رَمضان سَنَة (٤٠ هـ) ، فَكَانَتْ خِلاَفَته حوَالي (٥ سَنوات) ، ٱبتدأها بَعد (٤ أشهُر) بحَرْب أَصْحَاب الْجَمَل ، فِي الْبَصْرَةِ ، ثُمَّ حَرْب مُعَاوِيَة ، وأَهْل الشّام فِي صِفِّين ، ثُمَّ حَرْب الْخَوَارِج فِي النَّهْرَوَان ... وهل صَفىٰ الجَو ، وٱستقَامت لهُ الْأُمُور ، وٱنتهىٰ كلّ شيء بَعد هَذِه الْحُرُوب ؟ ... كلاَّ لقَد كَانَ ما بَعدها أدْهىٰ ، وأمرّ : ثورَات مِن الدَّاخل

يُعلنها فلُول الْخَوَارِج ، وغَيْرهم مِن النّاقِين عَلَىٰ الْحَقّ ، والْعَدْل يعرّضون أمن الْعِبَاد للخَطر... وغَارات مِن الخَارج يُصبها مُعَاوِيَة عَلَىٰ البِلاد ، وتَترك الدَّمار ، والدِّمَاء ، والفَزع ، والهَلع... وَجيش مُتثاقل مُتخاذل... وأَصْحَاب يَقُولُون : ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [١] تَمَاماً كما قَالَ بَنُو إِسْرَائِيل لله ، وكَلِيمه .

قَالَ طَه حُسين : «كَانَ عَليّ لاَ يَسد ثَغرة إلّا فُتحت لهُ أخرىٰ... ، وأَصْحَابه قَد آمْتَلئت خَوْفاً وذُلّةً ، وآنكسَاراً ، فتخَاذلوا ، وتوَاكلوا ، وقَنعوا بالعَافية فِي مِصْرهم ، وفِيما حَوهم مِن هَذَا السّواد القَرِيب.... عَلَىٰ ذَلِكَ مُمعنُون فِي الْعَجْز مُغرقُون فِيما أحبُوا مِن العَافِية ، قَد فُل حَدهم ، وكُسرت شوكَتهم ، وطَمع فِيهِمْ الْعَدُوّ البَعِيد ، وأُغري الْعَدُوّ المُقِيم بَيْنَ أظهرهُم» [٢] .

هَذِه هِي خِلاَفة عَلي بأتعَابها ، وحرَابها... وكَانَ ختَامها ضَربة بسَيْفٍ مَسمُوم أَصَابَه فِي جَبهته حَتَّىٰ بَلغ الدّماغ ، فلفَظ النّفس الأخِير ، وهُو يَتلو قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [٣] . وكَانَ هَذَا آخر كَلاَم نَطق بهِ....وآقتَسم ولدَاه : الْحَسَن ، والحُسَيْن عليهما السلام ميرَاث الوَالد ، فكَان السّم مِن نَصِيب الْحَسَن ، والسَّيْف من نَصِيب الحُسَيْن... والذّنب ذَنب «الْحَقّ»... أحبّه عَليّ وبَنُوه فكَان هَذَا جزَاءهم مِن أعدَائه .

الْمَعْنَىٰ:

(مَا هِيَ إِلاَّ الْكُوفَةُ ، أَقْبِضُهَا ، وَ أَبْسُطُهَا) . أي أتصَرف فِيْهَا . وكَانَتْ الأقطَار

---

(١) اَلْبَقَرَة : ٩٣.

(٢) أُنظر ، اَلْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه : ١٣٤ و : ١٦٤.

(٣) اَلزَّلْزَلَة : ٧ ـ ٨.

ٱلإسْلاَمية كلّها فِي تَصرف الإِمَام، وسُلطانه ما عَدا الشّام، ثُمَّ ٱنتزَع الخصُوم أكْثَر الأقطَار، أو الكَثِير مِنْهَا، وبَقي فِيا بَقِي الْكُوفَة، فحقَّرها الإِمَام عليه السلام بقَوْله: مَا هِيَ إِلاَّ الْكُوفَةُ.. إلخ أي لَيست بِشيء إِذَا قِيست إِلَىٰ غَيْرِها... حَتَّىٰ هَذِه الْكُوفَة عَاصمة الإِمَام غَار عَلَيْهَا أبو مَرْيَمَ فِي جَيش من المَوَالي المُرتزقة ودَنا مِنْهَا، فأرسَل الإِمَام جنوداً لحَرْبه فَهزمهم... وعندها ٱضطر الإِمَام أنْ يَخرج إِلَيْهِ بنَفْسِه، فَقَتله ومن مَعْه[1] (إِنْ لَمْ تَكُونِي إِلاَّ أَنْتِ، تَهُبُّ أَعَاصِيرُكِ). إنْ لم يَكُنْ لِي من الْجُنْد، والأَنْصَار إلّا أهْلك أُقاتل بِهِمْ ٱلْبَاطِل، وأَهْله (فَقَبَّحَكِ اللهُ!). أَبعدك، وأبعد أَهْـل الْـعِرَاق، أَهْل الْغَدْر، والمَكر، والغُرُور، والْفُجُور... وقد عَرف الحَجَّاج دَاءهم، ودوَاءهم، فكَان لَهُمْ الطَّبيب المُدَاويا.

(أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ ٱطَّلَعَ الْيَمَنَ). قَالُوا: أنّ مُعَاوِيَة، وٱبن العَاص، والْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ من دُهاة الْعَرَب... ومن البدَاهة أنّ الدّهاء يَحْتَاج إِلَىٰ عَقل: وَقَالَ أَهْـل الله وأَوْلِيَاءه: ٱلْعَقْل عَقلان: رَحمَـاني يُـعبد بـهِ الله، وَيُسـتغل فِي خِـدْمَة ٱلإِنْسَـان، وَصَالحه، وَشِيطَاني يُتَّخَذ أدَاة للصُّوصِية، والتَّقتِيل[2]، والتّـدمِير كَٱلْـعَقْل الَّـذي ٱكتَشف، أو صَنع أخطر سِلاح يُهدد مَصير البشرية فِي القَرن الْـعِشْرِين... وَقَـد ٱكتَشف مُعَاوِيَة فِي عَهْدِه هَذَا النَّوْع من السِّلاَح فِي أَشخَاص يَضمنون لهُ التّـفوق عَلَىٰ الْعِبَاد، والتّحكم فِي مُقدرَات البِلاد تَمَاماً كَمَا هُو شَأن الّذين يَملكُون فِي عَصرنا أسلِحة الخرَاب، والدَّمار.

---

(١) أنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه: ١٤٠.
(٢) أُنظر، مطالب السّؤول لمُحَمّد بن طَلْحَة الشّافعي: ٤٩.

ومِن هَؤُلَاء الأشخَاص الّذين ٱكتَشفهم مُعَاوِيَة بُسْر بن أَرْطَاة(١)، فـلقَد كَـانَ

(١) هُو بُسْر بن أَرْطَاة ويُقَال: ٱبن أَبي أرْطَاة، وٱسمه عمير بن عويمر بن عِمْرَانَ القُرَشيّ العامري: كَانَ من شيعة مُعَاوِيَة، نزيل الشّام مات سنة (٨٦ هـ) وهُو أحد فراعنة الشّام، وكَانَ مَع مُعَاوِيَة بصِفّين. فأمَرَه أنْ يلقىٰ عَلِيّاً فِي الْقِتَال. وَقَالَ له: سمعتك تتمنّىٰ لقاءه، فلو أظفرك الله به وصرعته حصلت عَلَىٰ دنيا وآخرة ولم يزل يشجّعه ويُمنّيه حَتَّىٰ رآه. فقصده فِي الْحَرْب فالتقيا. فطعنه عليٌّ فصرعه. فٱنكشف له فكفّ عَنْه كما عرض له ذَٰلِكَ مَع عَمْرُو بن العَاص. ٱختلفوا فِي أنّ بُسْراً أدرك النَّبِي ﷺ وسمعه أم لا. وقَالُوا: إنّه لم يَكُنْ له ٱستقامة بعد النَّبِيّ ﷺ، وكَانَ من أَهْل الرِّدَّة وقد دَعَا عَلَيْهِ عليٌّ عليه السلام لمّا بلغه أنّه يـقتل الصّبيان من ٱلْمُسْلِمِين فَقَالَ عليه السلام: أَللّٰهُمَّ أسلب دينه، وَلاَ تخرجه من الدُّنْيَا حَتَّىٰ تُسْلِبهُ عَقْله. فأَصَابَه ذَٰلِكَ وفقدَ عَقْله، وكَانَ يهذي بالسَّيْف ويطلبه، فَيُؤتىٰ بسَيْف من خشب، ويجعل بَيْنَ يديه زِقٌّ منفوخٌ، فلا يزال يضربه حَتَّىٰ يَسأم، وتوفّي فِي أَيَّام مُعَاوِيَة. وقَالُوا: دخل الْمَدِينَة فخطب النَّاس، وشتمهم وتهدّدهم يَوْمَئِذٍ وتـوعّدهم وَقَالَ: شاهت الوجوه. ولمّا دخل الْيَمن ولقي ثَقَل عُبَيْدالله بن الْعَبَّاس، وفِيهِ ٱبنان له صغيران، فذبحهما بيده بمُدية كَانَتْ معه، ثمّ ٱنكفأ راجعاً إِلىٰ مُعَاوِيَة. فقالت له إِمْرَأَة له: يا هَٰذا قتلت ٱلرِّجَال، فعلام تقتل هذين؟ والله ما كانوا يُقتَلون فِي الْجَاهِلِيَّة وٱلإِسْلاَم، والله يا ٱبن أَرْطَاة إِنَّ سلطاناً لا يقوم إلّا بقتل الصّبيّ الْصَّغِير، والشّيخ الْكَبِير، ونزع الرَّحْمَة، وعقوق ٱلأَرْحَام لسلطان سوء.

قَالُوا: فولهت عَلَيْهما أُمّها، وكَانَتْ لا تعقل، وَلاَ تصغي إلّا لمن يخبرها بقتلها، وَلاَ تزال تنشدهما فِي الموسم:

هَا مَن أحسَّ بابنيَّ اللّذين هُما كالدُّرتين تَشَظّىٰ عنهما الصّدفُ

إِلىٰ آخر الأَبْيَات. ولَسْنَا بصدد بيَان حَيَاة بُسْر، والكتب الَّتي ترجمته أو ذكرت نبذة من أُموره الشّنيعة كَثِيرَة، وقد ذكر أسامیها فِي تعليقة ٦٦ من كتاب الغارات، فراجع. نَحْنُ نحيل القارئ الْكَرِيم إِلىٰ المصادر الَّتي تحت أَيْدِينَا فليلاحظها:

الإِسْتِيعَاب: ٦٤ ـ ٦٧، وَقْعَة صِفّين: ٤٦٢ ط ٢ سنة ١٣٨٢ هـ و ط ٢ تحقيق عبدالسَّلاَم هـارون المؤسّسة العَرَبِيَّة الْحَدِيثَة، ومنشورات مكتبة آية الله العظمىٰ المرعشي النّجفي قم لسنة ١٤٠٤ هـ: ٤٤ و ١٥٧ و ٣٠٥ و ٤١٢ و ٤٢٤ و ٤٢٩ و ٤٥٩ و ٤٦٠ و ٤٦٢ و ٥٠٤ و ٥٠٧، شَرْح النَّهج لابن أَبي الْحَدِيد: ٢ / ٣٠١، الأغاني: ١٥ / ٤٥، تَهْذِيب ٱبْن عساكر: ٣ / ٢٢٠، تَارِيخ الطَّبَرِيّ: ٦ / ٨٠، و: ٤ / ٢٠ وما بعدها ط أُخرىٰ، كتاب الغارات برواية ٱبن أَبي ٱلْحَدِيد فِي شَرْح النَّهج تحقيق مُحَمَّد أبو الْفَضْل: ٢ / ٣ ـ

سفَاحاً مُفسداً فِي ٱلأَرْض مُسرفاً فِي الحَرَق، والنّهب، والْقَتْل، والذّبح حَتَّىٰ ٱلنِّسَاء والأَطْفَال: فاَختَاره مُعَاوِيَة، وجَهزه بالسِّلاَح، وٱلرِّجَال، وَقَالَ له فِيما قَالَ: «أقسُ عَلَىٰ أَهْل البَادِيَة من شِيعة عَليّ حَتَّىٰ يَملأ قُلُوبهم ذُعراً، وأنْ يَأْتِي الْمَدِينَة فَيرُهِب أَهْلها حَتَّىٰ يَروا أنّه ٱلْمَوْت ـ لِأَنَّهَا آوت النَّبِيّ ﷺ، ونَاصرته عَلَىٰ أَبِيه (مُعَاوِيَة) أَبِي سُفْيَان ـ ثُمَّ يَأْتِي مَكَّة فَيرفق بأهلها، وَلاَ يُروعهم، ثُمَّ يَأْتِي اَلْيَمن فيخرج عَنْهَا عَامل عَليّ، ويَنصر فِيْهَا شِيعة عُثْمَان»[1].

وَقَالَ طَه حُسين: «ومَضىٰ بُسْر، وأنفَذ أمر مُعَاوِيَة، وأضَاف إِلَيْهِ من عِند نَفْسه قَسوةً، وغِلظةً، وإسرَافاً فِي الإِستخفَاف فِي الدِّمَاء، والأَمْوَال، والحقُوق، والحُرمَات. فكان كَثيرَ الفَتك فِي البَادِيَة. وجَاء الْمَدِينَة فروّع أهلها حَتَّىٰ أَرَاهم الكَارثَة رَأْيَ الْعَيْن. وأمَرهم بِالْبَيْعَةِ لمُعَاوِيَة فَفعلوا... ومَضىٰ إِلَىٰ اَلْيَمن، ونَشر فِيْهَا الرّوع بالإِسرَاف فِي الْقَتْلِ، ثُمَّ أخَذ ٱلْبَيْعَة لمُعَاوِيَة... حَتَّىٰ ذَبح اَبنَي عُبَيْدالله بن عَبَّاس، وكَانا صَبيَّين»[2].

هَذِه هِي كيَاسة مُعَاوِيَة الدَّاهية تَجلت فِي سَفك الدِّمَاء، ونَهب الأَمْوَال، وذَبح الأَطْفَال، فِي مَبدأه «المِيكَيافِيلي» الَّذي يُبرر أخَس الوَسَائِل لبلُوغ الْغَايَة الدَّنِيئة الأُموِيه.

← ١٤، تَأرِيخ اليعقوبي: ٢ / ١٤١، تَهْذِيب التَّهْذِيب: ١ / ٤٣٦، تَأرِيخ دِمَشْق: ٣ / ٢٢٢، نهَايَة الأَرَب للقلقشندي: ٣٧١، مروج الذّهب بهَامِش اَبْن الأَثِير: ٦ / ٩٣، الجمهرة: ٢٢٨ و ٣٩١، أسد الغَابَة: ٣ / ٣٤٠، و: ١ / ١٨٠، اَبْن الأَثِير: ٣ / ١٥٣، كَشْف الْيَقِين: ١٥٨، المعارف لِابْن قُتَيْبَة: ١٢٢، الْفُتُوح لِابْن أَعْثَمْ: ٢ / ٣٩ و ٩٢، ومابعدها، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٢٣ و ١٤٨ و ١٥٠.

(١) أُنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه: ١٣٧.

(٢) أُنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه: ١٣٧ ـ ١٣٨.

(وَ إِنِّي وَ اللهِ لَأَظُنُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ)، وهُم مُعَاوِيَة، وأَهْل الشّام (سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ). يَتَغلبُون عَلَيْكُمْ، ويَتَحكمُون فِي أَمْوَالكم، ودِمَائكم... وصَدَقت نبُوءة الْإِمَامِ عليه السلام، فَقد تَسلط من بَعده مُعَاوِيَة عَلَىٰ الْعِرَاق، وأَذل أهْله بالسّيْف، وأَذَاقهم الله وبَال أمرهُم. ثُمَّ أَشَار الْإِمَام إِلَىٰ الأَسْبَاب المُوجِبَة لذَلك، وَهِي أَرْبَعَة:

١ ـ (بِاَجْتِمَاعِهِمْ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، وَ تَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ). تَعِيش الدّول، وتُحقق أهدَافها إِذَا توَافر لدِيها رِجَال، وجنُود مُنضَبطون، ومُوحدُون، وإلّا كَانَ مَصِيرها فِي كفّ الْقَدَر، وشَاءت الظّرُوف أنْ تكُون دَولة علِيّ عليه السلام فِي الْعِرَاق، ومِن أَهْل الشّقاق، والنِّفَاق، ودَولة مُعَاوِيَة فِي الشّام، ومِن أَهْل النّظام، والوِئام... فَلا بَدع أنْ تَثبت هَذِه، وتَتَزلزَل تِلك.

٢ ـ (وَ بِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ، وَ طَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ). ونقل ابن أبي الْحَدِيد عَن الجَاحظ[١]: «الْعِلَّة فِي عصيَان أَهْل الْعِرَاق عَلَىٰ الأمراء، وطَاعَة أَهْل الشّام: أنّ أَهْل الْعِرَاق أَهْل نَظر، وذُوو فِطن ثَاقبة، ومَع الفِطنة، والنّظر يَكُون التّنقِيب والْبَحْث، ومَع التّنقِيب والْبَحْث يَكُون الطّعْن، والقَدح، والتّرجِيح بَيْنَ الرِّجَال، والتَّمْييز بَيْنَ الرُّؤوسَاء، وإظهَار عيُوب الأمرَاء، وأَهْل الشّام ذُوو بَلَادة، وتَقلِيد، وجمُود عَلَىٰ رَأي وَاحد، لا يرُوون النّظر، ولاَ يسْأَلُون عَن مُغيّب

(١) هُو عَمْرُو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي أبو عُثْمَان الجَاحظ (١٦٣ هـ ـ ٢٥٥ هـ)، كبير أئمة الأدب، ورئيس فرقة الجَاحظية من المُعْتَزِلَة، وصاحب التّصانيف الكَثِيرة مِنْهَا كتابه «الْحَيَوان» في أَرْبَعَة مجلّدات و«الْبَيَان والتبيين» و«الْبُخلاء» و«المَحَاسن والأضداد» وغَيْر ذَلِكَ كما ذكر صاحب الأعلام الزّركلي في ترجمته: ٥ / ٧٤.

الأَحْوَال»[١].

وَهَذَا مُجـرد وَهم، وكَلاَم، فأيّة عيُوب أظهرَها أَهْل الْعِرَاق لحكُم الإِمَامِ؟.
والصّحيح ما قَاله المُؤرخُون، وأَهْل السّير القُدامىٰ، والجُدد، ومِنْهُم طَه حُسين: «مِن أنّ مُعَاوِيَة كَانَ يكِيد، ويَمكر، ويَشتري مِن النَّاس دِينهم، وضمائـرهم، وأنّ علِيّاً لَم يَكُنْ يَستبيح لنَفْسِه مَكراً، وَلاَكَيداً، وَلاَ دَهاءً، بل كَانَ يُؤثر الدِّين الخَالص عَلَىٰ هَذَاكلّه، وكَانَ يَحتمل الْحَقّ مَهما تَثقل مُؤونته، لا يُعطي فِي غَيْر مَوضع الْعَطَاء، وَلاَ يَشتري الطَّاعَة بِالْمَال، وَلاَ يُحب أنْ يُقيم أمر ٱلْمُسْلِمِين عَلَىٰ الرّشوة، ولَو شَاء عَلِيّ لَمكر، وكَاد، ولَكِنَّهُ آثر دِينه، وأبىٰ إلّا أنْ يَمضي فِي طَرِيقه إِلَىٰ مُثله العُليا من الصّراحة، والْحَقّ، والإِخْلاَص، والنُّصح لله، ولِلْمُسْلِمِين عَن رِضىً، وٱستقَامة لا عَن كَيدٍ، وٱلتوَاء»[٢].

وآية ذَلِكَ قَوْله: أَ تَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ؟[٣].

٣ ـ (وَ بِأَدَائِهِمُ الأَمَانَةَ إِلَىٰ صَاحِبِهِمْ، وَ خِيَانَتِكُمْ). الْمُرَاد بالأَمَانَة هُنا ٱلْـبَيْعَة، وأنّ أَهْل الشّام بَايعوا مُعَاوِيَة ووَفوا، وأنّ أَهْل الْعِرَاق، وغَيْرهم بايعُوا الإِمَام وغَدَروا.

٤ ـ (وَ بِصَلاَحِهِمْ فِي بِلاَدِهِمْ، وَ فَسَادِكُمْ). أَهْل الشّام يُدَافعون عَن بِلاَدهم ويَستَمِيتون فِي سَبِيلها، أَمَّا أَهْل الْعِرَاق فقَد آثروا الرّاحة، والدِّعة، ومَا دَفعوا ضَيماً، ولاَ جَلبوا مَغنماً (فَلَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَىٰ قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ

(١) أنظر، شَرْح النَّهْج: ١/٣٤٣، البَيان والتّبيين: ٢/١٣٧، تَارِيخ الطَّبَرِيّ: ٧/٢١٢.
(٢) أنظر، الفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه: ١٦٢ و ١٦٣.
(٣) أنظر، خطب النَّهج: ٢/٦، من كَلاَم له رقم (١٢٦).

بِعِلاَقَتِهِ). نِفَاق، وَشِقَاق، وفَوق ذَلِكَ كلّه الرّتع فِي الخِيَانة، وعَدم الأَمَانَة حَتَّىٰ عَلَىٰ أتْفَه الأَشْيَاء.

(أَللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ، وَ مَلُّونِي، وَ سَئِمْتُهُمْ، وَ سَئِمُونِي). مَلّهم، وَسَئمهم لخيَانتهم، وَنِفاقهم، وشقَاقهم، ومَلّوه، وسَئموه لإخلاَصه، وَعَدله، وصَلابته فِي جَنب الله (فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَ أَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي). هُو خيرٌ بِلا شرّ، وهُم شرٌ بلا خَير، وَلاَ قَاسم مُشترك بزيْنه، وبَيْنَهُمْ، فكَيْفَ المُعايَشة؟. ومِن أَجْل هَذَا دَعا اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يجْعَله مَع الّذين عَلَىٰ شَاكلته، ويَجعلهم مَع مَن هُو عَلَىٰ شَاكلتهم.

(أَللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ). أي سلط عَلَيْهِمْ الهمُوم، والأحزَان، ومِن أَقْوَاله: ٱلْهَمُّ نِصْفُ ٱلْهَرَمِ[١] (أَمَا وَ اللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسِ بْنِ غَنْمٍ) بفتح الغِين، وسكُون النّون، وهُم بَني تَغلب مَشهورُون بالشَّجَاعَة، ومِنْهُم رَبيعَة بن مَكدم حَامي الظّعينة حَيّاً، وَمَيتّاً، وذَلِكَ أَنّه كَانَ فِي بَعْض أسفَاره، وَمَعه نِسوة يَحمِيهن وَحده، فَعَرض لهُ جَمَاعَة مِن الفُرسان لِيَسبُوا الحَرِيم اللاّتي مَعْه، ورَمَاه أَحدهُم بسَهم أَصَابَ قَلْبَه، ولمَّا أَيقَن بٱلْمَوْت نَصب رُمحه فِي ٱلأَرْض وٱعْتَمد عَلَيْهِ، وأشَار إِلَىٰ النُّسوة بالمَسِير، فَسُرن حَتَّىٰ بَلَغن مأمِنْهُم دُونَ أَنْ يَتعرض أحد لَهن، لأنّ الفُرسان ظَنوا أَنّ رَبيعَة مَازَال حَيّاً[٢].

---

(١) أنظر، خطب النّهج: ٣٤/٤، ٱلْحِكْمَة (١٤٣).

(٢) هُو رَبيعَة بن مكدم بن حدثان بن جذيمة بن علقمة بن فراس الشّجاع المشهور. أُنظر، ترجمته وقصته فِي الغارات: ٤٢٧/٢، شَرْح النَّهج للمعتزلي: ٣٤٢/١، الأعلام للزركلي: ١٧/٢، الأنساب للسمعاني: ٣٥٥/٤، تأريخ اليعقوبي: ٦١/٢، معجم ماأستعجم: ١١٢٠/٤.

الخطبة
- ٢٦ -

فَلاَ ظَفِرَتْ يَدُ الْبَائِعِ...فِقْرَة ١ ـ ٣:

(إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَ أَمِيناً عَلَىٰ التَّنْزِيلِ، وَ أَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَىٰ شَرِّ دِينٍ، وَ فِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ، وَ حَيَّاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ، وَ تَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَ تَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ. الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَ الْآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ[1].

فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلاَّ أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَ أَغْضَيْتُ عَلَىٰ الْقَذَىٰ، وَ شَرِبْتُ عَلَىٰ الشَّجَا، وَ صَبَرْتُ عَلَىٰ أَخْذِ الْكَظَمِ، وَ عَلَىٰ أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ[2].

وَمِنْهَا: وَ لَمْ يُبَايِعْ حَتَّىٰ شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَىٰ الْبَيْعَةِ ثَمَناً. فَلاَ ظَفِرَتْ يَدُ الْبَائِعِ، وَ خَزِيَتْ أَمَانَةُ الْمُبْتَاعِ، فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا، وَ أَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا، فَقَدْ شَبَّ لَظَاهَا، وَ عَلاَ سَنَاهَا، وَ اسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ، فَإِنَّهُ أَدْعَىٰ إِلَىٰ النَّصْرِ[3]).

اللُّغَة:

مُنِيخُونَ: مُقِيمُون. وَحَيَّاتٍ صُمٍّ: لا تَنْزَجِر بِالصَّوْت. والْمَاء الْكَدِر: غَيْر

الصّافِي. والطّعام الجَشِبَ: الغَلِيظ. ومَعْصُوبَةٌ: مَشدُودة. والْقَذَىٰ: مَا يَسقط فِي الْعَيْن. والشَّجَا: مايَعرض فِي الحَلق. ولَظَاهَا: نَارها. وسَنَاهَا: ضَوؤها. وَٱسْتَشْعِرُوا: من الشّعار لاَ من الشُّعُور، وهُو العَلاَمة، وقِيل الْمُراد به هُنا ما يُلازم الجَسد كالثِّياب، وَهَذَا الْمَعْنَىٰ بالمقام أَليق.

الْإِعْرَاب:

نَذِيراً حَال، ومَعْشَرَ الْعَرَبِ مُنادىٰ، ومُنِيخُونَ خَبَر أَنْتُمْ، وَعَلَىٰ شَرٍّ، وَفِي شَرٍّ، وبَيْنَ حِجَارَةٍ كلّها مُتَعَلَّقه بـ «مُنِيخُونَ». فَإِذَا لَيْسَ قيل «إِذَا» هُنا ظَرف. ولَكِنَّهُ للمُفاجأة أَقْرَب، لِأَنَّهَا مِثل: خَرجتُ فإِذَا زَيدٌ فِي البَاب، أَمَّا قَول النُّحاة: إِنَّ إِذَا الفُجَائِية تَخْتَص بالجُملة الأَسمِية «لَيْسَ» هُنا بِمَعْنَىٰ «لاَ»، وقِيل: هِي حَرف لا فِعل، وعَلَيْهِ يَكُون الْمَعْنَىٰ فَنَظَرْتُ فَإِذَا لا مُعِينٌ لِي.

الْمَعْنَىٰ:

(إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ ـ إِلَىٰ قَوْله ـ مَعْصُوبَةٌ). هَذَا الكَلاَم وَاضح فِي نصّه، ومضمُونه، وَلاَ يَحتَاج إِلَىٰ الشّرح، بالإضَافة إِلَىٰ أنّ مِثله تَقَدَّم فِي ٱلْخُطْبَة الْأُولَىٰ. ويَتلخص الْمَعْنَىٰ بأنّ الْعَرَب قَبل البِعثة كَانوا فِي ذُلة، وفَاقة، وجَهالة، وضَلالة، فأنقَذهم الله سُبْحَانَهُ بمُحَمَّد ﷺ، ورِسَالَته مِن هَذِه وتِلك، وأَصْبَحُوا شَيْئَاً مذْكُوراً.

لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ الدِّين:

وَتَسْأَل: إِنَّ أَكْثَر الشّعوب، والأُمم فِي شَرق ٱلْأَرْض، وغَرْبِهَا كَانَتْ مُتخَلفة فِي

شَتَّىٰ المَيَادِين، ثُمَّ تَطورت، وتَقَدَّمَت مَادياً، ومعنُوياً دُونَ أَنْ يَأتِيها نَبي من ٱلْأَنبِيَاء، أو يَنْزِل عَلَيْهَا كتَاب مِن السَّماَء، وإِذَنْ فلَيْسَ من الضّروري لكي يتَقَدَّم ٱلإِنْسَان فِي هَذِهِ ٱلحيَاة أَنْ يَكُون مُلتزماً بدِين؟.

الجَوَاب:

١ ـ نَحْنُ لا نَدعي أَنّ التّقدم فِي الصِّنَاعَة، والزّراعة، وغَيْرهما مِن مظَاهر الحضَارة وقفٌ عَلَىٰ المُتدينين، وَلاَ نَنسب هَذِه الدّعوىٰ إِلَىٰ إِنْسَان، والغَرض الأَوّل هُو الإِشَارَة إِلَىٰ أَنّ مُحَمَّداًﷺ قَد أخرَج النَّاس مِن الظُّلمات إِلَىٰ ٱلنُّورِ، وتَقَدم بِٱلْحيَاة مِئات السّنين. وَلاَ يَختلف فِي ذَلِكَ ٱثْنَان بصَرف النّظر عَن الدِّين... عَلَىٰ أَنّ التّقدم فِي أي ميدَان مِن ميَادِين العِلم، وغَيْره ما هُو بشيء إِذَا لم يَكُنْ لصَالح ٱلإِنْسَان وأَمِنْهُ، والْقَضَاء عَلَىٰ ضَعفه، وفَقره. وَلاَ نَعرف عَصراً مِن العصُور تجرّد فِيهِ الْأَقْوِيَاء عَن إِنْسَانِيتهم، وأَصْبَحُوا أَشَد خَطراً عَلَىٰ البَشرِية مِن الأَفَاعي، والوحُوش كالعَصر الَّذي نَعيش فِيهِ، والسّبب الأَوّل هُو تَقدم الآلَة، وتَطور الأَسلِحة، وتعَاظمها فِي شَأنها، وأثَرها.

٢ ـ إِنَّ ٱلإِسْلاَم يَدعو إِلَىٰ كلّ خَيرٍ، ويُباركه حَتَّىٰ ولَو كَانَ فَاعله من المُلحدِين، ويَنهىٰ عَن كلّ شرٍّ، وَيَبرأ مِنْهُ، ومِن صَاحبه وإِنْ آمن بالله، ورُسله، وكُتبه.

قَالَ الإِمَامعليه السلام: وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُﷺ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ ـ ٱلْمُؤْمِن ـ وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ ـ الصّالح مِن الْكَافِر ـ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ»[1] أي كُفره،

(١) أُنظر، خطب نَهج ٱلبَلاَغة: ٢/٤٤، ٱلخُطبَة (١٥٤).

وعَلَيْهِ فكلّ خُطوة يَخطوها ٱلإنْسَان إلىٰ حَيَاة أفضَل فَهِيَ مِن الدّين فِي الصّميم، مُسلماً كَانَ أم غَيْر مُسْلِم. ومن يَقف ضِدّ العِلم النّافع، أو أي عَمل يَصلح ٱلْحيَاة بجِهَة من الجِهات فَهُوَ عَدُوّ لله، ودِين الله، أرَاد ذَلِكَ أم لَم يَرد. كَيْفَ والإصلاح هُو الْغَايَة الأُولىٰ مِن رِسَالة الرُّسل، وٱلأَنْبِيَاء.

٣ ـ كلّ النَّاس يُقدسُون الْمَعَانِي ٱلإنْسَانية النَّبِيلَة، ولكنَّ الفَرق بَعِيد بَيْنَ أنْ يَكُون هَذَا التّقدِيس دِيناً، وعَقِيدة يَنبع مِن ٱلْعَقْل، وٱلْقَلْب، ويَختلط باللّحم، والدّم مَع الشُّعُور بأنّ هَذِه الْمَعَانِي كما هِي نَبِيلة فِي ذَاتها فإنّ ٱلإنْسَان مَسْئُول عَنْهَا أمَام قُوَّة قَادرة عَادلة تَرقب، وتُحاسب، وتُثيب، وتُعاقب. الفَرق بَعِيد جِدّاً بَيْنَ هَذا وبَيْنَ أنْ يَكُون تَقدِيس الْمَعَانِي ٱلإنْسَانية لُمجرد أَنَّهَا نَبِيلة، وأنّ ٱلإنْسَان يَفعَلها لَمحض أنّه طَيِّب، ومُهذب، وحَسن المُعَامَلَة، دُونَ أنْ يَكُون مَسؤولاً عَن تَركها، وإهمَالها أمَام قُوَّة تَعلم الْغَيْب، وتُحاسب مَن أهمَل، وتَجاهَل.. وأيّة جَدوىٰ من الْخَيْر فِي ذَاته، ومِن الشَّرّ فِي ذَاتِهِ إذَا لَم يُشعر ٱلإنْسَان أنّه مَسْئُول عَن كلّ ذَرَّة مِنْهُمَا أَمَام مَن لا يُغادر كَبِيرةً، وَلاَ صَغِيرة إلّا أَحصَاها، وسَأل عَنْهَا، وكَافأَ مَن أحسَن بالحُسنىٰ، ومَن أَسَاء بِمَا يَستحق؟ قَالَ أدِيب مُعاصر: «إنَّ مَن قَالَ: لَسْنَا فِي حَاجَة إلَىٰ ٱلْقُرْآن لنكُون عَلَىٰ أخلاقٍ هُو أشبَه بالبَقَّال الَّذي ٱكتَشف أنّ حُسن المُعَامَلَة بضَاعة رَابحة فِي حدّ ذَاتها، وإنَّمَا تَكسب لهُ قَلب الزّبون، وَجيبه».

(فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إلاَّ أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ). قَالَ ٱبن أَبي ٱلْحَدِيد: «ما زَال عليّ عليه السلام يقول هَذَا القَوْل، ولَقَد قَاله عَقب وفَاة رَسُول الله صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: لو وَجدت أَرْبَعِين ذَوِي عَزم... ذَكر ذَلِكَ نَصر بن مُزاحم، وكَثِير من

أربَاب السِّير»[١].

وَعَلَىٰ أيّة حالٍ فإنّ قَوْله ﷺ: «لَيْسَ لِي مُعِينٌ إلاّ أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ». وَاضح الدَّلاَلَة عَلَىٰ أنّه كَانَ يَرىٰ أنّ ٱلخِلاَفَة حَق لهُ دُونَ غَيْره، وأنّ قُرَيْشاً ٱنْتَهبُوا هَذَا الحَقّ، وٱغْتصبُوه، وأنّه لو دَافع عَنْه بٱلْقُوَّة لقَابلُوه بقُوَّة أشد، ومَا أبقوا عَلَيْهِ، وَلاَ عَلَىٰ أهْله، فَسَكت لا حِرصاً عَلَىٰ نَفْسِه ـ لأنّه لا يُبالي بٱلْمَوْت ـ بَل عَلَىٰ أهْله.. وتَكَلَّمنا عَن ذَلِكَ مُفصلاً[٢].

(وَ أَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَىٰ ـ إِلَىٰ قَوْله ـ الْعَلْقَمِ). تَقَدَّم مِثله فِي الشِّقشِقِيَّة مَع الشَّرح.

(وَ لَمْ يُبَايِعْ حَتَّىٰ شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَناً). الْبَائِع هُو عَمْرُو بن العَاص، والْمُشْتَرِي مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَانَ، والثَّمن مِصْر... وكَانَ ٱبن العَاص من أعدىٰ أَعْدَاء الرَّسُول ﷺ آذاه، وحَاربه، وهجَاه بِسَبعِين بَيْتاً، فَقالَ ﷺ: أَللَّهُمَّ ٱلعَنه بِكلّ حَرف أَلف لَعْنة»[٣]، وحرّض عَلَىٰ عُثْمَان، ثُم طَالب بدَمه.

ونَدع الكَلاَم عَنْه للدّكتور طَه حُسين، لاَ لأنّه أَدِيب شَهِير، أو مِن السُّنَّة، بَل لأنّه يَقول ما يَعْتَقِد، ويُسَجل للتَّأرِيخ. قَالَ: «وكَانَ عَمْرُو بن العَاص قَد وَجدَ عَلَىٰ عُثْمَان حِينَ عَزله عَن مِصْر، فلمّا ظَهرت الْفِتْنَة كَانَ من المُعَارِضِين لعُثْمَان... فكَان يؤلِّب النَّاس، ويُحرّضهم ما وَسعه ذَلِكَ سِرّاً...، وَقَالَ لهُ جَهرَة فِي الْمَسْجِدِ: إنّك قَد

(١) أنظر، شَرْح النَّهج: ٢/ ٢٠ تحقيق مُحَمَّد أبو الفَضْل، وكتاب صِفّين: ١٨٢، الإمَامَة والسِّيَاسَة: ١/ ١٤٤، السَّقِيفَة مُحَمَّد رضا المظفر: ١٨٠، الغارات: ١/ ٣٠٨، المسترشد في الإمَامَة: ٤١٦.

(٢) أنظر، كتابنا «فَلْسفَة التَّوْحِيد والوِلاَيَة» فصل: حَوْلَ التَّسنن، والتّشيع. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أنظر، شَرْح نَهج ٱلبَلاَغَة لِابْن أبي ٱلحَدِيد: ٦/ ٢٩١، جواهر المطالب فِي مناقب الإمَام عليّ ﷺ لِابن الدِّمَشْقِي: ٢/ ٢٢٤، كتاب سليم بن قَيْس: ٢٧٨، الايضاح لِابْن شاذان: ٨٦.

رَكَبت بالنَّاس نَهابِير ـ أي المـهَالك ـ ورَكبنَاها مَعك فتُبْ إِلَىٰ الله نَـتب... وكَـانَ عَمْرُو فِي فِلسْطِين حِينَ جَاء ٱلنَّبَأ بِقَتل عُثْمان فَقَالَ: أَنَا أَبُو عَبد الله ما حَكَكت قَرحَةً إلاّ أدمِيتها. يُريد أنّه قَد مهّد لِلفِتْنَة، والثّورة بعُثْمان، فأحكَم التّمهيد، وانتهىٰ الأَمْر إِلَىٰ غَايَة... ولَحق عَمْرُو بمُعَاوِيَة... ـ وهُو ـ عَلَىٰ ثِقة مِنْهُ بأنّ مُعاوِيَة لَيْسَ عَلَىٰ الْحَقّ، وبأنّ خَصمه هُو صَاحب الْحَقّ، وبأنّ الإِنْتِصَار لمُعَاوِيَة واللِّياذ بِهِ إنّمـا هُـو سَبِيل الدُّنْيا لاَ سَبِيل الدِّين... واستيقن مُعَاوِيَة أنّ عَمراً إنْ انصرفَ عَنْه كَـاد لهُ فأبلَغ فِي الكَيد... إنَّ مُعَاوِيَة سَأل عَمراً عمَّا يُريده ثَمَناً لانْضِمَامه إِلَيْهِ؟ فطَلب إِلَـيْهِ عَمْرُو أنْ يُطعمه مِصْر حياتَه، واستَكثر مُعَاوِيَة هَذَا الثَّمَن... ثُمَّ اتفقا عَلَىٰ ذَلِكَ، وكُتب بهَذا الإِتفَاق بَيْنَ الرَّجُلين عَهدٌ مؤكَّدٌ»[1].

(فَلاَ ظَفِرَتْ يَدُ الْبَائِعِ). وهُو ابن العَاص، وكَيْفَ تَظفر يدٌ ظَفِرَ الإِثْم بـصَاحبها (وَخَزِيَتْ أَمَانَةُ الْمُبْتَاعِ). وهُو مُعَاوِيَة، والمُرَاد بالأَمَانَة هُـنا حـقُوق المُسْـلِمِين، وبالخِزي الذُّلَّ، والهوَان، وفِيهِ إيمَاء إِلَىٰ أنَّ مَا مِن أُمّة يـقُودها الخَـونة إلاّ ضُربت عَلَيْهَا الذِّلَّة، والمَسْكَنة، واستهَان بها القَـريب، والبَـعِيد، والْـقوِيّ، والضَّـعِيف، وأَصْبَحت أكلة لكلّ آكل، وغَرضاً لكلّ طَامع كما هُو شأنْ الْعَرَب الْيَوْم....

قَهرهم اليهُود عَلَىٰ قلتهم، وصَاروا أذَلّ الشّعوب، والدُّول، والأُمم... ولاَ سرّ إلاّ خِيَانة القَائِد، وفَسَاده.

وبَعد، فإنّ مَن تتبّع، وقَرأ سِيرة مُعَاوِيَة[2]، وصَاحبه ابن العَاص[3] يَعجب كَيْفَ

(١) انظر، الفِتْنَة الكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه: ٦١ ـ ٦٢.

(٢) مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَانَ صخر بن حَرب بن أُميّة بن عبد شمس، وأُمّه هند بنت عُتْبَة بن رَبِيعَة. تـزوّجت

⇔

↔ هند أوّلاً الفاكه بن ٱلْمُغِيرَة ٱلْمَخْزُومِيّ فقتل عَنْهَا بالغميصاء ـ كما جاء فِي نسب قُرَيْش: ٣٠٠ ـ موضع قرب مَكَّة، ثمّ تزوّجت حفص بن ٱلْمُغِيرَة فمات عَنْهَا، ثمّ تزوّجت أبا سُفْيَانَ. وكَانَتْ فِي زمن الفاكه متهمة بالزنا كما يذكر صاحب العقد الفريد: ٦/٨٦ ـ ٨٧، والأغاني: ٩/٥٣، وكَانَتْ مِمَّنْ تُذكَر فِي مَكَّة بفجورٍ، وعهرٍ كما ذكر ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد فِي شَرْح ٱلنَّهج: ١/٢٣٦ تحقيق مُحَمَّد أبو ٱلْفَضْل.

دخل أبو سُفْيَانَ فِي ٱلْإِسْلَام، غَيْر أنّ ٱلْمُسْلِمِين لم ينسوا مواقفه مِنْهُم فكانوا لا ينظرون إِلَيْهِ وَلاَ يقاعدونه كما جاء فِي صَحِيح مُسْلِم: ٧/١٧١ وهُو القَائِل: يا بني أُمَيَّة تلقفوها تلقّف الكُرة، فو الّذي يحلف به أبو سُفْيَانَ ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرنّ إِلىٰ صبيانكم وراثةً... ذكر ذَٰلِكَ صاحب مروج الذّهب بهامش ٱبن الأَثِير: ٥/١٦٥ ـ ١٦٦. وأضاف صاحب كتاب الأغاني: ٦/٣٥٥ والإِسْتِيعَاب: ٦٩٠، والنّزاع والتّخاصم للمَقْرِيزِي: ٢٠ ط النّجف، وغَيْرهم قَوْله: فوالله ما من جنّةٍ وَلاَ نارٍ. فصاح به عُثْمَان: «قم عنّي، فعل الله بك وفعل».

ومُعَاوِيَة هَٰذَا أسلم بعد ٱلْفَتْح وَقَالَ فِيهِ رَسُول‌الله ﷺ: لا أشبع الله بطنه. كما ذكره صاحب أنساب الأَشْرَاف: ١/٥٣٢، وصَحِيح مُسْلِم: ٨/٢٧، وشَرْح ٱلنَّهج لِابن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١/٣٦٥ ومُسْنَد الطَّيَالِسِي: ح ٢٧٤٦، وٱبن كثير: ٨/١١٩، وَقَالَ فِيهِ ﷺ: فِي قِصَّة زواج المهاجرة الّتي أستشارت النَّبِيّ ﷺ عندما خطبها: أمّا مُعَاوِيَة فصعلوك. كما جاء فِي صَحِيح مُسْلِم: ٤/١٩٥، مُسْنَد الطَّيَالِسِي: ٢٢٨/١٦٤٥، وسُنَن ٱبن ماجه: ح ١٨٦٩. وَقَالَ فِيهِ ﷺ عندما نظر إِلىٰ أَبِي سُفْيَانَ وهُو راكب، ومُعَاوِيَة وأخوه أحدهما قائد والآخر سائق: أللّهُمّ ٱلعن القائد، والسّائق، والرّاكب. ذكر ذَٰلِكَ الطَّبَرِيّ فِي تَأرِيخه: ١١/٣٥٧، وسبط بن الجوزي فِي التّذكرة: ١١٥، ووَقْعَة صِفِّين: ٢٤٧، والزُّبَيْر بن بكّار فِي المفاخرات برواية ٱبْن أَبِي ٱلْحَدِيد عَنْه فِي شَرْح ٱلنَّهج: ٢/١٠٣.

ولَسْنَا بصدد بَيَان كلّ ما قاله ﷺ فِيهِ وفِي أُسرته كالحكم بن أَبِي العَاص، وعُقْبَة بن أَبِي مُعَيْط وغَيْرهما ونكتفي برواية الطَّبَرِيّ من حوادث سنة (٥١ هـ) والكَامِل لِابن الأَثِير: ٢٠٢ ـ ٢٠٩ وٱبن عساكر: ٢/٣٧٩ والشّيخ محمود أبو ريه: ١٨٤ ـ ١٨٥ ما نقلوه عَن ٱلْحَسَن البصري إنّه كَانَ يقول: أربع خصال كُنّ فِي مُعَاوِيَة ولو لم يَكُنْ فِيهِ منهنّ إلّا وَاحِدَة لكَانَتْ موبقة: ٱنتزاؤه عَلَىٰ هَٰذِه الأُمَّة بالسفهاء حَتَّىٰ ٱبتزّها أمرها بغير مشورة وفيهِمْ بقايا وذوو الفضيلة، وٱستخلافه ٱبْنه بعده سكّيراً، خميراً، يلبس الحرير، ويضرب الطّنابير، وأدعياؤه زياداً وقد قَالَ رَسُول‌الله: الولد للفراش وللعاهر ٱلْحَجَر. وقتله حجراً ↔

يَصنع حبُّ الدُّنْيَا بٱلإِنْسَان... ولَكِنَّهُ يذهل عَن نَفْسِه، وعَن الكَثِير مـن مـعَارفه الّذين يَتنافسُون فِي الدُّنْيَا، ويَتَكالبون عَلَىٰ حطَامها، ويَبيعُون دِينهم لكلّ من يَدفع الثّمن... وهَؤُلَاء موجودُونَ فِي كلّ عَصر، وفِي كلّ فِئَة دُون ٱستثنَاء.

⇐ وأَصْحَابِهِ، ويلٌ له من حجر وأَصْحَابِهِ، ويلٌ له من حجر وأَصْحَابِهِ. ومـن أراد المـزيد فـليراجـع الطَّبَرِيّ: ٤/ ٢٠٢، والنّبلاء: ١/ ٢٣٧، ومُسْنَد أحمد: ٤/ ٤٢١، ووَقْعَة صِفِّين لنصر بن مزاحم: ٢٤٦، والمُعْجَم الكَبِير للطبراني: ١/ ٤٢٧، والعقد الفريد: ٤/ ٣٤٥، والطَّبَرِيّ: ١١/ ٣٥٧، والإِسْتِيعَاب: ٤١٢، وأُسد الغَابَة: ٣/ ١٠٦، وتَهْذِيب أبن عسـاكـر: ٧/ ٢٠٦، والإِصَـابَة: ٢/ ٢٦٠، والطَّـبَقَات الكُـبْرَىٰ: ٤/ ٢٢٢، وصفوة الصّفوة: ١/ ٢٣٨، وسيرة أبن هشام: ٤/ ١٧٩.

(٣) أبو عبدالله أو أبو مُحَمَّد عَمْرُو بن العَاص بن وائل بن هاشم القُرَشيّ السّهمي وأُمّه ٱلنَّابِغَة بنت حـرملة، سبيت من بني جيلان بن عتيك، وبيعت بعكاظ وأشتراها الفاكه بن المُغِيرَة، ثمّ أنـتقلت إلَىٰ عـبدالله بـن جدعان ومِنْهُ إلَىٰ العَاص بن وائل، فولدت له عمراً. أرسلته قُرَيْش إلَىٰ النّجاشي ليغيّر رأيه عَلَىٰ جعفر بن أبي طالب، ومَن معه من المُهَاجِرين إلَىٰ الحبشة، ويسترجعهم إلَىٰ مَكَّة فردّه النّجاشي. أسلم سنة ثمـان، وقبل ٱلْفَتْح بستّة أشهر. وأفتتح مِصْر لعمر، ووليها إلَىٰ السّنة الرّابعة من خلافة عُثْمَان، فعزله عَنْهَا، فأخذ يؤلّب عَلَيْهِ حَتَّىٰ قُتل. ثمّ أشترك مَع مُعَاوِيَة بصِفِّين مطالباً بثأر عُثْمَان، وأشار برفع ٱلْمَصَاحِف للـصلح فأنخدع جيش عليّ وقبلوا الصّلح، وعيّنوا أبا مُوسَىٰ من قِبلهم، وعيّن مُعَاوِيَة عمراً فـغدر بأبي مُـوسَىٰ وخلعا عَلِيّاً ونصب عَمْرُو مُعَاوِيَة وأخذ مِصْر طعمة من مُعَاوِيَة ووليها بعد قتل مُحَمَّد بن أبي بَكْر حَـتَّىٰ توفي سنة (٤٣هـ) أو بعدها، ودُفن هناك.

راجع ترجمته فِي جمهرة أَنْسَاب الْعَرَب لِابْـن حـزم: ١٥٤، وطَـبقَات أبـن سـعد: ٧/ق ٢/ ١٨٨، المعارف لِابْن قُتَيْبَة: ٢٨٥، أُسد الغَابَة: ٤/ ٤٢٠، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٢/ ٢٣٢، البداية والنِّهَايَة: ٤/ ٢٧٥، شَرْح النَّهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ١/ ٢٠ و٨/ ٥٣، مقاتل الطّالبيين: ٤٤، الإِرْشَاد: ١/ ١٨ ـ ٢٢.

الخطبة

-٢٧-

الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ اَلْجَنَّة... فِقْرَة ١ ـ ٣:

(أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ. فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَ هُوَ لِبَاسُ التَّقْوَىٰ، وَ دِرْعُ اللهِ الْحَصِينَةُ، وَ جُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ. فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَ شَمِلَهُ الْبَلَاءُ، وَ دُيِّثَ بِالصَّغَارِ، وَ الْقَمَاءَةِ، وَ ضُرِبَ عَلَىٰ قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ، وَ أُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ، وَ سِيمَ الْخَسْفَ، وَ مُنِعَ النَّصَفَ[1].

أَلَا وَ إِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَىٰ قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلاً، وَ نَهَاراً، وَ سِرّاً، وَ إِعْلَاناً، وَ قُلْتُ لَكُمْ: اُغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا. فَتَوَاكَلْتُمْ، وَ تَخَاذَلْتُمْ حَتَّىٰ شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ، وَ مُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ[2]. وَهَذَا أَخُو غَامِدٍ، وَ قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ، وَ قَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا، وَ لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَ الْأُخْرَىٰ الْمُعَاهِدَةِ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا، وَ قُلُبَهَا، وَ قَلَائِدَهَا، وَ رُعُثَهَا، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالْإِسْتِرْجَاعِ، وَ الاِسْتِرْحَامِ. ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ، وَ لَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ).

اللُّغَة:

الْجُنَّة ـ بِضَم الجِيم ـ ما وَقىٰ، أو سَتر. وَدُيِّثَ ـ بتَشدِيد اليَاء المكسُورَة ـ ذُلل أي صَار سَهلاً، ذَلولاً، ومِنْهُ قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾[1]. والصَّغَار: الضَّيْم. وَالْقَمَاءَة: الحقَارَة، والقَمِيء: الحقِير. والإِسْهَاب: العُمق ورُوي الأَسْدَاد جَمع سُد. والمُرَاد بأُدِيلَ هُنا ٱلْقِصَاص. وَسِيمَ الْخَسْفَ: أُبتلي بالذُّلِّ، وفِي كُتب اللُّغَة: سَامه خَسفاً أي أوْلاَه ذُلاً. وشُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ: صُبَّت عَلَيْكُمْ من كلّ جِهة. وَالأَنْبَار: بَلَد فِي الْعِرَاق. والمَسَالِح: ٱلْحُدُود، والثّغور الَّتي تُحصَّن من الْعَدُوّ بالسّلاَح. والْمُعَاهِدَة: الذِّمِّية. والحِجْل: الخَلخَال. وَالقُلْب ـ بضَم القَاف ـ السّوَار. وَالرُعُث وَالرُعَاث: جَمع رُعْثَة: القُرط. والإِسْتِرْجَاع: قَول إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون وَالاِسْتِرْحَام: طَلب الرَّحْمَة. والكَلْم ـ بفَتح الكَاف، وإسكَان اللاَّم: الجُرح.

الإِعْرَاب:

رَغْبَةً مَفْعُول لأجْله، وجُملة أَلْبَسَهُ خَبَر مَنْ تَرَكَه، وألاَ للتَّنبِيه، وسِرّاً مَفْعُول مُطلق لدَعَوْتُكُمْ لأنّ الدَّعْوَة كَانَتْ بالقَوْل، والسِّرّ مِن صِفاته، وقِيل: هُو مَصْدَر فِي مَوضع الحَال أي مُسراً، ومُعلناً، وقَطُّ ظَرف زَمان لإستغرَاق مَا مَضىٰ، والمَصْدَر مِن: أَنَّ الرَّجُلَ، مَفْعُول بَلَغَنِي، وَافِرِينَ حَال مِن فَاعِل ٱنْصَرَفُوا.

الْمَعْنَىٰ:

كُلّ كَلِمَة من كَلِمَات الإِمَام هِي جُزء من ذَاته، وطَبعَته حَتَّىٰ كأَنَّهَا قَد وِلدت

(١) ٱلإِنْسَان: ١٤.

معَه، أو وِلد مِنْهَا، بخَاصَّة ما قَاله أيَّام خِلاَفَته، ومِحْـنَته بالْكُوفَة، وأَهْـل الْكُـوفَة الّذين خَاطبهم بقَوْله: «لَقَدْ لَقِيتُ مِـنْكُمْ بَـرْحاً»[1]. وفِي خُـطْبَة سَـابقة سَأل الله سُبْحَانَهُ أنْ: «فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدِهُمْ بِي شَرّاً مِـنِّي»[2]، وَقَـالَ فِي هَـذِه ٱلْخُطْبَة: «لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ، وَالْخِذْلاَنِ»[3] أي أنّه تجرع ٱلْهَمّ مَـع كـلّ نَفس من أنفَاسه... تَرىٰ هَل من مَزيد عَلَىٰ هَذِه المِحْـنَة، والمَأْسَاة؟ ... أَبَداً حَـتَّىٰ نَفس وَاحد لا يَصفو له من ٱلْكَدِرِ.

(أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِـيَائِهِ). كَـانَ الْحَاكِم قَبل ٱلإِسْلاَم لا يَخضع لشَرعٍ، وقَانُون، والكلّ خَاضعُون لقَوْله، ورَأيـه، فهُو وَحده المشرّع، والقَاضي، والمُنفذ.... يُعلن الْحَرْب عَلَىٰ مَن شَاء مَتىٰ شَـاء، ويُجند مَن أرَاد بلا رَقيبٍ، وحَسِيب... ولمّا جَاء ٱلإِسْلاَم أخضَع الْحَاكِم، والمحكُوم لنّصوص ٱلْقُرْآن، والسُّنَّة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُـمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[4]. وَقَد أمرتْ هَذِه النّصوص بالْجِهَاد، والدّفاع عَن الْحَـقّ، وأهْـله، ووَعدت الْمُجَاهدِين بالجنَان، والحُور الحِسان، وتوعَدت المُتخَلفِين بِغَضبٍ مِن الله وعذَاب الحَريق، ولَكِنَّهُ ما أشَارت إِلَىٰ كَيْفِيَّة التّجنيد، وَلاَ إِلَىٰ عُقُوبَة من تَخلف عَن الْجِهَاد، ومَا حَددت سن المُجندِين... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا جَاء فِي القَوَانِين الْحَدِيثَة.

---

(١) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: جزء من خطبةٍ له (١٢٥).

(٢) أُنظر، ٱلْخُطْبَة السّابقة (٢٥).

(٣) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٢٧).

(٤) ٱلْمَائِدَة: ٤٥.

أَمَر ٱلإِسْلاَم بالجِهَاد، وتَرك التّنفِيذ إِلَىٰ دِين المُسْلِم، وقنَاعته تَمَاماً كالأَمْر الصَّلاَة، والصَّدَقَة، والتَّعَاون عَلَىٰ الْبِرّ... وآية ذَلِكَ سِيرة الرَّسُول، والإِمَام، وهَذِه ٱلْخُطْبَة وأشبَاهها... يَأمر بالجِهَاد، ويَحث عَلَيْهِ، ويُرغب فِيهِ، ويُحذر من تَركه، ومَا يَتبعه مِن سُوء الْعَاقِبَة... ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1]. ومِن أَقْوَاله: «أَلاَ وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَومِي هَذَا فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَىٰ اللهِ فَلْيَخْرُجْ»[2]. تَمَاماً كالوعَّاظ، والمُرشدِين. وقد تُثِير أَقْوَاله عليه السلام الحماسة فِي بَعْض النّفوس فَتَتطوع للجِهاد، ويؤمّر الإِمَام عَلَيْهَا من يَختار، وفِي أَكْثَر الأحيَان كَانوا يَسمعُون مِنْهُ، ويَنصرفُون عَنْه.

وَتَسْأَل: لقَد نَزَل فِي ٱلْقُرْآن العَدِيد مِن الآيَاتِ فِي الأسْلِحة، وصُورة الجِهَاد كقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[3]. وقَوْله مُخاطباً نَبِيّه ٱلْكَرِيم: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[4] وقَوْله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[5]. وأيضاً أَمر النَّبِيّ صلى الله عليه وآله بمقَاطعة بَعْض المُتخلفِين عَن غَزْوَة تَبُوك: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[6]؟.

---

(١) ٱلْكَهف: ٢٩.

(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٨٢).

(٣) الصَّف: ٤.

(٤) آلِ عِمْرَانَ: ١٢١.

(٥) ٱلأَنفَال: ٦٠.

(٦) ٱلتَّوْبَة: ١١٨.

الجَوَاب:

إنَّ الْإِشَارَة، واللَّمحَة الخَاطِفة كالْأَمْر بتَسوِية الصّفوف، وإعدَاد العِدة شيء، ونظَام التّجنِيد للحَرْب شيء آخر... أمّا السّر فِي أنّ الْإِسْلاَم يَترك أَمر الْجِهَاد لقنَاعة المُجاهد فهُو أنّ من يُجبر عَلَىٰ التّجنِيد لا يُحَارِب بإخلاَص، وقد يَكِيد، ويَبث الْفِتْنَة، والتّفرقة بَيْنَ الصّفوف، أو يتآمر مَع الْعَدُوّ. وأشَار سُبْحَانَهُ إِلَىٰ ذَٰلِكَ فِيما قَاله عَن الْمُنَافِقِين: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

(وَ ضُرِبَ عَلَىٰ قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ). فلا يَنْتَفع بِهِ، تَمَامَاً كالبِئر البَعِيدة القَعر لا يُدرك مَاؤها (وَ أُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ). أي من ضيّع الْجِهَاد، ورَغب عَنْه ٱقتص الْحَقّ مِنْهُ بالإِذلال، ومَرض ٱلْقَلْب (وَ سِيمَ الْخَسْفَ) ٱبتلي بالمَذَّلة، والنّقيصة (وَمُنِعَ النَّصَفَ). فَإِذَا ٱحتَقره مُحتَقر، وٱستهَان بِهِ فَلا أَحد يَنْتَصف لهُ مِنْهُ لأنّه هُو الَّذي أذَلَّ نَفْسه، وٱستهَان بِهَا.

(أَلاَ وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَىٰ قِتَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لَيْلاً، وَنَهَاراً، وَسِرّاً، وَإِعْلاَناً). وما زَادتهم دَعْوَة الْإِمَام ﷺ إلّا فِراراً تَمَامَاً كقُوم نُوحٍ حِينَ قَالَ لَهُمْ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾(٢) (وَ قُلْتُ لَكُمْ: ٱغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ). ٱجْمَعوا أمرَكم، وٱستَعدوا لِحَرْب أَعْدَاء الله، وأعدَائكم قَبل أنْ يَشنوا عَلَيْكُمْ الغَارَات، وَيَسُوموكم مِن الذُّلِّ، والخَسف ما شَاءوا.

(فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلاَّ ذَلُّوا). وأية كَرَامة لدَولة تَعجز عَن

(١) ٱلتَّوْبَة: ٤٧.

(٢) نُوحٍ: ٢ ـ ٣.

حمَاية نَفْسها، وأرْضها، ورعَاياها؟ وهَل تُسمىٰ دَولة بالْمَعْنَىٰ الصّحِيح لهَذه الكَلِمَة؟ وهَل للمواطن فِيهَا وزن، وكرَامة عند نَفْسه، وعِند النَّاس؟ وقَد لَقي جنُوب لُبنَان مِن الإرْهَاب الصّهيوني الأسوَد مِن أيَّامنا مَا لا مَثِيل له، ومَع هَذا يُقَال: إنَّ للجنُوب دَولة لُبنَان، وإنَّ لهُ مِنْهُ نوَاباً، ووَزِيراً أيضاً، ومجلِساً يُدْعىٰ مجلس الجنُوب، وآخر يُسمونه المجلس المِلي الشّيعي... فيَا للذُّل، والخسف، والبَلاء، والصَّغَار... ما بَالهم لا يُحركون سَاكِناً، وَلاَ يُطلقون صَيحة... حَتَّىٰ وَلاَ يَغضبُون... بل يَتجَاهلون الأَمْر كَأنْ لَم يَكُنْ شيء.

(فَتَوَاكَلْتُمْ، وَتَخَاذَلْتُمْ) ولاَ تَطمعُون فِي شيء إلّا أنْ تَأكلوا لتَعيشوا. (حَتَّىٰ شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ). ذكرنا طَرفاً من هَذِه الغَارَات فِي كتَاب «الشِّيعة والحَاكِمُون».. (وَهَذَا أَخُو غَامِدٍ، وَقَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ... إلخ) هُو سُفْيَانَ بن عُوف مِن بَني غَامِد، وهم قَبِيلة فِي الْيَمن، دعَاه مُعَاوِيَة وجَهزه بجَيش كَثِيف، وَقَالَ: ٱمضِ حَتَّىٰ تَغير عَلَىٰ الأَنْبَار والمَدَائِن، وٱقتل من لَقِيت مِمَّنْ لَيْسَ عَلَىٰ مِثل رَأيك، وأخرِب كلّ ما تَمر بِهِ مِن القُرىٰ، وٱنهب الأَمْوَال وهُو أوجَع لِلقَلب... وٱمتَثلَ سُفْيَانَ، وقَتل، ونَهب، ودَمر، ومَلأ ٱلْقُلُوب رُعباً... ولمّا عَاد إلَىٰ مُعَاوِيَة قَالَ له: «كُنتَ عِند ظَنّي بِك»[1].

مُعَاوِيَة، خَالُ ٱلْمُؤْمِنِين[2]، يَأمر بالغَارات عَلَيْهِمْ قَتلاً، وسَلباً، وتَخرِيباً،

(١) أنظر، الغارات: ٢٥/١ و٣٤٩ و: ٣٩٥/٢، أمالي الشّيخ المفيد: ١٤٦، شَرح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أبي الحَدِيد، تحقيق مُحَمّد أبو الفَضْل: ٥٨/٢ و ٨٧.

(٢) لأنّه أخو أُمّ حبيبة زوجته ﷺ، الّتي هِي إحدىٰ أُمّهات ٱلْمُؤْمِنِين. وحَبِيبَة: هِي رملة أو هند بنت أبي

↔

وترَوِيعاً فيُسمع لهُ، ويُطاع، وعَليّ عليه السلام يَأمر بـالدّفاع عَـن النّـفس، والرّدع عَـن ٱلْفَسَاد، فيُعصىٰ، وَلاَ يُسمع مِنْهُ... ثُمَّ يَأْتِي مُتخصص بفَلْسَفَة الجَرِيمَة، وتَبرِيرها، ويُـقرر أنّ مُـعَاوِيَة كَـانَ عَـالماً فاْجْـتَهد، وتَأول فَـهُوَ مَـعذُور، ومَأجُـور أيضاً!... وهكَذا يُعاني الحَقّ، ويَتألم عَلَىٰ أَيْدِي أنصَار ٱلْبَاطِل مُنذ القدِيم إلَىٰ يَومنا هَذَا.

↩ سُفْيَانَ بن حَرْب الأُموية، وأُمّها: صَفِيّة بنت أَبِي العَاص بن أُمَيَّة، وكَـانَتْ تحت عُـبَيْدالله بـن جـحش الأسدي، فتنصّر، وهلك بأرض الحبشة، وَهِي الّتِي شوت كبشاً، وبعثت به إلىٰ عَائِشَة تشفّياً بقتل مُحَمّد بطلب دم عُثْمَان، فقالت عَائِشَة: قاتل الله ٱبنة العاهرة، والله لا أكلت شواءً أبداً. أُنظر، تـذكرة خـواص الأُمَّة: ١١٤ طَبْعَة النّجف، التّمهيد والبَيَان: ٢٠٩، الأغاني: ٢١ / ٩، الإشـتقاق: ٣٧١، تَأرِيخ الطَّـبَرِيّ: ٤ / ٥٠، والإِصَابَة (قسم ٱلنّساء)، الرّوض الأنف: ٢ / ٢٦٨، وَقْعَة صِفّين: ٥٤١، شَرْح النّهج لابْـن أبِي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٢٥٢، الإِصَابَة حرف الميم: ٣ ق ٢ / ٤٥١ طَبْعَة أخرىٰ، الاْسْتِيعَاب: ٣ / ٣٢٨، الْفُتُوح لِابْن أَعْثَمْ: ١ / ٤٧٢ وما بعدها، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة لِابْن قُتَيْبَة: ١ / ٥٥، وما بعدها، تَهْذِيب الكَمَال: ٢٤ / ٥٤١ رَقم ٥٠٩٧، شَرْح النّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٣ / ١٩٠، والإِصَابَة: ٤ / ٢٩٨ طَبْعَة أُخرىٰ، المعارف: ١٣٦.

وَهَذَا اللّقب خال ٱلْمُؤْمِنِين لَيْس بصحيح، وذٰلِكَ لأنّه لم يرد فِي سُنة صحيحة، أو أثـر، وَإِذَا سـلمنا فكَيْفَ لا يَكُون مُحَمَّد بن أبِي بَكْر الّذي كَانَ أخاً لعَائِشَة، والّتِي هِي عندهم أعظم زوجات النّبِيّ صلى الله عليه وآله، بل هِي أفضل عندهم من أُمّ حبيبة بكثير، بل لا مقايسة بَيْنَهما، فَلِمَاذَا لا يسمىٰ بخال ٱلْمُؤْمِنِين؟ وكَـيْفَ لم يسموا عبدالله بن عُمَرَ بخال ٱلْمُؤْمِنِين، وقد كَانَ هُو أخاً لحفصة بنت عُمَرَ بن الخَطّاب، ولم نسمع من سماه بخال ٱلْمُؤْمِنِين؟

وَعَلَىٰ هَذَا يَكُون أيضاً حيي بن أخطب اليهودي جدّ ٱلْمُؤْمِنِين لأنّه والد السّيّدة صَفِيّة ـ زوج رَسُول الله صلى الله عليه وآله ـ بنت حيي بن أخطب النّضيريّ بن شعية بن ثعلبة بن عُبَيْد بن كعب بن الخَزْرَج بن أبِي حبيب بن النّضير بن النّحام بن ينحوم، من سبط هارون. وهِي القائلة له صلى الله عليه وآله فِي مَرَضه الّذي توفي فِيه: إِنّي والله يا نبِيّ الله لوددت أنّ الّذي بك بِي! فغمزن أزواجه ببصرهنّ، فَقَالَ: مَضمِضْنَ، فقلن: من أيّ شيءٍ؟ فَقَالَ: من تغامزكنّ بها، والله إنّهَا لصادقة. وتوفيت سَنَة ست وثلاثين. (أُسد الغَابَة: ٧ / ١٦٩، المعارف: ١٣٨، الطَّبَقَات: ٨ / ٨٦) وهُو لَيْس كَذٰلِكَ؟

يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ...فِقْرَة ٤ ـ ٦:

(فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً، فَيَا عَجَباً! عَجَباً ـ وَ اللهِ ـ يُمِيتُ الْقَلْبَ، وَ يَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِمَاعِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، وَ تَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَ تَرَحاً، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَىٰ: يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَ لاَ تُغِيرُونَ، وَ تُغْزَوْنَ وَ لاَ تَغْزُونَ، وَ يُعْصَىٰ اللهُ وَ تَرْضَوْنَ[٤]! فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ، قُلْتُمْ: هَذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ، أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ، وَ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ: هَذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ، كُلُّ هَذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَ الْقُرِّ، فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَ الْقُرِّ تَفِرُّونَ، فَأَنْتُمْ وَ اللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ[٥]!

يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ، وَ لاَ رِجَالَ! حُلُومُ الأَطْفَالِ، وَ عُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ، وَ لَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً ـ وَ اللهِ ـ جَرَّتْ نَدَماً، وَ أَعْقَبَتْ سَدَماً. قَاتَلَكُمُ اللهُ! لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَ شَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَ جَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً، وَ أَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ، وَ الْخِذْلاَنِ، حَتَّىٰ لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ، وَ لَكِنْ لاَ عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ.

للهِ أَبُوهُمْ! وَ هَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً، وَ أَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا، وَ مَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، وَ هَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَىٰ السِّتِّينَ! وَ لَكِنْ لاَ رَأْيَ لِمَنْ لاَ يُطَاعُ[٦]!).

اللُّغَة:

التَّرَح: ضِدّ الفَرَح. والغَرَض: الهَدف الَّذي يُرمىٰ إِلَيْهِ بِنَبلٍ، أو نحوه. وَحَمَارَّةُ

الْقَيْظِ بِتَشدِيد الرّاء : شِدَّة الحَرّ . ويُسَبَّخْ بِتَشدِيد البَاء مَع ٱلْفَتْح : يُخفف . وصَبارَّةُ الْقُرِّ بِتَشدِيد الرّاء : شِدَّة الْبَرْدُ ، والْقُرِّ بِضَم القَاف : الْبَرْدُ . والسَّدَم : ٱلْهَمَّ ، والْغَيْظ . والنُّغَب بِضَم النّون جَمع نُغْبَة : أي الجُرعَة . والتَّهْمَام : ٱلْهَمَّ كَمَا فِي ٱبن أبِي ٱلْحَدِيد[1] . والمِرَاس المُمارسة . وذَرَّفْتُ : زِدْتُ .

الإِعْرَاب:

الْمَصْدَر من أَنَّ ٱمْرَأً فَاعِل لِفعل مَحْذُوف أي لَو ثَبت كُون ٱمْرَأً . . إلخ ، وأَسَفاً صِفَة لمَفْعُول مُطلق مَحْذُوف أي مَوتاً أَسفاً ، أو هُو مَصْدَر فِي مَوضع الحَال أي مُتأسفاً . وعَجَباً الأَوَّل مُنادىٰ أي ٱحضر أَيّها العَجب فهَذَا أوانك ، ونَصبه لأَنّه لا يَقصد عَجَباً مُعَيناً ، والعَجَب الثَّانِي مَنْصُوب عَلَىٰ الْمَصْدَرِيَة ، ومِثله قُبْحاً وَتَرَحاً . وفِرَاراً مَفْعُول من أجْله لِفعل مَحْذُوف ، أي كلّ هَذَا فَعْلتمُوه للفِرَار مِنَ الْحَرِّ وَ الْقُرِّ ، ويَجُوز نَصبه عَلَىٰ الْمَصْدَرِيَة . وَ لاَ رِجَالَ «لاَ» نَافِية للجِنس ، ورِجَال ٱسمها ، والْخَبَر مَحْذُوف أي فِي الوَاقع . وحُلُومُ الأَطْفَالِ خَبَر لمبتَدأ مَحْذُوف أي حُلُومكم ، ومِثله وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ . والْمَصْدَر مِن أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ مَفْعُول وَدِدْتُ ، وقَيْحاً تَمْيِيز ، ومِثله غَيْظاً ، وأَنْفَاساً ، ومِرَاساً ، ومَقَاماً ، وَهَا أَنَا للتَّنبِيه وأَنَا ذَا مُبْتَدَأ ، وخَبَر .

الْمَعْنَىٰ:

(فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَاكَانَ بِهِ مَلُوماً) . أراد الإِمَام عليه السلام بقَوْله

(١) أنظر ، شَرْح النَّهج : ٢ / ٨٠ ، تحقيق مُحَمَّد أبو الفَضْل .

هَذَا أَنْ يَسْتَصرِخ ضمَائِرهم، ويُثِير حَمِيتهم عَسىٰ أَنْ يَنفروا لحَرْب الطُّغاة، والمُعتَدِين، ولَكِنَّهُمْ سَمعوا، وانصَرفوا. (فَيَا عَجَباً! عَجَباً ـ وَ اللهِ ـ يُمِيتُ الْقَلْبَ، وَ يَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِمَاعِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، وَ تَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ!)[1].

(فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً) ولكلّ من لاَ تَهزه نَكبة المَنْكُوبِيْن، وألم البَائِسِين. (فَإِذَا أَمَرْتُكُم بِالسَّيْرِ ـ إِلَىٰ قَوْله ـ فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَ الْقُرِّ). هَذَا مَظهر من مظَاهر التّناقض، واللاَّمنطق، ولكنْ أي فَرق بَيْنَ هَؤُلاَء والّذين وَبَّخهم الإِمَامﷺ بِهَذَا التّوبيخ، وبَيْنَ مَن يَعِيب أَخَاه، ويَذمه بِعَمل قد رَكَب مِثله، أو يَقول بحَرَارة: لو كُنت رَئِيساً مِثل زَيد، أو غَنِياً مِثل بَكْر لصَنَعت، وفَعَلت... حَتَّىٰ إِذَا ما أسعَفته الظّرُوف تَنكر لنَفْسِه وانْفَصم عَنْهَا؟ وإِذَنْ لَيْسَ لوَاحد منَّا أَنْ يَتعجب، ويَسْتَغرب هَذَا المَنطق المُتَنَاقض عِند أَهْل الْكُوفَة، وغَيْرهم إلاّ إِذَا انْسَجم مَع نَفْسه، وعَقِيدته فِي جَمِيع أَقْوَاله، وأَفْعَاله.

وَإِذَا قَالَ قَائِل: لَيْسَ كلّ النَّاس عَلِيّاً بن أَبِي طَالب... قُلْنا: أَجَل، ولكنْ الصِّدْق، والانْسجَام مَع النّفس لا يَحتَاج إِلَىٰ عِصْمَة عليّ، وشَخْصِيته، بل إِلَىٰ شيء مِن الإِيمَان، والْيَقِين.

(يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ، وَ لاَ رِجَالَ). وكلّ جَبَان مُخَنث لا يَثأر لكرَامته، ويَنَام عَلَىٰ الهوَان فَهُوَ رَجل مِن الشّكل لا فِي الْقَلْب، والْعَقْل. ومِن أَقْوَال الإِمَام: «يَنَامُ الرَّجُلُ عَلَىٰ الثُّكْلِ، وَلاَ يَنَامُ عَلَىٰ الحَرَبِ ـ بِفَتح الرّاء ـ»[2] أي يَصْبر عَلَىٰ مَوْت وَلده، وَلاَ يَصْبر عَلَىٰ إِهَانته، وَمَس كرَامته (حُلُومُ الأَطْفَالِ). أي هُم فِي عُقُولِهِمْ

(١) تَقدّم مثله فِي ٱلْخُطْبَة ٢٣. (مِنْهُ ﷺ).
(٢) أنظر، خطب نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٧٣/٤، ٱلحِكْمَة (٣٠٧).

كَالطِّفل الَّذي خُيّل إِلَيْهِ أنّه شَاب قد ٱحتَلم، وأدرَك البُلُوغ، أو أنّهم مِثل الطّفل فِي أحلاَمه، وأمَانِيه الْكَاذِبة... عَلَىٰ أنّ مِن أحلاَم الأَطْفَال ما هُو مُمتع، ونَبِيل، ووَاقع أيضاً، وَلاَ شيء فِي أحلاَم مَن وصَفه الإِمَام إلّا الْفقْر، وَالفَاقة (وَ عُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ) فِي الْحَرْب، والإستعدَاد لها.

(لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ، وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ) لأنّه عليه السلام لم يَبلغ بِهِمْ أيّة غَايَة لله فِيهَا رِضىً، وللنَّاس فِيهَا صَلاح (لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَ شَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَ جَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً). هَل هَذِه شَكوىٰ إِلَىٰ الله، أم نَفْثَة مَصدُور؟ وهَل لِهَذَا الأَلَم من مَثِيل؟. أَبَداً... حَتَّىٰ نَفس وَاحد لا يَصفو مِن ٱلْكَدرِ... وَلاَ عَجب.. أَنَّهَا حَيَاة الْمُخلصِين مَع الخَونة، والصَّادِقِين مَع أَهْل الْغَدْر، والنِّفَاق. ومِن أَقْوَاله عليه السلام: «إِنْ كَانَتْ الرَّعَايَا قَبْلِي لَتَشْكُو حَيْفَ رُعَاتِهَا، وإِنِّنِي الْيَوْمَ لأَشْكُو حَيْفَ رَعِيَّتِي، كَأَنَّنِي الْمَقُودُ وَهُمُ الْقَادَةُ، أَو ٱلْمَوْزُعُ وَهُمُ ٱلْوَزَعَةُ»[1]!

وَالسّر أنّ الإِمَام يَتطلع إِلَىٰ إحقاق الْحَقّ، فَهُوَ وَحده المَثل الأعلَىٰ، والنَّاس تقُودهم الرّغْبَة، والرَّهْبَة... ورُبَّمَا يُتْسَاءل: هَل تَصلح هَذِه وَالسِّيَّاسَة مَع النَّاس، أو أنّ صَاحبها يَعِيش غَرِيباً أَينَمَا كَانَ فِي شَرق ٱلأَرْض، أو فِي غَرْبِهَا؟. وَيُجِيب الْإِمَام عليه السلام عَن هَذَا التّساؤل بقَوْله: «لاَ يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَلاَ تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً»[2]. وَسَنعُود إِلَىٰ هَذَا المَوْضُوع إنْ شَاء الله تَعَالَىٰ.

(حَتَّىٰ لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ، وَ لَكِنْ لاَ عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ). مُعَاوِيَة لهُ عِلم بالحَرْب بِزَعم قُرَيْش، ولمَاذَا؟ لأنّه أعْطَىٰ مِصْر طعْمَة

---

(١) أنظر. خطب نَهج ٱلبَلاَغَة: ٤/٦٢. الْحِكْمَة (٢٦١).

(٢) أنظر. خطب الإِمَام عليّ: ٣/٦٢. كتاب (٣٦)، من كتاب له إِلَىٰ أخيه عَقِيل.

لِابْن العَاص، وألَّف جَيشاً من المُرتَزقة يُحسنون النّهب، والسَّلب، والتّرهِيب، والتّرغِيب، والحَرْب، والْقَتْل، والْغَدْر، والإغْتيَال، ويَتعطشُون لدِّمَاء الشّيوخ، وٱلنِّسَاء، والأَطْفَال، وبتَعبِير الْعَقَّاد: «جَلادُونَ، وَكِلاَب طرَاد» يَثبُون، وَينهشُون... أَمَّا عَليّ فَلا عِلم له بالحَرْب كمَا يزعمُون، لأنّه يَكرهها، وَلاَ يَخُوضها إلّا دِفَاعاً عَن الحَقّ، والعَدْل، وحِرصاً عَلَىٰ النّظام، والأَمْن، وَلاَ يَجعلها وسِيلة لَتمجِيده، وشُهرته، وَلاَ أدَاة لمَنْفَعته، وسِيطرته... وإذَنْ أين عِلمه بالحَرْب، وفَهمه؟.

(لَقَدْ نَهَضْتُ فِيْهَا، وَ مَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، وَ هَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَىٰ السِّتِّينَ!).

العِلم حفظ التَّجَارِب، والمُمارسة، وَعَليّ عليه السلام مَارس الحَرْب، وخَاضها مَرّات مُنذ الصّغر حَتَّىٰ الكِبر، فَهُوَ أعلم النَّاس بِها، وبمَوَاقعها، ومتىٰ يَجب أنْ تُعلن؟ وَعَلَىٰ مَن؟ (وَ لَكِنْ لاَ عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ). رَفع مُعَاوِيَة ٱلْمَصَاحِف، فَقَالَ الإمَام: لا تُصدّقوا... أَنَّهَا مَكِيدة... فأبُوا عَن الْقِتَال، ثُمَّ ٱختَاروا للتَّحكِيم أبا مُوسَىٰ الأشْعَرِيّ[1]، فَقَالَ الإمَام: لاَ، ولكنْ ٱبن عَبَّاس، فأبوا عَلَيْهِ إلّا الأشْعَرِيّ[2]،

---

(١) هُو عبدالله بن قَيْس بن سُليم بن حضار بن حَرْب بن عامر بن بَكْر بن عامر بن وائل بن ناجية بن الجُماهر بن الأشعر. قدم مَكَّة، وحالف سعيد بن العَاص بن أُميَّة ثمّ أسلم بمَكَّة وَلَّاهُ عُمَرَ الْبَصْرَة بعد أنْ عزل الْمُغِيرَة عَنْهَا، ثمّ وَلَّاهُ عُثْمَان الْكُوفَة حَتَّىٰ عزله عليّ بن أبي طالب، ثمّ عَيّنه للتحكيم بطلب أَهْل الْعِرَاق، توفي سَنَة (٤٢ أو ٤٤ أو ٥٠ أو ٥٢ هـ) فِي مَكَّة بعد أنْ غدر ومكر به ٱبن العَاص. (أنظر الإسْتِيعَاب: ٤/ ١٧٢، الإصَابَة، والجمهرة لِابْن حزم: ٣٩٧. ٱسمه سليم بن هصا (حصار). وَقْعَة صِفِّين: ٤٩٩ بإضافة: فبعث عليٌّ قرّاء من أَهْل الْعِرَاق، وبعث مُعَاوِيَة قُرّاء من أَهْل الشّام، فٱجتمعوا بَيْنَ الصِفّين ومعهم المصحف فنظروا فِيهِ وتدارسوه... فَقَالَ أَهْل الشّام: فإنّا قد رضينا وٱخترنا عَمْرو بن العَاص. وَقَالَ

⇔

↔ الأشعث والقرّاء الّذين صاروا خوارج فيما بعد: فإنا قد رضينا واخترنا أبا مُوسَىٰ الأشعَرِيّ... وقَريب من هَذَا فِي شَرْح النّهج لِابْن أبي الْحَدِيد: ٢ / ٢٢٨، وتَأريخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ٣٦،٤،٩٤ / ٤ ط أُخرىٰ، والكَامِل فِي التّأريخ: ٢ / ٣٩٤.

(٢) أُنظر المحاورة الّتي دارت بَيْنَ الإمَام عليّ عليه السلام وبَيْنَ أهْل العِرَاق.

فَقَالَ لَهُمْ عليّ عليه السلام، قد عصيتموني فِي أوّل الأمْر، وَلاَ تعصوني الآن لا أرىٰ أنْ تولّوا أبا مُوسَىٰ الحُكُومَة فإنّه يضعف عَن عَمْرُو، ومكايده. فَقَالَ الأشعَث، وزَيد بن حصين الطّائي، ومسعر بن فَدَكي: لا نرضىٰ إلّا به فإنّه قد حذّرنا ممّا وقعنا فِيهِ فلم نسمع مِنْهُ.

أُنظر، وَقْعَة صِفّين: ٤٩٩، الإِصَابَة لِابْن حجر رَقم ٢٨٨٧ وقد سَبَقَتْ خُطْبَة له فِي وَقْعَة صِفّين: ٩٩ و ١٠٠، الْفُتُوح لِابْن أعْثَمْ: ٢ / ١٩٣، وأنْسَاب الْعَرَب: ٣٧٨، والطَّبَرِيّ: ٦ / ٢٨، و: ٤ / ٣٦ ط أُخرىٰ.

فَقَالَ عليّ عليه السلام: إنّ أبا مُوسَىٰ لا يكمل فِي هَذَا الأمْر، ولكن هَذَا ابن عَبّاس دعوني نوليه فإنّه أدرىٰ مِنْهُ بِهَذِه الأُمُور.

أُنظر، المَصْدَر السّابق ولكن بإضافة: قَالَ عليّ: فإنّه لَيْسَ لِي برضاً، وقد فارقني وخذّل النّاس عنّي ثمّ هرب حَتَّىٰ أمّنته بعد أشهر... وقَريب من هَذَا فِي الْفُتُوح لِابْن أعْثَمْ: ٢ / ١٩٣، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ٣٦، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢ / ١٦ وما بعدها.

فقَالُوا: والله لا نبالي أنْتَ كنت أم ابن عَبّاس لا نريد إلّا رجلاً هُو منك ومن مُعَاوِيَة سواء، فَقَالَ: فدعوني أجعل الأشتَر، قَالُوا: وهل سعّر الأرْض ناراً إلّا الأشتَر؟!

المَصْدَر السّابق: ٤٩٩ ولكن فِيهِ: قَالَ الأشعَث: وهل سَعّر الأرْض علينا غَيْر الأشتَر؟ وهل نحنُ إلّا فِي حكم الأشتَر؟ قَالَ له عليّ: وما حكمه؟ قَالَ: حكمه أنْ يضرب بعضُنا بعضاً بالسُّيُوف حَتَّىٰ يكونَ ما أردتَ وما أراد... وقَريب مِنْهُ فِي الْفُتُوح لِابْن أعْثَمْ: ٢ / ١٩٤، والأخْبَار الطّوال: ١٩٢، وتَأريخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ٣٧، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢ / ١٧.

فَقَالَ له الأشتَر: أنْتَ إنّما تقول هَذَا القَوْل لأنّ أمِير المُؤْمِنِين عليه السلام عزلك عَن الرّئاسة ولم يرك أهلاً لها...

فَقَالَ عليّ عليه السلام: ويحكم، إنّ مُعَاوِيَة لم يَكُنْ ليختار لِهَذَا الأمْر أحداً هُو أوثق برأيه ونظره إلّا عَمْرُو بن العَاص، وإنّه لا يصلح للقرشي إلّا مثله، وَهَذَا عبدالله بن عَبّاس فارموه به، فإنّ عمراً لا يعقد عقده إلّا حلّها، وَلاَ يبرم أمراً إلّا نقضه، وَلاَ ينقض أمراً إلّا أبرمه.... فَقَالَ الأشعَث ومن معه: لا والله لا يحكم فينا ↔

وغَارت خَيل مُعَاوِيَة عَلَىٰ الأطرَاف، فدعَاهم الإمَام إِلَىٰ الذّب عَن أنْفسهم فَلم يَسمعوا، ثُمّ توغَلت خَيل الْعَدُوّ حَتَّىٰ دَنت من العَاصمة، فصَاح بِهِمْ فسمعُوا، وٱنصرفُوا... وبَعد أنْ دَارت عَلَيْهِمْ الدَّائِرة عُرفوا، وٱعترفُوا بأنّهم لو أطَاعوا الإمَام لكَان لَهُمْ النّصر، والظّفر، ولعَدُوّهم الهزِيمَة، والفَشل... وإذَنْ أين ضَعف الرّأي فِي عَليّ، وٱلجَهْل بالحَرْب؟.. ولكنْ أبَت قُرَيْش إلّا أنْ تَقول هَكذا... وهُو مَنطق كلّ حَاقد، وحَاسد مُنذ البدَاية وإِلَىٰ الأبد... ومن أَقْوَاله عليه السلام مُخَاطباً أَصْحَابِه: «أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَ أَنْتُمْ دَائِي كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ»[1].

⇐ مضريان أَبداً حَتَّىٰ تقوم السّاعة، ولكن يَكُون رجل من مضر، ورجل من الْيَمن، فَقَالَ عليّ عليه السلام إنّي أخاف أنْ يخدع يمانيكم، فإنّ عَمْرُو بن العَاص لَيْسَ من الله فِي شيء. فَقَالَ الأَشْعَث: والله لأنْ يحكما بِبَعْض ما تكره وأحدهما من الْيَمن أحبّ إلينا من أنْ يَكُون ما نحبّ وهما مضريان. فَقَالَ عليّ عليه السلام: وقد أبيتم إلّا أبا مُوسَىٰ؟ قَالُوا: نعم. قَالَ: فاصنعوا ما أردتم، اَللَّهُمَّ إنّي أبرأ إِلَيْك من صنيعهم. قَالَ: وأنشأ خريم بن فاتك فِي ذَلِك شعراً...

أُنظر، الْفُتُوح لِابْن أَعْثَم: ٢ / ١٩٤، الْأَخْبَار الطّوال: ١٩٣، ومروج الذّهب: ٢ / ٣٣، وَقْعَة صِفِّين: ٢٧١ و٥٠٣، سمط النّجوم العوالي: ٢ / ٤٥٩، تَهْذِيب ابْن عساكر: ٥ / ١٣٢، الطَّبَرِيّ: ٦ / ٢٥، و: ٤ / ٣٧ ط أُخرىٰ، وَقْعَة صِفِّين: ٥٠١ باختلاف يسير فِي اللفظ. وروى حديث الأحنف صاحب اللّسَان: ٣ / ٢٣٧، تَأْرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ٣٧.

(١) أُنظر، شَرْح النَّهج: اَلْخُطْبَة (١٢١).

الخطبة
ـ ٢٨ ـ

مَنْ لاٰ يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

(أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا أَدْبَرَتْ، وَ آذَنَتْ بِوَدَاعٍ، وَ إِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَ أَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعٍ، أَلَا وَ إِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ، وَ غَداً السِّبَاقَ، وَ السَّبَقَةُ الْجَنَّةُ، وَ الْغَايَةُ النَّارُ، أَفَلاٰ تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ! أَلاٰ عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ[1]!؟ أَلاٰ وَ إِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ، فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ، وَ لَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ، وَ مَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ، فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ، وَ ضَرَّهُ أَجَلُهُ. أَلاٰ فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ، أَلاٰ وَ إِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا، وَ لاٰ كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، أَلاٰ وَ إِنَّهُ مَنْ لاٰ يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَ مَنْ لاٰ يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَىٰ، يَجُرُّ بِهِ الضَّلاٰلُ إِلَى الرَّدَىٰ. أَلاٰ وَ إِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وَ دُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ، وَ طُولُ الْأَمَلِ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ أَنْفُسَكُمْ بِهِ غَداً[2]).

اللُّغَة:

آذَنَتْ: أَعْلَمت. والمِضْمَار: المَكَان، أو الزَّمَان الَّذي تضمّر فِيهِ الخَيل للمُسَابقة،

والضَّامِر قَلِيل اللّحم. والسَّبقَة بِفَتح القَاف: الْغَايَة المحبُوبة، والْمُرَاد بـالْغَايَة هِـي مَصِير العَاصِين. والظَّعْن: السّير، والرّحِيل. وتحْرُزُون: تَحْفظُون.

الْإِعْرَاب:

الْيَوْمَ اسم إِنَّ، والْمِضْمَار خبَرها. ولَمْ أَرَ كالْجنَّة، رَأَىٰ هُنا قَلْبِية تنصب مَفْعُولِين: الْأَوَّل محْذُوف أي نِعْمَة، والثَّانِي جُملة نَامَ، والكَاف بمَعْنَىٰ مِثل صِفة للـمَفْعُول الْأَوَّل. واثْنَتَانِ اسم إِنَّ، واتِّبَاعُ الْهَوَىٰ، وَطُولُ الْأَمَلِ بَدل مُفصل من مُجمل، وهُو اثْنَتَان.

الْمَعْنَىٰ:

(أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا أَدْبَرَتْ، وَ آذَنَتْ بِوَدَاعٍ). لكلّ فَرد مِن أفرَاد الإِنْسَان دُنيَاه الْخَاصَّة بِهِ، وَهِي عُمره، ومُدَّة حيَاته، ومِن هُنا قِيل: «مَن مَات فَقَد قَامَت قِيَامَته»[1]. وَهَذَا الْعُمُر، وإِنْ طَال فإلىٰ فَنَاءٍ، وزَوال، لأنّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ، وَالنَّهَارَ؛ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ، وَ إِنْ كَانَ وَاقِفاً[2]، كما قَالَ الإِمَام (وَ إِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ) بحسَابها، وجزَائها (وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعٍ) ظَهرت طلائها، أو أَشْرَفَتْ، واطّلَعتْ عَلَىٰ الْأَعْمَال، وأحصَتها (أَلَا وَ إِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ). الْمُرَاد بالْيَوْم هُـنا دُنـيا الإِنْسَـان،

---

(١) أُنظر، شَرْح أُصول الكَافِي: ٤/٢٠٤، حاشية السّندي عَلَىٰ النّسائي: ٨/٢٢٦، عوالي اللئالي: ١/١٤٥، كنز الْعُمَّال: ١٥/٥٤٨ ح ٤٢٤٢٣ و ٤٢٧٤٨، بحار الأَنوار: ٥٨/٧، فيض القَدِير: ٥/٤ ، كَشف الْخَفاء: ١/١٦٦ ح ٥٠٠ و: ٢/٢٧٩ ح ٢٦١٨، تَفْسِير القُرطُبي: ١٩/١٨٨.

(٢) أُنظر، خطب نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٣/٥٠، جزء من وصيتة ﷺ، لِلإِمَامِ الْحَسَن، والْحُسَيْن ﷺ، تحت رَقم (٣١).

بالْمِضْمَار ٱلْعَمَل، والْمَعْنَىٰ مُرادف لمَا قَاله الإِمَامِ عليه السلام فِي بَعْض كَلاَمه: «وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ عَمَلَ»[1] (وَ غَداً السِّبَاقَ) الَّذي يَعْرِف فِيهِ الرّابح مِن الخَاسر.

(وَ السَّبَقَةُ الْجَنَّةُ) فَهِيَ وحدَها الَّتي يَجب التّنافس عَلَيْهَا، والمُسَابَقَة إِلَيْهَا (وَ الْغَايَةُ النَّارُ) أي أَنَّهَا غَايَة العَاصِين، وقد ٱستعمَل الإِمَام كَلِمَة الْغَايَة فِي ٱلْجَنَّة، وفِي ٱلْقِيَامَة كمَا ٱستَعملها فِي ٱلنَّار، من ذَلِكَ قَوْله: «فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ»[2] وقَوْله: «فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ»[3].

(أَفَلاَ تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ!). «التَّائِب مِن الذَّنب كَمَن لاَ ذَنبَ لهُ»[4]، بل هُو مِن المُحسنِين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[5].

وَقَالَ الرَّسُول الأَعْظَم صلى الله عليه وآله: «مَن رَأَىٰ أَنّه مُسيء فَهُوَ مُحسن»[6]. ومَن تَرك ٱلتَّوْبَة فقَد أَسَاء مَرّتين: مَرّة بِفعل الذّنب، وثَانِيَة بِترك ٱلتَّوْبَة، وَهِي من أَهم الوَاجبات تَمَاماً كالصَوْم، والصَّلاة (أَلاَ عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ!)؟ فَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ لا يَضيع أَجْر مَن أَحسَن عَملاً، بل يوفِيهِ حقّه، ويَزيده مِن فَضله، قَالَ

---

(١) أنظر، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٩٣/١، جزء من كَلاَم له تحت رقم (٤٢).

(٢) أنظر، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة: جزء من خُطْبَة له عليه السلام تحت رقم (١٩٠).

(٣) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: جزء من خُطْبَة له عليه السلام رقم (١٥٧).

(٤) أنظر، الكَافِي: ٤٣٥/٢ ح ١٠، مغني المحتاج: ٣٧٢/٣، وَسَائِل الشّيعة: ٣٥٨/١١ ح ٨ و ١٤، الإقناع لمُوسَىٰ الحجاوي: ١٨٥/٢، إعانة الطّالبين: ١٠٧/٤، كَشْف القناع: ١٩٦/٦.

(٥) هُودٍ: ٣.

(٦) أنظر، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لاِبْن أبي ٱلْحَدِيد: ٣١٧/٢٠، ٱلْحِكْمَة (٦٤١). وقد نسبها إلى الإِمَام عليّ عليه السلام.

سُبْحَانَهُ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[(١)].

(أَلاَ وَ إِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ). أَيَّام ٱلأَمَل حيَاة ٱلإِنْسَان، والأَجَل ٱلْمَوْت، أَمَّا المَأْمُول فثوَاب الله، وَلاَ طريق إِلَيْهِ إِلاّ ٱلْعَمَل الصّالح (فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ). أَمَّا الأَمْوَال، والأَوْلاَد، والأَنْسَاب فمَا هِي بِشي عِند الله إِلاّ إِذَا كَان لخيرٍ، وٱلْعَمَل الصّالح. وَإِذَا أَدَّت إِلَىٰ ٱلْفَسَاد، والضّلال فَهِيَ وبَال، ونيرَان. (وَ لَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ) لأَنّه يَقدم عَلَىٰ خَالقه رَاضِياً بثوَاب الله مَرضِياً بأَعمَاله الصّالحات.

(وَ مَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ، فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ). لأَنّه أَطَال ٱلأَمَل، وأَسَاء ٱلْعَمَل: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[(٢)]... (وَ ضَرَّهُ أَجَلُهُ) تمَاماً كَالمَدِين لِلغُرمَاء يزنْتَهي أَجْل الدّين، ولاَ شيء عِنده للسَّداد، والْوَفَاء.

(أَلاَ فَٱعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ). إِنَّ كَثِيراً من النَّاس يَذهلُون عَن الْخَالِق، ويَتجَاهلُون فَضله عَلَيْهِمْ، وَلاَ يَذكرُونه إِلاّ سَاعة الشِّدَّة، والبَلاَء، تمَاماً كَالذي يَمسه الضّر فِي البَحر يُؤْمِن، ويَخضع حتَّىٰ إِذَا بَلغ الْبرّ أَعرَض، وَكَفر... وٱلْمُؤْمِن الْحَقّ فِي الحَالين سوَاء.... سَامع طَائع فِي الرّغبة، والرَّهْبَة أي عِند الشِّدَّة، والرّخاء، لأَنّ الله فِي إِيمَانه، وَيَقِينه يَجب أَنْ يُطاع عَلَىٰ كلّ حَال، ودُونَ قَيدٍ، أو شَرط، بل ٱلْخَوْف مِنْهُ تَعَالَىٰ فِي السّراء أَوْلَىٰ، وأَوْجَبَ، لِأَنَّهَا رُبَّمَا تكُون ٱمتحَاناً،

---

(١) ٱلنُّور: ٣٨.

(٢) ٱلنِّسَاء: ١٢٣.

وٱستدرَاجاً: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَايَعْلَمُونَ﴾[1]. ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّايَشْعُرُونَ﴾[2].

(أَلاَ وَ إِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا، وَ لاَ كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا). يَأوي الآمِن إِلَىٰ فرَاشه، ويَنَام ملءَ عَينيه هَاديء النّفس، مرتَاح البَال، لا يُؤرقه شيء كأنّه فِي عُزلة عَن العَالم كلّه، أَمَّا الخَائِف الهَارب فلا يَقر لهُ قرَار، ولاَ يَجد الهدُوء، والرّاحة، لأنّه فِي شَغل شَاغل بِمَا يُخيفه، وَيُهدده.... حَتَّىٰ عَن الأكل، والنَّوْم، وكَذَلِكَ مِن يَطلب العزيز الثّمِين، ويَسعىٰ إِلَيْهِ فإنَّه يُركز عَلَيْهِ همَّه، وٱهتمَامه، وجَميع حوَاسه، وأفْكَاره، ويَنصرف عَن كلّ شيء عدَاه. ومِن البدَاهة أنّه لا نَعِيم أعزّ، وأغْلىٰ مِن نَعِيم ٱلْجَنَّة، وَلاَ عذاب أقسىٰ، وأخْزىٰ مِن عذَاب جهَنّم. وإذَنْ كَيْفَ يَزعم زَاعم أنّه يَخاف مِن نَار جَهَنّم، ويَهرب مِنْهَا، وأنّه يَرغب فِي ٱلْجَنّة، ويَطلبها، ثُم يَغرق فِي سُبات عَميق؟

(أَلاَ وَ إِنَّهُ مَنْ لاَ يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ). قَد يَتحَذلق البَعض، ويَقول: وأيّة جَدوىً مِن الْحَقّ، وٱتبَاعه؟ إنّه لا يَجلب فِي هَذِه ٱلْحيَاة نَفعاً، وَلاَ يَدفع ضُرّاً... ويَقول الْإِمَامعليه السلام فِي جوَابه: إذَا لم يَنْتَفع بِالْحَقّ ـ كَمَا زَعمت ـ فإنّ ٱلْبَاطِل يَجره إلَىٰ الوِيلاَت، لا مَحَالَةَ.. وتَجدر الإِشَارَة إِلَىٰ أنّ هَذَا الجَوَاب مِن الْإِمَام إنّمَا هُو عَلَىٰ سَبِيل المُمَاشاة مَع الخَصم، والتّسلِيم جَدلاً بدعوَاه... وإلاّ فإنّ الحَقّ أحقّ أنْ يُتبع، وٱلْبَاطِل يَجب أنْ يُترك عَلَىٰ كلّ حَال، ومَهما تَكن النّتائج، وفِي الْحَدِيث الشّرِيف عَن الْإِمَام عَليّعليه السلام: «فَإِنَّ رَسُولَ اللهِصلى الله عليه وآله كَانَ يَقُولُ: إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ

(١) ٱلْقَلَمِ: ٤٤.
(٢) ٱلْمُؤْمِنُونَ: ٥٥ ـ ٥٦.

النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ»[١]. وَقَالَ الْإِمَامُ عليه السلام: «إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ»[٢].

(وَ مَنْ لاَ يَسْتَقِيمُ بِهِ ٱلْهُدَىٰ، يَجُرُّ بِهِ الضَّلاَلُ إِلَىٰ الرَّدَىٰ). سَبيلان فقط، ولاَ ثَالث: سَبِيل ٱلْهُدَىٰ، وسَبِيل الضَّلال، ومَن سَلك الأَوَّل فَقَد فَاز، ومَن ٱنحَرف عَنْه فَإلىٰ الهَاوِية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٣]... (أَلاَ وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وَ دُلِلْتُمْ عَلَىٰ الزَّادِ). كُلّكم أيّها النَّاس مَدعُوون إِلَىٰ الله، والوقُوف بَيْنَ يَديه لِلْحِسَابِ، والْجَزَاء، والسّؤال، والجَوَاب، وَلاَ مَهرب إِلّا التّلبِية والإستجَابة، فأعدُوا لهَا ما دَلكم الله عَلَيْهِ، وأمَركم بِهِ مِن صَالح الأَعْمَالِ، وكَرِيم الخِصَال (وَ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَانِ: ٱتِّبَاعُ الْهَوَىٰ، وَ طُولُ الْأَمَلِ). «فَأَمَّا ٱتِّبَاعُ الْهَوَىٰ فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ» كَمَا قَالَ الْإِمَامُ عليه السلام[٤].

لِلمِنْبَرِ ـ بَيْنَ الدُّنْيا والآخِرَة:

(فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ أَنْفُسَكُمْ بِهِ غَداً) يُشِير الإِمَامُ عليه السلام بِهَذَا إِلَىٰ العِلاَقَة الْقَوِيَّة الوثِيقة، والتّرَابط المَتين بَيْنَ السَّعَادَة فِي الآخِرَة، والصّلاح

(١) أنظر، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٢/ ٩٠، جزء من خُطْبَة له عليه السلام (١٧٦).
(٢) أنظر، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٤/ ٩٠، ٱلْحِكْمَة (٣٧٦).
(٣) ٱلنِّسَاء: ١١٥.
(٤) أنظر، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٤٢).

والإصلاح فِي ٱلْحيَاة الدُّنْيا، وبَيْنَ الشّقاء فِي ٱلْحيَاة الثَّانِيَة، وٱلْفَساد، والإفْسَاد فِي حيَاتنا هَذِه.... يَقول ﷺ: خُذوا من هَذِه ٱلْحَيَاة قَبل أنْ يوافِيكم ٱلْمَوْت، وتَزودُوا مِن خَيرها إِلَىٰ الآخِرَة قَبل الرّحيل، وكُم فِيهَا مِن خَيرات... فَمَا مِن شَيء يسهّل العِيش عَلَىٰ ٱلإِنْسَان إلّا هُو خَير عِند الله، ومَا مِن عَمل يُحقق الأَمْن، والدّعة للنَّاس جَمِيعاً إلّا هُو فَضِيلة فِي كتَاب الله، ومَا مِن نَهضة تُحرر ٱلإِنْسَان مِن ٱلْجَهْل، والعبُودِية، والإستغلاَل إلّا هِي حَقّ فِي عِلم الله... وكلّ ما يَسِير بِٱلْحَيَاة إِلَىٰ الأفضَل فِي أيّة جِهة تكون فَهُوَ دِين، وإِيمَان عِند الله.

أرَأَيت إِلَىٰ هَذَا التّرابط العُضْوي بَيْنَ الدُّنْيَا، والآخِرَة، وَهَذَا التّكامل بَيْنَ الشَّجَرَة، والثَّمَرَة؟. وإذَنْ أين مكَان الرّيب فِي الْيَوْم الآخر؟ وما هِي عيُوب الإِيمَان بِهِ، وبالوقُوف بَيْنَ يَدي عَادل قدِير لِنقَاش ٱلْحِسَاب عَلَىٰ مافعل ٱلإِنْسَان، وتَرك؟ أَبالثَّوَاب، والنَّعِيم عَلَىٰ مَا أَحسن، أَم بالعقَاب، والجَحِيم عَلَىٰ ما أَسَاء؟... هَذِه هِي الآخِرَة عِند ٱلإِسْلاَم... لا تَنفك، وَلاَ تَنفَصم عَن عَمل الدُّنْيا بحَال: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1]... ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[2]... أَبداً لا نَظرية مُجردة، وَلاَ عَقِيدة مُستقلة عَن ٱلْعَمَل فِي ٱلإِسْلاَم، كَيْفَ وهُو القَائِل: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[3]. ومِن هُنا كَانَ ٱلإِسْلاَم دِين ٱلْعَمَل حقّاً، ووَاقِعاً، ٱلْعَمَل من أجْل حَيَاة أفضَل فِي شَتَّىٰ المَيَادِين.

(١) ٱلإِسْرَاء: ٧٢.
(٢) آلِ عِمْرَانَ: ١٤٢.
(٣) النجم: ٣٩ ـ ٤٠.

ومن هُنا أيضاً يُبارك ٱلإِسْلاَم الخَـصب، والرّخـاء، ويحـرص عَـلَىٰ الأَمْـن، والْعَدْل، ويَستنكر الْفَقْر، والتّخلف، ويَلعن الإستعبَاد، والإستغلاَل، ويثُور عَـلَىٰ الظّلم، والْعُدْوان... هَذَا هُو ٱلإِسْلاَم وَاضح، وَبسِيط، ومُقنع فِي جَمِيع تَعَالِيمه الَّتي تُمثل الإِحسَاس بمعَانِي ٱلْحيَاة، ومطَالبها، ومَسْئُوليتها... وَلاَ مَشاكل لِلْإِسْلاَم، وَلاَ فِيهِ إِلّا مُشْكِلَة وَاحِدَة تَسربت إِلَيْهِ مِن إسَاءة الفَهم، والتَّفْسِير الخَاطيء الجَائِر، من الّذين يدّعونه، ويُمجدُونه عَلَىٰ أسَاس أنّه عوَاطف، ومجَاهِيل، وشعَائر، وتـقَالِيد وكَفىٰ... ثُمَّ يُتهمُون كلّ مَن يَعرف ٱلإِسْلاَم عَلَىٰ حَقِيقَته، ويَـرمُونه بِمَـا شَـاء لَهُـمْ ٱلْجَهْل، والغَرض، ولو ٱبتَعد الأدعِياء، أو أُبعدوا عَن الدّيـن، ووَظـائفه لدَخـل الشّباب فِي دِين الله أفوَاجاً، ونَبذوا التّيارات الشّائعة الذّائعة فِي هَذَا العَصر.

الخطبة

- ٢٩ -

لا يُدْرَكُ الحَقُّ إلاّ بالْجِدِّ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

(أَيُّهَا النَّاسُ، الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلاَمُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلاَبَ، وَ فِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الأَعْدَاءَ! تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ، كَيْتَ، وَ كَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيدِي حَيَادِ! مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ، وَ لاَ اسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ، أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ، وَ سَأَلْتُمُونِي التَّطْوِيلَ، دِفَاعَ ذِي الدَّيْنِ الْمَطُولِ. لاَ يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ! وَ لاَ يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلاَّ بِالْجِدِّ[1]! أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَ مَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ؟ الْمَغْرُورُ وَ اللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَ مَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ ـ وَ اللهِ ـ بِالسَّهْمِ الأَخْيَبِ، وَ مَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ. أَصْبَحْتُ وَ اللهِ لاَ أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَ لاَ أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَ لاَ أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ. مَا بَالُكُمْ؟ مَا دَوَاؤُكُمْ؟ مَا طِبُّكُمْ؟ الْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ. أَقَوْلاً بِغَيْرِ عِلْمٍ! وَ غَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ! وَ طَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ[2]؟!)

اللُّغَة:

أَهْوَاؤُهُمْ: آرائهم، وميُولهم. والصُّمَّ: جَمع الأَصَم، وهُو الأطرَش، والمُراد بِهِ هنا

ٱلْحَجْر. والصِّلاب: جَمع الصُّلب ـ بضَم الصّاد ـ أي الشَّدِيد. كَيْتَ، وَكَيْتَ: كَـذَا، وَكَذَا كنَاية عَن الْحَدِيث، ولاَ تَستعملان إلّا مُكررَتين، ومِـثلهما ذَيْتَ، وَذَيْتَ[1]. حِيدِي حَيَادِ: تَنحي عنّا أيتها الْحَرْب[2]. قَاسَاكُمْ: أخَـذكم بِـالقَسوة، والشِّـدَّة. وأَعَالِيلُ: جَمع أُعلُولة، وتُشعر بِكَذب التّعلِيل: وأَضَالِيلَ: جَمع أُضلولة. والْمَطُولِ: مُبالغة فِي المَطل أي التّسوِيف بوَعد الْوَفَاء. والأَخْيَبِ: الخَاسر. والأَفْوَقَ: السَّهم الَّذي كُسر طَرفه. والنَاصِل ما لا نَصل فِيهِ، والنَّـصل: حـدِيدة السَّهـم، والرّمح، والسَّيْف.

الإِعْرَاب:

كَيْتَ وَكَيْتَ مَبْنية لِأَنَّهَا حَالة مَحل الجُملة، وَلاَ مَحل لهَا مِن الْإِعْرَاب لشَبهها بِٱسم الفِعْل، ومِثلها حِيدِي حَيَادِ، وقِيل: هِي ٱسم فِعل عَلَىٰ سَبِيل الإِحْتَمَال. أَعَالِيلُ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي أقوالكم أَعَالِيلُ، وبِأَضَالِيلَ مُتَعَلِّق بأَعَالِيلُ. ودِفَـاعَ مَـنْصُوب بِنَزع الخَافض أي كدِفَاع. وَمَا بَالُكُمْ؟ مُبْتَدأ، وخَبَر، ومِثله ما بَعده. أَقَوْلاً نُصب عَلَىٰ المَصْدَرِيَة، ومِثله ما بَعده.

الْمَعْنَىٰ:

(كَلاَمُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلاَبَ، وَ فِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الْأَعْدَاءَ!)... شـجَاعة، وبطُولة فِي المظَاهر، والأقوَال، وضَعف، وخَوَر فِي ٱلْقُلُوب، والأفعَال. (تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ، كَيْتَ، وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيدِي حَيَادِ!). هَذَا بَيَان، وتَفْسِير

(١) أنظر، مختار الصّحاح: ٩٤/١. الفائق: ٢٩١/٣.

(٢) عَلَىٰ وزن: قَطَام كما فِي لِسَان الْعَرَب: ١٥٩/٢، النِّهَايَة فِي غريب الْحَدِيث: ٤٤٦/١.

لما قَبله، وتُوكيد ما هُم عَلَيْهِ مِن مُخالفة القَوْل للفِعل، وأَكْثَر النَّاس يَقُولُون مَا لا يَفعلُون إلّا مَع ٱلْخَوْف، والرَّهْبَة (مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ). لأنّكم لا تُجِيبون دَاعياً، وَلاَ تُسعفُون شَاكِياً.

(وَ لاَ اسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ). كأنّ الإِمَامﷺ يُجِيب بِهَذَا سَائلاً يقول: لِمَاذَا يَترك الإِمَام أمر الْجِهَاد، والْحَرْب لَهُمْ، ولقنَاعتهم، وَلاَ يُجندهم بالقَهر، والْقُوَّة بَدل أَنْ يَقف فِيهِمْ مُنْذِراً، ومُوبخاً مِن غَيْر جَدوىٰ تَمَاماً كوعَاظ المسَاجد؟ أَلَيست السّلطة فِي يَده، والأَمْر لهُ وَحده؟.

فأجَابﷺ بأنّه لو قَسا عَلَيْهِمْ، وأخَذهم بالشِّدَّة مِن أجل الْجِهَاد لَشقوا عصَا الطَّاعَة، وكَانوا عوناً للعَدُوّ عَلَيْهِ... وأشرنا فِي بَعْض مَا سَبق إِلَىٰ أنّ طَرِيقة ٱلإِسْلاَم فِي الْجِهَاد أَنْ يحث عَلَيْهِ، ويُبين منَافعه، وحَسَنَاته، ثُمَّ يَترك الأَمْر لقنَاعة ٱلإِنْسَان، لأنّه لو أرْغَمه عَلَيْهِ لرُبَّمَا أضمَر السُّوء، وسَعىٰ فِي الْفِتْنَة، وتفريق الصّفوف، وقَد يُؤدي به إِلَىٰ التّآمر مَع الْعَدُوّ.

(أَعَالِيلُ). يُبررُون قعُودهم عَن الْجِهَاد بِعلل علَيْلَة وَاهِية، كلّها نفَاق، وتضَليل (وَ سَأَلْتُمُونِي التَّطْوِيلَ، دِفَاعَ ذِي الدَّيْنِ الْمَطُولِ). رَغَبوا إِلَىٰ الإِمَام فِي تأخِير الْحَرْب والْجِهَاد، وَلاَ مُبرر إلّا التّسوِيف، والمُماطلة تَمَاماً كالمدِين الوَاجد يُدافع غرِيمه، ويُماطله بلا عُذر... والْعَدُوّ قد جَاس خِلال الدَّار، وأَكْثَر من الْقَتْلِ، والدَّمار، والتّأخِير فِي حَرْبه يُمكنه مِن بُلوغ أهدَافه، وأَهْوَائِه.

(لاَ يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ!) بَعد أَنْ هَانت عَلَيْهِ نَفْسه، وآثر ٱلْحَيَاة مَع الذُّلِّ، والهوَان عَلَىٰ ٱلْمَوْت مَع ٱلْعِزَّة، والْكَرَامَة (وَ لاَ يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلاَّ بِالْجِدِّ) تَمَاماً كالعِلم، هَذَا بالسَّهر، والمُضي فِي الْبَحْث، والتّنقِيب، والدّرس، والسّؤال مَع الصّبر عَلَىٰ الْفَقْر، والفَاقة، وذَاكَ بالدِّفاع بِاللِّسَانِ، وٱلْقَلَم، وبالإضرَاب، والمُظاهرة،

وبالثّورة، والتّضحية بالنَّفس، وٱلْمَال، والأَهْل إنْ ٱقتَضت الحَال.

(أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ)؟. أتاهُم الإِمَام عَن طَرِيق إحسَاسهم، وشعُورهم لأنّ وَطن ٱلإِنْسَان نَفْسه، وكرَامته، ومَن ٱستهَان بـوَطنه فَقد ٱستهَان بـنَفْسِهِ، وكرَامته، بل وبدِينه، وعَقِيدته، لأنّ «حُبّ الوطَن مِن الإِيمَان»[1] (وَ مَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ)؟... أَبَداً، وَلاَ إِمَام، لأنّهـم لا يُـرِيدون الـقِتَال مـن الأَسَـاس، ويُؤْثرون الرّاحة، والكَسل عَلَىٰ الجِهَاد، وٱلْعَمَل.

(الْمَغْرُورُ وَ اللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ) لأنّكـم كـالسّراب تُـقرِّبون البَـعِيد، وتُـبعدُون القَرِيب، ومن هُنا وصَفهم الإِمَام فِي غَيْر مكَان بالْكَذِب، والنِّفَاق (وَ مَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ ـ وَ اللهِ ـ بِالسَّهْمِ الأَخْيَبِ). لأنّكم لاَ تُغنون غنَاء العُصفور (وَ مَنْ رَمَىٰ بِكُمْ فَقَدْ رَمَىٰ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ) بسَهم لا يصل إلَىٰ المَرمىٰ، وَهذَا الكَلاَم عَطف تَفْسِير عَلَىٰ ما قَبله (أَصْبَحْتُ وَ اللهِ لاَ أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ) لأنّكم كَاذبُون (وَ لاَ أَطْمَعُ فِي نَـصْرِكُمْ) لأنّكم مُتخَاذلُون (وَ لاَ أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ) لأنّه لا يُرهبكم.

(أَ قَوْلاً بِغَيْرِ عِلْمٍ!)، أي بغَير عَمل لأنّ الإِمَامعليه السلام يَرىٰ التّلازم، والتّرابـط بَـيْنَ العِلم، وٱلْعَمَل الصّالح، فمن أَقْواله: «ٱلْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ؛ وَٱلْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلاَّ ٱرْتَحَلَ عَنْهُ»[2] (وَ غَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ!). تغفلون عَن الواجبات، وَلاَ تتورعون عَن الْمُحَرَّمات (وَ طَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ). لا تؤدُونَ حقّ الله، والنَّاس، ومَع هَذَا تَطمعُون فِي غَيْر حقكم... وسِيرة النَّاس، أو أَكْثَرهم عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ قِيل: ٱلإِنْسَان شرير بطَبعه. وَقَالَ آخر: بَل خَير بطَبعه. وَقَـالَ ثَـالث: إنّـه يَتَكِيف بحَسب ظرُوفه، إنْ خَيراً فخَير، وإنْ شرّاً فشرّ. ولكلّ شُبْهَة، وَمَدرك.

---

(١) أنظر، كَشْف الخَفَاء للعجلوني: ١/٣٤٥ ح ١١٠٢. أمل الآمل للحر العاملي: ١/١١.

(٢) أُنظر، خطب نَهج ٱلبَلاَغَة: ٤/٨٥، ٱلحِكْمَة (٣٦٦).

الخطبة

- ٣٠ -

اَسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ:

(لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لاٰ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، وَ مَنْ خَذَلَهُ لاٰ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي. وَ أَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثَرَةَ، وَ جَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الْجَزَعَ، وَ لِلّٰهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي الْمُسْتَأْثِرِ، وَ الْجَازِعِ).

الْإِعْرَاب:

غَيْرَ بِمَعْنَىٰ سِوىٰ، وتَأتي بِمَعْنَىٰ «لاٰ» مِثل فَعلت هَذَا غَيْرَ مُكرَه، وَعِندئذٍ تُنصب عَلَىٰ الحَال أي فَعلته لا مُكرهاً، وأيضاً تَأتي بِمَعْنَىٰ «إلّا» الإستثنَائِية، ويَجري عَلَيْهَا مِن الْإِعْرَاب مَا يَجري عَلَىٰ الإسم الَّذي بَعدها إذاً وقَع بَعد أدَاة الإستثنَاء مثل جَاء الْقَوْم غَيْرَ زَيد، فَتُنصب غَيْرَ لأنّك تَقول: جَاء الْقَوْم إلّا زَيداً، ومِثله (غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ.. إلخ) فِي كَلاَم الإِمَام ﷺ، فقَد نَصبت «غَيْرَ» لأنّ الْمَصْدَر الْمُنسبك مِن أَنَّ ومَا بَعدها لو وَقع بَعد إلّا لكَان مَنْصُوباً عَلَىٰ الإستثنَاء.

الْمَعْنَىٰ:

(لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً). الضَّمِير فِي «بِهِ» يَعود إِلَىٰ قَتل عُثْمَان.. ومَا كَانَ الإِمَامُ عليه السلام آمراً بِذَلِكَ، وَلاَ ذَاباً عَنْه بسَيْفه، بل نَهَىٰ عَن قَتله: ما فِي ذَلِكَ رَيب... لم يَأمر لأنّه لو أمر لكَان من قَاتلِيه، ولَيْسَ فِي قَتله أية مَصلحَة لِلإِسْلاَم، والْمُسْلِمِين، ولو ذَبَّ عَنْه بالسَّيْف لعَّمت الْفِتْنَة، وتَكدَست الْقَتْلَىٰ بالأُلوف، أو المِئات، ومن أجل هَذَا، وذَاكَ وَقَف الإِمَام عِند النّهي عَن الْقَتْلِ، والتَّحْذِّير مِنْهُ ما ٱستطَاع، قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «أَمَّا نَهيه عَن قَتله فَهُوَ ثَابت، وقد أَمر الْحَسَن، والْحُسَيْن أَنْ يُذِبّا النَّاس عَنْه»[(١)].

(غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ). حِينَ قُتل عُثْمَان كَانَتْ الْمَدِينَة تَعج، وتَغص بالْصَّحَابَة من الْمُهَاجِرِين، والأَنْصَار، وفِيهِمْ الوجُوه، وأَهْل السّابقة، وَالْمَكَانَة، وَقد خَذلوا عُثْمَان، وتجَاهلوه عَن عَمدٍ، بَل كَانَ بَعْضهم يُحرض عَلَيْهِ سرّاً، أو عَلناً، ولو أنّ الْصَّحَابَة نَاصرُوه، ووقَفوا مَعه لمَا أقدَم، وتجرأ أحَد عَلَىٰ قَتله.

أَمَّا الّذين نَاصرُوا عُثْمَان فَهم وزرَاؤه، وأعوَانه الّذين ٱغتَصب لَهُمْ أَمْوَال ٱلْمُسْلِمِين، كمَرْوَان، وأضرَابه. وَعَلَىٰ هَذَا فَمَن نَصر عُثْمَان لا يَجرؤ عَلَىٰ الأدعَاء بأنّه أفضَل مِمَّنْ خَذله، بَل العَكس هُو الصّحيح. ونَتيجة ذَلِكَ أنّ مَن خَذل عُثْمَان، وهُو قَادر عَلَىٰ الذّب عَنْه ـ غَيْر مَسْئُول أمَام الله. قَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه: «يُرِيد الإِمَام أنّ ٱلْقُلُوب مُتفقة عَلَىٰ أنّ نَاصري ـ عُثْمَان ـ لم يكُونوا فِي شَيء مِن الْخَيْر الّذي

(١) أُنظر، خطب نَهْج ٱلبَلاَغَة للأستاذ مُحَمَّد عَبْدَه: ١/٧٥.

يُفضَلُون بِهِ عَلَىٰ خَاذِلِيه»[1]. وَقَالَ ٱبن أبي ٱلْحَدِيد: «أَمَّا قَوْله غَيْر أنّ مَن نَصره فمعَنَاه أنّ خَاذِلِيه كانوا خَيراً من ناصرِيه، لأنّ الّذين نَصروه كَانَ أَكْثَرهم فُسَاقاً كمَرْوَان ٱبن الحَكم، وأضرَابه، وخَذله المُهَاجِرُون، والأَنْصَار»[2].

(وَ مَنْ خَذَلَهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي). بل العَكس هُو الصّحِيح لما بيّنا... وهل من أحدٍ يجرؤ عَلَىٰ الزّعم بأنّ مَرْوَان خَير مِمَّنْ خَذل عُثْمَان مِن الْمُهَاجِرين، والأَنْصَار؟.. ولو أنّ مُنصفاً تتبّع سير عُثْمَان، وأحصَىٰ عَلَيْهِ أعمَاله لوجَد أَنَّهَا مُقدمات طَبيعية لمَا حَدَث.

(وَ أَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، ٱسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثَرَةَ، وَ جَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الْجَزَعَ). أي أنّ كلاً مِن القَاتل والْمَقْتُول عَلَىٰ خَطأ... لقد حَكم عُثْمَان فجَار، وأسرَف، وكَانَ عَلَيْهِ أنْ لا يَتعدىٰ حدُود ٱلْكِتَاب، والسُّنَّة، وبَادر النّاقمُون إِلَىٰ تأديبه فتجَاوزوا حدّ ٱلْقِصَاص الَّذي شُرع حَقناً للدِّماء، وفَتحوا بَاب الْقَتْل، والْقِتَال بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِين، وكانوا سَبباً لسَفك ما سَفك مِن الدِّمَاء بسَبب هَذِهِ الْفِتْنَة.

(وَ لِلَّهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي الْمُسْتَأْثِرِ، وَ الْجَازِعِ) بَعد أنْ حَكم الْإِمَام ﷺ بالإسَاءة عَلَىٰ القَاتِل، والْمَقْتُول قَالَ، هَذَا حُكمي، ولله سُبْحَانَهُ فِي كلّ مِنهُما حَكم. وَهَذَا تَعلِيم، وتَنبِيه للجَاهل أنْ يَحجم عَن الحُكم، وللعَالِم أنْ يَتثَبت قَبل أنْ يَحكم، وقَد جَرت سُنة الْمُجْتَهِدِين مُنذ القدِيم أنْ يقُولوا: «والله أعْلَم» بَعد أنْ يَفتوا، أو يَحكموا.

---

(١) أنظر، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة للأستاذ مُحَمَّد عَبْدَه: ١/٧٦.

(٢) أنظر، شَرْح النَّهج: ٢/١٢٨.

الخطبة

- ٣١ -

طَلْحَة والزُّبَيْر:

(لاَ تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ، وَ يَقُولُ: هُوَ الذَّلُولُ. وَ لَكِنِ اَلْقَ الزُّبَيْرَ، فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً، فَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ اَبْنُ خَالِكَ: عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ، وَ أَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ، فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا).

اللُّغَة:

الأَعْقَص مِن التَّيُوس: ما اَلتَوىٰ قَرنَاه عَلَىٰ أُذُنَيه مِن خَلفه[1]، والمُرَاد هُنا بـ «عَاقِصاً قَرْنَهُ» الغُرُرُ، والغَطْرَسَة. والعَرِيكَة: الخلق، والطَّبيعَة.

الإعْرَاب:

عَاقِصاً مَفْعُول ثَانٍ لتَجِدْهُ، وكَالثَّور الكَاف بِمَعْنَىٰ مِثل حَال مِن الهَاء فِي تَجِدْهُ أي

---

(١) أنظر، لِسَان العَرَب: ٧/٥٥.

تَجِدْهُ عَاقِصاً قَرْنَهُ مُماثلاً للثَّوْر. وعَرِيكَةً تَمْيِيز.

الْمَعْنَىٰ:

الزُّبَيْرُ قَرشي، وأبُوه العوَّام بن خُوَيْلد أخُو السَّيِّدة خَدِيجَة الْكُبْرَىٰ بِنت خُوَيْلد والزَّوْجَة الأُْولَىٰ لرَسُول الله ﷺ، وأُمّ الزُّبَيْر صَفِيَّة بِنت عبدالمُطلب عمّة النَّبِيّ والإِمَام، وتزَوج الزُّبَيْر أسمَاء بنت أبِي بَكْر، وأَولدهَا عَبدالله. فالزُّبَيْر ٱبن عمّة الرَّسُول ﷺ، وٱبن أخ زَوجته خَدِيجَة، وعدِيله. ومِن أجل هَذَا قَالَ له الإِمَام مِن جُملة ما قَالَ: «مَا زَالَ الزُّبَيْر رَجُلاً مِنَّا أَهْلَ الْبيْتِ حَتَّىٰ نَشَأَ ٱبْنُهُ الْمَشْؤُومُ عَبْدُالله»[1].

وكَانَ الزُّبَيْر يَحث سرّاً عَلَىٰ قَتل عُثْمَان، وبَعد قَتله بَايَعَ الإِمَام، ثُمَّ نَكَثَ بَيعته، وأعلن عَلَيْهِ الْحَرْب. وقَبل أنْ يَشتبك الفرِيقان فِي وَقْعَة الْجَمَل وقَف الإِمَام بَيْنَهما، ونَادىٰ الزُّبَيْر، وٱنفرد بِهِ، وَقَالَ له: «أَلم يَقل لكَ رَسُول الله ﷺ، أَمَا إِنّك ستُقَاتل عَلِيّاً، وأنْتَ لهُ ظَالمٌ! فٱنصرف الزُّبَيْر عَن الْقِتَال، وتَبعه عَمْرُو ٱبن جرمُوز فقَتله فِي وَادي السّبَاع.... ذَكر هَذَا جَمَاعَة مِن أَهْل التّراجم، والتّأرِيخ، مِنْهُم ٱبن عَبدالبر فِي الاِسْتِيعَاب[2].

(١) أنظر، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْحِكْمَة (٤٥٣)، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٣/٥١٩، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١/٥٥، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لاِبْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٤/٦١، الاِسْتِيعَاب: ٣/٩٠٦، ترجمة عبدالله رقم (١٥٣٥)، تَأرِيخ دِمَشْق: ١٨/٦٦، أنْسَاب الأَشْرَاف للبلاذري: ٢٥٥.

(٢) وَرَدت أَقْوَال كَثِيرَة فِي قتل ٱبن جرموز الْمُجَاشِعِيّ للزبير بن العوّام بن خُوَيْلد بن أسد بن عبدالعزّىٰ بن كلاب القُرَشِيّ الأسدي، والَّذي أسلم بمَكَّة وعمره ٧ أو ١٢ سنوات. وكَانَ مِمَّنْ خالف عُثْمَان، ولما قُتل ⇔

↔ عُثْمَان بادر إِلىٰ بَيْعَة عليّ ثمّ خرج إِلىٰ الْبَصْرَةِ مُطالباً بدم عُثْمَان. ولمّا تقابل الجَيْشَان طلبه عليّ ﷺ وذكره بأَقْوَال رَسُول الله ﷺ مثل «ستقاتل عَلِيّاً وأَنْتَ ظالم له» وقد أشرنا إِلَيْهَا قبلاً. وإِلىٰ المحاورة الَّتي دارت بَيْنَهما، ولَسْنَا بصدد بَيَان كلّ الأقوال بل نذكر بَعْضَهَا من المصادر الَّتي تحت أيدِينَا.

فمثلاً ذكر ٱبن أَعْثَمْ فِي الْفُتُوح: ١ / ٤٧٥ قَالَ: ثمّ مضىٰ الزُّبَيْر، وتبعه خمسة من الفرسان فحمل عَلَيْهِمْ، وفرّق جمعهم... ومضىٰ حَتَّىٰ صار إِلىٰ وادي السّباع فنزل عَلَىٰ قَوْم من بني تميم فقام إِلَيْهِ ـ وقد ذكره الطَّبَرِيّ: ٣ / ٥١١ بأسم: عمير بن جرموز، ولكن فِي: ٥٢١ جاء باسم: عَمْرُو بن جرموز المُجَاشِعيّ ـ فَقَالَ: أبا عبدالله كَيْفَ تركت النَّاس؟ فَقَالَ الزُّبَيْر: تركتهم قد عزموا عَلىٰ الْقِتَال، ولاَ شكّ قد التقوا. قَالَ: فسكت عَنْه عَمْرُو بن جرموز وأمر له بطعام وشيء من لبن، فأكل الزُّبَيْر، وشرب، ثمّ قام فصلّىٰ وأخذ مضجعه، فلمّا علم ٱبْن جرموز أنّ الزُّبَيْر قد نام، وثب إِلَيْهِ وضربه بسَيْفه ضربة عَلَىٰ أمّ رَأْسه فقتله، ثمّ ٱحتزّ رَأْسه، وأخذ سلاحه، وفرسه، وخاتمه، ثمّ جاء به بَيْنَ يدي عليّ بن أبي طالب ﷺ، وأخبَره بِمَا صنع بالزُّبَيْر.

قَالَ: فأخذ عليّ ﷺ سَيْف الزُّبَيْر، وجعل يقبّله وهُو يقول: إنّه لسَيْف طالما جلّىٰ الكروب عَن وجه رَسُول الله ﷺ ولكن الحين، والْقَضَاء. ثمّ أقبل عَلَىٰ عَمْرُو بن جرموز فَقَالَ ويحك لم قتلته؟ فَقَالَ: قتلته والله وأنا أعلم أنّ ذَٰلِكَ مِمَّا يرضيك، ولَوْلاَ ذَٰلِكَ لما قدمت عَلَيْهِ. فَقَالَ عليّ ﷺ: ويحك! فإِنّي سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: بشّر قاتل ٱبن صَفِيَّة بِٱلنَّار. قَالَ: فوثب عَمْرُو بن جرموز من بَيْنَ يدي عليّ ﷺ وهُو يقول: لا والله ما ندري أنُقاتل مَعَكُمْ أم عَلَيْكُمْ. ثمّ ٱنصرف عَن عليّ وهُو يقول أبياتاً مطلعها.

أتيتُ عَلِيّاً بِرَأْس الزُّبَيْر ... وقَد كنتُ أرجو بِهِ الزّلفه
فبشّر بِٱلنَّار قَبل العيَان ... وَبِئس بشَارة ذي التّحفه

وذكر ٱبْن قُتَيْبَة فِي الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ٩٣. أنّ ٱبْن جرموز سأل الزُّبَيْر فَقَالَ: يا أبا عبدالله، أحييت حَرْباً ظالماً، أو مظلوماً ثمّ تنصرف؟ أتائب أنْتَ أم عاجز؟ فسكت عَنْه، ثمّ عاود، فَقَالَ له: يا أبا عبدالله، حدّثني عَن خصال خمس أسألك عَنْهَا، فَقَالَ: هات، قَالَ: خذلك عُثْمَان، وبيعتك عَلِيّاً، وإخراجك أمّ ٱلْمُؤْمِنِين، وصلاتك خلف ٱبنك، ورجوعك عَن الحَرْب، فَقَالَ الزُّبَيْر: نعم أُخبرك، أمّا خذلي عُثْمَان فأمر قدّر الله فِيهِ الْخَطِيئَة، وأخّر ٱلتَّوْبَة، وأمّا عَائِشَةَ فأردنا أمر وأراد الله غَيْره، وأمّا صلاتي خلف ٱبني فإنما قدّمته عَائِشَةَ أمّ ٱلْمُؤْمِنِين، ولم يَكُنْ لِي دُونَ صاحبي أمر، وأمّا رجوعي عَن هَٰذِه الحَرْب فظنّ بِي ما شئت ↔

وطَلْحَة قَرشي أيضاً، وأبُوه عَبدالله بن عُثْمَان[1]، وكَانَ طَلْحَة مِن أشد النَّـاس

⇐ غَيْر الجُبْن...

وذكر ذَلِكَ أيضاً صاحب البداية والنِّهاية: ٧ / ٢٧٧ بإضافة: فاتّبعه عَمْرُو بن جرموز، وفضالة بن حابس، ونفيع فِي طَائِفَة من غواة بني تميم. وذكر الطَّبَرِيّ فِي: ٣ / ٥٤٠ حوادث سنة ٣٦ ه مثل ذَلِكَ بإضافة: كَانَ معه ـ يعني الزُّبَيْر ـ غلام يُدْعىٰ عَطِيَّة ـ قَالَ لِابْن جرموز: مايهولك من رجل وحضرت الصَّلاة؟ فَقَالَ ٱبْن جرموز الصَّلاة فَقَالَ الزُّبَيْر: الصَّلاة، فنزلا وٱستدبره ٱبْن جرموز فطعنه من خلفه فِي جرباة درعه فقتله، وأخذ فرسه، وخاتمه، وسلاحه وخلّىٰ عَن الغلام فدفنه بوادي السّباع...

وذكر المسعودي فِي مروج الذّهب: ٢ / ٣٦٢ وأبو مخنف كلاهما قالا: فجاء بسَيْفه إِلىٰ عليّ فَقَالَ: والله ما كَانَ ٱبن صَفِيَّة جباناً، وَلاَ لئيماً، ولكن الحينُ ومصارع السُّوء، ثمّ أخذ سَيْفه، وهزّه وَقَالَ: سَيْف طالما... فَقَالَ ٱبْن جرموز: الجائزة يا أَمِير ٱلْمُؤمِنِين! فَقَالَ: أَمَّا اني سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: قاتل ٱبن صفيه فِي ٱلنَّار. فخرج ٱبْن جرموز خائباً، وَقَالَ أبياتاً: أتيت عَلِيّاً برأس الزُّبَيْر... وفِي آخرها.

لَسِيّان عِنْدِي قَتل الزُّبَيْر ... وضَرطة عَنز بذي الجُحفة

وخرج ٱبْن جرموز عَلَىٰ عليّ مَع أَهْل النَّهْرَوَان فقتله معهم. وقيل هُو قتل نَفْسه بعد ما سمع قول الرَّسُول ﷺ من فمّ عليّ ﷺ. اعتمدنا فِي ذَلِكَ عَلَىٰ المصادر التّالية: الاِسْتِيعَاب: ٢٠٣، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٥ / ١٩٩، و: ٣ / ٥٤٠ ط أُخرىٰ، الأغاني: ١٦ / ١٢٦، أبو مخنف عَلَىٰ رواية ٱبْن أَبي ٱلْحَدِيد فِي الشّرح: ١ / ٧٨، تَأرِيخ ٱبْن أَعْثَم: ١ / ٢٨١ ط حيدرآباد، مروج الذّهب: ٢ / ٣٦٢، تَهْذِيب ٱبْن عساكر: ٥ / ٣٦٤، أُسد الغَابَة: ٢ / ١٩٩، ٱبْن الأَثِير فِي تَأْرِيخه: ٣ / ٩٤، العقد الفريد: ٤ / ٣٢٢، المُسْتَدرَك: ٣ / ٣٦٦، كنز العُمَّال: ٦ / ٨٢ ح ١٢٨٣ و ١٢٩٠ و١٣١٨ ـ ١٣٢٠، الذّهبي فِي النّبلاء: ١ / ٣٨، تَأرِيخ اليعقوبي: ٢ / ١٥٨، الإِصَابَة: ١ / ٥٢٧ التّرجمة ٢٧٨٩، مُسْنَد أحمد: ١٦٥.

(١) هُو أبو مُحَمَّد طَلْحَة بن عُبَيْدالله بن عُثْمَان بن عَمْرُو بن كعب بن سَعد بن تَيْم بن مُرَّة بن كعب بن لُؤي بن غالب القُرَشيّ التّيمي، وأُمّه صعبة بنت الحضرمي إِمْرَأة من أَهْل اليَمَن، أُخت العَلاء ٱبن الحضرمي، شهد أُحد فشلّت أُصبَعه بها وقد آخىٰ النَّبِيّ ﷺ بينه وبَيْنَ الزُّبَيْر، وكَانَ من أشدّ المؤلّبين عَلَىٰ عُثْمَان. فلمّا قتل عُثْمَان سبق إِلىٰ بَيْعَة عليّ ﷺ ثمّ خرج إِلىٰ ٱلْبَصْرَةِ مطالباً بدم عُثْمَان. ورآه مَرْوَان بن الحكم يَوْم الجَمَل فَقَالَ: لا أَطلب بثأري بعد اليَوْم. فرماه بسهم قُتل مِنْهُ فِي سنة ٣٦ ه. (أنظر ترجمته فِي طَبَقَات ٱبْن سعد: ٣ قسم ١ / ١٥٦، الإِصَابَة: ٣ / ٢٢٠، مروج الذّهب: ٢ / ١١، تَهْذِيب ٱبْن عساكر: ٧ / ٨٤، تَأرِيخ ٱبْن كثير: ٧ / ٢٤٧، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٥ / ٤٤ ـ ٩٠، الرّياض النّضرة: ٢ / ٢٥٨، العقد الفريد: ٣ / ٩٢ ـ ١٠٩.

تَحرِيضاً عَلَىٰ ٱبن عَفَّان، ولما قُتل بَـايَعَ طَـلْحَة عَـلِيّاً، ثُمَّ نكث وأعـلَن الحَـرْب، وعِندما ٱشتَبك الفرِيقان فِي وَقْعَة «الجَمَل» رَمَاه مَرْوَان بن الحَكم بِـسهم فـقَتله، وَقَالَ: والله لاَ أُطالب بثَأر عُثْمَان بَعد اليَوْم، وٱلتَفت إِلَىٰ بَعْض وِلد عُثْمَان وَقـالَ لهُ: كَفِيتك ثَأر أَبِيك من طَلْحَة، وكَانَ مَرْوَان، وطَلْحَة فِي أَصْحَاب الجَمَل. قَالَ ٱبـن عَبدالبر: «لا يَختلف العُلَمَاء الثّقات فِي أنّ مَـرْوَان قَـتل طَـلْحَة يَـوْمَئِذٍ، وكَـانَ فِي حِزْبه»[1] أي فِي الحِزْب الَّذي حَارب الإِمَام... والعِبْرَة فِي قِصَّة مَرْوَان، وطَلْحَة

(١) المصادر التّأرِيخِية الَّتِي أشرنا إِلَيْهَا سابقاً بَعْضهَا تذكر أَنّ السّهم الَّذي أَصَابَ طَلْحَة لَيْسَ غريباً بل هُـو سهم مسموم رماه نحوه مَرْوَان بن الحكم كما جاء فِي الفُتُوح لِابْن أَعْثَم: ١ / ٤٨٤ قَالَ: وجعل طَلْحَة ينادي بأَعْلَىٰ صَوْته: عباد الله الصّبر الصّبر، إِنَّ بعد الصّبر النّصر والأجر. قَالَ: فنظر إِلَيهِ مَرْوَان بن الحكم فَقَالَ لغلام له: ويلك يا غلام، والله إنّي لأعلم أنّه ما حرّض عَلَىٰ قتل عُثْمَان يَوْم الدّار أحد كتحريض طَلْحَة، وَلاَ قتله سواه، ولكن ٱسترني فأنْتَ حرّ. قَالَ: فستره الغلام، ورمىٰ مَرْوَان بسهم مسموم لطَلْحَة بن عُبَيْدالله فأَصَابه به، فسقط طَلْحَة لما به وقد غميٰ عَلَيْهِ، ثمّ أفاق فنظر إِلىٰ الدم يسيل مِنْهُ فَقَالَ: إنا لله وإنا إِلَـيْهِ رَاجِعُون، أظنّ والله أننا عنينا بِهَذِه الآيَة من كتاب الله عزّ وجلّ إذ يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّاتُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ٱلأَنفَال: ٢٥.

وَقَالَ ٱبْن قُتَيْبَة فِي الإِمَامَة وَالسّيَاسَة: ١ / ٩٧: إِنَّ عَلِيّاً خرج إِلَيْهِمْ بعد سبعة أَيَّام فهزمهم، فلمّا رَأَىٰ طَلْحَة ذَلِكَ رفع يديه إِلىٰ السَّمَاء وَقَالَ: أَللَّهُمَّ إِنَّ كنّا قد داهنّا فِي أمر عُثْمَان وظلمناه فخذ له الْيَوْم منّا حَتَّىٰ تَرْضَىٰ، قَالَ: فما مضىٰ كَلاَمه حَتَّىٰ ضربه مَرْوَان ضربة أَتىٰ مِنْهَا عَلَىٰ نَفْسِه.

وَلاَ ندري بماذا نفسّر قول الطَّبَرِيّ فِي تَأرِيخه: ٣/٥١٩، فقد ذكر وجاء طَلْحَة سهم غَرب يخل ركبته بصفحة الفرس فلمّا امتلأ مَوْزجه دماً، وثقل قَالَ لغلامه: أردفني وأمسكني... وَقَالَ فِي ٥٣٤: قَالَ طَلْحَة يَوْمَئِذٍ: أَللَّهُمَّ أعط عُثْمَان منّي حَتَّىٰ يرضىٰ فجاء سهم غَرب وهُو واقف فخل ركبته بالسرج وثبت حَتَّىٰ آمتلأ مَوْزجه دماً... ولكن نترك للقارئ ٱلكَرِيم هُو يفسّر ذَلِكَ ونَحْنُ علينا نقل المصادر الَّتِي ذكرت أَنّه سهم مسموم أطلقه عَلَيْهِ مَرْوَان بن الحكم. فهذا ٱبن عبد البرّ فِي الإِسْتِيعَاب: ٢٠٧، واليعقوبي، وٱبْـن عساكر، وٱبْن عبد ربّه، وٱبْن الأثِير، وٱبْن حجر فِي الإِصَابَة: ٢ / ٢٢٢، يقُولُون: فلمّا ٱشتبكت الحَرْب

↔

أنّ كُلاً مِنْهُمَا أعلَن الْحَرْب مُطالباً بدَم عُثْمَان ، وحِينَ سَنحت الْفُرْصَة لمَرْوَان غَدر بصَاحبه طَلْحَة ، وأدرَك بقَتله الثّأر مِنْهُ لعُثْمَان .

كَيْفَ ٱتفق طَلْحَة ، ومَرْوَان معاً عَلَىٰ المطالبة بدَم عُثْمَان ، وفِي نَفس الوَقت يَفتك أحدهُما بصَاحبه لاَ لشَيء إلاّ لثَأر مِنْهُ لعُثْمَان ؟ . وَلاَ عَجب فكلّ أَعْدَاء عليّ مِن هَذَا الطّراز ، وَعَلَىٰ هَذَا المَبدأ ، يُطالبُون بِالْحَقّ ويَتَّخِذُونه شِعاراً لَهُمْ ، ثُمَّ يُقِيمون الدَّلِيل مِن أنْفسهم ، وإيمَانهم ، وأَعْمَالَهُم عَلَىٰ أنّهم هم الّذين خَنقوا الْحَقّ ، وحملوا جنَازته عَلَىٰ رُؤُوسهم يَنشدُون اللّحن الجنَائزي ، ويَطْلُبُون ٱلْقِصَاص مِن أَصْحَاب الْحَقّ الَّذي ٱغتَصبه ، وخَنقه المُطالبُون بدَمه ... وَهَذَا هُو مَنطق الإِنْتهَازِيِين ، وكلّ مَن يُتاجر بالمَبادىء ، والدِّين ، ويَقول : أنَا وَحدي عَلَىٰ الْحَقّ الكَامِل ومَن خَالفني عَلَىٰ الضّلال التَّام .

⟵ قَالَ مَرْوَان : لا أطلب بثاري بعد الْيَوْم ثمّ رمىٰ طَلْحَة بسهم فأَصَابَ ركبته فما رقي الدم حَتَّىٰ مات . وَقَالَ : لا يختلف الْعُلَمَاء الثّقات : فِي أنّ مَرْوَان قتل طَلْحَة يَوْمَئِذٍ وكَانَ فِي حِزْبه .

وفِي طَبقات أبْن سعد : قَالَ طَلْحَة : والله ما يلفت إلينا سهامهم . وروىٰ أيضاً : كَانَ مَرْوَان مَع طَلْحَة فِي الخَيْل فرَأَىٰ فرجةً فِي درع طَلْحَة فقتله . وروىٰ أيضاً : فلمّا رَأَىٰ ٱنكشاف النَّاس نظر إِلىٰ طَلْحَة واقفاً فَقَالَ : والله إنّ دم عُثْمَان عند هَذَا ، وهُو كَانَ أشدّ النَّاس عَلَيْهِ وما أطلب أثراً بعد عين ، ففوّق له سهماً فقتله .

وفِي المُسْتَدرَك : ٣ / ٣٧١ ، وأبْن عساكر فِي تَهْذِيبه : ٧ / ٨٤ ، وأسد الغَابَة : ٣ / ٦٠ : فالتفت إِلىٰ أبان بن عُثْمَان وهُو معه ، فَقَالَ : لقد كفيتك أحد قَتَلَة أبيك ... وَقَالَ مَرْوَان لغلامه أريد أنْ أرميه وأُريح الْمُسْلِمِين من شرّه ، فلو تَقَدَّمَت أمامي وحجبتني كي لا أُرىٰ فيُعْلَمَ أنّي رميته ... فأخرج مَرْوَان سهماً مسموماً من كنانته فرماه فشكّ قدمه إِلىٰ ركابه ... وروىٰ المَدَائِني ذَلِكَ وأضاف لمّا أدبر طَلْحَة وهُو جريح يرتاد مكاناً ينزله جعل يقول لمن يمرّ به من أَصْحَاب عليّ : أنا طَلْحَة من يجيرني ـ يكررها ـ ... وَقَالُوا : ثمّ مات ودفنوه بالسبخة . وَقَالَ ٱبْن عبد ربّه فِي العقد الفريد : ٤ / ٣٢١ ، والذّهبي فِي النّبلاء : ١ / ٨٢ : إنّه أَوّل قتيل . وأُنظر شَرْح النَّهج لِابْن أبِي الْحَدِيد : ٢ / ٤٣١ .

وٱلْمَعْرُوف من سِيرة الْإِمَامِ عليه السلام أنّه ما خَاض حَرْباً، وَلاَ شَهر سَيْفاً عَلَىٰ أحدٍ إلّا بَعد الْيَأْس مِن السّلم، والصّلح، وكَانَ يَسلك إِلَيْهِ كلّ سَبِيل، ومِن أقْوَاله: «وَسَأُمْسِكُ الْأَمْرَ مَا ٱسْتَمْسَكَ، وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ»[١] أي الْحَرْب. ومِن الشّواهد عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْله لِابْن عَبَّاس قبل أنْ تَقع حَرْب الْجَمَل: دَعْ عَنْكَ طَلْحَة، وَلاَ تُكلِّمهُ فِي شَأْنِ الْحَرْب، أو السِّلْمَ. فقد ٱسْتَبْدَت بِهِ الغَطْرَسَة، وأَعْمَاه الغُرُور حَتَّىٰ أَصْبَحَ يَرَىٰ الْبَعِيد قَرِيباً، والصَّعْب سَهْلاً.

(وَ لَكِنِ ٱلْقَ الزُّبَيْرَ، فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً،). أَرَق قَلباً، وأَسهَل جَانِباً من طَلْحَة. قَالَ المُؤرخُون: كَانَ الزُّبَيْر فِي أشد الحَيرَة مُنذ وصَل إِلَىٰ الْبَصْرَةِ، وعَرف أنّ عَمَّار ٱبن يَاسر قد أقبَل فِي أَصْحَاب عَليّ: وكَانَ ٱلْمُسْلِمُون يَتسامعُون بقَول النَّبِيّ صلى الله عليه وآله لعَمّار: «وَيحَك يا ٱبن سُمَيَّة، تَقتُلك الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ»[٢]. فلمّا عَرف أنّ عَمَّاراً فِي جَيش عليّ أشفَق أنْ يَكُون من هَذِه الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ.

(فَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ ٱبْنُ خَالِكَ: عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ، وَ أَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ). كَانَ الزُّبَيْر مِن أشَد النَّاس حماساً، وحُبّاً لِعَليٍّ فِي عَهد الرَّسُول صلى الله عليه وآله وبَعد وفَاته، وَقَد شَهر سَيْفه يَوْم السَّقِيفَة، وأَبىٰ إلاّ عَلِيّاً لِلْخِلاَفَة، ووقَف إِلَىٰ جَانبه فِي ٱلشُّورَىٰ يَوْم جَعلها عُمَرَ فِي سِتة، ثُمَّ بَايَعَ الْإِمَام بَعد مَقتل عُثْمَان، كلّ هَذَا كَانَ فِي الحجَاز، وإِلَيْه أَشَار الْإِمَام بقَوْله: «عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ» ثُمَّ نَكث ٱلْبَيْعَة، وخَرج عَلَىٰ الْإِمَام فِي الْبَصْرَةِ، وإِلَىٰ النّكث أشَار الْإِمَام بـ«أَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ».

---

(١) من كَلاَم له عليه السلام بعدما بويع له بِالخِلاَفَةِ، وقد قَالَ له قَوْم من الصّحَابَة لو عاقبت قوماً مِمَّنْ أجلب عَلَىٰ عُثْمَان. أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغة: ٱلخُطْبَة (١٦٨).

(٢) تَقدّم إستخراج ذَلِكَ.

(فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا). عَدَا فُلاَن طُوره تَجاوزه، وَتَعدَاه، وبَدَا ظَهر وَتَبين، والْمَعْنَىٰ كُنتَ مِن قَبل - يَا زُبير - لِي، ومَعي حَتَّىٰ بَايَعتني بِالْخِلاَفَةِ، ثُمَّ ثِرت عليَّ، وأَنْكَرْتَنِي... لِمَاذَا؟ وأي شَيء ظَهر لكَ مِني بَعد ٱلْبَيْعَة حَتَّىٰ تَغيرت، وتَجاوزت ما كُنت عَلَيْهِ مِن قَبل؟ وَعَلَىٰ هَذَا تكُون «مِن» فِي قَوْله «مِمَّا» لبَيَان الجِنْس كَمَا قَال مِيْثَم فِي شَرحه[1]، ولَيست بِمَعْنَىٰ «عَن» كَمَا قَالَ ٱبن أَبي ٱلْحَدِيد[2]، ومَن تَابعه كَالشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه[3]، والشّيء الَّذي بَيَّنَته «مِن» هُو: مَا بَدَا مِن أفعَال الإِمَام للزُّبير بَعد ٱلْبَيْعَة، إنْ كَانَ هُنَاك مِن شيء.

وَتَسْأَل: هَل بَلَّغ ٱبن عَبَّاس رِسَالة الإِمَام عليه السلام إِلَىٰ الزُّبَيْر؟ وبِمَاذا أجَاب عَنْهَا؟.

قَالَ ٱبن عَبَّاس: أتِيتُ الزُّبَيْر، وقُلت لهُ ما قَالَ الإِمَام. فأجَاب بأنّه يُريد مانُريد، ولَم يَزدني عَلَىٰ ذَلِكَ: وفَهمت مِن جوَابه أنّه يُرِيد ٱلْمُلْك، فرَجعت إِلَىٰ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام فأخبَرته[4].

(١) أنظر، شَرْح النَّهج: ٢/١٥٧.
(٢) أنظر، شَرْح النَّهج: ٢/١٦٤.
(٣) أنظر، شَرْح النَّهج: ١/٧٦.
(٤) أنظر، شَرْح نَهْج ٱلبَلاَغَة لِابْن أَبي ٱلْحَدِيد: ٢/١٦٥، بِحَار الأَنْوَار: ٣٢/٧٦.

الخطبة

- ٣٢ -

النَّاسُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ...فِقْرَة ١ ـ ٤:

(أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ ، وَ زَمَنٍ كَنُودٍ ، يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً ، وَ يَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً ، لاٰ نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا ، وَ لاٰ نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا ، وَ لاٰ نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّىٰ تَحُلَّ بِنَا[١].

وَ النَّاسُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ : مِنْهُمْ مَنْ لاٰ يَمْنَعُهُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِلاّٰ مَهَانَةُ نَفْسِهِ ، وَ كَلاَلَةُ حَدِّهِ ، وَ نَضِيضُ وَفْرِهِ ، وَ مِنْهُمُ الْمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ ، وَ الْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ ، وَ الْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ ، وَ رَجِلِهِ ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ ، وَ أَوْبَقَ دِينَهُ لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ ، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ ، وَ لَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ تَرَىٰ الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً ، وَ مِمَّا لَكَ عِنْدَ اللهِ عِوَضاً[٢]! . وَ مِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ، وَ لاٰ يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا ، قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ ، وَ قَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ ، وَ شَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ ، وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلْأَمَانَةِ ، وَ اتَّخَذَ سِتْرَ اللهِ ذَرِيعَةً إِلَىٰ الْمَعْصِيَةِ . وَ مِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُئُولَةُ نَفْسِهِ ، وَ انْقِطَاعُ سَبَبِهِ ، فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَلَىٰ حَالِهِ ، فَتَحَلَّىٰ بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ ، وَ تَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ ، وَ لَيْسَ مِنْ ذٰلِكَ فِي مَرَاحٍ ، وَ لاٰ مَغْدًى[٣]) .

اللُّغَة:

العَنُود: الجَائِر عَن الطَّرِيق، والمَفهُوم مِنْهُ عُرفاً المُخالف المُشاكس. والكَنُود: الْكَافِر بالنِّعْمَة. والعُتُوّ: القَسوَة. والقَارِعَة: الدَّاهِية، والخَطِيب. وَالكَلاَلَةُ: الإعْيَاء. وكلّ السَّيْف: لَم يَقطع. وَالنَضِيضُ: القِلة. وَالوَفْرِ ـ بِفَتح الوَاو: الْغِنَىٰ. والْمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ: مَن سَله مِن غِمده. وَالْمُعْلِنُ: المُظْهِر وَالْمُجْلِبُ: مَن جَلب وجَمع مِن هُنا، وهُناك. ـ وَرَجِلِهِ بفَتح الرَّاء ـ جَمع رَاجِل. وَأَوْبَقَ: أَهْلَك. والْحُطَام: مَتَاعُ ٱلْحَيَاة الدُّنْيَا. ويَنْتَهِزُ: يَسْتَلِب ويَخْتَلِس. والمِقْنَب ـ بكسر الميم، وفَتح النّون ـ نَوْع من الخَيْل. ويَفْرَعُهُ: يَعْلُوه. وطَامَنَ: خَفَضَ. والضُئُولَةُ: الضَّعْف، والحقَارة. والمَرَاح: مَكان المَاشِية بٱللَّيْل، وقِيل: لهَا ولغِيرها. والمَغْدىٰ: مكانَها بالنَّهار.

الْإِعْرَاب:

عُتُوّاً تَمْيِيز مُحول عَن فَاعِل لأنّ الْمَغْنَىٰ يزدَاد عُتُوّ الظَّالِم، والْمَتْجَرُ فَاعِل بِئْسَ، والْمَصْدَر من أَنْ تَرَىٰ الدُّنْيَا هُو المَخصوص بالذَّم، ومَحله الرّفع الابْتِدَاء، وجُملة بِئْسَ الْمَتْجَر خَبَر مُقَدَّم، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللهِ عِوَضاً مَعطوف عَلَىٰ ما قَبله أي وأَنْ تَرَىٰ مِمَّا لَكَ... إلخ.

الْمَعْنَىٰ:

(قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ، وَ زَمَنٍ كَنُودٍ). الْمُرَاد بالزَّمان أهله، وإلّا فإنّ الزّمن مِن حَيْث هُو لا يُمدح، وَلاَ يُذَمّ (يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً). لو سُئِلْتَ عَن الفَرق بَيْنَ الْمُحْسِنُ والْمُسِيء لأجَبت بأنّ المحْسِنُ من لا يَرىٰ نَفْسه مُحْسِناً، وفِي الوَقت نَفْسه يرىٰ

أنّ فِي إمكَانه، ومَقدُوره أنْ يَردعها عَن المُحَرَّمات، والإسَاءة إِلَىٰ النَّاس... وإِلَىٰ هَذَا يُوميء كَلاَم الْإِمَامﷺ: «فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ، وَ النَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ»(١) عَلَىٰ عَكس المُسِيء الَّذي يَرىٰ نَفْسه مُحْسِناً، وغَيْره المُسِيء، ونَفْسه مِنْهُ فِي رَاحةٍ، والنَّاس مِنْهُ ومِن شرّه فِي شُغلٍ شَاغل.

(وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً). للظُّلم والعُتُوّ أَسْبَاب، وَأَهمها أنْ يَتَوَلَّىٰ المُجرمُون مَركز الْقِيَادَة، ويَحتكرُوا ٱلْمَال، والسِّلاَح، وسَائر مظَاهر ٱلْقُوَّة، كوَسَائِل النّشر، والدّعاية ومَا إِلَيْهَا (لاَ نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا). نَحْنُ نَعرف ٱلْمُجْرِمين بأسمائِهم، وأشخَاصهم ومَع هَذَا نُمهد لَهُمْ سَبِيل الجَرِيمَة، وٱلْفَسَاد، فنختَارهم للرِّئَاسة، والْقِيَادَة، وللتَّمثِيل، والنِّيَابة، ونُطبل لَهُمْ، ونُزمر، وَلاَ فَرق بَيْنَ الظَّالِمِ، ومَن أَمدَه بِسَبب.

(وَ لاَ نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّىٰ تَحُلَّ بِنَا). لا نَتوقع حدُوث المَخاطر الَّتي تُهدد حيَاتنا وحَيَاة أبنَائنا فِي المُسْتَقْبَل القَرِيب، أو البَعِيد، أو نتُوقعها، ولكنْ نَستهين بها، وَلاَ نُبذل أي جُهد لدَفعها، والتّحرز مِنْهَا... أجَل، إذَا وَقعت تصَايحنا، وٱستغثنَا، ولكنْ لا جوَاب إلّا النّدم، والحَسَرَات.

والْيَوْم يُعاني العَالم وبخَاصَّة الشّعوب المُتَخلفة أخطَر مُشْكِلَة، وَهِي النّمو العَددي للسُّكان مَع العِلْم بأنّ هَذِه تَملك الكَثِير من الطّاقات والموَارد فَوق ٱلأَرْض، وتَحتها، ولكنْ هَذِه تُهمل، وتَتَجاهل، ويَستغلها الأعدَاء، والأبَاعد، وتَعِيش هِي فِي أسوأ حَال. تَتَسول، وتَستَجدي مِمَّنْ يَنْتهبها، ويَستلبها... أَمَّا الأجيَال الآتِية مِن أبنَاء هَذِه الشّعوب فَقد تَنبأَ بَعْض البحَّاثِين بأنّ ٱلحَاجَة سَتدفع بِهِمْ إِلَىٰ أنْ يَأْكُل

(١) أُنظر، نَهج البلاغة: الخُطْبَةُ (١٧٦).

بَعضهم بَعضاً، ثُم إِلَىٰ مهَاوي الفنَاء جُوعاً. ولَيْسَ هَذَا بِبَعيد، فقَد حدَث، وتَكرَّر فِي التَّأرِيخ الَّذي قَالَ: حَدثت مجَاعة فِي الْبَصْرَةِ، فحَفر النَّاس الْقُبُور، وأَكلوا ما فِيْهَا مِن بقَايا ٱلْمَوْتىٰ.

(وَ النَّاسُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ). وهُم فِي الحَقِيقَة صِنفَان: أَهْل الدُّنْيا، وأَهْل الآخِرَة. وأَهْل الدُّنْيَا أَرْبَعَة أصنَاف:

١ ـ (مِنْهُمْ مَنْ لاَ يَمْنَعُهُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَهَانَةُ نَفْسِهِ، وَ كَلاَلَةُ حَدِّهِ، وَ نَضِيضُ وَفْرِهِ). إنّه لا يَسعىٰ للرِّئاسة، وَلاَ يُفسد فِي ٱلْأَرْض، ولكنْ لا زُهداً فِي الدُّنْيَا، وَلاَ تُورعاً عَن محَارم الله، بل للضَّعف، والْعَجْز مَالاً، وسِلاحاً، وأشَار الْإِمَام إِلَىٰ الْعَجْز المَالي بنَضِيضُ الوَفْرِ، وإِلَىٰ الْعَجز فِي السِّلاَح بكَلاَلَةُ الحَدِّ... وَعَلَىٰ أيّة حَال فإِنّ الله سُبْحَانَهُ لا يُعاقب عَلَىٰ مُجرد النّية، فذَاك الرَّجُل لو كَانَ قَادراً لمَلأ الدُّنْيَا فسَاداً، وإنّما يحَاسب، ويُعاقب عَلَىٰ ٱلْعَمَل الَّذي يحس، ويَلمس: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1] لاَ مَن يَنوي الشَّرّ. قَالَ الْإِمَامﷺ: «مِنَ الْعِصْمَةِ تَعَذُّرُ الْمَعَاصِي»[2].

٢ ـ (وَ مِنْهُمُ الْمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ، وَ الْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ، وَ الْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ، وَ رَجِلِهِ). هَذَا الصِّنف مِن النَّاس قَوي بسِلاحه، وأعوَانه، وقُوَّتِه هِي الَّتي دَفَعْت بهِ إِلَىٰ ٱلْفَسَاد والإفْسَاد (قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ) جَعلها وَقفاً عَلَىٰ الشَّرّ (وَ أَوْبَقَ دِينَهُ لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ). أهلَك دِينه، وضَميره مِن أجْل الدُّنْيَا، وحطَامها... وَهَذَا الكَلاَم وَاضح، وصرِيح فِي أنّ الامتِياز فِي ٱلْقُوَّة بشَتَّىٰ مظَاهرها يُغري صَاحبه بالإمعَان فِي ٱلْفَسَاد فِي

(١) ٱلزَّلْزَلَة: ٨.
(٢) أُنظر، خطب النَّهج: ٨١/٤. ٱلحِكْمَة (٣٤٥).

ٱلأَرْض، وإِنَّ المُجْتَمع إِذَا تَساوىٰ أفرَاده فِي القُدرات، والإِمكَانات يَخلو من الدّوافع عَلَىٰ ٱقترَاف الجرَائم... أَللَّهُمَّ إِلّا مِن قِبل أَهْل الدّاء العُضال.

(أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ). يَتَكبر، ويَستعلي عَلَىٰ الـعِبَاد بِخَـيله، وصَهـيلها (أَوْ مِـنْبَرٍ يَفْرَعُهُ). يَعلوه، ويُلقي عَلَىٰ النَّاس الجَاهِيل، والأَضَـالِيل (وَ لَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ تَرَىٰ الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً). نَفس ٱلإِنْسَان أحبّ الأَشْيَاء إِلَيْهِ، وأعـزها عـلَيْهِ، فكَـيْفَ يَبِيعها بِثَمن بَخس؟. ومِن أَقْوَاله عليه السلام: «إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ وَ إِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ وَ الْمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ»[1].

لِلمِنْبَرِ - المُرَائِي وَالمُومِس:

٣ - (وَ مِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَ لاَ يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْـيَا). يُشير الْإِمَام بِهَذَا إِلَىٰ المُرائِين الّذين يَحتلبُون الدُّنيَا بالدِّين!... وَلَست أشك فِي أنّ المُومِس الَّتِي تَبِيع جَسدها، وتَعِيش عَلَىٰ فَرجها أشرَف مِن المُرائِي الَّـذي يُـتاجر بالدِّين، وأَقْرَب مِنْهُ إِلَىٰ الله... إِنَّهَا تَاجرت بمخرَج البَول، وتَـاجر هُـو بـالوَحي وقُدس الأَقدَاس الَّذي بِهِ عَظمة الرُّسل، وٱلأَنْبِيَاء، ومِن أجْـله يَسـتَمِيتُون، وفِي سَبِيله يَسْتَشهدُون... وأيضاً هِي لاَ تَـغش، وَلاَ تَكـذب فِي مِـهنتها، وتِجَـارتها، وتَظهر للنَّاس عَارية، وَلاَ تَطلب الإِحترَام من أحدٍ، بَل تَشعر بِضِعتها، وٱحتقَار النَّاس لهَا، وقَد يَكُون فِي هَذَا شَيء لهَا مِن الشّفاعة عِند الله.

أَمَّا المُرائِي الَّذي يُتاجر بالدّين فإِنَّه يَغش، ويَخدع فِي وظِيفته، ويَكذب، ويُنافق

---

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاغَة: ٱلخُطْبَة (٨٦).

فِي مَظهره، والسّتر عَلَىٰ عيُوبه، ومَع هَذَا يَتوقع مِن النَّاس التّقدِير، والإحتِرَام. فأَيهُما عِند الله، والضَّمِير ٱلإِنسَاني أفضَل، أو أرذَل: هُو، أو هِي؟ التّضلِيل المُمَوَّهُ، أو الخَطِيئَة المَكشُوفة؟.

(قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ). أظْهَر التّواضع الْكَاذِب الدَّال عَلَىٰ جُبْنِهِ، وخِسّتِهِ، وضَعفِهِ، وضِعَتِهِ (وَ قَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ). مَشىٰ بهدُوء ليُعدّ مِن الصَّالِحِين (وَ شَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ). يَظهر الإحتَّاط من النّجَاسة، وٱلْعَمَل بآيَة: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[1].

(وَ زَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلأَمَانَةِ). أحَاطها بِهَالة كَاذِبة مِن النّزَاهة، والْأَمَانَة كِي يُخفِي ما فِيْهَا من الدّنَاءة، والخِيَانة (وَ ٱتَّخَذَ سِتْرَ اللهِ ذَرِيعَةً إِلَىٰ الْمَعْصِيَةِ). قَالَ الْإِمَام: «كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالإِحْسَانِ إِلَيه، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيه! وَمَا ٱبْتَلَىٰ اللهُ أَحَداً بِمِثْلِ ٱلإِمْلاَءِ لَهُ»[2].. «ٱلْحَذَرَ ٱلْحَذَرَ! فَوَاللهِ لَقَدْ سَتَرَ، كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ»[3].

٤ ـ (وَ مِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُئُولَةُ نَفْسِهِ). يَلتقِي هَذَا الرَّابع مَع الْأَوَّل فِي الضَّعْف، والْعَجْز فِي قِلة ٱلْمَال، وعدَم الأعوَان، ويَفترق عَنْه فِي أنّ الْأَوَّل صَرف النّظر عَن الرّئَاسة، والسُّمعة، والشُّهرة بَعد أنْ أيقَن بالْعَجْز، أَمَّا هَذَا الرَّابع فَلم يَصرف النّظر عَن السُّمعة، والشُّهرة، وٱستعَاض عَن ٱلْمَال، والأعوَان بإظهَار الزُّهْد فِي الدُّنْيا زُوراً، ونفَاقاً، لِأَنَّهَا هِي الّتي زَهدت فِيهِ، أَمَّا هُو فأحرَص النَّاس

(١) ٱلْمُدَّثِر: ٤.

(٢) أُنظر، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٢٧/٤، ٱلْحِكْمَة (١١٦).

(٣) أُنظر، خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٧/٤، ٱلْحِكْمَة (٣٠).

عَلَيْهَا... وَقَالَ الإِمَام ﷺ : «أَفْضَلُ ٱلزُّهْدِ إِخْفَاءُ ٱلزُّهْدِ»[١] ... «وَلاَ زُهْدَ كَـالزُّهْدِ فِي ٱلْحَرَامِ»[٢] ... وَلَيْسَ مِن شكٍ أنّ الرِّيَاء مِن أكْبرِ الكبَائر.

(وَ ٱنْقِطَاعُ سَبَبِهِ). أي لا يَملك شَيْئاً مِن أَسْبَاب الرّئاسة، والسُّمعة، والشُّهـرة (فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَلَىٰ حَالِهِ). أرْغَمه الْعَجْز أنْ يَقتصر عَلَىٰ الحَال الَّتي هُو عَلَيْهَا من حَيْث قِلة ٱلْمَال، وعَدم الأَنْصَار، وسَلك طَرِيق الدّجل، والإحْتيال (وَ تَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ، وَ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ، وَ لاَ مَغْدىً). الرَّواح الذّهاب فِي العَشي، والمَرَاح اسم مكَان الرّواح، والغدو الذّهـاب فِي الصّـباح، والمَـغْدىٰ اسم مكَـان الغَدو، ويُقَال: «مَا تَرك فُلاَن مِن أَبيه مَرَاحاً وَلاَ مَغدىً» إذَا أشبَهه فِي كـلّ شيء. وقَصْد الإِمَام ﷺ ظَاهر، وهُو أنّ هَذَا المُرائِي لَيْسَ مِن الزُّهْد وأهْله فِي شيء، وإنّما هُو دَجالٌ، ومُحتالٌ.

بَقِيَ رِجَالٌ...فِقْرَة ٤ ـ ٥:

(وَ بَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ، وَ أَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ، وَ خَائِفٍ مَقْمُوعٍ، وَ سَاكِتٍ مَكْعُومٍ، وَ دَاعٍ مُخْلِصٍ، وَ ثَكْلاَنَ مُوجَعٍ، قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ، وَ شَمِلَتْهُمُ الذِّلَّةُ، فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ، أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ، وَ قُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ، قَدْ وَعَظُوا حَتَّىٰ مَلُّوا، وَ قُهِرُوا حَتَّىٰ ذَلُّوا، وَ قُتِلُوا حَتَّىٰ قَلُّوا[٤]. فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالَةِ الْقَرَظِ، وَ قُرَاضَةِ الْجَلَمِ، وَ ٱتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَ ٱرْفُضُوهَا ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِـهَا مِنْكُمْ[٥]).

---

(١) أنظر، خطب نَهج ٱلبَلاَغَة: ٧/٤، ٱلحِكمَة (٢٨).

(٢) أنظر، خطب نَهج البلاغه: ٢٧/٤، ٱلحِكمَة (١١٣).

اللُّغَة:

النَّادّ ـ بِتَشدِيد الدَّال ـ من نَدّ إِذَا نفر، وذَهب عَلَىٰ وَجهه شَارداً. والمَقْمُوع: المَقْهُور. والمَكْعُوم: المَلْجُوم. وَثكْلاَنَ: الحَزْين لفقدَان الأحبَة. والتَّقِيَّةُ: إخفَاء الحَال خَوْف الضَّرر. والأُجَاج: المِلْح. والضَامِزَةُ: السَّاكتة. والحُثَالَة: الرَّدِيء من كلّ شيء ويُرمىٰ بِهِ مَع القُمَامة. والْقَرَظِ ـ بفَتح الرّاء ـ وَرَق السَّلَم يُدبغ بِهِ. وَقُرَاضَة: ما يَسقط عِند القَرْض. والجَلَمِ: المِقْرَاض.

الْمَعْنَىٰ:

بَعد أنْ ذكر الإمَام أَهْل الدُّنْيَا، وأصنَافهم الأَرْبَعَة أشَار إِلَىٰ أَهْل الله، والآخِرَة، وذكر طَرفاً مِن صفَاتهم، مِن ذَلِكَ (غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ، وَ أَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ). يُرِيد بِالمَرْجِعِ القَبر، وبالمَحْشَرِ البَعث مِنْهُ. قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[1]... خلَقنا من ٱلأَرْض، وإلَيْهَا نَعود، ثُمَّ نَخرج مِنْهَا إِلَىٰ ٱلْحِسَاب، وٱلْجَزَاء، وإذَنْ نَحْنُ ضيُوف مُؤقتُون عَلَيْهَا، ثُمَّ نَنَام طوِيلاً فِي بَطْنها، وبَعد السُّبات الْعَمِيق نَنتَبه لنَعُود إِلَىٰ الله سُبْحَانَهُ، وٱلحِسَاب، وٱلْجَزَاء عَن آدَاب تِلك الضّيافة، ووَاجباتها. وقد سَمح الله أنْ نَتمتع فِي خيرَات الدُّنيَا جُهد طَاقتنا عَلَىٰ أنْ نَتزود مِنْهَا ليومٍ لا زَاد فِيهِ، وَلاَ عَمل، فَقَالَ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلاً طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

(فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ). فَرَّ بدِينه عَن السّاسة، وَالسِّيَاسَة، وٱلفَسَاد، وأهْله،

---

(١) طه: ٥٥.

(٢) ٱلأنفَال: ٦٩.

لِيَقطع الطَّرِيق عَلَىٰ نَفْسِه، فلا تَنزل مَنَازل الفَاسِدِين، وتَتدَنس بأقذَارهم (وَ خَائِفٍ مَقْمُوعٍ). خَائِف من ذَنْبِه، وعذَاب ربّه، ومَقهور صَبور عَلَىٰ المكَاره الَّـتي حُـفَّت بِٱلْجَنَّة (وَ سَاكِتٍ مَكْعُومٍ). مَلْجُوم عَن ٱلْبَاطِل، والْكَذِب، والْغِيْبَة، والنّميمة (وَ دَاعٍ مُخْلِصٍ). يَدعو إِلَىٰ الله، والْحَقّ بدَافع مِن دِينه، وضَميره (وَ ثَكْلَانَ مُوجَعٍ). حَزِين لِمَا يرىٰ من ٱلْفَسَاد، والضّلال (قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ). طَاردهم الطُّغاة، فتوَاروا عَنهم حَتَّىٰ خفِيت مكَانتهم عَلَىٰ أَكْثَر النَّاس.

(وَ شَمِلَتْهُمُ الذِّلَّةُ). وكلّ عزِيز عِند الله ذَلِيل عِند أعدَائه (فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ) فِي مُحيط فَاسد، وَبِيئة ضَالة (أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ). سَاكتة عَن ٱلْحَرَام (وَ قُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ) خَوْفاً مِن الله، ومِن ٱنتشَار ٱلْفَسَاد فِي ٱلأَرْض (قَدْ وَعَظُوا حَتَّىٰ مَلُّوا) حَيْث لا أُذن تَسمع، وَلاَ قَلب يَخْشَع (وَ قُهِرُوا حَتَّىٰ ذَلُّوا، وَ قُتِلُوا حَتَّىٰ قَلُّوا). نكلّ الطُّغاة بِهِـمْ سِجناً، وقتلاً، وتَشرِيداً، وتَعذِيباً حَتَّىٰ أذلّوهم، وكَادوا يَستأصلُون شَأفتهم.

(فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالَةِ). الدُّنْيَا وسِيلة إِلَىٰ غَيْرها، وَلَـيست غَايَة فِي نَفسها، وكلّ عَمل يَعمله ٱلإِنْسَان فِي دُنياه يُقاس بنتَائِجه إنْ خَيراً فخَير، وإنْ شرّاً فَشرّ. وقَد مَدح الإِمَامﷺ الدُّنْيَا فِي بَعْض أَقْوَاله، ومُرَاده دُنـيا الأبـرَار الّذين لا يُؤْثرونها عَلَىٰ آخرتهم، ويَقُولُون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1]. وأَكْثَر الإِمَام مِن ذَمّ الدُّنْيَا عَلَىٰ قَدر المُتكالبِين عَلَيْهَا، ومُرَاده دُنيا الأَشْرَارِ الّذين آثروا الْعَاجِلَة عَلَىٰ الآجِلَةِ، وهُم المَعْنيُون بقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾[2].

(١) ٱلبَقَرَة: ٢٠١.
(٢) يُونُس: ٧.

وَقَالَ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1].

(اَتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَ ٱرْفُضُوهَا ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ). والشّيء المُحير أَنّ ٱلإنْسَان يَرىٰ كـلّ يَـوْم العدِيد من الصّور، وٱلْحَوَادِث الّتي تُوحي بـالاتعّاظ، والاِعْـتِبَار، ومَـع هَـذَا لا يزدَجر مِن الله بزَاجر، وَلاَ يَتعظ مِنْهُ بوَاعظ. فَمَا هُو السّر يَا تُرىٰ؟

ولَيْسَ بِبَعِيد أنْ يَكُون السّر هُو المُجتمع المُعقد الفَاسد الَّذي يَضم أُناساً يأكلُون، وَلاَ يَكدحُون تَمَاماً ككلاَب السَّيِّدات، والآنِسَـات «الإرسـتقرَاطِـيات» وأُنـاساً يَعْمَلُون لَيلَ نَهار، وَلاَ يَعثرُون عَلَىٰ الغذَاء إلاّ بِقَسوة مَع الصّبر عَلَىٰ المَخَاطر... وكلّ النَّاس قَرأوا، أو سَمعوا عَن الآلاف الّذين مَاتوا خَنقاً تحَت الرّدم، وهِم يَحفرُون فِي المَنَاجم لتكدِيس الثّروَات فِي مصَارف المُتسَابقِين إِلَيْهَا... هَذَا هُو السّر، أو السَّبب الأَهَم، وإِلَيْهِ يُومىء الإمَامعليه السلام بقَوْله فِي خُـطْبَة يَأْتِي شرحـها: «ٱضْرِبْ بِـطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ فَهَلْ تُبْصِرُ إلاّ فَقِيراً يُكَـابِدُ فَـقْراً، أَوْ غَـنِيّاً بَـدَّلَ نِـعْمَةَ اللهِ كُفْراً؟»[2].

---

(١) ٱلنَّازِعَاتِ: ٣٨.

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (١٢٩).

الخطبة
ـ ٣٣ ـ

مَا عَجَزْتُ، وَلاَ جَبُنْتُ...فِقْرَة ١ ـ ٢:

(إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله، وَ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَ لاَ يَدَّعِي نُبُوَّةً، فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّىٰ بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، وَ بَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ، وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ. أَمَا وَ اللهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّىٰ تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا: مَا عَجَزْتُ، وَ لاَ جَبُنْتُ، وَ إِنَّ مَسِيرِي هَذَا لِمِثْلِهَا فَلأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّىٰ يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ[1].

مَا لِي وَ لِقُرَيْشٍ! وَ اللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَ لأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وَ إِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالأَمْسِ، كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ! وَ اللهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلاَّ أَنَّ اللهَ اخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ، فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا، فَكَانُوا كَمَا قَالَ الأَوَّلُ:

أَدَمْتَ لَعَمْرِي شُرْبَكَ الْمَحْضَ صَابِحاً ... وَ أَكْلَكَ بِالزُّبْدِ الْمُقَشَّرَةَ الْبُجْرَا
وَنَحْنُ وَهَبْنَاكَ الْعَلَاءَ وَ لَمْ تَكُنْ ... عَلِيّاً وَ حُطْنَا حَوْلَكَ الْجُرْدَ وَ السُّمْرَا

اللُّغَة:

بَوَّأَ: هَيَّأَ، أَو أَسْكن. وصَفَاتُهُمْ ـ بفتح الصَّاد ـ جمع صفَاة، وَهِي الصَّخرَة

الصّلبَة، والسَاقَة يكُونون فِي مُؤَخَّر الجَيْش يَسوقُونه إِلَىٰ الأمَام. وبِجَذَافِيرِهَا: بِأسرها وكَاملها. ومَفْتُونِينَ: مُنْحَرِفِين عَن ٱلْحَقّ.

الإِعْرَاب:

إِنْ كُنْتُ «إِنْ» مُخففة من الثّقِيلة، وٱسمها ضَمِير الشّأن مَحْذُوف أي أنّه كُنت. ولأَنْقبَنَّ الوَاو للقَسم، وحَتَّىٰ يَخْرُجَ، الفِعْل مَنْصُوب بأنْ مُضمرة بَعد حَتَّىٰ. مَا لِي مُبْتَدَأ وخَبَر. وكَافِرِينَ حَال، ومِثله مَفْتُونِينَ. والمَصْدَر من أَنَّ اللهَ ٱخْتَارَنَا.. إلخ. مَفْعُول من أجْله لتَنْقم.

المَعْنَىٰ:

قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي نَقلاً عَن ٱبن عَبَّاس: «دَخَلْتُ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِذِي قَارٍ - بَلد قُرب الْبَصْرَة - وَهُوَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ - أي يَخرزُهَا - فَقَالَ لِي مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ؟ فَقُلْتُ: لاَ قِيمَةَ لَهَا. فَقَالَ عليه السلام: وَ اللهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ، إِلاَّ أَنْ أُقِيمَ حَقّاً، أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلاً، ثُمَّ خَرَجَ فَخَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ:

(إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله، وَ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَ لاَ يَدَّعِي نُبُوَّةً). الْمُرَاد بِٱلْكِتَاب هُنا ٱلْكِتَاب السّماوي من غَيْر تَحرِيف، وتَزيِيف، والْمَعْنَىٰ أنّ الْعَرَب قَبل البِعثة كَانُوا فِي جَهالةٍ مُهلكة، وضَلالةٍ مُظلمة، وَلاَ يَهتدُون بكتَاب إلهي، ولاَ بسُنَّة نَبوية... وإِلَىٰ هَذَا تُومىء الآيَة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ

مُّبِينٍ﴾(١).

وَاَلْقُرْآن اَلْكَرِيم أصدَق مَرجع عَن أحوَال الْعَرَب فِي الْجَاهِلِيَّة، ويَأْتِي من بَعده نَهْج اَلْبَلاَغَة حَيْث لَم يَكُنْ للقُوم كتَاب سماوي، وَلاَ أرْضِي. ونَزل اَلْكِتَاب نجُوماً أي آناً بَعد آن حَسب الوقَائع، والمصَالح، ثُمّ جُمع فِي مُجلَّد وَاحد، وكَان الإِمَام يَخْطُب، أو يَكتُب الرّسائل لعُمّاله، أو يُرسل اَلْحِكْمَة، واَلْمَوْعِظَة حَسب المقَامَات، والمُنَاسبَات يَوْمَ لا تَآلِيف، ولاَ تَصنِيف عِند الْعَرَب، ولا شَيء إلاّ كتَاب الله، وَسُنّة نَبِيّه، وفِي أواخر القَرن الرّابع الهِجري جَمَع الشَّرِيف الرَّضِي من آثَار الإِمَام مـا فِي نَهْج اَلْبَلاَغَة.

(فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّىٰ بَوَّأَهُمْ مَحلَّتَهُمْ، وَ بَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ، وَاَطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ). دَفع الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ بالنَّاس إِلَىٰ الإِمَام، وأَنْقَذهم مِن الهَلكة إِلَىٰ سَبِيل النَّجَاة، فاستقَامت أُمورهم، وسَكنُوا فِي دِيارهم آمنِين، وكَانوا يَخَافُون مِن قَبل أنْ يَتْخَطفهم النَّاس، وبكلاَم أوضَح: حوّل الرَّسُول لأعْظَم ﷺ قَوْمه مِن الشّرك إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، ومِن الضّلال إِلَىٰ اَلْهُدَىٰ، ومِن الذُّلِّ إِلَىٰ اَلْفَتحِ المُبِين، فكَان مَبعثه إيذَاناً بالتَّحول الخطِير فِي حَيَاة الْعَرَب، بل فِي حَيَاة العَالم كلّه بشهَادة التَّأرِيخ، وكلّ بَاحث قدِيم، وجدِيد فِي الشّرق، وفِي الغَرب.

(أَمَا وَ اللهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّىٰ تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا: مَا عَجَزْتُ، وَ لاَ جَبُنْتُ). الضَّمِير فِي سَاقَتِهَا، وتَولَّتْ بِحَذَافِيرِهَا يَعود إِلَىٰ النَّاس الّذين سَاقهم النَّبِيّ ﷺ حَتَّىٰ بَلغ بِهِمْ منَازل اَلْعِزَّة، والْكَرَامَة، ويُرِيد الإِمَام أنّه قد سَاهم فِي ذَلِكَ، ويجُوز أنْ

(١) اَلْجُمُعَة: ٢.

يَعود الضَّمِير إِلَىٰ الجَاهِلِيَّة المفهُومة مِن الكَلاَم أي أنّ الإِمَام ساهم فِي جهَاد الْجَاهِلِيَّة والْقَضَاء عَلَيْهَا.

وَلاَ يَخْتلف ٱثْنَان فِي أنّ عَلِيّاًعليه السلام سَاهم بنصِيبٍ فعَّال مَع رَسُول الله صلى الله عليه وآله فِي جَمِيع موَاقفه، وكَانَ له شأنٌ كبير فِي الْجِهَاد من أجل ٱلإِسْلاَم... فقد بَات عَلَىٰ فرَاش النَّبِيّ لَيْلَة الْهِجْرَة، وكَانَ بِذَلِكَ أَوَّل فدَائي فِي ٱلإِسْلاَم، وقَتل ٱبن وَدّ، فٱنهزم ٱلأَحْزَابِ، وأردَىٰ مَرحَباً فٱنْتَصر ٱلإِسْلاَم، وأهْله، أَمَّا بقِية المشَاهد كبَدْر، وأُحد،... فقد كَانَ له مِنْهَا الحَظ الأَكْبَر، والأوفَر. فبسَيْف عليٍّ، وسَاعده، وشَجَاعته، وثَبَاته قَام ٱلإِسْلاَم، ورَست دعَائِمه، وإذَنْ فلا عَجب أنْ يقول: «إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّىٰ تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا».

شيء آخر سَاهم فِيهِ الإِمَامعليه السلام لا يَقل نَفعاً، وشَأناً عَن جِهَاده بالسَّيْف، وهُو أثرَه البَالغ فِي الشَّريعَة، والتَّفسِير، واللُّغَة، والفَلْسَفَة، والأَخْلاَق، ونظرِيته فِي ٱلْمَال، والإقْتِصَاد، والرَّعِيَّة، والرَّاعِيَ... إِلَىٰ غَيْر ذَلِكَ من العُلوم، ومن هنا كَانَتْ مَنزلته عِند الرَّسُول الأَعْظَم فَوق الجَمِيع بلا ٱستثنَاء. قَالَ التِّرمِذي فِي صَحِيحه: «سُئلت عَائِشَةَ أي النَّاس كَانَ أحبّ إِلَىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قَالت: فَاطِمَة. فقِيل لها: مِن ٱلرِّجَال؟ قَالت: عَليّ»[1]. وفِي خصَائِص النّسائي: «قَالت عَائِشَةَ: ما أعلَم

(١) أنظر، صَحِيح التِّرمِذي: ٢ /٣١٩ طَبْعَة بولاق سَنَة ١٢٩٢ هـ (مِنْهُ رحمه الله). الجَامِع الصَّحِيح للترمذي: ٥/٦٩٨ ح ٣٨٦٧ و ٣٨٧٤، وذخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٣٥، جامع الأُصُول: ١٢٥/٩، الْمُسْتَدرَك عَلَىٰ الصَّحِيحَين: ١٧١/٣ ح ٤٧٤٤، الْمُعْجَم الْكَبِير: ٤٠٣/٢٢ ح ١٠٠٨، سير أعلام النّبلاء: ١٢٥/٢، تَهْذِيب الكَمَال: ٥١٢/٤ ح ٩٠٥.

أحداً كَانَ أحبّ إِلَىٰ رَسُول الله ﷺ مِن عَليّ، وَلاَ مِـن ٱمْـرَأَته فَـاطِمَة»[١]. وفِي مُسْنَد الْإِمَام أحمَد: «أنّ أبا بَكْر دَخل عَلَىٰ النَّبِيّ ﷺ فَسمع صَوْت عَائِشَة عَالِياً، وَهِي تَقول لرَسُول الله ﷺ: والله لَقَد عَرفت أنّ عَلِيّاً أَحبّ إِلَيْكَ مِن أَبِي، وَمِني»[٢] قَالتها مَرتين أو ثَلاَثاً[٣].

(وَ إِنَّ مَسِيرِي هَذَا لِمِثْلِهَا). يُشِير إِلَىٰ أَنّ حَرْبه لأصحَاب الْجَمَل تَمَاماً كحَرْبه مَع رَسُول الله فِي جهَاد الشّرك، وأَهْله... روىٰ الْإِمَـام أحمَـد فِي مُسْـنَده أنّ رَسُـول الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْكُم من يُقَاتل عَلَىٰ تأوِيله ـأي ٱلقُرْآن ـكَما قَاتل عَلَىٰ تَنْزِيله، فَقَالَ أبو بَكْر: أنا يارَسُول الله! قَالَ: لا، قَالَ عُمَرَ: أنا يارَسُول الله! قَالَ: لا، ولكنْ خَاصف النّعل، قَالَ: وكَانَ أعْطىٰ عَلِيّاً يَخْصف نَعلهُ»[٤].

---

(١) أُنظر، خصائص النّسائي: ٢٩ طَبْعَة مِصْر ١٣١٢ هـ (مِنْهُ ﵀)، بالإضافة إِلَىٰ المصادر السّابقة.

(٢) أُنظر، مُسْنَد الإمام أحمد بن حنبل: ٤ /٢٧٥ طَـبْعَة مـصر ١٣١٣ هـ (مِـنْهُ ﵀)، ومَجْـمَع الزوائـد: ٢٠١/٩، سـنَن أبي داود: ٣٠٠/٤ ح ٤٩٩٩، السـنن الكـبرىٰ: ١٣٩/٥ ح ٨٤٩٥ و ٩١٥٥، فـتح الباري: ٢٧/٧ ح ٣٤٦٢، فيض القَدِير: ١٦٨/١، فَضَائِل الصَّحَابَة للإمام أحمد: ٧٥/١ ح ٣٩.

(٣) أُنظر، فَضَائِل الخَمْسَة من الصّحاح السّتة. (مِنْهُ ﵀). بالإضافة إِلَىٰ المصادر السابقة.

(٤) أُنظر، مُسْنَد الْإِمَام أحمـد: ٣ /٣٣ طَـبْعَة سَـنَة ١٣١٣ هـ (مِـنْهُ ﵀)، و: ٣١/٣ ح ١١٢٧٦ و ١١٣٠٧ و ١١٧٩٠ و: ٤٢٤/٤، مُسْنَد أَبِي يعلىٰ: ٣٤١/٢ ح ١٠٨٦، الْفِتَن لِابْـن حـماد: ٣٧١/١ ح ١٠٩٢، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٤٦/١ ح ١١٥، تَهْذِيب الكَمَـال: ١٥٨/٩، الْإِصَـابَة: ٣٧/١ ح ٥٩، العِلَل المتناهية: ٢٤٢/١ ح ٣٨٦، فَضَائِل الصَّحَابَة لأَحْمَد بن حنبل: ٦٢٧/٢ ح ١٠٧١، مَجْمَع الزّوائـد: ٥ / ١٨٦، خصائص النّسائي: ٤٠ و ١٦٦. ولذا قَالَ الْإِمَام الشّافعي: أخذ ٱلْمُسْلِمُون السِّيرَة فِي قتال ٱلْمُشْرِكِين من رَسُول الله ﷺ. وأَخذُوا السِّيرَة فِي قتال البُغاة من عليّ ؈، كما جاء فِي شَرْح النَّهْج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٩ / ٣٣١ نقلاً عَن كتاب الأُمّ للشافعي: ٤/ ٢٣٣ باب الخِلاَف فِي قتال أَهْل الْبَغْي، صَحِيح ٱبـن حـبّان: ٣٨٥/١٥ ح ٦٩٣٧، الْمُسْتَدرَك عَلَىٰ الصَّحِيحِين: ١٣٢/٣ ح ٤٦٤١، السّنَن الْكُبْرَىٰ: ١٥٤/٥ ح ٨٥٤١، معتصر المختصر: ٢٢١/١.

(فَلأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّىٰ يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ). أَبَداً لا رَائد لِعليٍّ إلاّ ٱلْحَقّ... ويَسْتَحِيل أنْ يَخدع نَفْسه بتجَاهله، أو يَدع لأحد سَبِيلاً أنْ يَخدعه فِيهِ، وهُو يَسلك كلّ طرِيق لنُصرته، وَإِذَا أسدَل ٱلْبَاطِل، وأهْله سِتَاراً عَلَىٰ ٱلْحَقّ لِيَحجبُوا الْبَصر، والبَصِيرة عَن رُؤيته هَتك الإِمَام هَذَا السّتار، وكَشف عَن ٱلْحَقّ، وأعْلنه للنَّاس صَافِياً جَلِياً كوضُوح النَّهَار.

(مَالِي وَ لِقُرَيْشٍ). أقَام النَّبِيّ ﷺ بمكَّة (١٢) عَاماً بَعد البِعثَة، ولاَقىٰ خِلالها مِن قُرَيْش كلّ عَنْت، فمِن مُحاصرته فِي الشِّعب، وقَطع المُؤونة عَنْه سَنتين إِلَىٰ نَعته بالْكَذِب، والسّحر، والجنُون، ومَن قَذفه بالحجَارة إِلَىٰ وَضع الأشوَاك فِي طرِيقه، والقُمامة عَلَىٰ جَسده... ولمّا هَاجر إِلَىٰ الْمَدِينَة جَمعُوا الْجُيُوش، وٱلْأَحْزَابِ لحَرْبه، وقَد شَاركه الإِمَام فِي كلّ ما قَاسَاه من قُرَيْش، وزَاد عَلَيْهِ ما أَصَابه مِنْهُم من بَعده، ٱغْتَصبوا ٱلْخِلاَفَة مِنْهُ، وفَدَكاً من زوّجته، وٱقتَحموا عَلَيْهَا دَارها، ثم قَرنوا الإِمَام فِي شُورَىٰ عُمَرَ مَع خَمْسة لا يَجمعهم معَه شَبه، وَلاَ جَامع... «فَيَا للهِ وَلِلشُّورَىٰ! مَتَىٰ ٱعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّىٰ صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَىٰ هَذِهِ النَّظَائِرِ!»؟[1].

ولمَّا بَايعه الْمُهَاجِرُون، والأَنْصَار «نَكَثَتْ طَائِفَةٌ، وَمَرَقَتْ أُخْرَىٰ، وَقَسَطَ آخَرُونَ»[2]، والنَّاكِثُون، والْقَاسِطُون مِن قُرَيْش (وَ اللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ وَلأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ) ضَالين عَن ٱلْحَق (وَ إِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالأَمْسِ) فِي أُحد، وٱلْأَحْزَابِ (كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ). وَقَد يُقَال: إِنَّ هَذَا يَصح فِي حقّ مُعَاوِيَة، وٱبن العَاص حَيْث حَاربا النَّبِيّ ﷺ، وحَاربهما عليّ دفَاعاً عَن ٱلإِسْلاَم، ونَبِيّ ٱلإِسْلاَم،

---

(١) تَقدَّم إستخراج ذَلِكَ فِي ٱلْخُطْبَة الثَّالثة من خُطْبه ؑ، والَّتِي تُعْرَفُ بالشِّقشِقِيَّة.
(٢) تَقدَّم إستخراج ذَلِكَ فِي ٱلْخُطْبَة الثَّالثة من خُطْبه ؑ، والَّتِي تُعْرَفُ بالشِّقشِقِيَّة.

ولاَ يَصح فِي حقّ طَلْحَة، والزُّبَيْر حَيْث كَانا مَع النَّبِيّ لا عَلَيْهِ.

وَنُجيب: أنّ مُراد الإِمَام أنّه هُو هُو الآن، وفِي عَهد الرَّسُول ﷺ يُناصر ٱلْحـقّ، وأهْله، ويُحَارِب ٱلْبَاطِل، وأتبَاعه، سواء أكانوا مُشرِكِين، أَمْ مارِقِين، أَمْ قاسِطِين، أَمْ نَاكِثِين.

(وَ اللهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلاّ أَنَّ اللهَ ٱخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ). وذَلِكَ بأنّه سُـبْحَانَهُ جَـعل النُّبُوَّة فِي بَني عَبدالمطلب، وهُو، جَلَّت حِكْمَته: ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]. (فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا). أي وصَلنا رَحمهم، ولكن قَطعوا رَحمنا.

وفِي خُطْبَة ثَانِيَة: «أَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَىٰ قُرَيْشٍ وَ مَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَ صَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَ أَجْمَعُوا عَلَىٰ مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي. ثُمَّ قَالُوا: أَلاَ إِنَّ فِي ٱلْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَ فِي ٱلْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ»[2]. والسّر ما أَشَار إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ بقَوْله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[3].

---

(١) ٱلأَنْعَام: ١٢٤.

(٢) أُنظر، خطب نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٧٢).

(٣) ٱلنِّسَاء: ٥٤.

الخطبة
- ٣٤ -

غُلِبَ وَاللهِ الْمُتَخَاذِلُونَ... ١ ـ ٢:

(أُفٍّ لَكُمْ ! ! لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ ! أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ عِوَضاً ؟ وَ بِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلَفاً ؟ إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَىٰ جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ ، وَ مِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ . يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُونَ ، وَ كَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ ، فَأَنْتُمْ لاٰ تَعْقِلُونَ[1] . مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي ، وَ مَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ ، وَ لاٰ زَوَافِرُ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ . مَا أَنْتُمْ إِلاَّ كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا ، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ ، لَبِئْسَ ـ لَعَمْرُ اللهِ ـ سُعْرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ ! تُكَادُونَ وَلاٰ تَكِيدُونَ ، وَ تُنْتَقَصُ أَطْرَافُكُمْ فَلاٰ تَمْتَعِضُونَ ، لاٰ يُنَامُ عَنْكُمْ وَ أَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ ، غُلِبَ وَ اللهِ الْمُتَخَاذِلُونَ[2] !) .

اللُّغَة:

أُفٍّ : للتَّضَجُّر ، والسَّأْمُ : المَلَل . وغَمَرَه المَاء : عَلاه ، وغَطّاه ، وغَمْرَة المَوْتِ : سَكْرَة تَغمر الْعَقْل . والذُّهُولِ : النّسيان . ورَتَجَ البَاب : أَغلقه ، وأُرْتِجَ عَلَىٰ المتَكَلِّم :

ٱستغَلق عَلَيْهِ الكَلاَم. والحَوَار: مُرَاجعة الكَلاَم. وَتَعْمَهُون: تَتَحَيَّرُون. والمَأْلُوس: مَجْنُون، وٱلْقُلُوب المَأْلُوسَة هِي ٱلَّتي مَسها الجنُون. والسَجِيس: الأبَـد، يُـقَال: لا آتِيك سَجِيسَ اللَّيَالِي، أي أَبَداً، ومَدىٰ اللَّيَالِي. والزَوَافِرُ: جَمع زَافِرة، وَهِي مـن البنَاء رُكنه، ومن الرَّجُل عَشِيرته، وسُعْرُ ـ بضم السّين، وسكُـون الْـعَيْن ـ جَمـع سَاعر، مِثل كُظْم جَمع كَاظم، والسَّاعر: موقِد ٱلنَّار. وتَمْتَعِضُونَ: تَغْضِبُون.

الإِعْرَاب:

أُفٍّ لا محَل لهَا من الإِعْرَاب، وعِوَضاً تَمْيِيز، ومِثله خَلَفاً، وحَوَارِي فَاعِل يُرْتَجُ، وبِثِقَةٍ البَاء زَائِدَة، وثِقَةٍ خَبَرَ أَنْتُمْ، ولِي مُتَعَلِّق بِثِقَةٍ، وسَجِيسَ ظَرف زمَـان، وَ لا زَوَافِرُ بالرَّفع عَلَىٰ تقدِير وَلاَ أَنْتُمْ زَوَافِر، وبالجَر عَطفاً عَلَىٰ رُكْن، واللاَّم فِي لَبِئْسَ للقَسم، وسُعْرُ فَاعِل بِئْسَ، وأَنْتُمْ المَخصوص بالذَّمِ، وخَبَره جُملة بِئْسَ وفَـاعلها، وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ الوَاو للحَال، وفِي غَفْلَةٍ مُتَعَلِّق بـ«سَاهُونَ».

الْمَعْنَىٰ:

(أُفٍّ لَكُمْ لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ)! ورُبَّ قـائل: إِذَا سَـئِم عِـتَابَهُم، وَلاَ يَـطمعُ فِي نَصرهم، كمَا جَاء فِي خُطْبَة سَابقة، فَلِمَاذَا تكرار العِتاب، والحَثّ عَلَىٰ الْجِهَاد؟ وهل الأَمْر بِٱلْمَعْرُوف غَايَة لا وَسِيلة؟ ثُم ألا يحدث هَذَا التَّقريع المتوَاصـل رَد فِـعل فِي النّفوس فَتَنفر، وتَشمئز، وَلاَ تزدَاد إلّا عِناداً، ونفُوراً، أو تَعتاد عَلَىٰ ما تَسمع تمَامَاً كمَا ٱعتدنَا طَقْطَقَة السّاعة؟

الجَوَاب:

كَانَ ٱلْعَدُوّ يَغزو ٱلدَّوْلَة بٱستمرَار ، يَسْلب ، وينْهب ، ويقْتل ، وَيُدمر ، ويَقطع مِنْهَا الأطرَاف ، وأَصْحَاب الإِمَام يَتثَاقلُون ، وَلاَ يُحركُون سَاكِناً ، فَإِذَا سَكَت هُو أيضاً وتجَاهل فلا تَفْسِير لسكُوته فِي هَذَا المَقَام إلاّ الرّضـا ، لأنّ السُّكُـوت فِي مَعرض ٱلْحَاجَة إِلَىٰ ٱلْبَيَان يُشعر بالرِّضا... وأيضاً كَانَ الإِمَام يخْطُب ، ويُقرع حِـينَ يَأْتِـه الْخَبَر بغَزْوَة ، أو تَدبِير من الـعَدُوّ ، ومـا أَكْـثَر مـا غَـزا الْـعَدُوّ الأطـرَاف ، ودَبـر المكَائد... وأيضاً شَكا ٱلْأَنْبِيَاء أقوَامهم مَرَّات ، ومَرَّات ، ودَعوا عَلَيْهِمْ بـالهَلاك ، وبَلغ الْأَمْر بـ«يُوْنُسَ» أنْ تَرك قَوْمه مُغاضِباً ، وأنْ ضَرب فِي ٱلْأَرْض لا يَدري إِلَىٰ أَين(١)... عَلَىٰ أنّ الرّؤساء فِي النِّهَايَة ثابُوا إِلَىٰ رُشدهم ، ونَدموا عَلَىٰ تفرِيطهم ، بخَاصَّة بعد أنْ صَمم الإِمَام عَلَىٰ المُضي إِلَىٰ الجِهَاد وَحده ، أو مَع قِلة مِن أهْله ، ومَن تَبعه مِن ٱلْمُؤْمِنِين ، فيُقَاتل حَتَّىٰ يَـلقىٰ ربّـه ، فٱسـتَخزىٰ الرّؤسـاء أنْـفسهم ، وحَرض كلّ رئِيس قومَه ، حَتَّىٰ ٱجْتمع لِلإِمَامِ جَيش يُمكن الرّكون إِلَيْهِ . وقَبل أنْ يَسِير الإِمَام إِلَىٰ حَرْب عَدُوّ الله ، وعَدُوّه نَزل الْقَضَاء بضَربةٍ مِن سَيْف ٱبن مُلْجَم ، عَلَيْهِ لعَائِن الله ، وبِها ٱخْتَتم الإِمَام بلاَءه ، وأعبَاءه .

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ عِوَضاً ؟ وَ بِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَـلَفاً) ؟ الْجِـهَاد لنُصرة ٱلْحَقّ ، ولو بكَلِمَة خَالصة لوجْهه تَعَالَىٰ ، هُو ٱلْعِزَّة ، والْكَرَامَة دُنياً ، وآخرة ، ومَن رَغب عَن الْجِهَاد ، وتخَوْف مِـنْهُ فَـقَد رَضي بـالهوَان ، وتَخَـوْف مِـن ٱلْحَـقّ ، والصِّدْق ، والْعَدْل (إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَىٰ جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ

(١) يقصد قَوْله تَعَالَىٰ فِي الآيَة ٨٧ من سُورَة ٱلْأَنْبِيَاء : ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

فِي غَمْرَةٍ). أَبداً لا فَرق عِندهم بَيْنَ دَعوتهم إِلَىٰ الْجِهَاد ، ونزُول ٱلْمَوْت بِهِمْ ، ولَيْسَ مِن شَكٍّ أنّ هِذِه الظَّاهِرة أسبابها ، ومِنْهَا كراهية الْحَرْب ، وحبّ الأَمْن ، وفَرَاغ البَال ، ولكنْ هل للأَمن ، والسّلم مِن وَزن إِذَا كَانَ مَعه رِقّ ، وٱستذلاَل ، وٱغتصَاب ، وٱستغلاَل ؟ إِنَّ هَذَا سِلم الظُّلم لا سِلم الْعَدْل ، وأَمن اللّصوص لا أَمن الشُّرفاء (وَ مِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ). بَيَان ، وتَفْسِير للمَعطوف عَلَيْهِ.

(يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُونَ). لِمَاذَا تُفحَمون ، وتَتَحِيرُون إِذَا خَاطبتكم بكَلِمَة الْجِهَاد ؟ . (وَ كَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ). أَصَابَ عقُولكم مَس الجنُون (فَأَنْتُمْ لاَ تَعْقِلُونَ) مضَارّكم ، ومنَافعكم ، وَلاَ تُميزون بَيْنَ ما يُصلحكم ، وما يُفسدكم (مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي). أَبَداً لا أَثق بكُم... وأي عَاقل يَثق بسرَاب !! (وَ مَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ) عَلَىٰ الْعَدُوّ ، فَتكسرُون شُوكته ، وتَردعُونه عَن عُدْوَانه (وَ لاَ زَوَافِرُ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ). لَستُم أَنصاراً للْحَقّ لِيعتز بكُم ، ويَحْتَاج إِلَيْكُم الْمحقون.

(مَا أَنْتُمْ إِلاَّ كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا ، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ ٱنْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ) كِنَاية عَن ٱختلاَف كَلمتهم ، وشتَات أمرهم (لَبِئْسَ ـ لَعَمْرُ اللهِ ـ سُعْرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ !). لَستُم مِن أبنَاء الْحَرْب ، وَلاَ بأكفائها (تُكَادُونَ وَ لاَ تَكِيدُونَ). يُدبر الْعَدُوّ لكُم الحِيل ، والمكَائد ، ويَضرب منكم كلّ بنَان ، وَلاَ تَمنعُونه بحِيلة ، أو وسِيلة ، أو تَدفعُونه بِعَزم ، وشجَاعة (وَ تُنْتَقَصُ أَطْرَافُكُمْ فَلاَ تَمْتَعِضُونَ). يَحتل الْعَدُوّ أَرْضكُم وَلاَ تَغْضبُون... أبداً كمَا قَالَ الشَّاعر :

مَن يَهُنْ يَسْهَل عَلَيْهِ الهَوَان   مَا لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إِيلاَم

(لاَ يُنَامُ عَنْكُمْ وَ أَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ). غَفْلتهم عَن عَدوٍّ ظَالِمٍ غَشوم ، وهُو لا يَغفل عنكُم (غُلِبَ وَ اللهِ الْمُتَخَاذِلُونَ). مَن تَخَاذل عَن الاْنتصَار لحقّه ، والدّفاع عَنه

طَمع فِيهِ الضَّعِيف المُبطل، وقَوي عَلَيْهِ، وأذَلّه، وأصدقُ شَاهد عَلَىٰ هَذِه الْحَقِيقَة حَال اليَهود عَلَىٰ قَتلهم مَع الْعَرَب عَلَىٰ كَثرتهم... وعِلَّة الْعِلَل عِند الْعَرَب سكُوتهم عَن سَادتهم.

فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ...فِقْرَة ٣ ـ ٤:

(وَ ايْمُ اللهِ إِنِّي لَأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَىٰ، وَ اسْتَحَرَّ الْمَوْتُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الرَّأْسِ. وَ اللهِ إِنَّ امْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرُقُ لَحْمَهُ، وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ، وَ يَفْرِي جِلْدَهُ، لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ. أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ، فَأَمَّا أَنَا فَوَاللهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الْهَامِ، وَ تَطِيحُ السَّوَاعِدُ، وَ الْأَقْدَامُ، وَ يَفْعَلُ اللّٰهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ[٣].

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَ لَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَ تَعْلِيمُكُمْ كَيْلاَ تَجْهَلُوا، وَ تَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا، وَ أَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ، وَ النَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ، وَ الْمَغِيبِ، وَ الْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَ الطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ[٤]).

اللُّغَة:

حَمِسَ: اشتَد. الْوَغَىٰ الْحَرْب. وانْفرجتُم: انْكَشفتُم، وَذَهبْتُم. وانْفِرَاجَ الرَّأْس: أي عَن البَدن بحَيث لا التئام بَعده مَعه. ويَعْرُقُ لَحْمَهُ: يَأكله. وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ: يَكسره. وَيَفْرِي جِلْدَهُ: يَقْطَعه، أو يُمزقه. وجَوَانِحُ: جَمع جَانِحَة، وَهِي الضِّلع. والْمَشْرَفِيَّة: السُّيُوف. وفَرَاشُ الْهَامِ ـ بفَتح الفَاء ـ الْعِظَام الرَّقِيقَة. وتَطِيحُ: تَسقُط.

والْفَيْء: هُنَا يَقصد بَيْت مَال ٱلْمُسْلِمِين.

الإِعْرَاب:

ٱيْمُ مُبْتَدَأ، وخَبَره مَحْذُوف وجُوباً، أي قسَمي. أَنْ لَوْ «أَنْ» مُخَففة من الثَّقِيلة، وٱسمها ضَمِير الشّأن مَحْذُوف أي أَنّه. ولَعَظِيمٌ خَبَر إِنَّ ٱمْرَأً، وعَجْزُهُ فَاعِل عَظِيمٌ. وضَعِيفٌ خَبَر ثانٍ، وَمَا ٱسم مَوْصُول فَاعِل ضَعِيفٌ. وجَوَانِحُ نَائِب فَاعِل لضُمَّتْ. وأَنَا مُبْتَدَأ، وخَبَره ضَرْبٌ أي ضَارِب.

الْمَعْنَىٰ:

(وَ ٱيْمُ اللهِ إِنِّي لَأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَىٰ، وَ ٱسْتَحَرَّ الْمَوْتُ، قَدِ ٱنْفَرَجْتُمْ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ ٱنْفِرَاجَ الرَّأْسِ) عَن البَدن... يَقسم الإِمَام عليه السلام أَنّ تثَاقلهم، وتكَاسلهم عَن الْجِهَاد قد بَلغ حَداً أوحىٰ إِلَيْهِ بأنّهم لو كَانوا مَعه فِي قَلب المَعرَكة يُقَاتل بِهِمْ الْعَدُوّ لتَركوه وَحده، وخَذلوه فِي سَاعة العُسرة... وفَعلوها مِن قَبل فِي صِفِّين، فلقَد كَفوا عَن الْقِتَال بَعد أَنْ وقَفوا عَلَىٰ أعتَاب النّصر، وٱستجَابوا لدَعْوَة عَدُوّهم مُعَاوِيَة الخَادعة الْكَاذِبة، والْإِمَام يُنادِيهم: لا تُصدقوا... حِيلَةً، وَغِيلَةً، وَمَكْراً، وَخَدِيعَةً... إِنّه يَرفع ٱلْقُرْآن كَاذِباً، وَلاَ تَائِباً، وخَادعاً لا رَاجعاً إِلَىٰ الله.. فأبوا... وأَنْذَره بَعْضهم بمفَارقته، وهَدده آخرون بِتَسلِيمه إِلَىٰ مُعَاوِيَة... لقَد فعلُوها مِن قَبل فِي صِفِّين، ومِن بَعد مَع وَلده الْإِمَام الْحَسَن عليه السلام. وإِذَنْ فلا بدع إِذَا لم يَركن إِلَيْهِمْ الْإِمَام، وإِنْ يَظن بِهِمْ الظّنون، وإِنْ يَعزبوا عَنْه، ويَهربوا عِند الشَّدَائِد.

(وَ اللهِ إِنَّ ٱمْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرُقُ لَحْمَهُ.. إلخ). سَمعنا كَثِيراً عَن أفرَاد

يَنْتَحرون، وَيَحرقُون أَنْفسهم أحيَاء مُخيرين، لا مُسيرين آحتجَاجاً عَلَىٰ الطّغاة والظَّالِمِينَ، ولَمْ نَسمع قطّ أنّ أحداً أسلَم نَفْسه لعَدُوّه، وعَدُوّ آلإنسَانية كِي يَنكل بهِ، ويَشفي مِنْهُ الغَليل... وَلاَ فَرق بَيْنَ هَذَا ومن سَكت عَن عَدُوّه الطّاغية يَفعل به ما يَشاء دُونَ أنْ يُدافع، ويُحرك سَاكِناً... بل هُو أسوأ حَالاً مِمَّنْ يَنْتَحر مُحتجاً عَلَىٰ أَعْدَاء الله، وآلإنْسَانية... إنّه تَمَامَاً كمَن يَأْكُل لَحمه بأسنَانه، ويَكسر عظْمه بِيده، ويُمزق جِلده بمُديَته... وَلاَ شيء وَرَاء هَذَا الجُبْن، والخَور حَتَّىٰ الجنُون.

وَلاَ صُورة أرْوع، وأصدَق للجُبن من هَذِه الصّورة... إنّه يَفصم الجَبَان عَن نَفْسِه، ويُلقي بِهِ مَكتُوفاً بَيْنَ يَدي جزَار آلإنْسَانية، وعَدُوّها اللّدود، لِيَفعل بِهِ ما يَفعل الوَحش الكَاسر بفَريسته من فَري الجِلد، وأكل اللّحم، وهَشم العَظم.

(أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ). الخطَاب بـ«أَنْتَ» لمُطلق شَخص يَضعف عَن عَدُوّه، ويَستسلم لهُ، والمَعْنَىٰ أَنْتَ وما تَختَار لنَفْسِكَ أَيُّها الجبَان مِن الإذلاَل، والْهوَان (فَأَمَّا أَنَا فَوَاللهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الْهَامِ، وَ تَطِيحُ السَّوَاعِدُ، وَ الْأَقْدَامُ، وَ يَفْعَلُ اللّٰهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ) أي أنّه ﷺ يُدافع، ويُجاهد بسَيْفه، وَلاَ يُبالي دَخل إِلَىٰ آلْمَوْت، أو خَرج آلْمَوْت إِلَيْهِ.

(أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَ لَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ). الحقُوق مُتبادلة بَيْنَ الرَّاعِيَ والرَّعِيَّة، وَهَذَا التّبادل طَبيعي يَرتبط بشخصِية الاثْنَيْن تَمَامَاً كما أنّه شَرعي، لأنّ وَاضع الشَّريعَة هُو خَالق الطَّبيعَة. وأشَار الإمَام إِلَىٰ حقّ الرَّعِيَّة بقَوْله: (فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ). الإخْلاَص، والصِّدْق فِي القَوْل، وآلعَمَل، والعَدْل، والإنْصَاف فِي الحُكْم، والتّوزيع (وَ تَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ). الحِرْص عَلَىٰ بَيْت آلْمَال، وَتَنمِيته، وسَدّ حَاجَة ذَوِي الحَاجَات (وَ تَعْلِيمُكُمْ كَيْلاَ تَجْهَلُوا). وإرْشَادكم

ٱلسَّبِيل الَّتِي أَرْشد إِلَيْهَا كتَاب الله، وسُنّة نَبيِّه، لأنّ جَهلكم بدِين ٱلْحَق يَبْتَعد بكم عَن مَكَارِم الدُّنْيا، وحَسَنَاتها، ويُغرِيكم بأقذَارها، وسَيِّئَاتِها (وَ تَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا). الْمُرَاد بالتَّأدِيب هنا العُقُوبَة بإقَامة حدُود الله سُبْحَانَهُ، والْمُرَاد بٱلْعَمَل الاِسْتِقَامَة حَيْث قَالَ فِي بَعْض ما يَأْتِي مِن خُطْبه، «وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا»[1].

ثُمّ أشَار إِلَىٰ حق الرَّاعِي عَلَىٰ الرَّعِيَّة بقَوْله: (وَ أَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ). وَهِي عَقد توثِيق بَيْنَ الْحَاكِم، والمحكُوم عَلَىٰ أنْ يُدبر الْحَاكِم أُمور المحكُوم عَلَىٰ أَسَاس الْمَصْلَحَة، ويَحفظ الأَمْن، والنّظام، ويُقِيم ٱلْحُدُود، ويَنفذ الأَحْكَام... وَعَلَىٰ كلٍّ مِن الطّرفِين أنْ يَفِي بِهَذَا العَقد، وَلاَ يجُوز فَسخه بحَال.

(وَ النَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ، وَ الْمَغِيبِ). الْمُرَاد بالنَّصِيحَةُ هنا الإِخْلاَص لِلْحَاكِم، والصِّدْق فِي القَوْل، وٱلْعَمَل أمَامه، وفِي غيَابه، لا كمَا يَفعل أربَاب الطّمع، والتّصنع، إنْ حَضروا عِنده فملاَئِكَة، وإنْ غَابوا عَنْه فشَيَاطِين (وَ الْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ) إِلَىٰ ٱلْعَمَل من أجل حَيَاة أفضَل (وَ الطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ). الظَّاهِر إنَّ عَطف الطَّاعَة عَلَىٰ إجَابَة الدَّعْوَة مِن بَاب عَطف التَّفْسِير، وقَد يُفرق بَيْنَهما فِي أنّ الْمُرَاد بالطَّاعَة الإستمرار فِيْهَا، والثّبات عَلَيْهَا... وَعَلَىٰ أيّة حَال سَنعُود مَع الإِمَام ﷺ إِلَىٰ هَذَا المَوْضُوع إنْ شَاء الله تَعَالَىٰ.

(١) أنظر، نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٨٢).

الخطبة
-٣٥-

لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ!

(الْحَمْدُ للهِ وَ إِنْ أَتَىٰ الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ، وَ الْحَدَثِ الْجَلِيلِ. وَ أَشْهَدُ أَنْ لاٰ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ لاٰ شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ، وَ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ، وَ تُعْقِبُ النَّدَامَةَ. وَ قَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَ نَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ! فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ، وَ الْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ، حَتَّىٰ ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَ ضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ أَنَا وَ إِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ(١):

---

(١) يَقصد بِهِ دُرِيد أبن الصَّمة، وكَان شِيخاً كَبِيراً، وكَان لهُ رَأي فِي الْحَرب، فإِنَّه أشَار علىٰ هوَازن يَوم حُنين ألاَّ يَخرجُوا مَعهم بالذَّرَاري، فخَالفه مَالك بن عُوف فَخَرج بِهِمْ فَهُزموا، فقَال دُرِيد هَذا الشِّعر. أُنظر، الْمَجْمُوع: ٢٩٥/١٩، المَبْسُوط للسَّرخسي: ٢٩/١٠، مناقب آل أبي طَالب: ٣٧٠/٢، المعيَار والموَازنة: ٩٦، ديوَان الحمَاسة بشَرح المرزُوقي: ٨١٤/٢، ديوَان الحمَاسة بشَرح التَّبريزي: ٣٠٤/٢، الفُصُول في الأُصُول للجصَاص: ٨١/٢، المحصُول للرَّازي: ٣٢/٢.

أَمَـرْتُكُمْ أَمْـرِي بِـمُنْعَرَجِ اللِّـوَىٰ
فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلاَّ ضُحَىٰ الْغَدِ

اللُّغَة:

الْخَطْب: الأَمْر، والشّأن، وقَد يَكُون يَسِـيراً، أو فَـادِحاً، والْـفَادِح: الثَّـقِيل. وَالْحَدَثِ: الحَادث الْمُنْكَر غَيْر ٱلْمَعْرُوف. ونَخَل ٱلـشَّيء: صَـفاه، والْمُـرَاد هُـنا أنّ الإِمَامعليه السلام أبدَىٰ لَهُمْ الرّأي الخَالص النَّاصِح. وَضَنَّ: بَخَلَ. والزَّنْدُ: عُود يُقدح بـهِ ٱلنَّار.

الإِعْرَاب:

مَعَهُ خَبَر مُقَدَّم لـ(لَيْسَ) وإِلَهٌ ٱسمها، وغَيْرُهُ صِفَة لهُ، والْحُكُومَة عَطف بَيَان من هَذِهِ، وكَمَا قَالَ خَبَر كُنْتُ.

الْمَعْنَىٰ:

(أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ، وَ تُعْقِبُ النَّدَامَةَ). يُشِير إِلَىٰ أنّهعليه السلام قد جَرَّب الأُمُور، وعَرفها، وأنّه يَـبذل النُّـصح لكـلّ مَخلُوق، ويَرىٰ ذَلِكَ حَقّاً لاَزماً عَلَيْهِ، وأنّ مَعْصِيَة مَن عصَاه لاَ تَضر إلّا العَاصي فِي دِينه، ودُنيَاه، والوَاقع الَّذي يَعِيش فِيهِ، فَيندَم، وتَذهب نَفْسه حَسَرَات مِن غَـيْر جَدوىٰ... وقَد مَهد الإِمَامعليه السلام بِهَذِه الإِشَارَة ليَقول:

(وَ قَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَ نَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي). يُرِيد

بِهَذِهِ الْحُكُومَةِ تَحكِيم ٱبن العَاص، والْأَشْعَرِيّ بَعد رَفع ٱلْمَصَاحِف، وكَانَ رَأيه المُضيّ فِي الْقِتَال حَتَّىٰ النِّهَايَة، وعَدم الإرستجابة لخدِيعة مُعَاوِيَة، وَنفاقه... ولو أخذ أَصْحَاب الإِمَام عليه السلام برأيه لاهتَدوا نَهج الْخَيْر، والصّواب، وتَجنبُوا تِلك الْفِتَن، ومُعضلاتها.

(لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ). هَذَا مَثل يُضرب لمَن يُخالف الرّأي الحكِيم، وأصلَه أنّ أحد مُلوك الْعَرَب، وهُو جُذِيمَة الأبْرَش كَانَ له مَوْلَىٰ، ٱسمه قَصِير مَشهُور بالذَّكاء وصوَاب الرّأي، وكَانَ جُذِيمَة قَد قَتل أبا الزَّبّاء مَلكة الجزيرة... وبَعد أمدٍ دَعت الزَّبّاء جُذِيمَة إِلَىٰ الزّواج بِها فَصدّق، وأجَاب الدَّعْوَة. فَحذرَه قَصِير مِن ذَلِكَ، ولَكِنَّهُ لَم يَسمع مِنْهُ، فَغَدرت بهِ، وَقَتلته، وعِندئذٍ قَالَ قَصِير كَلِمَته: «لاَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ». فَذَهب مَثلاً[1].

(فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ، وَ الْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ). قَد يُخالفك عَالم فِي

---

(١) أُنظر، هَذِهِ القِصَّة فِي الْأَخْبَار الطّوال للدينوري: ٥٥، والأعلام للزركلي: ١٩٩/٥، بحَار الْأَنْوَار: ٣٢٢/٣٣، تَأريخ الطَّبَرِيّ: ٤٤٥/١، الصّحاح للجوهري: ٧٩٤/٢، وتاج العروس: ١١٣/٤، ولِسَان الْعَرَب، وقاموس المحيط. وقصير هُو ٱبن سعد بن عَمْرُو اللخمي، والزّبّاء هِي نائلة، وقيل: ميسون بنت عَمْرُو بن الظّرب بن حَسّان ملك الجزيرة، وقصير هَذَا هُو الَّذي أحتال ليثأر لجذيمة، فجدع أنفه، وأُذنه، وضرب به المثل «ما جدع قصير أنفه»، وقد ذهب إِلَىٰ الزّبّاء يشكو عَمْرُو بن عَدِيّ ـ ٱبن أُخت جذيمة، الَّذي أَصْبَحَ ملكاً عَلَىٰ الْعِرَاق بعد خاله ـ أنّه فعل به ذَلِكَ، فصدقته، وأعطته مالاً للتجارة فذهب بها إِلَىٰ الْعِرَاق، وأخذ من عَمْرُو بن عَدِيّ أموالاً وعاد إِلَيْهَا زاعماً أنّ تجارته قد ربحت، ولم يزل يغدو فِي تجارتها ويروح، إِلَىٰ أنْ شعر بٱطمئنانها إِلَيْهِ، فجاء بألف بعير، عَلَيْهَا ألف رجل فِي الجواليق، يتقدمهم عَمْرُو بن عَدِيّ، وأُنيخت الإِبِل أمام قصرها، وبرز ٱلرِّجَال ففتكوا بمن حولهم، وٱمتصت الزّبّاء خاتماً لها مسموماً، وأجهز عَلَيْهَا عَمْرُو، وَقَالَ المتلمس:

وفِي طَلَب الْأَوْتَار مَا حزّ أنفه ... قَصِير ورَام ٱلْمَوْت بالسَّيف بِيَهس

رَأيك الخَاص لشُبْهَة عَرضت له، فتتبادلاَن الحوَار، والنِّقَاش حَولها عَلَىٰ المقَاييس، وَقَد يَقنعك، أو تَقنعه، أو يَبْقَ كلّ عَلَىٰ رَأيه بلا غِلظة، وجفَاء.. ويَحدث هَذَا كَثِيراً بَيْنَ أَهْل العِلْم، أَمَّا أنْ يتَعَصَّب جَاهل لرَأيه، ويَفرضه عَلَيْكَ فَرضاً، وإنْ أَبيت ثَار، وشَتم، وهَدد، وٱنْتَقم، وكلّما ٱزدَادت حُجتك صِدقاً، ووضُوحاً ٱزدَاد شرَاسةً، وعنَاداً... أَمَّا هَذَا فوحش كَاسر، وَلاَ شيء فِيهِ مِن ٱلإِنْسَان، وصِفَات ٱلإِنْسَان.

ويَصدق هَذَا الْوَصْف تَمَام الصِّدْق عَلَىٰ خصُوم الْإِمَام‌ﷺ رَفضوا رَأيه فِي حَرْب صِفِّين، وأصروا عَلَىٰ وَقف الْقِتَال ضِدّ مُعَاوِيَة، وَعَلَىٰ أبِي مُوسَىٰ لِيسوي الخِلاَف ... قَالَ لَهُمْ الْإِمَام‌ﷺ: لا تُصدقوا مُعَاوِيَة فِي رَفع ٱلْمَصَاحِف، فعَانَدوا.. وٱنْتَدب ٱبن عَبَّاس للتَّحكِيم فعصوا... عَرض عَلَيْهِمْ الأَشْتَر فَنفروا.. وَقَالَ لَهُمْ: هَذَا الأَحْنَف بن قَيْس فأعرضُوا... إلّا الأَشْعَرِيّ المَخدُوع. وكَانَ ما كَانَ... وإذَنْ مِن حَقّ الْإِمَام‌ﷺ، وحَقّ التَّأرِيخ أنْ يَصفهم بالْجُفَاةِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ... وقد حَكم عَلَيْهِمْ بأَكْثَر من ذَلِكَ.

ولطَه حُسين رَأي فِي هَذَا التّمرد، والجَفاء، وَهَذَا الرّأي يُلقي الضّوء عَلَىٰ السّبب المُباشر لإِصرَارهم عَلَىٰ الأَشْعَرِيّ، ونَقتطف من أَقْوَاله ما يَلي:

«أكبَر الظَّن أنّ بَعْض الرّؤساء من أَصْحَاب عَليّ لَم يكُونوا يُخلصُون له نفُوسهم... لأنّهم كَانوا أَصْحَاب دُنيا لا أَصْحَاب دِين، وكانُوا يَندمُون فِي دخَائِل أَنفسهم عَلَىٰ تِلك الأَيَّام الهَينَة اللّينَة الّتي قَضوها أَيَّام عُثْمَان يرْنعمُون بالصّلات، والجوَائز، والإِقطَاع... وأيضاً كَانَ فِي جَيش عليّ بصِفِّين كَثِير من أَهْل الْبَصْرَة الّذين حَاربُوه يَوْم الْجَمَل، وٱنْهَزموا بَعد مَقتل طَلْحَة، والزُّبَيْر. وإذَنْ كَانَ فِي

أَصْحَاب عَليّ المُخلص، والمَدخُول.. وَمَا أستَبعدُ أنْ يَكُون الأَشْعَثُ بن قَيْس... قد تآمر مَع أبن العَاص عَلَىٰ إيقَاع الفُرْقَة بَيْنَ أَصْحَاب عليّ، وقَد تَم ما أَرَاد الاثْنَان.. وأستَكره الأَشْعَثُ ومَن طَاوعه ـ عَلِيًّا عَلَىٰ كَفّ الْقِتَال، فلَم يرَ بُداً مِن الإذعَان.. ولَم تَأت الأُمُور مُصادفة، وإنّما جَاءت عَن أئتمار، وتَدبِير بَيْنَ طُلاب الدُّنْيَا مِن أَصْحَاب عَليّ، وأَصْحَاب مُعَاوِيَة جَمِيعَاً»[1].

ومَنطق الْحَوَادِث يُؤيد رَأي الدّكتور طَه حُسين، فإنّ النَّاس مَع الدُّنْيَا، وخُضرتها، وَهِي عند مُعَاوِيَة، وَلاَ شيء عِند الإمَام إلاّ الدِّين، فمَالوا عَنْه إلَىٰ مُعَاوِيَة، واحتَلبوا دُنياه بدِينهم، وأطَاعوا المَخْلُوق فِي مَعْصِيَة الخَالِق.

(١) أنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ـ عليّ وبَنُوه: ٨٠ ـ ٨٢، طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م.

الخطبة

- ٣٦ -

أَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ:

(فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَىٰ بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهَرِ، وَ بِأَهْضَامِ هَذَا الْغَائِطِ، عَلَىٰ غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَ لاٰ سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ: قَدْ طَوَّحَتْ بِكُـمُ الدَّارُ، وَ ٱحْـتَبَلَكُمُ الْمِقْدَارُ، وَ قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْـمُنَابِذِينَ، حَـتَّىٰ صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَىٰ هَوَاكُمْ، وَ أَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ ٱلْهَامِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلاَمِ، وَلَمْ آتِ ـ لاٰ أَبَا لَكُمْ ـ بُجْراً، وَ لاٰ أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرّاً).

اللُّغَة:

صَرْعَىٰ: جَمع صَرِيع، وهُو المَطروح عَلَىٰ ٱلأَرْض. وَأَثْنَاءِ ٱلـشَّيء: أَوْسَـاطَه وَخلاَله. وأَهْضَام: جَمع هَضم، وهُو السّهل المُنْخَفض. والْـغَائِطِ: مـا سَـفل مـن ٱلأَرْض. وطَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ: تَاهت بِكُمْ هُنا وهُناك. وَٱحْـتَبَلَكُمُ: أَوْقَـعَكُم فِي الحِبالة، يُقَال: ٱحتَبل الصّيد أي وَقع فِي الحِبالة. والْمُـرَاد بـالْمِقْدَار هُـنا ظـرُوفهم الْخَاصَّة. والْمُنَابِذ: المُفَارِق. وأَخِفَّاء: جَمع خَفيف ضِدّ الثَّقيل. وٱلْهَام: جَمع ٱلْهَامَة،

وَهِي رَأس كلّ شيء، وتُطلق عَلَىٰ الجُثَّة. والمُرَاد بالأَحْلاَمِ هُنا ٱلعُقُول مِثل قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ﴾[1]. والبُجْر ـ بضَم البَاء ـ الشّرّ.

الإِعْرَاب:

المَصْدَر من أَنْ تُصْبِحُوا مَنْصُوب بنَزع الخَافض. وَأَنْتُمْ الوَاو للحَال. سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ خَبَر ثانٍ لـ«أَنتُم». وَلاَ أَبَ لَكُمْ لا نَافِية للجِنس، وأَبَ ٱسمها، وَلَكُمْ خَبَرها، وتُقال هَذِه الكَلِمَة للمَدح، وتأتي للذمّ. وَبُجراً مَفْعُول لَمْ آتِ.

المَعْنَىٰ:

(فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ). الخطَاب للخوَارج حِينَ عَزموا عَلَىٰ الخرُوج، وشقّ العصَا، وَقَد أوضَح لَهُمْ الإِمَامُ عليه السلام أنّهم مُخطئُون فِي رَأيهم، وعَملهم، وحَذرهم مِن سُوء العَاقِبَة بقَوْله: (أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَىٰ بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهرِ). وكَانَ هَذَا النّهر آنذاك قَرِيباً مِن الكُوفَة فِي طَرف صحرَاء النَّهْرَوَان، وسُمِّيَت ٱلوَاقِعَة بٱسمه، ولُقب نَفس هَؤُلاَء الخَوَارِج بالحَرُورِيَّة؛ لأنّهم خَرجوا فِي أَطْرَاف صحرَاء حَرورَاء[2] (وَ بِأَهْضَامِ هَذَا

---

(١) ٱلطُّور: ٣٢.

٢) الحَرُورِيَّة: جَمَاعَة من الخَوَارِج، والنّواصب، والنّسبة لبَلَد قُرب الكُوفَة عَلَىٰ ميلين مِنْهَا تُسمىٰ حَروراء، نزل بها هَؤُلاء بعد خروجهم عَلَىٰ أمير ٱلمُؤمِنِين عليه السلام حينما قَبل بالتّحكيم بينه، وبَيْنَ مُعَاوِيَة، قيل لَهُمْ حينذاك: أنتمْ الحَرُورِيَّة لاجتماعكم بحَروراء وَقَالَ: شاعرهم:

إِذَا الحَرُورِيَّة الحرىٰ ركبوا ... لا يَستَطِيع لَهُمْ أمثالك الطّلبا

وقَالُوا يَوْمها: لا حكم إلاّ لله، فَقَالَ عليّ عليه السلام كَلِمَة حقّ أُريد بها باطل... أنظر تذكرة الخواصّ: ٩٥.

الْغَائِطِ). تَشخِيص، وتَعيِين للمكَان الَّذي قُتلوا فِيهِ.

(عَلَىٰ غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَ لاَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ). أَبداً لا حـجّة مـعهم، وَلاَ مَعذرة لَهُمْ فِي هَذِهِ الْفِتْنَة، وَإِذَا كَانَ التَّحْكِيم خَطأً فَاحشاً فإنّ النّتائج المُترتبة عَلَىٰ خرُوجهم أخطَر، وأفْحَش... وأيضاً قَالَ لَهُمْ الإِمَام مِن جُملة ما قَـالَ: «أَنَـا مـا كَرهت الْحَرْب، وإنّما أَنتُم كَرهتمُوها، وجَزعتم مِنْهَا... إِنَّمَا ٱجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَىٰ ٱخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلاَّ يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَـا الْحَـقَّ، وَهُـمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ»[1]. وَقَالَ عَدد من المُؤرخِين: إِنَّ قَول الإِمَام أثرَ، وأجدَىٰ: فَتَسلل كَثِير مِن الْخَوَارِج، وعَادوا إِلَىٰ الْكُوفَة، ومِنْهُم مَـن

↔ ومروج الذهب: ٢ / ٤٠٤، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لاِبْن أبِي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٣٠٧ تحقيق مُحَمَّد أبو الـفضْل دار إحياء التّراث العَرَبي، وَقْعَة صِفِّين: ٥١٧.

وسُمّوا أيضاً بالْخَوَارِج، والْمُحكّمَة، والسّبب الّذي سُمّوا خوارج هُو خروجهم عَلَىٰ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين ﷺ، والسّبب الَّذي سُمّوا محكّمة هُو إنكارهم الحَكَمَيْن: وقولهم لا حكم إلاّ لله... وأنـظر أيـضاً فِـرق الشّـيعة للنوبختي: ٦ دار الأضواء ط ٢.

وقيل: هم الغُلاة فِي إثبات الوعيد، والْخَوف عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِنِين، والتّخليد فِي ٱلنَّار مَع وجود الإِيمَان، وهم قَوْم من النّواصب الخَوَارِج، ومن مفرداتهم أنّ من ٱرتكب كبيرة فَهُوَ مشرك. ومَذْهَب عامة الْخَوَارِج أنّه كافر، ولَيْس بِمشرك. فَقَالَ بعضهم: هُو منافق فِي الدرك الأسفل من ٱلنَّار. وقيل لَهُمْ الْحَـرُورِيَّة لأنّهـم خرجوا إِلَىٰ حَروراء لقتال عليّ بن أبي طالب ﷺ وحَروراء: قرية بظاهر الْكُوفَة، نزل بها الْخَوَارِج الّذين خالفوا عليّ بن أبي طالب ﷺ وكَانَ بها أوّل تحكيمهم وٱجتماعهم حِينَ خالفوا عَلَيْهِ....

أنظر المعارف لاِبْن قُتَيْبَة: ٢٧٤، الخطط للـمَقريزي: ٢ / ٣٥٠، مـعجم الفِرق الإِسْـلاَمِيّة لشريـف الأَمِين: ٩٤، مقالات الإسلاميين للأشعري: ١٢٧ ـ ١٢٨، معجم البلدان: ٣ / ٢٥٦.

(١) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة من كَـلاَم له ﷺ رقـم (١٢٧)، البـداية والنِّهَـايَة: ٣٣٩/٩، الإِخـتِجَاج: ٥٨/٢، الإِرْشَـاد: ١٦٥/٢، أَنْسَـاب الأَشْرَاف: ٣٥٧/٢، الأَخْـبَار الطّـوال: ٢٠٩، تَأريخ ابْـن خـلدون: ق٢/ج٢/١٧٧.

عَادَ إِلَىٰ جَيش الإِمَام، وآخرُون ٱعتَزلوا الْحَرْب، ولَم يَبق مَع عبدالله بن وَهب الرّاسبي رَئِيس الْخَوارِج إلاّ ثَلاَثة آلاَف، أو أَقل، وكَانوا إثني عَشر ألفاً عَلَىٰ قَول، وسِتة آلاَف عَلَىٰ قَولٍ آخر[1].

---

(١) أعطىٰ عَليّ عليه السلام لأَبي أيوب الأَنْصَاري رَاية أمَان فَنَادَاهُم أبو أيّوب (رضي الله عنه): من جَاء إِلىٰ هَذِه الرّاية فَهُوَ آمن بِمَّنْ لم يَكُنْ قتل، وَلاَ تَعرض لأحد من ٱلْمُسْلِمِين بسوء، ومن ٱنصرف منكم إِلىٰ الْكُوفَة فَهُوَ آمن، ومن ٱنصرف إِلىٰ المَدَائِن فَهُوَ آمن، لا حَاجَة لنا بعد أنْ نُصيب قَتَلَة إخواننا فِي سفك دمائكم.

أنظر، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ٦٤، و: ٦ / ٤٩ والإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٦٩، وجاء فِيهِ: من جاء منكم إلى هَذِه الرّاية فَهُوَ آمن، ومن دخل المِصْر فَهُوَ آمن، ومن ٱنصرف إِلىٰ الْعِرَاق وخرج من هَذِه الْجَمَاعَة فَهُوَ آمن، فإِنّه لا حَاجَة لنا فِي سفك دمائكم، وبعد النّداء ٱنصرفت طَائِفَة مِنْهُم إِلىٰ الدكسرة، وطَائِفَة إِلىٰ الْكُوفَة، وجَمَاعَة إِلىٰ عليٍّ، وكانوا أَرْبَعَة آلاَف وبَقىٰ مَع عبدالله بن وهب مِنْهُم ألفان وثمانمئة رجل كما جاء فِي تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٥ / ٨٦، وٱبن الأَثِير: ٢ / ٤٠٦، والْفُتُوح لِابْن أَعْثَمْ: ٤ / ١٢٥، أُسد الغَابَة: ١ / ٣٨٥ وما بعدها، و: ٢ / ٣٥١ و ٣٧١ و ٣٧٥، و: ٣ / ١٥٠ و ٣٥٤، و: ٤ / ١٠٠ و ٣١٥، و: ٥ / ١٢٢ و ١٤٣ و ٢٧٤.

فٱنصرف عُرْوَة بن نوفل الأشجعي فِي خمسمئة فارس، وخرج طَائِفَة أُخرىٰ مُنْصَرِفِين إِلىٰ الْكُوفَة وطَائِفَة أُخرىٰ إِلىٰ المَدَائِن، وتفرّق أَكْثَرهم بعد أنْ كانوا إثني عشر ألفاً، فلم يبق مِنْهُم غَيْر أَرْبَعَة آلاَف فزحفوا إِلىٰ عليّ عليه السلام وأَصْحَابِه، فَقَالَ عليّ لأصحابه: كفّوا عنهم حَتّىٰ يبدأوكم.

أُنظر، المصادر السّابقة، والإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٦٩، وشَرْح النَّهج للعلاّمة الخوئي: ٤ / ١٢٢، وشَرْح النّهج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ٢ / ٢٧٢، ومروج الذّهب: ٢ / ٤١٦، ومُسْتَدرَك الوَسَائِل: ٢ / ٢٥٤، والطَّبَرِيّ: ٦ / ٤٩. فتَنَادوا الرّوَاح الرّوَاح إِلىٰ ٱلْجَنَّة. فحملوا عَلَىٰ النّاس فٱنفرّقت خيل عليّ عنهم فُرقَتَين حَتّىٰ سَاروا فِي وسطهم عطفوا عَلَيْهِمْ من المَيْمَنَة، والمَيْسَرَة، وٱستقبلت الرُّمَاة وجُوههُم بِالنَّبل، وَعَطَفَت عَلَيْهِمْ الرّجّالة بالسُّيُوف، والرّماح فمَا كَانَ بأسرع من أنْ قَتَلُوهم عَن آخرهم وكانوا أَرْبَعَة آلاَف، ولم يَفلت مِنْهُم إلّا تِسعَة.

أُنظر، الْفُتُوح لِابْن أَعْثَمْ: ٢ / ٢٧٥، كَشف اليَقِين: ١٦٦ وهَامِش رقم ٥ فِي الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٦٩. أنفس لا غَيْر، رجلان هربا إِلىٰ خراسان، وبها نسلها إِلىٰ الآن، ورجلان صارا إِلىٰ بلاد عمان ⟸

⇔ وبها نسلها إلىٰ الآن، ورجلان إلىٰ بلاد اليَمن وبها نسلها وهم الّذين يُقال لَهُمْ الأباضية ـ أصْحَاب عبدالله بن أباض من بني مُرّة بن عُبَيْد من بني تميم رهط الأحنف بن قَيْس كما جاء فِي المعارف: ٦٢٢. وَقَالَ: هم فرقه من الخَوَارِج، وهم يسكنون الآن فِي عمان سلطنة صَغِيرَه واقعة فِي الجنوب الشّرقي من بلاد الْعَرَب تمتدّ عَلَىٰ ساحل بحر الْعَرَب. والخليج الإسْلاَمي، مرّ بِهِمْ ٱبن بطوطة الرّحّالة ٱلْمَعْرُوف فِي سياحته الّتي كَـانَتْ فِي القرن الثّامن للهجرة وَقَالَ ٱبن قُتَيْبَة فِي الْإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٧٢ وما بعدها: هـم أبـاضية المَذْهَب، ويصلّون ٱلْجُمُعَةِ ظهراً أربعاً. فَإِذَا فرغوا قرأ الْإِمَام آيات من ٱلْقُرْآن، ونثر كلاماً شبه ٱلْخُطْبَة يرضىٰ فِيهِ عَن أبِي بَكْر، وعُمَرَ، ويسكت عَن عُثْمان، وعليّ. وَإِذَا أرادوا ذكر عليّ كنّوا عَنْه بالرجل، ويرضون عَن الشّقي اللعين ٱبن مُلْجَم ويَقُولُون فِيهِ العبد الصّالح مَع الْفِتْنَة... راجع يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢٥٢، إحـقاق الحـق للتستري: ٧ / ٢٢٢، المناقب المرتضوية: ٢٠٣، الْغَدِير للأميني: ٤ / ٣٢٢. ورجلان صارا إلىٰ الجـزيرة، ورجل صار إلىٰ تل موذن. وَهِي مدينة عَلَىٰ دِجْلَة فوق تكريت. وفِي: ٢ / ٢٩٧ «البوازيج» بلد قـرب تكريت عَلَىٰ فم الزّاب الأسفل حَيْث يصب فِي دِجْلَة. وغنم أصْحَاب عليّ عليه السلام مِنْهُم غنائم كَثِيرَة، وقُتل من شيعة عليّ رجلان. كَشْف الْيَقِين: ١٦٦، الْفُتُوح: ٢ / ٢٧٥ والمصادر السّابقة. وقتل من أصْحَاب عليّ عليه السلام تسعة، عدد من سلم من الخَوَارِج، قَالَ عليه السلام: نقتلهم وَلاَ يُقتل منّا عشرة، وَلاَ يسلم مِنْهُم عشرة. كما جاء فِي شَرْح النَّهج للمعتزلي: ٢ / ٢٠٦ ومابعدها، وتذكرة الخواصّ: ٩٥، وتَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ٦٢.

أمّا فِي الْفُتُوح لِابْن أعْثَمْ: ٢ / ٢٧٥ فقد ذكرهم بالتسلسل الْقِتالِي: رويبه بن وبر البَجَلِيّ الّذي دفع إلَيْهِ الْإِمَام عليه السلام اللواء، وأمره بالتقدّم فتقدّم وٱرتجز شعراً، وحمل حَتَّىٰ ٱسْتُشْهِدَ، وتقدّم من بعده عبدالله بن حمّاد الحميري حَتَّىٰ ٱسْتُشْهِدَ، ثمّ رفاعة بن وائل الأرحبي حَتَّىٰ ٱسْتُشْهِدَ، ثمّ كيسوم بن سلمة الجهني حَتَّىٰ قتل، ثمّ عبد بن عُبَيْد الخولاني حَتَّىٰ قتل، ثمّ قَالَ: وأقبل التّاسع وٱسمه حبيب بن عاصم الأَزْدِيّ. فَقَالَ: يا أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين، هَؤُلاَء الّذين نقاتلهم أكُفّار هم؟ فَقَالَ عليّ عليه السلام من الْكُفْر هربوا، وفِيهِ وقعوا. قَالَ: أفمنافقون؟ فَقَالَ عليّ عليه السلام: إنَّ ٱلْمُنَافِقِين لا يذكرون الله إلّا قليلاً. قَالَ: فاهم يا أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين حَتَّىٰ أُقاتلهم عَلَىٰ بصيرة ويقين؟ فَقَالَ: عليّ عليه السلام: هم قَوْم مرقوا من دين الإِسْلاَم كما مرق السّهم من الرّمية يقرأون ٱلْـقُرْآن فـلا يتجاوز تراقيهم، فطُوبَىٰ لمن قتلهم أو قتلوه. قَالَ: فعندها تقدّم حبيب نحو الشّراة وهُو التّاسع من أصْحَاب عليّ فقاتل وقُتل.

وفِي المناقب لِابْن شهرآشوب ذكر ثمانية ولكن باختلاف فِي بَعْض الأسماء. وراجع النَّصّ والإجتهاد ⇔

وَقَالَ ٱبن آبي ٱلحَدِيد: «قَد تظَافرت الأَخْبَار عَن رَسُول الله ﷺ حَتَّىٰ بَلغت حَدّ التّواتر بِمَا وَعد الله تَعَالَىٰ قَاتلي الخَوَارِج من الثَّوَاب»[1]. بل تظَافرت الأَخْبَار عَن النَّبِيّ ﷺ فِي أنّ عَلَىٰ كلّ مُسْلِم أنْ يُقَاتل مع عَلي عليه السلام كلّ مَن قَاتله أيّاً كَان، ويَكُون ... من ذَلِكَ قَوْله ﷺ: «سَيَكُون بَعدي فِتْنَة، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَالْزَمُوا عَلِيّ بن أبي طَالب، فإِنَّه أَوَّل مَن يرَاني، وأَوَّل مَن يُصَافحني يَوْم ٱلقِيَامَة، وهُو الصِّدِّيق الأَكْبَر، وهُو فَارُوق هَذِه الأُمَّة، يَفرق بَيْنَ الحَقّ، وٱلبَاطِل، وهُو يَعْسُوب ٱلمُؤْمِنِين»[2].

ولاَ يَختلف ٱثنَان فِي قَول الرَّسُول الأَعْظَم ﷺ: «يَا عَلِيُّ، لاَ يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ»[3]. فكَيْفَ بِمَن جيّش الجُيُوش لحَرْبه وقتَاله؟.. وَعَلَىٰ أيّة حَال فإنّ

← للعلّامة شرف الدّين الموسوي تحقيق أبي مجتبى: ١٠٦ هَامِش رقم ٤ وكَيْفِيَّة ظهور الحق جُنْدُب بن زهير الأَزْدِيّ الغامدي بعد أنْ أطّلع من الإِمَام عليّ عليه السلام عَلَىٰ حَقِيقَة الخَوَارِج. وأنظر كنز العُمَّال: ٦ / ٧١ ح ١١٧٩، و: ١١ / ٢٨٩ و ٣٠٢، ومَجمَع الزّوائد: ٦ / ٢٤٢.

ولم يسلم من الخَوَارِج ـ المَارِقِينَ ـ المَقتولين غَيْر هَذِه التّسعة المذكورين خذلهم الله. وهَذِه كرامة من أمِير ٱلمُؤمِنِين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فإنَّه قَالَ قبل ذَلِكَ: نقتلهم وَلاَ يقتل منّا عشرة وَلاَ يسلم مِنْهُم عشرة.

(١) أنظر، شَرح نَهج ٱلبلاَغَة: ٢/٢٦٥.

(٢) أنظر، أسد الغَابَة: ٥/ ٢٨٧ طَبْعَة مِصْر سَنَة ١٢٨٥ هـ. وأيضاً رواه المتقي الهندي فِي كنز العُمَّال: ٧ / ٣٠٥ طَبْعَة حيدر آباد سَنَة ١٣١٢هـ، ورواه آخرون. كما فِي كتاب فَضَائِل الخَمْسَة من الصّحاح السّتة.. (مِنْهُ ﷺ).

(٣) أنظر، سُنن التّرمِذي: ٥ / ٦٠١، ح ٣٨١٩، و: ٨ / ١١٦ كتاب الإِيمَان باب المناقب ح ٣٧٣٦ باختلاف يسير فِي اللفظ. خصائص النّسائي: ٨٣ ح ٩٥ و٩٦، وفرائد السّمطين: ١ / ١٣٣ ح ٩٥. تأريخ دِمَشق لِابْن عساكر: ٢ / ١٩٠ ح ٦٧٤ و١٩٢ ح ٦٧٩ و٢٠٢ ح ٦٩٣ و٢٠٣ ح ٦٩٤، صَحِيح مُسْلِم: ١ / ٨٦ ح ١٣١، كنز الفوائد: ٢ / ٨٣ و ٨٤، بشارة المُصْطَفَىٰ: ٦٤ و٧٦ و١٤٨، كفاية الطّالب: ٦٨ و ٢٠ ط

↔

الّذين أعتذَروا عَن عَائِشَةَ، ومُعَاوِيَة، وطَلْحَة، والزُّبَيْر ـ لم يَعتذرُوا عَن الخَوَارِج، وأجْمَعوا عَلىٰ مرُوقهم من الدِّين.

(قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ). أي تُهتُم عَـن الحَـقّ، وهُـو أمَـامَكم ظَـاهر للـعيَان (وَآحْتَبَلَكُمُ الْمِقْدَارُ). أي أنّ أوضَاعكم، وتَفكِيركم الخَاطىء، أوقَعكم فِي الحبَالة، وَهِي شَبكَة الصّيد (وَ قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ) وَهِي قَـبُول التَّـحْكِيم،

⇐ الغري، فتح الباري: ٧/٥٧، آلبِحَار: ٣٩/٢٥٥ ح ٢٨ ـ ٣٠، مُسْنَد أبي يعلىٰ الموصلي: ١/٣٤٧، مُسْنَد أحمد: ١/٩٥، و: ٦/٢٩٢، سُنَن آبن ماجه: ١/٤٢ ح ١١٤، سُنَن النّسائي: ٨/١١٧، تأريخ بـغداد: ٢/٢٥٥، و: ١٤/٤٢٦ الإِسْتِيعَاب: ٢/٣٧، مناقب آبن شهرآشوب: ٣/٢٠٦.

إرشاد المفيد: ٣٧ الفصل ٣ من البَاب ٢ رقم ١، شَرح النّهج للفيض: ١٠٩٩ آلحِكْمَة ٤٢، وفي صبحي الصّالح: ٤٧٧ من آلحِكْمَة ٤٥ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا عليّ لا يبغضك مُؤْمِن وَلاَ يحبّك منافق. وفي شَرح النَّهج لِابْن أبي آلحَدِيد: ١٨/١٧٣، و: ٤/٨٢، وكَشـف الـغُمّة: ١/٥٢٦، المـناقب لِابْـن المـغازلي: ٩٠ ح ٢٢٥ و٢٣٢، المناقب لأَحْمَد بن حنبل: ٢/٥٣٦ ح ٩٤٨، الصَّوَاعِق المُحْرِقَة: ١٢٢ و٧٣ ط الميمنية و: ١٢٠ ط المُحَمّدية، ذَخَائِر الْعُقْبَىٰ: ٩١، الفَضَائِل لأَحْمَد: ٢/٦١٩ ح ١٠٥٩، حلية الأَوْلِيَاء: ٤/١٨٥، مشكـاة المَصَابِيح: ٣/١٧٢٢ ح ٦٠٩١، يَنَابِيع المَوَدَّة: ١/١٤٩ ومابعدها، ٢/٣٩٢ و١٨٠ ط أسوة و: ٤٧ و٤٨ و٢١٣ و٢٨٢ ط اسلامبول و٥٢ و٥٣ و٢٥٢ و٣٢٧ ط الحيدرية، نور الأَبْصَار: ٧٢ ط العُثْمَانِيّة، و: ٧١ ط السّعيدية. تذكرة الخواصّ: ٢٨، مطالب السّؤول: ١/٤٨، نظم درر السّمطين: ١٠٢، تأريخ الخُلَفَاء: ١٧٠.

إسعاف الرّاغبين بهَامِش نور الأَبْصَار: ١٥٤ ط السّعيدية و: ١٤٠ ط العُـثْمَانِـيّة، أنْسَـاب الأَشْرَاف: ٢/٩٧ ح ٢٠، مصابيح السّنّة: ٢/٢٧٥، الرِّياض النّضرة: ٢/٢٨٤، كنوز الحَقَائِق: ١٩٢ ط بـولاق و: ٢٠٣ ط أُخرىٰ، جامع الأُصُول لِابْن الأَثِير: ٩/٤٧٣ ح ٦٤٨٨، مشكاة المَصَابِيح: ٣/٢٤٢، كَنز العُمّال: ١٥/١٠٥ ح ٣٠٠ الطّبعة الثّانِيَة، الغَدِير: ٣/١٨٢، إحقاق الحق: ٧/١٩٠، الشّذرات الذّهـبية لِابْن طولون: ٥٦، أسنىٰ المطالب للجزري: ٥٤، نزل الأبرار: ٥٥، مُسْنَد الحميري: ٣١ ح ٥٨ ط المَدِينَة المُنَوَّرَة، المُصَنَّف لِابْن أبي شيبة: ٢/٥٧، أُسد الغَابَة: ٣/٦٠٢ ط بيروت، معجم الشّـيوخ: ٢٣٧ رواه مُحَمّد بن أحمد بن جَمِيع الصّيداوي.

وتَقَدَّم فِي بالنّص الحرفِي (حَتَّىٰ صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَىٰ هَوَاكُمْ). ولو أصَّر الإمَام عَلَىٰ رَأيه لوقَع فِي مَحذُور أشَد، لأنّهم سُفهاء، وأجلاَف، وأشرنا فِيما تَقَدَّم أنّ بَعضهم هَدد بِتَسلِيم الإمَام إِلَىٰ مُعَاوِيَة إِذَا لَم يوَافق عَلَىٰ التَّحْكِيم... ومن البداهة أنّ الْعَاقِل يَختار أهون الشّرين، ويَدفع الأشَد بالأخَف، وقَوْله: (وَ أَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ ٱلْهَامِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلاَمِ، وَ لَمْ آتِ ـ لاَ أَبَا لَكُمْ ـ بُجْراً، وَ لاَ أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرّاً). يُومِيء إِلَىٰ ذَلِكَ.

الخطبة

-٣٧-

اَلْقُوَّة للْحَقِّ: فِقْرَة ١ ـ ٢:

(فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا، وَ تَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا، وَ نَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا، وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللهِ حِينَ وَقَفُوا. وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً، وَ أَعْلاٰهُمْ فَوْتاً. فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا، وَ اسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا. كَالْجَبَلِ لاٰ تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ، وَ لاٰ تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ. لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ، وَ لاٰ لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ[١]. الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّىٰ آخُذَ الْحَقَّ لَهُ، وَ الْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّىٰ آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ. رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ، وَ سَلَّمْنَا للهِ أَمْرَهُ. أَ تَرَانِي أَكْذِبُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ وَ اللهِ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ، فَلاٰ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ. فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي، فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي، وَ إِذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي[٢]).

اللُّغَة:

تَطَلَّعْتُ أي تَعَقبْتُ كَلاَم الرَّسُول ﷺ، وأفعَاله، وما فَاتَنِي شيء مِن ذَلِكَ، ومِثله تَمَاماً قَوْله فِي بَعْض خُطْبه: «وَ لَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ

يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً»[1]. وتَقَبَّعُوا أي لَمْ يَتَعَقَّبُوا الرَّسُول ﷺ كما فعلت. والتَعْتَعَة فِي الكَلَام: الحَصر، والعَي. والفوت: السّبق. والرِهَان: الجَعل الَّذي يَسْتَحقه السّابق. والْقَوَاصِفُ: الشَّدَائِد الَّتِي تَقصف الظّهور، والْأَعْمَار. والْعَوَاصِفُ: الأَريَاح الشّدِيدة. والهْمَز والغْمَز: الطَّعْن.

الإِعْرَاب:

صَوْتاً تَمْيِيز، ومِثله فَوْتاً، كَالجَبَلِ خَبَرَ المُبْتَدَأ مَحْذُوف أي أَنَا كَالجَبَلِ، فَإِذَا طَاعَتِي «إِذَا» للمُفَاجأة، وَإِذَا الثَّانِيَة عَطف عَلَيْهَا.

الْمَعْنَىٰ:

(فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا). يُشِير إِلَىٰ فَضله، ومَنزلته، وَلَا بُدَّ مِن سَبب أَوجَبَ هَذِهِ الْإِشَارَة، وقَد يَكُون السّبب كَلِمَة مِن مُبغضٍ مُنَافق، أو إفهَام الْمُخَالِفِين، والمُنابِذِين لِلإِمَامِ أنّهم يُخَالفون الحَقّ، والعَدْل، أو غَيْر ذَلِكَ مِن الأَسْبَاب. وٱستَكشَف ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد مِن قَوْله: «أَ تَرَانِي أَكْذِبُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟». ٱستَكشَف أَنّ الإِمَام عليه السلام تَفَرَّس أَنّ البَعض يَتهمه فِيَا يُخبر بِهِ عَن النَّبِيّ ﷺ مِن المَلَاحم، والمُغيبَات، فَنفىٰ الإِمَام عَنْه هَذِه التُّهمة بِمَا بَيَّنه مِن فَضله... إلخ. ولَيْسَ هَذَا بِبعِيد. ثُمَّ ذكر ٱبن أَبِي ٱلْحَدِيد الكَثِير مِن المُغيبَات الَّتِي أَخبَرَ عَنْهَا الإِمَام عليه السلام، وكُلّها عظِيم، وعِلم محجُوب عَن العِبَاد إِلّا بوحي مِن الله إِلَىٰ نَبِيّه ٱلْكَرِيم، ومِنْهُ إِلَىٰ

(١) أُنظر نَهْج ٱلْبَلَاغَة: ٱلْخُطْبَة (١٩٢).

خَلِيفته الحَقّ.

والأَمْر فِي قَوْله «فَقُمْتُ بِالأَمْرِ» عَام يَشمل كلّ فَضِيلة، ومَنْقَبة لِلإِمَامِ عليه السلام سوَاء أنْفَرد بِها كالسّبق إِلَىٰ ٱلإِسْلاَم، والمَبِيت عَلَىٰ فرَاش النَّبِيّ صلى الله عليه وآله لَيْلَة الهِجْرَة، ومُؤاخَاة الرَّسُول له، والكَثِير مِن موَاقفه فِي النُّصح، والإِخْلاَص لِلإِسْلاَم، وٱلمُسْلِمِين أَيَّام الخُلَفَاء المُتقَدمِين الّذين كانُوا يَفزعُون إِلَيْهِ فِي كلّ ما يَعرض لَهُمْ مِن مِشكلات الحُكم، أَم كَانَ الإِمَام فِيهَا مِن السّابقِين كجهَاده فِي بَدْرٍ، وأُحد، وٱلأَحْزَابِ حَيْث كَانَ مُعَاوِيَة، وٱبن العَاص مَع ٱلمُشْرِكِين.

(وَ تَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا). أي أنّ الإِمَام عليه السلام أخَذ عَن النَّبِيّ صلى الله عليه وآله علُومه، وأخلاَقه. وهَذِه المَنْقَبة تَخص الإِمَام وَحدَه دُونَ ٱلمُسْلِمِين، وَهِي نَتِيجة حَتمِية لحيَاته، وبِيئَته، وظرُوفه، فلقَد كفَله النَّبِيّ صلى الله عليه وآله صَغِيراً، وقَام عَلَىٰ تَنْشئته، وتَربِيته، ولاَزمه بَعد الوَحي مُلازمة الظّل، وكَانَ أحبَّ الخَلق إِلَىٰ النَّبِيّ، ويُؤثره عَلَىٰ جَمِيع النَّاس دُونَ ٱستثنَاء كما قَالت عَائِشَة حِينَ سُئلت عَن أَحبّ النَّاس إِلَىٰ النَّبِيّ صلى الله عليه وآله...[1] وكَانَ النَّبِيّ صلى الله عليه وآله يُفضي إِلَيْهِ بكلّ ما عِنده من علُوم، وأسرَار. قَالَ الإِمَام فِي بَعْض خُطْبه: «وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَٱصْطَفَاهُ عَلَىٰ الْخَلْقِ مَا أَنْطِقُ إِلاَّ صَادِقاً، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَىٰ مَنْ يَنْجُو، وَمَآلِ هَذَا الأَمْرِ، وَ مَا أَبْقَىٰ شَيْئاً يَمُرُّ عَلَىٰ رَأْسِي، إِلاَّ أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ، وَ أَفْضَىٰ بِهِ إِلَيَّ»[2]. وجَاء فِي الصَّوَاعِق: «مَا من آية فِي ٱلقُرْآن إِلّا وعَلي أَمِيرها، وشَرِيفها»[3]، ولقَد عَاتب الله أَصْحَاب مُحَمَّد صلى الله عليه وآله

---

(١) أنظر، شرح الخُطبَة: (٣٣). (منه رحمه الله).

(٢) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (١٧٥).

(٣) أنظر، الصَّوَاعِق المُحرِقَة: ١٢٥ طَبْعَة ١٣٧٥ هـ. (مِنْهُ رحمه الله). كفاية الطَّالب: ١٤٠، مُسْنَد زَيد بن علي:

فِي غَيْرِ مكَان، وما ذُكر عَلِيّاً إلاّ بِخَير، وأنّ ٱبن عساكر قَالَ: «مَا أنزَل الله فِي أحدٍ مَا أُنزل فِي عَليّ، ولقَد بَلَغت الآيَات فِيهِ ثَلاَثمئَة آيَة»[1].

(وَ نَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا). أي أنّ الإِمَامَ عليه السلام بَيَّن أَحْكَام ٱلْمـُعْضِلاَت، والمُشْكِلاَت حِينَ سَكت غَيْره جَهلاً، وعَجزاً، وبَيَان ذَلِكَ أنّه قَد حَدَث بَعد النَّبِيّ صلى الله عليه وآله، وقَائع لا نصّ عَلَىٰ أَحْكَامها بالخصُوص فِي ٱلْكِتَاب، والسُّنَّة، وَهَـذَا شيء طَـبِيعي لأنّ النّصوص محدُودة، ومتناهية، أَمَّا ٱلْحَوَادِث المُتوقَعه فلا نَهَاية لها، ولكن فِي مَقدور العَالم بأسرَار هذِين الأصلِين، وبِعلل الشَّرِيعَة الإِسْلاَمِيّة، وأَحْكَامها أنْ يَستخرج تِلك الأَحْكَام من المبَادىء الْعَامَّة الَّتي تَرتكز عَلَيْهَا نصُوص ٱلْكِتَاب، والسُّنَّة، ويَرتكز عَلَيْهَا ٱلْإِسْلاَم أُصولاً، وفرُوعاً... وكَانَ الخُلَفَاء، وغَيْر الخُلَفَاء مِن الْصَّحَابَة يَفزعُون إِلَىٰ الْإِمَام عليه السلام فِي كلّ ما يَعرض لَهُمْ مِن هَـذِه ٱلْمـُعْضِلاَت، وَلاَ يَجدُون لها حَلاً، وجوَاباً إلاّ عِنده، وكَانَ عُمَرَ بن الخَطَّاب يَعْرِف ذَلِكَ لِلإِمَامِ، ويَقُول: «أَللَّهُمَّ لا تُبقني لمُعْضِلةٍ لَيْسَ لهَا عَلِيّ»[2]. ويَقول: «(أَللَّـهُمَّ لا تُـنزلنّ بي

⇜ ٤٥٩، مناقب آل أبي طالب: ٢/٢٥٢، كنز العُمّال: ١٣/١٠٨ ح ٣٦٣٥٣، مَجْمَع الزّوائد ومنبع الفوائد لنور الدّين الهَيْثمي: ٩/١١٢، تَفْسِير العياشي: ٢/٣٥٢، نظم درر السّمطين: ٨٩، وفِيهِ عَن أبي برزه الأسلمي، مَع إختلاف يسير، كَشف الغطاء: ٩، تَفْسِير فرات الكوفي: ٥٠، بحَار الأَنْوَار: ٣١/٣٥٢.

(١) أنظر، تَأريخ ٱبن عساكر: ٤٢/٣٦٤، شواهد التّنزيل: ١/٥٥ ح ٥٦، يَنَابِيع المَوَدّة: ٢/١٧٦، تَأريخ بغداد: ٧/٢٢٢.

(٢) أنظر، فرائد السّمطين: ١/٣٤٨/٢٧٢، و ٣٥٠/٢٧٦، المناقب لِابْن شهرآشوب: ٢/٣٥٨ و ٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٥، وٱلْبِحَار: ٤٠/٢٢٣ و ٢٢٦، التَّهْذِيب: ١٠/٩٤، تَأرِيخ دِمَشْق لِابْن عساكر ترجمة الْإِمَام علي عليه السلام: ٣/٩٣ و ٤١/١٠٧١ و ١٠٧٠ بتحقيق الشّيخ المحمودي الْإِسْتِيعَاب عَن سعيد نحوه فِي هَامِش الْإِصَابَة: ٣/٣٩، الطّرق الحكمية: ٤٦، الرّياض النّضرة: ٢/١٩٥ و ١٩٦، و: ٣/١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ ⇜

شِدَّة إلّا وأبُو الحَسَن قرِيبٌ منّي، فأنّي أرجُو الرّخاء بقُربِهِ»[1]... وكَفىٰ بحدِيث «أنا مَدِينة العِلْم وعَليٌّ بَابها»[2] شَاهِداً، ودَلِيلاً.

(وَ مَضَيْتُ بِنُورِ اللهِ حِينَ وَقَفُوا). المُرَاد بنُور الله هُنا الوَحي، وبالمُضي عِلم الإمَام بِهِ، كمَا هُو فِي وَاقعه، وعند الله سُبْحَانَهُ (وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً) فِي مَجلس النّبيّ ﷺ تَأدُباً بقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾[3]. وَقَالَ الشّارحون لنَهْج ٱلْبَلاَغَة: «هَذَا كنَاية عَن ثَبات الجَأش»[4] (وَ أَعْلاهُمْ فَوْتاً). أي أسْبَقهم إلَىٰ الفَضَائِل، والمُكْرَمات، ومِن

⇐ وذَخائِر الْعُقْبَىٰ: ٧٩ ـ ٨٢، مطالب السّؤول لِابْن طَلْحَة الشّافعي: ١٣، والمناقب للخوارزمي الحنفي: ٣٩ و٤٨ و٦٠ و٦٥ و٨١، والفخر الرّازي فِي الأَرْبَعِين: ٤٦٦. وروى أبْن الجوزي فِي كتاب الأذكياء: ١٨ وفِي كتابه أخبار الظّراف: ١٩، تذكرة الخواصّ: لسبط أبن الجوزي: ٨٧ و١٤٨، كنز العُمّال: ١٧٩/٣، و: ٥/ ٢٤١ و٤٥١ وح ١٣٥٨٤، مصباح الظّلام: ٢/ ٥٦، الإسْتِيعَاب: ١١٠٢/٣، صفوة الصّفوة: ١٢١/١، كفاية الطّالب: ٩٥، أسد الغابَة: ٢٢/٤، طَبقَات أبن سعد: ٢/ق ٢/ ١٠٢، تَهْذِيب التَّهْذِيب: ١/ ٣٣٧، الصّوَاعِق المُحْرِقة: ٧٦، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢٢١، نور الأَبْصَار: ٧٤، أرجح المطالب: ١٢١ و١٢٤، الإِصَابَة: ٤ ق ١/ ٢٧٠، فيض القَدِير: ٣٥٧/٤، فَضَائِل الخَمْسَة من الصّحاح السّتة: ٢/ ٢٩٠ و٣٠٩ عليّ إمام المُتّقِين لِلشّرقَاوي: ١/ ١٠٠ و١٠١، أنْسَاب الأَشْرَاف للبلاذري، والبداية والنّهاية لِابْن كثير: ٢٠١/٦، ومُسْنَد زَيد: ٣٣٥ الطّبعة الثّانِيَة دار الكتب الإسْلاَمِيّة طهران.

(١) نقل هَذَا صاحب كتاب ٱلإِسْلاَم عَلَىٰ ضوء التّشيع عَن أبن كثير فِي تَأرِيخه: ٣٥٩/٧، وعَن الخوارزمي فِي مناقبه: ٤٨، (مِنْهُ ﷺ). أُنظر، كنز العُمّال: ٢٥٧/٥ ح ١٢٨٠٥، تَأرِيخ مدينة دِمَشْق: ٣٥/٥٣، مقام الإِمَام عليّ ﷺ: ٢٧، بالإضافة إلىٰ المصادر السّابقة.

(٢) تَقَدّم إستخراج ذَلِكَ.

(٣) ٱلْحُجُرَاتِ: ٣.

(٤) أُنظر، شَرْح نَهج ٱلْبَلاَغَة لِمُحَمّد عَبْدَه: ٨٨/١، الخُطْبَة (٣٧).

أَقْوَاله: «فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَىٰ الإِيمَانِ، وَالْهِجْرَةِ»(١).

(فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا). لما سبق إِلَىٰ الْخَيْرَات كَانَ كالطَّائر إِلَيْهَا (وَ ٱسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا). أي أنّه ٱخْتَص عند الله بِأجر السّابقِين (كَالْجَبَلِ لاَ تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ، وَ لاَ تُـزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ). تراكمت الخُطوب عَلَىٰ الإِمَـام بَـعد رَسُـول الله ﷺ، وبخَـاصَّة أَيَّـام خِلاَفَته، فَثَبت لها ثبُوت الرَّاسِيات، وما زَادته إلاّ إِيمَاناً بالله، وإخلاَصاً له، وَثِـقة بِهِ، ومِن أَقْوَاله: «فَمَا نَزْدَادُ عَلَىٰ كُلِّ مُصِيبَةٍ، وَشِدَّةٍ إِلاَّ إِيمَاناً، وَمُضِيّاً عَـلَىٰ الْحَـقِّ، وَتَسْلِيماً لِلأَمْرِ، وَصَبْراً عَلَىٰ مَضَضِ الْجِرَاحِ»(٢).

(لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ، وَ لاَ لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ). أَبداً حَتَّىٰ أَعْدَاء الإِمَام شَاهدُوا فَضَائِله، وشَهِدوا بِها. قَالَ طَه حُسين «لِعَلِيٍّ فَضَائِل كَـثِيرَة يَـعرفها لهُ أَصْـحَاب النَّبِيّ ﷺ عَلَىٰ ٱختلاَفهم ـ أي حَتَّىٰ المَناوئِين لهُ، والحَـاسدِين ـ ويَعرفها لهُ خَيار ٱلْمُسْلِمِين من التَّابعِين، ويُؤْمِن لهُ بها أَهْل السُّنَّة كَما يُؤْمِن لهُ بِها الشِّيعة.

وسَنرىٰ حِينَ نَمضي فِي سِيرته، وحِينَ نُبين مواقفه مِن المُشْكِلاَت الكَثِيرَة الَّتي عَرضت لهُ أَنّه كَانَ أهلاً لكلّ هَذِه الفَضَائِل، ولأكثَر مِنْهَا»(٣).

لِلمِنْبَرِ ـ شَرِيعَة الله، وَشَرِيعَة الغَاب:

(الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّىٰ آخُذَ الْحَقَّ لَهُ، وَ الْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّىٰ آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ). لله، ولِلْإِنْسَانية شَرِيعَة، وللغَاب أيضاً شَرِيعَة تَقوم عَلَىٰ ٱلْقُوّة وحدَها، فلا

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: من كَلاَم له ﷺ، تحت رَقم (٥٧).

(٢) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: من كَلاَم له ﷺ تحت رَقم (١٢٢).

(٣) أنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه: ١٦، طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م.

مُحَاكمة، وقَوَانِين، وَلاَ أُصول، وآجْتهَادات، وَلاَ نقَاش، وبيّنات... أَبَداً لا شيء إلّا آستسلاَم الضَّعِيف للقوّي يحكم عَلَيْهِ بِمَا يُرِيد، ويَفعل مـا يَشـاء... وبكَـلِمَة: الْحَقّ للقُوَّة، وصَاحب العَضلات، والضَّعِيف مُبطل، ومُفتر عَلَىٰ كلّ حَال... أَمَّـا شَرِيعَة الله، وآلإنْسَانية فلها أُصول، وقَوَانِين عَلَىٰ أَسَاس الْحَقّ، والْعَدْل، وللمُتهم حَقّ الإعترَاض، والدّفاع عَن النَفس، والحوَار، والنِّقَاش، والإدلاَء بكلّ ما لَديه مِن حُجَجٍ، ومَا عِنده من قَرائن.

هَذَا مُلخص الفَرق بَيْنَ شَرِيعَة الله، وشَرِيعَة الغَاب، والأُولىٰ لعَـالم آلإنْسَـان، والثَّانِيَة لعَالم آلحَيَوَان، ولكنْ فِي عَالم التّشرِيع، ومِن الوجْهة النّظرِية فقط. أَمَّا مِن حَيْث آلْعَمَل، والتّطبِيق فلا فَرق بَيْنَهما فأَكْثَر النَّاس مُنذ كانُوا، ومِن هَابِيل، وقَابِيل حَتَّىٰ يَومنا هَذَا يَعْمَلُون بشَرِيعَة الغَاب، وَيُنفذُونها بإخلاَص مَع فَارق وَاحد، وهُو أنّ للضَّعِيف تَمَام الْحَقّ فِي أنْ يتكَلَّم، ويَعترِض، ويَحتج، ويُناقش، ويُدلي بحـجج آلأَرْض، والسَّمَاَء، بل له أنْ يَسب، ويَشتم فِي البرلمَان، وهِـيئة الأُمـم، ومَجـلس الأَمْن، وفِي الصُّحف، والإذاعَات... فِي كلّ مكَان... ولكنْ فِي النِّهَايَة لا بُـدَّ أنْ تُنفذ فِي حقّه شَرِيعَة الغَاب، ويَقع فرِيسة بَيْنَ أَنيَاب الْقَوِيّ عَلَىٰ كلّ حَال.

هَذَا هُو مَنطق النَّاس، وعَلَيْهِ عَملهم مُنذ القدِيم، أَمَّا مَنطق عليّ ﷺ فَهُوَ الْحَقّ، والْعَدْل، وشرِيعته هِي شَرِيـعَة الله، وآلإنْسَـانية، فآلْـقُوَّة عِـنده للْـحَقّ وحـدَه، وصَاحبه هُو العزِيز الغَالب، وإنْ كَانَ ضَعِيفاً مُعدماً، والمُبطل هُو الحقِير الأَذَلّ، وإنْ كَانَ قوِياً مُنعماً... وَلاَ رَيب أنّ هَذَا الطّراز مِن الْحُكْم لا تَتحمله النَّاس، بل يرَاه الكَثِيرُون قَسوة، وفظَاعة، وأي «سَيّد» يَرضىٰ أنْ يَكُون هُو، والعَبد سوَاء أَمَّـام الْحَقّ؟ وفِي رَوضة الكَافِي: «أنّ الإمَام قَسَّم العَطَاء فِي ذَات يَوْم، فَأعطىٰ رَجلاً مِن

الأَنْصَار ثَلاَثة دنَانِير، وجَاء بَعده غُـلام أَسْـوَد، فأَعْـطَاه ثَـلاَثة دنَـانِير، فَـقَالَ الأَنْصَاري: يا أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين هَذَا غُلام أَعْتَقته بِالأَمْس، تَجْعلني وإيَّاه سوَاء؟ فَقَالَ الإِمَامعليه السلام: «إنِّي نَظَرْت فِي كتَاب الله فَلَم أَجد فَضلاً لوِلد إِسْمَاعِيلَ عَلَىٰ وِلد إِسْحَق - مُلاحظَة الإِمَام مِن وِلد إِسْمَاعِيلَ - ثُم قَالَ الإِمَام: إِنَّ آدمَ لَم يَلد عَبْداً، وَلاَ أَمة، إِنَّ النَّاس كُلَّهم أحرَار»[1].

هَذَا هُو ٱلإِسْلاَم فِي وَاقعه، وجُوهره: «النَّاس كُلّهم أحرَار، كُلّهم سـوَاء تَمَـامَاً كأَسنَان المُشط»[2]، كما قَالَ سيِّد الكَوْنِين مُحَمَّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله... وما خَلق الأَسوَد حِينَ خَلقه ليكُون رِقاً لأَخيهِ الأَبيض، حَاشا وجَلّ، ولكنَّ النَّاس قَد تـبَانوا فِـيما بَيْنَهُمْ عَلَىٰ وجُود الرّق فِي مَرحلة من مرَاحل التَّأريخ حَيْث لا آلة، وَلاَ حيوَان يَفِي بِٱلْعَمَل المطلُوب للإِنْتَاج، وَلاَ غِنىٰ للحَيَاة بوَجه إِلّا بالرّق، ومن أَجْل هَـذَا أقـرَه جَمِيع ٱلأَنْبِيَاء قَبل مُحَمَّد صلى الله عليه وآله، وما أَنْكَره فِيلسُوف، وَلاَ مُصلح، ولمَّا جَاء ٱلإِسْلاَم لَم يَجد الوسِيلة لإلغَائه فَقيّده بقيُود لصَالحه، وفَتح أبوَاباً لِعتقه ذُكرت فِي كُتب الفِـقْه والحَدِيث، ولمّا تَقدَّمَت العلُوم، ووُجدت الآلة، وٱستقَامت ٱلْحَيَاة بدُون الرّق، فَألغَاه ٱلإِنْسَان مِن الأَسَاس؛ فإنّ ٱلإِسْلاَم يَقر هَذَا الإِلغَاء، ويُباركه، ما فِي ذَلِكَ رَيب[3].

---

(١) أُنظر، روضة الكَافِي للشيخ الكليني: ١/١٢٤، المطبعة الإِسْلاَمِيّة بطهران، سَنَة ١٣٨٢ هـ (مِنْهُ رحمه الله)، و: ٨/٦٩ ح ٢٦، شَرْح أُصول الكَافِي: ١١/٤٢٤، وَسَائِل الشِّيعة: ١١/٨٢.

(٢) أنظر، الفِرْدَوْس بمأثـور الخِـطَاب: ٢/٢٩٨، طَـبعة بَـيروت، و: ٤/٣٠٠ ح ٦٨٨٢ و ٦٨٨٣، مِيزَان الإِعْتِدَال فِي نَقد الرِّجَال: ٣/٣٠٧، لِسَان الميزان: ٢/٤٢ ح ١٥٣ و: ٣/٩٨، صَفوة الصَّفوة: ١/٢٠٤، عِلل ٱبن أَبِي حَاتم: ٢/١١١ ح ١٨٢٩، كَشف الخَفَاء: ٢/٤٣٣٣ ح ٢٨٤٧، سُبل السّلام: ٣/١٢٨.

(٣) أُنظر، تذكرة الـفُقَهَاء: ٥/٢٥٥، الْمَجْـمُوع فِي شَرْح المـهذب: ٦/٢٠٠، أَحْكَـام ٱلْـقُرْآن لإِبْـن عـربي: ٢/٩٦٧، حلية الْعُلَمَاء: ٣/١٥٨، والفقه عَلَىٰ ٱلْمَذَاهِب الْخَمْسَة لمغنية، بتحقيقنا.

(رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ، وَ سَلَّمْنَا للهِ أَمْرَهُ). وكلّ مَن أخلص لله مُوحداً، وأذْعَن لهُ قولاً، وعَملاً يَبْقَىٰ عَلَىٰ ثِقته بِه فِي الضّراء كما هُو فِي السّراء، وَلاَ يَظن بالله ظَنّ السُّوء، وإنْ أصيب بنَفْسِهِ، وولده، ومَاله، وتَكَلَّمنا عَن الْقَضَاء والْقَدَر[1]. (أَتَرَانِي أَكْذِبُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَ اللهِ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ فَلاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ).
وَسَبب الْكَذِب فِي الغَالب يَكُون وَاحداً مِن ٱثْنَيْن: ٱلْخَوْف، أو الطّمع، والإمَام لا يَخشىٰ إلّا الله، ولاَ يَطمَع إلّا فِي مَرضاة الله فكَيْفَ يَتقرب إِلَيْهِ بالْكَذِب عَلَىٰ رَسُول الله؟ وهُو أَوَّل الْقَوْم به إيمَاناً، وأَكْثَرهم له تَسليماً، وإذْعَاناً. وقَد رَوىٰ هُو عَن النَّبِيّ ﷺ فِي خُطْبَته الآتية: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[2]. وَقَالَ فِي ٱلْخُطْبَة نَفْسها: «وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللهُ عَنِ ٱلْمُنَافِقِين بِمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ فَتَقَرَّبُوا إِلَىٰ أَئِمَّةِ الضَّلاٰلَةِ، وَالدُّعَاةِ إِلَىٰ النَّارِ بِالزُّورِ، وَالْبُهْتَانِ...»[3] ومن أَقْوَاله: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ عَلَىٰ الكَذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ، وأَلاَّ يَكُونَ فِي حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عَمَلِكَ، وَأَنْ تَتَّقِيَ اللهَ فِي حَدِيثِ غَيْرِكَ»[4]. ومَن يَتقِ الله فِي أحَادِيثِ النَّاس العَاديين كَيْفَ يَعصِيه فِي حَدِيثِ الرَّسُول الأكمَل الَّذي هُو وَحي مُنزَل.

(فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي، وَ إِذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي). يُريد بِبَيعتي مُبايعته الخُلَفَاء مِن قَبله، وبطَاعتي طَاعته للنّبي ﷺ حَيْث

---

(١) أُنظر، كتابه ﷺ «فَلْسَفَة التَّوْحِيد والْوِلاَيَة».
(٢) أُنظر، نَهج الْبَلاَغَة: من كَلاَم له ﷺ تحت رَقم (٢١٠).
(٣) أُنظر، الْمَصْدَر السّابق.
(٤) أُنظر، خطب نَهْج الْبَلاَغَة: ١٠٥/٤. الْحِكْمَة (٤٥٨).

أوصَاه بالصَّبر، وعَدم المُقاومة، والْمَعْنَىٰ أنّه ما أعْلَن الْحَرْب عَلَىٰ من ٱغْتَصب حقّه فِي ٱلْخِلاَفَة؛ لأنّ النَّبِيّ ﷺ أوصَاه بالصَّبر عَلَىٰ دائِه، ولَيْسَ فِي وِسعه إلّا أنْ يَسمع، ويُطِيع؛ لأنّ طَاعَة الرَّسُول أمَانة فِي عُنقه.

الجملة

- ٣٨ -

اَلشُّبْهَةُ:

(وَ إِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ : فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيْهَا الْيَقِينُ ، وَ دَلِيلُهُمْ سَمْتُ اَلْهُدَىٰ ، وَ أَمَّا أَعْدَاءُ اللهِ فَدُعَاؤُهُمْ فِيْهَا الضَّلاٰلُ ، وَ دَلِيلُهُمْ اَلْعَمَىٰ ، فَمَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ ، وَ لاٰ يُعْطَىٰ الْبَقَاءَ مَنْ أَحَبَّهُ) .

اللُّغَة:

الْيَقِينُ : العِلم السَّلِيم ، والسَّمْتُ : الطَّرِيق .

الْإِعْرَاب:

أَوْلِيَاءُ مُبْتَدَأ أَوَّل ، وَضِيَاءُ مُبْتَدَأ ثَانٍ ، والْيَقِينُ خَبَرُه ، والجُملة خَبَر الأَوَّل ، وَمِثله أَعْدَاءُ اللهِ .. إلخ . والْبَقَاءُ بالرَّفع نَائب فَاعِل ، وبالنَّصب مَفْعُول ليُعْطَىٰ ، ونَائب الفَاعِل مَنْ أَحَبَّهُ .

الْمَعْنَىٰ:

(وَ إِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ). قَد يَكُون ٱلْبَاطِل وَاضِحاً لا لُبس فِيهِ مِثل القَوْل: الفُوضىٰ خَير مِن النّظَام، والْفَقْر نِعْمَة وسَعَادَة... وَقَد يَلتَبس ٱلْبَاطِل بِالْحَقِّ لشَّبه بَيْنَهما فِي جِهة مِن الجِهات مِثل قَول من قَالَ: ٱلإِنْسَان مُسيّر لا مُخيّر، لأنّ الله يَعلم مُنذ البدَاية بسلُوكه، وجَميع تَصرفاته، ويَسْتَحِيل أنْ يَتخلف عِلمه تَعَالىٰ عَن المعلُوم، وعَلَيْهِ يَكُون ٱلإِنْسَان مُسيّراً لا مُخيّراً.

فالقَوْل بأنّ ٱلإِنْسَان مُسيّر فِي أفعَاله قَولٌ بَاطل، وإلّا فكَيْف يُحاسَب عَلَىٰ شيء لا بُدَّ مِن وُجُودِه، والقَوْل: أنّ الله بكلّ شيء عَلِيم هُو حَقّ، وأنّ عِلمه لا يَتخلف عَن المعلُوم أيضاً حَقّ.. ووَجه التّشابك، والتّرابط بَيْنَ فِعل ٱلإِنْسَان، وعِلم الله وَاضح[1] ومِن هُنا تَسربت ٱلشُّبْهَة... وفِي قَول الإِمَام ﷺ: «وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ ٱلشُّبْهَة... إلخ، دَلاَلَة عَلَىٰ أنّ كَلِمَة ٱلشُّبْهَة لا تُطلق إلّا عَلَىٰ ٱلْبَاطِل.

(فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيْهَا الْيَقِينُ). ضَمِير «فِيْهَا» للشُّبْهَة، والْمُرَاد بِالْيَقِين هُنا العِلم السَّلِيم، وكَثِيراً ما يَستَعمل الإِمَام ﷺ كَلِمَة الْيَقِينُ فِي العِلم، من ذَلِكَ قَوْله فِي وَصف الْمُتَّقِين: «وَإِيمَانَاً فِي يَقِينٍ»[2] أي فِي عِلم، والْمَعْنَىٰ أنّ الّذين يَسْتَضِيئون بنُور العِلْم حقّاً ـ فِي أَمنٍ، وأمَان من لُبس ٱلشُّبُهَات، والأَبَاطِيل، وَهُم الْمَرْجِع فِي

(١) أجبنا عَن هَذِه ٱلشُّبْهَة فِي كتاب فَلْسَفَة التَّوحِيد والوِلاَيَة بِمَا يتلخص أنّ علمه تَعَالىٰ بفعل العبد كاشف عَن وجود الفِعْل الصّادر بإرَادَة العبد نَفْسه، ولَيْسَ عِلَّة لوجود الفِعْل بِمَا هُو، وبصرف النّظر عَن ٱختيار العبد له، والفرق بَيْنَهما واضح تماماً كالفرق بَيْنَ قولك: علمت بأنّ زَيداً سيسافر غداً، وقولك: لمّا علمت الآن بأنّه سيسافر سافر.

(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: جزء من ٱلْخُطْبَة (١٩٣).

إزَاحتها، وإبطَالها، ثُم أشَار إلَىٰ مَصْدَر عِلمهم بقَوْله: (وَ دَلِيلُهُمْ سَمْتُ ٱلْـهُدَىٰ)، والْمُرَاد بالسَّمْت الطَّرِيق، وٱلْهُدَىٰ الوَحِي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] أي أنّ الدَّلِيل الَّذي يَعتمدُونه لمَعرِفة الحَقّ، وإزَاحة ٱلشُّبُهَات هُو كتَاب الله، وسُنّة نَبِيِّه.

(وَ أَمَّا أَعْدَاءُ اللهِ فَدُعَاؤُهُمْ فِيْهَا الضَّـلاَلُ). لا شيء عِند الأَدعيَاء فِي إِيمَانهم بالشُّبْهَاتِ إلّا الجَهَالَةِ، والضَّلالة (وَ دَلِيلُهُمُ ٱلْعَمَىٰ) أي التّقلِيد، والرّأي الخَاطىء، والقِياس ٱلْبَاطِل، والاِسْتِحْسَان بٱلأَوْهَام.

(فَمَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ، وَ لاَ يُعْطَىٰ الْبَقَاءَ مَنْ أَحَبَّهُ). قَالَ الشَّارِحُون[2]: هَذَا مَقطع عمَّا قَبْله، وقَد أخذ مِن كَلاَم آخر، وحُشر هُنا بلاَ مُناسبة!.. وقد تكُون المُناسبة تخوِيف الأعدَاء الأدعيَاء، وإنذَارهم بٱلحِسَاب، والعقَاب بعد ٱلْمَوْت، وعَلَىٰ أيَّة حَال فإنّ الْمَعْنَىٰ وَاضح، وشَرحه تَكثِير كَلاَم، وإنْ كَانَ ولاَ بُدّ فَنُشِير إلَىٰ أنّ أَوْلِيَاء الله يُرهبُون ٱلْمَوْت الَّذي لا بُد مِنْهُ، ويَحتَاطون لأنْفسهم من عوَاقبه، أَمَّا أَعْدَاء الله فإِنَّهُم يُحبون الْبَقَاء، ويَغفلون عمَّا لَيْسَ يَغفل عَنهم.

---

(١) ٱلبَقَرَة: ٢.

(٢) أُنظر، شَرْح النَّهج لِابْن أبِي ٱلحَدِيد: ٢/٢٩٨.

الخطبة

- ٣٩ -

لاَ دِينٌ وَلاَ حَمِيَّةَ:

(مُنِيتُ بِمَنْ لاَ يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ، وَلاَ يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ، لاَ أَبَا لَكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ؟ أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَلاَ حَمِيَّةَ تُحْمِشُكُمْ! أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً، وَأُنَادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً، فَلاَ تَسْمَعُونَ لِي قَوْلاً، وَلاَ تُطِيعُونَ لِي أَمْراً، حَتَّى تَكَشَّفَ الأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ الْمَسَاءَةِ، فَمَا يُدْرَكُ بِكُمْ ثَارٌ، وَلاَ يُبْلَغُ بِكُمْ مَرَامٌ، دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الأَسَرِّ، وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ النِّضْوِ الأَدْبَرِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[1]).

اللُّغَة:

مُنِيتُ: بُلِيتُ. والحَمِيَّة مِن الحِمَاية: الأَنَفَة، والنَّخوَة، والمُروءة. وتُحْمِشُكُمْ تُهَيِّجُكُمْ، أَو تُغْضِبُكُمْ، أو تُجْمِعُكُمْ عَلَى كَلِمَة وَاحِدَة. ومُسْتَصْرِخاً: طَالِباً العَون:

---

(١) ٱلأَنفَالِ: ٦.

ومُتَغَوِّثاً: طَالِباً الْغَوْث. تَكَشَّف: تَنْجَلي. وجَرْجَرَ البَعِير: رَدَدَ صَوْته ضَجراً. والجَمَلِ الأَسَرِّ: فِيهِ نَوْع من المَرَض. والنِّضْوِ: البَعِير المَهزول. الأَدْبَر: فِي ظَهره جُرح، وقُرح. ومُتَذَائِبٌ: مُضطَرِب، ويُقَال: تَذَاءَبَت الرِّيح أي جَاءت مرّة كَذَا، ومَرّة كَذَا.

الإِعْرَاب:

مَا تَنْتَظِرُونَ «مَا» للإِستفْهَام الإِنْكَاري، ومحلها الرّفع الاِبْتِدَاء، وأَمَّا أَدَاة عَرض، وتَحضِيض، وقِيل: هِي كَلمتَان: الهَمزة للإِستفْهَام وَ «مَا» للنَّفي، وَمُسْتَصْرِخاً حَال، ومِثله مُتَغَوِّثاً، وتَكَشَّف مضَارع، وَالأصل تَتَكَشَّف.

المَعْنَىٰ:

كَانَ الْصَّحَابَة مِن الْمُهَاجِرِين، والأَنْصَار مَع الإِمَامعليه السلام ضِدّ مُعَاوِيَة، وأَصْحَاب الْجَمَل، والنَّهْرَوَان إلّا شُذَاذاً، مِنْهُم النّعمان بن بَشِير الأَنْصَاري[1]، وكَانَ اَنْتهَازِياً مُرتَزقاً، يَبِيع دِينه، وضَمِيره لأي شَيْطَان يَدفع الثَّمن، وكَانَ مِن المُتقربِين عِند

(١) فالنعمان بن بشير الأَنْصَاري الخَزْرَجي ولد قبل وفاة النَّبِيّ صلى الله عليه وآله وسلم بثماني سنين وسبعة أشهر، وقيل: بست سنين، وكَانَ هواه مَع عُثْمَان، ثُمّ مَع مُعَاوِيَة، ثمّ مَع يَزِيد فِي أَيَّام الْفِتَن خلافاً لقومه، وهُو الَّذي حمل قميص عُثْمَان، وأصابع نائلة من الْمَدِينَة إلىٰ الشّام، فرفعهما مُعَاوِيَة عَلَىٰ منبر الْمَدِينَة يهيّج به أَهْل الشّام، ووَلّاهُ مُعَاوِيَة الْكُوفَة، ثُمّ حِمص. وفِي زمن مُعَاوِيَة بن يَزِيد دَعَا إِلىٰ بَيْعَة عبدالله بن الزُّبَيْر فقتله شيعة بني أُمَيَّة بمرج راهط فِي ذي الحجّة سَنَة (٦٤ هـ كما جاء ذَلِكَ فِي ترجمته فِي أُسد الغَابَة: ٥ / ٢٢، والإِصَابَة: ٣ / ٥٢٩ تحت رقم ٨٧٣٠، والطَّبَرِيّ فِي تَأرِيخه: ٦ / ٧٧، وابن الأَثِير: ٣ / ١٥٠، وشَرْح النَّهْج لِابْن أَبي الْحَدِيد: ١ / ٢١٢، وابن كثير فِي تَأرِيخه: ٧ / ٣١٩.

عُثْمَان، ولمَّا قُتل عُثْمَان أخَذ النّعمان قَمِيصه، وأصَابع زَوجته نَائلة، وبَاعهما إِلَىٰ مُعَاوِيَة، فَعلّق مُعَاوِيَة القَمِيص، وعَلَيْهِ الأصَابع لِيستَثِير أَهْل الشّام، وقَد عَمل النّعمان أَمِيراً عَلَىٰ الْكُوفَة لمُعَاوِيَة، ومِن بَعده ليَزِيد... وفِي ذَات يَوْم جَهزه مُعَاوِيَة بالسِّلاَح، والرِّجَال، وأمَرَه بالغَارة عَلَىٰ عَين التَّمر فِي الْعِرَاق، ولمّا وَرد الْخَبَر بِذَلِكَ إِلَىٰ الإِمَام اسْتَنهض النَّاس فَتَثاقلُوا، وتَجَاهلوا، فَقَالَ:

(مُنِيتُ بِمَنْ لاَ يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ، وَ لاَ يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ). تُفِيض هَـذِه الْكَلِمَات بِالأَسىٰ، وَالأَلَم، ومِثلها كَثِير فِي كَلاَم الإِمَامِ ﷺ وما ذَاكَ إلّا لأنّه كَانَ يَهتم بِرَعِيته وبالإِنْسَان أينَّماكَانَ أَكْثَر مِن اهتَمامه بنَفسِه، وأهْله، ولكنْ مَا يَصنع؟ وكُلّ ما لاَقاه الإِمَام، وقَاساه مِن جُنده، وأَصْحَابه ـ تَجْمعه، وتَحكِيه كَلِمَة وَاحِدَة، وَهِي قَوْله: «أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ، وَ أَنْتُمْ دَائِي كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ»[1]. لا شَيء أشد قَسوة مِن دَاءٍ دَوأوهُ دَاءٌ.

(مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ)؟. أي يَنصر دِين الله، وشرِيعته، ومَن نَكص عَن نُصرة الْحَقّ فقَد نَصر الْبَاطِل، أرَاد ذَلِكَ أَم لَم يَرد (أَ مَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَ لاَ حَمِيَّةَ تُحْمِشُكُمْ). الدِّين، والحَمِيَّة كَلاَم فَارغ فِي مَنطق النَّاس، أو أَكْثَرهم من يَوْم قَابِيل، وهَابِيل، والجَامِع الأَوّل، والأخِير المَصْلَحَة، والمَنْفَعَة الشَّخْصِيَة، ولاَ يَغضب لله إلّا الّذين يَرجُونه، وَلاَ يَرجُون سوَاه. وقَلِيل مَا هُم... (أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً، وَ أُنَادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً فَلاَ تَسْمَعُونَ لِي قَوْلاً، وَ لاَ تُطِيعُونَ لِي أَمْراً). لأنّ أمرَك هُو أَمر الله والْحَقّ، ولو كَانَ أمر الشَّيْطَان لسَمعوا، وأطَاعوا، ومِن قَبل قَالَ تَعالَىٰ لنَبيِّه

(١) أُنظر، شَرْح النَّهج: الْخُطْبَة (١٢١).

ٱلْكَرِيم: ﴿فَإِنَّكَ لَاتُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَاتُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾[1].

(حَتَّىٰ تَكَشَّفَ الْأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ الْمَسَاءَةِ). لا تَعرفُون نُصحي إلّا بَعد فوَات الأوَان، وَعِندئذ تَعضون يَد النّدامة، والكآبة عَلَىٰ ماكَانَ من عِنَادكم، وتَقصِيركم (فَمَا يُدْرَكُ بِكُمْ ثَارٌ، وَ لاَ يُبْلَغُ بِكُمْ مَرَامٌ). لإنّك ـ يَامولاي... لا تَقتص، وتَثأر إلّا مِن ٱلْبَاطِل، وأهْله، وَلاَ تَروم إلّا الْحَقّ، وإعلاَء كَلمته، ولَو كُنت مِن أَهْل الدُّنْـيا لكانُوا أطوع إلَيْك من بنَانك (دَعَوْتُكُمْ إِلَىٰ نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ) الّذين غَزَاهم مُـعَاوِيَة بشَيَاطِينه (فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الْأَسَرِّ، وَ تَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ النِّضْوِ الْأَدْبَرِ). إذَا كَلَّ البَعِير، وتَعب رَدد صَوْته فِي حُنْجَرته. بخَاصَّة إذَاكَانَ هَزِيلاً، وفِي ظَهره عُقر، ومن فَوقه حِمل ثَقِيل، وكَانَ الإمَام إذَا دَعَـىٰ أَصْـحَابه إلَىٰ الْجِـهَاد شَـقّ ذَلِكَ عَـلَيْهِمْ، وَتَضَجَّروا تَمَامَاً كَمَا يَفعل الْجَمَل الهزِيل الّذي ٱعْتَقر ظَهره، وَثَقُل حِمله.

(ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ﴾[2]. هَذَا كلّ مَا تَرتب عَلَىٰ الوَعـظ، والتّـحرِيض، بـل والإسـتصرَاخ، والإستغَاثة: نَفر قَلِيل ضَعِيف مُضطرب، لا يُسمن، وَلاَ يُغني من جُوع.

وذَكر طَه حُسين السّبب المُباشر لذَلِك بقَوْله: «كَانَ عَليّ لا يَسْتكره أحداً عَلَىٰ الْحَرْب... ولو شَاء لجَند النَّاس تَجْنِيداً... ولَو شَاء لإستَمالهم بِٱلْمَال، ولَكِنَّهُ لم يَفعل ... وأرَاد أنْ يَنصرُوه عَن بَصِيرة، وإيمَان»[3]. يُرِيد البَصِّيرة، والإيمَان بِالْحَقِّ مِمَّنْ لا يُقاد إلّا بُجَيبه، ومِعدته الَّتي لا حدّ لها، وَلاَ قَعر... قَالَ فِيلسُوف مُعاصر ما مَعنَاه:

---

(١) ٱلرُّوم: ٥٢.

(٢) ٱلأَنفَال: ٦.

(٣) أنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه للدكتور، طَه حُسين: ١٥٣. طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م.

«لِلْإِنْسَان مَعِدَة، وللقِرد مَعِدَة أيضاً، وأَنا لا أعرف قرُوداً تَأكل قُـروداً، ولكـنِّي أعرف بَشراً يَأكلُون البَشر عَلَىٰ الصّعيد الْفَرْدي، والإِجتِمَاعي، والدّولي... والفَرق بَيْنَ ٱلإِنْسَان المُتوحش، وٱلإِنْسَان المُـتحضر: أنّ الأَوّل يَـقتل أخَـاه ٱلإِنْسَـان، ويَأكله، والثَّانِي يَقتله، ويُكفنه، ويُصلي عَلَيْهِ، ويُدفنه، ويُؤبنه، ثُمّ يَأْكُل ماكَانَ قد أعدَه لقُوتِه، وحيَاته».

الخطبة

- ٤٠ -

كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ:

(قَالَ عليه السلام : كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ ـ نَعَمْ إِنَّهُ لاٰ حُكْمَ إِلاّٰ لِلّٰهِ ، وَ لَكِنَّ هٰؤُلاٰءِ يَقُولُونَ : لاٰ إِمْرَةَ إِلاّٰ لِلّٰهِ ، وَ إِنَّهُ لاٰ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ ، أَوْ فَاجِرٍ يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ ، وَ يُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الْأَجَلَ ، وَ يُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ ، وَ يُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ ، وَ تَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ ، وَ يُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ ، حَتَّىٰ يَسْتَرِيحَ بَرٌّ ، وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ) .

وَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ أَنَّهُ عليه السلام لَمَّا سَمِعَ تَحْكِيمَهُمْ قَالَ :

(حُكْمَ اللهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ) .

وَ قَالَ : (أَمَّا الْإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ ، وَ أَمَّا الْإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ ، إِلَىٰ أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ ، وَ تُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ) .

الْإِعْرَاب:

كَلِمَةُ حَقٍّ خَبَر لمُبْتَدَأ مَحْذُوف أي هِيَ كَلِمَةُ حَقٍّ ، والضَّمِير فِي إِنَّهُ للشَّأن ، وَأَمَّا

للتَّفصِيل، والْمَصْدَر من أَنْ تَنقَطِعَ مجرُور بـ«إِلَىٰ» وَيَتعلق بيَتَمَتَّع.

مَوْقِف الإِمَام مِن الْخَوَارِج:

أَشَار الإِمَام عليه السلام فِي هَذِه ٱلْخُطْبَة إِلَىٰ الْخَوَارِج، ولذَا نُمهد لهَا بكَلِمَة مُوجزة عَن مَوقِفه وسِيَّاسته مَعهم: لقَد تَكَلَّم الشَّارحُون عَن حَرْب الْخَوَارِج، ومرُوقهم، وأطَال المؤرخُون الْحَدِيث عَن أحوَالهم، ووضع فِيهِمْ العَدِيد من المُؤلفات، ومن أحبّ مَعْرِفَة التّفاصِيل فليرَجع إِلَيْهَا، وإِلَىٰ أَقْوَال شَارحي النَّهج... وغَرضنا الآن أَنْ نُشِير إِلَىٰ مَوقف أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام مِنْهُم، ويَتَلخص بأنّه حَاول جُهد المُستطَاع أنْ لا يُهيجهم فِي شيء. ومن جُملة ما قَالَ لَهُمْ: «أَلَمْ أَقُل عِند رَفع ٱلْمَصَاحِف: إِنَّ مُعَاوِيَة ورهطه لَيسوا بأَصْحَاب دِين، وَلاَ قُرآن، وإِنّمَا هُم يَكِيدُون، ويَخدعُون، ويَتَّقُون حَرّ السَّيْف؟. فَأَبَيْتُمْ إلاّ إيقَاف الْقِتَال، والكَف عَنْه، وإلاّ التَّحْكِيم، وإلاّ الأَشْعَرِيّ.. فَرضِيت مُكرهاً خَوْف الْفِتْنَة، ورضُوخاً لأَهْوَن الشَّرين.. وأيضاً قُلت لكُم بَعد التَّحْكِيم: أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلاَّ يَتَعدَّيَا الْقُرْآنَ فَتاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ، وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ»[1]؟.

فقَالُوا لِلْإِمَامِ: لقَد أَخْطَأْنا، وكَفرنَا، فاْشهد أَنْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ بالْكُفْر، وتُب إِلَىٰ الله كمَا تُبنا، ونَحْنُ مَعك، وإلاّ فَبَيْنَنا وبَيْنَكَ السَّيْف[2].

---

(١) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة من كَلاَم له عليه السلام رقم (١٢٧)، البداية والنِّهَايَة: ٣٣٩/٩، الإِحْتِجَاج: ٥٨/٢، الإِرْشَاد: ١٦٥/٢، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٣٥٧/٢، الأَخْبَار الطِّوال: ٢٠٩، تَأريخ ابن خلدون: ق٢/ج١٧٧/٢.

(٢) أُنظر، شَرْح النَّهج للعلاّمة الخوئي: ١٢٦/٤، تذكرة الخواصّ: ٩٥. ولكن ذكر صاحب النَّهج لِابْن أبي ⟸

فَقَالَ لَهُمْ الإِمَامُ عليه السلام: أبَعد إِيمَاني بالله، وجِهَادي مَع رَسُول الله صلى الله عليه وآله أَشهد عَلَىٰ نَفسي بِالْكُفر؟. لقَد ضَللت إِذَنْ، ومَا أنا من المُهتدِين... ويَرجح فِي الظّن أنّ الإِمَام لو ٱستجَاب لَهُمْ لقَالُوا: نَحْنُ لا نُريد إمَاماً يَكفر، ويَتُوب، أو قَالُوا: لقَد أضْمَرت غَيْر ما أظْهَرت، وإِنّك عَلَىٰ ما أنتَ[1].

حَكَم الْخَوَارِج بكُفر الإِمَام، وٱستبَاحوا دَمه، وقَالُوا له بصرَاحة: «لَيْسَ بَيْنَنا وبَيْنَكَ إِلّا السَّيْف»[2].. ومن هُنا أسمَاهم الرَّسُول الأَعْظَم صلى الله عليه وآله بالْمَارِقِينَ من الدِّين.. ومَع هَذَا كلّه لَم يَغضب الإِمَام، ولَم يَبدأهم بِالْقِتَال، بل نَهىٰ عَن قتَالهم، وَقَالَ: «لاَ تُقَاتِلُوا الْخَوَارِج بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ

⇐ الْحَدِيد تحقيق مُحَمَّد أبو الْفَضْل: ٢ / ٢٣٣ و٢٣٨ و٢٤٠ أنّ أصل هَذَا الكَلاَم قَالته الْحَرُورِيَّة لِلإِمَام عليّ عليه السلام ولَيْسَ لِابْن عبّاس بلفظ: يا عليّ قد كنّا زللنا وأخطأنا حين رضينا بالحَكَمَيْن، وقد بان لنا أنّا زللنا وأخطأنا فرجعنا إلىٰ الله تَعَالىٰ وتبنا، فأرجع أنتَ يا عليّ كما رجعنا وتُب إلىٰ الله كما تبنا وإلّا برئنا منك... (وٱنظر، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢ / ٢٠ ـ ٢١، وَقْعَة صِفِّين: ٥١٧، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٦٨، الكَامِل لِابْن الأَثِير: ٢ / ٤٠٤).

(١) ٱنظر، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ٥٧ مَع ٱختلاف بسيط فِي اللفظ، الْفُتُوح: ٢ / ٢٦١ الهَامِش رقم ١، والَّذي أخذ هَذَا ٱلْكِتَاب من التّرجمة الْفَارِسِيَّة: ٣٢٠، والأَخْبَار الطّوال: ٢٠٦. أمّا فِي متن الْفُتُوح فٱنظر المناظرة بَيْنَ عبدالله بن أبي عقب والْخَوَارِج كعبدالله بن وهب وحرقوص وَهِي مناظرة جدير بكل مُؤْمِن ومُسْلِم أنْ يتأمّل فِيْهَا من: ٢٦١ إلىٰ ٢٦٧، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٦٤، والأَخْبَار الطّوال: ٢٠٨، والكَامِل لِابْن الأَثِير: ٢ / ٤٠١، والْفُتُوح لِابْن أَعْثَم أيضاً: ٤ / ١٠٦ بإختلاف فِي الأَلْفَاظ وزِيَادَة ونُقْصَان، شَرْح أُصول الكَافِي: ٦ / ٢٨٤، الغارات: ١ / ٣١٣، وَقْعَة صِفِّين: ٤٨٩، المعيار والموازنة: ١٦٢، البداية والنِّهَايَة: ٧ / ٣٠٣، تَأرِيخ ٱبن خلدون: ق٢ / ج٢ / ١٧٤، يَنَابِيع المَوَدَّة: ٢ / ١٣، شَرْح النَّهْج الْحَدِيدي: ٢ / ٢١٦.

(٢) ٱنظر، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤ / ٥٧، الإِمَامَة وَالسِّيَاسَة: ١ / ١٦٤ مَع ٱختلاف يسير فِي اللفظ بالإضافة «والله لا يهدي كيد الخائنين» بدل «إنّ الله لا يحب الخائنين» والأَخْبَار الطّوال: ٢٠٨.

فَأَدْرَكَهُ»[1] ... يَشهد الإِمَام لعَدُوّه الّذي كَفَّره، وأبَاح دَمه، وأعْلَن حَرْبه، وَقَالَ له: لا شَيء لكَ عِنْدِي إلّا السَّيْف. يَشهد عَليّ لعَدُوّه هَذَا اللّدود أنّه طَالب حَقّ!... وَلاَ أدْري: هَل عَرف التَّأرِيخ إنْسَاناً أنْصَف عَدُوّه من نَفْسِه، وصَبر عَلَيْهِ كعَليّ بن أبي طالب؟. وهُنا يَكمن السّر فِي حُبّ ٱلْقُلُوب لهُ، وتَعلقها بِه، حَتَّىٰ ٱلْقُلُوب القَاسِيَة والجَاحدة... وَقَالَ الإِمَام أيضاً: «لاَ نَمْنَع الْخَوَارِج الْفَيْء: ولاَ نُهيجهم، ولا نَبْغِيهم شرّاً... إنْ سَكتوا تَركناهُم، وإنْ تَكَلَّمُوا حَاججنَاهم، وإنْ أَفْسَدوا فِي ٱلأَرْض قَاتلنَاهم»[2].

نَبذُوه، وكَفَّروه، وأبَاحوا دَمه ومَع هَذَا يُحسن إلَيْهِمْ الْعطَاء، وبالإِعتِرَاف أنّهم طُلابِ حَقّ، وَلاَ يَبْغِيهم شرّاً، بَل ولاَ يَفرض عَلَيْهِمْ سُلطاناً... وَإِذَا أفْسَدوا وٱعْتَدوا عَلَىٰ حقُوق النَّاس تَسقط حُرمتهم، وتكُون الحُرمة، والسّلطة عَلَيْهِمْ لِلْحَقِّ لا لعَليّ بن أبِي طَالب.

هَذِه هِي سِيَاسته مَع الّذين كَفّروه، وحَاربُوه، ومَع مُعَاوِيَة الَّذي مَنْعه الْمَاء، وأبَىٰ الإِمَام أنْ يَمْنَعه بَعد أنْ تَمكن مِنْهُ، ومَع ٱبن العَاص الَّذي دَافع عَن حشَاشته بِسَوءَته، ومَع صَاحبة الْجَمَل حَيْث عزّرها، وأكرَمها... بل هَذِه سِيَاسته مَع كُلّ النَّاس لا فَرق بَيْنَ قرِيب، وبَعِيد، وعدُوٍّ، وصدِيق... ومن هُنا قَالَ المُتنَافسُون عَلَىٰ المَناصب: أنّ عَليّاً لا يَعْرِف السِّيَّاسَة... أجْل، أنّه لا يَعْرِف سِيَّاسة الْبَغْي، والنِّفَاق، أو يَعرفها ولاَ يَعمل بها، ولَكِنَّهُ يَعْرف سِياسَة الْعَدْل، والْحَقّ، والرَّحْمَة، ويُدِين بها ويَعمل، وَلاَ يُحِيد عَنْهَا، وإنْ كَانَ الثَّمن النّفس، والأَهْل فَضلاً عَن ٱلْمُلْكِ،

---

(١) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغة: ٱلحِكْمَة (٦١).

(٢) أنظر أنْسَاب الأَشْرَاف: ١/٣٨٩.

والجَاه.

الْمَعْنَىٰ:

(كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ). الْمُرَاد بكَلِمَة الْحَقّ قَول الْخَوَارِج: «لاٰ حُكْمَ إِلاّٰ لله».
وَلاَ يَختلف ٱثْنَان من ٱلْمُسْلِمِين فِي أنّ تشرِيع الْأَحْكَام، وجَعل الحَلال، والْحَرَام هُو للخَالق وحدَه لقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1]. وقَوْله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[2]. ولكنَّ الكَلاَم فِي ٱلْبَاطِل الَّذي أرَاده الْخَوَارِج وهَدفوا إِلَيْهِ مِن هَذَا الكَلِمَة، أي شَيء هُو؟.

وقَد بَيّن الْخَوَارِج أنْفسهم الشَّيء الَّذي أَرَادُوه من قَوْلهم: «لاٰ حُكْمَ إِلاّٰ لله» وهُو قَبُول الْإِمَام فِكْرَة التَّحْكِيم، فقَد سَأَلهم ٱبن عَبَّاس: ماذَا يَنْقمُون من أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين؟ فقَالُوا: تَحكِيمه الحَكَمَيْن. وعَلَيْهِ يَكُون ٱلْبَاطِل هُو قَبُول فِكْرَة التَّحْكِيم مِن حَيْث هِي، بصَرف النّظر عَن شَخصِية المُحكّمِين[3].

---

(١) يُوسُفَ: ٤٠.

(٢) ٱلْمَائِدَة: ٤٥.

(٣) وَرَدت مُناظرة ٱبن عَبَّاس رضي الله عنه مَع الْحَرُورِيَّة بأَلْفَاظ مُختلفة وفِي مصَادر مُتعدّدة، ولكن لكَثْرة المصَادر وٱختلاَف الْأَلْفَاظ الَّتِي تُؤدّي نَفس الْمَعْنَىٰ فنَحن نَذكر المصَادر أوّلاً بشَكل إجمَالي أُنظر، تَذكرة الخواصّ لِابْن الجوزي الحَنفي: ٩٥، مروج الذّهب: ٢/٤٠٤، شَرْح النَّهج للعلاّمة الخُوئي: ٤/١٢٦، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٤/٥٢ وما بعدها، الكَامِل لِابْن الأَثِير: ٣/٣٣٤، خصَائص أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين للنّسَائي: ١٥٠ ـ ١٥٢ ح ١٨٥، دِلائِل النُّبوّة: ٤/١٤٧، المناقب للخوارزمي: ١٩٢ ح ٢٣١، الكَامِل فِي التَّأرِيخ: ٢/٢٠٤، شَرْح النَّهج لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٢/٢٣٢، و: ١٠/٢٥٨.

وأنظر قَرِيب من هَذَا خُطْبَة الْإِمَام عليّ عليه السلام معهم فِي الْإِرْشَاد للشيخ المفيد: ٦٣، مَجْمَع الْبَيَان:

↔ ٥ / ١١٩، المُصَنَّف لعبد الرّزاق: ١٠ / ١٥٧ ـ ١٦٠ ح ١٨٦٧٨، جامع بَيَان العِلْم وفضله لِابْن عبدالبرّ: ٢ / ١٠٣، الحَاكِم فِي المُسْتَدرَك: ٢ / ١٥٠، مناقب ابن المغازلي: ٤٠٦ ح ٤٦٠، البداية والنِّهَايَة: ٧ / ٢٨٧، الأغاني: ٥ / ٩، كتاب السُّنَّة: ٢ / ٥٩٩.

وأُنظر، ترجمة ٱلصَّحَابَة الّذين شهدوا النّهْرَوَان مَع عليّ ﷺ: أُسد الغَابَة: ١ / ٣٨٥، و: ٢ / ٣٥١ و ٣٧١ و ٣٧٥، و: ٣ / ١٥٠ و ٣٥٤، و: ٤ / ١٠٠ و ٢١٥، و: ٥ / ١٢٢ و ١٤٣ و ٢٧٤، أَنْسَاب الأَشْرَاف: ٢ / ٣٦٢ و ٣٦٨ و ٣٧١ و ٣٧٥.

وراجع تَأريخ اليعقوبي: ٢ / ١٦٧ ط الغري، تلبيس إبْلِيس لِابْن الجوزي: ٩١ مَع ٱختلاف فِي اللفظ، وذكره اليافعي فِي مرآة الجنان: ١ / ١١٤، ٱلْمَعْرِفَة والتَّأريخ لأَبِي يُوسُفَ البسوي: ١ / ٥٢٢، البدء والتَّأريخ للمقدسي: ٥ / ٢٢٣.

وهنا نذكر ما جاء به الحافظ عبد الرّزاق الصّنعاني فِي مصنّفه: ١ / ١٥٧ ح ١٨٦٧٨: عَن عِكْرِمَة بن عَمّار قَالَ: حدّثنا أبو زميل الحنفي قَالَ: حدّثنا عبدالله بن عَبّاس ﷺ قَالَ: لمّا إعتزلت الحروراء فكانوا فِي دارٍ عَلَىٰ حدتهم، فقلت لعلِّي: يا أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين أبرد عَن الصَّلاة لعلّي آتي هَؤُلَاء الْقَوْم فأُكلّمهم. قَالَ: إنّي أتخوّفهم عَلَيْكَ، قلت: كلّا إنْ شاء الله تَعَالَىٰ، قَالَ: فلبست أحسن ما أقدر عَلَيْهِ من هَذِه اليمانية. قَالَ: ثمّ دَخَلْت عَلَيْهِمْ وهم قَائِمُون فِي نحر الظّهيرة.

قَالَ: فدَخَلْت عَلَىٰ قَوْم لم أر قوماً قطّ أشدّ ٱجتهاداً مِنْهُم، أَيْدِيهم كأ نّها ثفن الإِبِلِ، ووجوههم معلّمة من آثار السّجود. قَالَ: فدَخَلْت، فقَالُوا: مرحباً بك يا ٱبن عَبَّاس ما جاء بك؟ قلت: جئت أُحدّثكم عَن أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ عَلَيْهِمْ نزل الوحي، وهم أعلم بتأويله. فَقَالَ بعضهم: لا تحدّثوه، وَقَالَ بعضهم: والله لنحدّثنّه. قَالَ: قلت: أخبروني ما تنقمون عَلَىٰ ٱبن عمّ رَسُول الله ﷺ، وختنه، وأوّل من آمن به، وأَصْحَاب رَسُول الله معه؟ قَالُوا: تنقم عَلَيْهِ ثلاثاً. قَالَ: قلت: وما هنّ؟ قَالُوا: أوّلهن أنّه حكّم ٱلرِّجَال فِي دين الله، وقد قَالَ الله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾. قَالَ: قلت: وماذا؟ قَالُوا: وقاتل ولم يَسْبِ ولم يغنم، لئن كانوا كُفّاراً لقد حلّت له أَمْوَالهم، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عَلَيْهِ دماؤهم. قَالَ: قلت: وماذا؟ قَالُوا محا نَفْسه من أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين. فإنْ لم يكن أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين فَهُوَ أَمِير الْكَافِرِين.

قلت: أرأيتم إنْ قرأت عَلَيْكُمْ من كتاب الله ٱلْمُحْكَم وحدّثتكم من سنّة نَبِيّه ﷺ ما لا تنكرون أترجعون؟ قَالُوا: نعم. قَالَ: قلت: أمّا قولكم: حكّم ٱلرِّجَال فِي دين الله، فإنّ الله تَعَالَىٰ يقول ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

↔

ولكنَّ الظَّاهِر مِن قَول الإِمَام: (هَؤُلاَءِ يَقُولُونَ: لاَ إِمْرَةَ إِلاَّ للهِ، وَ إِنَّهُ لاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ، أَوْ فَاجِرٍ). الظَّاهِر مِن هَذَا أَنّ ٱلبَاطِل الَّذي أَرَاده الْخَوَارِج هُو نَفي الإِمرَة عَلَىٰ النَّاس مِن رَأس، وأنّه لا حَاجَة بِهِمْ عَلَىٰ الإِطلاَق إِلَىٰ أَمِير مَا دَام الْحُكْم لله.

وَتَسْأَل: كَيْفَ نَسب الإِمَام إِلَىٰ الْخَوَارِج القَوْل بِنَفي الإِمرَة مَع أَنّهم لم يُصرحوا بِذَلِكَ، والَّذي صَرحوا به هُو نَفي التَّحْكِيم لا الإِمْرَة؟.

الجَوَاب:

إِنَّ نَفي الْخَوَارِج للتَّحكِيم فِي قَضِيَّة مُعينَة لا نص عَلَيْهَا بالخصُوص كالتَّحْكِيم الَّذي حَصل، إِنَّ هَذَا النّفي بذَاته دَلِيل وَاضح عَلَىٰ أَنّهم يَفهمُون، ويُفسرُون «لاَ

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لاَتَقْتُلُوا ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ـ إلى قَوْله: ـ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾. وَقَالَ فِي الْمَرأَة رزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، أنشدكم الله أحكم ٱلرِّجَال فِي حقن دمائهم، وأنفسهم، وإِصلاح ذات بَيْنَهُمْ أحقّ أم فِي أرنب ثمنها ربع درهم؟ قَالُوا: أَللَّهُمَّ بل فِي حقن دمائهم وإِصلاح ذات بَيْنَهُمْ. قَالَ: أخرجتُ من هَذِهِ؟ قَالُوا: أَللَّهُمَّ نعم. قَالَ: وأَمَّا قولكم: إِنّه قاتل ولم يسْبِ ولم يغنم، أتسبون أُمّكم عَائِشَةَ؟ أم تستحلّون مِنْهَا ما تستحلّون من غَيْرِها؟ فقد كفرتم، وإِنْ زعمتم أَنّها ليست أُمّ ٱلْمُؤْمِنِين فقد كفرتم وخرجتم من ٱلإِسْلاَم. إِنَّ الله يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ فأنتم متردّدون بَيْنَ ضلالتين، فاختاروا أيّتهما شئتم، أخرجتُ من هَذِهِ؟ قَالُوا: أَللَّهُمَّ نعم. قَالَ: وأَمَّا قولكم: محا نَفْسه من أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين، فإِنّ رَسُول الله ﷺ دَعَا قُرَيْشاً يَوْم الحُدَيْبِيَة عَلَىٰ أَنْ يكتب بينه وبَيْنَهُمْ كتاباً فَقَالَ: أكتب هَذَا ما قاضىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّد رَسُول الله. فقَالُوا: والله لو كنّا نعلم أنّك رَسُول الله ما صددناك عَن ٱلْبَيْت، وَلاَ قاتلناك، ولكن أكتب مُحَمَّد بن عبدالله. فَقَالَ: والله إِنّي لرسول الله حقّاً وإِنْ كذّبتمُوني، أكتب يَا عَلِيّ مُحَمَّد بن عبدالله. فرسول الله ﷺ كَانَ أفضل من عليّ ؑ، أخرجتُ من هَذِهِ؟ قَالُوا: أَللَّهُمَّ نعم. فرجع مِنْهُم عشرون ألفاً وبقِيَ مِنْهُم أربعة آلاف فقتلوا. (وأنظر المحاورة أيضاً فِي الْفُتُوح لِابْن أَعْثَم: ٢ / ٢٤٩ لتجد فِيهَا ٱلإِخْتِلاَف فِي اللفظ واضح جدّاً).

حُكْمَ إِلاَّ للهِ» بأنّه لا حُكم كلّي، وَلاَ جُزئِي لمُجْتَهِد، أو أَمِير، أو أي إِنْسَان كَائِناً مَن كَانَ إلّا فِي الأَشْيَاء المنصُوص عَلَيْهَا كتاباً، أو سُنّة. أمَّا غَيْر المنصُوص عَلَيْهَا فيترك أمرها إِلَىٰ الله، والبَدِيهة تَقضي ببطلاَن ذَلِكَ، لأنّ النّصوص محـدُودة، ومُـتناهِية، واَلحَوَادِث الجزُئِية المُتوقعة لا حدّ لها، وَلاَ نهَاية، وَإذَالم يُتَح لها حَاكم يحكم بها فَمَن يُعطِيها منَازلها، وأَحْكَامها، ويَفصل بَيْنَ النَّاس فِي خصُوماتهم، ويُؤدب المُعتدي، ويَردعه مَع العِلْم بأنّ الله سُبْحَانَهُ لا يَتدخل فِي شُؤُون النَّاس، ويَتصل بِهِمْ مُباشرة، وبِلا وَاسطة؟. وإذَنْ لا بُدّ من سُلطة عَادلة، أو جَائِرة تُقدر الْحُكْم الجزُئِي، وتُنفذه بِٱلْقُوَّة، وإلّا عَمَّت الفُوضىٰ، وما قَام للنَّاس سُوق، وَلاَ ٱنْتَظم لَهُمْ أمر، ومن أقوَال الإِمَامعليه السلام: «وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ، يَجْمَعُهُ، وَيَضُمُّهُ، فَإِنِ ٱنْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ، وَذَهَبَ ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً»[(١)].

(يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ). الضَّمِير فِي إِمْرَتِهِ للفَاجر، وَقَالَ بَعْض الشَّارِحِين: «يُرِيد الإِمَام أنّ وِلاَيَة الفَاجر لا تَمنع ٱلْمُؤْمِن مِن عَمله لأحرَاز دِينه ودُنيَاه»[(٢)]، ولكنَّ الْمُرَاد أعَم يَشمل جَمِيع الوَاجبات، وفِي طَلِيعتها الأَمْر بِٱلْمَعْرُوف والنّهي عَن الْمُنْكَر. فقَد جَاء فِي الْحَدِيث الشَّرِيف، وفِي نَهْج ٱلْبَلاَغَة أيضاً: «وَإِنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنَّهُمَا لاَ يُقَرِّبَانِ مِنْ

---

(١) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة من كَلاَم لهعليه السلام وقد ٱستشاره عُمَرَ بن الخَطَّاب فِي الشّخوص لقتال الفرس بنَفْسِهِ: ٱلْخُطْبَة (١٤٦).

(٢) أُنظر، شَرْح خطب نَهْج ٱلْبَلاَغَة لمُحَمَّد عَبْدَه: ٩١/١. وقد أورد الشّيخ رحمه الله هَذَا القَول بلفظ: (إنَّ إمرة الفاجر لا تمنع ٱلْمُؤْمِن من إقامة الصّلاة، وإيتاء الزّكَاة».

أَجَلٍ، وَلاَ يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ»[1]، وأفضَل مِن ذَلِكَ كلّه: «كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ»[2] (وَ يَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ) بِمَا أَصَابَ مِنْهَا، ولكنْ إِلَىٰ حِين، ثُمَّ يَشتد ويطُول مَقْتَهُ لنفْسِه بِمَا رُزق من ٱلْحَرَام (وَ يُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الأَجَلَ). كلّ مُدَّة فِي هَذِهِ ٱلْحَيَاة إِلَىٰ أَنْتِهَاء، وكلّ نِعْمَة إِلَىٰ زَوال عَاجلاً، أَم آجلاً.

(وَ يُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، وَ يُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَ تَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَ يُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ). يُرِيد الإِمَام أنّ هَذِه الْمَنَافِع هِي مِن آثَار النّظَام، والتّنظِيم أيّاً كَانَ مَصْدَره، وَلاَ يُرِيد تَبرِير السُّلطَة المُنَظمة عَلَىٰ كلّ حَال حَتَّىٰ ولَو كَانَتْ طَاغِية بَاغِية. وبكَلِمَة أنّ الإِمَام يُفضل النّظَام عَلَىٰ الفُوضىٰ فِي شَتَّىٰ أحوَاله (حَتَّىٰ يَسْتَرِيحَ بَرٌّ) بمَوْت الفَاجر، أو عَزله، أو تَغيير الأَوْضَاع مِن الأَسَاس (وَ يُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ) عَطف تَفْسِير عَلَىٰ ما قَبله لأنّ الَّذي يَستريح مِن الفَاجر هُو الْبِرّ التّقي، أَمَّا الخَائِن الشّقي فَتَذْهَب دَولته بذهَاب الحَاكِم الفَاجر الَّذي كَانَ يُسَانده، ويَحمي مصَالحه.

الفَوْضَويّة، وَالسُّلطَة:

وبِهَذِه المُنَاسبة نُشِير إِلَىٰ المَذْهَب الفَوْضَوِي الَّذي ظَهر فِي القَرن السّابع عَشر المِيلادِي بزعَامة المُفكر الإِنجليزي، «وَنْستَانلي» ويَرمي هَذَا المَذْهَب إِلَىٰ إِلغَاء الدَّوْلَة والسُّلطة بشَتَّىٰ أنوَاعها، ومظَاهرها، وإِيجَاد مُجْتَمع خَالٍ من وَسَائِل القَهر، والإِرْغَام، وحُجّة ٱلْمُؤْمِنِين بِهِ أنّ وجُود السّلطة ضَرر مَحض، أو ضرّها أَكْثَر من

(١) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (١٥٦). كنز العُمّال: ١٦/١٩٢ ح ٤٤٢١٦، وَسَائِل الشّيعة: ١٦/١٣٤ ح ٩.

(٢) أُنظر، مُسْنَد أحمد: ٥/٢٥٦، المُسْتَدرك عَلَىٰ الصَّحِيحَين: ٣/٦٢٦، المُعْجَم الكَبِير: ١٧/٤٩، ونَهج ٱلْبَلاَغَة: ٤/٨٩ طَبْعَة بيروت.

نَفعها، وتَتلخص المضَار الَّتي ذكرُوها بِمَا يَلي:

١ ـ أنَّ الْدَّوْلَة مَهما كَانَتْ صُورتها فَإنَّها تَخلق بطَبِعَتها الإمتِيَازات لَلْفِئَةُ الْحَاكِمَة، وتُعطي أفرَادها الأقلية سُلطة، وسِيَادة عَلَىٰ غَيْرهم مِن أبنَاء الشّعب.

٢ ـ تُغدق الْدَّوْلَة الإمتِيازَات عَلَىٰ موظفِيها، وأقَاربها، وأَصْحَابها، وتُوطد مكَانتهم فِي الُمجْتَمع، بل وتَفرض طَاعتهم عَلَىٰ النَّاس بطرِيقٍ، أو بآخر، فيَتعالُون، ويَتَكبرُون، وَقَد يهددُونَ، ويَتوعدُون مَن لاَ يُسجد لَهُمْ، ويَركع... وَهَذَا ثَابت ووَاضح كوضُوح النَّهار.

٣ ـ تَقْتَطع الْدَّوْلَة جُزءاً مِن آنتَاج النَّاس، ودَخلهم بآسم الضّرَائب لِيَتنَعم بهَا الموظفُون، والمحَاسِيب، فَيبنُون بهَا العمَارات، ويَدخرُون الأَمْوَال فِي المصَارف عَلَىٰ حسَاب الشّعب.

٤ ـ تُجند الْدَّوْلَة المَواطنِين لحمَايتها، وضَرب الأحرَار، وقَد تُزج البلاَد فِي حَرْب يُقدرها الْحُكَّام أنفسهم وِفْقاً لمصَالحهم الْخَاصَّة، وَلاَ شَيء للبِلاَد مِنْهَا إلّا الخرَاب، والدَّمار.

٥ ـ تَمنع الْدَّوْلَة الأفرَاد مِن الإلتجَاء إِلَىٰ ٱلْقُوَّة لتسوِية ما بَيْنَهُمْ من الخِلاَفَات، وفِي الوَقت نَفْسه لاَ تَتورع هِي عَن آستعمَال الْعُنْف، والْعُدْوَان المَكشُوف ضِدّ من يَعترض عَلَىٰ شَيء مِن تَصرفاتها.

وَقد كَانَ لِهَذَا المَذْهَب فَلاَسفة، وأنصَار، وفِيهِ العَدِيد من المُؤلفات، والمقَالات، وآخر فَلاَسفة الفَوْضَّيين، ومُفكرِيهم، «جُوهان مُوست» الألمَاني. ثُم ضَعف مَذْهَب الفَوْضِية مُنذ سَنَة (١٩٢٠م)، ولَم يَظهر له دُعاة، وأتبَاع حَتَّىٰ الْيَوْم حَسبما

قَرأت[1].

وَعَلَىٰ أيّة حَال فإنّ هَذَا المَذْهَب طَرِيف، وحُلم رَائع، ومُمتع، بل ونَبيل أيضاً، فإنّ أسمَىٰ مطَالب ٱلانْسَان، وأحبّها إِلَيْهِ أنْ يَتحرر من القيُود، والأغلاَل، فَيعِيش كَرِيماً لا يَضُرّ، وَلاَ يُضار... وَلاَ يتَعَالَىٰ عَلَيْهِ قِزم، أو يَضطر للوقُوف عَلَىٰ بَاب مَسخ، أو بَيْنَ يدِيه لا لشيء إلّا «لمرسُوم» يحمله مِن خَائن، أو لمنصَب يَشغله من غَيْر كفَاءة... ولكنْ هَل تَستقِيم ٱلْحيَاة، وتَنْتَظم الأُمُور بلا وَالٍ، ورَاعٍ؟ ولَيْسَ من شَكٍّ أَنَّهَا إِذَا ٱستقَامت، وٱنتَظمت بدُونه فوجُودهُ عِبءٌ، وضَرر... وإلّا فلا بُدّ مِمّا لَيْسَ مِنْهُ بُد.

وتَجدر الْإِشَارَة إِلَىٰ أنّ مَذْهَب الفَوْضِّية ـ وَهَذَا الْوَصْف لمجرد القَوْل يَرفض السُّلطة ـ يُعزز مَذْهَب الإِمَامِيَّة مِن أنّ الْعِصْمَة شَرط فِي الْحَاكِم إنْ أمكَن وجُود ٱلْمَعْصُوم وإلّا فالعَدَالة حَتم، وضَرورة، وَقَد أجمَع فقَاؤهم عَلَىٰ أنّ صَاحب الْحَقّ يَحرم عَلَيْهِ أنْ يَتقَاضىٰ عِند الجَائِر للحصُول عَلَىٰ حقّه إلّا عِند الضّرورة، وتَعذر وجُود الْحَاكِم الْعَادِل، وتَشدد كثِير مِنْهُم حَيْث قَالُوا: لا يَنفذ حُكم الجَائِر ولو حَكم بِالْحَقِّ، ولَيْسَ لصَاحب الْحَقّ أنْ يَأخذ الشّيء المحكُوم بِهِ فِي بَعْض الصّور، والحَالاَت مَع العِلْم بأنّه له، والغَرض مِن ذَلِكَ التّركِيز عَلَىٰ الإِهتمَام فِي ٱختيَار الْحَاكِم الصّالح.

(١) أنظر، المُعْجَم القانوني، لحارث سليمان الفاروقي: ١/٢٠٧ و: ٢/٤٤٧.

الخطبة

-٤١-

الْوَفَاءَ:

(أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ ، وَ لاَ أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَىٰ مِنْهُ ، وَ مَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ . وَ لَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً ، وَ نَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَىٰ حُسْنِ الْحِيلَةِ . مَا لَهُمْ ! قَاتَلَهُمُ اللهُ ! قَدْ يَرَىٰ الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ ، وَ دُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَ نَهْيِهِ ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا ، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لاَ حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ) .

اللُّغَة:

الْجُنَّة بِضَم الجِيم : الوقَاية ، وبِفَتحها الحَدِيقة ، وبِكَسرها طَائِفَة مِن الجِنِّ ، والكَيْس : الْعَقْل . والحُوَّلُ : البَصِير بِتحوِيل الأُمُور . والْقُلَّبُ : الخَبِير بِتَقَلبها . وَيَنْتَهِزُ : يُبَادر . والحَرِيجَةَ : التَّحرز .

الإِعْرَاب:

كَيْفَ خَبَر مُقدَّم ، والْمَرْجِعُ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر ، وعَلِمَ عَلَّقَه عَن الْعَمَل لمكَان

الْإِستفْهَام، والْغَدْرَ مَفْعُول لاتَّخَذَ وكَيْساً مَفْعُول ثَانٍ، ومَا هُمْ مُبْتَدأ، وخَبَر، وَدُونَهَا خَبَر مُقَدَّم ومَانِعٌ مُبْتَدأ مُؤَخَّر، ورَأْيَ عَيْنٍ فِي مكَان الحَال مِن هَاء يَدَعُهَا أي مَرئِيّة بالْعَيْن، أو مِن الفَاعِل المُسْتَتِر أي رَائِياً لَهَا بالْعَيْن.

المَعْنىٰ:

(إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ). لا يَخْتَص الْوَفَاء، وَالصِّدْق بأَهْل الإِيمَان، والْأَدْيَان، أنّهما فرعَان عَن دَوحة الخلق ٱلْكَرِيم، فقَد يُؤْمِن ٱلإِنْسَان بالله، والْيَوْم الآخر، وَلاَ يَتورَع عَن الْكَذِب، والخيَانة، وقد يَجْحد بالله، وحسَابه، ويُنزه نَفْسه عَن الْغَدْر، وقَول الزّور... والْوَفَاء وَصف عَام يَكُون لِلعَقِيدَة، والوَطن كما يَكُون للجَار، والصَّدِيق، ويَكُون فِي المُعَامَلَة مَع الْخَالِق، والصِّدْق دَلِيل الثِّقَة بالنَّفس، وكَذَلِكَ الْوَفَاء... وبكَلِمَة: لا يَفترق الصِّدْق عَن الْوَفَاء، وَلاَ الْوَفَاء عَن الصِّدْق وجُوداً، وبِمَنْزِلَة، أنّهما فِي ذَلِكَ تَمَامَاً كأخوين فِي رَحمٍ وَاحد فِي آنٍ وَاحد.

(وَلاَ أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَىٰ مِنْهُ). لأنّ مَن لا وَفَاء لهُ لا دِين لهُ، ومَن لا دِينَ لهُ لا يَقيّه شَيء مِن غَضب الله، وعذَابه (وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ) إِلىٰ العَرض بَيْنَ يَدي الله، والْحِسَاب عَلىٰ ما قَدّم، وأخر (وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ ٱتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً، وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَىٰ حُسْنِ الْحِيلَةِ). الْمُرَاد بأَهْل ٱلْجَهْل هُنا كلّ من كَفر، ويَكفر بالْقِيَم، والصّالح العَام، وَلاَ يُدِين إلّا بِمَنفعته الشَّخْصِيَة، ويَسلك إِلَيْهَا كلّ سَبِيل، وَيُبرر من أجْلها كلّ وَسِيلة، وإِذَنْ فلا يَدع أنْ يرىٰ هَذَا الطّراز من النَّاس الْغَدْر عَقلاً، وفضَيلة إِذَا جَعله حَاكماً، مِثل «تشَان كاي شَك»، أو ثَرياً كَالمِستر «فورد».

لِلمِنْبَرِ ـ عَلِيٌّ وَالسِّيَاسَة:

(قَدْ يَرَىٰ الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ، وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَ نَهْيِهِ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لاٰ حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ). يُجِيب بِهٰذَا عَن قَول من قَالَ: إِنَّ عَلِيّاً لا يَعْرِف السِّيَاسَة، وَيَتَلخص جوَابه: بأنّه يَعْرِف الفُرص، والوَسَائِل إِلَىٰ بلُوغ ٱلْمُلْكِ، والسُّلْطَان، ولَكِنَّهُ لا يَنْتَهِزها عَلَىٰ حسَاب دِينه، وضَمِيره، وَقَالَ فِي مكَان آخر من النّهج: «وَاللهِ مَا مُعَاوِيَة بِأَدْهَىٰ مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ، وَيَفْجُرُ، وَلَوْلاٰ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ، لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَىٰ النَّاسِ»[1]. وَقَالَ أيضاً: «أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ»[2]. إِنَّ عَلِيّاً لا يَفهم من كَلِمَة النّصر، والنّجاح إِلّا مَرضاة الله، وٱلْعَمَل بِالْحَقِّ، والْعَدْل، وهُو مُستعد لأنْ يُضحي بالنَّفس، وٱلْمُلْكِ، وبكلّ عزِيز ليَبلغ هَذِه الْغَايَة، أَمّا أَلاٰعِيب مُعَاوِيَة فَهِيَ شرّ، ووبَال.

وَقَالَ جورج جُرداق: «إِنَّ الّذين قَالُوا: عَليّ لا يَعْرِف السِّيَاسَة يُرِيدون مِن عليّ أنْ يَكُون مُعَاوِيَة بن أَبِي سُفْيَانَ، ويَأبىٰ عَليّ إِلّا أَنْ يَكُون آبن أَبِي طَالب»[3].

وَقَالَ طَه حُسين: «حَارب أبو سُفْيَانَ النَّبِيّ ﷺ، وأظهَر فِي حَرْبه قوّةً، وَقَسوةً، وكَيداً، ومَكراً، ودَهاءً.. ثُمّ أسلَم حِينَ لَم يرَ مِن ٱلإِسْلاٰمِ بُدّاً... وورَث مُعَاوِيَة عَن أَبِيه قُوَّتِه، وقَسوته، ومَكره، وكَيده، ودهَاءه، ولم تكن أُمّ مُعَاوِيَة بأقلّ من أَبِيه تَنكراً لِلإِسْلاٰمِ، وأسلَمت كَارهة كما أسلَم زَوجها كَارِهاً... وكَانَ

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاٰغَة: من كَلاٰم له عليه السلام تحت رَقم (٢٠٠).

(٢) أُنظر، نَهج ٱلْبَلاٰغَة: من كَلاٰم له عليه السلام تحت رَقم (١٢٦).

(٣) أُنظر، عليّ صَوْت العَدَالة ٱلإِنْسَانية: ٧٧٥/٤.

الطّامعُون يَجدون عند مُعَاوِيَة ما يُرِيدُون، فضَم إِلَيْهِ كلّ من كَانَ له أَرب فِي الدُّنْيَا... وكَانَ عَليّ لا يُدهِن فِي الدِّين، ويَبغض المَكر، والكَيد، كَانَ يَرىٰ الْحَقّ فَيمضي إِلَيْهِ مُصمماً، ويَرىٰ ٱلْبَاطِل فيعرض عَنْه عَازماً... ومـا رَأيك فِي رَجـل جَاءه أَخُوه عَقِيل مُسترفِداً فَلم يَجد عِنده ما يُرِيد... وما رَأيك فِي رَجُل آخر ـ أي مُعَاوِيَة يَأْتِه عَقِيل هَذَا نَفْسه. فيُعطِيه من بَيْت ٱلْمَال مِئة ألف»[1]. وهَذِه الحَادثة وحدَها كافِية وافِية لتَفْسِير الفَرق بَيْنَ سِيَاسة ٱلرَّحْمَان، وسِيَاسة الشَّيْطَان.

وأخِيراً قرَأت للأُستَاذ الْكَبِير أحمد عَبَّاس صَالح كَلِمَة فِيهَا: «قَاد مُعَاوِيَة جَيش الشّام، وهُو الرَّجُل الَّذي يُمثل النَّقِيض من عليّ تَمَاماً، هُو شخصِيه فرِيدة جُمعت فِيهِ كلّ خصَائص الرَّجُل الَّذي لا تُشل حَركته أية قِيمة من الْقِيَم الدِّينِية، وٱلاِنْسَانية، أنّه ٱبن أَبِي سُفْيَانَ الشّهِير، وٱبن تِلك الْمَرْأَة الَّتِي مَضغت كَبد حَمْزَة عَمّ النَّبِيّ حِينَ سَقط قَتِيلاً... إِنَّ فِي نَفس مُعَاوِيَة إِرَادَة الإِنْتصَار الشّخصي، والغَلب... إِنَّ فِيهِ قَسوة الأعصَار، وعَبقرِية الْقَدَر الغَاشم... إِنّه قُطب السّلب المُطلق الَّذي يَصطرع فِي قلب ٱلإِنْسَان كَما يَصطرع فِي قَلب الكَوْن، والسّلب فِي الكَوْن يَتجه إِلَىٰ الشّرّ، والإِيجَاب يَتجه إِلَىٰ الْخَيْر، وقَد تصَادم القُطبان: ـ عَلِيٌّ، ومُعَاوِيَة ـ المُوجب، والسّالب بقَدر ما تُتِيح ٱلإِنْسَانية أنْ تكُون سَلباً مُطلقاً، أو إِيجَاباً مُطلقاً»[2]، ثُمَّ قَالَ الأُستاذ صَالح: «ولَو لَم يَسر عليّ سِيرته المثَالية أكَانَتْ تبقىٰ تِلك الجَذوة ـ أي جَذوة الْحَقّ ـ مُشتعلة كَامنة فِي النّفوس؟ وكأنّ دَور عليّ الوَحيد أنْ يَكُون مِثالاً فِي التَّأرِيخ

---

(١) أنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه للدكتور، طَه حُسين: ٥٦ ـ ٦٠. طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م.

(٢) أُنظر، نشر هَذَا المَوْضُوع بمجلة الكاتب المِصْرية عدد نيسان سَنَة ١٩٦٥م.

كأنَّه عَلاَمَة من علاَمَات الطَّرِيق»[1].

وهَذِه الكَلِمَة القَصِيرة الْكَبِيرة لا تُصور سِيَاسة عَـليّ فَـحَسب، وإنّمـا تَـرسم شَخصِيته فِي وَاقعها، إنَّهَا تَجمع خَير الكَوْن بأسره كمَا تَجمع شخصِية مُـعَاوِيَة شرّ الكَوْن بكَامله، إنَّهَا الدَّلِيل، والعَلاَمة عَـلَىٰ الْحَـقّ، ولَـوْلاَها لم يَكُـنْ له «جَـذوة مُشتعلة كَامنة فِي النّفوس»، ولاِنْطَمس الْحَقّ وأثَره فِي عَهد عليّ، وبالتَّالي من بَعده فِي كلّ عَهد ـ حَيْث يَحتج الْكَبِير، والْصَّغِير لأحتِياله عَلَىٰ الْحَقّ بِعَمل عَليّ بـن أبي طالب ـ ولكنَّ عَلِيّاً كَانَ وَسيَبْقَىٰ إِلَىٰ آخر يَوْم حُجّةً دَامغةً عَلَىٰ من يُحِيد عَن الْحَقّ، أو يَحتال عَلَيْهِ، ومَا تَرك لأحدٍ عَلَىٰ الإطلاَق مَعذَرة، وَلاَ وَسِيلة.

---

(١) أنظر، الْمَصْدَر السّابق.

الخطبة
- ٤٢ -

الْهَوَىٰ وَطُولُ الأَمَلِ:

(أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ ٱثْنَانِ: ٱتِّبَاعُ الْهَوَىٰ، وَ طُولُ الأَمَلِ، فَأَمَّا ٱتِّبَاعُ الْهَوَىٰ فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَ أَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ. أَلاَ وَ إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ ٱصْطَبَّهَا صَابُّهَا. أَلاَ وَ إِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ. فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَ لاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ إِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَ لاَ حِسَابَ، وَ غَداً حِسَابٌ وَ لاَ عَمَلَ).

اللُّغَة:

حَذَّاءَ ـ بِتَشدِيد الذّال ـ سَرِيعة. وصُبَابَةٌ ـ بضَم الصّاد ـ البَقِية مِن المَاء، أو اللّبن فِي الإِنَاءِ، ـ وبِفَتح الصّاد ـ الشّوق. وٱصْطَبَّهَا: سَكَبها. وصَابُّهَا: سَاكِبها. وَقَالَ ٱبن أبِي ٱلحَدِيد: ٱصْطَبَّهَا صَابُّهَا مثل أبقاها مُبقِيهـا، أو تَركها تَاركها، ونَـقل عـبَارته

بالحَرف الوَاحد الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه بلا تَفْسِير كعَادته فِي أَكْثَر التّعلِيقات[1].

الْإِعْرَاب:

أَخْوَفَ أفْعَل تَفضِيل اسم إِنَّ، و «مَا» مَوْصُول مَجْرُور بالإِضَافة، واثْنَانِ خَبَر إنَّ، واتِّبَاعُ الْهَوَىٰ وطُولُ الْأَمَلِ بَدلٌ مفصّل مِن مُجمل، والمُبدل مِنْهُ اثْنَانِ، ويجُوز أنْ يَكُون اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ وما بَعده خَبَر لمُبْتَدأ مَحْذُوف أي هُما. وأَمَّا الأُولَىٰ والثَّانِيَة للتَّفصِيل، وَأَلاٰ للتَّنبِيه. وحِسَابَ اسم «لاٰ» والخَبَر مَحْذُوف أي فِيهِ، ومِثله وَ لاٰ عَمَلَ.

الْمَعْنَىٰ:

(إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ، وَ طُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَ أَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ). تَقَدَّم مِثله[2] (أَلاٰ وَ إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ) أي مُسْرِعَة، والْمُرَاد بالدُّنْيَا هُنا حَيَاة الْفَرْد، وَعُمره الخَاص بهُ، وهُو قَصِير فِي ذَاته مَهما طَال، لأنّه كما قَالَ الإِمَامِ ﷺ: «إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ لاٰ تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً اِلاَّ بِفِرَاقِ أُخْرَىٰ، وَلاٰ يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ اِلاَّ بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ»[3]، وَقَالَ أيضاً: «مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ، وَالنَّهَارَ؛ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ

(١) أنظر، شَرْح نَهْج ٱلبَلاَغَة لِابْن أبي ٱلْحَدِيد: ٢/٣١٨، خطب نَهْج ٱلبَلاَغَة لُمحَمَّد عَبْدَه: ١/٩٣.

(٢) أنظر، ٱلْخُطْبَةُ: (٢٨).

(٣) أنظر، نَهْج ٱلبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٤٥)، عيون الحكم والمواعظ: ١٤٦، تنبيه الخَوَاطِر: ٢/٢١٨، علماً بأنَّ الشّيخ ﷺ أوردها هكذا: «لا يَسْتَقْبِلَ ٱلإِنْسَان يوماً من عُمره إلّا بفراق آخر من أجله».

وَاقِفاً»[1]. (فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ اصْطَبَّهَا صَابُّهَا). وَيَصدُق هَـذَا حَتَّىٰ عَلَىٰ من يُخلق فِي سَاعته، وَعَلَىٰ من يَعيش مِئة عَام، لأنّ القرُون لحـظَات فِي حسَاب الشّروق، والغُرُوب. وهَذِه الحَقِيقَة يُدركها ويُؤْمِن بها المُتدِين، والزّاهد، والطّامع.

(وَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا ـ أي الدُّنْيَا والآخِرَة ـ بَنُونَ). وأبنَاء الدُّنْيَا هُم الّـذِين لا يَـرون نَفعاً، أو ضرّاً، وَلاَ خَيراً، أو شرّاً إلّا فِي هَذِه الحَيَاة، وإِنَّ كلّ الوَسَائِل صَحِيحةٌ، وخَيرةٌ ما أدَّت إِلَىٰ شيء من منَافعها، ولذَائذها، أَمَّا أبـنَاء الآخِـرَة فـهم الّـذِين يُؤْمِنُون بعَالم الْغَيْب، والشّهادة، بالآخِرَة الْبَاقِيَة، والدُّنْيَا الفَانِية، وَلاَ يَبيعون تِلك بِهَذِه، ويَعْمَلُون لهَا مَعاً، ويَقُولُون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّـارِ﴾[2] (فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ). أي حَسوا بوجُودها: وأحسَـبوا حسَابها، وآخروا شَيْئاً لها، واعتبروا أنّكم فِيْهَا مُنذ الآن (وَ لاَ تَكُونُوا مِـنْ أَبْـنَاءِ الدُّنْيَا). أي عَلَىٰ أَنَّهَا الأُولَىٰ، والأخِيرة، وَلاَ شيء غَيْرها وبَعدها، بل عَلَىٰ أَنَّهَا مَمَرّ إِلَىٰ حَيَاة أجْدَىٰ، وأبْقىٰ.

(فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). وقد أتْعَب بَعْض الشّـارحـين نَـفْسه، وأطَال فِي بَيَان وَجه الشَّبه بَيْنَ حَال الإِنْسَان يَوْم القِيَامَة، وبَيْنَ إلحَـاقه بأمّـه، ثُمَّ انْتَهىٰ إِلَىٰ ما يَتلخص بأنّ أبنَاء الدُّنْيَا يَوْم الآخِرَة كالأيتَام بلا أب، أَمَّا أبنَاء الآخِرَة فهُم فِي حضَانة أبِيهم... وَهذَا الْمَعْنَىٰ بَعِيد عَن دَلاَلَة اللَّفظ، والفَهم، والَّذي تَـبادر

---

(١) أنظر، خطب نَهج البَلاَغة: ٣/٥٠، جزء من وصيته ﷺ، لِلإمَامِ الحَسَن، والحُسَيْن ﷺ، تحت رَقم (٣١).

(٢) البَقَرة: ٢٠١.

إِلَىٰ فَهمنا أنّ يَوْم ٱلْقِيَامَة هُو يَوْم الْحَقّ، والوَاقع، والْحُكْم، والفَصل بِعلم الله تَعَالَىٰ الَّذي لا تَخفىٰ عَلَيْهِ خَافِية، ويَجزي ٱلإِنْسَان بِمَا أَراده وهَدَف إِلَيْهِ من عَمله، لا بِمَا أَعْلَنه وأَظْهَره فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا... كلاَّ، فإنّ النَّاس فِي هَذِه ٱلْحَيَاة يأخذُون بالمظَاهر، وقَد يَنسبُون الوَلد لغَير أَبِيه، والعِلْم لغَير ذَوِية، والصّلاح لغَير أَهْله... ولاَ شَيء فِي الآخِرَة إلاّ الْحَقّ، والْحَقِيقَة: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1].

(وَ إِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ) أي عَمل عَلَىٰ حَذف الْمُضاف إِلَيْهِ (وَ لاَ حِسَابَ).

والْعَاقِل من حَاسب نَفْسه قبل أنْ تُحاسب، ووَزَنها قَبل أنْ تُوزن، ومِن أَقْوَاله عليه السلام: «فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ»[2] (وَ غَداً حِسَابٌ) عَرض، ونقَاش، وسُؤال، وجوَاب، ومُحاكمة بلا محَاماة، ولاَ شَفِيع، ونَصِير: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3]. (وَ لاَ عَمَلَ)، لأنّه ذَهب بذهَاب وَقْته.

---

(١) غَافِر: ٧٨.
(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (٢٢٢).
(٣) ٱلنَّحل: ١١١.

الخطبة

-٤٣-

وَأَوْجَدَ النَّاسَ فَقَالُوا:

(إِنَّ اَسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ، وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ، إِغْلاَقٌ لِلشَّامِ، وَصَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ. وَلَكِنْ قَدْ وَقَّتُّ لِجَرِيرٍ وَقْتاً لاَ يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلاَّ مَخْدُوعاً، أَوْ عَاصِياً. وَالرَّأْيُ عِنْدِي مَعَ الْأَنَاةِ فَأَرْوِدُوا، وَلاَ أَكْرَهُ لَكُمُ الْإِعْدَادَ.

وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا الْأَمْرِ، وَعَيْنَهُ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ، وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرَ لِي فِيهِ إِلاَّ الْقِتَالَ، أَوِ الْكُفْرَ بِمَا جَاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ، إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى الْأُمَّةِ وَالٍ أَحْدَثَ أَحْدَاثاً، وَأَوْجَدَ النَّاسَ مَقَالاً، فَقَالُوا، ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا).

اللُّغَة:

الإِغْلاَق: مِن أَغْلَق البَاب ضِدّ فَتحه. والأَنَاة: التَّأنِي. وأَرْوِدُوا: أَرْفِقُوا. وأَحْدَثَ أَحْدَاثاً: اَبْتَدع مُنْكَرات غَيْر مَعرُوفة فِي السُّنَّة.

الْإِعْرَاب:

إِغْلاَقٌ خَبَرَ إِنَّ، ووَقْتاً مَفْعُول مُطلق لوَقَّتّ أي عَيَّنت، أو ضَرَّبت، ومَخْدُوعاً

حَال، والْأَمْر عَطف بَيَان مِنْ هَذَا، والضَّمِير فِي إِنَّهُ للشَّأن.

الْمَعْنَىٰ:

(إِنَّ ٱسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ، وَ جَرِيرٌ عِنْدَهُمْ إِغْلَاقٌ لِلشَّامِ، وَ صَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ). قَالَ المُؤرخُون: إِنَّ الْإِمَامَ عليه السلام أرْسَل رُسلاً إِلَىٰ مُعَاوِيَة الوَاحد تُلو الآخر يُحذره من الشّقاق، والْفِتْنَة. ومِنْهُم جرِير بن عبدالله البَجَلي[1] من أَصْحَاب رَسُول الله صلى الله عليه وآله. فَقَد أرْسَله الْإِمَام لِيعظ مُعَاوِيَة، ويُحذره ٱلْعَوَاقِب. ويَطلب مِنْهُ أنْ يَدخل فِيما دَخل فِيهِ ٱلْمُسْلِمُون، ومِنْهُم الْأَنْصَار، والْمُهَاجِرُون، ولكن مُعَاوِيَة أسرَف، ومَاطل فِي جوَاب جرِير، ولفّ ودَار... ولمَّا ٱستبطأ الْإِمَام جرِيراً أشارُوا عَلَيْهِ فِي النّهوض لحَرْب أَهْل الشّام، فقَالَ: «فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلاَّ وَ أَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ إِلَىٰ ضَوْئِي، وَذٰلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَىٰ ضَلَالِهَا، وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا»[2].

(وَ لَكِنْ قَدْ وَقَّتُّ لِجَرِيرٍ وَقْتاً لاَ يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلاَّ مَخْدُوعاً أَوْ عَاصِياً). كَانَ الْإِمَام قَد ضَرب وَقتاً لرجُوع جرِير وعُودته بحَيث لا يتَأخر عَنْه إلّا لطَارِىء كخدَاع

---

(١) جَرِير بن عبدالله بن جَابر، يُكنىٰ أبَا عَمْرُو من قَبِيلة «بُجَيْلَة» قَدِم إِلىٰ النَّبِيّ صلى الله عليه وآله سَنَة عَشر فِي رَمضان، وبَايعه، وأَسلم. وكَان عُمَر بن الخَطَّاب يَقول: جَرِير يُوسُفَ هَذِه الأُمَّة. لحُسنه، وٱشتَرك فِي الْفُتُوح زمن عُمَر، توفّي بالشّراة بِقِرْقِيسيَا سَنَة إحدىٰ وخمسِين، أو أربَع وخمسِين، فِي وِلَايَة الضَّحَّاك بن قَيْس عَلَىٰ الْكُوفَة. (أنظر الْإِصَابَة: ١ / ٢٣٣، أسد الغَابَة: ١ / ٢٧٩ ـ ٢٨٠، المَعَارِف لِابْن قُتَيْبَة: ٢٩٢).

(٢) أنظر، نَهْج ٱلْبَلَاغَة: من كَلَام له عليه السلام وقد ٱستبطأ أَصْحَابه إذنه لهم فِي الْقِتَال بصِفِّين يتحت رَقم (٥٥). بينما الشَّيخ رحمه الله أورده بِهَذَا الشّكل: «لا أُبادر الْحَرْب إلّا بعد إلقاء الحجّة وقطع الْمَعْذِرَة، ولو سقت الْجُيُوش إلىٰ أَهْل الشّام ورسولي عندهم لم تقم الحجَة عَلَيْهِمْ، ثم ما يُدرينا؟ فلعلهم يؤثرون السّلم والعافية».

مُعَاوِيَة، وتسويفه، أو عصيَان جرير، ومخَالفته، وحَتَّىٰ السّاعة ما تَبين شَيء من ذَلِكَ، وإذَنْ (وَ الرَّأْيُ عِنْدِي مَعَ الْأَنَاةِ) والصّبر (فَأَرْوِدُوا). تَرفقُوا، وتَمهلُوا (وَ لاَ أَكْرَهُ لَكُمُ الْإِعْدَادَ). لا بَأس أنْ تَتهيأوا للحَرْب، وتَعدوا لها العُدَّة حَتَّىٰ إذَا دَعت ٱلْحَاجَة كُنتم عَلَىٰ ٱستعدَاد... وَهَذَا هُو التَّدبِير الحَكِيم: تَرك المُبادرة إِلَىٰ الشّر مَع الوقَاية مِنْهُ، والْتَّحصن بٱلْقُوَّة لرَدعه، ومَنعه.

(وَ لَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا الْأَمْرِ وَ عَيْنَهُ، وَ قَلَّبْتُ ظَهْرَهُ، وَ بَطْنَهُ) تأملت مَلِياً فِي مَوقف مُعَاوِيَة، ووَضعه، ودَرسته بِدقة، وأمعَان مِن شَتَّىٰ جِهاته (فَلَمْ أَرَ لِي فِيهِ إِلاَّ الْقِتَالَ، أَوِ الْكُفْرَ بِمَا جَاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ). أَبَداً لنْ يَحِيد مُعَاوِيَة عَن ٱلْبَاطِل، ويَستجِيب لدَّعْوَة الْحَقّ إلّا بٱلْقُوَّة، وإذَنْ فَمَاذا يَصنع الإِمَام عليه السلام؟ هل يتجَاهل، ويَسكت عَن مُعَاوِيَة يَحدث البِدع، ويتلُون فِي الدِّين، ويَتَّخِذه أدَاة لدُّنياه؟ روُبّما أمكَن هَذَا لو لَم يَكُنْ الْإِمَام خَلِيفَة ٱلْمُسْلِمِين، أَمَّا سكُوته عَن مُعَاوِيَة، وهُو خَلِيفَة فَمَعْصِيَة لله، وجحُود بِمَا نَزل عَلَىٰ رَسُول الله ﷺ. وإذاً فَلا دَواء إلّا الكَي... ومن أقْوَاله: «وَسَأُمْسِكُ الْأَمْرَ مَا ٱسْتَمْسَكَ، وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ»[1]. أي الحَرْب.

(إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَىٰ الْأُمَّةِ وَالٍ أَحْدَثَ أَحْدَاثاً، وَ أَوْجَدَ النَّاسَ مَقَالاً). الْمُرَاد بِهَذَا الْوَالِي عُثْمَان، وقَد تَصرف فِي أَمْوَال ٱلْمُسْلِمِين كَمَا يَهوىٰ أَعْدَاء الله وٱلإِسْلاَم، ودوّن عُلَمَاء السُّنَّة فِي كُتبهم الكَثِير مِن أحدَاثه، ونَقلنا عَنهم طَرفاً مِنْهَا فِي شَرح ٱلْخُطْبَة الشِّقشِقيَّة... والّذي نُرجحه ـ بَعد الإِستقرَاء، والتَتبُّع ـ إنَّ الّذِين أولُوا، وٱعتَذروا

---

(١) من كَلاَم له عليه السلام بعدما بويع له بِالخِلاَفَةِ، وقد قَالَ له قَوْم من الصَّحَابَة لو عاقبت قوماً مِمَّنْ أجلب عَلَىٰ عُثْمَان. أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (١٦٨).

عَن عُثْمان يُؤْمِنُون بَيْنَهُمْ وبَيْنَ أَنفسهم بأَنّ عُثْمان قَد أحدَث أحـدَاثاً، وإنّ الدَّافـع الأَوّل لَهُمْ عَلَىٰ بَعضهم هُو مُجرد التَّعَصُّب ضِدّ الّذين يُخطِّئون عُثْمان، ونَفس الشَّيء يقال فِي الإعْتذَار عَن مُعَاوِيَة، وابن العَاص، وأَصْحَاب الجَمَل. وَلاَ تَستَبعد أيُّها القَارىء فإنْ التَّعَصُّب يَفعل الأعَاجِيب.

(فَقَالُوا، ثُمّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا). وَاو الجَماعَة فِي الأفعَال الثّلاَثة يَعود إلَىٰ النَّاس فَتح لَهُمْ عُثْمان بَاب القَوْل فِيهِ، والْمَعْنَىٰ أنّ قلُوب النَّاس نَفرت من أحدَاث عُثْمان، فنَطَقَت أَلْسِنَتِهِمْ بنَقده، والإعترَاض عَلَيْهِ، ولمَّا استَمرت الأحدَاث ثارُوا عَلَيْهِ، وَفَعلوا بِهِ الأفاعِيل... فاستيقظَت الفِتْنَة بَيْنَ المُسْلِمِين، ولَم تَنم.

الخطبة

ـ ٤٤ ـ

قَبَّحَ اللهُ مَصْقَلَةَ:

(قَبَّحَ اللهُ مَصْقَلَةَ ! فَعَلَ فِعْلَ السَّادَةِ، وَ فَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ ! فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّىٰ أَسْكَتَهُ، وَ لاَ صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّىٰ بَكَّتَهُ، وَ لَوْ أَقَامَ لَأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ، وَ ٱنْتَظَرْنَا بِمَالِهِ، وُفُورَهُ).

اللُّغَة:

بَكَّتَهُ: قَرَعَهُ، وَعَنَّفَهُ، ووُفُورَ ٱلْمَال أو أي شيء: يَسَره، وَكَثَرته.

الْمَعْنَىٰ:

(قَبَّحَ اللهُ مَصْقَلَةَ) بن هُبَيْرَة الشَّيبَاني[1]، وكَانَ عَامِلاً لِلإِمَامِ عَلَىٰ أَرْدشِير (فَعَلَ

(١) أنظر، القِصَّة فِي تأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٩٧/٤، شَرح نَهج ٱلبَلاَغَة لإبن أبِي ٱلحَدِيد: ١٢٨/٣، الأغَانِي: ١٣٩/٤٤ طَبعة السَّاسِي، تَأرِيخ دِمَشق: ١٧٢/١٩ و: ٢٦٩/٥٨، جَمهرة أَنسَاب العَرب: ٣٢١، الأنسَاب:

فِعْلَ السَّادَةِ) وذَلِكَ أنّ جَمَاعَة مِن النّصارىٰ كَانوا قد أسلَموا، ولمَّا سَمعوا بخَارجي خَرج عَلَىٰ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﷺ ٱرتَدوا عَن ٱلإِسْلاَم، وٱنضَموا إِلَىٰ هَذَا الخَارجي، وهُو الحُرَيْث من بَني نَاجِية، فوَجه الإِمَام إِلَيْهِ مَعقل بن قَيْس فِي ألفي فَارس، فَقَتله، وأَسّر مَن كَانَ معَه مِن المُرتدِين من ٱلرِّجَال، وٱلنِّسَاء، وحَملهم إِلَىٰ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين، فصَادف مرُوره بمَصْقَلَة بن هُبَيْرَة، فٱستغَاث به الأَسرىٰ، فٱبتَاعهم من مَعقِل بخمسمئة ألف دَرهم، وٱعْتَقهم، وَقَالَ لمَعقل: أنا أحمل ٱلْمَال إِلَىٰ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين.

ولمَّا عَاد مَعقِل إِلَىٰ الإِمَام أخبَره بالقِصَّة: فشَكره، وأثنَىٰ عَلَىٰ عَمله، ولكنَّ مَصْقَلَة أبطَأ ولَم يَفِ بوَعده[1]، فكَتب إِلَيْهِ الإِمَام يُطالبه بٱلمَال، ومَا أنْ قَرأ ٱلْكِتَاب حَتَّىٰ فَرَّ، ولَحِق بمُعَاوِيَة، وإِلَىٰ هَذَا يُشِير الإِمَام بقَوْله: (وَ فَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ)... وهَكذا كُلّ لصّ، وخَائن، وكُلّ منَافق، ومُداهن يَهرب مِن عَدل الإِمَام، وإِيمَانه إِلَىٰ أطمَاع مُعَاوِيَة، وأحلاَمه، قَالَ طَه حُسين: «فكَان الطّامعُون يَجدُون عِنده ـ مُعَاوِيَة ـ ما يُريدُون، وكَانَ الزّاهدُون يَجدون عِند عليّ ما يُحبون»[2]. ولكنْ أين النّسبة العَددِية بَيْنَ الفِئتِين؟ ثُمّ أينَ هم الزّاهدُون فِي ٱلمَال، والثّرَاء؟ إِنَّ ٱلإِنْسَان شره إِلَىٰ ٱلْمَال بالطَّبع، ولَيْسَ ٱجتمَاعِياً بالطَّبع كَما يُقَال.

⇐ ٤٥/١، الأعْلاَم: ٢٤٩/٧، تأريخ المَسعُودي: ٤١٩/٤، وَقْعَة صِفِّين: ٥٥٥، فتُوح البُلدان: ٣٤٢، التّاج: ٤٠٤/٧، المرزبَانِي: ٤٧٥، أنْسَاب الأَشْرَاف: ١٦٠.

(١) أُنظر، تَأرِيخ مدينة دِمَشْق: ٨٢١/٥٥، بحَار الأَنْوَار: ٤١٦/٣٣ شَرْح الأَخْبَار: ٩٦/٢، تَأرِيخ الطَّبَرِيّ: ٧٣/٦، الغارات: ٣٢٩/١، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لمُحَمَّد عَبْدَه: ٩٤/١.

(٢) أُنظر، الْفِتْنَة الْكُبْرَىٰ ـ ٢ ـ عليّ وبَنُوه للدكتور، طَه حُسين: ٥٩. طَبْعَة سَنَة ١٩٦٤م.

(فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّىٰ أَسْكَتَهُ). ما قَالَ القَائِل: أَحسن مَصْقَلَة فِي عِتق الأَسرىٰ حَتَّىٰ ارتفع صَوْت يَقول: قَبحهُ الله من لُصٍّ مُحتال... ما كَانَ أغناه عَن الحالِين (وَ لاٰ صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّىٰ بَكَّتَهُ، وَ لَوْ أَقَامَ لَأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ، وَ انْتَظَرْنَا بِمَالِهِ، وُفُورَهُ). لو ثَبَت وبقي عَلَىٰ ما كَانَ لأخذنا مِنْهُ ما تَيَسَّر، وصَبرنا فِيما تَعسر حَتَّىٰ يَسْتَطِيع الْوَفَاء.

الخطبة

ـ ٤٥ ـ

الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضْرَاءُ:

(الْحَمْدُ للهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلاَ مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَلاَ مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ، وَلاَ مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبَادَتِهِ، الَّذِي لاَ تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ، وَلاَ تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ.

وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنِيَ لَهَا الْفَنَاءُ، وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا الْجَلاَءُ، وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضْرَاءُ، وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ، وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ، فَارْتَحِلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، وَلاَ تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ، وَلاَ تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلاَغِ).

اللُّغَة:

يَجُوز مَأْيُوسٍ مِن أَيس، وأيضاً يَجوز مَيؤُوس مِن يَئس، والْمَعْنَىٰ واحد، وهُو القنُوط. ونْكَف: أنَفَ، وآمتَنع، وآستنكَف: آستكبَر. ومُنِيَ لذا بالبنَاء عَلَىٰ المجهُول: وُفق لهُ أو قُدر، والثَّاني هُو المَقصود هنا. والْتَبَسَتْ: آمتزجَت، وآختَلطت. والْكَفَافِ ـ فَتح الكَاف ـ ما كَف عَن النَّاس، وأَغْنَىٰ، والْبَلاَغِ، والبُلغة والتَّبلغ: الكفَاية.

الإِعْرَاب:

غَيْرَ حَال، وَالدُّنْيَا مُبْتَدَأ أَوَّل، وَالدَّار مُبْتَدَأ ثانٍ، وَمَا بَعده خَبَر له، والجُملة مِنْهُ ومِن خَبَره خَبَر المُبْتَدَأ الأَوَّل. وَلِأَهْلِهَا خَبَر مُقَدَّم، والجَلاءُ مُبْتَدَأ مُؤَخَّر، وخَضْرَاءُ خَبَر ثَانٍ لـ«هِيَ».

المَعْنَىٰ:

(الْحَمْدُ للهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ). لأَنّه سُبْحَانَهُ هُو القَائِل: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾(١). وَقَالَ نَبي الرَّحْمَة: «لِيغفَرن الله يَوْم ٱلْقِيَامَة مَّغْفِرَة ما خَطرت قَط عَلَىٰ قَلب أحد، حَتَّىٰ إِبْلِيس يَتطاول إِلَيْهَا»(٢). وَقَالَ إِمَام ٱلْهُدَىٰ: «الْفَقِيهُ كُلُّ ٱلْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ»(٣) (وَ لاَ مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ). لأنّه قَالَ، وقَوْله الْحَقّ ووَعده الصِّدْق: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٤). والرَّحْمَة أَعم مِن الْمَغْفِرَة لِأَنَّهَا تكُون بالتَّوفِيق، والعنَاية بِمَن لا ذَنب له، وبالسِّتر عَلَىٰ المُذنب (وَلاَ مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبَادَتِهِ). لأنّه أَهْل للْعِبَادَة: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ

(١) ٱلْحِجْر: ٥٦.

(٢) أُنظر، تَفْسِير آبن كثير: ٢/٢٥٢، مَجْمَع الزّوائد: ١٠/٢١٦، الْمُعْجَم الأوسط: ٥/٢٥٠ ح ٥٢٢٧، الْمُعْجَم الْكَبِير: ٣/١٦٨ ح ٣٠٢٢، الزُّهْد لِابْن المبارك: ١/٤٨٠ ح ١٣٦٤.

(٣) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٤/٢٠ ٱلْحِكْمَة (٩٠)، عيون الحكم والمواعظ: ٥٥، شَرْح النَّهْج لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد: ١٨/٢٤٣، سُبل الْهُدَىٰ والرّشاد: ١١/٢٩٩، يَنَابِيع الْمَوَدَّة: ٢/٤١٦.

(٤) ٱلزُّمَر: ٥٣.

عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[1].

لِلمِنْبَرِ ـ الدُّنْيَا، وٱلْكَفَاف:

تَكَلَّم الْإِمَامُ عليه السلام عَن الدُّنْيَا، فَمَا أَبقىٰ لهَا مِن حَال... فَهِيَ غَرَّارَةٌ، ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ، زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ، بَائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ، غَوَّالَةٌ[2]، وحَيَّةٌ، دَنِيَّةٌ، وَدَاهِيَّةٌ، بَغِيَّةٌ... عَيْشُهَا قَصِير، وخَطَرُها يَسِير، وأَمَلهُا حَقِير... إِلىٰ آخر السَّيِّئَات، واللَّعنَات... ومن أجل هَذَا أَلْقىٰ حَبْلَهَا عَلىٰ غَارِبِهَا، وطَلقها ثَلاَثاً لا رَجْعة فِيْهَا أَبَداً... ولو أرادها لأقبَلت عَلَيْهِ إقبَال العَاشق الوهَان، وكَانَتْ أطوع إِلَيْهِ من البنَان.

ومَع هَذَا أَنْصَفَها الإِمَام فيما لها من حَسَنَات حَيْث قَالَ: إنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، وَدَارُ غِنىً لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا[3]... وإِذَنْ فَهِيَ لا تَتجَرم، وتَبغي عَلىٰ أحدٍ، ومَن كَانَ صَادقاً مُخلصاً ٱتعظ بوِيلاتها، وٱستفَاد من خيرَاتها فِي يَوْمِه هَذَا، وفِي يَوْم الفَزع الأَكْبَر. أَمَّا الّذين أعمىٰ الْهَوىٰ، وٱلْجَهْل عُقُولهمْ، وقُلُوبهم فإِنَّهُم لا يَعقلُون عَن الله فكَيْفَ يَنْتفعُون بمَواعظ الدُّنْيَا، وعَنْهَا يَفْقهُون؟.

(وَ قَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ). إِنَّ أَكْثَر النَّاس يؤثرُون المَنْفَعَة الْعَاجِلَة، وإِنْ كَانَتْ زَهِيدة فَانِية عَلىٰ الآجِلَةِ، وإِنْ كَانَتْ عَظِيمة بَاقِية، ومن أجل هَذَا تُحببت الدُّنْيَا إِلَيْهِمْ بالْعَاجِلَة (وَ الْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ). ٱمتزج حُبّ الدُّنْيَا بقَلب من ركنَ إِلَيْهَا

---

(١) ٱلنِّسَاء: ١٧٢.

(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٱلخُطبَة (١١١).

(٣) أُنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ٣٢/٤ ٱلحِكمَة (١٣١).

حَتَّىٰ أعمَته عَن رُشده، ومَصلحته (فَارْتَحِلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ). إنَّ فِي الدُّنيا خَيراً، وشرّاً، وهُما بَيْنَ أيدِيكم، فأستبقوا الْخَـيْرَات تـربحُوا مـن الله الرَّحْمَة، والرِّضوَان.

(وَ لاَ تَسْأَلُوا فِيْهَا فَوْقَ الْكَفَافِ، وَ لاَ تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلاَغِ). لِيَكتف كـلّ إنْسَان بِسد ٱلْحَاجَة فَقط مِن المأكل، والمَشرب، والملْبس، والمَسكن... وسَد ٱلْحَاجَة وَسط بَيْنَ التّرف، والضّرورة، ولو عَمل النَّاس بوصِية الْإِمَام عليه السلام لعاشُوا جَمِيعَاً فِي سَعَادَةٍ، وهَناء، لا حَرْب، وفَقر، وَلاَ عبودِية، وٱستغلاَل، وَلاَ حِرص، وٱحتكار، ولاَ مَن يحزنُون.. ولا ٱعتدَاء، وجَرِيمَة أيضاً إلّا مِمَّنْ شَذَّ.. ولكلّ قَاعدة شوَاذ لا يُعتنىٰ بها، وَلاَ يُقاس عَلَيْهَا، وبالتَّالي تَتحقق الْحُرِّيَّة، والعَدَالة، والمُسَاوَاة بالْمَعْنَىٰ العِلمي الدَّقِيق لِهَذِه الْكَلِمَات.

الخطبة

ـ ٤٦ ـ

أَللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ:

(أَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ، وَ الْمَالِ، وَ الْوَلَدِ. أَللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَ أَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، وَ لاٰ يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ، لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لاٰ يَكُونُ مُسْتَصْحَباً، وَ الْمُسْتَصْحَبُ لاٰ يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً).

اللُّغَة:

أَعُوذُ بالله: أعتصم بِه. وَعْثَاءِ السَّفَرِ: مَشَقته، وصعُوبة طريقه. والكَآبَة: الْحُزْن. والْمُنْقَلَبِ: الرُّجُوع، ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[1] أي رَاجِعُون.

الإِعْرَاب:

أَللَّهُمَّ أي ياالله، وضَمِير التَّثنية فِي ـ يَجْمَعُهُمَا ـ يَعود إِلَىٰ الإِسْتصْحَاب المفهُوم من

---

(١) الزُّخْرُف: ١٤.

كَلِمَة الصَّاحِبُ، والإسْتَخْلاَف المفهُوم من كَلِمَة ٱلْخَلِيفَة، والْمَصْدَر من لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَف... إلخ. مَجرور باللاَّم، ومُتَعَلِّق بيَجْمَعُهُمَا.

الْمَعْنَىٰ:

(أَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ). قَالَ الشَّرِيف الرَّضِي: دَعَا الْإِمَام بِهَذَا، وهُو يَضع رِجله فِي الرّكاب[1]. ولَيْسَ من شكٍّ أنّ الدُّعاء حَسَن، وَمَحْبُوب فِي ذَاته لأنّه ضَرب من الْعِبَادَةِ، والتّوكل عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَيجُوز أَنْ يَكُون له أثر فِي خوَارق العَادات، وما أُوتِينا من العِلْم إلاّ قَلِيلاً (وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ) يدعو الله سُبْحَانَهُ أنْ يَعود إِلَىٰ أَهْله مِن سَفره مسرُوراً (وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ، وَالْمَالِ، وَالْوَلَدِ). أَنْ لا يُرِيه الله ما يَكْرَه فِي نَفْسِه، وولده، ومَاله، وأحبَائه.

(أَللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَأَنْتَ ٱلْخَلِيفَة فِي الْأَهْلِ). لَيْسَ لله زمان، ومكَان، فَهُوَ مَع المُسافر تَمَامَاً كما هُو مَع المُقِيم عَلَىٰ السّواء: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2]. (وَلاَ يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ) بحيث يَكُون مُصاحباً للمُسافر، وخَلِيفَة عَلَىٰ المُقِيم فِي آنٍ واحد... هَذَا مُحال بالنِّسبة لغَيره تَعَالَىٰ (لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ) البَاقي مَع المُقِيم (لاَ يَكُونُ مُسْتَصْحَباً) أي مُصاحباً للمُسافر (وَالْمُسْتَصْحَبُ) مَع المُسافر (لاَ يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً) وحاضِراً مَع المُقِيم. كَيْفَ؟ وهل تَجْتَمِع الأضدَاد.

والخُلاَصة: أنّ الإمَامعليه السلام ٱلتجأ إِلَىٰ خَالقه، وٱعتصم بِهِ من مشَقة السّفر، وٱلحُزْن عند مآبه مِنْهُ، ومِن رؤية مايَكْرَه فِي مَن يُحب، ثُمَّ سَأَله تَعَالَىٰ مُتضرعاً أنْ

(١) أُنظر. قَول الشَّرِيف الرَّضِي فِي أَوّل هَذِه ٱلخُطْبَة مِن نَهْج ٱلْبَلاَغَة.

(٢) ٱلحَدِيد: ٤.

يمُد إِلَيْهِ يَد العون فِي سَفره، ويحفظه فِي أهله الّذِين تَركهم بلا كفِيل إلّا هُو جلّ وعزّ، إنّه عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «لاٰ يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَ لاٰ يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَ لاٰ يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَ لاٰ يَصِفُهُ لِسَانٌ، لاٰ يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ، وَ لاٰ نُجُومِ السَّمَاءِ»[1]. كما قَالَ الإِمَام عليه السلام.

---

(١) أنظر، نَهج البَلاَغَة: الخُطْبَة (١٧٨).

المقامة الحلبية

-٤٧-

اَلْكُوفَةُ:

(كَأَنِّي بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ، تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ، وَ تُرْكَبِينَ بِالزَّلَازِلِ، وَ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً اِلاَّ ٱبْتَلَاهُ اللهُ بِشَاغِلٍ، وَ رَمَاهُ بِقَاتِلٍ!).

اللُّغَة:

الْأَدِيم: الجِلْد المَدبوغ. والْعُكَاظِيّ: نِسبة إِلَىٰ سُوق عُكاظ. والعُرَك: الدَّلك، قَالَ: عَرك الجِلْد أي دَلَكه. والْمُرَاد بِالنَّوَازِلِ وَالزَّلَازِلِ هُنا الخُطوب، والكوَارث.

الْإِعْرَاب:

بِكِ، الأصلُ كَأَنِّي أبْصرك، ولمّا حُذف الفِعْل جِيء بالبَاء، وجُملة تُمَدِّينَ حَال مِن اَلْكُوفَة. والْعُكَاظِيّ صِفة الأَدِيمِ، والْمَصْدَر مِن أَنَّهُ وما بَعدها سَاد مَسد مَفْعُولي أَعْلَمُ.

الْمَعْنَىٰ:

(كَأَنِّي بِكِ يَاكُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ). وهُو الجُلْد المنسُوب إِلَىٰ سُوق عُكاظ، وكَانَ الْعَرَب فِي الجَاهِلِيَّة يَجْتمعُون فِيهَا عشرِين يَوماً من كلّ عَام يَبْتَاعون، ويُتَاجرُون، وكانُوا يَعرضون الجلُود فِي هَذِه السّوق بكَثْرة: لوفرَة الْإِبِلِ، والْغَنَم عِند الْعَرَب آنذَاك[1].

وَقد تَنبأ الْإِمَام عليه السلام للكُوفَة بأنّ الطُّغاة سَوف يَتسلطُون عَلَيْهَا من بَعده، ويَسُومون أهلها سُوء العذَاب، وعبّر الإِمَام عَن ذَلِكَ بمدِّ الجِلْد، وعَركه حِينَ الدَّبغ، وأكَده بقَوْله: (تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ، وَ تُرْكَبِينَ بِالزَّلاَزِلِ). وَقَد تَحققت نبُوءة الْإِمَام عَلَىٰ أَيْدِي الْأُمَويين، وشَياطِينهم. وَقَالَ فِي خُطْبَة ثَانِيَة: «وَايْمُ اللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّة ـ يا أَهْل الْكُوفَة ـ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي كَالنَّابِ الضَّرُوسِ»[2]، وَقَالَ فِي ثَالِثة: «تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الْأَدِيمِ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ»[3]. (وَ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً، إِلاَّ ٱبْتَلاَهُ اللهُ بِشَاغِلٍ، وَ رَمَاهُ بِقَاتِلٍ). وَيرجح فِي الظّن أنّ الْإِمَام عليه السلام مَا أَرَاد التّخصِيص بالْكُوفَة، دُونَ غَيْرها، وقَد أجمَع الْعُلَمَاء عَلَىٰ أنّ اللَّقب لا مَفهوم له، فكلّ ظَالم يَلقىٰ جزَاء عَمله لا مَحالَةَ سواء أوقَع ظُلمه عَلَىٰ الْكوفَة أم عَلَىٰ فِلسْطِين، وفِيتنام... والْأَخْبَار المنقُولة عَن أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام فِي أَهْل الْكُوفَة تَحتاج إِلَىٰ تَمحِيص: وكلّ خَبَر جَاء فِي فَضل بَلد من البِلاد هُو محَل نَظر، وَلاَ نَسْتَثني إِلّا العتبَات المُقدسة لأنّ الْمَكَان بالمَكين، وكَانَ أَكْثَر الرّواة، أو الكَثِير مِنْهُم يَضعون الْأَخْبَار فِي فَضل أوطَانهم، ودِيارهم.

(١) أُنظر، شَرح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لمُحمّد عَبْدَه: ٩٧/١، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة لِابْن أَبي ٱلْحَدِيد: ١٩٧/٣، تأريخ اليعقوبي: ٢٢٧/١، الْمَجْمُوع لمحيي الدِّين النّووي: ٧٦/٧.

(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (٩٣).

(٣) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٠٨).

الخطبة

- ٤٨ -

بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي:

(الْحَمْدُ للهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ، وَ غَسَقَ، وَ الْحَمْدُ للهِ كُلَّمَا لاحَ نَجْمٌ، وَ خَفَقَ، وَ الْحَمْدُ للهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الْإِنْعَامِ، وَ لاَ مُكَافَإِ الْإِفْضَالِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي، وَ أَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هَذَا الْمِلْطَاطِ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ، مُوَطِّنِينَ أَكْنَافَ دِجْلَةَ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ، وَ أَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ).

اللُّغَة:

وَقَبَ: دَخَلَ، أو جَاءَ، وَغَسَقَت الْعَيْن: دَمَعت، وَغَسَقَ اللَّيْل: اشتَدت ظُلمته. وخَفَقَ اللَّيْل: ذَهب أَكْثَره، وخَفَقَ النَّجم: غَاب. وَقَالَ ابن أَبي الْحَدِيد: الْمِلْطَاطِ: حَافة الوَادي، وشَفِيره ـ أي أَعلاه ـ وسَاحل البَحر. والمُرَاد بالنُّطْفَة هُنا النَّهر. والشِرْذِمَة: النَّفر القَلِيل. ومُوَطِّنِينَ: مُسْتَوطِنِين. وأَكْنَاف: جَمع كَنَف، وهُو الظّل، والجَانب، والنَّاحِية.

الإِعْرَاب:

غَيْرَ مَفْقُود حَال، ومُوَطِّنِينَ صِفَة شِرْذِمَة، وأَكْنَاف مَفْعُول مُوَطِّنِين، ودِجْلَة مَمْنُوعة مِن الصّرف للعلمية، والتّأنيث.

الْمَعْنَىٰ:

(**الْحَمْدُ للهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ، وَ غَسَقَ، وَ الْحَمْدُ للهِ كُلَّمَا لاَحَ نَجْمٌ، وَ خَفَقَ، وَ الْحَمْدُ للهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الإِنْعَامِ، وَ لاَ مُكَافَإِ الإِفْضَالِ**). قَالَ بَعْض الشّارحِين: إنَّ الإِمَامعليه السلام ذَكَرَ ٱللَّيْل هُنا مِن أجل التَّنبيه إِلَىٰ تعَاقب ٱللَّيْل، والنَّهار، وذَكر النَّجم كِي يُنْبه ٱلْعُقُول إِلَىٰ فَائدة الكَوَاكِب، أَمّا قَصده مِن ذِكر الإِنْعَامِ، الإِفْضَالِ فَهُوَ ـ عَلَىٰ دَعوىٰ الشّارح ـ التَّنبِيه إِلَىٰ وجُوب شُكر المُنعم... ولَيْسَ من شَكٍّ أنّ شُكر المُنعم وَاجب، وإِنَّ تفكُّر سَاعة فِي خَلق الله، وآثَاره أفضل مِن عِبَادَةِ سِنِين[1]، ولكنَّ الإِمَام ـ كَما يَظهر ـ لا يُرِيد بالْحَمْدِ هُنا وهُناك إلّا تَمجِيد الله، وتَعظِيمه، وإلّا التَّبرك بٱفتتَاح الكَلاَم بٱسمه تَعَالَىٰ، وشُكره تَمَاماً مِثل سُبْحَانَ الله، الْحَمْدُ للهِ، وَلاَ إِلَٰه إِلّا الله، واللهُ أكْبر. ومِن أَقْوَاله: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ»[2]. وَقَالَ: «ٱسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ»[3]. ولكنَّ كَثِيراً مِن الشّارحِين، والمُفسرِين إِذَا

(١) أُنظر، الفِرْدَوْس بمأثور الخِطَاب: ٢/ ٧٠ ح ٢٣٩٧ نحوه، المُصَنَّف لابن أبي شيبة: ٧/ ١٩٠ ح ٣٥٢٢٣، تَفْسِير القُرطُبي: ٤/ ٤١٣، الكَافِي: ٢/ ٥٤ ح ٢، تَفْسِير ٱبن كثير: ١/ ٤٤٧.

(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلخُطْبَة (١٥٧).

(٣) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: من وَصِيّة لهعليه السلام للحسن بن عليّعليهما السلام كتبها إِلَيْه بحاضرين ـ ٱسم بلدة من نواحي صِفِّين ـ عند ٱنصرافه من صِفِّين رَقم (٣١).

مرَّ بِهِمْ كَلاَم وَاضح يُفسر، ويَشرح نَفْسه بنَفْسِهِ أوجدُوا مِن عِنديَاتهم مَوْضُوعاً للكلاَم، والشَّرح، والتَّفْسِير لا لشيء إلَّا لأنَّهم شَارحُون، ومُفسرُون.

(أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي، وَ أَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هَذَا الْمِلْطَاطِ، حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي، وَقَدْ). قِيل أنّه تَكَلَّم بِهَذَا عِند خرُوجه مِن الْكُوفَة إِلَىٰ صِفِّين، ومحصِّله أنّ الْإِمَامَ عليه السلام كَانَ قد أرْسَل مُقَدِّمَة من جَيْشَه، وَ أَمَرهُمْ أنْ يعسكروا عَلَىٰ شَاطِيء الفُرات، وَيَبقوا مُلازمِين لهُ إِلَىٰ أنْ يَأْتِيهم إشعَار مِنْهُ، ثُمَّ ذَهب قَاطِعاً النّهر إِلَىٰ المَدَائِن يَسْتَنهِض أهلها؛ لِيَنضمُوا إِلَىٰ جَيْشَه، ويكُونوا عَوناً له، ومَدَداً. فقَوْله: (رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ). أي هَذَا النّهر. وقَوْله: (إِلَىٰ شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ، مُوَطِّنِينَ أَكْنَافَ دِجْلَةَ). أي إِلَىٰ أَهْل المَدَائِن، وقَوْله: (فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَىٰ عَدُوِّكُمْ). أي أسْتَنْهَضهم كِي يُقَاتلُوا مَعَكُمْ.

الخطبة

ـ ٤٩ ـ

تَشْهَدُ لله أَعْلاَمُ الْوُجُودِ:

(الْحَمْدُ للهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الأُمُورِ، وَ دَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلاَمُ الظُّهُورِ، وَ امْتَنَعَ عَلَىٰ عَيْنِ الْبَصِيرِ، فَلاَ عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَ لاَ قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ: سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلاَ شَيْءَ أَعْلَىٰ مِنْهُ، وَ قَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلاَ شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ. فَلاَ اسْتِعْلاَؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَ لاَ قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ. لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَىٰ تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَ لَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلاَمُ الْوُجُودِ، عَلَىٰ إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ، وَالْجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوّاً كَبِيراً!).

اللُّغَة:

بَطَنَ خَفِيَّاتِ الأُمُورِ: عَلِمَ أسرارها، يُقَال: فُلاَن بَاطنَ فُلاناً أي سَارّه. وأَعْلاَمُ الظُّهُورِ: الأدِلَّة الظَّاهِرة بِنَفسها المُظهرة لغَيرها.

الْإِعْرَاب:

الَّذِي بَطَنَ، صِفَة الله. يُطْلِع مِنْ أَطْلع بسكُون الطَّاء لا بِتَشدِيدها، وَلاَ مِن طَالع، ولِهَذَا تَعدىٰ الفِعْل إِلَىٰ المَفْعُول، وهُو ٱلْعُقُول.

لِلمِنْبَرِ - فِي عَظَمَتِهِ تَعَالَىٰ:

مَن أَرَاد أَنْ يَعْرِف عَظَمَة الله وجَلاَله، وعلُوه، وكَماله فَليقرَأ كَلمَات أَهْل ٱلْبَيْت عليهم السلام، وأحَادِيثهم فِي هَذَا المَوْضُوع، فَهُم الأبوَاب، والخَزَنة لِعلم ٱلْكِتَاب والسُّنَّة، فلا إِغْلاَق فِي تَعبِيرهم، وَلاَ إِفرَاط فِي تَفكِيرهم... أَبَداً لا شيء فِي أَقْوَالهم إِلّا ما يَحسه ٱلْقَلْب، ويَسْتَسِيغه ٱلْعَقْل بِمُجرد سمَاعه، أو قرَاءته حَتَّىٰ كأَنَّهَا تُترَجم عَن إِحسَاس ٱلإنْسَان، ومدَاركه... والمَقطع الَّذي نَحْنُ بِصَدده هُو فِي تَنزِيه البَاري، وتَمجِيده، ويَتضمن الْحَقَائِق التّالِية:

١ - (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ). فَهُوَ سُبْحَانَهُ يعلم الْأَشْيَاء من بَاطنها، وأعمَاقها، ومن جَمِيع جِهاتها تَمَامًا كمَا هِي فِي وَاقعها، وحَقِيقَتها مُنذ وِجدت، وفِي شَتَّىٰ شُؤُونها، وأطوَارها... وعِلمه، جلّ ذِكره. بالأشيَاء بَعد وجُودها هُو بالذَّات عِلمه قَبل أنْ تُوجد، لا تَبدِيل فِيه، وَلاَ تَعدِيل.

٢ - (وَ دَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلاَمُ الظُّهُورِ) أي آثَاره سُبْحَانَهُ فِي أقطَار ٱلْأَرْض، وٱلسَّمَاوَات... ووَجه الدَّلاَلَة فِيهَا أَنَّهَا تَخضع فِي طبَاعها لنظَام لا تَعدوه، وقَانُون لا تتجَاوزه. فٱلشَّمْس - مَثلاً - تَبعُد عَن ٱلأَرْض بِنسبَة مُعَينة، وكَذَلِكَ الكَوَاكِب بَعْضهَا عَن بَعْض، ومِثلها الضّوء، والحرَارة، والضَّغط، والجَاذِبية... لكلّ مِنْهَا ومِن غَيْرها مقدَار مُعين، وَصَدق الله، جلّت حِكْمَته: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ

بِمِقْدَارٍ﴾[١].

وَقَالَ بَعْض عُلَمَاء الطَّبِيعَة: إِنَّ هَذَا النّظام المَبثُوث فِي كلّ شيء يَسْتَحِيل أَنْ يَكُون مِن عَمل الطَّبِيعَة العَمْيَاء، وآثَارها، أو مِن الصّدفة، أو أنّ النّظام نَفْسه قد ٱستَقل بإيجاد نَفْسه، وإذَنْ لا بُدّ لوجُوده من سَبب غَيْر طَبِيعي، وأيضاً لا بُدّ أنْ يَكُون هَذَا السّبب حَكِيماً عَلِيماً، وقَادراً كي يَسْتَطِيع أنْ يُوجد الكَوْن بِحكمَته، ونظَامه.

٣ ـ (وَ ٱمْتَنَعَ عَلَىٰ عَيْنِ الْبَصِيرِ). ولو رَأته لكَان جِسماً، والجِسم يَفْتَقِر إلَىٰ حَيز بحُكم العَيَان، والله فِي غِنىٰ عَن كلّ شيء، وإلَيْهِ يَفْتَقِر كلّ شيء (فَلاَ عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ). لِأَنَّهَا قَد رَأت خَلقه، وآثَاره، فآمنت بِهِ تَمَامَاً كمَا تُؤمن بوجُود الرّسام إذَا رَأت رَسمه، وبوجُود البَاني إذَا رَأت بنَاءه، وسُئل الإمَام الرّضاعليه السلام عَن رُؤيَة الله بالْبَصَر؟ فَقَالَ ما يَتلخص بأنّ الرّؤية لَو كَانَتْ مُمكِنة لانْحَصر طرِيق الإِيمَان بالله بالرُّؤية الْبَصرية، والمَفروض أنّ مَا مِن أحدٍ قَد رآه سُبْحَانَهُ، فَلا يَكُون فِي الدُّنْيَا مُؤْمِن عَلَىٰ الإِطلاَق[٢]... هَذَا إلَىٰ أنْ الإِيمَان الَّذي يَستند إلَىٰ الْعَيْن يَمُوْت بمُوتها، أَمَّا الْإِيمَان الَّذي يَستند إِلَىٰ ٱلْعقْل، وٱلْقَلْب فإِنَّه باقٍ ببقَاء ٱلْعَقْل، وخَالدِ بخلُود الرُّوح (وَ لاَ قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ) بالذَّات، ويُدركه بالكُنْه، والحَقِيقَة، وإنّما يعرفه سُبْحَانَهُ بِخَلقِهِ، وآثَاره.

٤ ـ (سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلاَ شَيْءَ أَعْلَىٰ مِنْهُ). والسّر لِهَذَا العلُو هُو الكَمَال المُطلق من جَمِيع الجِهات، فَهُوَ أزْلي كَانَ، ولَم يَكُنْ مَعه شيء، وأبَدي يَبْقَىٰ، ويَفنىٰ كلّ شيء،

(١) ٱلرَّعْد: ٨.

(٢) أُنظر، الكَافِي: ١/ ٩٥، شَرْح أُصول الكَافِي: ٣/ ١٨٢، المجازات النَّبَوِيَّة: ٤٩.

وقَادر لا يَعجزه شيء؛ وعَالم يُحِيط بكلّ شيء، وَغَني عَن كلّ شيء (وَ قُرْبَ فِي الدُّنُوِّ فَلاَ شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ). وأي شَيء أَقْرَب مِن الْخَالِق إِلَىٰ الْمَخْلُوق، ومِن العِلْم إِلَىٰ المَعلوم، العالِم بخفِيات الأُمُور ومَا تَنطوي عَلَيْهِ الصّدور؟.

(فَلاَ ٱسْتِعْلاَؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ). بل دُنوه سُبْحَانَهُ من خَلقه، وكُونهم فِي قُدرته، وقَبضته، وفِي عِلمه، وعنَايته هُو الَّذي أبعَده عَنهم فِي ذَاته، وصِفاته (وَ لاَ قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ). هُو سُبْحَانَهُ قريب من عِبَادِه لأنّه يَراهم، ويَسمعهم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1]. وهُو تَعَالَىٰ بَعِيد عَنهم لأنّهم لا يَرونه، وَلاَ يَسمعُونه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]. ومن أَقْوَال الإِمَام: «قَرُبَ فَنَأَىٰ، وَعَلاَ فَدَنَا»[3].

(لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَىٰ تَحْدِيدِ صِفَتِهِ). لأنّ صِفته لاَ حدّ لها، وَلاَ بداية، ونهاية وهَل للمُطلق من حدُود وقُيود؟ سَمع الإِمَام الصّادق ﷺ رَجُلاً يَقول: «الله أكبر. فَقَالَ له: أكْبر من أي شيء؟ قَالَ الرَّجُل: من كُلّ شيء. فَقَالَ الإِمَام: كَانَ الله ولَم يَكُنْ مَعه شيء. قَالَ الرَّجُل: فَمَاذَا أَقُول؟ قَالَ الإِمَام: قُل، الله أكْبر من أنْ يُوصف»[4].

---

(١) ٱلْبَقَرَة: ١٨٦.

(٢) ٱلشُّورَىٰ: ١٢.

(٣) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَة (١٩٥).

(٤) أنظر، توحيد الصّدوق: ٦٧ ح ٢٠، شَرح أُصول الكَافي: ١٢٣/٣ و: ١٨/٤، الْفُصُول الْمُهِمَّة فِي أُصول الأَئِمَّة: ١٥٤/١ ح ٢٨، ونحوه فِي صَحِيح البُخَارِيّ: ٧٣/٤و: ١٧٥/٨، السّنن الْكُبْرَىٰ: ٣/٩، فتح الباري: ٢٠٦/٦.

(وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ). حَيْث أوجَد سُبْحَانَهُ الآيَات، والبِينَات عَلَىٰ وُجُودِه، وعَظَمَته، وَهِي (فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلاَمُ الْوُجُودِ عَلَىٰ إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ). والْمُرَاد بأعلاَم الْوُجُود ما أشَار إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بقَوْله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[1]، أي إلّا لِحِكْمَة وغَايَة، لا لهَواً، وَلاَ عَبثاً. أَمَّا قول الْإِمَامﷺ: «إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ» فإِنَّه يُومىء إِلَىٰ أنّ الدَّلِيل الَّذي يَحتج بِهِ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ الْجَاحدِين بوجُوده، ووجُوب الْإِيمَان بِهِ هُو نَفس الدَّلِيل الَّذي يَستدلُون به عَلَىٰ وجُود الأَشْيَاء، والتّصدِيق بها فِي حيَاتهم اليَومِية، وأعْني الْجَاحدِين ـ أنّهم إِذَا رَأوا بأعْينِهُم كتَاباً، مَثلاً، تَجزم، وتَحكم عُقُولِهِمْ بوجُود الْمُؤلف، فيُؤْمِنُون، ويُصَدْقُون، وَإِذَا سَمِعوا بآذَانهم كلاَماً من وَرَاء حجَاب آمنوا بوجُود الْمُتكَلِّم؟. والله سُبْحَانَهُ يَقول للجَاحدِين: لقد رَأيتم بِأعينكُم الكَوْن، وما فِيهِ من نظَام، وأَحْكَام، كمَا رَأيتم ٱلْكِتَاب، وسَمِعتم الْمُتَكَلِّم، وعقُولكم فِي وَاقعها، وطَبِعَتَها تَحكم بوجُود المكوِّن بَعد أنْ رَأت الْعُيُون الكَوْن، بل الدَّلِيل هُنا أوْضَح، وأقوىٰ. وإذَنْ ما هُو المُسوغ للجحُود، والإنْكَار؟ وكَيْف أعتَمدتم عَلَىٰ مَنطق ٱلْحِسّ، وٱلْعَقْل فِي إثبَات ما أثبتُّموه، ولَم تَعتمدُوا عَلَىٰ هَذَا المَنطق نَفْسه فِي إثبَات الْخَالِق، والتّصدِيق به؟. وما هُو الْمُبرر لِهَذَا التّنَاقض، وفَصل الشّيء عَن نَفْسِه؟ فإنْ كَانَ مَنطق ٱلْحِسّ، وٱلْعَقْل حُجّة فِي إثبَات الشّيء، والتّصدِيق به فَهُوَ حُجّة فِي كلّ مَورد حَتَّىٰ فِي دَلاَلَة الكَوْن عَلَىٰ المكوِّن، بل هُو هُنا أدَلّ، وأقوىٰ. وإنْ لم يَكُنْ هَذَا المَنطق حجّة فِي إثبَاته تَعَالَىٰ عَلَىٰ الرّغم من رُؤْيَة

---

(١) ٱلرُّوم: ٨.

الكَوْن، ونظَامه ـ فلا يَكُون حُجّة أيضاً فِي أي شيء مِن الأَشْيَاء، والقَوْل بالفَصل، والتَّجْزِئَة جهالة، وَضَلالة... وَهَذَا الرّد، والإلزَام يُقر بِه قَلب الجَاحد، ويَطمئن إلَيْهِ، وإنْ أنْكَره بلسَانه. تَعَالىَ اللهُ عَمَّا يَقُولُهُ الجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوّاً كَبِيراً.

الخطبة

- ٥٠ -

الْحَقّ، والْبَاطِل:

(إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ، وَ أَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللهِ، وَيَتَوَلَّىٰ عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالاً، عَلَىٰ غَيْرِ دِينِ اللهِ. فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَىٰ الْمُرْتَادِينَ، وَ لَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ، انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ، وَ لَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ، وَ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ، فَيُمْزَجَانِ! فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَىٰ أَوْلِيَائِهِ، وَ يَنْجُو ﴿الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾[1]).

اللُّغَة:

الْفِتَن: جَمع فِتْنَة بِكَسر الفَاء، ولهَا العدِيد مِن الْمَعَانِي، مِنْهَا الإبتلاء، والضَّلال، والجنُون، والفَضِيحة، والمَرض، والْمَال، والأَوْلاَد، والْقِتَال بالسّلاَح، والإِخْتِلاَف فِي الآرَاء، وَهَذَا هُو المقصُود هُنا بدَلِيل قَوْلهﷺ: «وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا

(١) الأنبياء: ١٠١.

كِتَابُ اللهِ». والْمُرْتَادونَ: الطَّالِبُون. والضِّغْث: القَبضَة مِن الحَشِيش يَختلط فِيهَا الرَّطْب، واليَابِس.

الْإِعْرَاب:

عَلَىٰ غَيْرِ دِينِ مُتعل بمَحْذُوف صِفَة لرِجَال، والْمَصْدَر مِن أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ.. إلخ. فَاعِل لِفعل مَحْذُوف، أي: لو ثَبت خلُوص ٱلْحَقّ. وهُنالك إشَارة إِلَىٰ الْمَكَان البَعِيد، وٱستَعِيرت هنا للإِشَارة إِلَىٰ الحَال المُستفَاد من قَوْله: يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا، وَمِنْ هَذَا.

الْمَعْنَىٰ:

(إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ، وَ أَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللهِ). قَدمنَا فِي فِقْرَة «اللُّغَة» أنّ الْمُرَاد بالْفِتَنِ هنا ٱختلاَف الْآرَاء بقرِينة السّياق... وكَلِمَة بَدْءُ بَعد «إِنَّمَا» أدَاة الحَصر، تَدل عَلَىٰ أنّ مَوْضُوع كَلاَمه ﷺ يَخْتَص بأوّل ٱختلاَف بَعد رَسُول الله ﷺ وَقَع بَيْنَ الْصَّحَابَة فِي الشُّؤُون الدِّينية، والمَسَائِل الشَّرْعِيَّة، وإنّه لا سَبب لِهَذَا الإِخْتِلاَف إلّا الأهوَاء، والْأَغْرَاض، لأنّ كتَاب الله يَنطق بٱلْحَقِّ، وقَد كَانَ وما زَال بَيْنَ أَيْدِي ٱلْمُسْلِمِين، وإِنَّ أَهْل بَيْت النَّبِيّ ﷺ كَانوا آنذاك بَيْنَ أظهر الْصَّحَابَة، وقَد أمر النَّبِيّ ﷺ بالتَّمسك بِهِمْ، والرُّجُوع إِلَيْهِمْ فِي ٱلْمُعْضِلاَت، وسَاوىٰ بَيْنَهُمْ، وبَيْنَ ٱلْقُرْآن فِي حدِيث الثَّقَلَيْن الَّذي روَاه مُسْلِم، وغَيْرِه[1]، ولكنَّ الأهوَاء

---

(١) أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٤/فَضَائِل عليّ ح ٣٦ و ٣٧، وسُنَن التِّرمِذي: ٥/باب ٣٢، وسُنَن الدَّارِمِي: ٢/فَضَائِل ٱلْقُرْآن، وخصائص النّسائي: ٥٠، وقد تَقَدَّم إستخراجه.

وحدَها هِي الَّتي صَرفت أهلها عَن طَاعَة النَّبِيّ فِي أَهله.

وقَد كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُو الْمَصْدَر الأَوَّل لمَعرفة ٱلحَقّ، فَلا رَأي وَلاَ إجْتهَاد فِي عَهْدِه، وَلاَ فِرق، وَلاَ مذَاهب، ثُمّ ٱختَلف الْصَّحَابَة مِن بَعده فِي العدِيد من المسَائل، لو جُمعت لأستوعَب عشرَات الصّفحات، وكَانَ ٱختلاَفهم هَذَا سَبباً لما بَحثه السُّنَّة فِي كُتب أُصول الفِقْه من أنّ قَول الْصَّحَابِي هَل هُو حجّة تَمَامَاً ككتَاب الله، وسُنّة نَبِيّه ؟. وَإِذَا ٱختَلف الْصَّحَابَة فبأي الأَقوَال يَجب ٱلْعمَل ؟ قَالَ الغزَّالي: «ذَهب قَوْم إِلَىٰ أنّ قَول أَبِي بَكْر، وعُمَرَ مُقدّم، وحُجّة لاَزمَة، وَقَالَ آخرُون: بل قَول الخُلَفَاء الأَرْبعَة»[1]، ثُمَّ ردّ الغزَّالي عَلَيْهِمْ بأنّ الْصَّحَابَة قَد ٱتفقُوا عَلَىٰ مُخالفة الْصَّحَابَة، وصَرحوا بجوَاز الإِجْتهَاد، وَقَالَ: «لقَد أختَلف أبو بَكْر، وعُمَرَ فِي التَّسوية فِي الْعطَاء فأيّهما نَتَّبع ؟»[2].

وَهَذَا الإِخْتِلاَف لا أثَر له عِند الإِمَامِيَّة، لأنّهم فِي غِنىً عَنْه بحدِيث الثَّقَلَيْن الَّذي جَعل أَهْل ٱلْبيْت عِدلاً لِلْقُرْآن.

ومِن المسَائل الَّتي ٱختَلف فِيهَا الْصَّحَابَة مَسألَة الْمُتْعَة[3]، ونَقل الغزَّاليّ: «أنّ أبَا

---

(١) أنظر، الْمُسْتَصفَىٰ لِلغَزَّالِي: ١٦٨ (مِنْهُ ﷺ)، والأُصُول العَامّة للفقه المقارن للسّيد مُحَمّد تَقِي الحكيم: ١٣٩.

(٢) أُنظر، الْمُسْتَصفَىٰ لِلغَزَّالِي: ١٦٩، الْفُصُول فِي الأُصُول للجصاص: ٣٠٩/٣ و: ٥٤/٤، المحصول للرازي: ١٣١/٦، روضة النَّاظر: ١٤٨، إرشاد الفحول: ٢٠٣.

(٣) قَالَ الشّيخ رَحِمَهُ الله، فِي كتابه الفِقْه عَلَىٰ ٱلْمَذَاهِب الخَمْسَة، والَّذي حققناه، وَطَبعَته مؤسسة دار ٱلْكِتَاب الإِسْلاَمي: ١١٠/٢ ما خلاصته: (هُنا حَقِيقَة يجهلها الكَثِيرُون، وإِنّي أشكر من سألني ٱلْكِتَابة فِي هَذَا المَوْضُوع، حَيْث أتاح لِي الْفُرْصَة لبيَان هَذِه الحَقِيقَة الشَّرْعِيّة، والتَّارِيخِية، وسأتوخىٰ الأخْتصَار ما ٱستطعت، عَلَىٰ أنْ أكون رَاوِياً، ونَاقلاً، لا مُقرظاً، وَلاَ نَاقِداً، بل أدعُ الحكم للقارئ وَحده، وَلاَ أقطع عَلَيْهِ ⟷

↔ الطَّرِيق بِالتَّخْطِئَة، أو التّصويب.

قَالَ أَهْل السُّنَّة: عَلَىٰ أَنّ نكاح الْمُتْعَة كَانَ حَلاَلاً بحكم الرَّسُول، وأنّ ٱلْمُسْلِمِين تمتعوا فِي عَهْدِه، ولَكِنَّهُمْ آختلفوا فِي ثبوت النّسخ، فقَالَ السُّنَّة: إنَّ الْمُتْعَة نُسخت، وحُرمت بعد أنْ كَانَتْ حَلاَلاً. كما جاء فِي ٱلْمُغْنِي: ٦/٦٤٤، الطَّبعة الثّالثة، صَحِيح مُسْلِم: ٢/١٠٢٧، كتاب الأُم: ٥/٧٩، أحْكَام ٱلْقُرْآن للجصاص: ٢/١٥٠، السّنن الْكُبْرَىٰ: ٧/٢٠١، الْمَجْمُوع: ١٦/٤٢٩، المَبْسُوط للسَّرْخَسِي: ٥/١٥٢. وأُنظر، من لا يحضره الْفَقِيه: ٣/٢٩٧، الكَافِي: ٥/٤٦٥، الوَسَائِل: ١٤/٤٤٢، الإِسْتِبْصَار: ٣/١٥٠، التّذكرة: ٢/٦٤٦.

قَالَ الشّيعة: لم يثبت النّسخ، كَانَتْ حَلاَلاً، ولم تزل كَذَلِكَ إلىٰ يَوْم الْقِيَامَة. ومِمَّا آستدل به الشّيعة الآيَة: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ٱلنِّسَاء: ٢٤.

وما رواه مُسْلِم فِي صحيحه «آستمتع الأصحاب فِي عهد رَسُول الله، وأبي بَكْر، وعُمَرَ». أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٢/١٠٢٣، الإِصَابَة: ٢/٦٣، الموطأ: ٢/٥٤٢، سُنن النّسائي: ٦/٦٧، كنز الْعُمَّال: ١٦/٥٢٠.

وزواج الْمُتْعَة زواج إلىٰ أجلٍ معين، وهُو عند الشّيعة كالزواج الدّائم لا يتم إلاّ بعقد صَحِيح دال عَلَىٰ قصد الزّواج صراحة، وكلّ مقاربة تحصل بَيْنَ رجل، وإمْرَأة من دُونَ عقد، فلا تكون مُتعة حَتَّىٰ مَع التّراضي، والرّغبة، ومتىٰ تمّ العقد كَانَ لازماً يجب الوفاء به.

وَلاَ بد فِي عقد الْمُتْعَة من ذكر المهر، وهُو كمهر الزَّوْجَة الدّائمة، لايتقدر بقلة، أو كثرة، ويسقط نصفه بهبة الأَجَل، أو آنقضائه قبل الدّخول، كما يسقط نصف مهر الزَّوْجَة الدّائمة بِالطَّلاَقِ قبل الدّخول.

وَعَلَىٰ المتمتّع بها أنْ تعتد بعد آنقضاء الأَجَل كالمطلقة، سوىٰ أنّ المطلّقة تعتد بثلاثة أشهر، أو ثلاث حيضات، وَهِي تعتد بحيضتين، أو خمسة وأَرْبَعِين يوماً. أَمَّا عدة الوفاة فأَرْبَعَة أشهر، وعشرة أَيَّام كالزَّوْجَة الدّائمة، سواء حصل الدّخول، أو لم يحصل.

ووَلَد الْمُتْعَة وَلَد شرعي، له جَمِيع ما للأَوْلاَد الشّرعيين من غَيْر آستثناء لحقٍّ من الحقوق الشَّرْعِيَّة، والأخلاقية.

وَلاَ بد فِي الْمُتْعَة من أجل معين، يذكر فِي متن العقد، وَلاَ ترث الزَّوْجَة المتمتع بها من تركة الزّوج، وَلاَ تجب لها النّفقة عَلَىٰ الزّوج، والزَّوْجَة الدّائمة لها الميراث والنّفقة، ولكن للمتمتّع بها أنْ تشترط عَلَىٰ الزّوج ↔

مُوسَىٰ الْأشْعَرِيّ كَانَ يَقول: النَّوْم لاَ يَنْقُض الوضُوء!»[١] وكَانَ هَذَا الأشْعَرِيّ مِن أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ. وبالمُنَاسَبة أشيرُ إلَىٰ شَيخاً أفغَانِياً سَألني فِي بَلدة قُم عَن قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[٢].

وَقَالَ الشّيخ: إنّ ظَاهر الآيَة يَدل عَلَىٰ وجُوب الخُمُس فِي كل غَنِيمَة أيّاً كَانَ سَببها، ولكنْ مَا نُقل نَاقل أنّ الخُلَفَاء بَعد رَسُول الله ﷺ أَخَذُوا بعمُوم هَذَا الظَّاهِر، وشمُوله لجَمِيع الغنَائم، والمكَاسب سوَاء أكَانَ سَببها الحَرْب، أم ٱلعَمَل، والتِّجَارَة كما يَقول الإمَامِيَّة؟.

قُلْتُ لهُ: آنذاك: الْعِبْرَة بقُوَّة الدَّلِيل حَتَّىٰ يَثبت العَكس، وَلاَ شَيء فِي ٱلْكِتَاب، والسُّنَّة يُعارض ظَاهر الآيَة، أو يُخصصه، وإذَنْ يجب الأخذ بِه، والإعتماد عَلَيْهِ، وإنْ أعْرَض عَنْه مَن أعْرَض... وبَعد أشهُر من جوَابي هَذَا قَرأت: أنّ أَمِير ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام قَالَ لجَمَاعَة من أَهْل بَيْته، وخَاصَّة شِيعته: «إنَّ الْوُلاَة السّابقِين قَد عَملوا أعمالاً خَالفوا فِيهَا رَسُول الله ﷺ، ثُمّ ذكر الإمَام مِن هَذِه الأَعْمَال تَقسِيم الْعَطَاء، وبالتَّفاضل، والتَّفَاوت، ومُتعة ٱلحَجّ، وٱلنِّسَاء، والمَسح عَلَىٰ الخُفين،

ﻫ ضمن العقد النّفقة، والميراث، وإذَا تَمّ هَذَا الشّرط كَانَتْ الزَّوْجَة من المُتعَة كالزَّوْجَة الدّائمة. أنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٢/١٠٢٣، الإصَابَة: ٢/٦٣، الموطأ: ٢/٥٤٢، سُنن النّسائي: ٦/٦٧، كنز العُمَّال: ١٦/٥٢٠.

هَذَا، ولكن شيعة لبنان، وسوريا، والعِرَاق، لا يستعملون المُتعَة، عَلَىٰ الرّغم من إيمانهم بجوازها، وإبَاحتها، وهَذِه المحاكم الشّرْعِيَّة الجعفرية فِي لبنان لم تجر، ولم تأذن بزواج المُتعَة منذ إنشائها إلَىٰ اليَوْم.

(١) أنظر، المُسْتصفَىٰ: ١٤٧ (مِنْهُ رحمه الله)، الأَحْكَام للآمدي: ١/٢٣٦.

(٢) ٱلأنفَال: ٤١.

وٱلطَّلَاق عَلَىٰ غَيْرِ السُّنَّة وبلا شُرُوط، وصَلاة النّوافل جَمَاعَة فِي بَعْض الحَـالاَت المَمنُوعة، ثُمّ قَالَ الإِمَام: «نَحْنُ والله ذُو القُربىٰ الّذِين عنَاهُم الله فِي الآيَة، لقَد قَرننا سُبْحَانَهُ بنَفْسِهِ وبِرَسُوله ﷺ فَقَالَ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1] رَحْمَة مِنْهُ لنا، وغِنىً أغنَانا الله بِهِ، ووَصىٰ به نَبِيّه، ولَم يَجعل لنا فِي سَهم الصَّدَقَة نَصِيباً، أكْرَم الله رَسُوله، وأكرَمنا أَهْل ٱلْبَيْت أنْ يَطعمنا مِن أوسَاخ النَّاس فكذبُوا الله ورَسُوله»[2].

قَرأت هَذَا فأدرَكت أنّ الدَّافع الأَوّل عَلَىٰ تجَاهل آية ٱلأَنفَالِ، والإعرَاض عَنْهَا هُو أنّ هَذِه الآيَة كَرمت، وفَضلت أَهْل ٱلْبَيْت عَلَىٰ الْصَّحَابَة، وغَيْر الْـصَّحَابَة... وأدرَك حَسَدة الفَضِيلة، وأهلها أنّهم لو عَملوا بِهَذِه الآيَة لعَمل ٱلْمُسْلِمُون بِها جَمِيعَاً إلَىٰ آخر يَوْم، ومَعْنَىٰ هَذَا أنْ تَطغىٰ عَظمة أَهْل ٱلْبَيْت، ومكَانتهم عَـلَىٰ شَـخصِية الخُلَفَاء، وغَيْر الخُلَفَاء، فأهملُوها ليُهملهَا النَّاس من بَعدهم، ويَبْقَ لَهُمْ شيء مـن الذِّكر، والإحدُوثة.

وأَتمَنىٰ لو تُتاح الْفُرْصَة لِي، أو لأي كَاتب من ذَوِي الكفَاءة أنْ يَبحث، ويُنقب فِي آثَار أَهْل ٱلْبَيْت، وأَقْوَالهم عَن الأَسْبَاب المُباشرة لإِهمَال ما أُهمل مـن نـصُوص ٱلْكِتَاب، والسُّنَّة، ثُمّ يَجْمَعها فِي كتَاب مُستقل، وكُنت قَد كَتبت فِي بَعْض ما أَلفت أنّ أَهْل ٱلْبَيْت فِي علُومهم تَمَامَاً كالكَوْن فِي كنُوزه، وأسرَاره كلّما ٱكتَشف الْعُلَمَاء مِنْهَا

(١) ٱلأَنفَالِ: ٤١.

(٢) أنظر، روضة الكَافِي للشيخ الكليني: ٦٣/٨ ح ٢١ (مِنْهُ ﷺ) و: ٥٣٨/١ ح ١، وكتاب سليم ٱبن قَيْس: ٧٢٣ ح ١٨، التَّهْذِيب: ١٢٦/٤ ح ٣، بِحَار الأَنوَار: ١٧٥/٣٤ ح ٩٧٨ و: ٢٠٣/٩٦ ح ٢١، المعتبر للحلي: ٦٣٠/٢، شَرْح أُصول الكَافِي: ٢٩٤/١١، الوَسَائِل: ٥١٢/٩ ح ٧.

سِرّاً طوِيت عَنْهم أسرَار، وأسرَار.

(وَ يَتَوَلَّىٰ عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالاً عَلَىٰ غَيْرِ دِينِ اللهِ). ضَمِير عَلَيْهَا يعود إِلَىٰ الأَحْكَام المُبتَدعة، والْمَعْنَىٰ أنّ أَهْل الأهوَاء يَستَعِينُون برجَال عَلَىٰ شَاكِلتهم لترويج ما يَبْتَدعون فِي دِين ٱلإِسْلاَم، ويُخالفُون من الأَحْكَام (فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَىٰ ٱلْمُرْتَادِينَ، وَ لَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ ٱنْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ ٱلْمُعَانِدِينَ). قد يَكُون ٱلْحَقّ وَاضحاً من جَمِيع جِهاته كقُولنا: النَّاس سوَاسِية أمَام القَانون، ولكلّ فَرد ٱلْحَقّ فِي صِيانة حُرِّيته، وكرَامته من غَيْر تَمْييز... وقَد يَكُون ٱلْبَاطِل كَذَلِكَ مِثل: لكلّ قوّي أنْ يَسْتَعلي عَلَىٰ الضَّعِيف، ويُسخره فِيما يَشاء مِن مصَالحه بِلا سؤالٍ، وحَرَج، وقَد يَكُون فِي ٱلْحَقّ جِهة سَلبِية تُقربه فِي الظَّاهِر مِن ٱلْبَاطِل، فَيلتبس عَلَىٰ كَثِير مِن ٱلْجَهْلة كالذِين أَنْكَرُوا الْمَعَاد، وقَالُوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[1]. وقَد يَكُون فِي ٱلْبَاطِل جِهة إيجَابِية ـ ظَاهراً ـ تَغر النّاظِرين كأعمَال السّحر، والشّعوذة الَّتي عَملها سَحرة فِرْعَوْنَ: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[2].

وفِي مِثل هَذِه الحَال الَّتي يَلتبس بها ٱلْبَاطِل بٱلْحَقّ يَغْتَنم الْفُرصَة الَّذِين فِي قَلبهم مَرض، فَيبثُون الدّعَايات الكَاذِبة للبَاطل عَلَىٰ أَنّه ٱلْحَقّ الَّذي لا رَيب فِيه... وقَد يَنخدع بها الأبرِياء السُّذج فَيتبعُون ٱلْبَاطِل من غَيْر قَصد. والعَالِم يَتثبت، وَلاَ يُسرع إِلَىٰ الأخذ بالظوَاهر إلّا مَع الفَحص، والتّدقِيق، والنّظر إِلَىٰ البَاطِن، قَالَ الإِمَام: «إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ هُمُ ٱلَّذِينَ نَظَرُوا إِلَىٰ بَاطِنِ الدُّنْيَا إِذَا نَظَرَ النَّاسُ إِلَىٰ

(١) ٱلْوَاقِعَة: ٤٧.

(٢) ٱلْأَعْرَاف: ١١٦.

ظَاهِرِهَا»[1].

والخُلاَصة: لو ٱتضَح ٱلْبَاطِل مِن كلّ وِجه لمَا ٱنخَدع به إِنْسَان، وأيضاً لو ٱتضَح ٱلْحَقّ كَذَلِكَ لأحْجَم المُبطلون عَن الألاَعِيب، والأكَاذِيب خَجلاً، أو وَجِلاً (وَ لَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ، وَ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ). أي أنّ الَّذي طلب ٱلْحَقّ فأخطَأه نَظر إِلَيْهِ من جِهة وَاحِدَة، وَهِي الَّتي ٱلتَّبس بِها مَع ٱلْبَاطِل ظَاهراً، ولَو نَظر إِلَىٰ ٱلْحَقّ مِن شَتَّىٰ جِهاته، وتَثبت، وحَقق لأدرَكه. أَمَّا مَن طَلَب ٱلْبَاطِل فأدرَكه فإِنَّه يَتسَتر بالجِهة الَّتي ٱلتَّبس بها مَع الْحَقّ، ولَوْلاَها لأفْتَضح، ولُعن بكلّ لِسَان، وما وَجد مَن يَعتذر عَنْه بأنّه إجْتَهد فأخطأ (فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَىٰ أَوْلِيَائِهِ). وهُم المُدلسُون الّذين سَحروا أعيُن النَّاس بالتَّموِيه، والتّضلِيل (وَ يَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَىٰ). وهُم الَّذين عَرفوا ٱلْحَقّ، وصرَاطه الْقَوِيم، وَلاَ يَخدعهُم عَنْه مُنَافق، ومُضَلل.

---

(١) أنظر، نَهج ٱلْبَلاَغَة: ٤/١٠١، ٱلحِكْمَة (٤٣٢).

الخطبة

- ٥١ -

ٱلْحَيَاة مَع الذُّلِّ مَوْت:

(قَدِ ٱسْتَطْعَمُوكُمُ الْقِتَالَ، فَأَقِرُّوا عَلَىٰ مَذَلَّةٍ، وَ تَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ، أَوْ رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ الْمَاءِ، فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ، وَ الْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ. أَلاٰ وَ إِنَّ مُعَاوِيَة قَادَ لُمَةً مِنَ الْغُوَاةِ، وَ عَمَّسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ، حَتَّىٰ جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَنِيَّةِ).

اللُّغَة:

ٱسْتَطْعَمُوكُمُ الْقِتَالَ: طَلَبُوه مِنْكُم. وُلمَةً ـ بضَم اللاَّم، وفَتح المِيم مَع التّخفيف ـ جمَاعَة قلَيْلَة. وَعَمَّسَ: أخْفَىٰ، وتجَاهل. ولأَغْرَاض: الأهدَاف.

الإِعْرَاب:

ٱسْتَطْعَمُوكُمُ أي ٱسْتَطعمُوا مِنْكم، والْقِتَال مَفْعُول، وتَرْوَوْا مجزوم جوَاباً لـ (قِرُّوا)، والْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مُبْتَدأ، وخَبَر، ومَقْهُورِينَ حَال من ضَمِير المُخَاطِبِين،

ومِثله وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ. وأَلاَ أَدَاة تَنْبيه.

الْمَعْنَىٰ:

سَار مُعَاوِيَة بجَيْشَه حَتَّىٰ ٱنْتَهىٰ إلَىٰ صِفِّين، فعَسكر عَلَىٰ شَرِيعَة الفُرات، وأقبَل جَيش الإمَام، ونَزَل بإزَاء أَهْل الشَّام، فَمنعُوهم من الْمَاء، وأرسَل الإِمَام سُفرَاءه إلَىٰ مُعَاوِيَة يَطْلُبُون إلَيْهِ أنْ يُخلي الْمَاء حِرّاً للجَمِيع، فأصَّر عَلَىٰ الإمتنَاع، وَقَالَ لهُ ٱبن العَاص: إنَّ عَلِيّاً لنْ يَظمأ، وأنْتَ رَيَّان، فأعَرض، ونَأىٰ، وبَعد الْيَأْس قَالَ الإمَام لأصحَابه: (قَدِ ٱسْتَطْعَمُوكُمُ الْقِتَالَ) أي أنّ مُعَاوِيَة، وجَيْشَه يَطْلُبُونَكم للقتَال، فَتهيَأوا لهُ إلّا (فَأَقِرُّوا عَلَىٰ مَذَلَّةٍ، وَ تَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ). إذَا لَم تُجَاهدوا بأروَاحكم فَقَد تنَازلتُم عَن كرَامتكُم، وٱعترَفتُم بالذُّلِّ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ.

(أَوْ رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ، تَرْوَوْا مِنَ الْمَاءِ). لقَد أبَىٰ عَدُوّكم إلّا أنْ يُميتكم عَطشاً، أو تَأخذ السُّيُوف من دَمه مأخَذها، وإذَنْ هُو الَّذي أبَاح لكُم دَمه (فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ، وَ الْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ). فَرق بَعِيد بَيْنَ أنْ تَعِيش مَع وَحش كَاسر لا يَرضِيه إلّا ٱرغَامك، وإذلاَلك، وبَيْنَ أنْ تَمُوت قاهراً لِهَذَا الوَحش فِي سَبِيل كرَامتك... إنَّ موْتك هَذَا هُو ٱلْحَيَاة، وحَياتك تِلك هِي ٱلْمَوْت بالذّات... وَلاَ أعرف صُورة لكَرَامة ٱلإِنْسَان أَكْثَر إشرَاقاً من هَذِه الصّورة: «الْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ» قَهر المَذلة، والرّق، والْغَلَبَة (وَ الْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ) لأعدىٰ أعدَائكم، وأَعْدَاء الله، وٱلإِنْسَانية... أَبَداً لا فرَج، وَلاَ كرَامة إلّا بالإستمَاتة لرَدع الطُّغاة العُتَاة.

(أَلاَ وَ إِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَةً مِنَ الْغُوَاةِ، وَ عَمَّسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ). كَانَ يَنشر قَميص

عُثْمان، ويَتظلم للْحقّ، والْعَدْل كَذِباً، ونِفَاقاً، وصدَّقه أَهْل الشّام (حَتَّىٰ جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَنِيَّةِ) وقَتلوا أنْفسهم لأجل مُعَاوِيَة، وبِدعه، ومُفترِيَاته.

وبَعد هَذِه ٱلْخُطْبَة، أو هَذَا التّحرِيض مَال جَيش الإِمَام عَلَىٰ أعدَائهم، وأضطرُوهم إِلَىٰ ترك الشَّرِيعَة، فَسِيطر عَلَيْهَا الإِمَام، وأَلَحَّ عَلَيْهِ جمَاعَة من أَصْحَابِه أنْ يَمنع مُعَاوِيَة من الْمَاء كَمَا مَنعه، فأَبىٰ، وَقَالَ: «لا أَفْعَل ما فَعله الجَاهِلُون!! سَنعرض عَلَيْهِمْ كتَاب الله، ونَدعُوهم إِلىٰ ٱلْهُدَىٰ، فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ»[1].

(١) أنظر، مِنْهَاج الْبَرَاعَة: ٣١٠/٤، شَرْح المُخْتَار: ٤٦، وَقْعَة صِفِّين: ٥٣٩، الْفُصُول الْمُهِمَة لِابْن الصَّبَاغ الْمَالِكي، بتحقيقنا: ٤٤٧/١ و٤٩٧. ولكن الشّيخ ﷺ أورد ذَلِكَ بلفظ: «إِنَّ الله سُبْحَانَهُ أجرىٰ هَذَا الْمَاء ليشرب مِنْهُ الجَمِيع، لا ليَستأثر بِهِ فَرِيق دُونَ فَرِيق».

الخطبة

- ٥٢ -

أَزْمِعُوا الرَّحِيلَ... فِقْرَة ١ - ٣:

(أَلاَ وَ إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ، وَ آذَنَتْ بِانْقِضَاءٍ، وَ تَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا، وَ أَدْبَرَتْ حَذَّاءَ، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا، وَ تَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا، وَ قَدْ أَمَرَّ فِيْهَا مَاكَانَ حُلْواً، وَ كَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْواً، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الْإِدَاوَةِ، أَوْ جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ، لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعْ. فَأَزْمِعُوا عِبَادَ اللهِ الرَّحِيلَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَىٰ أَهْلِهَا الزَّوَالُ، وَ لاَ يَغْلِبَنَّكُمْ فِيْهَا الْأَمَلُ، وَ لاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيْهَا الْأَمَدُ[1].

فَوَاللهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوُلَّهِ الْعِجَالِ، وَ دَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمَامِ، وَ جَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِي الرُّهْبَانِ، وَ خَرَجْتُمْ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَ الْأَوْلاَدِ، اِلْتِمَاسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ، أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا كُتُبُهُ، وَ حَفِظَتْهَا رُسُلُهُ، لَكَانَ قَلِيلاً فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ، وَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ[2].

وَ تَاللهِ لَوِ انْمَاثَتْ قُلُوبُكُمْ انْمِيَاثاً، وَ سَالَتْ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ، أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ دَماً، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا، مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةٌ، مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ عَنْكُمْ - وَ لَوْ لَمْ تُبْقُوا

شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ ـ أَنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ، وَ هُدَاهُ إِيَّاكُمْ لِـلْإِيمَانِ[٣]).

اللُّغَة:

تَصَرَّمَتْ: ٱنْقَطعَت، أو فُـنِيت. وَآذَنَتْ: أَعْـلَمت. وَتَـنَكَّرَ: تَـغَيَّر. وحَـذَّاءَ: مُسْرِعَة. وَتَحْدُو: تَسوق، والسَّمَلَةُ: بَقيَّة الْمَاء. والْإِدَاوَة: إِنَاء الْمَاء. والْمَقْلَة: حَصَاة تُوضع فِي الإنَاء لِقسمة الْمَاء بالسَّوية بَيْنَ الأفرَاد إِذَا قلَّ، فَيَصُب الْمَاء حَتَّىٰ يَغمرَها، فَيتنَاول كلّ فَرد مقدَار ما غَمَر الحَصاة. وتَمَزَّزَهَا: رَشفها رَشفَاً خَفِيفاً. الصَّدْيَانُ: العَطشان. ولَمْ يَنْقَعْ: لَمْ يَسكن عَطشه، أو لَمْ يَرو. وأَزْمِعُوا: عَزَمُوا. والْـوُلَّه: جَمـع وَالِه، وَوَلْهَان أي حَزِين. والْعِجَالِ ـ بِكَسر الْعَيْن ـ جَمع العَجول، والوَالِه، والعَجُول من الْإِبِلِ النَّاقة الَّتِي فَقدت ولدَهـا. وهَـدِيلِ الْحَـمَامة: نَـوْحَها. والجُـؤَار: رَفـع الصَّوْت. والمُتَبَتِّلِ: الَّذي ٱنْقَطع للْعِبَادَةِ. وٱنْمَاثَتْ: ذَابَتْ.

الْإِعْرَاب:

حَذَّاءَ حَال مِن ضَمِيرِ الدُّنْيَا فِي أَدْبَرَتْ، وكَسَمَلَةِ الكَاف بِمَعْنَىٰ مِثل صِفَة لسَمَلَة، ومِثلها الكَاف فِي «كَجُرْعَة»، وٱلْتِمَاس مَفْعُول مِن أجْله لخَرَجْتُمْ، واللاَّم فِي لَكَانَ قَلِيلاً وَاقِعة فِي جوَاب لَوْ حَنَنْتُمْ، ورَهْبَة مَفْعُول لأجْله، ودَماً تَمْيِيز ومَا الدُّنْيَا «مَا» مَصْدَرِيَة ظَرفِيَة أي مُدَّة بقَاء الدُّنْيَا، ومَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ جوَاب لو ٱنْمَاثَتْ، وأَنْعُمَهُ مَفْعُول بِهِ لجَزَتْ، والْعِظَامَ صِفَة للأَنْعُمْ، وَهُدَاهُ عَطف عَلَىٰ أَنْعُمَه، والضَّمِير لَهُ جَلّ ذِكره.

المَعْنَىٰ:

(أَلاَ وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ، وَ آذَنَتْ بِانْقِضَاءٍ، وَ تَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا، وَ أَدْبَرَتْ حَذَّاءَ، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا، وَ تَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا). تكرَّر هذَا المَعْنَىٰ مَرَّات، وَيَتلخص بقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[1]. وقَوْله: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾[2]. (وَقَدْ أَمَرَّ فِيْهَا مَاكَانَ حُلْواً، وَكَدِرَ مِنْهَا مَاكَانَ صَفْواً). والمُرَاد بالحُلْو الَّذي صَار مُرّاً، والصَّفْو الَّذي صَار كَدِرَاً ـ أَيَّام الطّفولة، والشَّبَاب، ولحظَات النَّشوة، والفَرح، وفِي المَنَام كلَيْلَة عُرس، أو سَاعة أُنس مَع صدِيق قدِيم، أو مُحدث لَبْق حَوْلَ المُوقدة فِي لَيْلَة عَاصِفة، أو نَظرة إلَىٰ انعكَاس الأضواء عَلَىٰ المَاء، أو إلَىٰ صُورة نَاطقة، أو جنّة ضَاحِكة، أو مُتعة بقرَاءة كتَاب يُحدثك عَن الأخطَاء فِي تَفكِيرك أنْتَ لا فِي تَفكِير أَفْلاَطُون، وأَرِسْطو[3]... إلَىٰ كَثِير من هَذِه الطَّيِّبَات العَابرَات... ولَكِنَّهُ لا تُوقظ إحسَاسنا بِلَذة الْحَياة حَتَّىٰ يَصطدم بألف أَلَمٍ، وَأَلَم.

(فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إلاَّ سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الإِدَاوَةِ، أَوْ جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ). وَمِثله: «فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ»[4] (لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعْ). لو ارتَشف الظّمآن البَقية مِن المَاء لو يَرتو، وكَذَلِكَ عُمر الإِنْسَان وإنْ طَال، وانْتَهب فِيهِ جَمِيع

(١) النّسَاء: ٧٧.

(٢) الحَدِيد: ٢٠.

(٣) هُو فيلسوف يوناني، ومربي الإسكَنْدَر، ومؤسس فَلسَفَة المشائين، أثر في الفِكْر العَرَبِي بعد أنْ تُرجمة كُتبه كالمقولات، والجدل، والخطابة، وَالسِّيَاسَة إلىٰ اللُّغَة العَرَبية.

(٤) أنظر، نَهج البَلاَغَة: الخُطْبَةُ ٤٢.

المَلَذات فَما هُو بشيء إلّا إذا كَانَ وَسيلة للنَّجاة: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[1]، وَتَكشف فِيهِ الأَسرار (فَأَزْمِعُوا عِبَادَ اللهِ الرَّحِيلَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَىٰ أَهْلِهَا الزَّوَالُ). أي آعزمُوا مِن الآن عَلَىٰ السّفر إِلَىٰ الْآخِرَة بزَادٍ كَافٍ، وَافٍ (وَ لاَ يَغْلِبَنَّكُمْ فِيْهَا الْأَمَلُ). فإِنَّه يُسْهِي ٱلعَقْل، ويُنْسِي الْآخِرَة (وَ لاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيْهَا الْأَمَدُ). لأنّ كُلُّ آتٍ قَرِيبٌ... ومن حِكَم الإِمَام: «نَفَسُ ٱلْمَرْءِ خُطَاهُ إِلَىٰ أَجَلِهِ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ»[2]. وهَذِهِ الحِكَم، وأمثَالها ذائِعة شَائِعة، ولكِنَّهُ لا تُحرك النَّفس إِلَىٰ شيء ـ فِي الغَالب ـ سوىٰ خَلجَة، أو صورة تَمرّ بٱلـقَلْب، أو الْـفِكْر، ثُم يَنْتَهي كلّ شيء... أجْل، هِي حُجّة ظَاهرة، لا تَدع لمُقصرٍ من عُذر.

لِلمِنْبَرِ ـ فِي البَذْلِ، والشُّعُور بالمُطْلَق:

(فَوَاللهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوُلَّهِ الْعِجَالِ، وَ دَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمَامِ، وَ جَأَرْتُمْ جُـؤَارَ مُتَبَتِّلِي الرُّهْبَانِ، وَ خَرَجْتُمْ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَ الْأَوْلاَدِ، ٱلْتِمَاسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِي آرْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ، أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا كُتُبُهُ، وَ حَفِظَتْهَا رُسُلُهُ، لَكَانَ قَلِيلاً فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ، وَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ). لو أنّ رَجُلاً يَملك آفَاق ٱلأَرْض، والسَّمَاء، وَأَصَابه أَلم لا يَصبر عَلَيْهِ يُلازمه فِي لَيلِهِ، ونَهاره، ولم يَجد لتَّسكِـينه، أو تَخفيفه حِيلة، لو حَدث هَذَا لسَّخت نَفْسه بكلّ ما يَملك مِن أجْل شفَائه، وخَلاصه حَتَّىٰ ولو كَانَ أَشَّح خَلق الله، وعَاش فَقيراً مُعدماً عَن طِيب قَلب... وإنْ ٱنسَدت السُّبل فِي وَجهه ٱنْتَحر، وٱستَرَاح بٱلْمَوْت مِن أَلمه، كَما حَدث لكثِيرِين، وإذَنْ فَمَا

(١) إبْرَاهِيم: ٤٢.
(٢) أنظر، نَهج ٱلبَلاَغَة: ١٦/٤ ٱلحِكْمَة (٧٤و ٧٥).

بَال من يُؤْمِن بِلقَاء ربّه، وَعِقابه لا يَفتدي نَفْسه بكلّ عزيز، ويَتقِي هَول جَهَنَّم، وعذَابها، وأدنىٰ شَيء مِنْهُ أشدُّ، وأقسىٰ من آلاَم الدُّنْيَا مُجْتَمعة؟ إنَّ أنْعُم الحَيَاة الفَانِية لا تُقَاس باليَسِير اليَسِير مِن ثوَاب الله، وَلاَ آلاَمها تُقَاس بالقَلِيل الخَفِيف من عذَابه؟. ما بَال هَذَا المُؤْمِن يَحرص عَلَىٰ دُنْيَاه مَع عِلمه، وَيَقِينه بأنّه يَترك ما جَمع للوَارث، والحَوَادِث؟.

هَذَا، إلَىٰ أنّ الله سُبْحَانَهُ كَلَّف يَسِيراً، وأعْطَىٰ عَلَىٰ القَلِيل كَثِيراً، ومَا أمرَ أنْ يَخرج الإنْسَان مِن جَمِيع ما مَلك، وجَمع: ثُمّ يَتَكَفف النَّاسَ، وَيَصِير عَالة عَلَيْهِمْ، كلاَّ بل أمَرَه بالْعَمَل لدُنْيَاه، وآخرَته، وأنْ لا يَبغي فِي الأَرْض فسَاداً، فَلا يَغدر، وَلاَ يَمكر، وَلاَ يَظلم، وَلاَ يَحتَال، وأنْ يتعَاوَن مَع أي إنْسَان يَحْتَاج إلَىٰ عَونه، وخَير عِند الله سُبْحَانَهُ مِن بَذل الملاَيين أنْ نُهيء للمُحتَاجِين أعمَالاً تُناسب كفَاءاتهم حَتَّىٰ يَشعرُوا بِقِيمَتهم، وَلاَ يحسوا بأنّهم عَالة عَلَىٰ أحدٍ.

وَقَد تنَازل أفرَاد عَن جَمِيع ما يَملكُون فِي سَبِيل الله فَنهَاهُم النَّبِيّ، وزَجَرهُم... جَاء إلَيْهِ رَجُل بِمثل البيضَة من ذَهب، وَقَالَ له: «يا رَسُول الله! خُذها صَدقة، فوَالله لا أملك غَيْرها، فأعرَض النَّبِيّ ﷺ عَنه، ثُمّ أتَاه من بَيْنَ يدِيه أعاد القَوْل، فَقَالَ لهُ النَّبِيّ ﷺ: هَاتِها مُغضباً، فأخَذها مِنْهُ، ثُم حَذفه بها، وَقَالَ يأتِيني أحدكُم بمَاله، وَلاَ يَملك غَيْره، ويَجلس يَتَكفف النَّاس، إنّمَا الصَّدَقة عَن غِنىً، خُذها لا حَاجَة لنا فِيْهَا»[1].

(وَ تَاللهِ لَوِ انْمَاثَتْ قُلُوبُكُمُ انْمِيَاثاً، وَ سَالَتْ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إلَيْهِ، أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ

(١) أنظر، المُسْتَدرَك عَلَىٰ الصَّحِيحين: ١/٥٤٤، سُنَن أبي داود: ١/٣٨٩، سُنَن الدَّارمِي: ١/٣٩١، مُسْنَد أبي يعلىٰ: ٤/٦٥ ح ٢٠٨٤، صَحِيح ابن خُزَيْمَة: ٤/٩٨، تَاريخ دِمَشق: ٥/٣٣.

دَماً، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا، مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةٌ، مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ عَنْكُمْ، وَ لَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ أَنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ، وَ هُدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ) أي لو أنّ إنساناً عَاش فِي عُمَرَ الدُّنْيَا مِن بدَايتها إِلَىٰ نهَايتها، وآنقطع إِلَىٰ الله وحدَه، وعَبْدَه حَتَّىٰ ذَاب قَلْبه ذوبَان المِلح فِي المَاء، وسَالت عِينَاه دِماءً لا دمُوعاً، وما أبقىٰ لدِيه من جُهد رَغبَة فِي ثوَاب الله، ورَهْبَة من عقَابه، لو وُجد هَذَا العَابد ما كَانَتْ عِبَادته بكَمِّها، وكِيفها تعدل شَيْئاً مِن نِعم الله، وهدَايته للإِيمَان.

ونَتَسَاءل: مِن أي نَوْع هَذَا الإحسَاس بِعَظمة الخَالِق، وآفضَاله؟ وبأي شيء يَحد؟ وما هُو أصْله، ومَصْدَره؟ أَمَّا أنا فالَّذي أتصَوره إِنَّ إحسَاس عليّ بِعَظمة الله لاَ حدّ لهُ، والسّر وَاضح ـ فِيما أعتَقد ـ وهُو أنّه إحسَاس طِبق الأصل عَن الكَمَال المُطلق، وَإذَا لم يَكُنْ للأصل حدّ فصُورته كَذَلِكَ... إنْ كَانَ للمُطلق صُورة ولو فِي عَالم الشُّعُور، والتّصور... أَمَّا مَصْدَره فما هُو مِن نَوْع التّفكِير، لأنّ التّفكِير، والتّأمل مِن شُؤُون ٱلْعَقْل، وٱلْعَقْل لا يُدرك المُطلق لأنّ ٱلْعَقْل مَحْدُود، وإنّما هُو ـ أي إحسَاس عليّ بِعَظمة الله ـ مِنحة خَاصَّة من خَالق ٱلْعَقْل لا مِن غَيْره: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

(١) ٱلْمَائِدَة: ٥٤.

الخطبة

ـ ٥٣ ـ

الأُضْحِيَّة:

(وَ مِنْ تَمَامِ الأُضْحِيَّةِ ٱسْتِشْرَافُ أُذُنِهَا، وَ سَلاَمَةُ عَيْنِهَا، فَإِذَا سَلِمَتِ الأُذُنُ، وَالْعَيْنُ سَلِمَتِ الأُضْحِيَّةُ، وَ تَمَّتْ، وَ لَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ الْقَرْنِ تَجُرُّ رِجْلَهَا إِلَىٰ الْمَنْسَكِ).

اللُّغَة:

الأُضْحِيَّة: شَاة ونحوها من ٱلأَنْعَام يُضحي بها. والشّاة العَضْبَاء: مكسُورَة ٱلْقَرْن، والْمُرَاد بالْمَنْسَكِ هُنا المَذْبَح.

الْمَعْنَىٰ:

الأُضْحِيَّة وَاجِبة، ومُسْتَحبة، ويَشترط فِي الوَاجبة أَنْ تكُون تَامة الخَلقة، فقَد رَوىٰ الْإِمَام البَاقرعليه السلام عَن جدّه رَسُول الله صلى الله عليه وآله أنّه قَالَ: «لا تُضَحي بالعَرجَاء، ولاَ

بالعَجفَاء، وَلاَ بالخَرقَاء، وَلاَ بالجَذَّاء، وَلاَ بالعَضبَاء»[١]. والمُرَاد بالعَجفَاء الهزِيلة، وبالخَرقَاء الَّتي لا أُذن لهَا، أو مخرُوقة الأُذن، وبالجَذَّاء مقطوعتها، وبالعَضبَاء مكسُورَة ٱلقَرْن.

وأَسْبَاب الوجُوب أَرْبَعَة:

١ ـ حَجّ التّمتع قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾[٢].

٢ ـ إِذَا حَلق المُحَرِّم رَأسَه لضَرورة فَعَليهِ كُفَّارة مُخيراً بَيْنَ صِيام ثَلاَثة أَيَّام، أو إطعَام سِتة مَساكِين، أو التّضحِية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[٣] والمُرَاد بالنُّسك هُنا الأُضْحِيَّة.

٣ ـ إِذَا ٱصطَاد المُحَرِّم فَعلِيه مِثل ما قَتل مِن النِّعَم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾[٤].

٤ ـ هَدي الحَصر قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾[٥]. والمُرَاد بالإحصَار هُنا الحَبس أي إِذَا أَحرَمتم للحَجّ، أو العُمرَة، ثُم مَنْعَكم مَانِع من إكمَال العِبَادَة عَلَىٰ وَجهها الشّرعي مِن مَرضٍ، أو عَدُوّ، وما إِلَيْهِ فعَلَيْكُمْ أَنْ تَذبحُوا مَا تَيسَّر.

(١) أُنظر، مُنْتَهىٰ المطلب: ٢/٧٤٠، الحَدَائِق النّاضرة: ١٧/٩٢، سُنن التِّرمِذي: ٤/٨٥ ح ١٤٩٧، تُحْفَة الأَحْوَذي: ٥/٦٧، علل التِّرمِذي للقاضي: ١/٢٦٤ ح ٤٤٦.

(٢) ٱلْبَقَرَة: ١٩٦.

(٣) ٱلْبَقَرَة: ١٩٦.

(٤) ٱلْمَائِدَة: ٩٥.

(٥) ٱلْبَقَرَة: ١٩٦.

ولاَ يُشترط فِي الأُضْحِيَّة المُستَحبة ما يُشتَرط فِي الوَاجِبة، وأَيَّام الأُضْحِيَّة المُستَحبة أَرْبَعَة لِمَن كَانَ فِي مِنىٰ: يَوْم العِيد، والأَيَّام الثّلاثة الَّتي تَلِيه، وتُسمىٰ بأَيَّام التَّشرِيق، ولِمَن كَانَ فِي غَيْر مِنىٰ يَوْم العِيد، والحَادي عَشر، والثَّانِي عَشر، وأفضَل سَاعَات الأُضْحِيَّة من يَوْم الأَضْحَىٰ بَعد طلُوع ٱلشَّمْس.

وتَمَام الكَلاَم عَن الأُضْحِيَّة فِي كُتب الفِقْه، والظَّاهِر أنّ كَلاَم الإمَامِ ﷺ هُنا يَختَص بالأُضْحِيَّة المُستَحَبة[1].

---

(١) قَالَ المَالِكية، والحَنَفِيَّة: إنَّ الأُضْحِيَّة واجبة عَلَىٰ كلّ أَهْل بَيْت فِي كلّ عام كما هِي الحال بالقِياس إِلىٰ زكاة الفطر.

وَقَالَ الإمَامِيَّة، والشّافعية: إنَّ أَيَّام الأُضْحِيَّة المستحبة فِي منىٰ أَرْبَعَة: يَوْم العيد، والثّلاثة الَّتي تـليه، وَهِي أَيَّام التّشريق، أَمَّا فِي غَيْر منىٰ فأَيَّام الأُضْحِيَّة ثلاثة فقط: يَوْم العيد، والحادي عشر، والثَّاني عشر.

وَقَالَ المَالِكية، والحنابلة، والحَنَفِيَّة: إنَّ أَيَّامها ثلاثة فِي مِنىٰ، وغَيْر مِنىٰ.

ومهما يكن، فإنّ أفضل أوقاتها يَوْم الأضحىٰ بعد طلوع ٱلشَّمْس، ومضي مـا يـتسع لصَـلاة العـيد والخطبتين. أُنظر، بداية المُجْتَهِد: ٤٢٩/١، الأستذكار: ١٥ و ١٥٥، حـلية الْعُلَمَاء: ٣٦٩/٣، المَبْسُوط للسَّرْخَسِي: ٨/١٢، ٣٦٩/٣، المُغْنِي: ٩٥/١١، التّذكرة: ٣٠٥/٨، من لا يحضره الْفَقِيه: ١٩١/٢، جامع المقاصد: ٢٥٣/٣، المَجْمُوع: ٣٩٠/٨، فتح العزيز: ٨٩/٨، مختصر المزني: ٧٣، الوجيز: ١٣٢/١.

والدِّمَاء الواجبة بنص ٱلقُرْآن ٱلكَرِيم أَرْبَعَة:

(١) دمَ التمتع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾. ٱلبَقَرَة: ١٩٦.

(٢) دم الحلق، وهُو مخير، قَالَ عزّ من قائل: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖ﴾. ٱلبَقَرَة: ١٩٦.

(٣) هدي ٱلجَزَاء، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾. ٱلمَائِدَة: ٩٥.

(٤) وهدي الحصار، قَالَ عزَّ شأنه: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾. ٱلبَقَرَة: ١٩٦.

ويضاف إلىٰ هَذِه الأَرْبَعَة ما وَجَبَ بالعهد، أو النّذر، أو اليَمِين. أُنظر، التّذكرة: ٢٨٥/٨، بدائع الصّنائع: ٦٢/٥ و: ٣٧٢/٧، المُغْنِي: ٣: ٥٨٠، الشّرح الكَبِير: ٥٦٨/٣.

الخطبة

- ٥٤ -

لاَ يَسَعُنِي إلاَّ قِتَالُهُمْ:

(فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا، وَ قَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيهَا، وَ خُلِعَتْ مَثَانِيهَا، حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِيَّ، أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ. وَ قَدْ قَلَّبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّىٰ مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إلاَّ قِتَالُهُمْ، أَوِ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّد ﷺ، فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ، وَ مَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الْآخِرَةِ).

اللُّغة:

تَدَاكُّوا: تَزَاحمُوا. والإِبِلِ الْهِيمِ: العُطاش. ومَثَانِي: جمع مَثنَاة، وَهِي ما يُعقل بِهِ البَعير.

الْإعْرَاب:

يَوْمَ وِرْدِهَا مُتَعَلِّق بمَحْذُوف حَالاً مِن الإبِلِ، ويَجُوز أنْ يَتعَلق بتَدَاكَّ عَلَىٰ مَعْنَىٰ

متَدَاكّة، أو بَعْضهم بالنَّصب عَطفاً عَلَىٰ ٱسم إنَّ، وبَطْنَهُ وَظَهْرَهُ بَدل ٱشتمال من الأَمْر، والنَّوْمَ مَنْصُوب بِنَزع الخَافض أي مِن النَّوْم، واليَاء فِي وَجَدْتُنِي مَفْعُول أَوَّل، وجُملة يَسَعُنِي مَفْعُول ثانٍ.

لِلمِنْبَرِ ـ حَوْلَ ٱلْبَيعة لِلْإمَامِ:

كَانَ عُلَمَاء ٱلْمُسْلِمِين، ومَا زَالوا يُقِيسُون جوَاز ٱلْعَمَل بالْحَدِيث، أو عَدم جوَازه بشهَادة المُطلِعِين عَلَىٰ أحوَال الرّاوي فِي عَصره، فإنْ شَهدوا بِصدقه، وتَثبته فِي النّقل أَخَذُوا بِهِ، وٱعْتَمدوا عَلَيْهِ، وإلّا أهملوه سوَاء أكَانَ الرّاوي مجهولاً، أم مَعروفاً بالْكَذِب... ثُم ظَهرت نظرِية جَدِيدة ـ عِند غَيْرنا نَحْنُ الشّرقِين ـ تَقول: إنَّ صِحَة النّقل لا تُقاس بِمَا قِيل فِي حقّ الرّاوي فَقط، بل لا بُد أيضاً أنْ نَدرس، ونَعرف ميُوله، وأهدَافه: هل كَانَ من قَصده أنْ يُبين للنَّاس مكَانته عِند من يَنقل عَنْه، وقُربه مِنْهُ، وإنّه كَانَ يَخصه بالْحَدِيث أَكْثَر مِن غَيْره؟ وهل كَانَ يَهدف من النّقل تأيِيد جِهة خَاصَّة، وسِيَاسة مُعينَة؟. وبكَلِمَة: هل كَانَ بِنَقله يَجر ٱلنَّار إلَىٰ قُرصه؟. فإنْ كَانَ شيء مِن هَذَا فَنَقله لَيْسَ بِحُجّة، وإنْ شَهد بِحقّه العشرَات، ومِثله قَول الْفُقَهَاء فِي بَاب الشّهادات: لا تُقبل شهَادة مَن تَجلب له نَفعاً، أو تَدفع عَنْه ضُرّاً.

وأيضاً كَانَ عُلَمَاء ٱلْمُسْلِمِين، ومَا زَالوا يَسْتَدلون فِي كُتب الفَضَائِل، والمنَاقب عَلَىٰ عَظَمة من يُعظمُون، ويُقدسُون، يَستَدلون بِمَا نَزل فِيهِ من الآيَاتِ، وجَاء من الرِّوَايَات، ثُمَّ ظَهرت نَظرِية جَدِيدة تَقول: إنَّ الْعَظِيم هُو الَّذي يَعِيش للنَّاس لا لنَفْسِه، ويَهتم بِمطَالبهم، ويُمثل أمانِيهم، ويَعمل من أجْلهم، لا مَا قِيل عَنْه، ويُقَال

... أجَل، إنَّ فِي الآيَاتِ إنعكَاساً لأعمَال الْعَظِيم، وجِهَاده، ولكنْ لا بُدَّ قَبل كلّ شَيء من بَيَان السّبب الأوَّل، والمُباشر لِعَظمة الْعَظِيم، وإنّه أَمل الملاَيين، وإنّه من أجْل هَذَا نَزل فِيهِ مَا نَزل، وجَاء ما جَاء.

وكَانَ الملاَيين فِي عَهد الإمَام الّذِين لا حَياة لَهُمْ، وَلاَ كرَامة إلّا فِي ظِل الإخَاء، والعَدَالة، كانُوا يَرون أنّه عليه السلام هُو الَّذي يُحقق لَهُمْ هَذِه الأُمْنِيَة، ويُساوي بَيْنَهُمْ، وبَيْنَ المُترَفِين، والطّامحِين، قَالَ الأُستَاذ أحمَد عَبَّاس صَالح: «كَانَ عَليّ فِي نَظر غَالبية ٱلْمُسْلِمِينَ الرَّجُل الوحِيد الأقرَب إِلَىٰ رُوح ٱلإِسْلاَم، وأُصوله الصّحِيحة»[1]. وإذَنْ فَلا بَدع إِذَا أسرَعوا إِلَيْهِ، وتَسابقوا إِلَىٰ بَيْعَته حِينَ سَنَحت لَهُمْ الْفُرْصَة، وقَد وَصَف الإِمَام عليه السلام ٱندفَاعهم، وتَسابقهم بقَوْله:

(فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الإِبِلِ ٱلْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا). وَلِمَاذَا أسرَع أغلَبية ٱلْمُسْلِمِين إِلَىٰ الإِمَام، وتزَاحمُوا عَلَيْهِ تزَاحُم الإِبِلِ العُطاش عَلَىٰ المَاء ليبَايعُوه بِالخِلاَفَةِ حَتَّىٰ ظَنَّ أنَّهم قَاتلِيه، أو بَعضهم قَاتل بَعْض؟ أَلأنّه عَالم تَقي، وشُجاع قَوي، أو لأنّه ٱبن عَمّ الرَّسُول، وزوّج البَتول؟ كلاَّ، لا هَذَا، وَلاَ ذَاكَ، بل لأنّه لَهُمْ، ولدِينهم، وَدُنياهم، وإنَّ الذَّلِيل عِنده عزِيز حَتَّىٰ يَأخذ الْحَقّ لهُ، والْقَوِيّ عِنده ضَعِيف حَتَّىٰ يأخُذ الْحَقّ مِنْهُ، وإنَّ النَّاس فِي إيمَانه، وعَقِيدته كلّهم عيَال الله، وإنَّ ٱلْمَال مَال الله يوزَع بالسّوية بَيْنَ عيَاله. وأشرنَا فِيما تَقَدَّم إِلَىٰ قَوْله عليه السلام: «إنَّ آدَمَ لَمْ يَلد عَبْداً، وَلاَ أَمة، إنَّ النَّاس كُلّهم أحرَار»[2]. وفِي ذَات يَوْم جَاءته ٱمرَأتَان تَشْكوَان فَقرهُما، فأعطَاهُما، ولكنْ

---

(١) أنظر، مجلة «الكاتب» المِصْرية عدد آذار ١٩٦٥م. (مِنْهُ رحمه الله).

(٢) أُنظر، روضة الكَافِي للشيخ الكليني: ١/١٢٤، المطبعة الإسْلاَميّة بطهران، سَنَة ١٣٨٢ هـ (مِنْهُ رحمه الله)، و: ٨/٦٩ ح ٢٦، شَرْح أُصول الكَافِي: ١١/٤٢٤، وَسَائِل الشّيعة: ١١/٨٢.

إحدَاهما سَألته أنْ يزيدها، ويُفضلها عَلَىٰ صَاحبتها، لِأَنَّهَا هِي عَربية، وصَاحبتها مِن المَوَالي، فأخَذ قَبْضَة من تُراب، ونَظر فِيهِ وَقَالَ: «إِنّي نَظَرْتُ فِي كتَاب الله فَلم أجْد فضَلاً لولد إِسْمَاعِيلَ عَلَىٰ وِلد إِسْحَق، وَلاَ أعْلَم أنّ الله فَضل أحداً من النَّاس عَلَىٰ أحدٍ إلّا بالطَّاعَة، والتَّقْوَىٰ»[١].

وَقَد يَنْخَدع النَّاس مِن غَيْر وَعي بمدَاحٍ لا سَابقة، وَلاَ مَنْقبة لهُ عَلَىٰ الْإِطـلاَق سِوىٰ أنّه يتَكَلَّم بإِصلاح المُجْتَمع، ويَتَستر وَرَاء هَذَا الشّعار، أَمَّا إِيمَان الملاَيين بمَن سَبقَتْ لهُ الحُسنىٰ فِي جَمِيع موَاقفه مُنذ يَوْمِه الْأَوَّل وإِلَىٰ آخـر يـوْم، وآثـر حَـيَاة البَسَاطة مَع ضَعفَة النَّاس، ورَفض كلّ آمتِياز عَنْهم كالإِمَامِ‌عليه‌السلام. أمَا إِيمَان الملاَيين هَذَا فيَسْتَحِيل أنْ يَكُون وَهماً، وجَهلاً... إِنّه إِيمَان الوَعي، والعِلْم بِالْحَقّ، وأهْله.

(وَ قَدْ قَلَّبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ، وَظَهْرَهُ حَتَّىٰ مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إِلاَّ قِتَالُهُمْ، أَوِ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ‌صلى‌الله‌عليه‌وآله) تَقدَّم مِثله «فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ ٱلْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ»[٢]. يُريد أنّه لو تَرك قتَال النَّاكِثِينَ، والْمَارِقِينَ، والْقَاسِطِينَ لكَان مَسؤولاً أمَام الله، ومُعَاقباً بعذَابه عَلَىٰ التَّرك، ولَيْسَ من شَكٍّ أنّ الْقِتَال شرّ، ولكنَّ المَسْئُول هُو مَن أثَار الشَّرّ، وفَتح بَابه. ومَاذَا يَصنع الْإِمَام، وغَيْر الْإِمَام إِذَا لم يَجِـد وَسِـيلة لِـلْقَضَاء عَـلَىٰ الـعُنْف إلّا الـعُنْف؟. قَـالَ تَـعَالَىٰ: ﴿فَـإِن قَـتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾[٣]. وَقَالَ: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ

(١) تَقَدَّم إستخراجه. بالإضافة إِلىٰ كتاب الإِمَام جعفر بن مُحَمَّد الصَادق للجندي: ٣١٣.

(٢) أُنظر، ٱلخُطْبَة ٤٣، وقد تَقدّم شرحها.

(٣) ٱلْبَقَرَة: ١٩١.

فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١]. وفِي آية ثَانِيَة مِن هَذِه السُّورَة: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[٢]. وَقَالَ: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[٣]. (وَ مَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الآخِرَةِ). أي أنّ آلام الدُّنْيا مَهما قَست فَهِيَ أَيْسَر بِكَثِير مِن آلام جَهَنَّم، وعذَابها. ومِن البدَاهة أنّ الضّرر الأشد يُدفع بالضَّرر الأخَف.

---

(١) الْأَنفَالِ: ٣٩.

(٢) الْأَنفَالِ: ٧٣.

(٣) الْبَقَرَة: ١٩١.

الخطبة
-٥٥-

دَخَلَ إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ أَو خَرَجَ إِلَيْهِ:

(أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَكُلَّ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ؟ فَوَ للهِ مَا أُبَالِي دَخَلْتُ إِلَىٰ الْمَوْتِ، أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ. وَ أَمَّا قَوْلُكُمْ شَكّاً فِي أَهْلِ الشَّامِ! فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلاَّ وَ أَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَ تَعْشُوَ إِلَىٰ ضَوْئِي، وَ ذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَىٰ ضَلاَلِهَا، وَ إِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا).

اللُّغَة:

الْمُرَاد بتَعْشُو هُنا تَقْصد، لأنّ مَن رَأَىٰ ضَوءاً، ولَو بِنَظر ضَعِيف فرُبَّمَا قَصده مُهتَدياً بِهِ، وتَبُوءُ: تَرْجَع.

الإِعْرَاب:

أَكُلَّ ذَلِكَ «كُلَّ» يَجُوز نَصبهَا بِفعل مَحْذُوف أي أَتَفْعل كُلّ ذَلِكَ، ويَجُوز رَفعها الابْتِدَاء، والْخَبَر مَحْذُوف أي كَائن مِنك، وكَرَاهِيَةَ مَفْعُول مِن أجْله للفِعل، أو

للخَبَرِ المَحْذُوف، وَأَمَّا قَوْلُكُمْ فَمُبْتَدَأ، والْخَبَر مَحْذُوف أي أتأخر عَن الْقِتَال. والْمَصْدَر مِن أَنْ تَلْحَقَ مَنْصُوب بِنَزْعِ الخَافِض المَحْذُوف.

الْمَعْنَىٰ:

كَانَ مِن دَأْب الإِمَامِ عليه السلام أنْ لا يَتعَجل الْحَرْب حَتَّىٰ ولو ٱلْتَقىٰ الجَمْعَان... وقَد كَانَ خُصومه يَنْضحُون جَيْشَه بالنَّبل، فَيحتَمل، ويَصْبر، ويأمر أَصْحَابِه بالصّبر، قَالَ ٱبن أبي ٱلْحَدِيد، وغَيْره مِن الشَّارحِين: إِنَّ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِين عليه السلام بَعدما مَلك الْمَاء عَلَىٰ أَصْحَاب مُعَاوِيَة فِي صِفِّين، وسقَاهم منهُ مَكث أَيَّاماً لا يَأمر بالْحَرْب، ولمَّا سَئِم أَصْحَاب الإِمَام الانْتِظَار، والمطَاولة قَالَ لهُ ٱلْبعض: يَقولُون: إنّك تَكره الْحَرْب كرَاهية ٱلْمَوْت، أو إنّك فِي شَكٍّ مِن قتَال أَهْل الشّام[1]، فَقَالَ:

(**أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَكُلَّ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ؟ فَوَ اللهِ مَا أُبَالِي دَخَلْتُ إِلَىٰ الْمَوْتِ، أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ**). عَليّ يَكْرَه ٱلْمَوْت؟ وهَل فِي سِيرته مَا يُشعر بِذَلِكَ؟ أَلا تَدل أفعَاله قَبل أَقْوَاله أَنّه آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ؟[2] وهَل لعَليٍّ من أُمْنِيَّة فِي حيَاته غَيْر الاِستِشْهَاد فِي سَبِيل الله، وٱلْحَقّ؟ ومِن أَقْوَاله: «إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لاَ يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلاَ يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ. إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفْسُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَىٰ الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ»[3]! والكُلّ يَعْلمُون إِنَّ كَلاَم الإِمَام هُو نَفْسه بالذَّات حَتَّىٰ كأَنَّه خُلق مِنْهُ،

(١) أُنظر، شَرْح النَّهج ٱلْحَدِيدي: ١٣/٤، شَرْح النَّهج للبحراني: ١٤٤/٢.
(٢) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: جزء من ٱلْخُطْبَة (٥).
(٣) أُنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: من كَلاَم له عليه السلام قاله لأصحابه في ساحة الْحَرْب بصِفِّين رَقم (١٢٣).

أو خُلقَا مَعاً.

(وَ أَمَّا قَوْلُكُمْ شَكّاً فِي أَهْلِ الشَّامِ!). إِنَّ الإِمَام عَلَىٰ يَقِين من ضِلال أَهْل الشَّام، ولكنْ هَذَا لا يَدعُوه إِلَىٰ ٱليَأْس مِنْهُم، فكَم مِن فَرج جَاء بَعد الضّيق؟ وضَالٍ عَرف موَاقع خطَأه، وفَاسد آبَ إِلَىٰ رُشده (فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً ـ أي أخرتها وسَوفتهَا ـ إِلاّ وَ أَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَ تَعْشُوَ إِلَىٰ ضَوْئِي). إِنَّ الْحَرْب وَسِيلة لدَّفع الشَّرّ، ولَيْست غَايَة فِي نَفسها، وإِذَنْ فَعلىٰ المُحَارب أنْ لا يُبادر إِلَيْهَا إلّا بَعد ٱليَأس، والإِمَام لا يُؤخر الْحَرْب لحظَة إلّا مَع ٱلأَمَل فِي أنْ يَهْتَدِي البَعض بنُوره، وضِيَائه، وهَل الرّوِية، والتّثبت فِي الدِّمَاء خَطأ، وجَريمَة؟. ومِن أَقْوَاله: «وَلاَ تَيَأَّسُوا مِنْ مُدْبِرٍ؛ فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَىٰ أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحْدَىٰ قَائِمَتَيْهِ ـ أي رِجليه ـ وَتَثْبُتَ الْأُخْرَىٰ فَتَرْجِعَا حَتَّىٰ تَثْبُتَا جَمِيعاً»[1].

(وَ ذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَىٰ ضَلاَلِهَا، وَ إِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا). ذَلِكَ إِشَارة إِلَىٰ تأخِير الْحَرْب مَع ٱلأَمَل بهدَاية مَن يَهْتَدِي، والْمَعْنَىٰ إِنَّ هَذَا التّأخِير أَحَبّ إِلَىٰ قَلْبه مِن الإِسرَاع إِلَىٰ قَتل الضَّال عَلَىٰ ضَلاله، وإِنْ كَانَ إِثمه عَلَىٰ نَفْسِه لا عَلَىٰ غَيْره... وَهَذَا أشبَه بقَول مَن يَقول: لَئن أُحْسِن الظّن بالْمُسِيء أحَبّ إِليّ من أنْ أُسرع إِلىٰ سُوء الظّن بِه مَع عِلمي بأَنَّ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[2] سوَاء أظنُّ بِهِ خَيرّاً أَم شَرّاً.

(١) أنظر، نَهْج ٱلْبَلاَغَة: ٱلْخُطْبَةُ (١٠٠).

(٢) فصلت: ٤٦.

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٢٧٦٥٧
التاريخ ٥/١٠/٢٠١١